

المركز القومي للترجمة



ذيميتريس س. ستيفانakis

أيام الإسكندرية

ترجمة وتقديم: محمد خليل رشدي

مراجعة: عادل سعيد النحاس



2171

سلسلة
الإبداع
القصص

هذه الرواية تدور أحداثها فى خمسين عاما فى مدينة الإسكندرية العالمية، فى بدايات القرن العشرين؛ حيث ينشأ الصدام بين الحرب والتجارة، وبين السياسة والحب، وبين الاستعمار والوطنية؛ مما ينتج عنه نتائج غير متوقعة.

تتألف الرواية من العديد من الشخصيات التى تنتمى إلى جنسيات مختلفة: أندونيس خاراميس الذى يعيش مع زوجته وولديه بالحي اليونانى الأرستقراطى بالإسكندرية، مقيدا بتقاليد الجالية اليونانية الصارمة، والذى يتمكن من خلال علاقة العمل التى تربطه باللبنانى الغامض إلياس خورى من أن يوقع تعاقدًا مع قيادة الجيش البريطانى بالشرق الأوسط، فى اليوم الذى أعلن فيه قيام الحرب العالمية الأولى، والذى كان له فضل كبير فى تحريره من التزاماته الأخلاقية تجاه أسرته، وبفضل وساطة صديقه خورى تصير له علاقة ناجحة مع الجميلة، ذات الأصول الفرنسية السويسرية، إيفيت شانتون.

أيام الإسكندرية

رواية

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحي

سلسلة الإبداع القصصي
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2171
- أيام الإسكندرية
- ديميتريس س. ستيفاناكيس
- محمد خليل رشدى
- عادل النحاس
- اللغة: اليونانية
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة:

ΜΕΡΕΣ ΑΔΕΞΑΝΔΡΕΙΑΣ

ΔΗΜΗΤΡΗΣ Γ. ΣΤΕΦΑΝΑΚΗΣ

© Editions S. Patakis S.A. & Dimitris Stefanakis

© Editions Viviane Hamy, February 2011 for the revised edition

Arabic Translation © 2013, National Center for Translation

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524

Fax: 27354554

أيام الإسكندرية

رواية

تأليف : ذيميتريس س. ستيفاناكيس
ترجمة وتقديم : محمد خليل رشدي
مراجعة : عادل سعيد النحاس



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ستيفاناكيس، ديميتريس س.
أيام الإسكندرية (رواية) / تأليف: ديميتريس س. ستيفاناكيس،
ترجمة وتقديم: محمد خليل رشدى، مراجعة: عادل سعيد النحاس.
ط ١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣
٦٨٨ ص: ٢٤ سم
١ - القصص اليونانية.
(أ) رشدى، محمد خليل (مترجم ومقدم).
(ب) النحاس، عادل سعيد (مراجع).
(ج) العنوان
٨٨٣

رقم الإيداع ٧٣٠٢ / ٢٠١٢
الترقيم الدولى 1 - 034 - 216 - 977 - 978 - I.S.B.N.
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

7	إهداء
9	شكر وتقدير
13	تقديم المترجم
23	الفصل الأول : لطفاء كالزائرين (لاو تسى)
	الفصل الثانى : كل الأسر السعيدة تتشابه فيما بينها - وكل أسرة تعيسة
235	ليست سوى حالة فريدة ("أنا كارنينا" ليو تولستوى)
	الفصل الثالث : أخطو بثقة السائر أثناء نومه - على الدرب الذى سمته لى
465	العناية الإلهية (هتلر، ١٤ مارس ١٩٣٦)

إهداء

إلى من منحني رحلة العلم في اليونان

إلى من علمني إنسانية الأستاذ

إلى الأستاذ الدكتور/ يحيى عبد الله

شكر وتقدير

أتوجه بالشكر والتقدير للمثقف والقارئ الأستاذ الدكتور. أحمد عبد العزيز جلال - عميد كلية الطب بجامعة الأزهر بأسسيوط - سابقاً، على ما أمدنا به من مراجع مهمة من مكتبته الشخصية، ساعدتنا في التعرف على العديد من أحداث الحياة السياسية والاجتماعية وتطورها في مصر في النصف الأول من القرن العشرين.

كما أتوجه بالشكر والتقدير للأستاذ الدكتور عادل النحاس - أستاذ الأدب اليوناني بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب - جامعة القاهرة، لتفضله بمراجعة هذا العمل حتى وصل إلى هذا القدر من الدقة والإتقان.

وأود أن أتوجه بالتقدير والعرفان لزوجتي، على مساعدتها وتفضلها بترجمة الفقرات المكتوبة باللغة الفرنسية في الرواية، إلى اللغة العربية.

كما أتوجه بالشكر للأستاذ ستيفانوس ستيفانو - رئيس الجالية اليونانية بالسويس وبور توفيق - لاهتمامه الشخصي بهذا العمل، وتقدير ما كنا بحاجة إليه من معلومات عن اليونانيين الذين أقاموا في هذه المنطقة من مصر.

وأخيراً أتوجه بالشكر للسيدة الفاضلة رومانيا ستافرو، على إهدائنا كتابها "كافالا قديماً واليوم" وعلى حديثها الممتع حول مدينة كافالا ومدى العرفان الذي تدين به المدينة لمحمد علي، لما أقامه فيها من مشروعات عكست حبه لكافالا، المدينة التي ولد فيها. كما أتوجه بالشكر للسيدة ماجدة باباثاناسيو، التي تفضلت بمرافقتنا لزيارة منزل محمد علي بمدينة كافالا، ذلك المنزل الذي ولد وعاش فيه واحد من أعظم القادة في العصر الحديث، والذي يعد مؤسساً لنهضة مصر الحديثة، والذي مازالت مصر تدين له بالكثير إلى اليوم.

..... وكل ما هو حقيقي

(يحدث) لمرة واحدة

(وفي) مكان واحد

(من قصيدة: "أربعاء الرماد" لـ ت. س. إليوت)

تقديم المترجم

تأتى رواية أيام الإسكندرية بوصفها محاولة من مؤلفها لرسم ملامح المجتمع المصرى، بوجه عام، ومجتمع الإسكندرية بوجه خاص فى الحقبة الزمنية التى تغطى النصف الأول من القرن العشرين، وتنتهى بالثورة المصرية عام ١٩٥٢ والإطاحة بالملك فاروق، آخر ملوك مصر.

وقد جاء تركيز المؤلف فى رسم ملامح الطبقة الأرستقراطية اليونانية بالإسكندرية، تلك الطبقة التى سكنت القصور وارتادت أرقى الأماكن الخاصة بالجاليات الأوربية، وعلاقة تلك الطبقة بعضها ببعض، وعلاقتها بطبقة أخرى من اليونانيين التى جاورت المصريين البسطاء فى الأحياء الشعبية من جهة، ثم علاقة الجالية اليونانية بالمصريين من جهة أخرى.

فى الرواية ظهرت شخصيات تمثل الطبقة البرجوازية اليونانية مثل أندونيس خاراميس، رجل صناعة الدخان اليونانى الثرى، وأسرته. ثم شخصيات تنتمى لجذور عربية يستفيدون من أوضاع مصر فى تلك الحقبة إبان الاحتلال الإنجليزى لمصر، مثل اللبئانى الأصل الفرنسى الجنسية إلياس خورى، الذى لم يجد حرجاً فى إظهار ولائه للإنجليز من خلال تأسيس أحد بيوت البغاء لخدمة الإنجليز والطبقات الثرية من الأوربيين، وكذلك من الفاسدين من أثرياء مصر وباشاواتها، وقد قام بذلك بالتعاون مع السيدة الفرنسية الجميلة إيفيت شانتون، التى ظل مصيرها مرتبطاً بإلياس خورى حتى النهاية، وكذلك شخصية صمويل عظيمان، ذلك اليهودى الذى كان رمزاً قوياً

لدعم اليهود الأثرياء لقضية تأسيس الدولة اليهودية بفلسطين، وما لعبه من دور مؤثر فى دعم هذه القضية فى تلك المرحلة التاريخية الحرجة من تاريخ مصر والأمة العربية.

كما يقدم المؤلف بعض النماذج من الفئات الفاسدة فى المجتمع المصرى، تلك التى لم تجد حرجاً فى التعامل مع طبقة المستغلين لمصر وشعبها سواء من الإنجليز أم من غيرهم، مثل ضابط الشرطة فريد. فى حين يظهر السواد الأعظم من المصريين فى صورة أناس بسطاء يعملون فى وظائف بسيطة - سائقين، شيالين، خدماً - لتصبح صورتهم عبارة عن أمواج متلاحمة من العمام والجلاليب.

وقد جاء اهتمامنا بترجمة رواية "أيام الإسكندرية" لعدة أسباب، منها؛ تناولها لأهم الجاليات الأجنبية فى مصر، وهى الجالية اليونانية، التى لم يكن المصريون - فى واقع الأمر - ينظرون إلى مواطنيها بالنظرة نفسها التى ينظرون بها إلى مواطني الجاليات الأوربية الأخرى من الإنجليز والفرنسيين أو الإيطاليين وغيرهم، التى كانت فى معزل عن أبناء الشعب المصرى وطبقاته الكادحة، التى كان المصريون ينظرون إليهم باعتبارهم مستغلين لثروات مصر.

كان المصريون يكونون كل الاحترام لليونانيين الذين أقاموا فى مصر، وبخاصة فى الإسكندرية، بل أطلقوا عليهم لقب: *Αιγυπτιώτες* "أيجيبتيوتيس" أو "المصاروة"، وربما يرجع ذلك للامحهم الشخصية التى تتشابه مع ملامح المصريين، وكذلك لوجود العديد من العناصر المشتركة التى كانت ولا تزال تجمع بين المصريين واليونانيين.

كانت البداية الحقيقية لوجود اليونانيين فى مصر فى بدايات القرن العشرين فى فترة حكم محمد على، ثم استمرت على امتداد حكم خلفائه من بعده، وكان المهاجر اليونانى يترك اليونان متوجهاً إلى الأراضى المصرية؛ لكى ينوء بنفسه عن الواقع التركى السائد فى بلاده على أمل أن يجد فى وطنه الجديد، مصر، مستوى معيشة أفضل، وقدرا من الأمان لا يجده فى وطنه الأصلى، اليونان. فقد كانت مصر، التى تقع على مقربة من اليونان، تمتلك ثروات كبيرة غير مستقلة، يحكمها محمد على، الذى ينحدر من مدينة كافالا اليونانية، ويعرف العديد من اليونانيين، بل وتربطه مع بعضهم

علاقات صداقة وروابط طيبة^(١). وبالطبع كان أهل كافالا يهاجرون بشكل خاص إلى مصر، وهم يعلمون أنهم يهاجرون إليها ليقوا تحت حمايته^(٢).

وعلى الرغم من أن اليونانيين بمصر كانوا يعيشون في حال أفضل مما كانوا عليه باليونان، فإن بعضهم كان يواجه ظروفًا غير مواتية، ولم يكن بوسع الجميع الحصول على الثراء المادي. كان الأثرياء من اليونانيين يمثلون القلة، أما الغالبية العظمى منهم فكانوا يعملون من أجل كسب لقمة العيش^(٣)، حتى إن طبقة العمال اليونانيين كانت أحياناً ما تنضم إلى نظيرتها من المصريين في إضراباتهم، مثلما حدث في عام ١٩٠٢، عندما قام عمال شركة الغزل الأهلية بالإسكندرية بالإضراب للمطالبة بتعديل نظام الأجور التي كانت تحتسب بالقطعة، وكانوا خليطاً من المصريين واليونانيين^(٤).

كان الوجود الأغلب لليونانيين بمصر يتركز في مدينة الإسكندرية، وكذلك في مدن القناة الثلاث: بورسعيد، السويس، الإسماعيلية، إلى جانب الجالية اليونانية بالقاهرة، والقليل منهم كان يعيش في بعض مدن الصعيد. وقد أثبت تاريخ مصر الحديثة أن اليونانيين في مصر كان لهم ما كان للأجانب بوجه عام من امتيازات أجنبية، واستغل الأجانب تلك الامتيازات مخالفين بذلك القوانين المحلية، كما كانوا لا يمثلون لأوامر الحكومة المصرية على الدوام. ومن الثابت أيضاً أنهم عاشوا في حماية قناصلهم وتمتعوا بالامتيازات التي وصلت إلى حد المطالبة بإلغاء بعض قوانين الدولة^(٥). وبذلك

(١) إفثيميوس سولويانيس. اليونانيون بمصر في العصر الحديث. ترجمة صموئيل بشارة. أثينا. ٢٠٠٨. ص ١٠٧.

(٢) Σταυρου, P. Η Καβαλα αλλοτε και τωρα. Καβαλ. 1972. P. 64.

(٣) إفثيميوس سولويانيس. أثينا. ٢٠٠٨. ص ٧٥.

(٤) لويس جريس. يوميات من التاريخ المصري الحديث. (١٩٥٢-١٩٧٥). الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٨ ص ٢٥٦.

(٥) زين العابدين شمس الدين نجم. بورسعيد. تاريخها وتطورها منذ نشأتها عام ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٨٧. ص ٥٩-٦١.

فقد أصبحت الامتيازات الأجنبية ذات صفة هجومية، بعد ما كانت لمجرد الحماية، وكانت السلطات القنصلية هي التي تنظر في قضايا الرعايا الأجانب التابعين لها، فافلت المجرمون الأجانب من القصاص، ومن هنا تزايد تدفق الأجانب الباحثين عن الثروة على الإسكندرية، مما جعل مجتمعها مجتمعاً غير جدير بالاحترام^(٦).

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، كان النشاط الاقتصادي في قبضة العناصر الأجنبية التي كانت تموله وتشرف عليه وتنهض بشئونه؛ ذلك أن العشرين سنة التي سبقت الحرب شهدت تفوقاً لرؤوس الأموال الأجنبية، وعلى الرغم من ذلك فقد خلقت الحرب المناخ الذي هباً للرأسمالية المصرية النمو، فأصبحت تتطلع خلال الحرب إلى الصناعة^(٧)، ولم يكن ذلك مقصوراً فقط على ما كانت مصر تمتلكه بالفعل من مقومات زراعية وصناعية، ولكن مصر عرفت نوعاً جديداً من الزراعة، وهي زراعة الدخان، فقد شجع ما أصاب البلاد الأخرى التي تقوم بتصنيع السجائر - من عطل في سنى الحرب - هذه الصناعة في مصر على النهوض، مما أباح زراعة الدخان، فكان الإنتاج يكفي مصر بل وأصبح هناك فائض للتصدير إلى بريطانيا وأستراليا وفرنسا وإيطاليا، وزادت القيمة المصدرة في كل سنة من سنوات الحرب على الأخرى^(٨). والحديث عن الحرب العالمية الأولى يوضح العلاقة المتوترة بين مصر وبريطانيا أثناء الحرب وبعدها. فقد قدمت مصر كل ما قدمت لجيش إنجلترا وحليفاتها من خدمات، وتحلت بالصبر والهدوء، إسهاماً منها في مساعدة الإنجليز وحلفائهم على إحراز النصر، أملاً في اعترافهم بهذا الفضل، ورد الجميل لها بمنحها حريتها واستقلالها، وظن المصريون أن إعلان بريطانيا فرض الحماية على مصر مع بداية الحرب ما هو إلا ضرورة من ضرورات الحرب تزول بزوالها^(٩).

(٦) محمد صبرى السوربونى. نشأة الروح القومية المصرية (١٨٢٦-١٨٨٢). ترجمة ناجى رمضان عطية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ٢٠٠٩. ص ١٢٧

(٧) لطيفة محمد سالم. مصر في الحرب العالمية الأولى. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٨٤. ص ١٢٤-١٢٦.

(٨) لطيفة محمد سالم. مصر ١٩٨٤. ص ١٣٩.

(٩) شحاته عيسى إبراهيم. عظماء الوطنية في مصر في العصر الحديث. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٧. ص ٢٦٤.

ومن الأسباب التي جعلتنا نهتم بترجمة رواية "أيام الإسكندرية"، ذلك المزيج من الحقيقة والخيال الذي تحمله في طياتها، ولعل أبرز ما ينتمى إلى عالم الحقيقة هو؛ ذلك التأريخ لبعض الأحداث العالمية التي كان لبعضها تأثير مباشر على مصر من ناحية، وعلى اليونان من ناحية أخرى، كذلك الإشارة إلى ما يسمى بنكسة آسيا الصغرى عام ١٩٢٢، التي نتجت عنها هجرة اليونانيين إلى مصر، حيث توافدت أعداد كبيرة من المراكب المحملة باللاجئين القادمين من مدينة زميرنى على الحدود بين تركيا واليونان. كما تعرض المؤلف للإحتلال الإنجليزي لمصر عام ١٨٨٢، وضرب الإسكندرية بمدافع البحرية الإنجليزية، ثم ثورة عرابى، وصولاً إلى مراسم تولى الملك فاروق عرش مصر، مروراً باكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، باعتبارها أحد أهم الاكتشافات الأثرية في القرن العشرين، إلى جانب إبراز الحالة التي كانت عليها الحياة السياسية باليونان والصراع بين مؤيدى الملكية وأنصار الجمهورية، وتأثير هذا الصراع على الجالية اليونانية بمصر، مع الإشارة لوصول رئيس الوزراء اليونانى إليفيثيريوس فينيزيلوس إلى مصر بهدف حشد تأييد الجالية اليونانية له فى عام ١٩١٥. باعتبار زعيماً للأمة اليونانية، وفقاً لأنصاره.

لم ينس المؤلف أيضاً أن يشير إلى الشاعر اليونانى الشاب كونستانتينوس كافافيس الذى عاش بالإسكندرية فى تلك الفترة، قبل أن يصبح شاعراً عالمياً للشعر الأوروبى الحديث كما هو معروف عنه الآن، وقد كان يلقي نوعاً من السخرية من قبل نساء الطبقة الراقية اليونانية فى مصر فى بداية حياته بوصفه شاعراً مغموراً. ومن الأحداث العالمية المهمة التى يتعرض لها المؤلف: قيام الحرب العالمية الأولى، ثم الحرب العالمية الثانية، ووضع مصر الشائك فى الحربين خاصةً وهى تعاني من الاحتلال الإنجليزي، واستغلال موارد البلاد. ثم رصد أهم ملامح مرحلة الحرب العالمية الثانية، مثل منع الإنجليز عزف الموسيقى الألمانية فى مصر، وزيارة وجهاء اليهود، وعلى رأسهم حايم وايزمان، لمصر بهدف طلب المزيد من الدعم الإنجليزي لإنشاء دولة إسرائيل، وانعكاس ظلال الحرب العالمية الثانية على الوجود الأجنبى فى مصر بوجه عام، واليونانى بوجه خاص.

كما يشير المؤلف إلى قرار الإنجليز، مع نهاية الحرب العالمية الثانية، بالرحيل عن مصر، وتفكيك القواعد العسكرية المقامة على أرضها، مع الاحتفاظ بما يمتلكونه من امتيازات في إدارة قناة السويس. الأمر الذي دفع الكثير من الأجانب، وبخاصة الأثرياء منهم، إلى التفكير والشروع في مغادرة مصر التي لم يعد الوضع بالنسبة لهم أمناً للبقاء فيها، ثم جاءت ثورة عام ١٩٥٢، ليؤكد هذه المخاوف وبخاصة بعد قرار الزعيم جمال عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس للملاحة البحرية، وهنا تجدر الإشارة إلى أن اليونانيين كان يحذوهم الأمل في أن لا يكون مصيرهم مثل مصير أي أجنبي آخر عاش على أرض مصر، وبخاصة بعد أن وقف المرشدون اليونانيون بجانب المرشدين المصريين في بداية تولى مصر مهمة الملاحة وتسيير السفن في قناة السويس، وهو ما مدحه جمال عبد الناصر نفسه في خطابه الذي ألقاه مباشرة بعد عبور أول سفينة بعد تنفيذ قرار التأميم^(١٠).

(١٠) في بداية خطابه قال جمال عبد الناصر بفخر وعزة: «اليوم هو أول يوم لتنفيذ المؤامرة الفرنسية الإنجليزية في قناة السويس وصلت إلى القناة ٥٠ سفينة مرة واحدة، واستطاع المرشدون المصريون واليونانيون أن يقوموا بالعمل كله في القناة». وإذا كان جمال عبد الناصر قد ذكر في خطابه أن النجاح يعود للمرشدين المصريين واليونانيين فقد أصاب عين الحقيقة. فقد ذاب الشعب اليوناني في الشعب المصري. بل الجريج " الذين كانوا يملؤون مدن القناة والإسكندرية والقاهرة هؤلاء الناس الطيبون الذين أحبه الشعب المصري ودخلوا في نسيجه هم من رفضوا الانسحاب مع المرشدين الأجانب، وكان عددهم أحد عشر مرشداً، وتعاونوا مع زملائهم من المرشدين المصريين بكل ما استطاعوا، وكان لهم دور فاعل في إفساد تلك المؤامرة. انظر:

محمد الشافعي - محمد يوسف. قناة السويس. ملحمة شعب - تاريخ أمة. الهيئة العامة لقصور الثقافة. ٢٠٠٦ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ . ومن الملاحظ أن اليونانيين كانوا قد أظهروا حسن النية تجاه ثورة عام ١٩٥٢، بل وكانوا ياملون أن ينجبهم موقفهم من التغيير السياسي في مصر، وتأميم قناة السويس من أن يصبحوا هم أنفسهم من ضحايا ذلك التغيير، بيد أن الأمر لم يكن كذلك، فقد عانى اليونانيون مثلهم مثل غيرهم من الأجانب من الهجوم عليهم وحرق محلاتهم وفقدوا الشعور بالأمان في مصر، وباتت فكرة العودة إلى الوطن الأم، اليونان، هي طوق النجاة بالنسبة لهم، أو حتى السفر إلى أمريكا أو أستراليا أو إلى أي من الدول الأوروبية الأخرى.

ثم جاء قرار تأمين للملكيات الخاصة للأجانب والمصريين على السواء بعد قرار تأمين قناة السويس، وهو الحدث الذى تنتهى عنده الرواية بتأمين مصنع خاراميس للسجائر، فى مشهد يربط بين التأمين وبين وفاة كوستيس خاراميس، الابن الأكبر لاندونيس خاراميس، فى سيارته قبل لحظات من تلقيه نبأ التأمين من أحد ممثلى الجيش المصرى أمام بوابة المصنع.

لقد استطاعت رواية "أيام الإسكندرية" أن تسبر أغوار المجتمع المصرى، فرسمت للقارئ صورة واضحة لبعض تفاصيل الحياة لدى البسطاء من الناس، حتى إنها تطرقت إلى وصف الحلوى والأطعمة الشعبية كالعسلية، ووصف طريقة صناعتها، والفول والغلافل والهريسة والأرز باللبن والجلش والعرقسوس، حتى وصف الطبيلة التى تتناول عليها الأسر البسيطة طعامها. كما جعل المؤلف من الأحياء الشعبية وما بداخلها من تفاصيل وكأنها عالم آخر يختلف بل ويتناقض مع العالم الذى تعيش فيه الجالية اليونانية، وبخاصة الطبقة الأرستقراطية منها. مما يوضح تلك الهوة السحيقة التى كانت تفصل بين تلك الطبقة وبين باقى أفراد المجتمع المصرى البسيط من جهة، وبين تلك الطبقة وبين أبناء الطبقة الكادحة من اليونانيين أنفسهم من جهة أخرى.

كما ألقى المؤلف الضوء على زراعة القطن فى مصر وكيفية جمعه، ومكافحة إصابته بدودة القطن؛ ثم انتقل بنا من الزراعة إلى الصناعة، وصولاً إلى دمياط مركز صناعة الأثاث فى مصر؛ كما تطرق لطرق العلاج بما سمّاه المؤلف "الطب الشعبى"، والذى وصف المؤلف طريقة العلاج به من خلال استخدام الكتوس الهوائية المفرغة، وهو يقصد بذلك العلاج "بالحجامة"، تماماً مثلما هو متبع فى هذا النوع من العلاج إلى يومنا هذا^(١١).

(١١) لقراءة تفاصيل العلاج بالحجامة انظر: خالد حسن أبو سيف، الحجامة سنة وسلامة. الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٤.

ومن اللافت للنظر فى رواية "أيام الإسكندرية" تكرار بعض الألفاظ، مثل "Αραπακία" "أرابيس" والجمع منها "Αραπης" "أرابازيس" وصيغة التصغير "Αραπαδες" "أراباكيا"، وهو اللفظ الذى كان يستخدمه اليونانيون إشارة إلى العامة من المصريين. ويلاحظ أن هذا اللفظ فى اللغة اليونانية يشير إلى أصحاب البشرة السوداء، باعتبارهم من طبقة العبيد، وكان يستخدم لوصف المصريين بشكل عام بصرف النظر عن لون بشرتهم، وكأنه نوع من التحقير أو التقليل من شأن من يطلق عليهم هذا اللفظ^(١٢).

وعلى الرغم من تدهور الأحوال المعيشية للسواد الأعظم من المصريين، واستفادة الأقلية الأجنبية من ثروات مصر^(١٣)، فإن رواية "أيام الإسكندرية" قد ألفت الضوء على ما يمكن أن نسميه "نبوءة ثورة المصريين القادمة"، وكيف أن أصحاب العمام والجلاليب سوف يملكون زمام الأمور فى وقت ما، ووقتها لن يجد الأجانب لأنفسهم مكاناً ليعيشوا بينهم، وهى النبوءة التى بدأت تتحقق بنهاية الحرب العالمية الثانية، وأصبحت واقعاً بقيام الانقلاب العسكرى عام ١٩٥٢ .

كانت مصر فى ذلك الحين ملاذاً لليونانيين، فى وقت كانت دائماً مطعماً لمن أراد رغد العيش، وتسابق الأجانب فيها للفوز بما يستطيعون من خيراتها. فى الوقت الذى كانت اليونان تعاني من تردى أوضاعها الاقتصادية والسياسية تحت وطأة الاحتلال العثمانى، وصولاً إلى التدخل الألمانى فى اليونان أثناء الحرب العالمية الثانية.

(١٢) مرجعنا فى التحليل اللغوى لمعنى لفظ "Αραπης" فى اللغة اليونانية هو القاموس التالى :

Μπαμπινιώτη, Γ. Λεξικό Της Νέας Ελληνικής Γ Έκδοση. Αθηνά., 2008, P. 267.

(١٣) كانت القاهرة تعاني من تزايد السكان بنحو ضعف معدل البلاد ككل. كما تزايدت حركة السكان داخل المدينة، وكان وصول المستوطنين الأوربيين، وأوربة الأحياء التى يشتركون فيها ممتلكات، وارتفاع الإيجارات، سبباً فى دفع الفقراء أكثر فاكثراً إلى الشوارع المزدهمة وإلى ما يسمى بـ"المدينة القديمة". انظر: تيموشى ميتشيل. استعمار مصر. ترجمة بشير السباعى - أحمد حسان. دار سينا للنشر. ١٩٩٠. ص ٢٥٢ .

ولعل وجود نموذج مثل ماخوس خاراميس، الابن الأصغر لأندونيس خاراميس، الذي اعتقد وأمن، بعد دراسته بألمانيا والحياة فيها، أنه قد أصبح جزءاً من نظامها، ولم يجد لنفسه قيمة سوى في خدمة النظام النازي حتى لو كان ذلك ضد مصلحة وطنه الأصلي، اليونان، الأمر الذي أدى إلى مقتله بعد هروبه من اليونان إلى مصر بطريقه تعكس حجم خيانتته لوطنه. والمدقق في الأمر يجد أن ماخوس خاراميس، مثله مثل أخيه كوستيس بل وكل اليونانيين في مصر، لم يعرف لنفسه وطناً غير مصر.

وفي النهاية، فإننا نرى أن رواية "أيام الإسكندرية" كانت في مجملها تعبيراً عن رؤية خاصة بالإسكندرية، التي ولدت مدينة عالمية، والتي وإن كانت تشكل جزءاً رئيسياً من مصر فإنها كانت غريبة عنها. حيث كانت الإسكندرية تطل على عالم مختلف يصور ما كانت مصر تصبو إلى أن تكون عليه، لا ما هي عليه بالفعل^(١٤).

(١٤) جمال حمدان. شخصية مصر. دراسة في عبقرية المكان. الجزء الرابع. دار الهلال. ١٩٩٥. ص ٤٥٨. لقد كانت الإسكندرية هي المدينة الأكثر فرنجة بين المدن المصرية منذ عصر محمد علي، وخلال عشرينيات القرن الماضي. ومعلوم أن التمثيل الأجنبي في مصر قد بدأ منذ ذلك العصر وحتى عصر الخديو إسماعيل، وكانت نواته في الأساس في الإسكندرية، حتى إن وزارة الخارجية المصرية أول ما نشأت تحت اسم "ديوان التجارة والأمور الأفرنجية" قد اتخذت من مدينة الإسكندرية مقراً لها. انظر: يونان لبیب رزق. الأهرام ديوان الحياة المعاصرة. الجزء الأول (١٨٧٦ - ١٨٨٢) مركز تاريخ الأهرام. ١٩٩٥. ص ٢٣.

الفصل الأول

لطفاء كالزائرين

(لاو تسي)

«الحرب والتجارة هما المحور الرئيسى الذى تركز عليه حضارتنا، ولذلك فإننى أتساءل: من منا يستطيع أن يعيش بدونهما؟» كانت تلك ملاحظة إلياس خورى التى حاول من خلال ذكرها أن يقول شيئاً فى أثناء انتظار المستشار الخاص للمندوب السامى. وقد تمكن بتلك الملاحظة من إيقاظ أندونيس خاراميس من غفوته، حيث كان يفكر بدوره كيف تمكن خورى من حضور هذه المقابلة، فلم تكن الحرب أو التجارة من ضمن أنشطة هذا الرجل الغامض. وفى السنوات الأخيرة، لم يستطع أندونيس أن يعقد اتفاقية واحدة مهمة دون وساطة من إلياس خورى، هذا الرجل الذى كان يُعرف باسم "اللبنانى". كان خورى نحيف الجسد ذا بشرة فاتحة، يروق له ارتداء القمصان الغالية والقبعات الفاخرة، حيث كان يتردد بصفة مستمرة على المحلات المنتشرة فى شارع شريف باشا لمتابعة سير الحركة التجارية فى المدينة.

اعتاد "اللبنانى" أن يعقد لقاءاته مع الضابط البريطانى فى إحدى هذه المحلات وبالتحديد فى حانة "دانييل" (دُونْها بالإيطالية)، هناك - كما يقول "اللبنانى" - تستطيع أن تحتسى أجود أنواع البيرة الألمانية الأصلية. أما أندونيس، الذى كان نادر الوجود فى مثل هذه الأماكن، فقد ترك لعينيه العنان لتتجول فى المكان الذى يكتظ بالآثاث الخشبي الضخم والمرايا والأباليك المثبتة على الحوائط، لاحظ كيف كانت الستائر

المنتشرة بطول الواجهة عاجزة عن حجب أشعة الشمس عن الانتشار داخل المكان، مما دفع أندونيس للاعتقاد أن لون الأثاث الخشبي الداكن كان يستحوذ على أشعة الشمس جميعها، ويحول دون استقراره فى أركان المكان أو على السقف المرتفع، حتى إن أندونيس بذل جهداً كبيراً فى تبين ملامح وجه ذلك الرجل الواقف خلف البار الخشبي فى نهاية الحانة أثناء تقديمه المشروبات للزبائن، ولم يستطع أن يلحظ منه سوى بطنه المنتفخ وهو يهتز أثناء قيامه بتلميع البار بالفوطة البيضاء، بينما كان يغنى مستخدماً خليطاً من اللغات الممزوجة بلهجته الإيطالية. علق خورى على هذا المشهد بقوله:

«دانييل، هو مدير المحل، "بطل هذا العرض" (قال ذلك بالإيطالية)، شخصية كوميدية، يقدم عرضه لزبائن المحل بشكل يومى من خلف هذا البار».

كانت الأضواء تغمر البار الذى تعلوه قبة زجاجية مكونة من أكواب البيرة المعلقة. وقد سأل أندونيس خورى بشكل عفوى، قائلاً:

«ومن كل هؤلاء الزبائن؟».

«إنهم "سماسرة البورصة" (قال ذلك بالإنجليزية)، فقد أوشكت البورصة على الإغلاق، وكوب من البيرة المتلجة من لدن دانييل، بعد نهاية يوم عمل شاق، كالبلسم. هل سبق لك أن رأيتهم من قبل وهم يصيحون مهولين ذهاباً وإياباً، وهم يتصببون عرقاً فى الممرات الخشبية للبورصة أثناء متابعتهم أسعار القطن التى تظهر على اللوحات السوداء، فالبورصة تحتاج للجرأة، يا صديقى وهذا كل ما فى الأمر» (قال ذلك بالفرنسية)؛ ثم يأتى إلى الحانة من بعدهم المحامون وموظفو البنوك، وأناس كثيرون، يؤكد لك ذلك" (قال ذلك بالفرنسية)».

جال بخاطر أندونيس كيف أن إلياس نفسه كان يستعد ليقدم عرضه الخاص أمام كل هؤلاء الناس، وأنه كان يفضل إبرام هذا الاتفاق فى مكتب هادئ بلا ضجيج، بعيداً عن أعين الناس، وكيف أن إصرار إلياس على أن يلتقوا فى مثل هذا المكان المزدهم قد بدأ يزعجه، تماماً مثلما أزعجه تأخر المجلد البريطانى عن الحضور. لقد زاد "اللبنانى"،

الذى شعر بهذا الضيق، من عصبية أندونيس كثيراً بمحاولاته التماس الأعذار له، بقوله: «على أية حال» (قالها بالفرنسية) فنحن ننتظر المستشار الكبير للمندوب السامى ذاته وليس شخصاً عادياً.

كادت هذه الجملة أن تخرج أندونيس عن شعوره، وردد مستنكراً: «المستشار الكبير! هذا الرجل الذى لم يتعلم احترام المواعيد»، ثم استطرد قائلاً: «أرجو أن تتوقف عن إخراج الساعة من جيبك وإدخالها مرة أخرى، فلقد سنمت من ذلك». نظر إلياس إلى أندونيس مندهشاً وأسرع بدس الساعة فى جيبه، فى حين عقد أندونيس يديه وظل فى مكانه جالساً.

كان أندونيس يشعر بالغضب لأنه سمح لإلياس باستغلاله، فمنذ اللحظة الأولى لدخولهما الحانة، أشار إلياس إلى دانييل إشارة ذات مغزى فاستجاب له الأخير كما لو كان ممثلاً حقيقياً يرتدى قميصه الأبيض وحملات البنطلون والبابيون. كان أندونيس على يقين من أن دانييل سيلقى على مسامع رواد الحانة فيما بعد قصة زيارة أندونيس خاراميس صاحب مصنع السجائر ومستشار المندوب السامى.

كان الهدف من هذا اللقاء المنتظر، أن يصبح أندونيس خاراميس مورد السجائر الرئيسى للجيش البريطانى، مما سيجعله، بكل تأكيد، أغنى رجل يونانى فى مصر، أما البقية الباقية من تفاصيل هذا الاتفاق فهى مجرد بنود سيقوم المحامون بالترتيب لها. أصبحت السجائر من ماركة خاراميس التى تحمل اسم "سجائر خاراميس المصرية: Charamis- Cigarette Egyptiennes"، والتى تم طبع أعمدة كليوباترا - رمز الإسكندرية - على غلافها، ذات شهرة عالمية واسعة، فانتشرت فى إنجلترا وألمانيا وهولندا وحتى فى السويد والنرويج. ولا شك فى أن مستشار المندوب السامى قد أعد نفسه جيداً بجمع العديد من المعلومات عن أندونيس، ومن ذلك، أن أندونيس نوباً عن غيره كان قبل ذلك هو المورد الرئيسى للسجائر لسلطان مصر، وأيضاً لقنصلطنطينوس أمير اليونان. ولذلك فكر أندونيس فى أن يحمل معه الصورة التى تحمل توقيع الممثلة المشهورة سارة برنار، أثناء قيامها منذ خمس سنوات مضت بزيارة مصنع الجديد فى محرم بك،

وأبدت إعجابها بالمصنع وبمنشآته؛ وكانت هذه الزيارة حدثاً معروفاً بين أوساط المهتمين بالتدخين. وسواء أكان حدثاً معروفاً أم لا، فقد سأل " اللبناني " أندونيس بمجرد أن التقاه قائلاً:

«وماذا عن الصورة؟ هل أحضرتها معك؟» (قال ذلك بالفرنسية)، ثم طلب منه رؤية صورة المطربة المشهورة التي كانت تحمل توقيعها على خلفية الصورة.

كان إلياس خورى مواطناً فرنسياً ينحدر من أسرة لبنانية، مسيحياً مارونياً، من مواليد بيروت، اشتهر باهتمامه الشديد بمظهره، "إنه دائم الاهتمام بملبسه" (بأن ذلك بالفرنسية) - يهتم بتصفيف شعره، الأمر الذي كان مسار حديث المدينة؛ وكان أندونيس يحبه لنفس الأسباب التي كان يكرهه من أجلها. فكيف يمنع نفسه من الإعجاب بذلك الشاب الذي يتميز بضحكته الرنانة المفعمة بالحيوية، وكيف لا يكرهه للسبب نفسه بعد أن تخطى الآن الخمسين من عمره. أدرك أندونيس أن بإمكانه الوثوق بإلياس بعض الشيء، ولكنه لا يستطيع أن يمنحه ثقته المطلقة؛ وفي كل مرة يشعر فيها برغبته في توجيه السباب لإلياس، متلماً يشعر الآن، يتصادف أن يكون بحاجة إليه؛ ولكن حتى عندما لا يكون في احتياج إليه لم يكن باستطاعة أندونيس أن يفعل شيئاً، وقد تملكه شعور دائم بأن هذا " اللبناني " يقوم باستغلاله، وفي واقع الأمر كان أندونيس هو من يستغل إلياس في قضاء مصالحه؛ حتى ذلك الإصرار من جانب إلياس على الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة كان يتسبب في غضب أندونيس، غير أن دقة ملاحظة أندونيس جعلته يشعر بنشوة الانتصار على إلياس، فقد اكتشف هفوتين تدلان على إهمال إلياس لمظهره. فعلى الرغم من حرص إلياس الشديد على تصفيف شعره ودهانه بالزيت، وحرصه كذلك على ترك السلسلة الفضية تتدلى من جيب رداؤه. فإنك إن أمعنت النظر في شاربه فسوف تلحظ بعض الشعيرات الطويلة المتناثرة فوق شفته، مما كان يدفعه إلى رفعها بحركة من شفته السفلى. ويرى أندونيس أن الأكثر سوءاً من ذلك - وهي الهفوة الثانية- هو نسيان "شخص كامل" (دون ذلك بالفرنسية) مثل "اللبناني" وضع منديلاً في جيب الجاكيت، لكي يستخدمه في مسح قطرات العرق التي كانت

تتساقط من جبهته، وبدلاً من ذلك كان يستخدم منديل المائدة الأبيض، مردداً قوله: «يا له من جو حار» (قال ذلك بالفرنسية)، وكان هذا اليوم من الأيام الحارة بالفعل التي لم تكن معتادة في شهر مايو؛ في الوقت الذي كانت الأمطار تتساقط فيه بلا انقطاع في الأسبوع الماضي. وهذه هي الحال دائماً في الإسكندرية.

استيقظ أندونيس مبكراً اليوم، على العكس من إلياس، حتى يتمكن من ملاقة الحلاق اليوناني كيكينوس، الذي ينحدر نسله من جزيرة كيفالونيا، وقد توجه مباشرة إلى منزل أندونيس في الحي اليوناني قبل ذهابه إلى صالون الحلاقة الخاص به، والكائن في حي سوتير خلف حدائق الشلالات، كما قام أندونيس كذلك بتلميع حدائه عند ماسح الأحذية الأرمني في ميدان محمد علي.

وبينما جلس أندونيس في مواجهة خوري، نحى خوري بوجهه جانباً وركز بصره في إحدى مرايا الحانة، فتملكته حالة من الرضا وهو يرى كيف أتقن الحلاق عمله بغض النظر عما أصاب شاربه. في اللحظة نفسها سُمع صوت الجرس المعلق بالباب، ولكن القادم لم يكن هو ذلك الشخص الذي ينتظرونه؛ وفجأة امتلأ المكان برائحة عطر نفاذ دفع أندونيس للاستدارة والنظر حوله، فلاح من خلف الحاجز الخشبي الموجود عند المدخل امرأة جميلة ترتدي قبعة، وقد غطت كتفها بوشاح خفيف، ويصل رداؤها إلى ما فوق ركبتيها ويكشف عن ساقين جميلتين. توقفت المرأة لحظات لتعطي قبعتها لصبي الحانة - الذي كان يعاني من حول في عينيه. في حين قام فوزي، الجرسون، بإرشادها إلى منضدة مجاورة بحركة تمثيلية، وهي تسير بخطوات رشيقة من خلفه، جلست ثم خلعت قفازها ووضعت في حقيبة يدها، ثم أخرجت مروحتها وقذفت شعرها المموج بأطراف أصابعها إلى الوراء؛ في تلك اللحظة، لمح أندونيس تلك المرأة وقد ابتسمت له، فسارع برفع الكأس بيده محيياً إياها، لقد وقع أسيراً لجمال هذه المرأة الأوروبية، ولم يعد يفكر في شيء آخر سواها «يا لها من امرأة جميلة» (قال ذلك بالفرنسية).

أشار له إلياس خورى بأن تلك المرأة التى شددت انتباهه هى: «إيفيت شانتون، فرنسية- سويسرية، تنحدر من أم فرنسية وأب سويسرى أو من أم سويسرية وأب فرنسى»، ثم أكمل إلياس حديثه هامساً: «يقولون إن فيليب جاكو هو من أتى بها إلى مصر. تظاهرت لبعض الوقت أنها زوجته، فى حين يعلم الجميع أن جاكو متزوج وله أولاد. إنه رجل عجوز نذل، يا صديقى (قالها بالفرنسية)».

كان أندونيس خاراميس يعرف جاكو جيداً، فقد كان يشبه خورى تماماً فى صفقاته المشبوهة فى الخمس سنوات الماضية، وهو ليس أفضل أو أسوأ من خورى. أما بالنسبة لإيفيت فتولدت لديه النية للتعرف إليها لاحقاً. أما الآن فيكفيه أن يتخيلها فى أحضانها على ضفاف بحيرة مريوط أو فى جناح فى فندق شبرد بالقاهرة بعيداً عن أعين الفضوليين فى الإسكندرية.

بدخول الضابط البريطانى إلى الحانة، عاد أندونيس إلى أرض الواقع، لم يكن الضابط بمفرده ولكن كان يرافقه شخص آخر أكثر منه طولاً، ذو شعر أحمر، تنتشر على وجهه بعض البثور، قدم نفسه على أنه المستشار الخاص للمندوب السامى لشئون الشرق الأوسط، وقد أثارت مرافقته للضابط البريطانى ضجر إلياس خورى؛ أما بالنسبة لأندونيس فقد رأى أنه من الطبيعى أن يكون هناك من يرافق الضابط البريطانى، فإن لم يكن هناك سبب حقيقى لوجوده، فلا أقل من أن يكون ذلك بغرض الإبهار. لم يكن أندونيس يعرف ماذا يستخدم من ألقاب أثناء توجيه الخطاب للضابط البريطانى، ولهذا فقد قرر بعد أن قدم كل منهما نفسه للآخر أن يستخدم لقب مستر كوشنر. ظهر كوشنر منذ الوهلة الأولى بفكرة المتعجرف الجاهل بمشكلات المنطقة، ويدت شخصيته مزيجاً من رقة الإنجليزى الجنتلمان والإنجليزى الإمبريالى. كانت للضابط البريطانى أذنان مضحكتان تبرزان من رأسه المربع، وكان يحاول جاهداً تهذيب الفارق فى منتصف شعره بأطراف أصابعه. لم يكد مستر كوشنر يجلس حتى عبر عن استيائه من نوة الربيع بالإسكندرية معزياً نفسه ومذكراً إياها بالشتاء الرائع الذى قضاها فى القاهرة. وكان كوشنر قد وصل إلى الإسكندرية منذ يومين، وقد أثار

إعجابه ذلك المنظر الرائع للمدينة الذى شاهده من أعلى المبنى. عدا ذلك فلا تمثل الإسكندرية بالنسبة له أكثر من مجرد مدينة صغيرة تبعث على الملل بسبب عدم وجود أماكن للترفيه فيها، وقلة أهميتها الأثرية مقارنة بالقاهرة التاريخية. فمن الواضح تجاهل كوشنر لتاريخ الإسكندرية، وبخاصة تاريخها الحديث؛ ومن خلال حديث كوشنر عن اغتيال رئيس الوزراء بطرس غالى باشا، أدرك أندونيس أنه ليس على دراية كافية بوقت وقوع الجريمة أو بالظروف المحيطة بها. أما الرجل صاحب الشعر الأحمر، فكان حديثه مقتضباً طوال فترة تناولهم للغداء، ولسبب غير معلوم فضل كوشنر فى البداية أن يكون حديثهم بالفرنسية، وهو ما يعنى عدم فهم مستشار المندوب السامى لشئون الشرق لما يقولون. كل ذلك لم يكن له أدنى أهمية بالنسبة لأندونيس، ولكن كان المهم هو إبرام الاتفاق الذى اجتمعوا من أجله، ذلك الاتفاق الذى أدرك أندونيس، الذى يعمل فى صناعة الدخان، أنه قد حُسم بالفعل، ولم يكن اللقاء الذى جمع بينهم فى حانة دانييل سوى غداء عمل شكلى، كان الغرض منه تأمين النسبة التى سيحصل عليها إلياس خورى. طلب مستر كوشنر تدخين بعض سجاائر ماركة خاراميس أثناء جلوسهم بدلاً من استخدام غليونيه. عندما أيقن أندونيس أن الاتفاق قد تم بالفعل، لم يكلف نفسه بإخراج صورة سارة برنار من الجيب الداخلى لبذلتة. وشعر بأن من حقه الآن أن يرتاح، فجلس مسترخياً على مقعده وأخذ يمتع نفسه بالنظر إلى أطباق الطعام التى كان يضعها فوزى على المائدة، ويمتع عينيه أيضاً بديكور الحانة الفخم، بانعكاس لون الخشب الداكن على قميص دانييل، بلون شارب كوشنر الفاتح والمشدب بطريقة جيدة وفقاً لما كان سيقوله الحلاق كيكينوس، بشراب البيرة صفراء اللون، والأهم من ذلك فقد أخذ يمتع نظره بجمال الأنسة شانتون التى لحها تنظر لمرأتها الصغيرة وهى تتزين بأدوات التجميل.

إن كان خورى صادقاً فيما ذكره من قبل، فسوف تعج الحانة بعد قليل بطوفان من البشر، وعندئذ حدثته نفسه قائلةً - الآن سيأتى سماسرة البورصة وكذلك المحامون وموظفو البنوك -، وفجأة بدأت فكرة اختيار هذه الحانة بوصفه مكاناً مبهجاً لهذا اللقاء

تراوده. حتى إنه فكر فى أن يعقد كل اتفاقياته فى المستقبل وكذلك علاقاته الخاصة فى أماكن مماثلة، على أن يرتدى الناس ملابسهم بطريقة أكثر بساطة، وأن يوجد فى هذا المكان شخص مثل خورى- يتحكم فى كل شىء، وشخصية فائقة تأثير الخيال مثل إيفيت. ومع توارده هذه الأفكار فى رأسه رفع أندونيس كأسه مرة أخرى محيياً إيفيت التى استجابت له بكل ترحاب، وكان أندونيس قد همس فى أذن فوزى بكلمات محددة، وقام فوزى، مرتدياً جلبابه الأخضر المزركش بإبلاغ إيفيت أن كل طلباتها على حساب ذلك السيد الأنيق ذى الشارب المهدب والشعر الرمادى. كانت الأمور إذن تسير بشكل طيب، وسوف تكلل مغازلة أندونيس لإيفيت بالنجاح، متوجة للصفقة الضخمة التى أتمها اليوم، والتى تمت تقريباً بيسر ودون عناء، وكان إتمامها انعكاساً لرغبة المدينة فى النهوض من الناحية اقتصادية.

كانت "الحناطير" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) تنتشر فى الطريق بينما كانت السيارات قليلة العدد، كما كانت تختلط بأمواج البشر من كل الأجناس وكل الأعمار. وفى الوقت الذى يؤدي بك الباب الخلفى للحانة إلى زقاق ضيق ترى فيه سحر مصر وأهلها، كانت البيرة الصفراء تلمع فى أكوابها وترتفع إلى شفاههم، يضرب أحدهما الآخر. وفى الطريق يؤدي بك الباب الرئيسى للحانة مباشرة إلى ما يشبه أوروبا، فالملابس الأوروبية تنتشر فى كل مكان واللغتان الإنجليزية والفرنسية - هما الأكثر تداولاً. شاهد أندونيس بطرف عينيه أحد موظفيه اليونانيين فى شارع شريف باشا وهو يسرع إلى عمله متأبطاً بعض الأوراق، مما جعل أندونيس يشعر بالرضا.

فى النهاية، كان أندونيس يستمتع بالحياة فى هذه المدينة، حيث الأجناس واللغات وحتى الطوائف المختلفة تتألف جميعها فى تناغم يومى، ولم يستطع أن يفكر فى مكان آخر يجتمع فيه الباحثون عن الثروات، مثله ومثل إلياس خورى ومثل إيفيت شانتون. فى ذلك الحين كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف.

* * * * *

لم تكن الحرب أو التجارة فقط السبب الذى دفعنى للحضور إلى هذا المكان، كان هذا ما جال بفكر أندونيس بعد أن وجد السبيل إلى العالم الخفى لجسد إيفيت، وكانت المرات الأولى التى لامس فيها جسدها تجعله يفقد إحساسه بالمكان وبالزمان، ولم يكن واثقاً إذا ما كان حقاً موجوداً بشقة إلياس خورى الفاخرة بشارع رشدى، على السرير العريض ذى الأعمدة المطعمة بالذهب، فى أحضان تلك المرأة التى أسكرت مخيلته. ثم أصواتها المتحشجة وأناتها وهى تحثه قائلة بالفرنسية "أدخل.. أدخل" (*)، كل ذلك جعله يشعر بأنه قد عثر على اللذة الحقيقية: فوق ثدييها المستديرين كثمرتى ليمون، فى شعرها المموج الذى كانت تختفى أطرافه خلف قضبان الفراش، وقبل أن يدرك ما يحدث، كانت عاطفته الجياشة تندفع نحوها فى قوة وعنف، وكان يعبر عن ذلك بالصراخ بصوت عالٍ، مثل الصراخ تقريباً، أما هى فكانت تغلق عينيها فى سعادة ورضا.

لم يكن هناك شك فى أن تلك النهاية الطبيعية لإعجابه بإيفيت كانت تحمل بصمات إلياس خورى. فقد فعل "اللبنانى" المستحيل ليكبل خصمه، ويلقى بشباكه حول ضحيته، كما اعتاد أن يطلق على فيليب جاكو. إن قيامه بتوفير الشقة للعاشقين هو أقل ما يمكن أن يفعله، بعد التعويض المادى الضخم الذى حصل عليه من خاراميس. لقد نجح فى إغوائها بمساعدة إلياس نفسه الذى قدم له شقته الفخمة فى رشدى باعتبارها مكاناً ليسرق فيه العاشقان لحظات من السعادة بعيداً عن أعين الناس.

اندهش أندونيس من منزل "اللبنانى" الأنيق. وكان أندونيس نفسه يعيش فى قصر بمعنى الكلمة، فى حين أنه قد ارتاد أكثر المنازل ثراءً بالإسكندرية، ولذلك فقد كان من الصعب أن يصاب بالانبهار من مجرد شقة عادية بشارع رشدى، إلا أن ديكور المنزل كان يحتوى على بعض القطع الفنية والتى ربما كان سيوليها خبير فنى اهتماماً عظيماً لما لها من قيمة فنية. قطع من الفن العربى جنباً إلى جنب مع لوحات فنية حديثة من الفن التجريدى، وأثاث فرنسى موضوع فى تجانس مع الفسيفساء الشرقية.

(*) تشير هذه العلامة إلى إعادة صياغة الجملة أو حذفها نظراً لما تحويه من ألفاظ أو تعبيرات لا تتلاءم مع مجتمعنا. (المراجع).

وبفضل ما يتمتع به من نوق رفيع، استطاع أن يجمع فى تناغم بين الفن الشرقى والغربى.
من ناحية أخرى، فقد كانت غرفة النوم بالمنزل تبعث على الإحباط: حيث كانت
تحتوى على أثاث ثقيل وضخم، وكانت مغطاة بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ بالمرايا،
كما كان السقف أيضاً مغطى بالمرايا. ربما يكون إلياس قد أراد أن يستمتع بمشاهدة
نفسه وهو نائم معها من كل الزوايا. أما أندونيس فعلى العكس من ذلك، لم يشعر
بالراحة منذ البداية تجاه كل تلك المرايا. فقد كان يشعر وكأن هناك من يرقبه. ولذلك
ازداد اضطرابه أثناء محاولة خلع رداء إيقيت، وظل يعانى لبضع ثوانٍ مع كل هذه
المرايا فى فك تلك الأزرار الخفية الموجودة فى رداء إيقيت من الخلف، وبدا كالعاشق
الأخرق الذى يتعثر أمام أكثر الأشياء بساطة. فصب جام غضبه على الملابس النسائية
وعلى تقيدهما بالقيود الأخلاقية، وعندما سقطت فى النهاية آخر الحصون، كان جمال
عشيقته الغض ينعكس ويلقى بأشعته على المرايا وملأ الغرفة بصور متعددة لامرأة
ملفوفة القوام^(٥)، وكاد أن يفزع منها فقد ذكرته (أحضانها) بيئر مسعود أو بيئر
الشیطان، كما كان يُطلق عليه فى اليونانية، تلك البيئر التى يقع على شاطئ سيدى
بشر، وتمتلئ بمياه البحر. وكان لزاماً على كل من يغوص به أن يقفزا قفزة كبيرة، ثم
يعبروا من خلال شق الصخرة لى يخرجوا إلى البحر المفتوح. وكانت الأمواج العنيفة
فى كثير من المرات ما تحتجز هؤلاء الغواصين المغامرين والعديد منهم دفن فى البحر
بسيدي بشر. لقد أحس أندونيس لوهلة أنه قام بقفزة جريئة مماثلة لتلك التى يقوم بها
الغواصون. ولكى يتجنب هذا الأمر بدأ يفكر فى أمور أخرى، فأخذ يتذكر قصة
ثاناسيس - ابن عم زوجته - مثلما سمعها من زوجته، فكان قادراً على استرجاع كل
تفاصيل هروبه من جزيرة ميتيلينى باليونان، وأن يتبع مسيرته حتى وصوله إلى مصر.
وكان يطلق عليها "ملحمة ثاناسيس".

كان ثاناسيس ينحدر، كما يقولون، من أسرة عريقة، وكون ثروة الأسرة عن طريق
قيامه بنقل منتجات من جزيرة ميتيلينى على مراكبه الخاصة، كالكُمثرى وزيت الزيتون،
إلى السواحل التركية. ولكن سوء حظه قاده للوقوع فى حب فتاة تركية من مدينة
إيفالى. لقد أحبها ثاناسيس لدرجة أنه رغب فى الزواج منها بأية طريقة. وقد تسبب
إصراره على الزواج منها فى إحداث شرخ بين العائلتين، وأصبحت حياته على جزيرة

ميتيليني مهددة بالخطر. أما إخوته، فلكى ينقذوه من هذا الخطر، فقد ساعدوه على الهرب فى جنح الليل تحت حمولة شحنة من الكمثرى المتجهة إلى الإسكندرية. ها هو إذن، شخص آخر وجد نفسه فى مصر بسبب الحب، هكذا فكر أندونيس ثم أخذ يصيح قائلاً (بالفرنسية) بصوت مرتفع «إنه الحب، إنه الحب».

* * * * *

فى اليوم الرابع من شهر أغسطس عام ١٩١٤، وهو اليوم الذى أعلنت فيه إنجلترا الحرب على ألمانيا، غادر أندونيس الإسكندرية وتوجه إلى القاهرة لتوقيع اتفاقية توريد السجائر للجيش الإنجليزى، مستقلاً إحدى عربات الدرجة الأولى للقطار السريع، وقد اتخذ قراراً جريئاً باصطحاب ستراتيس ميخيليس، محاميه الخاص، معه فى القطار، وكان ميخيليس على صلة قرابة بزوجة أندونيس، وقد تولى فى العامين الماضيين جميع القضايا التجارية الخاصة به. كان لوجود ستراتيس مع أندونيس أهمية كبرى، فقد كان يهدئ من مخاوفه بشأن احتمال رحيل المندوب السامى واستبداله بآخر.

اشتهر ميخيليس بين أقرانه بأنه "ذنب المحاكم المختلطة"، وكان يتمتع بسمعة طيبة باعتباره محامياً متميزاً وأيضاً باعتباره واحداً من أكثر المتحمسين لنظام الحكم الملكى، وكثيراً ما تحين الفرصة (أثناء وجودهما فى القطار) لتمجيد الملك والملكة، بل وكل أصحاب الدماء الزرقاء، ومنهم أندونيس مورد السجائر المعتمد لدى العائلة المالكة. لم تكن لدى أندونيس الرغبة فى الاستماع لهجوم ميخيليس على فينيزيلوس والتحالف الإنجليزى الفرنسى، وعندما كان ميخيليس يحتد فى هجومه كان يبادر بإيقافه بلهجة صارمة قائلاً: «يا ميخيليس، "يكفى ذلك" (قالها بالفرنسية)»، وعندئذ يكتسى وجه ستراتيس بحمرة الخجل، ويتململ فى مقعده، فإنه كان يعاود الكرة مرة أخرى للخوض فى نفس الموضوع وكأنه قد تذكر شيئاً مهماً، قائلاً: «إنهم يتملقون الملك ويقودون البلد بأسرها إلى كارثة، حتى إن فينيزيلوس الأحقق ينوى تدمير شعبنا بأكمله فى سبيل

تحقيق أغراضه الشخصية»، وعندما لم يعلق أندونيس معترضاً على هذه العبارة، قرر ميخيليس أن يستكمل حديثه بقوله: «فيما بيننا، أنا لا أصدق كلمة واحدة مما كتبته الصحف، والآن ستصبح اليد العليا للإنجليز، ولعلمك لن تستطيع أية جريدة الوصول إلينا في أثينا، كما لن يرى النور أى خبر معارض للتحالف، " نعم هذا أمر أكيد " (قال ذلك بالفرنسية)».

اعتبر ميخيليس أن نظرة خاراميس الجامدة دليل على التسليم بصدق معلوماته، فقرر استكمال حديثه قائلاً: «أمن الصواب أن يقوم أعضاء الجالية الآن بمهاجمة القنصل اليونانى واتهامه بموالاتة الألمان؟. إنهم يطلبون من السلطات الإنجليزية نفى كل موظفى القنصلية إلى مالطة»، وعندئذ تمت أندونيس قائلاً «ليتهم يطردونهم جميعاً لنستريح منهم»، غير أنه لم يفصح بذلك، حيث يتولى ميخيليس كل قضاياها منذ عامين ويؤدى عمله على أكمل وجه، على الرغم من أن أتعابه ليست باهظة؛ فى الوقت الذى يحصل فيه محامو القضايا التجارية فى الآونة الأخيرة على أتعاب تفوق الخيال. كان ميخيليس إذن يتميز بالنزاهة العالية، وفى الوقت ذاته يحصل على أتعاب بسيطة، كما كان يتمتع بالمهارة فى عمله وبالالتزام تجاه أسرته، يتعامل بحكمة مع ما يواجهه من مشكلات دون مبالغة فى طلباته. والآن لسنا بحاجة لخيال واسع لكى ندرك أن ميخيليس كان يستغل وضعه باعتباره محامياً خاصاً لأندونيس، وكان ذلك بمثابة التوافق الذى يربط بين شخصيتهما، فلم تكن المنفعة المادية محط اهتمامهما بقدر اهتمامهما بالجوانب الأخلاقية. تلك المنفعة التى كانت تمثل لميخيليس الشهرة على المستوى الاجتماعى والعلمى، وهو ما يدركه أندونيس جيداً، حيث كانت لميخيليس بعض السلوكيات التى كانت تجعله يتشابه مع أندونيس فى بخله، تلك السلوكيات التى كان أندونيس يتجاهلها إما عن قصد أو عن غير قصد. كل ذلك كان يدفع أندونيس للصبر على ثروة ميخيليس التى كانت تشعره بالمل، بل وتصبح أكثر إزعاجاً عندما يتعلق الأمر بالسياسة؛ ولكن دائماً للصبر حدود.

كان أندونيس يدير ظهره لميخيليس لبعض الوقت حتى يريح عينيه بالنظر إلى

الحقول الشاسعة التي تداخلت مع اهتزاز القطار في مداعبة مشاعره، مما جعله لا يدرك إذا كان ما يراه حلمًا أم أنه يرى بالفعل منظرًا " للفلاحين " (ذكرها باللغة العربية وبوئها بحروف يونانية) وهم في حقولهم ينحنون فوق أغصان القطن بأزهاره المتفتحة، ذات اللون الأصفر، وهناك أيضاً أعداد غفيرة من الفلاحين في حقول القمح وآخرون في حقول القصب والفاكهة، حتى إن أشجار النخيل بثمارها التي مازالت خضراء كان لها تأثير كبير على هذا المشهد الحالم، أما قنوات المياه فكانت تسرع في كل اتجاه بينما يحرق الفلاحون الأرض بمحاريث خشبية تجرها الأبقار والجمال والخيول، وتبادر إلى ذهن أندونيس هذا السؤال: "لماذا لا تتم زراعة التبغ على أرض مصر الخصبة؟" غير أنه تدارك الأمر وشعر بالامتنان لأولئك الذين منعوا زراعة التبغ في مصر عام ١٨٨٣، فبفضل هذا القرار نمت تجارة الدخان وأصبحت صناعته حكرًا على اليونانيين في مصر.

شاهد أندونيس حماراً وهو يدور حول الساقية معسوب العينين بإحكام، كما شاهد الفلاحات يحملن السلال فوق رؤوسهن، ويسرن في صفوف متراصة، وعندئذ بادر ميخيليس بالسؤال عن السبب الذي من أجله يتم عصب عيون هذا الحيوان فأجابه قائلاً:

«حتى لا يصاب بالذوار»، كانت إجابة غير متوقعة لأندونيس الذي لم يكن على دراية بأن الحمير تصاب بالذوار. وكلما اقترب القطار من محطة الوصول كلما ازداد إحساسه بهواء الصحراء الحارة، على العكس من الإسكندرية التي تشعر دائماً فيها بنسمات البحر.

وأخيراً، وصل القطار إلى محطة القاهرة، وعندئذ أحس أندونيس بحرقه في عينيه وبجفاف أنفه وباحتناقة من حرارة الجو، فتمتم قائلاً: «لابد إنه طابع العاصمة». غير أنه شعر بشيء من الراحة نتيجة ابتعاده عن ميخيليس ولو لبعض الوقت. كانت المدينة مترامية الأطراف تذكره بالمستودع الكبير .

مع وصول القطار، كانت المحطة تكتظ بالعديد من البشر والجنود الذين كانوا فى استقبال القادمين، فاندفعوا جميعا نحو أبواب القطار، محاصرين ركابه المنهكين، واختلط الحابل بالنابل، الرجال المتأنقون بظلمهم وأحذيتهم اللامعة بالفلاحين الذين يرتدون "الجلاليب" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، بأصوات الدجاج الذى يصيح مذعوراً من داخل الأقفاص. فى هذا الموج المتلاطم من البشر يمكنك أن تلمح ملابس الجنود البريطانيين ورجال الشرطة المصريين، كما يمكنك أن تلمح أيضاً بعض الصبية الذين يجوبون رصيف المحطة ويبيعون الصحف المصرية والإنجليزية والفرنسية، وهم يصيحون بجميع اللغات " الحرب " .

أصيب أندونيس بالذعر وتوقف للحظة ويحث عن إلياس وسط الزحام. إلى أن وجده يقف مع أندرياس سيستانيس، مدير أحد فروع فى القاهرة. ظهر أندرياس وقد امتلأ جسمه على ما كان عليه منذ آخر لقاء بينهما. وعندما لمح أندرياس مديره وجد أنه من اللائق أن ينادى على اثنين من الشياطين المصريين الذين يرتدون الجللاب و"الطربوش" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية). قام أندونيس مسرعاً برفع حقيبته الجلدية الصغيرة ليراها أندرياس الذى بادر فى التوجه بجمع الحقائب، وجذب الحمالات على ظهر اثنين من الشياطين، فأسرعا فى خفة بحمل الحقائب وكأنهما يطيران بها ثم منحهما أندرياس بعض النقود نظير ما قاما به من عمل، فانصرفا دون أن يتفوها بكلمة واحدة. كان أندرياس، ذا أصول أوروبية، واحداً من أكثر اليونانيين كفاءة فى القاهرة. وعندما رأى أندونيس يشير إلى ميخيليس ثم يغمز له بعينه، أدرك أندرياس أن أندونيس يريد التخلص من ميخيليس، فما كان من أندرياس إلا أن أسرع بحمل حقيبته قائلاً: «تفضل معى، يا سيد ميخيليس». نظر ميخيليس حائراً إلى أندونيس، الذى بادر بطمأنته قائلاً: «للتقى بعد نصف ساعة»، عندئذ تنفس أندونيس الصعداء وهو يشاهدهما يتعدان ثم استدار إلى إلياس وقال: «الآن يمكننا مغادرة هذا المكان أيضاً».

أشار إلياس إلى بائعى الجرائد ووجه حديثه لأندونيس قائلاً: «لقد فاض الكيل، يا صديقي»، وافقه أندونيس على ذلك ولم يستطع أن يخفى دهشته، وقال: «نعم، لقد كنتَ على حق، يا إلياس» ، فقد سبق لإلياس أن توقع حدوث كل ذلك، ومنذ الربيع الماضى كان دائم الحديث عن حدوث اغتيال سياسى فى أوروبا، وكأنه يدرك أن الألمان يمكنهم الضغط على النمساويين لدخول الحرب، وعندئذ فلن ينقضى الصيف دون أن تدخل إنجلترا هى الأخرى فى الحرب .

وفى طريقهم للخروج من المحطة، كان بانتظارهم جندى إنجليزى يقود سيارة سوداء اللون، وكان يستند على باب السيارة وفى يده سيجارة، ولكن بمجرد أن وقع بصره عليهم متجهين نحوه، ألقى بالسيجارة ثم أسرع بفتح باب السيارة لهما. وكان مظهره مضحكاً فى زيه العسكرى الصيفى وبنتاله القصير. وقد لاحظ أندونيس أن سيقان هذا الرجل تخلو من الشعر. كان منظر سيقانه سيبدو مقزراً إذا ما امتلأت بالشعر الأصفر الفاقع مثل لون شعر رأسه.

اتجه أندونيس وإلياس بعد ذلك إلى شارع نوپار باشا، كان بانتظارهما القائد العام للجيش البريطانى، وبصحبه الملازم أول ماكفيل. وإلى جانب حرارة الجو المرتفعة، كان الزحام شديداً، فكل أنواع الحاويات، من سيارات وعربات كارو كانت تختلط بأمواج البشر متعددى الجنسيات: من مصريين وجنود إنجليز وأوربيين. كان الطريق جيداً، غير أن إصرار إلياس على أن يسرع السائق بالسيارة كاد أن يتسبب فى وقوع حادث. كانت صفوف الأشجار المتراسة تشير إلى وجود ميادين مزودة بحدائق صغيرة وإلى وجود حدائق عامة، تتبعها صفوف أخرى متراسة من الأشجار تنتهى بحديقة كبيرة. وقد أضافى المصريون بجلاليبهم مختلفة الألوان لمسة من الجمال على هذا المشهد. وهنا جال بخاطر أندونيس كيف أضاع الأوربيون من أيديهم فرصة التمتع بتنوع الألوان، وذلك بإصرارهم على ارتداء الملابس ذات الألوان الغامقة فقط.

أخرج إلياس من جيبه علبة سجائر من ماركة خاراميس المشهورة وقدم سيجارة لأندونيس، ثم قال له مداعباً: «هيا، انفث هذه السيجارة وأخبرنى برأيك»، ثم قدم

سيجارة للسائق وأشعل ثلاثتهم السجائر بالقداحة الفضية التى تحمل الحروف الأولى من إسم إلياس خورى. أبدى أندونيس دهشته من سلوك إلياس، فبادره إلياس بقوله:
- «ماذا دهاك؟ (قالها بالفرنسية) أهى المرة الأولى التى ترانى فيها أذخن سجائر؟».

- «لا، ولكن كنت أظنك تذخن ماركات أخرى».

- «إنها متعة حقيقية عندما تقوم بتغيير ماركة السجائر بصفة مستمرة، ولكن على أية حال، هناك الكثيرون ممن يقومون بتصنيع السجائر الجيدة فى مصر»، ثم استطرد قائلاً: «المهم من هو الأفضل».

- «ألهذا السبب تقوم بالعمل معى؟».

- «أنا أفضل العمل دائماً مع الناجحين».

- «يا إلياس، أنا لا أعتبر نفسى ناجحاً، فأنا مجرد إنسان تخطى الخمسين من عمره وما زال يعمل دون كلل، وكانت متعتى الوحيدة منذ فترة فى الماضى هى الكد والتعب. ولك أن تعرف أن اضطرارى للسفر إلى القاهرة لتسليم البضائع إلى الإنجليز يعد عملاً فاشلاً، فأنا أعمل وأعيش فى مدينة مصرية صغيرة، وتلك المدينة التى لم تقدم لى شيئاً سوى خوض أهلها فى سيرتى، إنهم يتحدثون حتى عن ابنى، هذا الصبى الصغير: مع من يتحدث ولن لا يتحدث؟ إنه شىء مقزز» (قال ذلك بالفرنسية).

بعد مضى وقت قليل عرجت السيارة إلى الشارع العريض الكائن على النيل والذي يؤدى إلى واحدة من أكبر مشاريع أندونيس التجارية الناجحة. وفى ذلك الوقت كانت مياه النيل تميل إلى الاحمرار بينما تظهر مراكب الصيد والعوامات الراسية من خلف الأشجار الموجودة على ضفاف النيل، تلك العوامات التى يقصدها كثير من الأغنياء فى فصل الصيف، وقد هبت بعض النسمات الرطبة القادمة من ناحية النيل. وقد أعرب أندونيس عن أنه كان يفضل الإقامة فى فندق شبرد.

«كيف بدى فندق شبرد لإيفيت؟»، ألقى أندونيس هذا السؤال على إلياس وهو على يقين من أنه سيعبر عن إعجاب إيفيت به، لكن إلياس أجابه مقاطعاً: «ليست تلك هي اللحظة المناسبة لكى تفكر فى إيفيت، فالعمل أولاً» (قالها بالإنجليزية)

انزعج أندونيس من حدة إلياس فى الرد عليه، فهو لا ولن يقبل التوجيه ممن كان مشرداً بالأمس، ورد عليه بحدة قائلاً: «أنت لا تملك الحق فى توجيهى، ولى مطلق الحرية فىمن أفكر» عندئذ أسرع إلياس بالاعتذار موضحاً أنه لم يكن يقصد ذلك أبداً. - «سامحتك، ولكن أخبرنى، فانا أتخيل أن الفندق قد أعجبها، أليس كذلك؟».

- «أتعرف!» (قالها بالفرنسية)، لقد فكرت أنه بدلاً من شبرد، حيث يمكن لآى شخص أن يراك هناك، ما رأيك فى الذهاب إلى شقة أحد الأصدقاء فى هليوبوليس، ولا تقلق إنه من موطنى، ولذلك أنت لا تعرفه كما أنه لا يعرفك، وأرى أن ذلك هو أفضل، - «أؤكد لك ذلك» (قالها بالفرنسية).

رد أندونيس بقوله: «ما هذا؟» أهى مفاجئة؟ (قالها بالفرنسية)، لتعلم أنى لا أحب المفاجآت.

فبادره إلياس قائلاً: «ينبغى عليك أن تعترف بإصرارك الغريب على شبرد، على الرغم من وجود العديد من الفنادق الأخرى الفاخرة فى القاهرة. وإذا أردت أن تأخذ برأى فى المرة القادمة، فأنصحك أن تجرب تحفة المدينة الجديدة، فندق هليوبوليس بالاس» (قالها بالإنجليزية)، إنه جوهرة حقيقية وسط الصحراء، فخم وعظيم، لست أدرى من أين يبدأ المرء فى إبداء إعجابه به، من الأعمدة المرمرية، أم من الممرات المتناهية الطول. وفى هذا الفندق يقدمون الشاي وقت الغروب فى قاعات فارمة، حيث تعزف الأوركسترا مقطوعات من الموسيقى الكلاسيكية للترفيه عن نزلاء الفندق المميزين. إنه حقاً رائع. «أؤكد لك ذلك».

- «وأنا يعجبني شبرد. أهنالك مشكلة فى ذلك؟».

عندئذ أسرع خورى قائلاً (بالفرنسية): «لا توجد مشكلة، يا عزيزى، لا توجد مشكلة».

وفى الطريق وجدوا أنفسهم أمام قافلة إنجليزية من الجمال، يحمل كل جمل وعامين أسطوانيين من الماء، بينما تعدو بعض الجمال التى تخلفت عن القطيع خلفه حتى تلحق به. كانت الجمال تمد أرجلها للأمام مثيرة ضوضاء عالية، وكان المشهد بشكل عام طريفاً أندونيس: «أعتقد أنه من الضروري التوقف لرؤية إيفيت؟»، «هكذا سأله بتردد».

- «هل تطلب رأى؟»

- «نعم أطلب منك الرأى».

- «الأمر متروك لك» (قال ذلك بالإنجليزية).

- «هذا ليس برأى، ثم إننى أرى أنه إن لم أكن حريصاً فسوف تنتشر تعليقات الناس فى الإسكندرية».

- «الناس فى الإسكندرية تتحدث دائماً، بسبب وبدون سبب، فإذا ما تحدثوا عنك بسبب فإنهم على الأقل لم يظلموك».

- «لم أكن أعتقد أننى كنت سأعيش تلك اللحظات الرومانسية بدونك يا إلیاس، أعنى بدون مساعدتك، أنت تعلم ذلك، إلیس كذلك؟ ولو أنك.....».

فى تلك اللحظة كانت السيارة التى تقلهم تسير بمحاذاة أول جمل فى القافلة الإنجليزية، وقام قائد الجمل الإنجليزي بتحية قائد السيارة، فأخرج رأسه بدوره من السيارة ورد التحية، وقد لاحظ أندونيس وجود ندبة عميقة فى خلفية رأس الضابط الذى يميل لونه للاحمرار، وكان يحاول تغطيتها برفع ياقة القميص (عندئذ تذكر إلیاس حديث أندونيس الذى لم يستكمله فاستطرد إلیاس قائلاً: «ولو أنك...؟ ماذا».

- «نعم، لم تخبرنى كيف تخلق فيليب جاكو عن إيفيت عندما تعرفتُ أنا إليها».

- «أعتقد أنه قد بالغ قليلاً في الأمر، ولكنى أظنه لن يطاء مصر بقدمه مرة أخرى».
- «وهل ظهرت زوجته الحقيقية ونجلاته؟».
- «نعم من المحتمل» (قال ذلك بالفرنسية).
- «هذا يعنى أن إيفيت بقيت وحيدة بلا سند، كشمعة فى مهب الريح».
- «آه يا عزيزى» (قالها بالفرنسية)، أتعلم أننا - نحن الشوام - لا يجب أن يثق فينا أحد؟» قالها خورى ضاحكاً ثم استطرد: «إنك لم تسمع المصريين وهم يقولون إن اللبنانيين كالقحم» (قالها باللغة العربية وبونها بحروف يونانية)، لا ينبغي عليك إمساكه بيدك، لأنه إن كان مطلقاً فسوف تسود يداك، وإن كان مشتعللاً فسوف يحرقك»

ضحك أندونيس حتى بدت نواجره بوضوح، فقد كان على علم بأن "اللبناني" عن حق فيما يقوله، ففى علاقته بإيفيت كان يعى جيداً ما قدمه له إلياس من خدمات، على الرغم من أنها خدمات مكلفة، مما ساعده على الاستمتاع بكل لحظة قضائها مع إيفيت. وجد أندونيس نفسه فى القاهرة، عاصمة مصر التى كانت تحت الاحتلال البريطانى، داخل سيارة يقودها جندى إنجليزى، وكان حديثه مع "اللبناني" إما باليونانية أو بالفرنسية أو بالعربية، كل ذلك حول إيفيت الفرنسية - السويسرية. لقد تذكر ما قاله إلياس من أن التجارة والحرب هما النشاط الإنسانى الذى يمكن أن يفسر معجزة "التجمع متعدد الأعراق"، وقرر أن يبادر إلياس بسؤال عن الحرب.

- «ما قولك فى الحرب؟».

- «الحرب، الحرب» (رددها باليونانية ثم بالإنجليزية ثم بالفرنسية)، قل عنها ما شئت، الحرب طريق، أو سوق، مثل سوق خان الخليلى، فيها من يتلاعب بأعمار الناس وفيها من يتلاعب بالمال، مثلك أنت، وأرى أنه لا ينبغي علينا أن نقلق يا صديقى، إنها بمثابة القنبلة التى تكاد أن تنفجر بعيداً، وبالطبع، أنا لا أخفى عليك، كيف أننا نحن العرب غير المصريين نتحين الفرصة لكى نطيح بالحكم العثمانى».

- «لا تروق لى فكرة أن أصبح من أثرياء الدمار والخراب، فهذا الأمر يقلقنى بعض الشئ»، أتعلم ذلك! (قال ذلك بالفرنسية).

- «لم أكن أعرف أنك من محبى السلام».

- «أنا مجرد رجل يعمل فى صناعة الدخان ويسعى للعيش فى هدوء».

- «سعادتك فى هذه الأرض، سواء تشتريها بسعر مقبول أم غير مقبول، لكنك تحصل عليها فى النهاية مقابل تعاسة كثير من البشر الآخرين».

ثم سأل إلياس أندونيس إذا ما كان هذا الكلام تعبيراً عن مذهب مطلق أم نموذج لنفس إنسانية حاملة: فأجابه أندونيس:

«دعك (قالها بالفرنسية) من هذه الفلسفة غير المجدية، أريدك أن تحدثنى عن كيتشنر، يُقال إنه سيرحل».

- «إنه احتمال قائم (قال ذلك بالفرنسية)، فهم يُعدونه لتولى منصب وزير الجيش، أما كيتشنر نفسه فقد كان يفضل بالطبع أن يستمر فى عمله باعتباره مندوباً سامياً فى مصر. ولكنك تعرف كيف تجرى الأمور».

- «وماذا عن تابعنا..... كوشنر؟».

- «تابعنا، كان من الممكن له أن يصبح خليفته، ولكن لا، كيف تضع شخصاً فى منصب المندوب السامى فى حين أنه لا يستطيع أن يكبح جماح مشاعره تجاه من حوله من الشباب. هل تتذكر هذا الرجل ذا الشعر الأحمر فى لقائنا السابق فى شارع شريف باشا؟ إنهم فى القاهرة يطلقون عليه اسم الأنسة كوشنر، فهو رجل جاهل بأمور السياسة. ولكن عندما تنام وتستيقظ فى أحضان كوشنر فكل شئ وارد أن يحدث».

- «لقد انتابنى شعور بالقلق، فربما نكون قد أسندنا المهمة للرجل غير المناسب؟».

- «يا عزيزى أندونيس، الوجهه تتغير ولكن الاتفاقيات هى الاتفاقيات، وبالإضافة إلى ذلك، فلم يقم الإنجليز باختيار أندونيس خاراميس بالمصادفة ليعمل معهم هنا فى مصر على الرغم من وجود العديد من مصانع الدخان التى تنتج سجاثر ذات جودة عالية. فليست الجودة فقط هى ما يمكن أن تضمنه، ولكن الكم له أيضاً أهمية قصوى».

- «لقد أحضرت معى الرسومات الخاصة بتوسعة مصنع محرم بك».

- «شئ رائع» (قالها بالفرنسية)، فريما لم تكن هناك إذن حاجة ماسة لإحضار صورة سارة برنار، أما بالنسبة للرسومات فسوف يطلبون منك مشاهدتها، أنا واثق من ذلك (قالها بالفرنسية).

مضت دقيقتان منذ أن تركوا طريق الكورنيش، ودخل السيارة فى أحد الشوارع الضيقة، ثم تبع ذلك حدوث اهتزاز قوى للسيارة، تبعه انطلاق صوت النغير بشكل تسبب فى الإزعاج الشديد. فقد انقلبت إحدى عربات الكارو وتبعثرت حمولتها من ثمار التين على الطريق الممهّد بالحصى. أخرج السائق الإنجليزى رأسه من نافذة السيارة، ثم أطلق سيلاً من الشتائم على سائق العربة الكارو، وكان أسود البشرة يخلو فمه من الأسنان، فقد حاول السائق منقطع الطريق بعربته الكارو بصورة مفاجئة مما تسبب فى انقلابها. بصق سائق العربة الكارو على الأرض، وبدأ فى فاصل من السباب لحصانه، فى حين شرعت امرأة فلاحه تجلس بجواره فى النحيب والطم على خديها. وفجأة امتلأ الشارع بأناس يرتدون جلابيب متعددة الألوان وطرايبش. حاول أحد رجال الشرطة المصريين أن يعيد النظام مرة أخرى. غير أن السيارة أصبحت محاصرة من كل جانب وقد تسمرت فى مكانها.

بعد انفراج الطريق وصلت السيارة إلى شارع نوبار باشا، وتوقفوا أمام مبنى مكون من ثلاثة طوابق، حيث يرفرف العلم الإنجليزى فى الطابق الأول، وقد تولى ضابط إنجليزى مهمة إرشادهم إلى مكتب العقيد ماكفيل، القائد العام للجيش البريطانى، كانت خطوات الرجال الثلاثة وهم يصعدون السلم الخشبى العريض تشبه

دقات الطبول. وقد تلاحظ وجود بعض القبعات المعلقة على الشماعة فى المدخل، وكانت تخص ميخيليس وسيستاتيس. وقد بدا أن الضابط ضخم الجثة الذى كان يقف بجوار ميخيليس هو العقيد ماكفيل، وعلى الجانب الآخر كان ميخيليس يتحاور فى نقاش حاد دار بين الرجلين واضعاً الباب فى فمه، وكانا يطفئان بواقى التبغ الملقاة على الأرض بأقدامهم، ومن فوقهم كانت المروحة الضخمة المعلقة فى السقف تثير الهواء الساخن والدخان معاً. أشار ماكفيل بأصابع يده بالرقم ثلاثة، صائحاً (بالإنجليزية) «ثلاثة أيام على الأكثر» فى حين حرك ميخيليس سبابته رافضاً، مبدئياً اعتراضه (بالإنجليزية) بقوله: «أسبوع واحد، يا سيدى، أسبوع واحد على الأقل». عندئذ توجه خاراميس بالسؤال إلى سيستاتيس هامساً: «أندرياس، ماذا هنالك؟» فأجابه بدوره هامساً: «هناك مشكلة تتعلق بالبنود يا سيد خاراميس، ويحاول ميخيليس أن يستجلبها».

فى اللحظة ذاتها استدار المحامى تجاه أندونيس ونحاه جانباً، ثم قال:

«إنهم يعطوننا مهلة ثلاثة أيام، وبالطبع سوف تدفعون ثروة طائلة عن كل يوم تأخير "ودون نقاش" (قالها بالفرنسية) لا ينبغي توقيع هذا العقد بأى حال من الأحوال، يا سيد خاراميس، إنه بمثابة انتحار».

لاحظ أندونيس كيف تحول وجه ميخيليس إلى اللون الأحمر. ومما لا شك فيه أن المحامى كان يأخذ الموضوع كله على محمل الجد، أما أندونيس الذى كانت لديه القدرة أكثر من أى شخص آخر على التقليل من شأن شركائه. فقد قرر أن يتولى المباحثات بنفسه، فنحى ميخيليس جانباً وتوجه نحو الضابط ثم تحدث معه بلهجة إنجليزية رصينة قائلاً :

«سيدى، أرجو أن تغفر للمحامى الخاص بى، فقد تصرف بطريقة عفوية، وأحب أن تعلم أن خمسة عشر يوماً تعد فترة كافية بالنسبة لنا. فالتأخير لمدة أسبوعين فى وقت الحرب يعد منطقياً. يمكنكم بعد هذه المدة احتساب نصف الشرط الجزائى. فإذا نال هذا العرض رضاكم، فنحن على استعداد للتوقيع فوراً، وعدا ذلك فيمكنكم أن

تبحثوا عن مورد آخر، ولديكم الوقت حتى المساء للوصول إلى حل لهذا الموضوع، وبإمكانكم أن تستشيروا رؤسائكم ثم نعاود الحديث مرة أخرى».

شعر أندونيس بأنهيأ هذا الرجل الضخم أمامه، بما يحمله جسده من عضلات ودهون، تماماً مثل انهيار أحد الأبراج الضخمة. ارتسمت ابتسامة حائرة معلقة على وجهه ماكفيل، في حين عض كوشنر على البايب من فرط انبهاره، أما إلياس فقد تغير وجهه إلى ألف لون. أما سيسطانييس وميخيليس فقد تبادلوا ابتسامات النصر.

«مات الملك» إنه أفضل تعبير عن تلك الحركة المتميزة التي قام بها صاحب العمل (أندونيس) على رقعة الشطرنج التي يقفون جميعهم عليها، والآن يمكنه السير متأنباً ذراع "اللبناني" الذي بدت على وجهه الدهشة من هول ما حدث. ثم وجه أندونيس تعليماته إلى أندرياس سيسطانييس قائلاً:

«أترك الآن ستراتيس في رعايتك، لا أريده أن يشكو لي بعد استضافتك إياه، وسوف نجتمع نحن الأربعة في المساء».

توجهت السيارة بصحبة الضابط الإنجليزي إلى فندق شبرد، حيث تناول أندونيس مع إلياس طعام الغداء في قاعة المطعم الكبرى، التي تتدلى الثريا من سقفها تماماً مثلما تتدلى عناقيد العنب. كان هناك عدد كبير من الخدم الذين يقومون بتلبية رغباتهم، فبدأوا بتقديم الطبق الرئيسي في أوان فضية مغطاة، وفي نفس الوقت، بادر اثنان من الجرسونات بكشف الغطاء بطريقة مثيرة للإعجاب. وكان إلياس قد احتفظ بسيجارين غالين من مجموعته لما بعد الغداء، فأخذوا يستمتعان بهما وهما يتناقشان في النتائج المنتظرة من نشوب الحرب.

لم يعرف أندونيس كيف مر الوقت سريعاً، واحتاج أن يذكره إلياس بأنهما قد تخلفا عن موعد مهم في شارع نوبار باشا. وفي طريق العودة أراد "اللبناني" أن يعبر عما حدث في اللقاء، فقال بشكل مفاجئ: «كان ذلك تصرفاً موفقاً منك (قالها بالفرنسية) يا أندونيس، وفي كل الأحوال أنت رجل أعمال بمعنى الكلمة (قالها بالإنجليزية)». فقد تمكن هذا الرجل اليوناني القدير من التلاعب بالقائد البريطاني

كيفما شاء، من خلال وضع شروط صعبة. وكان على يقين بما سيحدث في اللقاء المنتظر في المساء مع الإنجليز، فقد أخبره ماكفيل بالشروط الجديدة المعدلة، التي تنص على تخفيض مدة الشرط الجزائي إلى عشرة أيام، كما أخبره بأنه لم يكن من الصواب أن يختبر أحد صبره. كان هناك اتفاق غير معلن بين كل تلك العناصر، فتشدد ماكفيل كان مرتباً مع وسطاء كوشنر، نظير حصوله على مبلغ كبير بالطبع من الجنيهاات الإسترليني "في الخفاء" (دونها بالإنجليزية)، وقد حصل عليها من أندرياس سيستانيس تنفيذاً لأوامر أندونيس، غير أن تلك التفاصيل الدقيقة لم يكن من المهم أن يلم بها كل من هو غير ذي أهمية مثل خوري أو حتى كوشنر. كانت مس جريس، سكرتيرة الضابط ماكفيل صاحبة السيقان الممتلئة، قد إتخذت مكانها أمام الآلة الكاتبة، وبدأت في كتابة الشروط الإضافية التي سوف تلحق بالعقد. وكان الرضا بادياً على وجه الجميع بإبرام ذلك الاتفاق. كان ماكفيل يشعر بشيء من الخوف والفزع من القيام بأى نوع من المخاطرة يمكن أن تؤدى إليها هذه المبادرة الصباحية، مثل كوشنر الذى اصطحب معه مستشار وزير شؤون الشرق الأوسط ذا الشعر الأحمر، وميخيليس الذى عارض بقوة الشروط الأولى، وسيستانيس الذى أنهى مهمته بنجاح ونفذ أوامر رئيسه في العمل؛ وقد حضر اللقاء أيضاً كل من المحامى وخوري الذى ضمن لنفسه عمولة ضخمة. وقبل كل هؤلاء حضر خاراميس الذى انتابته حالة من السعادة البالغة .

كان أندونيس يجلس محتسباً كوب الشاي الذى قدموه له، مستمتعاً فى الوقت ذاته بكل سعادة لطريقة أزرار الآلة الكاتبة. ولم يكن هناك ما يمكن أن يبعده عن عشيقته سوى قيامه بجولة سريعة فى محل بيع التبغ فى شارع عبد العزيز، ذلك المحل الضيق، الذى ما تلبث أن تدخله حتى تكاد تخرج من الناحية الأخرى. وفى اللحظة التى أمسك فيها بريشة الكتابة وغمسها فى الحبر ثم خط على الورق إمضاءه بحروف عريضة، أحس وكأنه قد طبع أول قبلة على جسد إيفيت المرمى.

على أية حال، كان الليل قد أرخى سدوله عندما تحركوا فى الطريق إلى هليوبوليس، حيث بدأت أنوار القاهرة تضىء الواحدة تلو الأخرى، وتنعكس على صفحة

المياه الراكدة فى صفوف طويلة غير منتظمة. كانت السيارة تتحرك بسرعة على الطريق الممهّد بالأسفلت، وكان أندونيس يبدى إعجابه بصفة مستمرة بما لاحظته من نظام وتقدم واضحين فى نواحي الحياة المختلفة فى العاصمة وضواحيها، ولم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير فى ذلك التناقض الواضح بين رغد الحياة وبين بؤس الفلاحين، وتعد منطقة هليوبوليس الجديدة، التى استقبلتهم بمبانيها ذات الطراز العربى البيزنطى والممتدة فوق التلال الصحراوية، تأكيداً على ذلك الرخاء الذى ينعم به أهل القاهرة. وقد علق إلياس، بصوت رخيم ومرهق من صخب أحداث اليوم والكم الهائل من السجائر، على الانطباع المؤثر للمدينة قائلاً: «لأبد لنا أن نعبر عن امتناننا للإنجليز بهذه المعجزة، فأسلوبهم المنظم هو خير ضامن لهذه المشاريع العظيمة، إنهم بلا شك أفضل قادة فى العالم».

عندئذ قاطعه أندونيس الذى لم تكن لديه أدنى رغبة فى الاستماع لشيء آخر عن الإنجليز قائلاً:

«أخبرنى على الأقل، هل المنزل الذى تصحبينى إليه جيد أم أنه.....»، فبادره إلياس قائلاً: «ثق بى (قالها بالفرنسية)، يا أندونيس، فهل سبق لى أن خذلتك من قبل؟»، قال أندونيس: «وإيفيت، ألم تقل لى إنها ستنتظرنى هناك؟» ثم قال مرة أخرى «ياله من جمال»، وما إن انتهى من ذلك أندونيس حتى استقبلته إيفيت مرتدية روباً من الحرير كريمى اللون، وكانت تضع سيجارة فى طرف فلتز طويل. كانت الشقة تشبه إلى حد كبير شقة إلياس الكائنة فى رشدى، حتى إن أندونيس كاد يجزم بأن مالك الشقة المجهول هو خورى نفسه. ففيها اللمسات الفنية الغربية والشرقية، مع وجود اختلاف وحيد، حيث كانت جدران غرفة النوم مغطاه بمشاهد فاضحة من الحضارة الفرعونية بدلاً من المرايا التى كانت تغطى شقة إلياس، وكان أندونيس قد شاهد مثيلتها فى أحد بيوت البغاء فى الإسكندرية. تناول أندونيس وإيفيت طعام العشاء واحتسباً معاً الكثير من أكواب النبيذ، ثم قاما بتدخين الشيعة، بعد ذلك عرضت إيفيت على أندونيس البوماً لكروت السجائر، يحتوى على صور لنساء عاريات كانت توضع على أغلفة السجائر حتى تجذب المدخنين. ثم قالت: «كما ترى فأنا دووب على جمع الصور،

مما يعنى أننى متحيزة لصنف السجائر التى تنتجها، لقد جمعت بالفعل ألبوماً كاملاً منها وأتساءل عن الجائزة التى سأربحها» وقاما معاً بفتح الألبوم، وربما كان غرض إيفيت من كل هذه الصور الفاضحة لنساء عاريات هى استثارة أندونيس وغوايته، تلك الصور التى كانت تحتوى على أوضاع ساخنة تتعارض مع أخلاقيات العصر. توقفت إيفيت عند إحدى الصور وسألت أندونيس بصوت مرتجف إذا ما كان يعرف صاحبة تلك الصورة، فكانت إجابته: «كيف لى أن أعرف ذلك؟ فتلك الصور تأتينا من الخارج لموديلات وراقصات، وممثلات مشهورات..... وغيرهن الكثيرات والكثيرات». أحس أندونيس بإيفيت وقد استشاطت غضباً، وتوهجت وجنتاها وأصاب البلب شفتيها. كيف حدث ذلك وقد اعتاد من تلك الشفتين التلفظ بكلمات فرنسية رقيقة، لقد أيقن أندونيس أنه لا ينبغى عليه أن يتأخر عليها مرة أخرى. وبعد انقضاء شهرين على أول لقاء بينهما، توافقا فيها معاً فى لقاءاتهما العاطفية بشكل فاعل شعر خلالها أندونيس معها بالراحة، مما جعله يبوح لها بقصة ثاناسيس القادم من جزيرة ميتيلينى والدور المؤثر الذى كان يلعبه فى علاقتهما عندما يرغب فى إعادة السكن إلى نفسه، لقد أثار هذا السر إيفيت إلى حد كبير، لدرجة أنها أجبرته أن يعيد على مسامعها القصة مرة أخرى بصوت مرتفع باللغة الفرنسية خلال تبادلها الغرام. وبعد انقضاء شهرين على لقاءاتهما لم يكن السحر بينهما قد زال. فكانت تلقاه وقد عطرت جسدها بأفخم العطور، مما يجعله يقبل عليها بكل شوق ورغبة^(*)، لا يتناسبان مع عمره. مما جعلها تسأله (بالفرنسية): «هل تبلغ الخمسين من عمرك؟ هل أنت متأكد؟ هذا ليس صحيحاً!».

لقد فعلا كل ما يحلو لهما حتى اقترب فجر الخامس من شهر أغسطس عام ١٩١٤، وارتفع صوت "المؤذن" (ذكرها باللغة العربية ووثنها بحروف يونانية) من فوق المنذنة. وبينما كانت البشرية كلها تعاني من ويلات الحرب العالمية الأولى، كان أندونيس خاراميس بعيداً كل البعد عن ذلك، فقد أصبح أكثر ثراءً وأكثر سعادة عما كان عليه من قبل، غير أن هناك ما تسبب فى تعكير صفوه.

* * * * *

أطلقت إيفيت دعابة تعبر بها عن رغبتها فى العودة إلى الإسكندرية، فقالت «العودة إلى الأسر». ويبدو أنها لم تكن سعيدة فى قفصها الذهبى، فى الشقة التى استأجرها من أجلها خاراميس فى شارع السلطان حسين، على الرغم مما بها من أثاث فاخر؛ كما لم تكن جولاتها التى تقوم بها فى أرقى محلات المدينة لشراء الملابس غالية الثمن كافية لى تخفف من حدة معاناتها. لم يساور أندونيس الشك فى أنه قد تمكن من تعويضها عن كل ساعة ضاعت من حياتها معتمداً على ثقته فى الصانع الأرمينى كيفورك كيفوركيان الذى يقع محله فى شارع فرانكاس، وليس فى شارع شريف الراقى المستوى، ورغم ذلك فقد كانت لديه الخبرة فى التعامل مع زبائنه من الأغنياء كما كانت لديه القدرة على كسب ثقتهم بما لديه من مشغولات ذهبية لها طابع فريد ومتميز، والأهم من كل ذلك، ما كان معروفاً عنه من تكتم، ومن ناحيتها كانت إيفيت تقبل الهدايا غير المتوقعة، متظاهرة بالمفاجأة، تماماً مثلما كانت تتظاهر باللهفة والنشوة فى اللحظات التى كانا يقضيانها معاً، مما جعل أندونيس يتشكك فى صدق مشاعرها تجاهه. لم تنس إيفيت أن تذكر أندونيس بأن كل مجوهرات الدنيا مهما بلغت قيمتها، لن تعوضها عن غياب أعظم الجواهر وأغلاها، وهى عشيقتها الحنون، كانت تلك هى الطريقة التى تبدى بها إيفيت فى كل مرة تبرمها من غياب أندونيس المتكرر وغير المبرر من حياتها، عندئذ أدرك أندونيس - مثل أى إنسان آخر - أنه قد جاء عليه الوقت الذى يشعر فيه بالفرق تحت وطأة هذه الحياة المزوجة. فأخذ يبحث عن بضع لحظات يقضيها بعيداً عن ذلك العذاب المزوج المتمثل فى الزوجة والعشيقة؛ كان أندونيس يأمل أن تتفهم إيفيت موقفه الحرج، وكان يحزنه أن يبحث عنها فى شقة السلطان حسين بعد فترة غياب عنها لبضعة أيام تنقطع خلالها لقاءاتهما الغرامية دون أن يجدها، ولكن سرعان ما تتبدد مخاوفه مع وجود روب النوم الخاص بها معلقاً فى الدولاب ويطمئن لعودتها. ورغم ذلك فقد قامت إيفيت بتعبئة كل شئ نفيس يخصها: من ملابس غالية الثمن وأحذية وملابس داخلية وأنوار التجميل، وبكل تأكيد المجوهرات، وضعتها جميعاً داخل حقيبتين كبيرتين من الجلد، كانت قد اشترتهما من القاهرة، فمن الواضح أن الأنسة إيفيت قد قررت الهروب لبعض الوقت من قفصها

الذهبي، وكانت الطريقة الوحيدة لمعرفة مكانها هى سؤال رمزى البواب الذى أغدق عليه أندونيس الكثير من الأموال ليتتبع خطاها، أسرع رمزى بإخبار أندونيس أنه قد رافق بنفسه الأنسة إيفيت إلى محطة القطار بالقاهرة، ووضع حقائبها فى القطار المتجه لمدينة السويس، ولكن كيف عرف رمزى المكان الذى ستتجه إليه إيفيت؟ لأنها بكل بساطة، كانت قد سألته فى الطريق قائلة: «أخبرنى، هل سبق لك الذهاب إلى مدينة السويس؟». ومن المفترض أن لها صديقة قديمة تعيش هناك، امرأة متزوجة من موظف يعمل فى شركة قناة السويس. وفى الوقت الذى كانت فيه إيفيت على دراية بأن رمزى يحصل من أندونيس على المال ليشى بها، كان أندونيس يعتبر تلك المعلومات بمثابة تقرير شفهي يشعره بالارتياح ولو بشكل مؤقت.

كان غياب خورى فى الوقت نفسه هو أكثر ما كان يثير الشك والريبة فى نفس أندونيس، فقد بحث عنه فى كل مكان: فى محلات شارع شريف، فى نادى محمد على، على شاطئ ستانلى، فى نادى سبورتنج، فى شقة رشدى، ويوم الأربعاء فى شقة صامويل عظيمان - اليهودى - حيث كانوا يلعبون الورق. لم يظهر أى أثر " للبنانى " فى الأيام الأولى للحرب، وهى الفترة التى كانت الإسكندرية تعيش فيها فى حالة ترقب، ربما اتباعاً لسياسة الصبر. وكان جلياً اهتمام البعض بالعطلات الصيفية أكثر من اهتمامهم بالتصادم الوشيك (بين ألمانيا وإنجلترا). كان وقوع مصر تحت الوصاية البريطانية دائماً فى البال، لأنها لو أرادت دخول الحرب بشكل جاد، فسوف يتم ذلك من خلال الإمكانات الهائلة للمراكب الحربية الخاصة بالأسطول " الملكى البريطانى " الراسية فى الميناء الغربية لمدينة الإسكندرية. أما بالنسبة لأندونيس فكان حرياً به ألا يشغل باله بمكان كل من إيفيت وخورى، ولكن بالنقص المتوقع للورق فى قادم الأيام وكيفية تأمين نقل الدخان إلى مصر.

وبعد عشرين يوماً من الترقب والشكوك، وصلت رسالة من خورى إلى أندونيس تحتوى بضع كلمات لم يستطع هو أو من معه تفسيرها، كانت الرسالة تقول: «لقاؤنا فى الواحدة من بعد ظهر الغد فى حانة دانييل (كتب ذلك بالفرنسية)، لدى الكثير

لأقصه عليك». وفي الحادية عشرة من صباح اليوم التالى كان " اللبناني " يجلس منتظراً على مائدتهم المعتادة فى حانة دانييل، حيث شاهد أندونيس قادماً، وكان المكان مكتظاً بالسياح، مما يؤكد أنهم لا ينوون مغادرة الإسكندرية، وفى أثناء دخوله، قدم له صاحب الحانة اعتذاره عن هذا الصخب الخارج عن إرادته؛ ولم يكن المكان يعج فقط بالموظفين ورجال الأعمال القادمين من القاهرة الذين تدافعوا إلى شواطئ البحر المتوسط، ولكن كان هناك أيضا أولئك الذين منعهم إعلان الحرب من الهرب ولو لفترة وجيزة إلى أوروبا. لم يهتم أندونيس بذلك، بل كانت الأجواء مناسبة له حتى يستطيع قضاء وقته دون أن يلحظ وجوده أحد.

لم يسرع الصبى، الذى يعانى من حوّل فى عينيه، كالعادة بأخذ القبعة من أندونيس بل أخذتها فتاة شعرها فاتح اللون، مصفف على شكل ذيل حصان، ترتدى زياً شعبياً مصرية، وهى تشبه فوزى إلى حد كبير، لأنها شقيقته، طبقاً لما ذكره إلياس لاحقاً. ومن ملامحها يمكن أن تستشف العرق الأوروبى الذى خلفته حملة نابليون فى السكان الأصليين فى منطقة رشيد. طلب أندونيس مشروب البيرة، فقدمته له فتاة جميلة من أصل نمساوى، تضع عطراً جذاباً؛ وفى الجانب الآخر من الحانة كان ريناتو الفتى الرشيق، وهو ابن دانييل، يقوم بتقديم الطلبات. وفى كل مرة يتجه فيها للبار كان يتبادل عبارات حادة باللغة الإيطالية مع أبيه .

وبدلاً من الدخول فى مقدمات، قام إلياس بإخراج مسبحة ضخمة من الذهب والكهرمان، كان قد اشتراها خصيصاً لتتناسب مع مكتب أندونيس، وحاول جاهداً إقناعه بأنه قد اشتراها من إسطنبول: «لماذا لا تصدقنى؟» قال ذلك " اللبناني " وهو يعرض على نواجزه كالطفل الصغير، «وكيف ذهبت، يا إلياس، إلى إسطنبول، بالطائرة؟ على الرغم من حظر الطيران، أظننى كروديو!» قالها أندونيس بنفس الطريقة التى اعتاد أن ينطق بها خورى، بدلاً من كوروينو، وهى الطريقة الصحيحة لنطقها باليونانية (وتعنى مغفلاً). «تمكنتُ من السفر قبل حظر الطيران بيوم واحد» أصر إلياس على رأيه ونادى على دانييل مستشهداً به، تفحص دانييل - البارمان الإيطالى - المسبحة

بدقة، بعد أن أبدى استياءه من الزبائن المزعجين، ثم صاح قائلاً (بالإيطالية):
«يا الجمال، يا للضخامة، شيء مذهل!»، ثم ذكر أنه لم يسبق له رؤية مسبحة مشابهة لها
في الإسكندرية، وزاد على ذلك بأنه على يقين من أن السيد خورى قد جلبها من
إسطنبول. وعندئذ قال إلیاس: «أندونيس، كان على أن أذهب قبل دخول تركيا الحرب
ولا سأخسر أموالی، ألا ترى ما يحدث فى العالم؟» (قال ذلك بالفرنسية). كانت لدى
خاراميس الرغبة فى تصديقه أكثر من أى شيء آخر، وعندما أخرج خورى تذاكر
السفر، دون أن يطلب منه خاراميس ذلك، ارتسمت فى عقل خاراميس خريطة للمكان،
استطاع من خلالها أن يحسب المسافة بين السويس وإسطنبول، وعندئذ فقط شعر
براحه لم يجد لها تفسيراً، وقال: «لم يكن هناك داعٍ لى تبرز لى تذاكر السفر، فأنا
أصدقك، ومن جهة أخرى» (قالها بالفرنسية)، فأنا لست بحاجة لتقديم تقرير مفصل
عن كل خطوة تخطوها». فى هذه اللحظة تحول عقل أندونيس للتفكير فى إيفيت، وفضل
أن لا يتناقش مع "اللبنانى" فى موضوع اختفائها، طالما أنه، كما يبدو، لم تكن لديه
فكرة عن ذلك.

- «هل ذكرت أنك أوشكت على خسارة مبلغ كبير من المال؟».

- «مبلغ كبير جداً، يا أندونيس، "وسيكون ذلك بمثابة الكارثة!" (قال ذلك
بالفرنسية)، فلا ينبغي لأحد أن يستثمر نقوده فى إسطنبول فى هذا الوقت، ما
لم يكن مستغنياً عن نقوده».

- «وهل تم تأكيد دخول الأتراك فى الحرب؟».

- «لنرى ما سيحدث بين أمير باشا والأتراك الجدد، أولئك "اللقطاء" (قالها
بالفرنسية)».

ومن البار كان يمكن سماع صوت ريناتو الحاد مازحاً مع دانييل، كان الأب
والأبن يلعبان دوراً رئيسياً بشكل مسرحى بصوتيهما وسط أصوات زبائن الفترة
الصباحية الصاخبة.

أدركت إيفيت أن أول صيف لها في الإسكندرية سيكون مختلفاً. وقد بدت رحلتها إلى أرض النيل في البداية كحلم شاب، فلم تكن على يقين إذا ما كانت قد وصلت إلى مصر متتبعة خطى فيليب جاكو أم أنها جاءت تنفيذاً لرغبة إلياس خورى والمخابرات البريطانية. وكان من المفترض أن تعود إلى أوروبا بعد انتهاء علاقتها بفيليب. فهي، على الأقل، لم تسع بأي حال من الأحوال لاستبداله برجل آخر مثل أندونيس خاراميس، بل والأكثر من ذلك أن تظل حبيسة أربعة جدران. لقد تم كل شيء تماماً منكما خطط له "اللبناني". والآن، كلما دخل منزلها، يدرك أنها قد تخلت عن فكرة العودة إلى أوروبا، والرغبة في الاستقرار في باريس أو في أى مكان آخر تستطيع أن تستكمل فيه حياتها من حيث توقفت، تلك الرغبة التي كانت مقرونة بتخليها عن رجلين مرموقين، فمن قبل كان هناك جاكو والآن خاراميس، وفي واقع الأمر، لم تكن إيفيت تشعر بوجود فارق كبير بينها وبين كل هذه "القطع الفنية" (قالتها بالفرنسية) الموجودة داخل شقتها في شارع السلطان حسين، تقضى بينها الساعات الطوال. وبين كل زيارة وأخرى من زيارات أندونيس، أو أنطوان - كما كان يحلو لها أن تتناديه - كانت تعاقبه (على تأخيرها) بالقيام بجولات مفاجئة في المحلات الراقية: مثل سلسلة محلات "هانو" و"شتاين وبالمطبع" بآزار ليونيز و"صالون" (ذكر أسماء المحلات بالفرنسية)، ثم تعود بعدها إلى المنزل وهي محملة بتلال من صناديق المشتريات في عربتين من عربات الحنطور. كل هذا الكم من المشتريات كانت تجمعها لاحقاً، فقد اعتادت إيفيت أن تجمع إيصالات مشترياتها المتعددة وتضعها على المائدة في غرفة المعيشة، حتى يراها أنطوان فيقبل الأمر، ويقابل ذلك بابتسامة. كان البواب يحاول جاهداً حمل كل هذه المشتريات، في حين كانت إيفيت تفرك يدها دليلاً على رضاها، ولكن سرعان ما يتغير الوضع بمجرد أن تغلق الباب على نفسها مرة أخرى وتعود سجيئة لوحدة الانتظار، تراودها أفكار مشوشة ومشاعر متبلدة .

لم تكن هذه هي الحال مع فيليب، فقد كانت على علم بأنه متزوج ولديه أولاد، غير أن أسرته كانت تعيش بعيداً طوال المدة التي أمضيها معاً، وكانت إيفيت تقدم نفسها على أنها عشيقته رسمياً. كان يرافقها في كل مكان، وكانا يفعلان كل ما يحلو لهما.

وقد عاشا حياتهما دون أن يقدمَا كشف حساب لأحد فى يوم من الأيام. ولكن منذ اللحظة الأولى التى دخل فيها مسيو خاراميس حياتها، أصبحت تشعر أن المدينة كلها تنظر إليها، فاخترت أن تبقى محبوسة فى المنزل على أن تسمح لأحد بانتقادها أو أن تورط معها حبيبها الوسيم. وتعد المرات التى ذهبت فيها للاستحمام فى البحر سواء فى سان ستيفانو أو فى ستانلى بيه أو فى جليم على أصابع اليد الواحدة. كان باستطاعة إيفيت أن تستأجر غرفة فى "فندق كارينو سان ستيفانو" (دونها بالإنجليزية) الفاخر أو شاليهاً من الشاليهات الخشبية على أحد شواطئ الإسكندرية، التى كانت تشبه الموانئ البحرية فى التقائها بالكورنيش. ولكنها لم تفعل، فقد أصبحت حبيسة جدران المنزل الأربعة. هل هذه حياة؟ وفى النهاية فقد سئمت النظر إلى الباب ذى الرأس المربعة وزوجته السمينة بعينها الخبيثتين وقرطها الضخم. ولكى تستطيع التواصل مع الناس اعتادت إيفيت أن تبعث فى طلب فيرونيكا (الخطاة) من وقت لآخر لحياكة ملابس جديدة، تلك الملابس التى كانت تظل حبيسة الدولار دون أن تستخدمها، كل ذلك كان من أجل وفقط أن تضمن بقاء فيرونيكا معها لمدة ثلاثة أيام متواصلة. كانت فيرونيكا، التى يرجع أصلها إلى جزيرة مالطة، تتعهد بالبقاء معها، وكذلك مساعدتها، فى المنزل يومياً منذ الصباح حتى المساء إلى أن تنتهى من حياكة الملابس وتسليمها قبل الموعد. ولكن كل ذلك لم يكن حلاً لمشكلتها، فهى، مثل أية امرأة أخرى، كانت ترغب فى القيام بجولاتها فى الشوارع والمحلات وأن تلفت أنظار الرجال والنساء وأن تصغى للكلمات الإعجاب والإطراء من المعجبين من الرجال. أما الآن فكل ما تسمعه الآن من كلمات كانت على سبيل المجاملة من فيرونيكا. شعرت إيفيت أنها لن تستطيع تحمل هذا الأسر لمدة طويلة، الأمر الذى كانت قد حذرت منه إلياس من قبل، وعندئذ قال إلياس متسائلاً: «هل يزعجك أن يكون أنطوان أكبر سناً مما كنت ترغبين؟» لمحت إيفيت فى سؤال إلياس انتهاكاً لخصوصيتها الأمر الذى تسبب فى أزعجها. وعلى أية حال، فقد كانت على وشك أن تجيب عن سؤاله بالنفى، للتأكيد على قوة ونشاط رجل الصناعة ذى الخمسين عاماً، وقالت "من المؤكد أن السن لا تبدو عليه على الإطلاق، فأنطوان يقوم بكل ما ينبغى عليه القيام به، إذا كان هذا هو المقصود من

سؤالك». لم يكن إلياس يقصد شيئاً، أوعلى الأقل فهو لم يصرح بهذا الأمر، ولكن كل ما أُراده هو؛ التأكد إذا ما كان أندونيس هو المتحكم فى حياتها أم لا، فى حين شعرت إيفيت بالغضب الشديد تجاهه، فقد أدرك إلياس أن المشكلات التى وصفتها إيفيت تحتم عليه باعتباره رجلاً أن يداعب غروره. أحست إيفيت لمرتين بأنّها أصبحت على وشك أن تتخلى عن كل شىء والعودة إلى أوربا، وفى المراتين كان إلياس يردّها إلى صوابها فى آخر لحظة، مذكراً إياها بالحرب القادمة، حتى قامت الحرب فى النهاية. وفجأة قررّ اللبنانيّ أن يقوم معاً برحلة إلى إسطنبول.

سألته إيفيت: «ألم يكن من الممكن تأجيل هذه الرحلة؟».

فأجابها إلياس: «لابد أنك تمزحين، فبين ليلة وضحاها سيتم فرض حظر الطيران، وأشك فى أننا سوف نتمكن من القيام بهذه الرحلة فى وقت لاحق».

إيفيت : «وماذا عن أنطوان؟ يا له أمر مثير للسخرية» (قالت ذلك بالفرنسية).

إلياس: «أتركى له رسالة تقولين فيها إنك ذاهبة لقضاء بضعة أيام عند صديقة لك فى مدينة السويس، هذا كل ما فى الأمر» (قال ذلك بالفرنسية).

- «وهل سيتقبل هذا الأمر؟».

- «بكل تأكيد».

كانت تلك، امرأة (السويس) هى المخرج الذى تركته مفتوحاً فى علاقتها بخاراميس والذى سريعاً ما أصبح فاعلاً. إنها صديقة قديمة تقيم فى مدينة السويس، وكانت ستسعد باستضافتها، لو لم تضطرها الحادثة التى وقعت لزوجها إلى العودة سريعاً إلى فرنسا. تلك الملاحظة الصغيرة لم يكن أحد بحاجة لى يعرفها حتى خورى نفسه.

قالت إيفيت مداعبة إلياس: «وما تلك الرحلة، يا إلياس، أمى رحلة شهر عسل؟».

فأجابها: «فليكن الأمر كذلك، إذا كانت ستجعلك أفضل حالاً».

وإذا افترضنا أن هذه الرحلة كانت هروباً للاستجمام فقط، وفكر خورى بطريقة خبيثة أن يصطحبها معه لتستجم، عندئذ فلن يكون وجودها فى إسطنبول ذات أهمية .

* * * * *

لقد حدث كل شئ بسرعة، حتى إن إيفيت كان لديها الإحساس بأنها قد نامت فى الإسكندرية ثم استيقظت فى إسطنبول، فى غرفة عالية السقف بفندق "بيرا بالاس"، وسائدها محشوة بريش النعام وملاءاتها ناعمة. جلست إيفيت على السرير الضخم المصنوع من خشب الماهوجنى ثم نظرت إلى نفسها فى مرآة الدولاب بالغرفة؛ عندئذ تطلعت بنوع من الدهشة إلى إلياس خورى الذى كان لا يزال يغط فى نوم عميق إلى جوارها. وما بين الواقع والخيال، كانت تحاول جاهدة أن تستعيد تفاصيل هذه الرحلة، بداية من حشرجة صوت رمزى البواب المميزة، وهو يضع حقائبها فى القطار المتجه إلى مدينة السويس، وفى اللحظة التالية كان أحد الحمالين يقوم بإزالة الحقائب من الجهة الأخرى، وفى حين دخلت من أحد أبواب القطار خرجت من الباب الآخر حيث كانت فى انتظارها عربة حنطور أقلتها مباشرة إلى الميناء البحرية، لتبدأ رحلتها مع إلياس بالصعود إلى الباخرة المتجهة إلى إسطنبول. حدث كل ذلك فى إطار من السرية، وهو ما شجعها على الاقتناع بفكرة هذه الرحلة. فقد انتهت كل الإجراءات المعتادة فى المكتب الصحى بمكالمة تليفونية. كما تم توفير كابينة خاصة بها بالدرجة الأولى. إلا أنها قد أصابها نوار البحر بسبب الاضطرابات الصيفية فى البحر الليبى وفى بحر إيجه، كل ذلك جعلها تشعر بأنها لم يسبق لها مغادرة أرض مصر الرحبة. كانت الباخرة تزحف بعيداً عن سواحلها، وكلما نظرت من نافذة الكابينة شاهدت موجات البحر المتلاطمة المحملة بالزبد تضرب الباخرة بضراوة، كما هو معتاد دائماً فى السواحل الأفريقية، وكان دخان المركب وحده يذكرها بطريقة حزينة أنها قد أصبحت فى عرض البحر. وهناك لحظات تملك النوار جسدها كله مما جعلها تشعر بأن هناك شيئاً ما يغلى بداخلها، وأنها على وشك الانفجار. هكذا كانت حالها وهى تجلس القرفصاء مغمضة العينين وكأنها تصلى. أمامها جلس إلياس ممسكاً بكيس من الورق يداعب به شعرها

غير عابئٍ باضطراب البحر. استمرت رحلة السفر المزعجة لمدة ثلاثة أيام، ولكنها مرت كالكابوس، حتى إنها فى منتصف الرحلة فقدت الرغبة فى معرفة اسم الميناء اليونانية التى توقفا فيها، وهى ميناء بيريه. بعد كل تلك المعاناة، عبرت الباخرة من الدردنيل ورسست فى مدخل كيراتيو، ولم تصدق إيفيت أن ما تشاهده من منظر أسطورى لقمة كابى بإسطنبول وكنيسة القديسة صوفيا والمساجد الإسلامية من ناحية، ويرج جالاتا من ناحية أخرى هى مشاهد حقيقية بل مجرد خيال طفولى. وفيما بعد، كانت قعقة الخيول التى تعدو فى طرقات منطقة بيرا قد جعلتها تشعر بالنعاس، فاستلقت على كتف إلباس، حتى إنها عبرت، وكأنها منومة تنويمًا مغناطيسيًا، من المدخل الضخم لفندق "بيرا بالاس" دون أن تلقى بالاً إلى الواجهة ذات الطراز المعمارى الذى يجمع بين التراث التركى والفن الأوربى بنوافذها الضخمة وديكورها الرصين، تجاهلت إيفيت الثريا والسلالم المرمية وارتمت على أريكة فى قاعة الاستقبال، تلقى النظرة بعد الأخرى من مكانها إلى خورى الذى لم تنحن قامته من التعب، ولم تبتد عليه علامات الإرهاق. استندت إيفيت على مكتب الاستقبال بالفندق بينما كان إلباس يرتب تفاصيل إقامتهم بالفندق. كان موظف الإستقبال يرتدى الملابس الأوربية ويضع طربوشاً فوق رأسه، وعلى الرغم من كل ما مرت به حتى الآن فإن إيفيت كانت متوهمة بأنها لم تغادر مصر. (وفى غرفة الفندق) وصل إلى أسماعها صوت المؤذن من منذنة مسجد جالاتا يؤذن للصلاة. بعد ذلك تذكرت صرير الأسانسير وهو يصعد للطوابق العليا. فى تلك اللحظة الحاملة، مددت إيفيت ساقها على الفراش فى استرخاء تام، تاركة مشاعرها فى أحضان مورفياس، متظاهرة بعدم الاهتمام بمغازلة خورى لها، مما جعله يشعر بالإحباط واستدار للجهة الأخرى حتى يغلبه النوم .

لم يكن الواقع أقل ألماً بالنسبة لإيفيت، فقد شعرت للحظة أن قمرة الكابينة بالباخرة قد تم استبدالها بباب الشرفة الضخم المطل على كيراتيو، وأن فندق "بيرا بالاس" نفسه يشبه إلى حد كبير المركب الضخم التى بدأت بها رحلتها إلى مدن بعيدة. ولم يسبب لها ذلك التفكير فى ابتعادها كل تلك المسافة عن شقتها فى شارع

السلطان حسين. فى الشعور فقط بالخوف وعدم الأمان، ولكنه جعلها تشعر بالذنب تجاه أنطوان، ذلك الشعور الذى لم يراودها طوال فترة وجودها فى الإسكندرية. وربما كان ذلك سبباً، إلى جانب إحساسها المستمر بالنوار، فى عدم استسلامها لأحضان إلياس خورى. استيقظ إلياس مبكراً، ثم اتكأ على السرير وأشعل سيجارة، وكانت لديه من الفطنة ما جعله لا يشعل سيجارة ماركة خاراميس أمام إيفيت. قدم لها سيجارة غير أنها لم تحتمل رائحتها؛ لم يظهر عليه الضيق بسبب رفضها للمرة الثانية قبول ما يعرضه عليها، ولكنه بادرها قائلاً: «هيا استردى عافيتك بسرعة، يا إيفيت، فلدينا الكثير لنفعله (قالها بالفرنسية)».

وهكذا، يبدو الأمر وكأنهما سيقضان أسبوعاً صعباً فى عاصمة الإمبراطورية العثمانية.

* * * * *

" يمكنك التعرف بسهولة على الأرستقراطيين والفضوليين من طريقته المعتادة فى الهمس" تذكرت إيفيت هذه الكلمات التى أخبرها بها إلياس خورى بينما كانت تفوص بأقدامها فى السجاد الكثيف الممتد إلى قاعة الطعام بفندق "بيرا بالاس". وعلى الرغم من أن النادل الذى قادها إلى المائدة كان يرتدى حلة وبياويوناً ويضع على رأسه طربوشاً فإنها لم تنتبه لوجودها فى تركيا.

كانت إيفيت تتوقع أن تلتقى على المائدة بإلياس خورى وشخص آخر، ولكنها وجدت إلياس يتحدث هامساً مع شاب صغير. وازدادت دهشتها بعد أن تعرفت إليه.

«أأنت حقاً بانايوتيس أرابيذيس؟».

وعلى الرغم من محاولات إيفيت جاهدة التحدث بصوت منخفض، فقد انتابها الشعور بأن صوتها يصل إلى أسماع كل من فى القاعة، غير أنها لم تكن على صواب فلم يكن هناك من يهتم بوجودها فى قاعة الطعام.

أرابيذيس: «نعم، يا أنسة إيفيت» (أجابه بالفرنسية).

إيفيت: «عذرا، فقد كنت أتوقع شخصا آخر..... ماذا أقول؟».

أرابيذيس: «ربما أكبر سناً؟».

إيفيت: «نعم، إلى حد ما» وكانا ما زالا واقفين.

فقال إلياس: «لنجلس إذن».

فى حقيقة الأمر، فقد كان الهدوء الذى يسود المكان يبعث على الضيق، فالخدم يجوبون المكان فى صمت تام، بينما يتناول الرجال والنساء المتائقون طعامهم فى هدوء تام.

وفيما عدا الأصوات التى كانت تصدر عن الشوك والسكاكين التى يمسكون بها ويستخدمونها فى تقطيع الطعام - فيما يشبه ما يفعله الجراحون - فقد تداركت إيفيت هذا الأمر، وبدأت تضع فى اعتبارها بقدر المستطاع أن يكون كلامها همساً.

أرابيذيس: «هل تعلمين أننى قد بلغت الحادية والعشرين من عمري؟» قال ذلك أرابيذيس فى محاولة منه لإبهارها.

إيفيت: «فى الحقيقة، لا يبدو عليك أنك فى هذه السن أيضاً، حتى إنك تبدو أصغر من ذلك بكثير. لا أريد أن أسبب لك إحباطاً، ولكن معرفتى المسبقة بمكانتك جعلتني أنتظر رجلاً أكبر بعشرين عاماً على الأقل».

أرابيذيس: «وما أهمية السنين. ماذا ترى يا إلياس، هل للسنين أهمية؟» قال ذلك بشكل يدل بوضوح على الإحباط. وكأنه يطلب المساعدة من خورى .

إيفيت: «على أية حال، فمن المؤكد أن الإنسان يكتسب خبرته عبر السنين، وهذه الخبرة لها أهميتها الكبرى فى مجال العمل» هكذا أصررت إيفيت على رأيها. وعندئذ قال إلياس متباهياً، ومشاركاً إياهما فى ذلك النقاش بصوته الخفيض الرخيم:

إلياس: «لم تكن إذن بداية جيدة، وعلى أية حال، فلسنا هنا لكى نتحرى فيمن قام بوضع بانايوتيس فى هذه المكانة، ولماذا».

كانت إيفيت قد بدأت منذ الوهلة الأولى لوجودها بالمطعم فى عقد مقارنة بين إسطنبول والإسكندرية، فكانت ترى من حولها فى كل مكان بالقاعة أعمده مزينة مربعة الشكل بخطوط مستقيمة، تلك الأشكال كانت مرسومة أيضاً على الموائد والأبواب وعلى خلفية المقاعد. أما المصابيح المستديرة بالثريا الضخمة، فكانت تتزين برسومات لنباتات، تلك الرسومات التى كانت تخفف من برودة تلك الخطوط الجامدة، فى حين كانت النقوش العالية ذات الزهور والخلفية الخضراء تلعب بوراً أكبر بوصفها ستائر تغطى القاعة.

لاحظ أرابيذيس أن إيفيت تتجول بنظرها متفحصة المكان وقال:

أرابيذيس: «بالتأكيد يذكرك هذا المكان بالإسكندرية، يا أنسة إيفيت» (قالها بالفرنسية).

إيفيت: «أبدأ بالعكس فالأمر مختلف تماماً» (أجابته بالفرنسية).

أرابيذيس: «إجابتك جعلتنى أشعر بالإحباط، فقد ظننت أن الإسكندرية وإسطنبول مدينتين متشابهتين. بل وكنت على قناعة تامة بأن الإسكندرية هى المكان الأمثل إذا ما فكرت يوماً فى الانتقال للعيش فى مكان آخر».

بدى بانايوتيس أرابيذيس محبطاً من كلامها، فأسرع إلياس مصححاً:

«أنت تبالغين بعض الشيء» يا عزيزتى (قالها بالفرنسية) فالمدينتان ليستا على هذه الدرجة من الاختلاف».

تولد لدى إيفيت شعور بأنهما كانا بالفعل يناقشان بجدية مسألة هجرة أرابيذيس إلى الإسكندرية. ولبرمة من الزمن جال بخاطرها أنه من الخطر أن يشهد شخص آخر غير إلياس على رحلتها هذه إلى إسطنبول.

«هل تفكر جدياً فى ترك إسطنبول؟».

هكذا سألته إيفيت (بالفرنسية) بشكل مباشر، وكان من الواضح أن صوتها بدأ يرتفع على الحد المسموح به، حتى إن بانايوتيس قد أمسك بيدها بشكل لا إرادي، وقال متوسلاً: «اخفضي صوتك، يا أنسة شانتون! فتركيا ليست بالمكان الآمن لمثل تلك المناقشات في هذه الظروف. يجب أن تعلموا أن هناك من يراقبنا في هذه اللحظة».

إيفيت: «الآن! ألا تعتقد أنك تبالغ بعض الشيء يا بانايوتيس»

انتظر أرابيذيس قليلاً حتى ابتعد النادل، وفي اللحظة ذاتها، أمسك بيدي خوري وإيفيت معاً، وقال في نبرة تعترتها الغموض: «يا أصدقائي، يجب أن أعترف لكم بأنني في هذه اللحظة أقف واضعاً ظهري تجاه الحائط. ففي الفترة الأخيرة ظهر في تركيا العديد من الواشين، ولم يقف الأمر عن هذا الحد فقط، ففي مثل هذه الظروف غير المطمئنة أضيفت لي مشكلة خطيرة وشخصية. ولا أخفي عليكم أن حياتي في خطر».

إلياس: «ما الذي يحدث، يا أرابيذيس؟».

أرابيذيس: «أه يا إلياس، أنت باعتبارك رجلاً ستفهمني بشكل أفضل». قال ذلك متهدداً، ثم استطرده قائلاً بصوته الرفيع الناعم الذي يتناسب أكثر مع صبي في العاشرة من عمره:

«أخطأت ووقعت في غرام فتاة من إحدى العائلات التركية المعروفة».

فقالت إيفيت متعجبة: «وهل هذا أمر سيئ؟».

أرابيذيس: «ماذا تقولين، يا أنسة إيفيت، إنهم يعتبرونها جريمة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقط فهذه المرأة بالتحديد.....» عندئذ تردد أرابيذيس في استكمال حديثه.

حاول إلياس مساعدته لاستكمال حديثه قائلاً: «حسنًا وماذا بعد؟»، فقال أرابيذيس:

«أعرف، أنكم سوف تقولون إنني غبي، فمن الغباء الوقوع في حب امرأة تركية، وممتزوجة» قال الكلمة الأخيرة بصوت لا يكاد يسمعه أحد، بل وربما لم يسمعه هو نفسه.

إيفيت: «أه، الأمر كذلك إذن» هكذا همهمت إيفيت (بالفرنسية) فى اندهاش وهى تتطلع إلى هذا الشاب ذى العينين الخضراوين ووجهه المستدير، ثم تساءلت: «ما الذى يمكن أن تفعله امرأة أمام هذا الجمال؟»، ثم ابتسمت بطريقة ساخرة فرمقها إلياس بنظرة حادة.

رغم ذلك لم يهتم أرابيذيس بما قالت وأكمل حديثه قائلاً:

«لقد نشأت وترعرت مع هذه الفتاه منذ نعومة أظفارنا، وتعرفون ما يحدث. ولكن دعونا من كل هذا، ولنتحدث الآن فى العمل. بعد قليل سوف يقتل الرجل الذى يجلس على المائدة الثالثة، مرتدياً نظارة وتوكة شعر، مشاجرة. مما سيمنحنا عشر دقائق فقط حتى يسود الهدوء مرة أخرى، عندئذ، استمعوا إلى جيداً ولا تقاطعوني».

لم تكن المشاجرة المفتعلة التى تحدث عنها أرابيذيس بصوت عالٍ ولم يصحبها صياح، فقد قام الرجل الذى يجلس على المائدة الثالثة بالطرق بشوكة الطعام ثلاث مرات على وعائه بشكل ينم عن عصبية، واستطاع بذلك أن يلقى اهتمام كل العاملين بالمطعم والزبائن. أحاط النداء بمائدته وانتهى هذا الحدث بما ينم عن وجود مؤامرة وليس سوء فهم.

فى الوقت نفسه، أسرع أرابيذيس بتوجيه الحديث لهما باللغة الفرنسية قائلاً:

«فى البداية يجب أن نقلل من تحركاتكما فى إسطنبول»، ثم فتح حقيبة أوراقه اللامعة وقال: «تفضل يا إلياس، تلك هى شهادة عضويتك بالنادى اليونانى المسمى "بدائرة الشرق" (قالها بالفرنسية). هناك سوف تلتقى بالعديد من الضباط من كل الرتب، بداية من الوزير حتى أقل رجال السلك الدبلوماسى مكانة وأيضاً رجال البنوك وكبار التجار، كل الصفوة فى مدينة بيررا. وبالإضافة إلى مكانة هؤلاء الأعضاء المرموقة فى المجتمع، يعد النادى اليونانى مكاناً لتبادل المعلومات ولعب الورق، وأعتقد أنك ستشعر بأنك فى مكانك الصحيح».

ضحك خورى ضحكة مصطنعة، ثم إستكمل بانايوتيس حديثه قائلاً:

«وها هي دعوة لشخصين لحضور حفل بالسفارة الفرنسية الذى سيقام بعد غد. فى هذا الحفل يسعى المحققون الدبلوماسيون الأوروبيون للدخول فى منافسة قوية لضمان دعم تركيا فى الحرب. سوف تتاح لكما الفرصة لمشاهدة القاعة الذهبية ذات الألف مرآة. وحتى لا أنسى، ستقوم روكسانى الصغيرة وشقيقتها بالرقص على شرف المدعويين. وهما من خريجات مدرسة زابيو، أو "فتيات زابيو" كما يطلق عليهما فى إسطنبول، أما الآن فقد احترفتا الرقص، حصلت أمهما على الجنسية التركية بعد وفاة أبيهما - ولعلكم تدركون أننى لست الحالة الوحيدة هنا فى إسطنبول - فى حين قررت الفتاتان الانتقام من تركيا بهذه الطريقة، من خلال نشر الفساد فى مقهى شانتان، فلدينا فتيات جميلات فى إسطنبول. وسوف تدركون ذلك بمجرد مشاهدتهن. روكسانى تعمل معنا، وسيكون الحفل فرصة مناسبة لكى تتعارفن، يا إيفيت. وسوف تخبركما بما لم أتمكن من قوله لكم. آه، وحتى ذلك الحين ينبغى أن تستمتعى بوقتك، فجولة واحدة فى الشارع الكبير لمدينة بيرأ ستشعرك بأنك فى مكان ما بين باريس ولندن وفيينا. لقد أحضرت لك قائمة بأرقى الأماكن الجديرة بالزيارة. أما الجلوس فى الخامسة مساءً (قالها بالإنجليزية) فى مقهى "ليون" فهو شىء آخر. وأنا على يقين من أنه بعد أسبوع واحد سيتغير رأيك فى مدينتنا. ولأن الكل هنا يبحث الآن عمن يمكن تجنيدهم من الجواسيس، فلا تندهشى إذا ما اقترب شخص منك (لتجنيذك) وإبداء إعجابه بك فقط، "فامرأة جميلة مثلك" (قالها بالفرنسية) ستجذب بالتأكيد نظرات كل من حولها».

كان لقوله "امرأة جميلة" (بالفرنسية) وقعاً كاذباً من فمه لكل من قد يتم إبلاغه عن جمال إيفيت شانتون ولم يرها فى هذه اللحظة بعينى رأسه.

عندئذ قاطعه إلياس قائلاً «الخبر الأهم لم نسمعه منك حتى الآن، يا بانايوتيس، هل ستدخل تركيا الحرب، نعم أم لا؟» (قالها بالفرنسية)، فأجابه أرابيذيس: «هذا ما نتساءل جميعاً عنه، وفى هذا الوقت تتجه كل الأنظار هنا فى إسطنبول إلى

قصر الطيور، فمنذ اللحظة التي أعلنت فيها إنجلترا الحرب على ألمانيا، وهناك شعور عام بالجمود يسيطر على الجميع. بالتأكيد أنتما أيضاً شعرتما به، وبالتأكيد فقد رأيتما السفينتين الحريبتين "جيبين"، و"بريسلاو" وهما تعبران نهر الدردنيل، فالألمان يرغبون في بيعهما بسعر مناسب للأتراك، إنها بلاشك رشوة لضمان إعلان تركيا تأييدها لألمانيا في الحرب. وهنا تجدد الإشارة إلى محاولات الإنجليز والفرنسيين المستميتة للحيلولة دون ذلك، مما سيزج بنا في المشاكل»

استطاع أرابيذيس أن يخبرهما بكل تلك المعلومات قبل بداية المشاجرة المفتعلة بالمطعم، والآن فقد انكب على طعامه يأكله بنهم. كما لو كان حديثه المسترسل قد فتح شهيته للطعام.

عادت إيفيت لتتمتم قائلة: "يا له من طفل صغير"، ثم أخذت تحدث نفسها: "ولكن ربما بهذا الشكل لن يشك به أحد". بعد مضي بعض الوقت، أصبحا بمفردهما، عندئذ قال لها إلياس:

«ألم أقل لك من قبل؟ إنه فيليب جاكو جديد في ثوب سياسى».

لكن إيفيت كان لها رأى آخر، فعلى الأقل كان فيليب جاكو كما عرفتة، رجلاً وليس صبيًا، لكنها احتفظت بتلك الملاحظة لنفسها لإدراكها أن ملاحظة كتلك ستؤدى إلى تعكير صفو خورى. فاكتفت بقولها: «نعم، ولكن ألا ترى أنه صغير جداً على هذا العمل؟».

أجابها خورى قائلاً: «يا عزيزتى» (قالها بالفرنسية)، فى مثل هذا النوع من الأعمال من الأفضل أن تكونى صبية صغيرة، مما يجعلك بعيدة عن الخطر. أنتخيلين ماذا لو كان صديقنا هذا أكبر عشرين عاماً؟».

تساعت إيفيت قائلة: «وما المقصود "بقصر الطيور" الذى يتطلع إليه الجميع أخيراً؟». فأجابها إلياس: «السفارة الألمانية»

* * * * *

كانت المرة الأولى التى تجولت فيها إيفيت بجمالها الفتان فى الشارع الكبير فى مدينة بيررا اكتشافاً حقيقياً لكل المواطنين، فجسدها الملفوف داخل رداؤها الحريري ورأسها المغطاة بقبعتها الحريرية الأنيقة، جعلت قلوب الرجال تخفق فى إيقاع متناغم مع خطواتها الرشيقة على جانب الطريق، تلك الخطوات التى تركت بصماتها الساحرة فى شارع باساز دى أوربا، حيث تجولت فى محل "باجونيس" للذهب ومحل مدام تروفي للقبعات ومحل مورباديس للأحذية، وفى ممر روميلياس فى مدخل شارع "سيتى دى بيررا" - وهو شارع السفارات - وفى محلات "كارل مان" ومحلات العطور، بالإضافة إلى قاعات محلات الحلويات الضخمة. أصبحت إيفيت محط أنظار الجميع، من سفراء ووزراء ورجال بنوك، وجعلت المتباهين يطلبون ودها، والجذابين يسعون خلفها، كما أدت شدة الانبهار بها إلى سقوط النظارات من وجوه رجال يتسمون بالجدية، وجعلت الشوارب تتراقص من فرط الإعجاب بها، والشفاه تبتسم من سحرها، والعيون تلاحقها أينما ذهبت فى أكثر لحظاتها خصوصية. لقد ألهب ظل هذه المرأة مشاعر مجتمع يجمع فى سماته بين القرية والمدينة الكبيرة. كان مقهى "ليبون" يكتظ بالصبية والرجال والشيوخ لجرد رؤيتها وهى تحتسى الشاي فى المساء. لقد غطى وجود إيفيت على شبح نشوب الحرب، فى حين أخذت نساء الطبقة الراقية بالمجتمع يرددن بأسلوب ينم عن الغيرة: «يا فتيات، أرايتن ذلك الرداء الذى يدخل محل "ليبون"؟».

كانت إيفيت تشعر بالخجل وأحياناً بالارتباك من إشارات الإعجاب بها وتحاول تجاهلها بشق الأنفس. والآن أصبح من الصعب عليها العودة مرة أخرى إلى عزلتها فى شقة شارع السلطان حسين. ومنذ ذلك اليوم الذى كانت إيفيت وإلياس يعبران المهبط المؤدى إلى السفارة الفرنسية، ذلك المبنى الذى يحتوى على أعمدة وأروقة وملامح من الفن الحديث، أصبحت إيفيت وإلياس بالفعل مادة للحديث فى أوساط الطبقة الراقية فى مدينة بيررا.

وإذا كانت إيفيت الجميلة قد استطاعت أن تصبح محط أنظار الجميع، فقد كان إلياس هو ذلك الرجل النحيف ذو العينين السوداوين، الذى كان على دراية كافية بكيفية

التحرك فى أماكن عديدة، مثل نادى "دائرة الشرق" (قالها بالفرنسية) حاملاً معه حضارة مدينة الإسكندرية، وكانت لديه القدرة على التعامل مع كل صغيرة وكبيرة مزوداً بعدة لغات عالمية. لقد غامر بالسفر إلى إسطنبول للحصول على بنور القطن مع بانايوتيس أرابيذيس لبيعها لتاجر الزيوت اليونانى بانديليس أرابيذيس، ذلك الشاب المستهتر الذى كان يتعجل الوصول لمكانة رفيعة، والإحلال مكان والده فى إدارة الأعمال. ولكن مازالت فضائحه تهز مجتمع مدينة بيرا المتحفظ حتى الآن.

لقد أضفى وجود كل من إيفيت وإلياس إيقاعاً أكثر جدية على ذلك الملل، وتلك الثثرة الفارغة الناتجة عن التعارف والمجاملات المبالغ فيها. كان الجميع يعلق على مظهر إلياس الرائع وسترته الأنيقة، وأيضاً على أسلوبه السلس فى الانتقال بالحديث من لغة إلى أخرى. أما إيفيت فكان يبدو عليها أنها امرأة مغلوقة على أمرها، كانت لديها من الكياسة وحسن التصرف ما يمكنها من تقبل مجاملات الرجال ولكن دون أن تمنحهم الجراءة فى الحديث معها. كان رداؤها الحريرى ينساب على تفاصيل جسدها فيبدى من مفاتنتها مع كل حركة تقوم بها أكثر مما يخفى. أحست وسط كل تلك المناقشات، والضحكات، تحت الأضواء المبهرة وأصوات الكنوس الكريستالية وصوت الأوركسترا وهى تعزف تلك الموسيقى الرائعة، وكأنها فى أمسية رائعة بالإسكندرية. وقد أعطى العازفون الذين يرتدون سترات وطرايبش، ويجلسون على قاعدة أسطوانية متحركة، الانطباع بأنهم آلات جامدة فى صندوق الموسيقى. تلقت إيفيت العديد من الدعوات للرقص ولم تستطع أن تخذل أياً من معجبيها، حتى إنها لم تعد تذكر عدد من رقصت معهم. "إنها فترة نقاهة قصيرة من ذلك السجن الذى أعيش به فى الإسكندرية"، هكذا كانت إيفيت دائماً ما تحدث نفسها. لقد أصبحت بالفعل جوهرة الحفل لولا حضور روكسانى، راقصة مقهى شانتان، التى طغت عليها. رقصت روكسانى فى القاعة الذهبية ذات الألف امرأة، فألهمت أكف الحاضرين بالتصفيق المتواصل، غير أن إيفيت لم تر فى حضور روكسانى نوعاً من المنافسة لها فى تلك الأمسية، كانت تتابع رقصها الشرقى بشغف كبير وانبهار شديد، فجسدها يتلوى إلى

مئات الأشكال، كما لو كان كل جزء من ثنيات جسدها ينعكس من مرآة لأخرى، وذهبت بفكرها إلى غرفة نوم إلياس فى الإسكندرية فى شارع رشدى، وأحست لأول مرة بما يسببه لها تشبثها بين كل من إلياس وأندونيس من ألم، وفجأة عادت مرة أخرى لمطاردة جسد روكسانى الوردى فى كل تلك المرايا الموجودة فى القاعة الذهبية، التى لم يكن لها تأثير عليها من قبل.

استسلمت إيفيت لهذه الرغبة الكسول التى لم تجد لها تفسيراً والتى لم تفكر حتى فى إبعادها عن ذهنها، إلى أن وصلت إلى اللحظة التى وقفت فيها الراقصة فى وسط القاعة ثم إنحنى لى تحيى الحاضرين، وعندما رفعت عينيها، أدركت إيفيت أن روكسانى الصغيرة، ليست بصغيرة، ولكنها تلك الراقصة التى طبعت صورتها على علب السجائر من ماركة خاراميس، وتحدثت مع أندونيس حولها من قبل. وفى الوقت الذى كانت روكسانى تقف ثابتة فى منتصف القاعة، انتاب إيفيت شعور بأن شخصاً ما يجعل القاعة تدور. ولكن سرعان ما تداركت الأمر وأيقنت استحالة دوران القاعة فى هذا المكان بأى نوع من الآلات، لكنها كانت تشعر بدوار لا يحتمل، فقد أحست وكأنها عادت مرة أخرى إلى الباخرة التى أقلتها من الإسكندرية. وأمام شعورها الذى لا يحتمل بالدوار، أحست بالرغبة فى الصراخ قائلة: «أوقفوها (قالتها بالفرنسية)، أوقفوا تلك القاعة عن الدوران». وحتى تمنع تلك الرغبة، اندفعت تجاه باب الخروج. لم تدرك إيفيت كيف استطاعت الخروج من تلك القاعة والوصول إلى الفناء الخارجى، ومن ثم إلى العربة التى أقلتها إلى فندق "بيرا بالاس". ربما تكون قد أخبرت قائد العربة بوجهتها، ولكن لى تكون صادقة تماماً مع نفسها، فإنها لا تتذكر أنها قد فعلت لذلك.

طوال هذه الليلة حاولت إيفيت جاهدة الخروج فى أحلامها من غابة المرايا التى تحيط بها، ولكنها عندما استيقظت فى الصباح لم يتبق لها من المرايا سوى تلك الموجودة فى نولاب الملابس وتلك الموجودة فى الحمام. كما وجدت إلياس بجوارها يمسح بيده على شعرها ويسألها: «هل أنت بخير؟»، ابتسمت إيفيت ابتسامة باهتة قبل أن يستطرد: «اللبنانى» قائلاً: «أهناك ما أزعجك بالأمس، هيا أخبرينى، أهى

الشمبانيا، أم أنها تلك الرقصات التي شارك فيها العديد من الرجال، أم أنها روكسانى التي خطفت منك الأعضاء؟». وهكذا حاول إلياس أن يجعلها تبتسم، لكنها كانت قد فقدت القدرة على ذلك، غير أن إلياس كان مصراً على الترويح عن نفسها فبادرها بقوله:

«أظن أنه السبب الأخير، فقد تعودت أن تكونى دائماً فى المرتبة الأولى لا الثانية، ولكن يا عزيزتى، ربما كان من الأفضل لك أن تبدئى فى التعود على ذلك، وبخاصة وأنتك تكبرين فى السن».

لم تمر إيفيت مداعبات إلياس أدنى اهتمام، فقد كانت تعرف " اللبائى " جيداً، فشخصيته تتسم بالقسوة مثل الجمال الأفريقية، ولم يكن من الصواب أبداً أن تجرحه، لأنه لن ينسى ذلك فيما بعد وسيسعى للانتقام منها فى أول فرصة تسنح له. أثرت إيفيت النظر إليه فى صمت ثم أفسحت له مكاناً بجوارها وربت بيدها اليمين على السرير. تردد إلياس للحظة ثم تمدد ببطء على السرير، وفى اللحظة التي كان فيها مستعداً لأى شىء فاجأته إيفيت المتهاكمة بالتحول إلى قطة شرسة، وبحركة واحدة أصبحت فوقه. تظاهر إلياس بمحاولة تجنبها، غير أن ذلك لم يكن أمراً سهلاً، وكان جسده يهتز بشدة وهو يقهقه من الضحك، غير أن إيفيت استطاعت أن تقيد حركته. فلا يوجد رجل واحد يشعر بالراحة فى هذا الوضع غير المريح. ما تلى ذلك لم يكن تبادلاً للحب بقدر ما كان أشبه بالصراع، فكان إلياس حريصاً ليس فقط على أن لا يسقطان معاً على الأرض، ولكن أيضاً على تفادى يدي إيفيت القابضة على رقبته. وفى نهاية الأمر أطلقت إيفيت صيحة ابتهاج وألقت بجسدها على السرير، وكأنها فارس سقط من فوق جواده، وأخذت تنهّد بقوة.

كانت تلك هى المرة الأولى التي يرى فيها خورى إيفيت فى هذه الحالة.
فسألها بقلق:

«ما الذى يحدث؟».

إيفيت: «فلنغادر هذا البلد، يا إلياس، أرجوك» (قالتها بالفرنسية)، فلنرحل اليوم، لم يكن من الصواب الحضور إلى هنا أبداً. فلنرحل، أريد أن نرحل».

إلياس: «اهدنى، يا حبيبتي» (قالها بالفرنسية)، تعرفين أننا لا نستطيع الرحيل الآن. اهدنى، أرجوكى، ما الذى يحدث لك؟».

- «أرغب فى الرحيل» قالتها صارخة وهى تهزه من كتفيه، فى حين قرر إلياس السيطرة على الموقف واضعاً كفه على فمها، وابتسم مهدئاً إياها، ثم همس فى أذنها:

«سنرحل، سنكون فى الإسكندرية فى غضون أيام قليلة».

- «أريدك أن تأخذنى بعيداً عن كل شىء، فلنذهب إلى بيروت، إلى باريس، إلى أى مكان، أتتذكر الأوقات السعيدة التى قضيناها معاً هناك؟».

ألم يكن من الأفضل لو لم تقل العبارة الأخيرة؟ فقد تحول إلياس بعدها إلى شخص متباه يشعر برجولته، واعتقد متفاخراً بأنها قد أصبحت لقمة سائغة بين يديه، عندئذ انحنى إلياس أمامها قائلاً: «هناك أشياء لا تتكرر، يا صغيرتى» (قالها بالفرنسية)، وأراك على علم بها، أليس كذلك؟ «عليك أن تصبرى» (قالها بالفرنسية). ماذا أقول أنا أيضاً، كل ما ينبغى عليك أن تفعله الآن هو: التجول فى محلات ومقاهى المدينة. اهدنى أرجوكى، ولا تفكرى فى شىء آخر سوى أن مدينة الإسكندرية فى هذه اللحظة هى أكثر بقاع الأرض أماناً. هذا ما أريدك أن تفكرى فيه، وعندما تستعيدين هدوءك سنقوم بترتيب موعد لك مع روكسانى، اتفقنا؟» (قالها بالفرنسية).

فى تلك اللحظة تمنى إيفيت لو استطاعت أن توجه له لكمة فى أنفه. ماذا كان يظن نفسه هذا " اللبنانى" القذر؟ وحتى لا تسمح له بنشوة الانتصار أكثر من ذلك، فقد فاجأته بقولها:

«ربما لم تفهم حديثى جيداً، فقد انتابنى شعور بالخوف، يا إلياس، هذا كل ما يؤرقنى. صدقنى، فمنذ يومين راودتنى فكرة أن الشعور بالأمان الذى يوفره لى أنطوان

لا يعادله شعور آخر ولا يقدر بثمن، ولأول مرة فى حياتى أشعر بمثل هذا الأمان. لابد أنه قد أصابنى مس من الجنون لكى أتخلى عن كل هذا وأتبعك إلى هنا؛ لا تنس أننا فى حالة حرب، وأنتك قد أحضرت امرأة إلى بلد من المتوقع أن يدخل الحرب بين لحظة وأخرى. ما الذى سيحدث إذا لم نستطع العودة وتم إغلاق الحدود؟ عندئذ فلن نستطيع العودة، أخبرنى ماذا سيحدث؟».

كاد إلياس أن يجيبها ولكنها لم تترك له الفرصة للحديث وبادرته قائلة: «بالفعل، لابد أننى قد أصبت بالجنون». وحتى تمنح نفسها الفرصة لاستعادة كرامتها المجروحة، نهضت ثم ألقت ببعض الماء على وجهها، كما لو كان ذلك سيساعدها على التفكير بشكل أوضح. كان إلياس على حق، فتلک الفترة التى عاشاها معاً فى باريس باعتبارهما عاشقين، أصبحت الآن بعيدة المنال، كما لو كانت تنتمى إلى زمن آخر، وعالم مختلف. وكان هناك أكثر من أمر يعوق تفكيرها: جاكو، خاراميس والآن هذا الاهتمام المفاجئ بروكسانى. لقد كانت على حق فلا شىء يمكن أن يحدث كما حدث فى الماضى.

* * * * *

«لقد أخبرونى أننا كنا سنلتقى فى حفل السفارة الفرنسية الراقص» قالت روكسانى ذلك، بينما كانت تغرس الشوكة الفضية فى فطيرة الشيكولاتة التى أمامها؛ وقد نالت طريقة تحدثها باللغة الفرنسية إعجاب إيفيت التى قالت:

«لقد شعرت بوعكة بسيطة.. فأحياناً يحدث ما هو غير متوقع»، ثم أخذت روكسانى تتبّع نظرات إيفيت وهى ترفع فنجانها. وتساءلت إيفيت فى نفسها إذا ما كان رداء روكسانى المصنوع من الحرير ويستر جسدها بالكامل حتى عنقها، وكذلك قبعته المصنوعة من القش والمزينة بالزهور، هو نوع من أنواع التنكر.

روكسانى: «لو أخذت برأى، كنت سأقترح عليك محل مولاتى، فالفطائر هناك لا تقارن».

إيفيت: «هل تحبين الشيكولاتة (قالتها بالفرنسية)، يا صغيرتى؟».

- «بل أعشقها» قالت ذلك بصوت يملؤه اللهفة.
- ضحكت إيفيت من ردة فعل روكسانى التلقائية، ثم عادت إلى حديثها قائلة:
- «قبل كل شيء، أخبريني إذا ما كان قد تم تصويرك باعتبارك موديل عارية من قبل».
- «مرات عديدة.... ولكن لماذا؟».
- «هل تعلمين فى أى غرض استخدمت هذه الصور؟».
- «ماذا هناك؟ أهنك مشكلة تجاه هذا الأمر ولا أعرفها؟».
- «أجيبيني من فضلك عما أسألك عنه».
- «لا أعرف» (قالتها بالفرنسية)، فأنا أقف للتصوير، أقبض الثمن، ثم أغادر المكان، هذا كل ما فى الأمر. ليس لدى أدنى فكرة أين تذهب هذه الصور بعد ذلك».
- ارتسمت فوق وجنتى روكسانى المتوهجتين علامات القلق، فالصغيرة روكسانى كانت تستحق كل إعجاب. وعندما شعرت إيفيت بأنها قد تسببت فى إخافتها أكثر مما ينبغي، ابتسمت مهدئة إياها، وقالت:
- «لا داعى للقلق، إنه مجرد إشباع للفضول، لا شيء أكثر من ذلك. ماذا كنت تقولين من قبل؟ أه، نعم، عن "مولاتى". أنا شخصياً يعجبني "ليبون"، فهو أفضل محلات الحلوى فى إسطنبول».
- أجابتها روكسانى بطريقة تنم عن ضيقها قائلة:
- «إنه واحد من أشهر المحلات ولا تأخذى بالمقولة السائدة "فى ليبون كل شيء جميل" (قالتها بالفرنسية)».
- «على كل الأحوال» (قالتها بالفرنسية)، نستطيع هنا التحدث بحرية. فحركة الدخول والخروج أكثر نشاطاً، والناس، حمداً لله، يتحدثون فيما بينهم بشكل طبيعى. ولك أن تتخلى أنك تخجلين حتى من الهمس فى مطعم "بيرا بالاس».

لم تعلق روكسانى على ذلك فبادرتها إيفيت بقولها:

«أتعلمين أنك ترقصين ببراعة؟».

صاحت روكسانى بصوت عالٍ، وكأنها قد عادت إلى طبيعتها مرة أخرى.

«حقاً» (قالتها بالفرنسية) ، هل أعجبك رقصى؟».

– «نعم» (قالتها بالفرنسية)، ولكن أين تعلمت هذا الرقص؟».

– «إنه شىء غريزى، ألا تعتقدين ذلك؟».

– «إنك محقة فى ذلك. هناك أيضاً شقيقتك، كما سمعت».

– «أه، ذانائى! ستبهرين عندما تشاهدين رقصها، وعندها ستعرفين ماذا تعنى

كلمة رقص. إنها أيضاً تغنى بشكل رائع، وهى بكل تأكيد أجمل منى بكثير»
قالت ذلك وهى تضحك.

– «أجمل منك؟ لا أستطيع أن أتخيل فى هذه اللحظة أن هناك امرأة أجمل منك»،
ذكرت إيفيت تلك الملاحظة بصوت منخفض وهى تشعر بالخجل من ذلك التعليق
الذى ذكرته.

– «ولكنى أؤكد لك أنها أجمل منى بكثير. فلنقل مثلاً إننى أشبه الإسكندرية
أما هى فتشبه إسطنبول».

– «هذا مثل غير ملائم، يا صغيرتى، استمعى إلى، فقد شاهدت بنفسى المدينتين.
إن فندق "بيرا بالاس" يعد بكل تأكيد فندقاً أسطورياً، ولا جدال فى ذلك، وكذلك
جسر جالاتا، المساجد، قمة كابى، القديسة صوفيا، سحر البوسفور. كل ذلك
جميل. لكن، صدقنى، لا شىء يضاهى سحر سماء الإسكندرية، فالإسكندرية
تماثل باريس وفيينا ولندن وروما معاً. ومن الصعب أن أصف لك كل ذلك، ولكن
لا بد أن تعيشيه بنفسك»

التهمت روكسانى آخر قطعة من الشيكولاته، ثم قالت بنبرة مترددة:

«منذ صغر سنى وأنا أردد أنتى لن أغادر مدينة إسطنبول. عندئذ كانت

أمى.....».

- «أمك؟».

- «الآن، أرغب فى السفر بعيداً أكثر من أى وقت مضى. فالحرب تخيفنى. ولكن

فى المقابل، هنا كل حياتى. فالليالى فى كافيه شانتان رائعة. أريد أن أدعوك،

للحضور ولكن لسوء الحظ فكل الذين يرتادون هذا المكان هم فقط من الرجال.

ومنذ زمن بعيد وأنا أرقص فى كوزمو بوليتان!». قالت ذلك وهى تلعق ملعقتها.

اصطبغت حافة شفرتها بلون الشيكولاتة، وعندئذ أسرع إيفيت لتزيلها بمنديلها.

أمسكت روكسانى بالمنديل الأبيض فى يدها وأخذت تشم رائحته، وقالت: «يا لها من

رائحة عطرة!».

وعندئذ سألتها إيفيت (بالفرنسية) لى اهتمام منها (بتعليقها على رائحة المنديل):

«أترغبين فى قطعة أخرى؟».

- «سوف تتسببين فى زيادة وزنى».

- «فليكن إذن، قطعة صغيرة أخرى، قطعة صغيرة جداً» (قالتها بالفرنسية).

- «أقول لك الحقيقة، فى "مولاتى" أتناول فى كل مرة ثلاث قطع من الشيكولاتة،

لكن هذا يحدث فقط فى "مولاتى". فهل توجد فى الإسكندرية أنواع لذيذة من

الشيكولاتة بالفعل؟».

- «لا يمكن لك أن تتخيلى ذلك. أؤكد لك أنك سوف تنسين اسمك بمجرد أن

تتذوقى طعم الشيكولاتة من "بودرو"».

ضحكت روكسانى، ولكن سرعان ما عادت لجديتها وقالت معلقة:

«انتبهى جيداً» (قالتها بالفرنسية) وأخبرينى بالحقيقة، فالشيكلاته بالنسبة لى سبب قوى للهجرة»، قالت ذلك بمنتهى الجدية ثم عادت تضحك مرة أخرى.

أمسكت إيفيت بيدها وأجابت بنبرة مترددة:

«ما أستطيع تأكيده لك، أن فى الإسكندرية توجد فرصة لكل إنسان»؛ ولأنها شعرت بالضحك من حماسها، ضحكت إيفيت هى الأخرى وأكملت قائلة: «بالتأكيد بها شيكلاتة أفضل».

تردد صدى صوت إيفيت فى القاعة وهى تنادى (بالفرنسية): «جرسون، من فضلك».

ولأن القلق الذى تشعر به بداخلها لم يهدأ بعد، فقد أخرجت إيفيت مروحتها من حقيبتها وأخذت تحركها، وهى تنظر فى عيني روكسانى بنظرات ذات مغزى.

* * * *

غادرت إيفيت المكان بعد لقائها بروكسانى، وقد حصلت منها على معلومات باللغة الأهمية للمخابرات البريطانية، ولكن الأهم من ذلك هو حصولها على وعد غير مؤكد بأن الصغيرة روكسانى سوف تتبعها قريباً إلى الإسكندرية. وأثناء سيرها هائمة على وجهها وسط الشارع الأعظم بمدينة بيراء، وبينما كانت تفكر فى النهاية السعيدة التى آلت إليها إقامتهم فى إسطنبول، إذا بصوت قرقرة حوافر أقدام الخيول يقترب منها بشدة، ولكن توافقاً مع غريزتها الأنثوية، لم تستدر إيفيت لمعرفة ماذا هناك، ولكن الله وحده يعلم ما الذى كان يمكن أن يحدث لها لو لم تنتبه لصوت أرابيذيس من الناحية المقابلة وهو يصيح محذراً إياها، قائلاً (بالفرنسية): «إيفيت، انتبهى، انتبهى!». ودون أن تدرى فقد اندفعت محتضنة عمود الإنارة، كما لو كانت تحتضن رجلاً تنشد الأمان بين أحضانها، ثم أغلقت عينيها وشعرت بقشعريرة الموت تسرى فى جسدها. وعندما

زال الخطر وابتعد صوت قرقعة الخيول مخلفاً وراءه صدى بعيداً يتردد فى أرجاء الطريق، لم تستطع إيفيت التعبير عما بداخلها، أما زالت على قيد الحياة أم لا. ولذلك فلم تفتح عينيها على الفور، بل أثرت تلاوة بعض الصلوات بداخلها حتى استجمعت قواها لمشاهدة ما يحدث، وبالكاد شاهدت مؤخرة العربة الفاخرة وهى تبتعد بسرعة جنونية. وحتى تلك اللحظة لم تكن على دراية كافية بما حدث، لكن ما سبب لها الإزعاج الشديد هو رؤية وجه أرابيذيس الشاحب. وأصبح كعب حذائها المكسور هو الشيء الوحيد الذى سيذكرها بتلك المغامرة التى شعرت بعدها بالحاجة لتوجيه أسمى آيات الشكر لله، خاصة بعد أن استمعت إلى إحدى سيدات المجتمع تقول للأخرى:

«كان يمكن لهذه المسكينة أن تسقط صريعة!».

فى ذلك الوقت، كان أرابيذيس فى صالون فندق "بيرا بالاس"، وقد توجه بالشكر إلى الله لوجوده فى ذلك المكان فى تلك اللحظة، وكان على يقين من أن ما حدث مجرد مصادفة.

لم يتعرض إلياس لذلك الشعور بالقلق الذى تعرض له أرابيذيس، لأنه لم يشهد تلك الحادثة المفزعة، وقال مداعباً إياها:

«ها هو شخص آخر لم يُعجب بجمالك، يا عزيزتى»؛ وربما كان إلياس يشعر بالقلق أكثر مما كان يبدو عليه. ولكن الأكثر أهمية أنهم لم يتركوها بعد ذلك بمفردها. فى صباح اليوم التالى استيقظت إيفيت وبدأت يومها بطريقة جعلتها تتذكر المرة الأولى التى تعرفت فيها إلى إلياس فى باريس. فقد كان خورى يجلس واضعاً ساقه فوق الأخرى فى الحمام متشحاً بفوطة كبيرة بيضاء اللون، فى حين كانت إيفيت تقوم بحلاقة ذقنه، وقد وضعت طبقة سميكة من الصابون على وجهه ورقبته. وكان هذا الوضع إحدى الطرق التى كانت تؤدى فى النهاية للملطفات ساخنة بينهما. غير أن إلياس لم يستفد من هذا الوضع سوى استمتاعه بتدليل إيفيت له. فى ذلك الوقت، وجدت إيفيت الفرصة سانحة لتحديثه عن لقائها بروكسانى؛ معتقدة أن خورى سيوجه لها اللوم بسبب مبادرتها بتوجيه الدعوة للفتيات للانتقال إلى الإسكندرية، غير أنها تفاجأت

عندما عرض عليها من جديد فكرة كان قد عرضها عليها من قبل، وهى افتتاحت بيت اللبغاء على مستوى رفيع فى الإسكندرية، وقال:

«يا لها من فكرة جيدة» (قالها بالفرنسية)، أليس كذلك؟ فالفتاتان هما أفضل شئ، يمكن أن نفتح به "بيتاً للبغاء" (قالها بالفرنسية)؟».

فأجابته إيفيت على مضض: «أرى أن لديك أفكاراً جيدة للفتاتين»، وعندئذ تبادلرت إلى ذهن إيفيت صورة روكسانى وهى فى أحضان العديد من الرجال فشعرت بنيران الغيرة تشب بداخلها، وسحبت شفرة الحلاقة بحدة على وجه إلياس حتى صرخ فيها قائلاً (بالفرنسية):

«رويداً رويداً»، فقد كادت أن تسبب له جرحاً، وحتى تهدئ من روعه، طبعت على جبهته قبله ذات طابع أخوى. استمر إلياس فى حديثه قائلاً:

«ولكن لماذا؟ هل تعتقدين أن حياتهم فى مقهى شانتان ستكون أفضل؟».

- «لا أدرى، فلم أذهب من قبل إلى هذا المقهى المشهور فى إسطنبول، وليس لدى ما أقوله لك، ولكن ينبغى عليك أن تستشير أرابيذيس فى هذا الأمر. فلا يمكنك أن تحرض من يخصصه على الرحيل»، ثم وضعت طبقة أخرى من الصابون على وجهه وقامت ضاحكة برسم خط أبيض على أنفه.

- «أود أن أخبرك أن أرابيذيس هو أول من سيرحل من هنا»، ولكنه سرعان ما توقف عن الكلام، وكأنه قال شيئاً لم يكن ينبغى عليه أن يقوله.

- «لكن هذا أمر غريب» قالت ذلك، ثم بدأت فى تحريك شفرة الحلاقة على وجنتيه.

- «ما الأمر الغريب؟».

- «أتعرف، هناك قصة مشابهة تماماً لقصة أرابيذيس كان أنطوان قد رواها لى من قبل. ولكن الاختلاف الوحيد أنها قد حدثت فى إيطاليا».

- «هل تعرفين أنتِ بأن خاراميس كان يعيش فى إسطنبول قبل أن يأتى إلى الإسكندرية؟»

- «هذا أمر غير حقيقى» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «بالطبع حقيقى. فقد روى لى حكايته كاملة يوم وصوله إلى القاهرة لتوقع العقد مع الإنجليز».

- «لعله كان يعيش هنا فى مكان راقٍ بمدينة بيراق».

- «ماذا تقولين، أنطوان كان فتى فقيراً، تنبعث من فمه رائحة كريهة من شدة الجوع. أقول لك ذلك حتى تعرفى حقيقة أنطوان». كان صوت إلياس يحمل نبرة مفعمة بالكراهية، وقد نالت رضا إيفيت وقالت:

«لكنه أخبرنى بأنه ينحدر من إحدى المدن اليونانية، لكننى لا أتذكر اسمها.....»، قالت ذلك بينما كانت تتظاهر بأنها لا تبالى بما يشعر به إلياس من غيرة.

- «مدينة كافالا؟»

- «نعم، تلك هى.....» (هكذا أجابته بالفرنسية).

- «إنها قصة طويلة حقاً اطلبى منه أن يقصها عليك يوماً ما، ولكن، لم تخبرينى حقاً كيف كانت؟».

- «كيف كانت... ماذا؟».

- «أقصد كيف كانت الأمور تسير مع رجال من أمثال جاكو وأندونيس».

هزت إيفيت رأسها مستنكرة، فقد شعرت بأن إلياس قد امتلك زمام الأمور مرة أخرى، وقالت:

«أنتم يا معشر الرجال، كلكم فى النهاية سواء».

* * * * *

كان شعوراً غريباً ذلك الذى انتاب إيفيت عندما تنكرت فى هيئة الرجال، مرتدية حلة رجالية، فكانت أكتافها الناصعة البياض تائهة داخل ثنانيا رداؤها، وكان البنطال يرفرف كراية خفاقة حول ساقها النحيفتين. وقد حاولت جاهدة جاهدة إخفاء ارتباكها من هذا الوضع، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد فقط، فلم تكن ياقة القميص متناسقة بشكل جيد مع رقبتها الصغيرة، حتى إنها اعتقدت أن رابطة العنق، التى تعلمت كيف تربطها بشكل جيد حول رقبة إلياس، على وشك أن تتحل عقدتها وتسقط من رقبتها. أما الشيء الوحيد الذى يبدو وكأنها قد أنقذته فهو: طريقة وضع إبهام اليد اليمنى فى جيب الجاكت الذى ترتديه، وهو سلوك رجالي صرف، ثم أخذت تداعب ساعة الجيب التى كانت قد وضعتها بجيبها لتلحظها عيون الناس، أما عن محاولة تقليد طريقة مشى الرجال، فكان عليها أن تعتاد أولاً على ارتداء الأحذية الرجالية والتى تصادف أنها كانت أكبر بدرجة أو درجتين من حجم قدمها. وعندما حاولت أن تضع السيارة بين شفتيها. الرقيقتين كما يفعل الرجال، انتابها إحساس بأنها تدخن لأول مرة. ناهيك عن محاولتها أن تشرب كأساً على دفعة واحدة. كانت تدفع برأسها للخلف لكى لا ينساب شعرها الكثيف المحتجز داخل الطربوش وينسدل على ظهرها، وبالتأكيد كان الكحول يجعلها تشعر وكأن حلقها يحترق، حتى الشارب الذى قامت بلصقه فوق شفتيها لم يكن متوافقاً مع بشرتها المتوهجة، أما المسبحة الصغيرة التى منحوها إياها فقد أزعجها ارتباك حباتها بين أصابعها. فى النهاية، ولأنها مهما حاولت أن تخفض من صوتها، فلن ينخدع أحد بصوتها، وجدت أنه من الأفضل لها أن تتنحى من حين لآخر بدلاً من الكلام. وعلى الرغم من كل ذلك، فعندما سألها إلياس عن قدرتها على الخروج معه بهذا الشكل أومأت برأسها بالموافقة، بل ورفضت أن يساعدها فى الصعود إلى العربة. سلك قائد العربة طريقين مرصوفين الخروج إلى الميدان بجوار مكتب البريد العمومى، ثم هبط مرة أخرى فى اتجاه جالاتا. كان أرابيذيس يجلس أمامها ضاحكاً طوال الوقت، ولكنها لم تكن تعرف هل يضحك لكى يمنحها الشجاعة أم ساخراً من حالها المزرية. مرت العربة أمام أشهر مقاهى منطقة شانتان - وهو مقهى "أمريكا" ومقهى "أوربا" - الذى كانت الفاتنة إفتاليا تغنى وأيضاً فيرجينيا جالايتانى،

غير أنهم توقفوا عند "كوزموپوليتان"، حيث تخطف الأختان روكسانى وذائائى الأضواء من الجميع. بدأت إيفيت تخطو خطواتها الأولى بثبات، واضعة فى ذهنها أن ظلمة الليل كفيلة بعدم كشف سترها. كان المكان يعج بالكثير من الرجال المتأنقين من أهل إسطنبول، ومن الأرمن والأتراك واليونانيين واليهود. وكانوا يدخلون النارجيلة بطريقة توحى بالوجاهة والعظمة. ويبدو أن أرابيذيس كان من الرواد المعروفين فى هذا المكان ولذلك استطاعوا الحصول على مائدة مميزة. بدى الجو العام داخل المقهى مخيفاً، فقد كان المكان عبارة عن محاولة لنقل الجو المعروف داخل كباريهات باريس، ولكن يبدو أن من قام بهذه المحاولة لم ير من قبل أياً من هذه الكباريهات. لذلك جاءت النتيجة بوصفها تقليداً مشوهاً فى كل شىء: فالإضاءة السيئة، ومفارش الموائد تبدو من النوع الرخيص، والأباجورات، حتى المرايات والأباليك المعلقة على الحوائط جميعها كان بحالة مزرية.

وهناك، كانت الأوركسترا الموسيقية تجلس وسط المسرح، وتتكون من خمسة عازفين: للكمان، الكلارنيت، الترومبيت، وكانوا يعزفون ألحاناً أوروبية بإيقاعات البولكا (وهى موسيقى صاخبة) والفالس. يرتدى العازفون الملابس الأنيقة والباليون، ويبدو شعرهم لامع وبراق. إلا أن ملامحهم كانت جامدة، تعلوها مسحة ساخرة من الأرستقراطية، أما النادل فكان متأنقاً ذو نظرة بلهاء، تعلو جبينه شامة، وكلما ابتسم ظهرت أسنانه الأمامية البيضاء بحجمها الضخم، وكأنها قطع حلوى متراصة جنباً إلى جنب. قام مساعده بتوزيع النارجيلة، وكان أرابيذيس يتابع إيفيت بدهشة وهى تدخن النارجيلة بشراهة ولم يعد هناك فارق بينهما فى ذلك، لذلك لم تكن إيفيت تشعر بالغيرة من الرجال الموجودين فى هذا المكان. ثم قدموا لهم الخمر فى كنوس رخيصة، وكم كان ذلك غريباً، فالخمر كانت من أرقى أنواع الخمر، وربما تسبب دخان الشيشة الذى أصاب إيفيت بالدوار فى هذا الشعور. صعدت على المسرح مغنيتان كانتا تغنيان معاً، ولم تستطع إيفيت أن تتعرف على اللغة التى كانتا تغنيان بها، لكنها كانت مزيجاً من اليونانية والتركية. ولهذا فلم تشارك الحضور إعجابهم بالغناء، غير أنها بشكل عام استطاعت فهم ما يدور على المسرح، فقد كان نوعاً من العروض المسرحية "المبتذلة"، التى يسخرون فيها من السلوكيات اليومية ومن الوقوع فى الحب.

كان من الصعب وصف تلك اللحظة التي ظهرت فيها روكسانى وذائئى على المسرح، فقد هب كل هؤلاء الرجال المتأنقين واقفين وهم يملأون المكان تصفيقاً وصفيراً! كان البعض منهم يقفز فى مكانه من فرط الإعجاب، والبعض الآخر يهتز وكأنهم يرقصون بإيقاع تركى، محركين بطونهم الضخمة. كانت الفتاتان ترتديان ردائين قصيرين بلا أكمام، يلمعان عند منطقة الصدر. وعندما رأت إيفيت ذائئى، أدركت لماذا استتنت روكسانى جمال أختها. كانت ذائئى أقصر بقليل من روكسانى، لها شعر مموج رائع وجسم ممتلئ، يعد بكل تأكيد، نموذجاً للجمال بالنسبة لرجال إسطنبول. وبمجرد أن بدأت فى الغناء تحول كل هذا الصخب إلى لا شىء، وكانت تشدو بمقامات تشبه مقامات المؤذنين، ازداد اشتعال النارجيلة وألقت عزلة الشرق بظلالها على وجوه الحاضرين. وقفت روكسانى على جانب المسرح فى انتظار انتهاء أختها من وصلتها الغنائية، ولكن بمجرد أن أعطت الأوركسترا الإشارة بدأت الأختان معاً فى رقصة ساخنة ألهمت مشاعر الحاضرين، فاعتلى رجل شديد البدانة مقعدة، وكان يجلس فى المائدة المجاورة لهم، ثم حاول تقليدهما فى الرقص غير أن محاولته باع بالفشل وجعلته أشبه ببرميل يتدحرج من مكان مرتفع؛ وأخذ رجل آخر فى التصفيق والتهليل بلا انقطاع على أنغام الموسيقى. وعندما استدارت إيفيت إذا برجل يجلس خلفها يغمز لها بعينه. ولم تكن "باعتبارها رجلاً" لتقبل مثل هذا الأمر، ولذلك نظرت إليه نظرة حادة متحسسة شاربها المستعار بأصابع يدها، مثلما كان خاراميس يفعل وهو غاضب. فى ذلك الوقت تعلق أنظار كل من إلياس وأرابيذيس بروكسانى وهى ترقص وقد أمسكت بيدها دفأً وأخذت تضرب به مؤخرتها بشىء من الدلال. كان رقص روكسانى مزيجاً من رقصة "بحيرة البجع" والرقص البلدى، غير أنه لم يكن يشبه على الإطلاق ما تقدمه راقصات الإسكندرية فى الكباريهات. ومن المضحك أن تسمع كل هؤلاء السكارى وهم يصيحون " زابيديس، زابيديس" (أى فتيات مدارس زابيو)، فقد استطاعت الأختان، بطريقة ما، الحفاظ على ما كانت تضيفه مدارس "زابيو للفتيات" من سمعه طيبة على خريجاتها، على الرغم من الطابع غير الأخلاقى لمقامى شانتان. أحست إيفيت برعشة تسرى فى جسدها عندما ظنت أن روكسانى استدارت وهى

ترقص ثم نظرت إليها نظرة ذات مغزى. لقد أصبحت الحالة فى مقهى " كوزموبوليتان " خارج نطاق السيطرة، وربما سيكون الأمر أسوأ بكثير فى مقهى " بيبيناس " بأرتاكيا، الذى كان أرابيذيس يعتزم اصطحابهما إليه بعد ذلك للاستماع إلى الموسيقى والأغاني الشعبية.

* * * * *

قال والد أرابيذيس (إيفيت) «زوجك مريض إذن، شىء مؤسف، فقد كنت أنتظره لى نوقع الأوراق اليوم لكن لا يهم، فإن غداً لناظره قريب، ولكنى أشعر بالسعادة لأننى سأحتفى بك بنفسى»، وبينما كان يأخذ الصينية المستديرة الصغيرة ذات اللون القاتم وعليها كأسان رفيعتان من أحد العاملين.

كانت رائحة العفن تعبئ المكان، حتى إن إيفيت ظنت أنها صادرة من داخل الخزانة المظلمة المليئة بالعديد من الصناديق. ولهذا السبب كان والد أرابيذيس الذى يمشى وكأنه بارون حقيقى يعطر يديه وجبهته بشكل مستمر بعطر الليمون، ذلك العطر الذى كان يقدمه أيضاً لزيابته. كانت الأرضية الخشبية مغطاة ببقع كثيرة من الزيت، أما داخل المحل فكانت الأرضية مفروشة بورق جرائد، وبمجرد أن تطأ عليه أقدام البشر يصدر عنه صوت يشبه صوت الحطب وهو يحترق. صب والد أرابيذيس كأساً لنفسه وصب آخر لإيفيت، فى حين استدار لابنه الواقف بجواره وقال: «لم تقف أمامى كالأبله؟ إذا أردت أن تكون مفيداً فلتساعد فى أى شىء داخل المحل!»، احمر وجه بانايوتيس خجلاً، وقد بدى فى تلك اللحظة كطفل صغير يعجز عن فعل أى شىء بشكل لم يشعر به من قبل، وقد شعر بغصة فى حلقه غير أنه لم يتفوه بكلمة، وفى الوقت نفسه لم يتركهما بمفردهما. «ما الذى أصاب هذا الفتى؟ لا أستطيع فهمه منذ أن ماتت أمه!» هكذا قال ذلك والد أرابيذيس ثم استدرك على الفور قائلاً:

«زوجك يشعر بالقلق من مصير بذور القطن، إنه يصر على أن الكمية كبيرة. فالحرب ترعبه. وعموماً، فى أسوأ الظروف، فسوف أقوم ببيع زيت القطن إلى الجيش

التركي، ستكون لدينا أعمال ناجحة، أضمن لكم ذلك». لم يدرك والد أرابيذيس أن إيفيت ليس لديها أدنى فكرة عما يحدث، غير أنها لم تشأ أن تحبطه، فاككت برسم ابتسامة مجاملة على شفثيها. وفي الواقع لم يملأ المحل عينها. فحتى الآن لم تر في منطقة بيرأ كلها سوى واجهات زجاجية ضخمة وأماكن واسعة ونظيفة. ولكنها فكرت في أنه ليس من الضروري لحل لباع الزيت أن يثير إعجاب زبائنه.

«إنك فرنسية إذن، أليس كذلك؟» هكذا سألها والد أرابيذيس، وكانت لغته الفرنسية جيدة، ثم استطرد قائلاً: «أه، باريس. أجمل النساء، أجمل المتع».

كان من الصعب على إيفيت أن تتخيله لاهياً في باريس في القرن الماضي، كما لا يبدو أنه أكبر سناً من أنطوان. هكذا.. فله بطن كبير تحمل طابع رجال إسطنبول، ورقبة منتفخة وشعر رأس مصفف بطريقة هزلية، في محاولة منه لتغطية أكبر قدر من رأسه الصلعا، كل ذلك جعله يشبه مرتادي مقهى "كوزموبوليتان". كان للشراب الذي قدمه لها مذاق القرفة في فمها. انفرط عقد المسبحة في يده وأخذت حبات الكهرمان تتساقط الواحدة تلو الأخرى. كانت مقلتاها تميلان إلى الاصفرار، أما الحدقتان فلهما بريق يشبه بريق الكهرمان. كان حديثه معها مغلفاً بإعجاب خفي، قد يعود السبب في ذلك إلى جمالها الأخاذ. قبل يدها مرتين قائلاً "فرصة سعيدة" (قالها بالفرنسية)، أصر أرابيذيس الأب بشدة على تناول طعام الغداء معها، ولكن لحسن الحظ لبس بانايوتيس ثوب الشجاعة واستطاع إخراجها من المنزل، بحجة أنه وعد إيفيت بالخروج معها في جولة بإسطنبول. استطاعت إيفيت، بما تعرفه من كلمات بسيطة من اللغة اليونانية، أن تفهم أن الابن يتحدث مع أبيه بصيغة الاحترام. أما الأب فكان يرمقه باستمرار بنظرات حادة، كما لو كان يريد أن يقول له: "انتبه لما تقول!".

كان إلياس على حق إذن عندما أخبرها أن تاجر الزيت يسيطر تماماً على ابنه، أما معها فكان سلوك تاجر الزيت مختلفاً تماماً، فقد ساعدها في الصعود إلى العربة ثم أمسك بيدها حتى تحرك السائق، عندئذ تذكر أن يرسل أمنياته بالشفاء لزوجها. أرادت أن تشرح له كيف أن السهر طوال الليل مع الشرب والتدخين يؤديان إلى

الخمول والكسل فى اليوم التالى، كما يؤدى إلى عدم الرغبة فى مغادرة الفراش، وكذلك ادعاء المرض حتى يتجنب ملاقة أرابيذيس الابن، الذى احترم مواعده وحضر لاصطحابها من الفندق فى جولة بالمدينة. لكنها لم تقل شيئاً من هذا واكتفت بإلقاء التحية عليه .

قالت إيفيت لأرابيذيس: «أكان من الضرورى أن تخبره بأننا متزوجان؟».

فأجابها أرابيذيس: «هل جنتت؟ ألم تر ماذا فعل الرجل العجوز معك؟ تخيلى لو لم أخبره أنكما متزوجان!»

إيفيت: «إنك تخافه بعض الشئ».

أرابيذيس: «من قال ذلك؟ أنا لا أخافه على الإطلاق!». ثم استدار من مجلسه وكأنه يشعر بالإهانة ثم قال: «ولكنى أحترمه كما يجب أن يحترم الابن أباه»، ثم بدى على أرابيذيس الشعور بالرضا مما أضافه من حديث، ثم ارتدى قبعته التى كانت معلقة على فانوس العربة.

إيفيت: «حسناً إذن أنت لا تخافه» ولكنها كانت على يقين من أن بانايوتيس، الذى يهفولكى يصبح أكبر سناً ، يخلط بين الخوف والاحترام؛ ثم أضافت: «هل فكرت أين سنذهب؟».

كانت لدى إيفيت فكرة مسبقة عن المدينة وعن العربات التى تجرها الخيول والعربات الفخمة، وكانت تتوق لدخول هذا العالم الخيالى الذى يفتنها بسحره فى أمسيات الصيف، بما فيه من قباب ومآذن شاهقة للمساجد، عندما يصطبغ الأفق باللون الأرجوانى وقت الظهيرة. ثم توجهوا بعد ذلك إلى جسر جالاتا الجديد، وتذكرت مقولة إلياس بأن ضاحية جالاتا شديدة الشبه بالسويس، ولذلك فقد استطاعت أن ترسم صورة مسبقة فى خيالها للمكان الذى ستذهب إليه. فالأرصقة على جانبي الجسر يسير فوقها الحمالون بحمولاتهم وكأنهم يرقصون كما ترقص أشرعة المراكب فى عرض البحر. لقد بدا لها الجسر كبيراً للغاية فى ضوء شمس أغسطس الساطعة، حتى إن هذا الخليط المتدفق من البشر على الجهة الأخرى بدا وكأنه قطع من النمل.

تحولت جولة إيفيت الرائعة بداية من السوق المصرية التى تباع فيها العطاراة والزيت العطرة من الشرق كله، ثم انتهت بمغامرة غير سارة فى أزقة المدينة التركية، فقد أصبح بانايوتيس أكثر حذراً، بعد ذلك الحادث الذى تعرضت له منذ يومين فى شارع مدينة بيررا الكبير، ولذلك فقد كان يضطر للشجار، بما تعنيه الكلمة، لكى يخلصها من كل أولئك الباعة العالقين بالعربة، لكى يتمكنوا من بيع أى شىء يمكن أن تتخيله. ومن حولهم كانت المحلات التى تبيع مختلف البضائع، مما أعطاهم الشعور بتضخم حالة البطالة فى البلد. فالحمالون الذين يكفون تحت نير العمل يتهاذمون محملين بالبضائع على ظهورهم، بينما يمد التناقلة (المتسكعون) أقدامهم ويجلسون على السلالم والأرصفة تحت وهج الشمس، أجراس تنق دون سبب واضح، بانع السحلب المتجول يصب المشروب بحركات أكروباتية لأولئك الرجال الذين يمرون عليه وهم يرتدون الطرابيش ويمسكون بالمسابع فى أيديهم.

أخذ أحد تجار الفاكهة يضرب حماره بشكل جنونى، فقد تسمر الحمار فى مكانه بلا حراك. إلا أنه تحرك بعد ضربات عديدة وعاد لجر العربة على الطريق المرصوف. وفى أثناء انتظارها كانت إيفيت تتابع زوجين أوربيين يشتريان سجادة ويساومان البائع لشرائها منه بسعر بخس قدر الإمكان، وفى كل مرة يرفض البائع بيعها لهما يتظاهران بمغادرة المحل دون شراء فيتوسل إليهما البائع ويعيدهما مرة أخرى. وفى إحدى زوايا السوق فى "بيزستينى"، حيث تباع أنواع مختلفة من البضائع، لاحظت إيفيت أن التحف يتم وزنها بالأوقية، وتقدر قيمتها بالوزن مثل العملات، والمجوهرات، والمشغولات الذهبية الصغيرة .

قال أرابيذيس موضحاً الأمر: «أغلب هذه الأشياء "فالصو" (قالها بالفرنسية)، أما البعض فقد تكون له قيمة عالية».

«وأنى لى معرفة ذلك؟»، كان هذا هو السؤال الطبيعى الذى وجهته إيفيت، فأجابها أرابيذيس برفع إصبع يده مشيراً للسماء. كان لابد لهما فى كل خطوة يخطوانها أن يتخلصا من العديد من البائعين الذين كانوا على استعداد أن يبيعوا لهما

أى شىء حتى أنفسهم. تمتعت إيفيت قائلة: "الشرق هو الشرق"، وأخذت تتذكر خان الخليلى بالقاهرة، فالشرق يبيع لك ويشترى منك، يضحك لك وتضحك له، يمنحك ويسلب منك، وفى النهاية أنت دائماً الخاسر الأكبر! لكن لماذا توجد الأسواق الكبيرة دائماً داخل أزقة ضيقة، ربما لكى يذكرنا هذا الاختناق بأن الحياة الواقعية ليس بها الكثير من الخيارات. نظرات خبيثة، تلمح منها انعكاس إدمان المال. البازار فى الشرق يشبه أرض المعركة الحقيقية، تشعر فيها وكأنك حاربت وحوشاً وحيوانات أسطورية، فإذا ما خرجت بعد ذلك بإصابات وجروح بسيطة، فإنك تشعر بالرضا.

خرجت إيفيت إذن دون إصابات؛ أما أرابيذيس، فقد لمحته فجأة وهو يغطى أنفه بمنديل، وإذا ببقعة حمراء تغطى قماش المنديل الأبيض، فسألته وهى تشعر بالفزع: «ماذا هناك؟».

- «لا تنزعجى» (قالها بالفرنسية)، لقد نرف أنفى ليس أكثر» هكذا حاول أن يهدئ من روعها.

- «هل يحدث لك ذلك كثيراً؟».

- «نعم، لكنه ليس بالأمر المهم».

- «ينبغى عليك أن تسرع بزيارة Toubib؟» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «.... Toubib؟» هكذا تسأل أرابيذيس لأنه لا يعرف معنى هذه الكلمة.

- «أعنى طبيباً.. يا بانايوتيس».

- «أه، طبيب، ليس هناك ما يدعو للقلق، فهو أمر يحدث لى منذ الطفولة».

- «لا أريد أن أسبب لك الذعر، ولكن أعتقد أنه من الضرورى أن تقوم بزيارة للطبيب».

- «حسناً» (قالها بالفرنسية)، طالما كانت هذه رغبتك فسوف أقوم بزيارة للطبيب فى وقت لاحق».

وفى شارع الكورنيش، شاهدت جدران الملكة القديمة، وعند كنيسة القديسة صوفيا انحنى أرابيذيس وهمس فى أذن إيفيت قائلاً: «هنا تستطيعين أن تدركى ما الذى فعله هؤلاء الشياطين فى حضارتى وشعبى». وعند الجامع الأزرق عرفت إيفيت كيف يعبر أصحاب الديانات الأخرى عن وجهات نظرهم فى الفن المعماري. ثم عادت بعد كل ذلك إلى الفندق ومعها علبة من الحلوى من ماركة "خادزى بكير" (أى الحاج بكير)، التى كان خورى يعشقها، وكان قد استيقظ من نومه منتظراً عودتهما.

* * * * *

عندما جالت بخاطر إيفيت فكرة عودتها من رحلتها المفاجئة إلى إسطنبول، وتصبح فى الإسكندرية التى تشعر فيها دائماً بالأمان وبخاصة فى شقتها بشارع السلطان حسين، ستكون لديها القدرة - بفضل نعمة النسيان - أن تمحو من ذاكرتها كابوس دوار البحر الذى أصابها بالإعياء خلال إبحارها عبر بحر إيجه، لكنها ستحتفظ فقط باللحظات الجميلة التى مرت بها وبالمشاعر الطيبة التى غمرتها، وكان هناك خط رفيع يربط بين فترة وجودها فى إسطنبول وبين العديد من التغيرات المهمة التى غيرت مجرى حياتها فى المستقبل.

وعندما كانت تستحضر فى ذهنها، على سبيل المثال، تلك اللحظة التى وصلت فيها الباخرة إلى خليج ثيرابيون، تذكرت كيف انتابها شعور بالارتياح، بينما كانت الرياح الشمالية تهب من البحر الأسود وتتسبب فى اضطراب مياهه مما يؤدى إلى سقوط أشجار السرو والصنوبر على ضفاف نهر البوسفور، كما ذكرت منازل الأغنياء الفخمة المطلة على النهر فى صف واحد بحى مصطفى باشا بالإسكندرية. وكذلك بحديقة منزل أرابيذيس التى تعد من الحدائق المتميزة؛ حيث يحتفظ أرابيذيس فى مخيلته بذكريات طفولته مع نيهير، وكذلك حبه لها. ذلك الحب الذى تفتح بين العديد من الزهور الأخرى فى الحديقة، وقد ملك قلبه وكل جوارحه، مما جعله يخرج من جيبه خطاباً كانت قد أرسلته له ثم أخذ يتلوه عليهم: «أبين لك بحب خالد كما تدين لى،

ما أرواحنا إلا ضففا نهر البوسفور، يربط بينهما جسر خفى، وليس بمقدورنا أن نفعل شيئاً سوى العلو حتى نلتقى فى مكان ما فى منتصف الجسر». فكرت إيفيت كم هو رائع بالنسبة لامرأة لم تكمل بعد عامها العشرين أن تعبر عن حبها بهذه الطريقة، وأحست بالغيرة من ذلك؛ ولكن ربما كان من الأفضل لها أن تتأمل كيف كان أرابيذيس ينظر إلى نهر البوسفور فى ليلة وداعهما، لكنها تعجبت كيف يمكن لهذا الشاب صاحب الوجه الطفولى أن يتخلى، بلا تردد، عن هذه الحياة التى يُحسد عليها فى واحدة من أجمل مدن العالم، بحثاً عن بداية جديدة، غريباً فى أرض غريبة؛ ولم يخطر ببال إيفيت ولو للحظة واحدة، أن خدعة تنكرها فى مقهى شانتان فى مدينة جالاتا كانت بمثابة البروفة الأخيرة لهم قبل اختطاف نيهير، ولم تكن لتشارك فى مثل هذا الجنون الذى كاد أن يعرض مهمتها للخطر لو كانوا قد أخبروها منذ البداية بما كانوا يعتزمون القيام به. لكن يبدو أن الأمر برمته قد تم بمباركة من المخابرات البريطانية حتى تعبر نيهير تحت أعين الأتراك بجواز سفر مزيف وتستقل الباخرة إلى الإسكندرية مع حبيبها.

لقد اضطرت نيهير أن تتحول بشكل مؤقت من امرأة إلى رجل؛ قبلت بقص شعرها الغزير دون أن تبدى أى اعتراض، وأن تضع شارباً مستعاراً وترتدى ملابس الرجال، بل وتحملت على نفسها ووضعت عطراً رجالياً نفاذاً وريئاً، من تلك العطور التى يضعها الحلاقون على الوجه بعد حلاقة سيئة للرجال من مواطنى إسطنبول فى محلات الحلاقة الرخيصة؛ لكن الأمر الوحيد الذى جعلها تبدى تذمرها هى؛ تلك اللقائف المصنوعة من النحاس التى كانت تضغط بها صدرها حتى تبدو كالرجال. كان جنوناً حقيقياً، فقد تركت وراءها، بغض النظر عن أى شىء آخر، زوجاً ينتظر عودتها بلا جدوى إلى المنزل هذا اليوم وفى الأيام التالية؛ والأهم من ذلك أيضاً، أنها تركت خلفها ديانة ووطناً وحضارة بأكملها، فى سبيل حبها. لقد اتخذت قرارها بالفعل، وتشهد على ذلك خطوات أقدامها التى تطأ بها أرض ميناء جالاتا الخشبية. كان يمكنها أن تتراجع ولو بشكل غير ملحوظ، وهى تخطو خطواتها الأولى نحو حياة جديدة مرتدية حذاءها

اللامع، لكن خطواتها السريعة أكدت عزمها على المضى فيما أقدمت عليه. ويبدو أن رحلة الحب النبيلة كانت رحلة مباركة، فقد هبت رياح أيولوس المواتية لتدفع الباخرة إلى وجهتها.

نزل العاشقان إلى كابينتهما الفخمة بالدرجة الأولى المكسوة بخشب الماهوجنى، والمزودة بأباليك للإضاءة ولوحات فنية معلقة، كما كانت مزودة أيضاً بفراش وثير، مما أضفى لمحة من الفخامة، فى حين كانت إيفيت فى الكابينة المجاورة تحاول أن تسترق السمع لأصوات العشق والغرام: ضحكات وضحكات، تأوهات وأنات، أصوات لقبلات. ذلك الغرام المتبادل بين الزوجين، جعلهما لا يفكران حتى فى الخروج من قمرتهما عند توقف السفينة فى ميناءى بيريه وخانيا ، بالإضافة إلى حركة السفينة الشديدة التى أدت إلى اهتزاز الأباليك واللوحات بشدة.

كانت رحلة ممتعة فى بحر هادئ تحوم فى أفاقه طيور النورس المحلقة، حدث ذلك فى بدايات الحرب العالمية الأولى. عاشت إيفيت فى عالمها الصغير بلا خوف - فى قمرتها، على ظهر السفينة، فى صالون الدرجة الأولى - يجاورها أشخاص لا يرغبون فى التفكير فى أى شىء آخر. وفى خانيا شاهدت الجنود بقوامهم الرياضى المشوق وهم يسبحون فى البحر أسفل القلعة الإيطالية القديمة. من من هؤلاء الجنود كان يفكر فى الحرب فى ذلك الوقت. لقد أدى شعور إيفيت بالإسترخاء واللامبالاة، إلى عدم التفكير فيما يمكن أن ينتظرها فى الإسكندرية، أو (التفكير) فى استقرار أمورها سواء فى شقتها بشارع السلطان حسين أو فى قلعة أندونيس خراميس، أو (حتى التفكير) فى علاقتها بإلياس وبالمخابرات البريطانية. كل ما كانت تفعله بين الحين والآخر هو فتح وقراءة خطاب روكسانى المرة تلو الأخرى: «سوف نحضر أنا وشقيقتى لرؤيتك فى الإسكندرية فى الأيام القادمة، أحلم بحياة جديدة شيقة». ذلك الوعد جعلها تنتظر لنفسها فى المرأة داخل الكابينة وتبتسم، وعندئذ لمحت لمعاً غريباً ينعكس فى المرأة، لمعاً يشبه انعكاس ضوء الشمس على صفحة مياه البحر الهادئ، فانتابتها رجفة غريبة، كتلك التى انتابتها ذلك المساء عندما جلست بجوار روكسانى فى مقهى "ليبون"؛

وحتى تتغلب على هذا الشعور فقد بلت صدرها العارى بقطرات من ماء الخوخ،
وفتحت مروحة يدها، ثم ألقت بنظرة حاملة على هذا الشبح المائل أمامها فى المرأة، نعم
لقد تجسد أمامها شبح روكسانى فى المرأة، أهى صورة روكسانى تقف أمامها أم أنه
مجرد شبح يصور انعكاساً لرغبة محمومة اعترتها فى تلك اللحظة؟

* * * * *

«أخيراً عاد العصفور إلى القفص!» هكذا همس أندونيس فى أذن إيفيت، وأخذ
يطبع قبلات على أماكن متفرقة من ظهرها العارى. فى حين كانت إيفيت مستلقية على
الفراش، مغمضة العينين، تتلقى تلك القبلات بنوع من الرضا؛ ربما كانت حدثه معها
التي سبقت تلك الملاحظة هى نوع من العقاب على غيابها المفاجئ. وما بين الجد
والهزل، سألها أندونيس أكثر من مرة إذا ما كان قد حدث شئ يستحق الذكر أثناء
فترة غيابها، ولكن إيفيت كانت تقاطعه بسؤاله إذا ما كان قد وجد السلوى فى أحضان
زوجته السيدة خاراميس أثناء غيابها. بخلاف ذلك، فقد حرص كل منهما على التعبير
عن غضبه وضيقه من طول فترة الغياب بطريقة عنيفة أثناء مداعبتهما كل منهما للآخر،
حيث كانت يخلف اللقاء برمته أجواء قتالية، إلا أنهما كانا يعاودان من جديد التعامل
برقة ولطف حتى يطفئا نيران الشوق المتأججة بداخلهما.

تجنب أندونيس أن يسأل إيفيت أسئلة كثيرة، ومما رفع عن كاهلها عناء البحث
عن إجابات كثيرة. كانت سعادتها لا توصف لرؤيتها سماء الإسكندرية مرة أخرى،
ووجدت فى أحضان أندونيس - ملك صناعة الدخان - ملاذاً مؤقتاً يجعلها تنسى
إعجابها الخفى بروكسانى. كان كل منهما يشعر فى أعماق نفسه بالراحة، حيث
يستطيع التفكير والتخطيط للغد واضحاً فى اعتباره وجود الطرف الآخر بجانبه. وأثناء
ذلك دار بينهما الحوار التالى:

إيفيت: «بالأمس استوقفتى جنازة رجل مصرى».

- «آه، يا لسوء حظك، يا صغيرتى إيفيت! أتخيل كم تسبب هذا فى تأخيرك».
- «هل من الضرورى أن يسدُّوا الطريق فى كل مرة وهم ينوحون؟ لقد مزق ذلك قلبى».
- «أعرف ذلك» (قالها بالفرنسية)، ولكن لابد أن تضعى فى اعتبارك أن النائحات يتم استنجارهن فى مصر، لهذا يقمن بعملهن على أكمل وجه».
- «أحقا ما تقول!«.
- «هذا شىء يثير الدهشة، "أليس كذلك" (قالها بالفرنسية)»، ثم استمر يطبع قبلاته على ظهر عشيقته.
- «لقد اضطررت للنزول من الحنطور، والعودة إلى المنزل سيراً على الأقدام».
- «لو أنك مصرية ووافتك المنية كانوا سيحملونك سيراً على الأقدام إلى مثواك الأخير. الآن أصابك بعض الإرهاق، ولكن على كل حال، أنت أوربية ومازلت على قيد الحياة».
- «حمداً لله».
- «هل كان الميت رجلاً أم امرأة؟».
- «وأننى لى معرفة ذلك! لقد كان النعش مغطى بقطعة من القماش».
- «ألم تلحظى وجود نموذج خشبى لرأس آدمى عليه؟».
- «كان ملفوفاً كأنه مومياء؟».
- «تمام، هل لفت انتباهك وجود شىء من فوقه؟».
- «نعم، طربوش على ما أظن».

- «بالضبط، إذن فالميت كان رجلاً».

- «ولماذا يأخذ النعش شكل القارب؟».

- «ألا تعرفي أن الميت لا يدفن داخل النعش؟ ومن خلال نفس القارب، كما تصفينه، يتم سفر مئات الموتى، ثم يتم دفن الجثث التي فاضت أرواحها فيما بعد ملفوفة في أكفان، إنها عادات الشرق».

- «يا لهم من محظوظين. فمنذ الهولة الأولى التي أدركت فيها أنني ساموت، كانت ترعبنى فكرة أنه سوف يخلق على تابوت خشبي»، ثم تذكرت إيفيت مغامرتها مع الحنطور في إسطنبول وسألتها: «اصدقني القول، يا أنطوان، ماذا ستفعل من أجل إذا ما مت غداً؟».

- «سأستأجر لك أفضل العربات الفرنسية التي تجرها ستة خيول لنقل جثمانك، وسوف تكون جنازة مسيحية " كما ينبغي " (قالها بالفرنسية)».

- «يا عزيزي، كنت أفضل أن تصنع لي محرقة وتشعل النار في جسدي».

- «أرى أن مناقشتنا تتحول شيئاً فشيئاً إلى نوع من الكآبة. ما رأيك في أن نشعل سيجارة بدلاً من كل ذلك؟».

شعرت إيفيت ببرودة علبة السجائر الفضية وهي تتحرك فوق جسدها. وكان دخان السيجارة المعطر الكثيف يسبب لها نوعاً من النشوة، ففتحت عينيها ووجهت بصرها تجاه عشيقها الذي كان يبدو شديد الثقة من نفسه. وعندئذ حدثت إيفيت نفسها قائلة: "كيف يمكن لشخص أن يشعر بكل هذه الثقة في مثل هذه الظروف؟"، ثم بادرت بسؤاله:

«حسب اعتقادك، ماذا يمكن أن يحدث من الآن فصاعداً؟».

- «أنتقصدين بخصوص الحرب؟».

- «وماذا غير ذلك؟».

- «لا تشغلي بالك» (قالها بالفرنسية)، فالحرب مثل السيجارة، تنطفئ بمجرد أن تشتعل». وعندئذ جال بفكر إيفيت أنها نفس فلسفة إلياس الجوفاء.

ثم هدأ أندونيس من روعها قائلاً: «على كل حال» (قالها بالفرنسية)، ليس هناك ثمة تغيير».

- «ولكن كيف ذلك، هناك أمور كثيرة قد تغيرت. فالبورصة قد أغلقت أبوابها، كما قلت المواد الأغذية، كما ترفض البنوك كل أنواع الائتمان، أما البواخر فترسو في الموانئ دون حراك، ألم يحدث ذلك؟».

- «تغييرات كثيرة إذن»، هكذا علق أندونيس على حديثها، ثم نظر إليها متعجباً وقال:

«ولكنك لا تضاربين في البورصة، وحمداً لله على وجود أنطوان لتوفير الطعام والشراب، أما عن منع السفن من الإبحار، فما الذي يعينك في ذلك؟ إلا إذا كانت لديك الرغبة في أن تتركيني مرة أخرى، ولم يمر وقت طويل على وصولك» .

- «لا ليس الأمر كذلك»

- «أذن، لا يوجد ما يشغل بالك»، قال ذلك ثم أطفأ سيجارته في مطفأة السجائر وهو يشير إليها بقوله: «أترين ذلك.. هكذا ستنطفئ نار الحرب في يوم من الأيام».

* * * * *

اتسم استقرار أرابيذيس بالإسكندرية بالهدوء، وكأن هناك يداً خفية تفتح له مرة واحدة كل الأبواب المغلقة وتغدق عليه من خلال تردده على النوادي الأرستقراطية بالمدينة وعلى منازل الأثرياء، وكذلك بدخوله بورصة القطن وتردده على كل مكان كان يتوسم فيه وجود المال والسلطة. ومع مرور الوقت استطاع الشاب أرابيذيس أن يضع نفسه في مصاف الأجانب الذين عاشوا حياة مرفهة، كما أصبح من أصحاب الممتلكات

المشكوك فى أصولها فى مدينة لم يحمل لها مكانة فى قلبه، (تلك المدينة التى) كلما تحدث عنها، يتذكر الرائحة الكريهة المنبعثة من إحدى العربات المحملة "بالجوافة" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) فى يومه الأول بها، كما كانت تذكره أيضاً بالحشرات القارصة.

لا يمكن للشخص العادى أن يلحظ وجود فوارق كبيرة بين مدينتى الإسكندرية وإسطنبول. فمن فوق مآذن الجوامع يرفع المؤذنون الأذان مكبرين الله؛ والطربوش، تاج يعلو كل الرؤوس - وإن اختلف اسم الطربوش فى كلتا المدينتين - والمواطنون لا يتوانون فى تعاملاتهم وفى مناقشاتهم عن استخدام تعبيراتهم المحببة لديهم، مثل: "الله أكبر" و"ما شاء الله" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، والأحياء الشعبية تمتلئ برائحة البخور، ومثلما هى الحال فى إسطنبول، تضع النساء المنديل على رؤوسهن ليخفين من زينتتهن عن أى إنسان؛ وهناك أيضاً عربات الكارو، الحمالون، الزحام، السوق، عيد الأضحى، رمضان. كانت كل تلك العناصر المتشابهة تسحر الأوربيين المقيمين فى أى من المدينتين. ورغم كل ذلك فقد كان بانايوتيس يفتقد الشوارع المرصوفة بالبلاط، كما كان يفتقد شتاء إسطنبول القارص.

أرادت إيفيت أن تجعل من رحلتها إلى إسطنبول سراً (لا ينبغى إفشاؤه)، ولذلك فقد كانت تتجنب - قدر المستطاع - الاتصال بأرابيذيس ونيهير، حتى التقوى بالمصادفة فى "جراند تريانون" فأصابها القزع بمجرد تعرفها إلى نيهير بقبعتها البيضاء وردائها الأبيض الحريري وعطرها الفرنسي النفاذ ومروحيتها وقفازها، بوجهها وعينيها الواسعتين الخضراوين وبشرتها الفاتحة وشعرها القصير الأسود الناعم؛ لكنها شعرت بالسعادة عندما سمعت أرابيذيس يقدم نيهيراً للناس باسم ماريانثى. لقد ودع الزوجان ماضييهما للأبد، ولعل الطريقة السلسة التى كانا يتحدثان بها اليونانية خير دليل على ذلك. استقر الزوجان فى إحدى الشقق الفاخرة فى شارع مارسيليا، بمحطة الرمل؛ وهكذا كانا يقيمان بالقرب من وسط المدينة والسوق، وعلى بعد خطوات من المكان الذى يلتقان فيه بعلىة القوم بالإسكندرية، مثل "مقهى تريانون" (دونها بالفرنسية).

كان بانايوتيس قد اهتم فى وقت سابق بتعميد نيهير، بمساعدة من خورى، فى كنيسة سان نيكوس بالإبراهيمية، ثم تزوجها. وقد تولد لدى إيفيت الشعور بأن "البنانى" يرى فى ذلك الشاب خليفة له- بشكل أو بآخر- على ساحة الإسكندرية، وكان واضحاً أنه لعب دوراً مهماً فى مساعدة أرابيذيس على الاستقرار بشكل سريع، ولكنها لم تسع لمعرفة المزيد تقديراً لالتزام إلياس بالسرية تجاه الطرفين، تلك السرية التى كانت تحميها هى شخصياً فى كل الأحوال.

وضعت نيهير خطة لتتوافق مع الحياة فى مصر، كان من أهم عناصرها أن تتحول من نيهير إلى ماريانثى، ذلك الحدث الذى كان محور اهتمام إيفيت، وقررت أن تبحث فيه بتعمق لتعرف كيف حدث ذلك. بحلول خريف عام ١٩١٤، كان هناك العديد من الأمور التى تغيرت فى حياة إيفيت، فالفترة التى قضتها "أسيرة" فى شقتها بشارع السلطان حسين قد ولت بلا رجعة، وكان لزاماً عليها تقسيم وقتها الثمين بالتساوى بين عشيقها صعب الإرضاء، وبين الشقيقتين روكسانى وذانائى، اللتين حضرتا إلى الإسكندرية على أمل أن تقى إيفيت بوعودها لهما بإقامة رائعة فى الإسكندرية، وفقاً لما أكدّه إلياس لأرابيذيس. قبلت إيفيت دعوة مدام أرابيذيس لزيارتها فى إحدى الأمسيات التى تكون فيها بمفردها فى المنزل عندما يذهب بانايوتيس إلى النادى اليونانى.

ذهبت إيفيت إليها فى إحدى أمسيات نهاية شهر سبتمبر الباردة، تحمل علبة حلوى من محل "بودرو"، ولكنها فوجئت بأن مكان اللقاء قد تغير وسيتم فى الشقة التى انتقل إليها الزوجان للإقامة أخيراً، وعندما شاهدت إيفيت الحمالين وهم يكافحون أثناء صعودهم سلم العمارة المظلم حاملين على ظهورهم قطع الأثاث الضخمة، أدركت أن حمولة عربية النقل التى تقف أمام "بوابة" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) العمارة كانت تخص هذين الزوجين. ترددت إيفيت فى الصعود إلى الشقة لبرهة، لكنها عادت وفكرت أنه إذا كان هذا الأمر قد يسبب حرجاً فلن يكون لها ولكن لربة المنزل. دخلت الأسانسير أمام البواب الكسول الغارق فى النعاس، ثم خرجت منه أمام باب الشقة فى ذات الوقت الذى وصل فيه الحمالون. ظهرت شغالة مصرية تضع قرط أذن

شعبي على شكل هلال، تبعثها سيدتها حسنة الملبس والمظهر، مما يؤكد أنه على الرغم من صغر سنها فإنها استطاعت التعامل مع هذا الظرف الصعب.

«يا لها من مفاجأة سعيدة، تفضلني بالدخول مدام إيفيت» (قالت ذلك مدام بانايوتيس بالفرنسية)، ثم تابعت «لا تنزعجى مما يحدث فهو أمر طبيعى»، لقد ساعدتها لغتها الفرنسية على الخروج دائماً من المواقف المحرجة بطريقة رائعة وبكلمات راقية.

فى البداية شعرت إيفيت بنوع من الحرج، حيث بدا لها من المضحك أن تنادى نيهير باسم ماريانثى، وكانت على وشك أن تنادى لمرتين أو ثلاث باسم نيهير، غير أن المرأة الشابة كانت تصحح لها الاسم بشكل طبيعى، تماماً مثلما قدمت لها الشاي بدلاً من القهوة. كل ذلك جعل إيفيت تتساءل إذا ما كانت قد فهمت خطأ، فربما كانت قصة هذه المرأة التركية مختلفة من وحى خيال زوجها. وعلى الرغم من شعور مدام أرابينيس بالراحة فى تعاملها مع شخصية ماريانثى، وكأنها كانت تجرب لعب دور سيدة من الإسكندرية فى أحد المنازل التى يتصارع فيها الطابع الشرقى مع الطابع الغربى للفوز بالإعجاب من خلال أثاث وديكور المكان، فقد كانت اللمسات الشرقية بالمنزل تخفف من وطأة الأثاث المصنوع من ماركة لوى سيز. كانت نيهير تتحدث الفرنسية بتكلف واضح، وهى ترفع فنجانها بين الحين والآخر وتقربه من شفيتها، مستمتعة بصوت ارتطام الفنجان بالطبق البورسلينى. غير أن نظرتها كانت تحمل انعكاساً زائفاً. وعلى حين غرة، أمسكت إيفيت بيدها وقالت:

«يمكنك أن تثقى بى، يا ماريانثى».

ماريانثى: «ولكنى أثق بك بالفعل، يا أنسة إيفيت. فأنت، على أية حال، تعرفين عنى الكثير».

إيفيت: «يا فتاتى المسكينة، أنا على يقين من أنه يصعب على فتاة مثلك أن تغير فجأة الوطن والأهل».

- «ليس الأمر كذلك (قالتها بالفرنسية)، فأننا بكل صدق، أحب بانايوتيس ويوسعى أن أفعل أى شىء من أجله».

عندئذ تساءلت إيفيت محدثة نفسها "وهل هناك ما لم تفعله حتى الآن؟"

- «لكن على أية حال، أنسة إيفيت، فقد كان الحب هو كل شىء بالنسبة لنا. سأخبرك الآن بأمر لا يعرفه بانايوتيس نفسه. إن والدتى على علم بكل ما يدور منذ وقت طويل. ولكنها لم تفضح أمرى أبداً. بل وسمحت لى بالرحيل معه»

- «ماذا تقولين؟ يا له من أمر مؤثر، لابد أن "ماما" (قالتها بالفرنسية) تحبك كثيراً».

- «لم يكن للحب دور فيما فعلته أمى من أجلى. فلدى شعور بأنها تخفى سرّاً ما. ففى مرات عديدة كانت تقول لى: "لا تترددى إذا ما اضطرت يوماً ما لفعل أى شىء من أجل الحب، حتى إذا وصل بك الأمر للاختيار بين حبك وبين إيمانك بالله"، تلك المرأة لم تكن تحب والدى قط. وكان ذلك أمراً معروفاً، حيث قام إخوتها بتزويجها من أبى لى ترحل فى أسرع وقت من مدينة أيفالى وتنسى عشيقها. "الملعون" (قالتها بالفرنسية) الذى كان يعيش فى الجزيرة المقابلة والذى كان قد سلبها عقلها، ويبدو أن هذا الأمر كالميكروب المعدى فى الأسرة».

عندئذ أجابتها إيفيت بتأثر شديد: «ربما» ثم همست بداخلها "ماذا لو تعرف تلك الفتاة التركية أن المرأة، الفرنسية- السويسرية التى أمامها تعرف كل تفاصيل قصة الحب التى جمعت أمها بذلك العاشق "الملعون" بعد أن تصادف وأبلغها بذلك أحد أقربائه، وكان يصر على أن يروى لها تلك القصة فى كل مرة كان يجمعهما فراش.

"كم هو صغير هذا العالم بشكل ساخر!" هكذا تمتمت إيفيت، ثم أمسكت مرة أخرى بيد ماريانثى أو نيهير وهمست فى تأثر قائلة:

«أريد أن نصبح صديقتين حميمتين، يا عزيزتى ماريانثى».
أجابت المرأة الشابة بطريقة قاطعة: «وأنا أرغب فى ذلك أيضاً، يا أنسة إيفيت».

* * * * *

«كيف تمنح هذه المدينة فرصاً فقط للصعاليك؟» (قالتها بالفرنسية) هكذا قالت السيدة خاراميس وهى تشعر بالمرارة، ثم ألقت بنفسها على إحدى أرائك لوى فيليب الموجودة فى صالون المنزل الضخم، وقد أمسكت بيدها ذلك الخطاب الذى أرسله شقيقها لوكاس سينجوس، من إحدى قرى دلتا نهر النيل، طالباً منها، بطريقة تبعث على الأسى، أن تمد له يد العون، حيث كتب لها: «لا تبك على حالى وعلى الظروف التى أعانيها، لقد بدا لى الانتحار وكأته الخروج المشرف من الحياة». وكان لوكاس قد انتقل إلى كفر الزيات منذ عدة أعوام، وأنفق كل ما لديه من مال لبناء معصرة للزيت، ثم عقد اتفاقاً مع مزارعى القطن لإمداده بالبذور التى يحتاجها إنتاج زيت القطن. اعتمد لوكاس على هذا المشروع لإنقاذ ثروة أسرته، ولكن يبدو أن حساباته كانت خاطئة لأنه منذ ذلك الحين، وبعد وقت قصير، أصبح يرسل خطابات استغاثة يائسة إلى كل أصدقائه وأقاربه، طالباً منهم المساعدة المالية. وحتى نكون صادقين، فقد كان أندونيس الوحيد الذى ساعده من بين كل الذين أرسل لهم، ولكن إلى متى سيستمر ذلك؟

أيقنت ذافنى أن أفضل طريقة للحصول على المال من زوجها هى: الانتظار حتى تتغير فصول السنة، حيث يقوم أندونيس بحياكة قمصانه ويزلاته الجديدة، فكانت تتحين الفرصة فى إحدى البروفات التى كانت دائماً ما ترمقه، لكى تحصل منه على وعد (بإمدادها بالمال). ويبدو أن أندونيس قد فطن لهذا الأمر بعد أن تمادت زوجته فى هذا الطلب كثيراً، ولعل ذلك كان سبباً فى تجنبه لتلك البروفات، حتى كاد يصبح بلا ملابس جديدة، وعندئذ كانت تعاود الكرة لتعويض ما فات من الوقت. على أية حال، فقد كانت على دراية بأن الأمر برمته أصبح ثقيلاً بالنسبة لزوجها بشكل أو بآخر، حتى لو تمت البروفات فى المنزل، فقد كان أندونيس يحتد بشدة على بيير، حائك الملابس الخاص به، بسبب حجر البنطلون الواسع، الذى أثار حفيظته لأنه يدخل الكثير من الهواء فى قمصانه الحرير، وعلى الرغم من ذلك فلم يقم أندونيس باستبداله أو استبدال

أنيسى الحائك الخاص بقمصانه، ذلك الرجل الذى استطاع أن ينقل فن الحياكة الخاص بالإخوة لازاريدس من الشارع الكبير فى إسطنبول إلى الإسكندرية، وكان يعد أحد عباقرة حياكة القمصان الحريرية. كان ينبغى على ذافنى الوجود لكى تهدئ من روعه وتقوم بتقريب وجهات النظر بينه وبين الحائكين. وعلى العكس من ذلك، كان الجاكت الذى يقول عنه فى البروفة «إنه يجعلنى أبدو أرفع حجماً، كيف أوضح لك الأمر، إنها تعصرنى» (قالها بالفرنسية)، «تبدو عليه مثل كيس البلاستيك، كما ستصبح ستة من القمصان بلا فائدة، إذا لم تقم ذافنى بإقناع أنيسى بالتروى قليلاً حتى يستطيع إقناعه بتليين الياقات وتوسيع الأكمام. أما أندونيس فكانت له طرق أخرى: حيث كان لا يمانع فى القيام بعمل البروفات الخاصة بالحلل أمام إحدى المرايا الضخمة الموجودة فى الطابق السفلى، أما بالنسبة القمصان فكان عنيداً، حيث كان يغلّق الباب على نفسه، قبل اتخاذ القرار، ويقوم بعمل العديد من البروفات أمام المرأة الموجودة بغرفة النوم. وهكذا فمن يستطيع تحمل كل هذا العناء، ستكون لديه القدرة على فهم السبب الذى من أجله يحتاج أندونيس ثلاثة أضعاف الوقت الذى يستغرقه الزبون العادى. ورغم ذلك فلم تفهم ذافنى لماذا كان أندونيس شديد التذمر من استغراق البروفات كل هذا الوقت. بعد كل ما عانته معه هذه المرة، فقد اعتبرت أن لامبالاته بمأساة لوكاس تعد نوعاً من الجحود.

– «أندونيس، لابد أن تفعل شيئاً من أجل لوكاس، إنه أخى».

تصرف أندونيس وكأنه لم يسمع شيئاً، وأخذ يصيح فى بيير:

«على رسلك يا بنى، كن رقيقاً، فسوف تخنقنى، ليس بهذا الضيق، هيا يا ذافنى، قولى له شيئاً».

– «أندونيس، يبدو الجاكت جيداً، بالنسبة للوكاس ماذا سنفعل؟».

– «ماذا تريدان أن نفعل؟ لقد أنقذت أخاكى العديد من المرات حتى إننى لا أذكر عددها، فلينقذه أعمامك ولو لمرة واحدة، هذا إذا كان لديهم إحساس» هكذا أجابها ثم عاد لينشغل بمشكلته قائلاً: «انتبه أين تضع هذه الدبابيس، سوف تقتلنى بوخزاتك».

- «أصبح الأمر مقلقاً بالنسبة لثروة العائلة»، قالت ذلك بصوت مرتفع وقد اختلط صوتها بصوت قرقعة الصحن البورسلين على الصينية التي تحملها الخادمة فوزية، قادمة من الحديقة حيث كانا قد تناولوا وجبة الإفطار.

عند ذلك الحد تذر أندونيس بسبب شدة اتساع «الجيليه» مما تسبب في كرمشة الجاكت. ثم قال:

«أرجو أن تسدى لى صنيعاً أخيراً، يا صغيرتى ذافنى، ثم عن أى ثروة عائلية تتحدثين؟ عندما تزوجتك تزوجت معك طاقماً من الاكواب الزجاجية عديمة القيمة، وخادمة عديمة النفع لم أستطع أن أتخلص منها».

عندئذ حاولت ذافنى أن ترد له هذه الإساءة فقالت:

«ماذا نفعل، فالمدينة لا تمنح الفرصة إلا للصعاليك فقط (vagabonds)»! (قالتها بالإنجليزية).

- «قلت لك مراراً وتكراراً، عندما توجهى لى الإهانة عليك أن تفعل ذلك بلغتنا اليونانية، فهذا يعطينى شعوراً أفضل، ثم ماذا تعنى كلمة (vagabonds)، ألا يوجد لها مقابل فى اللغة اليونانية؟».

- «لا أتذكرها الآن. يا عزيزى».

- «أرايت، هذا ما كنت أقوله لك من قبل، ملليمتران أو ثلاثة أطول هو كل ما أردت. ما رأيك فى هذا؟».

- «ماذا عسائ أن أفعل؟ (قالتها بالفرنسية)، ففى المنزل كانت الخادما تتحدث معنا بالإنجليزية والفرنسية، وكانت كل الطبقات الراقية بالإسكندرية تتحدث بتلك اللغات».

فى تلك اللحظة، استدار أندونيس طالباً من ذافنى طلباً عجبياً:

«حسناً، أخبرينى فقط معنى هذه الكلمة وسوف أنفذ لك كل ما تطلبين، هذه الكلمة فقط، يا ذافنى، ولا تدعونى (vagabond)».

- «هذا أمر سخيف، أنت متعجب، تعلم ذلك بالطبع (قالت ذلك بالفرنسية)، ولكن يا سيدى، فى أيام ثرائنا».

قاطعها أندونيس قائلاً: «أعرف ذلك، ستتحدثين ثانية عن والدك الذى كان يركب عربتكم الفاخرة، وأنت بجواره طفلة غضة صغيرة، ربما كان عمرك ست سنوات. وكنتم تقطعون الشوارع الإسفلتية. وكان سائق العربية يرتدى قبعة عالية وحلة بأزرار ذهبية وينطلقون أبيض. ثم كان هناك ذلك الرجل حافى القدمين الذى كان يجرى أمام العربية وهو يصيح مردداً اسم سيدة: كاليماخوس سينجوس، كاليماخوس سينجوس، إنه أمر مؤثر جداً. مثل ذلك الذى كُتِبَ فى إعلان زواجنا- فى جريدة تاخيزروموس (أى البوسطجى)- لقد حفظته عن ظهر قلب: " بكل فخر، تم مساء أمس (١٨٩٨/١١/٢٨) عقد قرآن الأنسة ذافنى سينجوس ابنة الأسرة المحبوبة، سليمة عائلة تاجر القطن المعروف كاليماخوس سينجوس... إلخ إلخ". إذا كان هذا مؤثر فقد تأثرت».

- «حسناً يا سيدى، وإذا أردت أن تعرف أكثر فقد كان منزلنا فى صلاح الدين أفضل منازل حى كارتية (الحى اليونانى) بأكمله، " نخبة النخبة كما يقولون" (قالتها بالفرنسية)».

كانت إشارة ذافنى الدائمة لمنزل العائلة فى صلاح الدين تجعل أندونيس يتساءل دائماً: «أخبرينى بالله عليك، ولماذا إذن لم نذهب لنعيش هناك فى " نخبة النخبة " (قالها بالفرنسية)، لأن فيلتكم التى تتحدثين عنها بشكل مستمر، والتى نال مهندسها جائزة على تصميمها، كانت مرهونة أيتها المسكينة الصغيرة».

ذافنى: «لا تكن فظلاً»، أجابته ذافنى (بالإنجليزية) وهى تكبح جماح غضبها تجاه أسلوبه المهين.

عندئذ صاح أندونيس متذمراً، بارماً شاربه من الغضب:

«باليونانية أرجوكى، تحدثى باليونانية!».

ذافنى: «ولكن يا عزيزى أندونيس، لو كاس.. أنت تعرف كم يحبك لو كاس».

أندونيس: «نعم أعرف، فهو يناديني دائماً بـ "محمد على" فى صعودى، "محمد على" أثناء هبوطى».

كان لقب "محمد على" هو الكنية التى عُرف بها أندونيس خاراميس فى الإسكندرية منذ عام ١٨٨٠، حيث حضر صغيراً من مدينة كافالا، وأصبح بائعاً للسجائر والدخان يعلق صندوقه الصغير فى رقبته وعليه نقش للفارس محمد على. كان يتجول فى أحياء المنطقة اليونانية: من منطقة الجمارك القديمة حتى شارع النهضة ومن القبارى حتى اللبان ومن العطارين حتى باب سيدرا ومن ميسالا حتى الأزاريطه.

ذافنى: «يقوم لوكاس المسكين بمحاولات حثيثة فى السنوات الأخيرة حتى ينقذ ما تبقى، وينبغى أن نعترف جميعاً بذلك»، قالت ذلك، بينما كانت تساعد على خلع الجاكت الذى كان يقوم بعمل بروفته.

أندونيس: «مما لا شك فيه أن لوكاس شخص أحمق، فهو يتوسل للجميع، أقارب وأصدقاء، باسم ثروة العائلة. هذا هو لوكاس الذى تدافعين عنه». قال ذلك وهو يخلع الجاكت الذى يرتديه ولم يبق سوى كُف واحد فقط فقام بالتخلص منه بحركة عنيفة، وعندئذ صاح ببير:

«يا سيد خاراميس، يجب أن نكمل بروفة الجاكت».

فأجابه: «أعطه لها لى تجربته، لقد سئمت منكما أنتما الاثنين».

رحل أندونيس بعد ذلك بخمس دقائق متوجهاً إلى عمله، وانسحب ببير ومساعداه أملين أن تكون البروفة القادمة أفضل، فى حين بقيت ذافنى فى مكانها ولديها إحساس مرير بالامانة، واحتاجت لوقت طويل حتى تستعيد حالتها الطبيعية واحترامها لذاتها. فى تلك الحالة، كانت رحلة قصيرة للماضى ضرورية حتى يعود كل شىء لحالته الطبيعية. كان باستطاعتها القيام بجولة فى أروقة المنزل، وهناك تظهر آثار الأتربة فى أركان المنزل غير المستخدمة وأعلى الأثاثات، وفى التجاويف الخشبية وعلى الإطارات الذهبية التى كانت تحيط بمرايا المنزل، وهى تلك الأماكن التى لم تكن أعين الشغالات

الناعسات تصل إليها. كل ذلك كان يمنحها الفرصة لكى تصب جام غضبها على كل من فوزية وفاطمة، وبالأخص فاطمة لأنها المسئولة عن نظافة المنزل، مما يساعدها على التخلص من عصبيتها. غير أنها لم تكن لديها الرغبة الآن فى ذلك، ولذلك فقد فضلت أن تغوص بجسدها فى الكرسى الوثير بالصالون وأن تسترجع ذكريات عطرة تعنى لها الكثير.

أخذت ذافنى تسترجع ذكرياتها، مثلما كانت تفعل دائماً، بداية من حفل التخرج الراقص فى الحفل التكرى عام ١٨٩٧، حيث رافقها أندونيس للرقص للمرة الأولى. ولكن ماذا عن حال الشاب أندونيس. فى ذلك الوقت، كان رجلاً شاباً قد تعدى الثلاثين من عمره، لم يكن بارعاً فى الرقص، وكانت المرة الأولى التى يشاركها شخص ليست له دراية بأبسط قواعد الرقص؛ والأكثر من ذلك أنه قد أعادها إلى المنزل قبل أن تدق الساعة الثانية عشرة مساءً بقليل. أما السبب فى ذلك فقد أوضحه لها بقوله: «إنه ليس من اللائق (قالها بالفرنسية) أن يتسبب فى تأخير زميلته فى "مدرسة كوراسيديس" عن المنزل»؛ ولكن ما الذى كان يفكر فيه على أية حال؟ كانت ذافنى فة الرابعة والعشرين من عمرها؛ فتاة محبة للحياة، للمتعة، للرقص، ترغب فى تكوين صداقات، والوقوع فى براثن الحب. كانت اللحظات الوحيدة التى تشعر فيها بالسعادة هى تلك التى تقضيها مع الخادومات المصريات وهن يداعبنها، مداعبات غير بريئة فى بعض الأحيان، وأيضاً عندما تستمع إليهن وهن يروين مغامراتهن العاطفية مع رجال مصريين بارعين، أو هكذا كانت تفهم بما كانت تعرفه من كلمات باللغة العربية. وعندما شب عودها بدأت تهتم بالبحث فى كل مكان عن هؤلاء الرجال ذوى القامة العالية والبشرة السمراء والشفاه الغليظة، لأنهم بالإضافة إلى ذلك يتمتعون بفحولة الرجال وعنفوانهم. ودائماً ما كان ينتابها حلم بأنها يوماً ما ستتبادل مع أحدهم العشق والغرام بطريقة لم يكن لأحد من الأوربيين المترفين عهد بها. وذات مرة كاد أن يتحقق لها ما تمننت، عندما طبع مصطفى، ابن أحد الباشوات المصريين، وهو شاب يرتدى الزى الأوربى، "قبلة التخرج" - كما كانوا يسمونها فى ذلك الوقت - على شفيتها، ثم حاولت تتحسس جسده (*)، ولكن الأمور لم تسر على هواها.

بعد كل تلك المغامرات، سبب لها دخول الشاب أندونيس في حياتها نوعاً من الإحباط، فلماذا تزوجته إذن؟ لأنها رآته بعين أبيها، الذى كان أوشك على الإفلاس، وقال لها بعين الخير: «هذا الشاب ينتظره مستقبل عظيم». أما ما كان يعيب أندونيس المسكين، فهو شدة غلظته وقلة رفته بشكل لم تكن تتمناه. كان أندونيس شاباً شعبياً يهفو كثيراً للتعامل مع جسدها كما لو كانت عامرة، ولكنه كان يخجل من أن يطلب منها ذلك؛ فى حين أنها لم تستطع هى أيضاً أن تمحو من ذاكرتها علاقاتها بالعرب مفتولى العضلات، مما كان يسبب لها حرجاً وشعوراً بالذنب. وبدا الأمر وكأن ماضيها الذى عاشته كان مشيناً، وكأنها ما زالت تعيش فى الخطيئة. وهكذا فقد تجمد كل شىء بداخلها فى النهاية، وأخذت تنظر لعلاقاتها الزوجية نظرة المتفرج، مما جعلها تدرك أن كلاهما يسير فى اتجاه معاكس، وعندما تلتقى فى علاقة حميمة مع زوجها، كان كل منهما يفلق عينيه وكأنه يبحث فى مخيلته عن شخص آخر.

منذ ذلك الحين، نبذت كل ما كان يدور بخلدها من شهوات محرمة، وبدأت فى ترتيب حياتها لتتكيف مع الواقع الجديد، بدءاً بإصرارها على شراء ذلك القصر الذى يقيمون به من تاجر قد أشهر إفلاسه، وكان له أبناء كثيرون. رضخ أندونيس لطلبها، ولكنه أخذ يصيح قائلاً: «هل جننت؟ أخبرينى ماذا سنفعل نحن الاثنين بهذا القصر الفسيح؟».

أجابته ذافنى: «سوف تنجب أطفالاً كثيرين»، لكنها لم تستطع أن تنجب فى النهاية سوى طفلين، وما زال أندونيس يتذمر حتى الآن من رضوخه لطلبها ويردد باستمرار أنه سوف يبيع ذلك القصر. فالهى اليونانى، على أية حال، كاد يطبق على أنفاسه. أما هى فعندما كانت تسمعه يتهمك على سكان هذا الحى لأنهم يسكرون وأنوفهم فى السماء، فكانت تبتسم ساخرة وتحدث نفسها قائلة: «يا لك من حقير، يا أندونيس خاراميس، وضئيل، هذا هو حجمك الحقيقى» (قالتها بالفرنسية)، ومع كل ما تملكه من مال ستظل حقيراً».

وعلى الرغم من وجهة نظرها تلك فى مكانة أندونيس، فإنها استطاعت أن تجد لنفسها مكانة إلى جانب ذلك الرجل الذى تزوجته دون أن تحبه، وأحياناً ما كانت تشعر تجاهه بنوع من الامتتان، لأنه ببساطة يستطيع أن يوفر لأبنائها مستوى المعيشة الذى استطاع والدها أن يوفره لها فيما مضى .

* * * * *

لم تقم إيفيت هذا الصيف بالعديد من الزيارات لمنطقة سان ستيفانو سوى عندما كانت تشعر بوطأة الحر تسيطر على شقتها، مما كان يدفعها للبحث عن نسمة هواء على شواطئ الإسكندرية؛ عندئذ كانت تتوجه إلى كازينو سان ستيفانو - مكانها المفضل - مرتدية الملابس الخفيفة فاتحة اللون وقبعة من القش، مصطحبة معها فى حقيبتها زداء الاستحمام (دونها بالفرنسية)؛ وقد اعتادت أن تستقل الترام (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) ذا الواجهة الحمراء من الأزاريطة، ثم تبدأ فى عد خمس عشرة محطة، واضعة فى اعتبارها أنها ستهبط فى المحطة التى تلى زيزينيا. وكم كان يستهويها أن تستقل الدرجة الأولى من الترام المكون من دورين، كما اعتادت أن تجد لنفسها مقعداً فى الإمبريال - وهو الدور العلوى من الترام - على أحد المقاعد المزودة بمساند متحركة للظهر، تلك المساند التى كانت تعطيك الحرية للجلوس بأى من الاتجاهين. وكانت تارة تسرح بعينيها فى الطريق وتارة أخرى ترقب محصل التذاكر المصرى بزيه البنى المزود بأزرار ذهبية وطريوشه، وهو يتجول فى الترام ذهاباً وإياباً بين الركاب. وكان باستطاعتك، عندما يفتح الحقيبتة الجلدية القديمة المعلقة على كتفه، أن تشاهد ما بداخلها من جيوب يضع بها التذاكر، مقسمة بعناية حسب الدرجة.

كان لكل ترام محصلو تذاكر مخصصون له، يعملون فى دوريات ثابتة، حتى إنك إذا ما أردت أن تلتقى نفس المحصل فى اليوم التالى فما عليك سوى ركوب الترام نفسه فى التوقيت نفسه. كانت الغالبية العظمى من هؤلاء المحصلين تتميز باليقظة، فلا يستطيع أى شخص أن يخدعهم ويركب بدون تذكرة. وفى الوقت نفسه كانوا يتعاملون

بحذر مع الصبية الذين كانوا يتعلقون بالباب الأمامي، لأنهم كانوا يتأهبون فى كل مرة يقترب منهم المحصل للقفز فى المحطة التالية، فى محاولة منهم للبقاء أطول مدة ممكنة فى الترام. أما المشهد الأسوأ فيخص بعض الشبان المصريين الذين يتعلقون بالترام من الخلف، وكان مشهداً مألوفاً اعتاد عليه محصلو التذاكر.

كانت إيفيت، وفقاً لحالتها المزاجية، إما تقلص رحلتها بالترام إلى سان ستيفانو وتهبط فى المحطة الثانية عشرة فى منطقة جليم، أو تزيد من عدد المحطات وتستمر حتى المحطة التاسعة عشر، حيث شاطئ سيدى بشر- ولم يحدث ذلك إلا نادراً. أما الآن فلا مفر لها من الهبوط فى سان ستيفانو، فقد اهتمت، منذ ذلك اليوم الذى استقبلوا فيه الأختين روكسانى وذائائى فى الميناء، اهتمت أن تقيما فى "فندق وكازينو سان ستيفانو" (دونها بالفرنسية)، على الرغم من اعتراضات إلياس وتذمره من مصروفاته الباهظة؛ لأنها كانت ترى أن انطباعتها الأولى عن الإسكندرية لابد أن تكون رائعة، على الرغم من وجهة نظر "اللبنانى" الذى يرى أنه ليس من الضرورى الاهتمام بهما إلى هذه الدرجة المبالغ فيها؛ ولكن كان عليه أن يدرك أن هاتين الفتاتين لم تكونا مجبرتين للحضور من أجل العمل فى مصلحة حكومية، فقد حضرتا إلى الإسكندرية بمحض إرادتهما، وهما على يقين بتحقيق وعودهم لهما، كل ذلك كان يشعر إيفيت بالمسئولية تجاه كل من روكسانى وذائائى. قسمت إيفيت وقتها طوال أسبوعين بين مصطفى باشا وبين سان ستيفانو، من أجل إعداد المنزل الذى سيشهد تنفيذ ما خططوا له، بشكل يناسب الحالة النفسية للفتاتين اللتين حضرتا لتقديم خدماتهما لعلية القوم بالإسكندرية. كان تفكير إلياس بسيطاً ولكنه عبقرى، فقد كان المجتمع الراقى بالإسكندرية فى حاجة إلى جو مميز: فالباشوات المصريون والضباط الإنجليز ورجال الأعمال الأجانب وكل من ينتمى لعلية القوم بالمدينة، سيكون باستطاعتهم جميعاً قضاء وقت ممتع فى أجواء خاصة وأمنة، مستمتعين بفاكهة المتعة المحرمة. فقد تم إعداد هذا البيت المخصص لممارسة الرذيلة (دونها بالفرنسية) على أعلى مستوى، ليكون نواة لـ "خلية تجسس صغيرة، وتمثل هاتان الفتاتان القادمتان من إسطنبول حجر الزاوية بالنسبة لهذه الخلية وهى تخطو خطواتها الأولى. حتى الزبائن المشاكسين فسوف

يجدون فى أحضان هاتين الفتاتين ما يبحثون عنه من متعة تروى الجسد وتحلق بالروح. ومن بين الاثنتين كانت روكسانى، التى تحمل ملامحها الطابع الأوروبى الجميل، نحيفة القوام فاتحة البشرة، كانت تبدو قناعتها بالفكرة بشكل عام، كما كانت على يقين من أنها بطريقة أو بأخرى يمكنها استكمال ما كانت تقوم به بالفعل فى إسطنبول. وعلى العكس من ذلك، كانت زانائى، ترى فى مسيرتها فى مقهى شانتان بإسطنبول نوعاً من المثالية، ولذلك فقد كانت دائمة التبرم من تغيير مسارهما، مما يعرض حياتهما للخطر وتدمير مستقبلها " كمغنية " (دونها بالفرنسية).

فى كل مرة تصل فيها إيفيت إلى سان ستيفانو، يشد انتباهها مدخل المنطقة الفسيح بأركانه المرتفعة التى تشبه فى تكوينها البرج. وكانت تزعجها حدة طبع زانائى وردما يتأقل على تحيتها، أثناء استلقائها على أحد مقاعد الشاطئ الخاص بالفندق، وهى تنظر شاردة إلى البحر. أما روكسانى فكانت تسعى جاهدة لإنقاذ الموقف وتذكر لإيفيت أنها تقضى وقتاً ممتعاً فى سان ستيفانو، وتعبر لها عن مدى شوقها لبداية حياة جديدة فى الإسكندرية؛ وعندما كانا يسبحان فى مياه البحر العميقة كانت تداعب إيفيت مداعبات ساخنة، وتسمح لها بتحسس جسدها الناعم الرشيق، وهى غارقة فى الضحك الممزوج بنغمة أنثوية مرحة يتردد صداها فى سماء الإسكندرية التى كانت تلفظ الحرب مثملاً كانت تلفظ أخلاقيات هؤلاء المواطنين الأوربيين المهينة .

بعد ذلك، يتناولون وجبة طعام دسمة فى نادى سان ستيفانو، حيث توصلت إيفيت إلى طريقة تمكنها دائماً من تخطى قائمة انتظار الزبائن. كانت قائمة الطعام تحتوى على العديد من الأطباق الأوربية ومعها سلطات الموسم والحلوى اللذيذة. وقد وجدت الفتاتان تسليتهما فى إغراء كل منهما للأخرى بما ستختاره من قائمة الطعام، وذلك بتغيير ما تطلبه فى آخر لحظة مرتين أو ثلاث مرات، وكئنهما يختبران صبر الجرسونات السودانيين ذوى القامة الطويلة والجلاليل البيضاء ذات النطاق الأحمر، والذين كانت عماماتهم البيضاء تجعلهم قريبى الشبه بالهنود. واستطاعت روكسانى أن تلمح تلك الخطوط الثلاثة فى وجنة كل منهم، والتى كانت تأخذ شكل رقم ١١١؛ ولذلك أطلقت عليهم

إيفيت لقب "جماعة المائة وأحد عشر" باليونانية، وأخذت تشرح للفتاتين علاقة هذه العلامة بالجنس الذى ينحدرون منه، فهم يحصلون على هذه العلامة منذ نعومة أظفارهم فى إطار الطقوس الدينية. وبالإضافة إلى هذا الجو المرح الذى اشتركن جميعاً فى خلقه، فقد أضفى المذاق الطيب للأطعمة والتناسق البديع فى أنواع الطعام المزيد من المتعة. قبل هذا اليوم كانت إيفيت تحدث الفتاتين عن حياتهما الجديدة بشكل مقتضب كلما سنحت لها الفرصة، أما اليوم فقررت أن تتحدث معهما بشكل أكثر تفصيلاً.

إيفيت: «حسناً، يا فتياتى، سوف تنتقلان فى غضون أيام قليلة، ومن جهة أخرى، لن يكون الجو مهياً لبائكما أكثر من ذلك فى سان ستيفانو».

روكسانى: «ولكن الإقامة فى سان ستيفانو تطيب لنا يا إيفيت، قد لا تعلمين مدى إعجابنا بإمكانية الاستحمام فى البحر، ونحن فى نهاية شهر سبتمبر، إنه أمر رائع» (قالتها بالفرنسية)!

إيفيت: «نعم أعلم ذلك، يا عزيزتى (قالت ذلك بالفرنسية)، ولكن لا تدعى الطقس يخدعكما، ففى غضون أيام قليلة سوف يختفى هذا العالم الجميل، وستصبح مياه البحر باردة، وستخلو الشواطئ من المرتادين، وتخيم الوحدة على كل شىء».

ذانائى: «وبالنسبة لنا، ما الذى سيحدث؟» سألت عن ذلك، ثم ألقت بالشوكة من يدها بشكل مفاجئ.

إيفيت: «هذا ما أردت مناقشته معكما اليوم. فهناك منزل فى شارع مصطفى باشا يتم إعداده لكما، ويمكنكما الانتقال إليه فى غضون أيام قليلة. إنه واحد من أفضل المنازل فى الإسكندرية، يقع فى أفضل الأحياء على مقربة من وسط المدينة، عشر دقائق بالترام. من لا تمنى أن يكون لها حظ مثل حظكما!».

ذانائى: «وماذا عن العمل فى الكباريه؟».

إيفيت: «هذا أمر يتولاه إلياس. نحن لا نريد أن نلقى بكما فى بيت من بيوت البغاء التى لا تتناسب مع مكانكما».

ذائى: «ولكننا سنعمل أليس كذلك؟».

إيفيت: «طالما ترغبين فى ذلك بشدة، فماذا عسائ أن أقول. على أية حال أريدكما أن تعرفا أن المستقبل الذى نرسمه لكما ليس به ما يعكر الصفو». روكسانى: «من ذا الذى يستطيع أن يؤمن لنا مستقبلاً هادئاً، خاصة فى مثل هذه الظروف؟»، ثم بدا عليها الحزن وهى تضع الطعام فى فمها بلا مبالاه. سارعت إيفيت بتهديتهما قائلة: «لا تشغلى بالك يا صغيرتى. هنا، الحرب تمثل لنا دائماً عنصر القوة. ومن جهة أخرى، من المستحيل أن نتورط فى هذه الحرب. الشئ الوحيد الذى يمكننا عمله هو الاستفادة من هذا الصدام العالمى». قالت ذائى بامتعاظ: «إننى أتساءل، لأى جهة سوف تنحاز والدتنا فى تلك الحرب».

تجنبت إيفيت أن تذكر أى تعليق يخص أهمها التركية. ولكنها قالت بشكل قاطع: «أعدكما، يا فتيتى، بكل ما أملك، أنه لن ينقصكما أى شئ من الآن فصاعدا».

حولت إيفيت نظرها تجاه الشاطئ، حيث أصبح البحر هائجاً فجأة، وارتفعت الراية السوداء التى تشير لعدم السماح بالسباحة. وأصبحت الأمواج العالية تهدد طفلين إنجليزين كانا بينيان قلاعاً من الرمال على الشاطئ، فى حين كانت مربيتهما تسرع بجمع ألعابهما من مياه البحر.

دعت روكسانى إيفيت لحجرتها بالفندق للحصول على قدر من الراحة، وسمحت لها بالاستلقاء بجوارها على السرير. كانت ذائى ترمقهما بعين غير راضية لداعباتهما وملاطفاتهما؛ وفى الوقت الذى ودعتهما إيفيت وهمت بالرحيل، سمعت صوت ذائى وهى تصيح فى أختها بالروسية بطريقة تنم عن توتر العلاقة بينهما.

وفى رحلة عودة إيفيت، كانت المحطة تعج بالبشر، ورغم ذلك استطاعت، بشئ من الحظ، أن تجد لنفسها مقعداً شاغراً فى الطابق العلوى للدرجة الأولى. كانت نوافذ

العربة مفتحة، ولذلك قطعت إيفيت الطريق بأكمله دون قبعتها، مستمتعة بالهواء المنعش الذى جعل شعرها يتطاير فى الهواء. وكانت تلامس شفيتها بين الحين والآخر بظهر يدها فتتنشق تلك الملوحة الجميلة التى يسببها رذاذ مياه البحر المتوسط. كان على إيفيت أن تشعر بالقلق ليس من مشاعر ذائئى الجافة تجاهها، ولكن من مشاعرها هى نفسها تجاه روكسانى الرقيقة الناعمة التى قادتها بلا شعور إلى عواقب مجهولة ووخيمة.

* * * * *

لم يبدأ العام الدراسى (١٩١٤-١٩١٥) بنتائج مبشرة للصغير كوستيس خاراميس، التلميذ بالصف الثانى الإعدادى بمدرسة أفيروفىوس الإعدادية، ولذلك فقد طلب معلم اللغة -الأستاذ يورغوس ميلارينوس- مقابلة محامى عائلة خاراميس، ستراتيس ميخيليس، لكى ينقل إلى عائلة التلميذ ملاحظاته شديدة القسوة (على مستواه المتدنئ). وهكذا وجد ميخيليس فى تلك الدعوة - بصفته محامى العائلة - اتفاقاً مع طبيعة العلاقة التى تربطه بعائلة خاراميس، سواء علاقة العمل أو صلة القرابة، وبإدراكه بتلبية الدعوة الجادة.

تجاهل ميخيليس الأمطار الغزيرة التى بدأت بحلول شهر أكتوبر فى الإسكندرية، وحرص على دخول بوابة المدرسة فى الموعد المحدد وفقاً لما جاء بالدعوة. لوراه أحد وهو يدخل المجمع المدرسى، عندما كان ينفض الماء عن الشمسية السوداء الكبيرة ذات اليد الخشبية، لظن أن فى الأمر خدعة، فالرجل ذو الشارب الحاد والعيون عسلىة اللون لم تسقط نقطة ماء واحدة على ملابسه. قام ميخيليس، باعتباره زائراً مهذباً، بمسح حذائه فى دواسة الأقدام قبل الدخول. لم يكن أمراً سهلاً أن يسلك طريقه داخل المبنى الضخم بأسقفه المرتفعة ونوافذه الشاهقة ورواقه الممتد الذى يحتوى على العديد من أبواب مغلقة. على الأرض، انتشرت المئات من آثار الأقدام التى كانت عاملة النظافة المصرية الممتلئة تكافح لمحوها بقطعة من القماش وهى تتمتم (نادبة حظها). فى نفس الوقت

كان العمل بالمدرسة يسير بشكل منتظم، ولم يشأ ميخيليس أن يحدث أى ضوضاء فكان يسير بخفة وهدوء - ككس يتسلل داخل المبنى - ثم قام بعمل كان يجب أن يفعله منذ كان صغيراً: وهو أن يتنقل بخطواته داخل المربعات المرسومة على الأرضى. ألقى ميخيليس بالتحية على الساعى المصرى، الذى أسرع تجاهه ليحمل عنه الشمسية والمعطف، فسأله هامساً عن حجرة المدرسين بالمدرسة. أشار الساعى للسلم الرخامى الموجود فى نهاية الرواق والذى يؤدى إلى الطابق الأول. قام ميخيليس بضبط رابطة عنقه، ثم أخذ نفساً عميقاً واستمر فى طريقه.

فى منتصف السلم التقى ميخيليس طالبين، وما إن شاهداه حتى أسرعوا بالاختفاء من أمامه، ولم يفهم ميخيليس السبب فى ذلك. ثم قطع الممر بمفرده حتى حجرة المدرسين، وهناك وجد ميلارينوس يقوم بتصحيح واجبات تلاميذه. كان لميلارينوس مظهرًا مضحكًا، فهو رجل فى الخمسين من عمره، له شارب غير مشذب، يندر وجود الشعر فى رأسه، أذناه بارزتان على جانبى رأسه، نو نظره حادة. لم يكن ميخيليس فى حاجة لتقديم نفسه فقد فاجأه الأستاذ المتجهم قائلاً:

«ادخلوا وتفضلوا بالجلوس، سيد ميخيليس، فشهرتكم باعتباركم رجل قانون تسبقكم. لقد نما إلى علمى أخيراً أنكم من خريجى مدرسة توسيتسيا، وهو أمر يشرفنا على وجه الخصوص».

كانت لدى ميلارينوس رغبة شديدة فى أن يكون حديثهما منذ البداية باللغة اليونانية الفصحى، ولم يكن هناك ما يدعو لرفض الشأى الذى قدمه له. أما عبارة «وهو أمر يشرفنا على وجه الخصوص» ، فكانت تعنى بوضوح أنه يجب على المحامى أن يضع فى اعتباره أن الأستاذ ميلارينوس، بكل تأكيد، عضو بجماعة كبيرة ينتمى إليها، فهو إما ماسونى أو مؤيد للملكية أو كلاهما معاً.

دخل الأستاذ ميلارينوس فى الموضوع مباشرة، ففتح درج مكتبه وأخرج منه قطعه من الورق، وبينما كان يتفحصها قال لميخيليس:

«أعلم أنكم تمثلون مصالح عائلة خاراميس وتربطكم صلات قرابه وعمل بهذه العائلة المعروفة بين أوساط الجالية اليونانية. لهذا السبب طلبت لقاءكم».

عندئذ أجابه ميخيليس، الذى انتفخت أوداجه طرباً بما سمع، قائلاً:

«الأمر كذلك، ويمكننى القول إننى محل ثقة العائلة. أخبرونى من فضلكم،

يا سيدى، ما الأمر؟».

- «أفضل أن تقرأوا هذا النص المكتوب، ثم تخبرونى بانطباعكم، يا سيد

ميخيليس. إن ما تقرأونه ماهو إلا اختبار خاص بالتلميذ قنسطنطينوس

خاراميس أرجوكم أن تقرأوه بعناية، وأن تنقلوا لى ملاحظاتكم».

لم يكن ميخيليس فى حاجة للانتهاء من قراءة المقطع الأول لكى يكتشف تلك

الأخطاء اللغوية الفادحة التى ارتكبها التلميذ الصغير كوستيس، فأسرع بالتعبير عن

دهشته بطريقة درامية. ملقياً بالاختبار من يده، ثم أخذ يههم قائلاً:

«ولكن، ولكن، لقد كتب هذا النص ب..... هل هذا معقول؟ لقد كتبه بالعامية!».

عندئذ أبرق ميلارينوس وأرعد قائلاً: «إنها فضيحة كبيرة، يا سيد ميخيليس،

بل إنها من أكبر الفضائح!».

- «بكل صدق، لا أدرى ماذا أقول لكم، يا سيدى الفاضل، فأننا أشعر بالذهول!».

- «لديكم حق، سيد ميخيليس، لأننا فى اليونانية الفصحى لا نكتب كلمة "بوليس"

ولكننا نكتبها "بوليوس"، وكذلك لا نكتب "فى كل حال" ولكن "على أية حال"

ويكل تأكيد لا نكتب.....».

اشتدت نبرة الأستاذ ميلارينوس حدة، حتى كاد ميخيليس يعتقد أنه يصب جام

غضبه عليه هو شخصياً، لذلك أجابه ميخيليس بطريقة عفوية قائلاً: «سيدى الأستاذ،

أعلم ذلك».

استطرد ميلارينوس حديثه قائلاً: «نحن لا نكتب مطلقاً عبارة "البحر نو المرج المزيد"، أخبروني بالله عليكم، ماذا تعنى كلمة الموج المزيد؟».

- «أين، أين يوجد هذا الإسفاف؟».

وبكل ثقة أجابه الأستاذ الذى كان يحفظ ما كتبه التلميذ الصغير عن ظهر قلب، بشكل يدعو للتأمل:

«أين يوجد ذلك؟ فى الصفحة الرابعة، الفقرة الثالثة».

ترك ميخيليس الاختبار فوق المكتب، ولكن الأستاذ ميلارينوس لم يجد أدنى حرج فى أن يربت بعنف على كتف ميخيليس، ثم استطرد قائلاً:

«لأننا أقلية فى بلد أجنبى، نحن أبناء الإسكندر الأكبر، فماذا يتبقى لنا سوى الحفاظ على كل ما هو غالٍ ومقدس فى وطننا الأم: ديننا ولغتنا، أسألكم بوازع أخلاقى، ماذا يتبقى لنا اليوم، حيث نمجد الوطن، نمجد الملك..... اليوم يا سيد ميخيليس.....!».

«آه، يا عصفورى الصغير، أنت إذن واحد منا»، هكذا حدثت ميخيليس نفسه، وكان يستمع بإنصات، مطأطئ الرأس، غير أنه فى تلك اللحظة قرر أن يبدأ الهجوم كما لو كان محامياً فى قاعة المحكمة، وسأله بصوت جهورى:

«وما المطلوب منى بالتحديد، سيدى الأستاذ؟ كلى أذان صاغية».

تفاجأ الأستاذ ميلارينوس بهذا الموقف من ميخيليس، وأدرك أنه كان مبالغاً، فأجابه متململاً:

«ليس هناك شىء آخر سوى أن تنقلوا هذه الأخبار للعائلة. فنقسطنطينوس نو عقل نابه، ومن المكن أن يصبح متفوقاً فى دراسته» - ربما ذكر ميلارينوس الجملة الأخيرة على سبيل المزاح - «أليس من الظلم أن يحرمه هذا القصور الذى لا يذكر من النجاح؟ ولتسمعونى جيداً! فلو لم يكن ابناً لخاراميس، لكنت قد فصلته فصلاً نهائياً من المدرسة».

ابتسم ميخيليس وقال بثقة: «هيا يا سيدى ودعنا لا نقسو على هذا الطفل المتميز، وكما ذكرتم من قبل، فكل هذا بسبب نقطة ضعف ألت به ومن الممكن فى النهاية علاجها وإصلاحها. ولهذا السبب يواظب كوستيس على الذهاب إلى المدرسة لى يتعلم اللغة الصحيحة السليمة. " أليس كذلك؟ " (قالها بالفرنسية)».

اكتشف مدير المدرسة أنه قد فقد تماماً زمام النقاش أمام هذا المحامى المحنك، فحاول الدفاع عن وجهة نظره، غير أن ميخيليس لم يترك له فرصة للرد، وقال:

«هيا، هيا، سأقوم بطرح الأمر على والديه، وأنا على يقين من أنه سيتم لفت نظره واتخاذ الإجراء المناسب فى مثل هذه الحالات. كل شىء سيتم علاجه، وسترى النتيجة فى النهاية. فكلنا أبناء الإسكندر الأكبر، أولسنا كذلك؟».

ذكر ميخيليس ذلك دون أن يعنى بها القائد المقدونى، ولكنه كان يعنى الجالية اليونانية بالإسكندرية. وبإشارته للإسكندر الأكبر" فقد لمح أو تخيل أنه قد لمح ابتسامة باهتة فى عيون المعلم المتحجرة: «حسناً، فلأذهب إذن » هكذا أتم ميخيليس حديثه ثم شب على قدميه تأهباً للرحيل بعد أن أمسك بقبعته.

- «لحظة واحدة، يا سيد ميخيليس، فالأمر ليس هيناً كما تظنون، فنقطة الضعف الصغيرة تلك، كما أطلقتم عليها بطريقتكم الساخرة مرتبطة بموقف أكثر عمومية فى حياة ذلك الصبى، وأعنى بذلك حياته خارج المدرسة. هل تعلموا أن البعض فى الحى الذى يعيش فيه يطلقون عليه لقب "صعلوك الحى اليونانى"؟».

- «وأين سمعتم ذلك؟» سأل ميخيليس وكأنه كان يقصد كيف يمكن لأحد المدرسين معرفة ما يقال وما لا يقال فى حى الأغنياء.

- «كل شىء تتم معرفته، يا سيد ميخيليس، رويداً رويداً من فضلك، وإلا سوف أضطر للتدخل وتوقيع عقاب صارم عليه، ولن أكون سعيداً بذلك،ؤكد لك ذلك،.... لكن...».

- «حسنًا حسنًا، سيدى الأستاذ، كل شىء سيتم إصلاحه» قال ذلك باقتضاب ثم استطرد قائلاً: «أرى أن المطر قد توقف، إنها إذن اللحظة المناسبة للرحيل، قلنا إن اسمكم ميلارينوس، أليس كذلك؟» هكذا سألته وكأن كل تلك المناقشة كانت بغرض إطلاعه على الأمر، ثم تهذيبه هو شخصياً.

* * * * *

مع بداية هطول الأمطار فى شهر أكتوبر، فكرت إيفيت أن تتريض حتى الأزاربطة ثم تستقل الترام، مفضلة النزول فى محطة الرمل القريبة من منزلها. وهناك كانت تجد ترام الإسكندرية المميز دائماً ما ينتظرها، ذلك الترام الذى كان مزوداً بعربة ذات طابقين للدرجة الأولى ويجر من خلفه عربة واحدة كانوا يطلقون عليها "الأخ الأصغر"، وهو مشهد بدا لها مضحكاً فى أول مرة. وفى اللحظة التى همت فيها باستقلال الترام، سمعت صوت محصل التذاكر البدين وهو يصيح: «هنا محطة مصطفى باشا... هنا محطة سيدى بشر» وكأنه يذكرها بأنه لم يعد هناك داعٍ للنزول فى محطة سان ستيفانو طالما أن المنزل الفخم بشارع مصطفى باشا أصبح جاهزاً، وأن الفتاتين قد انتقلتا إليه بالفعل. أضافت إيفيت بعض الديكورات للمنزل، أما آخر قطع الأثاث التى تم نقلها بعربات الكارو، فقد وصلت الآن وأصبحت جزءاً من الأثاث الضخم الذى سبق نقله.

كانت شقة مصطفى باشا تمثل لإيفيت لغزاً محيراً لم تستطع أن تفهمه حتى الآن. فقد جعلها إصرار إلياس على هذه المنطقة بالتحديد تعتقد أنه كان يخطط لذلك من قبل، وإلا فلماذا يتجنب دائماً الإفصاح عن اسم مالك هذا المنزل؟ وعن قيمته الإيجارية؟ لم تكن إيفيت تدرى إذا ما كان ينبغى عليها الربط بين كل ذلك وبين الحضور القوى للجانب البريطانى وقائد المنطقة الإنجليزية والقنصل الجديد الذى يمثل قمة الهرم الحكومى. حاولت إيفيت أن تحل لغز مالك المنزل المجهول من خلال التعرف على الطراز المعماري للمنزل وديكوراتها، ولكن محاولتها زادت من حيراتها: فالملامح الجريئة للفن الحديث وأشكال نباتات الزينة والأصداف وجذور الأشجار والأفاريز

المصنوعة والفنون الجصية، تدعمها الألوان البرتقالية الفاتحة التي خلقت جواً من البهجة، يتناقض مع الطراز المحافظ للمبنى. أما استخدام الحجارة في البناء بشكل بسيط والأعمدة المرتفعة والنوافذ التي تحمل النمط الفرنسي، كل ذلك كان شاهداً على رغبة المهندس الذي شيد هذا المبنى في عدم الالتزام بالقواعد الصارمة للفن الكلاسيكي الحديث في البناء. وهكذا كانت النتيجة في النهاية بناءً يذكر بالشدوذ؛ غير أن مفهوم هذه الهندسة المعمارية الحرة لن يصل بسهولة إلى عقل زائر المبنى .

أما بالنسبة لديكورات المنزل الداخلية فقد كانت الأمور أسوأ، حيث اتسمت بالعديد من التناقضات الفنية، من خلال مجموعة من قطع الأثاث المتنافرة التي أعطت انطباعاً بأن شخصاً ما قد تلاعب بقطع الأثاث وكذا بالسجاد والأباجورات والتحف واللوحات والمرايا وقام ببعثرتها دون أدنى تنسيق. أدركت إيفيت أن الشيء الوحيد الذي ينبغي أن تقوم به هو؛ تنظيم تلك الفوضى وإضافة قطع الأثاث اللازمة فقط لإبراز هوية المنزل الجديدة. ومن ناحية أخرى كان تصميم المنزل يتناسب بشكل كبير مع الغرض الذي سيستخدم فيه المنزل، وكأن من قام ببنائه كان على علم مسبق بهذا الغرض: حيث يتم الدخول إلى الطابق الأول من خلال ثلاثة سلالم داخلية منفصلة، يتجه المدخل الرئيسي نحو الشمال ويطل على البحر، أما المدخل الغربي، الذي كان يطل على أرض تخص المالك، فيؤدي إلى حديقة ذات أشجار وارفة يستطيع أى شخص من خلالها الدخول والخروج دون أن يراه أحد. ويؤدي هذا المدخل إلى الجناح الثالث للمنزل، حيث كانت التصميمات الهندسية أكثر جرأة مما كانت عليه في الواجهة الأمامية للمنزل. كانت أجنحة المنزل الثلاثة المنفصلة تؤمن دخول وخروج زواره من الطبقة العليا في هدوء، وهو ما يتناسب مع حياة ونشاط هاتين الفتاتين اللتين أصبح البغاء حرفتهما. ويرتكز هذا النشاط في الأساس على العاملين داخل هذا المنزل الذين قام خوري باختيارهم بعناية شديدة. كان جعفر هو عين المكان الساحرة، ذلك العجوز النبوي الذي يتميز بالطول الفارع، والذي يذكرنا بجلبابه الأبيض ذي النطاق الأحمر وعمامته، وكذلك تلك الخطوط الثلاثة على وجنتيه، يذكرنا بنادلى كازينو سان ستيفانو.

أما مهمة العناية بالمنزل فقد أسندها خورى إلى امرأتين كانتا تحترقان مهنة البغاء فى الماضى فى شارع السبع بنات، وهما سهير المصرية وأنطوانيت، تلك الفتاة المسيحية التى تحمل الجنسية السورية - اللبنانية؛ كانت إيفيت تشاهد هما تقطعان السلم صعوداً وهبوطاً بجسميهما المترهل وقد ساورها الشك فى أن مهمتهما الأساسية هى إبلاغ إلياس بكل صغيرة وكبيرة تحدث بالمنزل.

لقد تغير موقف إلياس تجاهها بعد عودتها من رحلة إسطنبول. ففى كثير من الأحيان كان يتسم بالغموض، وأصبح يجيب عن تساؤلاتها بكلمات مقتضبة. كما دخل بينهما العديد من الشركاء المجهولين الذين كانت إيفيت تراهم لأول مرة. وإذا ما افترضنا أن فريد بشبيشى - ضابط الشرطة - بمثابة حائط الصد الذى سيحميهم من أى هجمات محتملة من قبل الشرطة المصرية، وأن الفارس القبرصى بيتروس ثيميستوكليس - القواد المعروف - هو من رشح لإلياس كلاً من سهير وأنطوانيت، فقد كان الدور الذى يؤديه ماسيمو- تاجر القبعات الإيطالى- غير مفهوم فى كل هذا الموضوع؛ وقد تبادر إلى ذهن إيفيت سؤال عن العلاقة التى يمكن أن تربط بين نشاط البغاء بتاجر قبعات شهير يملك محلاً فى شارع شريف، يرتاده زبائن من أبناء الطبقة الراقية بالإسكندرية. افترضت إيفيت أن ثلاثتهم، بالإضافة إلى إلياس، يمثلون فريقاً مميزاً للعب الورق، وفقاً لما ذكره خورى لها من قبل؛ " لبنانى وضابط شرطة مصرى وشخص قبرصى يعمل بالفروسية، ورجل أعمال إيطالى " .

كانت لإلياس قدراته الخاصة التى يستطيع من خلالها تجنيد الأصدقاء والمعارف للعمل فى مشاريعه، وقد قرر هذه المرة أن يمنح للعب الورق الدور الأكبر، تاركاً إيفيت دوراً أقل أهمية على غير المعتاد. وعندما كانت تسأله لمعرفة إذا ما كان قد حدث شىء بينهما، كان خورى يجيبها بهدوء، راسماً على وجهه ابتسامة مصطنعة تعرفها إيفيت جيداً، مؤكداً لها أنه بذلك يحاول حمايتها. ولكن حمايتها ممن؟

بالتركيز ليس من فريد، ضابط الشرطة البدين ذى الشارب الضخم والعيون الضيقة المتحجرة، الذى حياها باحترام جم عندما قابلته يوماً ما فى الطريق مرتدياً زيه

الصيفى والطربوش، ربما لانبهاره بسحر إيفيت الأوربى. وبالطبع ليس من ماسيمو، الإيطالى الوسيم الذى يبدو فى ملامحه عشيقاً لاتينياً، والذى كان يداوم على اختيار عشيقة جديدة له فى كل مرة من بين المترددات على المحل. وقد اعتادت إيفيت التسوق من محله، وهناك تعرفت ذات مرة إلى زوجة اليونانية، ولكنها لم تكن تعرف أن تاجر القبعات يداوم على لعب الورق بشراهة مع إلياس. وإذا كان لابد أن تخاف أحداً فينبغى أن يكون بيتروس ثيميستوكليس، فهو رجل ينتمى للطبقة المتوسطة، قضى الحادث الذى أصابه فى حلبة السباق على مستقبله باعتباره فارساً، والآن وهو فى الخامسة والثلاثون من عمره يبدو نحيفاً بجسده الضئيل، يعرج بشكل واضح فى مشيته بقدمه اليمنى. هذا المظهر الضئيل لم يمنعه من أن يصبح قواداً، أو أن يكون أكثر عنفاً مع النساء الضعيفات اللاتى لا يجد حماية، لكن لم يكن يجرو فى مجرد التفكير فى إلحاق الأذى بعشيقة أكبر تاجر دخان فى مصر. أين يكمن الخطر إذن الذى يهددهما؟ كانت إيفيت على ثقة من أنه إذا لم تكن لدى خورى مشكلة شخصية معها، فإن ذلك يعنى أن لديه مشكلة مع المخابرات البريطانية.

فى حقيقة الأمر، فقد أصابت كل هذه السرية إيفيت بالإرهاق، وكان لديها استعداد للتخلى عن هذا الماخور فى مصطفى باشا. الشيء الوحيد الذى جعلها تتمسك بهذا المشروع هو وعد إلياس لها باقتسام الأرباح معاً، وبالطبع يشمل ذلك أيضاً نصيب روكسانى، التى كان لديها الرغبة فى توفير الحماية لها، مثلما كان خورى يحميها.

* * * * *

«اسمك إذن جابى» قالت ذلك ذافنى خاراميس، وقد استدارت فى مواجهة تلك المرأة الشابة فارعة القوام بقبعتها المصنوعة من القش، التى تتدلى من أسفلها بعض خصلات شعرها الذهبى.

جابى: «نعم، يا سيدتى» قالت ذلك (بالإنجليزية) ويلهجة جعلت ذافنى تسألها مرة أخرى:

- «هل تحملين الجنسية الإنجليزية؟».

- «نعم ، بالطبع» (أجابتها بالإنجليزية).

- «لأنى طلبت مربية إنجليزية ولذلك ينبغي أن تكونى إنجليزية». قالت ذلك بإصرار، بينما أخذت تتطلع مرة أخرى لخطابات التزكية التى قدمتها جابى لها من قبل.

- «أفهم ذلك» (قالت ذلك بالإنجليزية).

- «وهل اسم جابى اختصار لاسم.... جابرييل؟».

- «بالضبط، جابرييل» (قالت ذلك بالإنجليزية).

نادت ذافنى على فوزية وطلبت منها إبلاغ ابنيها بسرعة الحضور. نزل الصبيان من السلم الرخامى الواسع، واتجهت جابى بنظرها تجاه الصبيين باهتمام شديد، بعد أن كانت تتفحص المكان فى انبهار بعظمة المكان ورفاهيته، وفكرت فى أنها سيكون لديها الوقت الكافى فيما بعد للتجول داخل المكان وتفحص حجرات المنزل حجرة حجرة وما تحتويه من أثاث. أما الآن فقد تسمرت فى مكانها، تحمل فى يدها حقيبتها، بعد أن نجحت فى اجتياز التحقيق المصغر الذى أدارته معها والولادة الطفلين.

«هؤلاء هم أبنائى» قالت ذلك ذافنى بنبرة عالية، ثم أشارت إلى الابن الأصغر ذى الملامح الجميلة وقالت: «هذا هو ماخوس، بنيامين، ولد متحضرًا». تقدم الصبى ذو العشر سنوات ووقف أمام جابى، ثم قام بحركة مضحكة من خلال ثنى ركبتيه لتحتيتها. كان يشبه فى ردائه لوردًا صغيرًا، وكان يرتدى قبعة رفعها بيده تعبيرًا عن الاحترام. دار بخلد جابى كم سيصبح هذا الصبى رجلاً وسيماً عندما يكبر. غير أن ملامحه كانت قريبة الشبه بفتاه. بدا على الصبى الصغير بعض الخوف وأظهر اهتماماً كبيراً بحضور جابى. وعلى النقيض من ذلك كان شقيقه الأكبر الذى ظهر على السلم مرتدياً بنطالاً أزرق وقميص بحارة رفع أكمامه لأعلى ووقف بطريقة جعلته أشبه بالمتشردين، مستنداً على الدرايزين الذهبى. عند ذلك المشهد أسرع الأم وأكملت:

«هذا هو كوستيس! للأسف» (قالتا بالفرنسية)، ينبغي أن نجعل منه مواطناً متحضرًا. حيوا معي يا أبنائي.. كيف تحبين أن أدعوكي، يا فتاتي؟ أعتقد أن كلمة دادة ستكون بها بعض المبالغة وخاصة لهذا الفتى الكبير، ألا تعتقدين ذلك؟».

ابتسمت الفتاة والشابة لتلك الملاحظة المقنعة التي أبدتها الأم، لكنها في نفس الوقت رمقت الفتى المتمرد في رداءه الأزرق بنظرة حادة. ثم استكملت ذافني حديثها قائلة:

«ربما تعتقدين أن مهمتك مع الابن الأكبر ستكون مهمة سهلة، ولكني أحذرك» (قالت ذلك بالإنجليزية). ما تشاهدينه أمامك هو صعلوك الحى اليونانى "سيئ السمعة" (قالتا بالإنجليزية)، إنه كوستيس خاراميس. لن يقتصر عملك على مجرد التحدث معه بالفرنسية وقبل ذلك بالإنجليزية. ولكن لابد أن نقوم بطريقه ما. ولذلك فقد فكرت أننا فى أمس الحاجة لاستقدام "آنسة" (قالتا بالفرنسية) شابة ونشطة، وأتمنى أن يكون قد جانبني الصواب فى الاختيار».

- «لا تقلقى، يا سيدتى، فقد تعاملت مع حالات مشابهة بنجاح تام» قالت ذلك بعد أن غيرت من نبرة صوتها وجعلته أكثر حدة مغلغلاً بلهجة تهديد تجاه الصبى الواقف على السلم.

- «فلنأمل ذلك، وكما ترين، فقد بدأ العام الدراسى وبالطبع ستترك التغييرات المستمرة للعاملين بالمنزل، إذا ما حدثت، أثرًا سيئًا على عامهم الدراسى».

- «سأبذل قصارى جهدى، يا سيدتى» (قالت ذلك بالإنجليزية).

- «حسنًا! سوف تصطحبك فوزية إذن إلى غرفتك، أما بقية الأمور "فسوف تأتى تبعاً" (قالت ذلك بالإنجليزية). يمكنك أن تبدئى عملك فوراً. ليس لدى ما أقوله أكثر من ذلك فى الوقت الحاضر. فأنا بانتظار وصول محامى العائلة بين لحظة وأخرى فى موضوع مهم».

كان ستراتيس ميخيليس يشعر فى كل مرة يذهب فيها إلى الحى اليونانى، وكأنه قد دخل إلى دهايز هذا العالم المتحضر الذى أفرزته مدينة الإسكندرية منذ عشرات

السنين فى كل أرجاء البحر المتوسط، وقد تضافرت العديد من العناصر لتكوين هذا العالم المتحضر الذى يمثل العنصر البشرى منها العامل الأساسى. ذلك العنصر الذى عثر على المعنى الحقيقى فى روح الأمة، وفى تجاوز الحدود الفاصلة بين الشعوب وعاداتها وطريقة تفكيرها وأنشطتها - جوهر حياتها المتحضرة - وهو ما يظهر بكل عظمة فى جميع المنازل الأرسنقراطية التى مر عليها فى طريقه. لم يكن ميخيليس بحاجة ليلهب خياله ويدخل به إلى العالم الداخلى لهذه المنازل؛ فأحدها، وهو الكائن فى شارع العباسيين، كان دائماً فى انتظاره، فاتحاً له بوابته الحديدية الضخمة التى تشبه بوابة قصر الفرسان فى فرنسا.

عشر سنوات مرت على إقامة أندونيس وذافنى فى " هذه الفيلا التى تتكون من إحدى عشرة غرفة "، والتى كانت معروفة بأنها منزل التاجر اللبناني- الفرنسى الكبير، الذى أنجب الكثير من الأبناء، ثم أشهر إفلاسه بشكل مفاجئ، بنفس السهولة التى يغتنى بها ويفتقر العديد من سكان هذه المدينة.

أول ما تقع عليه عينك عند دخول هذه الفيلا هو ذلك الممر بأعمدته ذات الطراز الأيونى التى شيدها خاراميس بغرض التأكيد على الهوية اليونانية للمنزل. تماماً مثلما فعل فى حواف النوافذ بالطابق الأول التى اتخذت لها شكل السهام؛ أما بالنسبة لبقية المنزل، فقد أبدا خاراميس احتراماً لواجهته وأبقى على الطراز المعماري للحديقة الكبيرة والتمائيل الموجودة بها دون أدنى تدخل منه، كما أبقى على أشجار النخيل المزروعة فى المنتصف وعلى شجرتى "الأوكاليبتوس"^(١) القريبتين من المنزل، ويقال إنهما من ذلك النوع الذى يساعد على طرد الناموس. وفى الحديقة الأمامية تتفتح زهور الياسمين والسوسن والأزاليا^(٢) من الربيع إلى الخريف. أما شجرتا الأكاسيا فتحتلان موقعاً متميزاً وبدأتا فى نشر ظلالهما فى أرجاء الحديقة. كل هذا يدين بالفضل لمحمد

(١) أو تسمى أحياناً شجرة "الكينا"، وهى شجرة تفرز الصمغ الأحمر برائحته النفاذة، كما يستخدم ورقها وزهرها فى العلاج الطبى (المراجع).

(٢) الأزاليا، نبات صحراوى (المراجع).

البستاني، وهو مصرى الجنسية، غريب الأطوار، متجهم الوجه، كان أندونيس قد اشتراه مع المنزل. اعتاد ميخيليس أثناء دخوله أن يلقي التحية على محمد بحرارة، ولكن محمد نادراً ما كان يرد عليه التحية بنفس الحرارة، ليس أكثر من مجرد إيماءة برأسه يرد بها. وكان يجده دائماً منهمكاً فى عمله فى أحد أركان الحديقة، فيما عدا أيام شهر رمضان التى كان محمد يقضى فيها فترة النهار داخل منزلة الصغير خلف الحديقة، يستلقى منهكاً من تأثير الصيام لساعات طويلة دون طعام أو شراب.

فى داخل الفيلا، لم يكن مالکها الأول يجرى أى تغيير يذكر بها. كما وجد أندونيس وذافنى أن الطراز الموجود بها كان مرضياً، فتركا قاعة الاستقبال بالمنزل دون تغيير، مع الاكتفاء بوضع صالون من طراز حديث بها، حيث تترك المقاعد الوثيرة ذات المساند الضخمة دائماً انطباعاً جيداً. اقتصر التغيير على المدخل المؤدى للباب الامامى الذى كان سقفه يتميز بالنقوش البارزة التى تضامى فى جمالها نقوش قاعة الاستقبال، ولكن كان يصعب على الزائر العادى مشاهدتها. أما عن باقى المحتويات، فكانت الفيلا تحتوى على أثاث ضخم يتميز بالفخامة، كما هى الحال فى المنازل الراقية، واحتلت المائدة ذات الطراز الإمبراطورى مكاناً متميزاً، حيث اعتاد أن يجلس عليها عليا القوم بالمدينة.

ظهر الذوق الرفيع لمالك المنزل السابق أيضاً فى استخدامه للزجاج الملون- وبخاصة باللون الأرجوانى- المثبت فوق السلم الداخلى والمرسوم عليه صور لأفروديت (ربة الجمال) وابنها الطفل إيروس (إله الحب عند الإغريق). كما كان هذا الزجاج منتشراً أيضاً فى الدرابزين الذهبى لنفس السلم الذى كان يؤدى إلى غرفة النوم فى الطابق الأول، وإلى مكتب أندونيس وأيضاً إلى حجرة القراءة الخاصة بذافنى التى اعتادت مدام خاراميس أن تقضى بها بضع ساعات فى تصفح وقراءة التاريخ. لقد وجد أصحاب المنزل الحاليون أنه من الأسر وجود كل الخدمات الخاصة بالمنزل فى البدروم: من غسيل وكى وطهو، وغرف الخدم، على أن يربطهم بالمنزل باب واحد فقط فى مكان غير ظاهر من الجهة الخلفية، والذى من خلاله، حسب تعبير ابنهم كوستيس

«كان إيقاع الحياة الحقيقية يدق كل يوم بظهور "اللبن والزبّال وبائع الروباييكيا" (قال ذلك باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) - أى بائع اللبن وجامع القمامة وتاجر الأشياء القديمة- وغيرهم الكثيرون ممن كانوا يلعبون أدواراً مهمة فى الحياة اليومية بالإسكندرية».

كان من يدخل منزل بيناكي - المجاور لهم - ويبدى إعجابه بروعة المنزل الذى يشبه المتحف الصغير لما يحتويه من مجوهرات وأسلحة وميداليات وتحف مصنوعة من البورسلين وأعمال مطرزة وأخرى منسوجة، يكتشف بالتأكيد مدى بساطة منزل ذافنى وأندونيس بين المنازل الراقية، لكن الذوق الرفيع الذى ورثته ذافنى عن أسرتها لم يذهب سدى، فلم ينقص المنزل السجاد البخارى، أو الفرش المصنوع من الجوبلان أو التحف المصنوعة من الكريستال أو الفضيات التى يمكن أن تراها فى أرقى البيوت. كما لم ينقص المنزل وجود بعض التحف الفنية النادرة التى كانت تلقى إعجاب أكثر محبى الأعمال الفنية تشددًا، مثل التمثالين الأصليين للفنان جوزيف أكريمبولدو- نحات أفسبورج - من القرن السادس عشر.

فى البداية، عندما سعت ذافنى لإقناع أندونيس بأنه ليس من حماقة شراء مثل هذا المنزل الضخم، كانت دائماً ما تهتم بمتلاء المنزل بالضيوف من خلال تنظيم كل ما يمكن أن تتخيله من: حفلات الشاي المسائية، المعارض، المحاضرات، حفلات الأوركسترا الموسيقية، حتى العروض التمثيلية، "حفلات شاي" (بونها بالإنجليزية)، حفلات ساهرة. وبعد خمس سنوات من وجودها باعتبارها سيدة مجتمع مشهورة بدأت فجأة فى الانعزال عن الناس، وأخيراً حددت علاقاتها فى أصدقائها وصديقاتها القدامى.

مع البدايات الأولى لعام ١٩١٠، أصبح منزل خاراميس فارغاً (من كل تلك الأنشطة الاجتماعية)، فبدأ أكثر اتساعاً بشكلٍ مخيف عما كان عليه من قبل. الأصوات العالية، الضحكات، الموسيقى، حتى المداعبات، كلها أصبحت أصوات من الماضى القريب ما زال صدها يتردد فى الحجرات الفارغة التى حاول الصبيان ماخوس وكوستيس، بلا جدوى، ملء جنباتها بأصواتهما ومشاكساتهما. وكلما كبرت

سنهما كلما ازداد استمتاعهما بالمنزل الضخم؛ وكانت ذافنى قد وعدت من قبل بأنها ستملؤه بالمزيد والمزيد من الأطفال. إلا أن الولادة المتعسرة التى تعرضت لها عند ولادة الابن الأصغر ماخوس والسلوك العدوانى للابن الأكبر كوستيس، أصابتها بالخوف مما جعلها لا تفكر فى هذا الأمر مرة أخرى. وبمجرد أن أتم كوستيس عامه الرابع عشر، بدأت أمه تحن لتلك السنوات التى كان أسوأ ما يمكن أن يقوم به كوستيس من سلوك هو تسلق أشجار الحديقة، أو مضايقة أخيه الصغير أو القيام بالتزحلق على درابزين السلم أو أن تعود به المربية للمنزل مصاباً فى ركبتيه، ممزق الثياب من كثرة لعبه فى الشوارع أو فى فناء منزل من منازل الجيران. ومنذ أمد بعيد، ألصق به شخص ما لقب "صعلوك الحى اليونانى"، ومنذ ذلك الحين بدا وكأن هذا الصبى الشقى يسعى للحفاظ على هذا اللقب، فلا يكاد لا يخرج من فضيحة حتى يدخل فى غيرها.

وكان ذلك لم يكن كافياً، فمنذ عامين بدأت غريزة الرجولة تتحرك داخل الصبى الصغير، فبدأ يتحرش بالخدامات، مما اضطر ذافنى فى فترة زمنية وجيزة لتغيير العديد من الفتيات المصريات العاملات فى المنزل. وكما كانت خائفة من أن تؤدى حماقات كوستيس إلى وقوعه يوماً ما فى المشاكل. كانت ذافنى تحيط أندونيس باستمرار بكل ما يحدث، إلا أنه لم يعر الأمر اهتماماً. كانت تطلب منه أن يبيث الخوف - باعتباره أباً - فى نفس الفتى، إلا أن الشئ الوحيد الذى كان أندونيس يقوم به فهو الصياح فى ابنه أمامها، لكى يعطيها الانطباع بأنه يؤدبه، قائلاً: «هذا لن يجدى نفعاً». يا له من تهديد، كان أندونيس يبتسم من أسفل شاربه، أما الصبى الصغير، الذى كان على دراية بما يفعله أبوه، فكان يطأطئ الرأس ثم يبتسم متجاوباً معه فى المؤامرة. كانت بين الأب والابن شفرة اتصال خاصة بهما يستخدمانيهما عندما تبالغ ذافنى فى انفعالها، وكانت تسمع من زوجها إجابته المعهودة: «إنك لا تقومين بتربية فتيات يا ذافنى».

وسط كل تلك المشاكل التى يسببها لها كوستيس، حضر ابن عمها ميخيليس ليضيف لها مشكلة أخرى. استقبلته ذافنى بشعرها المنسدل وهى ترتدى ملابس النوم

الشفافة التى تكشف أكثر مما تخفى. بتلك الحميمة التى بدأ ميخيليس يسىء فهمها منذ زمن بعيد حتى أصبح رويداً رويداً أكثر جرأة بالتلفظ بكلمات ملتوية، تلك الكلمات التى كانت ابنة عمه ذافنى تتظاهر بعدم فهمها. كان اهتمامها ينصب على تقديم الشاى فى فناجين يدوية الصنع من البورسلين، أما الطوى ففى أطباق من الكريستال من ماركة لاليك. بدأت ذافنى حديثها قائلة:

«كيف تسير الأمور أثناء الحرب، يا بن العم؟» (قالتها بالفرنسية). لم تلق ذافنى بسؤالها لأنها تهتم فى واقع الأمر بهذه الحرب التى لم يكن هناك أى احتمال بأن تلقى بظلالها على الإسكندرية، ولكن كل ما فى الأمر أنها قد أصيبت بولع بقصة الحرب وكل ما له علاقة بها. كانت ذافنى من أولئك النساء اللاتى يستقين معلوماتهن من المحافل العامة ويستمعن بشغف لكل من يشبع لديهن هذه الرغبة. وكذلك فقد كانت على دراية كافية بكل شىء يتعلق بتاريخ مصر والإسكندرية وكانت تحفظ بشكل مرتب الأسماء والعصور والأحداث، كما كانت لديها القدرة أيضاً على استرجاع وسرد أية معلومة فى سهولة ويسر، متأثرة بشدة بفكرة أنها تعيش الآن فى حقبة زمنية أوشكت فيها حرب عالمية على الوقوع، وأن هناك من سيعيدون كتابة التاريخ.

ميخيليس: «إنها أمور أنت على دراية بها بشكل أفضل منى، يا ابنة العم» هكذا أجابها ميخيليس، تاركاً قطعة البسكويت تذوب ببطء فى فمه؛ فقد كان سعيداً بأن ذافنى فى الحقيقة لم تكن تخفى عنه جمالها خلف طبقات من الملابس الثقيلة التى اعتادت النساء ارتداؤها فى ذلك العصر. فكان يرى من ملابسها الخفيفة ما يتلج فؤاده ومن فتحات الملابس ما يجعله يسرح بخياله (*) لم تكن ذافنى أبداً فتاة جميلة، فهى قصيرة وممتلئة، ذات عينيْن صغيرتين وأنف مضحك؛ وقد أظهرت منذ أن بلغت الأربعين من عمرها نشاطاً ملحوظاً. لقد فقدت الكثير من طبيعتها الأنثوية التى تسربت مع وجود العديد من المشاكل فى علاقاتها اليومية، فطغت تلك المشاكل على ابتسامتها غير المسبوقة وعلى مرحها، وتزايدت الفجوات بينها وبين خراميس مما أدى إلى فتور العلاقة الزوجية بينهما. وكان ميخيليس على دراية بذلك، وكانت دائماً

ما تطارده فكرة، أنه ربما يستطيع أن يسد تلك الفجوات فى يوم من الأيام. وعندما سألته ذافنى عن السبب الذى دعاه لزيارتها دخل بشكل مباشر فى الموضوع قائلاً:

- «إنه كوستيس الصغير، يا عزيزتى ذافنى».

- «ما الذى فعله كوستيس هذه المرة؟» ألقت ذافنى بسؤالها وكأنها لم تصدق أن طفلها المدلل يمكن أن يكون قد ارتكب شيئاً أسوأ مما ارتكبه حتى الآن. عندئذ أكمل ميخيليس حديثه فى صيغة المتكلم الجمع:

- «أخشى أن لدينا مشكلة فى المدرسة».

- «ماذا يعنى هذا الكلام؟» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «هذا يعنى (قالتها بالفرنسية) أن الصغير قرر أن يدمر نظام التعليم الخاص بالجالية اليونانية».

ربما حاول ميخيليس نفسه فى اليوم السابق أن يقلل من شأن هذه المشكلة أمام مدير المدرسة، أما الآن فعليه أن ينقلها لذافنى باعتبارها حدثاً بالغ الخطورة، للتأكيد على الدور الذى يلعبه فيما يخص المسائل العائلية. ثم استكمل حديثه قائلاً:

- «سأقول لك شيئاً واحداً: "البحر المزبد" قالها بنفس اللغة الركيكة التى كتبها بها الصبى من قبل.

- «عفواً!» (قالتها بالفرنسية ودونها بحروف يونانية).

- «نعم، يا عزيزتى ذافنى، "البحر المزبد"، لقد قرأتها بعين رأسى فى موضوع تعبير بالمرحلة الابتدائية. موضوع سيئ للغاية؛ المدرسون لا يدرون ماذا يفعلون مع هذا الولد، حتى بلغ بهم الأمر إلى التهديد بالفصل من المدرسة».

- «الفصل؟».

- «نعم، الفصل من المدرسة».

- «الفصل من المدرسة؟».

- «أه، يا عزيزتى ذافنى، لقد فكرت منذ زمن مضى أن أقول لك أليس من الأفضل أن يذهب كوستيس إلى مدرسة داخلية لفترة من الوقت؟ لو لم تكن الحرب، لاقترحتك عليك إرساله إلى مكان ما بأوروبا: إنجلترا، فرنسا.. لكن حتى فى مصر هناك بلاشك العديد من المدارس الخاصة الراقية التى قد تستطيع تقويم هذا المشاكس الصغير بها. لابد أن تناقشنى الأمر مع أندونيس».

- «البحر المزبد إذن، والفصل من المدرسة!» قالت ذافنى ذلك بصوت عالٍ، وفى تلك اللحظة وصل إلى أسماعهما صوت لطمة قوية تشبه الصفعة على الوجه، استأذنت ذافنى وتوجهت صوب السلم ونادت:

«كوستيس، ماخوس، هدوء». انعكس صوتها فى فراغ السقف العالى ووصل بالتأكيد حتى غرفتهما، ولكنها لم تتلق إجابة. وخيم صمت القبور على أرجاء الطابق الأول

* * * * *

«هل أصابك مس من الجنون أم ماذا؟ (قال ذلك بالفرنسية) تعلمين أن حضورك إلى هنا فى وقت متأخر من الليل ضرب من الجنون، العجوز يشكو منك دائماً. أترغبين فى أن نتعرض للمتاعب بلا داع؟».

هكذا صاح إلياس فى إيفيت عندما رآها تدخل عليه المنزل، تفوح منها رائحة عطر "المرأة الجميلة" (دونها بالفرنسية) المميز فى شقته فى الساعة الثالثة صباحاً، مما أصابه بنوع من الصدمة. أما هى فلم تفكر فى مفاجأة أخف وطأة من تلك. ففى مدخل العمارة أوشكت على الاصطدام بالكرش الكبير لضابط الشرطة فريد الذى كان يهيم بالخروج فى تلك اللحظة ويستعد لركوب سيارة الشرطة. نحى ضابط الشرطة ذو القامة الفارمة جانباً لتمر من أمامه، ثم أمر "البواب" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف

يونانية) الذى كان يغالبه النوم بمرافقتها حتى الدور العلوى. استغرقت إيفيت دقائق قليلة حتى استفاقت من هذا المشهد الذى رآته عندما دخلت "مقر إقامة" (دونها بالفرنسية) خورى، هذا المتحف الصغير الأنيق، حيث تناولت طعام العشاء تارة مع إلياس وتارة أخرى مع خاراميس (كان "اللبنانى" قد بدأ يطلق بشكل مفاجئ لقب "العجوز" على خاراميس، وبدا واضحاً أنه فعل ذلك بدافع من غيرته الحمقاء منه). شاهدت إيفيت "مقر إقامة" خورى وقد تحول إلى صالة للقمار تضم مجموعة كبيرة من لاعبي الورق، الذين شرعوا فى مغادرة أماكنهم حول المائدة الكبيرة الواحد تلو الآخر. تملك إيفيت الشعور بأن هؤلاء الأشخاص تسببوا بسلوكهم فى إهانة الطابع الراقى للمنزل بشكل صارخ؛ لقد رحلوا جميعاً مخلفين وراءهم رائحتهم، وأنفاسهم التى تفوح منها رائحة الخمر، مصحوبة بمزيج من دخان السجائر والنارجيلة. وفوق المائدة الكبيرة، كانت علب السجائر الفارغة وأكواب الكونياك وفيش القمار وأوراق اللعب المتناثرة والطفائيات المملوءة بأعقاب السجائر هى كل ما بقى منهم. شاهدت إيفيت كل هذه القذارة، شاهدت ثيميستوكليس مستلقياً على أريكتها المفضلة من طراز لوى فيليب، وقد اتسخ نسيجها المطرز بالذهب، فأحست بأن نبضات قلبها تتزايد من شدة الألم بعد أن شاهدته يداعب طائراً صغيراً بشكل مبتذل، ممسكاً بيده الأخرى النارجيلة. أما ماسيمو - تاجر القبعات - فكان يجلس على المائدة مداعباً أوراق اللعب التى مرت بين أصابع الكثيرين، وقد تسبب العرق فى التصاقها بعضها بعضاً. وفى الجهة المقابلة له، جلس شخصان مجهولان بالنسبة لها. الأول لابد أنه رجل المال اليهودى، المرشح لأن يصبح زبوناً للمنزل الكائن بشارع مصطفى باشا، وكان إلياس قد حدثها عنه كثيراً. كان هذا الرجل يحصى بعصبية بعض أوراق النقود المتجعدة بيديه النحيفتين، تحت بصر شاب آخر تصلبت ياقة قميصه حول رقبتة بشكل مضحك، أما شاربه الضخم فوق وجهه الناعم كالقطن، فيبدو وكأنه شارب مستعار. تكون لدى إيفيت انطباع مفاده: أن كل هؤلاء الرجال كانوا يتصارعون طوال الليل من أجل لا شئ. مثل بعض الشباب الذين قرروا أن يتخلوا لبعض الوقت عن أخلاقياتهم فى الطريق، وربما يتشاجرون لساعات وساعات دون أن يصابوا أو يوجهوا لبعضهم بعضاً

لكلمات مؤثرة. وهنا تبادر بذهن إيفيت سؤال: لماذا يجلس شخص على امتداد ساعات الليل بلا فائدة، إلا إذا كانت المسألة متعلقة بخسارة أو كسب ثروة كبيرة من المال.

كان أكثر المشاهد كآبة هو منظر خوري: أشعث، برباط عنق غير معقودة وياقة قميص مجعدة، يضع فى فمه سيجارة أسرع بإخراجها من فمه وإطفائها. لقد شاهده لمرات عديدة فى أندية كثيرة فى الإسكندرية أو فى باريس أو فى بيروت، لاعباً بالورق أو مشاركاً فى رهان، لكنه دائماً ما كان يحافظ على وقارة وكياسته، نموذج للرجل الذى يعيش من أجل "المتعة" (دونها بالفرنسية)؛ أما من يقف أمامها الآن فهو شخص مختلف: بعصبيته، واندفاعه بغضب نحوها، حتى إنه ضغط بقوة على معصمها مما جعلها تتألم بشدة، قائلة:

إيفيت: «اتركنى» هكذا صاحت فيه (بالفرنسية) وأبعدت يده عنها.

إلياس: «أرجو أن يكون لديك سبب مقنع لزيارتك فى هذا الوقت المتأخر من الليل» قال ذلك، بينما كانت أنفاسه تفوح برائحة الكونياك ورائحة دخان السجائر الذى كان يضايقها. كانت تلك هى المرة الأولى التى يعاملها بهذه الطريقة، ولذلك لم تستطع إيفيت أن تتمالك نفسها وصفعته صفعة قوية على وجهه. أما هو فقد تحسس وجنته براحة يده، كما لو كان سيمحو آثار أصابعها، هز رأسه برهة من الوقت، ثم ابتسم قائلاً:

«سامحني، فحضورك هنا الآن يعنى حدوث أمر جلل، ولا أدري ما الذى أصابنى الليلة».

رفعت إيفيت يدها مرة أخرى، ولكنها رفعتها هذه المرة لكى تداعب شعره بدلال، وقالت:

- «بالفعل هناك أمر جلل (قالت ذلك بالفرنسية)، يا إلياس، فقد حاولت ذنائى الانتحار».

- «حاولت الانتحار! إنه أمر غاية فى الخطورة».

- «حاولت قطع شرايينها. ولكننا استطعنا إنقاذها في آخر لحظة، وبهذا التصرف كانت ستقلب علينا كل ما خططنا له، كما تعلم».

- «أتمرحين؟ إنه الدمار بعينه. أعتقد أن بإمكاننا الوثوق بها بعد الآن؟».

- «لابد أن نأخذ حذرنا. لكنى أعتقد أن بإمكاننا الوثوق بها. فالفتاة الصغيرة حملت سِفاحاً، هذا كل ما فى الأمر. ربما كانت على علم بذلك قبل مغادرتها إسطنبول مع شقيقتها، ثم حضرت لتقيم هنا، فى بلد غريب عليها، بلا زوج، بلا أهل. بالطبع أنت تعرف كيف تسير الأمور فى مثل هذه الحالة. لقد ناقشت الأمر مع شقيقتها، غير أنها هى الأخرى تشعر بالإحباط».

- «ربما ينبغى علينا إعادة التفكير فى عملهما معنا، ما رأيك؟».

- «سؤال غير قابل للنقاش (قالت ذلك بالفرنسية)، فالفتاتان حضرتتا إلى هنا بتشجيع منى، وإن أتخلى عنهما على الإطلاق».

- «لعلك تدركين حجم المسؤولية».

- «بالقطع، فكل ما يلزمنا الآن هو "قابلة"^(٢)، ماهرة، على أن تكون حافظة للسر».

- «إتركى لى هذا الأمر. وهناك شىء آخر يمكن عمله الليلة؟».

- «كنت أحسب أننى، فى أسوأ الحالات، سأضطر لانتزاعك من أحضان إحدى الفاتنات. ولم أتوقع مثل هذا المشهد المزرى. أرى أن أفضل ما يمكن أن تفعله الآن هو الانتظار حتى يرحل أصدقائك، ثم تأخذ قسطاً من الراحة والنوم، فغداً لدينا يوم شاق».

- «لكن، ينبغى أن يعيدك أحد للمنزل».

(٢) القابلة، هى تلك المرأة التى كانت تساعد النساء فى عملية الولادة، قبل أن يحل مكانها الطبيب (المراجع).

- « لا تشغل بالك، فأنا لا أفكر فى العودة الآن إلى منزل شارع السلطان حسين. فسوف يكون درباً من الجنون لو فعلت ذلك فى هذه الساعة المتأخرة من الليل. ينتظرنى الآن سائق الحنطور بالخارج، وسوف أبيت الليلة فى منزل شارع مصطفى باشا، فليس من الحكمة أن أترك الفتاتين بمفردهما. "تصبح على خير" (قالت ذلك بالفرنسية)».

* * * * *

عندما أخبرت ذافنى أندونيس بالعمل البطولى الجديد الذى قام به كوستيس، كانت تتوقع أن تجد، هذه المرة على الأقل، مساندة من زوجها، لكن أندونيس صب جام غضبه على ابن عمها قائلاً:

«أخبرينى، ومن يكن ميخيليس؟ بأى حق يعرض علينا أن نضع كوستيس بمدرسة داخلية؟ إن ابنى سوف يكبران بجانبنا، بالقرب منا. ولا أريد أن أسمع مثل هذه الحماقات مرة أخرى من ابن عمك. وسوف أستدعيه لأسمعه ذلك بنفسى».

فى وقت سابق، كان كل من ستراتيس وذافنى قد قررا أن يُسمعا كل ذلك للشخص الذى يعتبرانه المسئول الأول عن "تدهور مستوى" كوستيس: وهو ثاناسيس، "بقال منطقة السيوف".

ذلك هو ثاناسيس، الذى كانت قصة هروبه مثار حديث دائم على لسان خاراميس فى كل مرة يقترب فيها من عشيقته. كان ثاناسيس على صلة قرابة من بعيد ليس فقط بذافنى ولكن أيضاً بستراتيس؛ وكانت لأبناء العم حسابات لم يتم حسمها بعد بخصوص قضية الصراع بين مؤيدى فينيزيلوس ومؤيدى الملك، ذلك الصراع الذى تأجج بين أعضاء الجالية اليونانية فى مصر خلال العامين الأخيرين، وكلما التقى ابنا العم فى جلسات رابطة "أيسخيلوس- أريس"، كانا يتبادلان عبارات التهديد والوعيد. لكن على الرغم من كل ذلك، فقد أظهر ثاناسيس منذ بضعة أشهر مضت سمواً فى شخصيته عندما قام، بوصفه عضواً أساسياً فى "اتحاد محبى الحرية بالإسكندرية"

بمعارضة قرار نفى ميخيليس، الذى كان اسمه يتصدر قائمة المعارضين للملكية. وقد شعر ستراتيس بالحرص تجاه شهامة ابن العم، ولذلك فقد حرص على إخفاء ما بينهما من كراهية تحت قناع الإمتنان، وكان عازماً على أن يستغل أول فرصة لكى يصلح ما بينهما. أما ذافنى، فمن جانبها، كان لديها من الأسباب ما يبرر كراهيتها لابن عمها "البقال"، مثل أسلوبه المتغطرس فى السخرية من ملابسها وهى فى مرحلة الدراسة، كما كانت تشعر بجرح فى كبريائها عندما تتذكر كيف أنه يوماً ما كانت لعائلته اليد العليا اجتماعياً ومادياً فى جزيرة ميتيلينى .

على أية حال، فقد اضطر ثاناسيس نفسه أن يبدأ فى الإسكندرية يوماً ما من الصفر، فقام بافتتاح محل للخردوات، وكان يعرض إلى جانبها بعض البضائع والمنتجات التى كان يجلبها معه من جزيرة ميتيلينى. كان العمل يسير على نحو طيب، ثم تزوج من ماريا، وهى من جزيرة سيمى. تلك الفتاة حسنة العشرة، التى منحته حياة أسرية هادئة وأنجبت له ثلاثة أطفال: نيكولاس وأوليمبيا ونيكىتاس.

كان ثاناسيس، فى بعض الأحيان، يتعرض أثناء نومه للكوابيس، وعندئذ يبدأ فى الصراخ ثم يتصبب منه العرق الغزير حتى يكاد يصاب بالاختناق، وكان لابد أن يوقظة أحد حتى يستفيق، طبقاً لنصائح الأطباء، وإلا تعرض لخطر الموت المحقق. إذاً لم يكن كل ذلك له علاقة بمحبوبته التركية التى كان يعانى من محاولة نسيانها بلا جدوى، فسيكون له علاقة، بكل تأكيد، بزيادة وزنه التى اكتسبها عبر السنين. وفى كل مرة يقع فيها نظر ذافنى عليه، كانت تتساءل ما الذى حدث لذلك الشاب الرشيق، رقيق القلب الذى كان يسحر النساء فى الأحياء الشعبية بالإسكندرية فى الفترة ما بين عام (١٨٨٠ - ١٨٩٠)، بهيئته الجذابة ونظرة الفتانة. لقد تغيرت حاله وحل مكانه رجل آخر بدين فى منتصف العمر، يضحك مثل الأبله. وبناءً على دعوة منها، حضر هذا الرجل إلى منزلها، وعبر للمرة الأولى بوابة المنزل الحديدية، ممسكاً بيديه كيسين يحتويان على بعض الهدايا؛ استقبلته ذافنى فى الرواق المؤدى لمدخل المنزل وهى تقول:

«ماذا أقول لك يا ابن العم، فقد قررت أخيراً تشريفنا بالزيارة بعد كل هذه السنوات. يالك من قاسى القلب».

ابتسم ثاناسيس ابتسامة عريضة كالعادة وقال لها بحماسة:

- «إنك تقطنين فى الحى اليونانى، وهو مكان بعيد عنا، يا ابنة العم. كما أنه ليس فى طريقى».

- «كما تحب إذن، ولكن ما الذى تحمله معك؟».

- «لقد قلت إنها الزيارة الأولى لى.. ولا ينبغي أن أحضر بأيدي خاوية، لا لا. "لا يجوز.. لا يجوز" (قال ذلك بالفرنسية)».

عندئذ ظهر ستراتيس من خلفها، وتصافح الرجلان ببرود، ثم قامت الخادمتان بخلع معطف ثاناسيس، وتخليصه مما يحمل من أكياس، فبادر بتقديمها لهن حتى لا يضطر إلى حمل أى شئ آخر عدا وزنه الزائد.

- «لقد طلبت رؤيتى، يا ذافنى. أهنأك ما يستدعى ذلك؟» وكان من الواضح أن وجود ستراتيس ميخيليس غير المتوقع قد أصابه بالضيق.

- «بالفعل هناك ما يحدث» قالت ذلك وهى تتأبط ذراع الرجلين، ثم عبر ثلاثتهما عتبة السلم المؤدية إلى داخل المنزل. كانت ذافنى تتوقع أن ينبهر ثاناسيس بالمنزل وبما فيه من مرمر ونجف وأثاث، لكنها كانت مخطئة فى ذلك؛ حتى الشئ الذى قدمته له فى الفناجين البورسلين باهظة الثمن فقد شربه غير مبال فيما قدم. وهكذا فقد عبرت لامبالاته عن نوع من الإهانة لربة المنزل التى قررت أن تنهى الموقف سريعاً.

- «حسناً، حتى لا نضيع الوقت، "يا خواجه تاناسى" (قالت ذلك باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، لقد أحضرتك هنا اليوم حتى تدرك ما الذى يحدث لابنى فى كل مرة يذهب إليك وينام فى منزلك مع أبناء خاله».

لم يأت هذا الخطاب محض المصادفة: فقد كان ثاناسيس يعلم جيداً أن أقاربه ينظرون بتهكم إلى هذا الحشد من الشحاذين الذين يتجمعون كل يوم جمعة أمام محله. حيث كان يقدم للفقراء من أهل المنطقة مصروفاً أسبوعياً يحصلون عليه وهم يقبلون يده، مهللون شاكرون قائلين بلهجتهم المصرية "شكراً يا خواجه تاناسي" (ذكر ذلك باللغة العربية ودونها بحروف يونانية). شعر ثاناسيس بالضيق من هذا التهكم، ونظر إليها نظرة أعادت إلى ذاكرتها للحظات قليلة تلك النظرة الساحرة له عندما كان فتى وسيماً.

«هذا غير مهم (قالتها بالفرنسية) أيها الفتى» هكذا حدثت ذاتني نفسها، «فقد حان الوقت لكي تغضب أنت أيضاً لبعض الشيء».

- «ألن تقول شيئاً، يا ثاناسيس؟» سأله ستراتيس مستوضحاً وهو يداعب شاربه.

- «ماذا تريدني أقول، يا ستراتيس. أنا لا أفهم ما تقصده».

- «لقد قررنا أن الوضع لن يجدي مع كوستيس أكثر من ذلك، هذا كل ما في الأمر».

- «من أنتم الذين قررتم، هل تعنين أنت وهو؟» قال ذلك ثم أشار إليهما بإصبعه.

- «فى النهاية، أنا التى قررت، هل يكفيك هذا؟».

- «أكملى إذن ما تقولين».

- «ما الذى أكمله. لقد قلت ما لدى، الأمر يسير، ينبغى أن تنقطع علاقة كوستيس بأسرتك، فنحن من عالمين مختلفين، يا ثاناسيس. ربما لا يدرك كوستيس ذلك الآن، أما أنت فلا بد أنك تدرك ذلك جيداً بالتأكيد، أليس كذلك؟».

اسودَّ وجه ثاناسيس للحظة واحدة، أظلمت عيناه الخضراوان وتحولتا إلى اللون الرمادى، مثل المياه العكرة ببخيرة مريوط. وكان من المدهش أن يقفز ثاناسيس بخفة من مكانه بجسده البدين. ولم يترك لهما أية فرصة لردة فعلهما، لكن ذافنى بادرته بالسؤال:

«إلى أين تذهب؟».

لم يعاود ثاناسيس الجلوس، ولكنه حرك إصبعه بحده تجاة ذافنى قائلاً لها:

«لقد كان جدك حارساً على أرضنا فى الجزيرة (يقصد جزيرة ميتيلينى)»، ثم استدار إلى ستراتيس وقال: «وأنت، كانت جدتك تغسل لنا ملابسنا، إن وجودنا خارج أوطاننا لا يعنى أن ننسى أصولنا». قال ذلك ثم توجه ناحية الباب الخارجى، وفى منتصف الطريق تذكر أنه لا يزال يمسك فى يده بفنجان الشاي، فتركه على أول منضدة قابلها وألقى تحية جافة عليهما فى اللحظة التى أسرع فيها الخادم بفتح الباب، ثم اختفى عن أنظارهما.

* * * * *

لم يكن هناك غموض أكثر من هذا الرجل - "يقال منطقة السيوف" - مثلما كانت ذافنى تردد عندما كانت تشير إلى العم ثاناسيس، مما كان يحير كوستيس؛ ولكن يبدو أن العقول الخاملة لمعظم الناس كانت تتسرع فى الحكم على حياة الآخرين، ثم يبدأون بعد ذلك فى الاهتمام بمتابعة التغييرات التى طرأت على هؤلاء الناس. وفى كل الأحوال، تذكرت والدته كوستيس أنها عندما كانت تلميذة صغيرة قامت بزيارة مع والدتها لابن عمها فى محل صغير للخردوات بمنطقة فيكتوريا، وهو المحل الصغير الذى افتتحه ثاناسيس فى بداياته الأولى. وبعد مرور كل تلك السنين استطاعت ذافنى أن تتذكر بكل وضوح شجرة النخيل الكبيرة المزروعة فى منتصف الطريق، إذا جاز لنا أن نطلق كلمة "طريق" على ذلك الفيض من الرمال الذى كان يمر أمام تلك المنازل الفقيرة. استطاعت أيضاً أن تتذكر أنه عندما سألت والدتها: «وأين تسكن، يا ثاناسيس؟»

أجابها قائلاً: «هناك، بعيداً يا خالتي، في منطقة السيوف» وهكذا ظل عالماً بأذهانهم أنه "بقال منطقة السيوف".

في أثناء ذلك، كان ثاناسيس قد أغلق محل البقالة وانتقل إلى المركز التجاري بوسط المدينة في باب سيدرا، حيث عمل في تجارة الجملة. وعندما تزوج من ماريا، ترك أيضاً منزله في منطقة السيوف وأقام في شارع باب سيدرا، في واحدة من تلك العمارات التي كانت تمثل ذروة أحلام العمال اليونانيين. ولكن لم تكن لديه النية للاستمرار في الإقامة هناك للأبد. كان العمل يسير بشكل رائع، وفي السنوات الأخيرة شيد منزلاً رائعاً في منطقة فيكتوريا، على بعد مائة متر من شجرة النخيل التي وصفتها ذافني من قبل، وكان يتعجل ذلك اليوم الذي سيتنقل فيه للعيش مرة أخرى في هذه الضاحية، مستخدماً الترام كل يوم في تحركاته. حتى الآن، على أية حال، مازال أسرة الخال ثاناسيس تعيش في باب سيدرا؛ وفي إحدى الليالي عندما غلب كوستيس الناس فبات ليلته لديهم، ثم استيقظ في اليوم التالي فوجد نفسه في مواجهة عمير بومبي، وفي خلفية هذا المشهد التاريخي تظهر عربات الكارو المتهالكة والجلابيب القذرة والفلاحات اللاتي يحملن السلال على رؤوسهن والعمال الأجراء والمخازن والبضائع والمسافرون، إنه خليط يصعب تصوره لحركة التعاملات التجارية في الحياة اليومية.

كانت والدة كوستيس تحاول أن ترسخ بداخله فكرة أن عالم يوناني الإسكندرية ينحصر داخل حدود الحى اليونانى فقط، بعجرفة وعظمة قاطنيه، وهو أمر لم يكن ليغفره لها أبداً. فمنذ صغر سنه كان كوستيس يتأمل تلك المنازل الأرستقراطية بطرزها المعمارية المتميزة. اعتاد أن يحصى عدد الأعمدة التي تدعم الحوائط، ويلاحظ القباب العالية، والقوصرة (٤) التي تعلو الشبابيك والتي تبني فيها الحمامم أعشاشها، والسلالم المزخرفة والحدائق الخضراء ذات التماثيل، كما كان يرقب قاطنى هذه المنازل أثناء خروجهم منها، بملابسهم الأنيقة التي تشبه ملابس الممثلين. كانوا يركبون

(٤) القوصرة (أو الجمالون)، هي تركيبة جمالية مثلثة الشكل تعلو واجهة المنزل أو فوق الشبابيك (المراجع).

سياراتهم الفاخرة، ويشيرون بحركات وإشارات وقور، دون عصبية، وكأنها متفق عليها. كان يستمتع ويتابع نمط حياتهم من خلال تجمعاتهم فى فترة ما بعد الظهر أو فى حفلاتهم المسائية: همسات، أحاديث بأصوات خافتة، صخب غير واضح الملامح، موسيقى حزينة تعزف على البيانو وبعض الآلات الوترية؛ وبين الحين والآخر كانت أصوات الأطفال تكسر رتابة هذا الإيقاع .

أما بالنسبة لبقية الأمور، فقد كان المشهد أقرب ما يكون لجو الروايات الغامض التى كانت تقرأها له ولأخيه المربية العجوز فى سنواتهما الأولى، وكانت تقص عليهما قصص حب يائس لفتيات بانسات. كان كوستيس يختنق من مثل هذا الجو المحيط به، وكان يستمتع ومرات ولوالدته وهى تسأله سؤالها الحائر: «ماذا بك، يا صغيرى كوستيس؟». كان كوستيس ينظر دائماً فى المرايا الذهبية الضخمة بالصالون فىرى طفلاً حزيناً يتطلع إليه، وكان يشفق على أخيه ماخوس من سذاجته المتناهية. كان أخوه الصغير بطباعه الرقيقة - وبمباركة من والدته - يبشر بأن شأنه سيكون عظيماً فى يوم من الأيام .

أما كوستيس، فكان على العكس من ذلك، كانت لديه خطط أخرى، وكان يشعر، منذ بداية نشأته، بأن له حياة أخرى كان ينشدها بسذاجة أسفل تلك السجاجيد السمكية والأثاث الضخم، خلف الستائر الثقيلة والمرايا، تحت الموائد والأسرة، فى الأركان الخفية بالحديقة. كان يرى بشكل مستمر فى أحلامه أن هذا المنزل به أماكن أخرى عديدة ومساحات شاسعة لم يكتشفها بعد .

لم تخدعه حاسته الطفولية التى لم يكن من الممكن أن تخدعه. كانت هناك دائماً حياة أخرى يخفونها عنه. كان يقرأها فى أعين والده الساخرة من والدته فى كل مرة كانت تتصرف بشكل مبالغ فيه. كان يراها فى مداعبات وضحكات الخدم التى ترتسم على وجوههم. هذه السماء الصافية وذلك البحر الهادئ لم يُخلقان من أجل هذا العالم المتمثل فى شارع رشيد وفى شارع شريف باشا وفى الحدائق العامة أو فى الحى اليونانى فقط. وعندما كان يتطلع إلى "عالم الباب الخلفى"، أخذ يفكر بعقله الصغير

كيف أن كل هؤلاء الناس يأتون من مكانٍ ما ويتعاملون مع الخدم عبر ذلك الباب الخلفى: فبائع الروباييكيا بعربته الصغيرة يمر بين الحين والآخر لجمع الأشياء القديمة؛ وجامعة القمامة، تلك العجوز المصرية الشمطاء، كانت تمر كل يوم تقريباً مع حفيدها لجمع القمامة؛ كما يقوم اللبان كل صباح، بدراجته القديمة، بتوزيع اللبن الجاموسى داخل تلك الأوعية المعدنية المعلقة فى دراجته بكلايب؛ يتبعه بائع الثلج. ولم يقتصر الأمر على هؤلاء فقط، بل كان هناك المنجد الذى يأتى مرة واحدة فى العام لتنجيد المراتب، مستخدماً أدوات غريبة الشكل، تثير دهشة كوستيس الذى كان يستطيع وصفها بمنتهى الدقة. وهناك أيضاً الحداد الذى يقوم بلحام المشغولات المعدنية بالقصدير. حتى الحلاق كيكينوس، كان دائم الحضور لحلاقة شعر أبيه. من أين يأتى كل هؤلاء ثم يختفون مرة أخرى؟ هل يعقل أن يكونوا أشباحاً؟ بالتأكيد كانوا يحضرون من الشوارع والأحياء المجاورة الكائنة خلف عالمه الصغير. كان كوستيس الصغير متعطشاً للتعرف على عوالم مختلفة، للتعرف على "عالم الباب الخلفى".

ازدادت حدة فضول كوستيس أكثر وأكثر بعد سن الثانية عشرة، عندما بدأت مشاعره المرفهة فى التنامى وأخذ حسه العاطفى فى هدم تلك الحواجز الطفولية، والآن بدأ يتحسس جسد الخادومات الناعم، داكن اللون، على الأقل ما كان يظهر من ملابسهن، ثم يطلق لمخيلته العنان لتخيل ما لم يره. ويسبب تلك العادة السيئة لم يكن يحصل سوى على ابتسامات وإشارات ذات مغزى من الخادومات، وكذلك توجيهات صارمة من والدته التى كانت تراقبه باستمرار.

* * * * *

«حتى تتعلم»، هكذا صاحت المربية (بالفرنسية) فى وجه ماخوس وصففته صفة قوية بظهور يدها، عندما أمسكت به وهو يختلس النظر إليها من ثقب المفتاح بباب غرفتها. لم ينطق الصغير ببنت شفه، لكنه طأطأ الرأس وأخفى عينيه الطفوليتين، الخضراوين، وأخذ يتمتم ببعض الكلمات بعد أن تسمر فى مكانه خجلاً. قام كوستيس،

الذى كان يتابع الموقف، بجذب أخيه إلى غرفته، وهو يرمق فى الوقت نفسه الأنسة جابى بنظرة غاضبة. أما ذافنى، التى كانت تتحدث فى ذات الوقت مع ستراتيس ميخيليس بالطابق الأرضى، فقد تنامى إلى سمعها صوت الصفعة وإن بدا لها هذا الصوت أمراً مألوفاً من كثرة المشاجرات التى كانت تحدث بين الولدين بشكل يومي، مما جعلها تسرع نحو حافة السلم وتصيح فيهما. وفى وقت متأخر، بعد رحيل ابن عمها، نادت على الابن الأكبر، وأخذت تعنفه بشدة بسبب إخفاقاته المدرسية، ثم جذبت أذنه بقوة وهى تقول: «يا لك من فتى مشاكس» (قالت ذلك بالفرنسية)، يا كوستيس، لقد أخبرتكما آلاف المرات أن تحسنا التصرف عندما يكون لدينا ضيوف»، استمع إليها كوستيس بلا مبالاة، وفور سماحها له بالذهاب اندفع نحو السلم واختفى عن ناظرها. استمرت ذافنى لمدة ساعة كاملة تسمع وقع أقدامه على أرضية الطابق العلوى الخشبية، وجال بخاطرها كيف أصبحت قدماه كبيرتين، وأنه بعد قليل سيتنعل أحذية كبيرة الحجم، كوالده. ولكن حقاً، أين هو الآن الابن الأصغر؟ لقد اعتاد فى مثل هذا الوقت أن يتجول فى الصالون وفى قاعات الاستقبال، متباهياً بنفسه فى المرايا الضخمة بزيه الرسمى وشاربه الضخم، الذى كان قد رسمه فوق شفتيه، والذى يشبه شارب أندونيس بيناكيس جارهم، كما اعتاد ماخوس أن يأخذ مكان رب الأسرة على المائدة الضخمة، ويتخيل أنه يقوم بتحية الضيوف الحاضرين. وبينما هى كذلك، وعلى حين غرة، وجدت أمامها المربية الشابة ممسكة بعاكزها، فارتعبت من هول المفاجأة، فقد هبطت الأنسة جابى دون أن تحدث صوتاً - مثل القطط - حتى نهاية السلم، ومن يدر كم من الوقت ظلت فى مكانها وهى لا تجرؤ على تعكير صفو سيدة المنزل. ودار بينهما الحوار التالى:

ذافنى: «هل هناك ما حدث؟» هكذنا سالتها ذافنى بانزعاج واضح.

جابى: «لا، يا مدام، لا شىء على الإطلاق، أريد فقط أن أعرف موعد راحتي الأسبوعية» (قالت ذلك بالإنجليزية).

ذافنى: «رائع، إنها لم تبدأ بعد عملها وتساءل عن موعد إجازتها؟» هكذا حدثتها نفسها، ثم قالت: «ليس ذلك محلاً للنقاش الآن، يا بنيتى، كل شيء فى حينه» (قالت ذلك بالإنجليزية)، «هكذا أجابتها ذافنى، وحتى لا تضطر لأن تقول شيئاً آخر، وضعت فى فمها قطعة من الأطعمة التى كانت قد أحضرتها لابن عمها.

عندئذ استدارت المرأة الشابة، التى بدا عليها الإحباط، وهمت بصعود السلم غير أن ذافنى استرعى انتباهها ذلك الثوب الداكن الذى كانت ترتديه بياقته الحادة، وشعرها المجدول، والصندل المطاطى الذى تنتعله، فنادت عليها قائلة: «أنسة جابى...» فأجابتها بالإنجليزية:

«نعم، سيدتى»

ذافنى: «اسمعىنى جيداً يا فتاتى، تعلمين أنك قد التحقت بمنزل راقٍ ومتحضر من منازل الإسكندرية، وليس بأحد الأديرة. لذلك أريد أن يتوافق مظهرك مع روح هذا المنزل. بعض "الوقار" (قالتها بالفرنسية) مع بعض المرح لن يضرنا. بالطبع الاحتشام هو الاحتشام وفى هذا المنزل لدينا عدد كبير من الرجال من كل الأعمار. هل هذا واضح؟» (قالتها بالإنجليزية).

فأجابتها جابى (بالإنجليزية): «تمام الوضوح، يا سيدتى».

تابعت ذافنى الأنسة جابى وهى تصعد السلم، وشعرت بالرضا بعدما تاکدت أن حركة اهتزازها أثناء سيرها لا تثير الغرائز على الإطلاق.

وكان كوستيس قد خرج بنفس الانطباع، حيث كان يتابع هذه السيدة بدقة منذ اليوم الأول لعملها بالمنزل. تلك المرأة التى طالما تؤكد على جنسيتها الإنجليزية، لكنها مع اشتداد غضبها كانت تتحدث بالفرنسية.

قوامها نحيف وجلدها شاحب وناعم، تماماً مثل أطباق والدته البورسلينية الغالية، وشعرها بلون الذهب، وعندما تستلقى على الأريكة فلا فرق بينها وبين السجادة بلونها الشاحب.

اعتادت ذافنى القول إن الأنسة جابى «امراة ذات مبدأ». أما كوستيس الذى لم يكن يفهم شيئاً من كل هذا، فقد وجدها فى النهاية امرأة لا تثير غرائزه أو تحرك شهواته. وعندما ترتدى نظارة القراءة لتقرأ لهما كان وكأنه يرى أمامه الأنسة "فوكيا"، تلك المرأة العانس، مشرفة مدرسة أقيروفيوس، التى أعادته إلى المنزل حتى الآن مرتين أو ثلاث مرات حتى يتعلم كيف لا ينسى وضع الشارة المدرسية فوق صدره. كانت أصابع الأنسة جابى النحيفة والطويلة تتحرك بخفة ورشاقة - كعفريت صغير فوق مفاتيح البيانو، ولكن أدنى التزامها ودقتها المتناهية فى تتبع النوتة الموسيقية إلى جعلها موسيقى بلا روح. غير أن ما كان يميزها هو: قدرتها الفائقة على التنقل من لحن إلى آخر دون أن يتأثر المستمع. أصيب كوستيس بالذعر عندما فكر فى كون الأنسة جابى امرأة جميلة ولكن بلا روح. كانت هناك لحظات يصاب فيها بالذعر من هذه المرأة الجميلة القاسية، وبخاصة عندما كانت تحاول مداعبة أخيه الصغير لاصطحابه إلى حدائق النزهة، فكانت تدعوه لذلك قائلة (بالإنجليزية): «هيا يا ماخوس، فلنذهب إلى الحدائق» إلا أن ماخوس كان دائماً ما يبدي اعتراضه لأنه قد مل من الذهاب فى كل مرة إلى نفس المكان. أما هى فكانت تصر على ذلك وتقول: «هيا معنى (قالت ذلك بالإنجليزية)، وسوف نلتقى جان كلود، جان كلود فتى طيب، أليس كذلك يا ماخوس؟». كان كوستيس على ثقة من أمر واحد فقط: وهو أن لهذه المرأة تأثيراً سيئاً على أخيه. شىء ما قد تغير فى أخيه منذ اللحظة التى وطأت فيها قدماهما منزلهم، فقد أصبح حبس غرفته ساعات وساعات ولم يعد يجرى خلف كوستيس لكى يضايق الخادومات المصريات اللاتى كن يمسكن به بعد مطاردته وهن يضحكن. ولكن فى النهاية، من تكون الأنسة جابى، تلك المرأة الغامضة التى أزعجت ماخوس بشدة؟ لقد بدا له أن هذه المرأة الإنجليزية، إن كانت بالفعل إنجليزية، كانت تخفى وراءها سرّاً، ودون أن يعرف السبب، فقد انتابه شعور بأن ذلك له علاقة بما كان يسميه "عالم الباب الخلفى".

* * * * *

لكل إنسان فى هذا العالم حكاية تخصه، وهو على استعداد دائماً لأن يرويها، ولكنه دائماً ما يحتفظ لنفسه بسر، ولو صغيراً، من أسرار تلك الحكاية. وصلت رومينا- القابلة- إلى مدينة الإسكندرية فى نهاية عام ١٩٠٥، قادمة من أوديسو، بعد إعلان التمرد على البارجة الحربية "بوتمكين"، وقد أشاعت حينئذ أن والدها كان أحد أفراد طاقم البحارة الذين أعلنوا تمردهم وقاموا بإلقاء الضباط فى البحر. أما فى الواقع فقد كان والدها تاجر حلوى يونانياً متزوجاً من سيدة روسية. وإذا كانت هناك ثمة علاقة تربط بين أسرتها وبين البارجة الحربية "بوتمكين" فتعود إلى خالها، الذى كان يقضى بالفعل فترة خدمته باعتباره ضابطاً على ظهر السفينة الحربية. قامت رومينا بدراسة طب النساء، طبقاً لكلامها، وكانت تمارس مهنة الطب فى بلدها، حتى أجبرها فشلها فى إجراء عملية جراحية كلفت سيدة شابة حياتها، على الفرار من وطنها حتى لا يتم القبض عليها ومحاكمتها.

على أية حال، تقبلت رومينا وضعها فى مصر، بوصفها مجرد قابلة. انتشرت شهرتها بسرعة فى الإسكندرية من خلال عمليات الإجهاض الناجحة التى قامت بها واستطاعت من خلالها أن تخلص العديد من النساء من مشكلة الحمل غير المرغوب فيه، بغض النظر عن طبقتهم الاجتماعية والأخلاقية.

وصلت رومينا، التى كان بييتروس ثيميستوكليوس قد رشحها لإلياس خورى، فى اليوم والساعة المتفق عليهما فى الشقة التى تقع فى شارع مصطفى باشا، وهى تحمل فى يدها حقيبة جلدية كبيرة.

قالت رومينا (بالفرنسية): «أبحث عن مدام إيفيت» هكذا أخبرت جعفر الذى فتح لها الباب وقادها العجوز النوبى إلى مكان إيفيت.

وجدت إيفيت نفسها أمام امرأة فى منتصف العمر، ذات وجه عريض وعيون تشع بالاحترام. رددت رومينا سؤالها (بالفرنسية):

«أبحث عن مدام إيفيت».

«أنا إيفيت» هكذا أجابتها (بالفرنسية)، وبدت على وجه رومينا علامات الدهشة التي استطردت قائلة:

«عذراً، ولكن مما ذكره بيتروس ثيميستوكليس عنك، فقد توقعت أن تكونى أكبر سناً».

— «حقاً، ما الذى أخبرك به بيتروس عنى؟».

— «غير مهم، على أية حال، أنت مدام إيفيت، أليس كذلك؟» (قالتها بالفرنسية).

— «مازلت تتشككين حتى الآن؟»

— «لا، حاشا لله. وماذا عن الحالة التي نهتم بأمرها؟».

— «ياله من وصف مذهب لهذا الموقف المحرج»، هذا ما جال بخاطر إيفيت، ثم أجابتها: «فى انتظارك بالطابق العلوى».

— «بالطبع، بالطابق العلوى، أين ستكون غير ذلك؟» هكذا أضافت قائلة، ثم تفحصت تفاصيل المنزل المعقدة، وهى تتساءل من أين يمكن لأحد أن يصعد للطابق العلوى.

وضعت رومينا حقيبتها الكبيرة فوق إحدى الموائد الموجودة بالغرفة، وقد تعلق عيناها بالنجفتين "الهولنديتين" (دونها بالفرنسية)، اللتان تتدليان من سقف الغرفة.

— «سوف نحتاج لإعداد بعض الأدوات قبل أى شىء».

— «رهن إشارتك».

— «أريد أن أوجه للخدم بعض التوجيهات بشكل شخصى، إذا لم يكن لديك مانع. بالتأكيد يوجد بعض الخدم هنا فى المنزل، أليس كذلك؟».

أجابتها إيفيت (بالفرنسية): «بكل تأكيد» ثم أشارت إلى العجوز النوبى النداء على كل من سهير وأنطوانيت من المطبخ.

- «من الأفضل أن أذهب بنفسى إلى المطبخ».
- «أسرار المهنة؟».
- «لا، يا عزيزتى! نحن بحاجة إلى ماء ساخن ومناشف نظيفة. الأمور فى منتهى البساطة. لا داعى للقلق. كونى على يقين من أن صديقتك فى أيد أمينة».
- «لستُ قلقة. إذا كان بيتريوس قد حدثك عنى فقد حدثنى عنك أيضاً. وأسهب فى الحديث عن صفاتك النبيلة " (قالت ذلك بالفرنسية)».
- «هذا أمر لطيف من جانبه» (هكذا أجابتها بالفرنسية).
- عادت رومينا من المطبخ ممسكة بيدها فنجان شاي وضعت فيه أربع قطع من السكر، وظلت قلبه لبعض الوقت بالملعقة.
- «كم من الوقت ستستغرق العملية؟».
- «نحو ربع الساعة تقريباً» (قالت ذلك بالفرنسية).
- «ربع الساعة فقط؟».
- «ماذا كنت تظنين؟ لن نقضى اليوم بطوله هنا».
- كانت القابلة رومينا تتحدث الفرنسية بطلاقة، وكانت طريقة نطقها تفصح عن محل ميلادها. فمنذ اللحظة الأولى التى وطأت فيها بقدميها عتبة المنزل، كانت تحركاتها وكلماتها محدودة، كما لو كانت تريد أن تعطى انطباعاً عنها بأنها شخص يعرف جيداً كيف يقوم بمهمته الدقيقة على أكمل وجه، كما أنها لا تملك الكثير من الوقت لتضييعه. عندما تأكدت من أن السكر قد ذاب فى فنجان الشاي تجرعت الفنجان برشفتين كبيرتين، وبدون أن تنظر، ألقت بالفنجان من يدها فى الاتجاه الذى ظنت أن أنطوانيت، الخادمة الشامية، تقف به، لكنها قفزت بدورها وأمسكت بالفنجان وهو فى الهواء.

رومينا: «والآن حان وقت العمل» قالت ذلك وهى تشمر عن ساعديها، وأشارت متسائلة من أى السلمين سوف نصعد، وجاعتها الإجابة من إيفيت بإيماءة من رأسها. أخذ العجوز النبوى حقيبة القابلة وسار خلف السيدتين. والتقيا روكسانى أثناء صعودهما للطابق العلوى.

إيفيت: «إنها شقيقة الحالة التى نهتم بأمرها»، وقفت القابلة تتفحصها باهتمام. روكسانى: «هل ستتألم شقيقتى، أيتها القابلة؟» هكذا جاء سؤال روكسانى وهى تشعر بالحيرة.

أجابتها رومينا باقتضاب: «بعض الشئ». ثم استكمل الجميع الصعود إلى أعلى، تتقدمهم القابلة تتبعها إيفيت ثم جعفر وروكسانى وفى الخلف كانت سهير تحمل المناشف النظيفة فوق صدرها الضخم.

صعد الجميع إلى غرفة ذنائى التى تقع فى الجناح الأيمن، كانت الفتاة الشابة ممددة على فراشها الكبير، وقد أغلقت الناموسية المحيطة بالفراش حتى تؤكد لمن حولها مدى خطورة حالتها، كما بدا القلق واضحاً عليها.

رومينا: «هنا إذن تختبئ فتاتنا!» قالت ذلك وهى تشبك كفيها.

ذنائى: «هل سألتكم؟» هكذا جاء سؤال ذنائى بصوت مرتعد من خلف الناموسية.

أجابتها رومينا وكأنها تخاطب طفلاً صغيراً: «على الإطلاق»

وينفس الصوت المرتعد وجهت ذنائى حديثها لشقيقتها قائلة: «روكسانى، اقتربنى منى قليلاً».

رفعت روكسانى الناموسية وانحنى تجاه أختها التى همست لها بشئ فى أذنها. وعندئذ صاحت روكسانى: «هل أنت جبانة؟ كل شئ سيكون على ما يرام».

رومينا: «دعونا ننتهى من هذا الموضوع» قالت ذاك وهى تصفق بكفيها. ثم أزاحت الستارة البيضاء وصاحت قائلة (بالفرنسية):

«يا لها من فتاة جميلة!».

فى نفس الوقت أشارت بإيماءة من رأسها للخادم النبوى وإيفيت للوقوف إلى يمين ويسار ذائائى.

وفى اللحظة نفسها ظهرت أنطوانيت وهى تحمل صينية عليها أكواب نظيفة. وقد بدا وكأن سهير وأنطوانيت معتادتان على مثل هذه الحالة. قالت رومينا:

«فى بلادنا نحتفل بمثل هذه الحالات»، ثم أضافت وهى تغمز بعينيها للحضور «فلنشرب، إذن»

كان الفرض من هذا الأداء المسرحى هو أن تدفع ذائائى لكى تشرب كأساً من الفودكا المركزة، التى كانت تحتفظ بها فى حقيبتها. على أية حال، لاحظت إيفيت أن رومينا تجرعت أكثر من كأس. ثم قامت بعد ذلك بغسل يديها جيداً، ثم أخرجت معدّاتها، مختلفة الأحجام، ووضعتها على منشفة بيضاء فوق الكومودينو.

مذ اللحظة التى أحضرت فيها سهير "طشتاً" (ذكرها باللغة العربية وبونها بحروف يونانية) الماء الساخن، حدث كل شىء بسرعة. كل هذه العملية ستستغرق ربع الساعة فقط، إلا أنها ستمر على ذائائى وكأنها قرن من الزمان بداية من اللحظة حاولت فيها القابلة النشطة، بمساعدة آلة معدنية قطرها صغير، الوصول إلى الرحم، مما جعل الفتاة الصغيرة تصرخ من الألم، الأمر الذى حال دون أن يتمكن جعفر من الإمساك بها بيديه الضعيفتين. لم تحتمل روكسانى المنظر وخرجت من الغرفة باكياً. تابعت رومينا عملهما بمنتهى الحذر، خوفاً من أن تثقب رحم الفتاة الذى بات رقيقاً بسبب الحمل، الأمر الذى قد يؤدى إلى حدوث نزيف شديد. وفى النهاية، عندما نجحت فى الوصول إلى هدفها، تنفست الصعداء وبسرعة حركت يدها فوق الشفريات الثلاث، وقررت اختيار الشفرة المتوسطة. الشفرة، هى أداة معدنية ذات حوافٍ حادة تأخذ شكل المعين الهندسى والتى استطاعت بواسطتها أن تستأصل، دون ألم، ذلك الجنين غير المرغوب فيه من غشاء الرحم، ثم قامت بغسل هذه المنطقة من الدماء، بحذر شديد، من خلال وضع المناشف المبللة، وبعد مرور نصف الساعة كانت تستعد لمغادرة المنزل.

«لكن أين تذهبين الآن؟» هكذا سألتها روكسانى بلهفة، ثم أكملت: «ماذا لو أصابها مكروه؟»
رومينا: «لن يصيبها أى مكروه، صدقيني» قالت ذلك وهى تحصى بسرعة النقود الورقية التى أخذتها من إيفيت.

رومينا: «لا بد أن تباعد عن ممارسة الجنس لمدة شهر كامل، بعد ذلك سيصبح كل شىء على ما يرام. "طاب صباحكم" (قالتها بالفرنسية)»، ثم ابتسمت القابلة وألقت بالتحية لشمس الإسكندرية التى سطعت على المنزل من الباب الأمامى.

* * * * *

«لا أريد الذهاب إلى حديقته النزهة، يا جابى، فهناك جان كلود، لا أريد الذهاب إلى حديقة النزهة» هكذا اعتاد ماخوس أن يصرخ بهذه الكلمات فى نومه ليالى عديدة، عندئذ تسرع الأنسة جابى نحوه فى الحال لكى تهدئ من روعة، وكان كوستيس يسمع من الغرفة المجاورة صوت أقدامها الحافية وهى تلامس برفق أرضية الطرقة الخشبية، ويتخيلها بقميص النوم الأبيض كجنبة فى الليل. ثم يغلبه النعاس بعد هذا الموقف مباشرة، لكنه كان على ثقة من أن المربية كانت تتمدد بجوار أخيه الصغير معظم المرات، لأن رائحتها كانت تفوح من جسد أخيه فى صباح اليوم التالى . والغريب أن الأنسة جابى لم تكن تذكر شيئاً عن هذا الموضوع لوالدتهما. شغلت تضحية هذه المرأة الشابة براحتها تفكير كوستيس، فقد اتخذت قراراً بأن تتحمل وحدها كوابيس الطفل ماخوس وأن تخفى، بشكل أساسى، ذلك الجزء الخاص بما يفعلونه فى حدائق المنتزة. وكان رد فعلها سريعاً كالبرق فى كل مرة، فمع أول صرخة للطفل تجدها بجواره، وكأنها كانت مستيقظة طوال الليل، وكأنها كانت تنتظر خلف الباب حتى لا يسمع أحد صراخ ماخوس وهو يقول: «لا أريد الذهاب إلى حديقة النزهة». وفى صباح اليوم التالى كانت تظهر عليها نتيجة عدم النوم بوضوح، من خلال احمرار عينيها واستمرارها فى التثاؤب. وفى إحدى المرات أثناء استعدادهم للذهاب للمدرسة، غلبها النوم للحظات قليلة وهى جالسة على المقعد، وعندئذ انتابت الأخوين نوبة من الضحك الخافت.

أما فى المساء فتصبح الأمور أكثر صعوبة على جابى، فقد كان لزاماً عليها الاهتمام بتدريس اللغة لهما وأيضاً متابعة دروس البيانو معهما بشكل صحيح. مرت أوقات على كوستيس كان يشعر فيها بالأسى على تلك المسكينة. غير أن هذا لم يمنعه من أن يضايقها، وبخاصة أثناء درس البيانو، عندما كان يخطئ عن قصد فى وضع إحدى أصابعه على البيانو، مما كان يتسبب فى تغيير جمال السلم الموسيقى. ولم يكن يحلو له أن يفعل ذلك سوى فى نفس اللحظة التى يتأكد فيها أن الأنسة جابى قد غلبها النعاس. كان من المضحك أن تراها وهى تفتح عيناً واحدة مثل الكيكلوبس، ثم تعيد عليه فى كل مرة قولها (بالإنجليزية): «هذا ليس صحيحاً، كوستيس، أعددها مرة أخرى!».

كانت تعيد ضبط جهاز قياس الوقت بعصبية ثم تغلق عينها مرة أخرى حتى يقع فى خطأ آخر. وكان والده دائم الشجار مع أمه بسبب تلك الحالة المزرية التى كان يرى جابى عليها، ويقول:

«ما الذى جعلنا نحضر مثل هذه الكسول إلى منزلنا!».

وبمرور الوقت، بدأت ذافنى تشفق على تلك المرأة الشابة، واضعة فى اعتبارها أن تلك الهالات السوداء التى تظهر أسفل عينيها، والتى حاولت جامدة أن تخفيها تحت طبقات وطبقات من مساحيق التجميل، هى بمثابة إثبات لإنكار الذات، وكانت ترى أن جولاتها المتكررة فى حدائق النزهة عمل تطوعى تقوم به من أجل ماخوس الطفل الضعيف. ومنذ ذلك الحين، عندما كان ماخوس يبدي اعتراضه على الذهاب إلى هناك كانت ذافنى تقوم بنفسها بالضغط عليه حتى يرضخ. كانت الأنسة جابى تتعامل بطريقتها الخاصة مع ماخوس، فكانا ينتقيان معاً زياً جميلاً للخروج، ثم تبلل شعره وتقوم بتصفيفه بعمل فارق جهة اليمين، مما كان يثير إعجاب الطفل المدلل بشدة، ثم يتجولان معاً داخل المنزل ويتنقلان من مرآة إلى مرآة، وكان الجميع يبدون إعجابهم بجماله. أما هى، فكانت تحرص دائماً على أن يكون رداؤها رسمياً، مع وجود بعض الكشكشة التى كانت تتمايل أثناء سيرها، وبخاصة عندما كانت تصعد إلى عربة

الحنطور، لكنها كانت ترتدى قبعة تبدو مضحكة بالنسبة لسنها . وفى عربة الحنطور، كان ماخوس يجلس بجوارها وكأنه يجلس على كرسي العرش، كاظمًا حماسه وهو يرد تحية أمه، فى نفس اللحظة التى يلهب فيها "العربجى" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) ظهر حصانه بضربة كرباج لكى يتحرك.

لم يكن كوستيس ينظر إلى كل ما يحدث بعين الرضا، وعندما كان يحاول استدراج أخيه الصغير لمعرفة ما يدور، كان يحصل منه على نفس الإجابة دائماً: «لن أخبرك بشيء، فالآنسة جابى تقول إننى قد أصبحت كبيراً بدرجة كافية تجعل لى أسراراً لا تعرفها أنت».

على كل حال، كان كوستيس قد فهم من تلك الكلمات القليلة التى يتلفظ بها أخوه أثناء نومه، أنه والآنسة جابى يذهبان إلى حدائق النزهة بشكلٍ خاص لرؤية الشخص الغامض المدعو جان كلود وتلك المرأة المسنة التى ترافقه. وعلى ذلك فلا بد أن يكون جان كلود فى نفس عمر أخيه، وإذا ما صح وصف ماخوس، فإنه أشبه بالفتيات وليس بالأولاد. يا لها من أشياء عجيبة!

* * * * *

فى الإسكندرية كان الشتاء يمر مسرعاً، ربما لأنه فى واقع الأمر لا يكاد يصل إليها. فالأمواج المتلاطمة التى تمس جدران المنازل فى الصفوف الأولى أمام الشاطئ مساً رقيقاً، والأمطار الغزيرة التى تستضيفها الإسكندرية، كل ذلك لم يكن كافياً ليعطى أهل الإسكندرية الشعور بمعنى كلمة الشتاء. يتذكر أندونيس خاراميس فى سنى عمره الطويلة التى عاشها بالإسكندرية أن الثلج لم يسقط سوى مرة واحدة فقط وقد تجمع على أغصان شجر الجميز بالمحمودية، وكيف كان أهل المدينة ينظرون إلى كتل الثلج البيضاء وكأنها هدية من السماء. كان الأمر يبدو وكأنه اضطراب فى الظواهر الطبيعية التى ستحتاج، بلا شك، لمرور سنوات وسنوات لكى تتكرر.

على كل حال، فقد مر شتاء عام (١٩١٤-١٩١٥) مرور السحاب على سماء الإسكندرية. وبدأت أعياد الميلاد بكل مظاهرها: شجرة عيد الميلاد، نموذجاً مجسداً به عدد من التماثيل التي تصور ميلاد السيد المسيح، الهدايا، الحفلات، الطوابير الطويلة التي تصطف داخل المحلات التجارية أو في الكنائس. وفي المساء، كان إلياس وأرابيذيس يحتسيان الشراب في شرفة نادى محمد على، يتبادلان أطراف الحديث مع رجال البنوك وتجار القطن وفي الوقت نفسه يتابعون بأعينهم سيدات الطبقة الراقية وهن يتسوقن في شارع شريف باشا. كان " اللبناني" يخسر أموالاً طائلة في القاعات المخصصة للعب الورق بالنادى في حين كانت إيفيت تتذمر من ضعف الإيراد الذى تجمعها من بيت البغاء الذى تديره في شارع مصطفى باشا. حتى الحرب فى أوروبا كانت تلقى بظلال باهتة على أجواء الاحتفالات فى الشوارع، فالليونانيون يلعبون الورق فى مقاهى الأحياء الشعبية: فى العطارين وفى شارع القيامة، ويسكرون فى الحانات. حفلات وحفلات تقام فى منازل اليونانيين الأغنياء فى الحى اليونانى. كان الكثيرون يتحIRON بشدة من كثرة الدعوات التى تصلهم بشكل يومي، حتى كادت تصل إلى دعويين أو ثلاثٍ فى اليوم الواحد، فتصيبهم الحيرة أى الحفلات يذهبون أولاً.

فى ليلة رأس السنة، قطع أندونيس كعكة العام الجديد فى منزله - وقد عثر بداخلها كوستيس على العملة المعدنية (التي تجلب الحظ طوال العام). ثم كرر ذلك بعد ثلاثة أيام فى المصنع. وفى منتصف شهر يناير كرر نفس الأمر مع موظفيه فى فرع القاهرة، وقد استغل وجودة بالقاهرة، وقضى ليلته فى أحضان إيفيت فى جناحه الفخم بفندق شبرد بعيداً عن الشقة المشبوهة بشارع السلطان حسين. ومع البدايات الأولى للعام الجديد، قام بتسليم أول شحنة من السجائر للجيش البريطانى، كما بدأ العمل فى بناء الجناح الجديد بمصنعه. استطاع أندونيس تسديد القرض الكبير الذى كان قد اقترضه من بنك لاند، كاملاً إلى مدير البنك، كيرياكوس أسبراكيس، شقيق زوجة ثاناسيس. وبدأت العلاقة بين العائلتين تتغير، وكان من نتيجتها أن عاد كوستيس لزيارة العمارة التى تسكن فيها عائلة ثاناسيس فى باب سيدرا رويداً رويداً.

استمرت الحياة فى الإسكندرية على هدوئها . ولكن فى حقيقة الأمر، كان الهدوء الصارم الذى فرضه الإنجليز بمثابة الحاجز الذى يقف بين الإسكندرية وأخبار جبهة القتال . وكان بمقدور عدد قليل من الناس، ومن بينهم إلياس خورى، نقل أخبار الأحداث التى تقع بالفعل فى العالم الخارجى . حتى هجوم القائد التركى جمال باشا على البريطانيين فى قناة السويس ترددت أنبأؤه وكأنه مجرد صدى صوت آتٍ من بعيد .

فى احتفالات هذا العام، لم يخرج حتى الآن الكرنفال الذى يسير فى شوارع الإسكندرية . واختفت العربات التى كانت تبهر ماخوس بشدة، وكذلك أشكال قطع الخولى المصنوعة من الجبس، والمدفع الضخم الذى كانوا يستبدلون طلقاته بحبات الفاصوليا، حتى رقصات فرقتي " أيسخيلوس " و " ألأمبرا " لم يتم تقديمها . لكن على أية حال، فقد احتفل الكبار والصغار بارتداء الملابس التنكرية فى العديد من المنازل .

فى ربيع عام ١٩١٥، كان الجميع فى الإسكندرية يتحدثون عن الزيارة المرتقبة التى سيقوم بها فينيزيلوس لمصر . وفى أحد أيام الأحاد من شهر مارس، أصيب أندونيس بالذعر عندما دخل النادى البحرى اليونانى وشاهد أمامه غابة من قبعات الرجال والنساء . مع وجود القوارب البحرية فى المشهد الخلفى، وكان قد نسى أن عدداً كبيراً من رواد النادى يأتون فى صباح هذا اليوم للاستمتاع بحمام الشمس . فى هذا المشهد المفعم بالسعادة والمرح قد يتساءل أحدهم عن إمكانية نشوب الحرب بالفعل فى أى بقعة من هذا العالم . وما كاد أندونيس يطمأ بقدمه داخل النادى حتى تلففته إحدى سيدات الطبقة الراقية والتى تعرف باسم "مدام تسالابيتينوس"، والتى أصابها التوفيق فى الجمع بين أنفها الرومانى، الذى يشبه المنقار، وريشة الطائر المثبتة فى قبعتها .

«عزيزى خاراميس، يا لها من مفاجأة» (قالت ذلك بالفرنسية)، لقد نسينا تماماً!»، ترك أندونيس هذه السيدة مع ذافنى، ثم توجه إلى الناحية الأخرى من الشرفة حيث وجد بعض أصدقائه من رجال الأعمال مجتمعين، لكن اصطدم برجل أصلع يرتدى نظارة مستديرة وله وجه غريب الشكل، فأراد أن يعتذر له لكن الرجل الغريب بادره قائلاً: «سيد خاراميس، حاشا لله، إنه خطئى أنا» (قالها بالفرنسية) نتيجة عدم انتباهى».

- أندونيس: «هل يعرف أحدنا الآخر؟».
- ماركيزيس: «بالطبع، أنا أدعى أندرياس ماركيزيس. لقد شاهدتك مرات ليست بالقليلة فى مقر الجالية».
- «حقاً؟ أعذر لانى لا أستطيع أن أتذكر ذلك، سيد ماركيزيس».
- «غير مهم (قالها بالفرنسية)، سيد خاراميس، غير مهم، فمن حسن الحظ فى عمل مثل عملك أن تكون معروفاً للكثيرين، فى حين أنك لا تعرفهم».
- «لا تقل ذلك، فالأمور لا تسير دائماً بهذا الشكل».
- «بالمناسبة (قالها بالفرنسية)، لقد تأخرتَ بعض الشيء فى الحضور، ولكن أعتقد أنك قد اخترتَ اليوم المناسب للحضور إلى النادى».
- «من أى وجهة نظرك؟».
- «يجتمع اليوم عدد كبير من أعضاء مجلس إدارة النادى. ومن المنتظر أن يصل رئيس المجلس بعد قليل. عندئذ سيتم عمل إعلان غير عادى حول زيارة فينيزيلوس، كنت أعتقد أنك على علم بذلك».
- «أؤكد لك، يا عزيزى، أنه لم تكن لدى أدنى فكرة».
- «لكنك من المؤيدين لفينيزيلوس، أليس كذلك، يا سيد خاراميس». ألقى ماركيزيس بسؤاله بطريقة توحى بالشك فى الإجابة.
- «لم أخف ذلك مطلقاً» هكذا أجابه أندونيس متبرماً من هذا السؤال الغريب الذى ألقاه عليه هذا الشاب، ثم بدأ فى الابتعاد عنه شيئاً فشيئاً. ثم حدثته بنفسه قائلة: «بعد زمن قصير لن ندعى يونانيين، فالنصف سوف يُسمون بالفينيزيليين والنصف الآخر باللكيين».
- لكن هذا الرجل أمسكه من عضده حتى بدا عليه الاحمرار تماماً فى هذه اللحظة، ثم قال ماركيزيس:

«يا سيد خاراميس»، قال ذلك وقد بدا وكأنه يتوسل إليه: «لابد أن تحضر زيارة زعيم الشعب. فالجالية اليونانية بالقاهرة تخطط لسرقة الأضواء. أنا لا أخشى تجار القطن. أما صناعة السجائر فالتنافس فيها على أشده، ولا تنس أن الجالية اليونانية بالقاهرة لديها تساناكليس. "لابد أن تساعدنا" (قالها بالفرنسية)، سيد خاراميس. فقد انقطعت عن الحضور للجالية منذ وقت طويل، فما سبب ذلك؟».

- «حقاً ما تقول، ولكنها الأعمال، الأعمال الكثيرة، وأنا مشغول جداً» كما يقول الفرنسيون» هكذا أجابه أندونيس، ثم ابتسم ابتسامة مصطنعة.

- «أمشغول أنت؟» (قالها بالفرنسية) إلى هذا الحد؟ للدرجة التي يصعب فيها عليك تخصيص بعض الوقت للمرور على النادي اليوناني؟ رئيس مجلس الإدارة يتذمر منك باستمرار. ويظن أن هناك مشكلة ما بينك وبينه».

- «لا ينبغي على ميكيس أن يأخذ الأمر على محمل شخصي. فهو يعلم جيداً أنني أحترمه. ولكنني في هذا الوقت، يا صديقي، غارق بمعنى الكلمة في أعمالى».

- «ولكنك يوناني في أرض أجنبية، لذلك أنت بحاجة دائماً إلى بنى وطنك، فكل منا بحاجة إلى الآخر، يا سيد خاراميس».

- «لا خلاف في ذلك، ولكن بكل بساطة في الوقت الراهن، هناك أولويات أكثر أهمية».

- «لا أريد أن أُلح عليك أكثر من ذلك، يا سيد خاراميس، ومن جهة أخرى، فنحن نعرف أنك رجل ذكى وأنك ستفهم الأمر. أرجو أن تعتبر اهتمامى هذا من باب الصداقة».

- «هذا ما أقوله، يا عزيزى، طاب صباحك». هكذا أجابه أندونيس وهو يمسك بطرف قبعته. لكنه أراد العودة مرة أخرى ليسأل ماركيزيس: «ماذا كان يعنى بقوله "نحن نعرف؟" من تكونون بالتحديد، يا من تعرفون؟» إلا أنه فى كل مرة يبحث فيها عنه لم يشاهده مرة أخرى وسط هذا الجمع.

فى تلك الأثناء، كانت هناك محنة أخرى تنتظر أندونيس، عندما تأبطت ذراعه ابنة عم زوجته، وهى من عائلة سينجوس، وكانت تكبر ذافنى بعامين، ثم اقتادته إلى جانب الشرفة وهى تقول فى لهفة:

«هيا معى لتسعد بمشاهدة ابنك وهو يقف على اليخت». أدرك أندونيس الذى استطاع أن يتخلص منذ لحظات من شخص مزعج، أن ابنة العم تريده أن يشاهد اليخت وليس ابنه كوستيس.

«هل تراه، هل تراه؟ ها هو خلف الدفة»، كانت تشير بإحدى يديها بينما ضغطت بقوة على يد أندونيس بيدها الأخرى، ثم قالت: «سيصبح بحاراً شجاعاً هذا العصفور الصغير»، وعندئذ بدأت فى الصياح: «كوستيس، كوستيس» انتبه الصغير لهما ووقف لتحيتهما.

أندونيس: «أليس من الممكن أن تصطدم رأسه بالشرع وهو واقف هكذا؟» سألها أندونيس بقلق، فأجابت:

«لا تقلق، الحقيقة أن الفتى الصغير يتعجل قليلاً، إذا كانت لديه الآن الرغبة فى الإمساك بالدفة واللعب بالشرع الضخم، فماذا سيفعل إذن عندما يكبر؟»

وبالفعل، أيقن أندونيس أن ملاحظتها صحيحة، فالأطفال يكبرون بسرعة وكل منهم يبحث لنفسه عن مكان.. كان أندونيس ينظر إلى ابنه أحياناً باعتباره منافسين له ويتعذر عليه إخفاء مشاعره خلف حب الأب لأبنائه اللامتناهى.

اقترب اليخت الخاص بعائلة سينجوس من المرسى، كان كوستيس يقف مزهواً بزى البحارة تحت الشرع الرئيسى لكى يلتقطوا له الصور. فى تلك اللحظة، حضرت ذافنى ووقفت بجانبهما.

* * * * *

لم يكن من عادة إيفيت الرد على الأصوات والمضايقات التي تتعرض لها فى الطريق. إلا أن الصوت الذى سمعته من شرفة نادى محمد على ذكرها بشيء مألوف، حتى إنها لم تتردد فى رفع رأسها وتوجيه بصرها لأعلى. وكانت قد خرجت للتو من محل بودرو، وهى تحمل فى يدها علبة حلوى، وكانت تحاول الاهتداء لأقصر الطرق بهدف الوصول إلى شقة ماريانثى أرابيذيس، ويا لها من مصادفة فالشخص الذى كان يناديها هو بانايوتيس أرابيذيس نفسه.

تعرفت إيفيت على صوته، ولكن ما أن رفعت رأسها، وجدت نفسها أمام رجل لا يشبه ذلك الفتى الصغير الذى كانت قد قابلته فى إسطنبول. وتذكرت فجأة بنوع من الحنين وجهه الشاحب ونظرة الذمول والخوف التى نظر بها إليها فى ذلك اليوم الذى كانت عربة الحنطور الغامضة على وشك أن تدهسها فى الشارع الكبير بمدينة بيراي؛ كانت له نفس العينين الواسعتين التين كانتا تشعان بالبراءة، ولكنهما أصبحتا الآن أصغر بكثير، ربما بفعل شمس العصارى التى تلقى بأشعتها عليهما. على كل حال، لم تعد تصرفاته تعبر عن تلك الشخصية الطفولية التى كانت تعرفها. لابد أنه قام بتجربة تلك الطريقة التى لفت بها انتباهها من الشرفة عدة مرات، حتى يكون على ثقة من أنه قد أصبح لديه الكثير من الثقة بالنفس والجاذبية التى تتناسب مع كونه جنتماناً حقيقياً، وعضواً فى أرقى أندية المدينة وأكثرها تحضراً.

إيفيت: «أنا ذاهبة لزيارتكم، وكنت فى هذه اللحظة أتسأل أى الطرق أقرب إلى منزلكم».

أرابيذيس: «من هذا الاتجاه، أظن» هكذا أجابها وأشار إلى الطريق بإصبع يده، ثم سألها (بالفرنسية): «كيف حالك؟».

إيفيت: «بخير» هكذا أجابته (بالفرنسية) ثم أنهت محادثتهما، لأنه كان محاطاً بمجموعة من الرجال الذين بدأوا فى تبادل التعليقات.

من بين هؤلاء الناس تعرفت إيفيت إلى صامويل عظيمان اليهودى، صديق إلياس، أو سامى كما كان يحلو لإلياس أن يدعوه، تاجر التحف الثرى الذى يعد، وفقاً لرأى

الكثيرين، أغنى رجل فى الإسكندرية. كان يدخل السيجار بنشوة ثم ابتسم لإيفيت من خلف نظارته المستديرة. غير أنه لم يستطع أن يرفع نظره عن فستانها مكشوف الصدر والذى كان بلون الشمبانيا. أما هى فقد رمقته بنظرة مغلفة بالبرود مما أبقاه فى مكانه، وهو ما كان ينبغى عليها أن تفعله - كامرأة - حتى لا يتجرأ عليها أى شخص غريب. انحنى اليهودى فارغ الطول على أرابيذيس وسأله:

«من تكون هذه السيدة، يا بانايوتيس؟».

لم يترك بانايوتيس، الذى كان يحلم بلفت انتباه عظيمان منذ وقت طويل، لم يترك الفرصة تفلت من بين يديه وأسرع فى الرد قائلاً:

«إنها إيفيت شانتون، وهى صديقة لزوجتى». لحسن الحظ، لم يفقد أرابيذيس غموضه الذى اشتهر به وكانت لديه القدرة على إخفاء ما بداخله.

صمويل: «هل سبقت لى رؤيتها من قبل؟» سأله ذلك وكأن أرابيذيس كان مجبراً أن يتذكر له كل شىء.

أرابيذيس: «ربما، فهى من السيدات المعروفات فى أوساط الإسكندرية، إنها بالفعل سيدة مجتمع» (قالها بالفرنسية)، كما يقولون».

صمويل: «حسناً» قالها اليهودى ولم يزد عليها شيئاً آخر. استمر أرابيذيس فى الابتسام وحده، ولكنه شعر بالحماسة لأنه استجاب باندفاع لفضول ذلك اليهودى المتكبر. كان هذا هى حال صمويل عظيمان دائماً، يحتقر بشدة أولئك الذين يطمحون فى التقرب إليه - من أمثال أرابيذيس - ولم يكن يتردد فى أن يظهر ذلك لهم . وللحقيقة، يعد إلباس خورى هو الشخص الوحيد الذى يكن له صمويل عظيمان تقديراً حقيقياً، ربما لأن "اللبنانى" استطاع أن يسبر أغوار شخصيته، ولم يعره مطلقاً أية أهمية زائدة تفوق ما كان كبرياؤه يسمح به. على كل حال، لم يمنعه هذا الأمر من أن يتحدث عنه بإعجاب فى غير وجوده.

كان سامى بالنسبة لإلياس مجرد جامع تحف ذى موهبة فذة، لديه القدرة على التمييز بسهولة بين الفنون المختلفة: من الفن البوذى فى الصين إلى إسبانيا الإسلامية، ومن الدولة القديمة فى مصر الفرعونية إلى الفن الفرنسى المعاصر. كما كان يرتل الأشعار الهومرية وكأنه يرتل مزامير العهد القديم. فى السنوات الأخيرة اكتسب شهرة واسعة بين "أوساط المجتمع الراقية" (دوَّنْها بالفرنسية)، وكان الكثيرون ممن لم تكن لهم اهتمامات فنية محددة يرون عظيمين وكأنه بورصة الفن المتحركة، التى ينبغى عليهم استثمارها قدر الإمكان. كان جامع التحف اليهودى يدرك مدى لهفتهم عليه، ولذلك كان يسخر من الجميع بطريقته. تراه يمشى فى كثير من الأحيان منحنيًا بشكل يظهر حذبه، كما كان يربى ذقنه لتحسين ملامح وجهه المضحك. وهناك بعض الألسنة السيئة التى كانت تعتبره العقل المدبر لعصابة دولية للاتجار فى التحف، وهو ما كان يفسر زيادة ثروته بشكل مذهل.

لم يكن اليهودى يبدى اهتماماً بتلك الأقاويل، أما اهتمامه فينصب على أمور أكثر بساطة: فعلى سبيل المثال، ماذا لو أصبح عضواً فى "فريق إلياس خورى للعب الورق". يا له من لقب عظيم! لا أحد يستطيع أن يتشكك فى أسباب تمسكه بعلاقته الودود مع الضابط فريد- البكباشى فريد (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)- أو علاقته الطيبة ببيترس تيميستوكليس (القواد) وإلا فكيف يستطيع أن يشبع رغبته فى النساء؟ أما إخلاصه الشديد "للبناني" فقد شابه الكثير من الغموض. ذات مرة قال سامى: «إن إلياس بمثابة "قطعة حية من الفن" (قالها بالفرنسية)، لذلك كان من الصعب أن يتفوق عليه تاجر تحف آخر». كل هذا لم يوضح كيف يمكن لرجل يعرف ثمانى لغات، سافر حول العالم وتناول العشاء مع السلطان، وأيضاً مع المندوب السامى البريطانى، بل ومع أغنى رجال مصر، أن يصل به الأمر فى يوم من الأيام أن يرقص فرحاً كطفل صغير، عندما علم أنه سيحل محل ماسيمو - تاجر القبعات- وأنه سيصبح عضواً أساسياً فى فريق لعب الورق.

كانت فيلته، التي تقع فى رشدى على مقربة من مكان إقامة المندوب السامى البريطانى، بناءً يشبه قصور الأباطرة؛ وكانت إيفيت كثيراً ما تبدى إعجابها بها فى كل مرة تمر عليها وهى تستقل الترام. يذكر ك بدروم الفيلا " بالمنزل مربع الشكل " (دونها بالفرنسية) للسيدة نيم، أما الطابق الأول المزخرف بنقوش بارزة ورسومات ملونة، فينتهى دون مقدمات بقبة تبدو من الداخل، كما يقولون، وكأنها نسخة طبق الأصل من ذلك المحراب الموجود بالجامع الكبير فى قرطبة. كان هذا الطابق مغلقاً أمام الزوار، ولهذا ساد الاعتقاد بين الجميع أنه لو قامت الشرطة المصرية بمداومة هذا الطابق لوجدت بكل تأكيد بعض مقتنيات عظيماني من التحف التى يخفيها بشكل غير قانونى، ويقوم ببيعها الواحدة تلو الأخرى للمتاحف ولجامعى التحف حول العالم، حتى الحرب العالمية الثانية، مما ساعد على تضخم ثروته باستمرار. على أية حال، فمن بين كل رجال الشرطة المصريين كان البكباشى فريد هو الشخص الوحيد الذى يمكنه العبور مرة كل أسبوع من البوابة الخارجية فى " يوم محدد " (دونها بالفرنسية) وهو الأربعاء. كانت إيفيت على علم بأن شقة هليوبوليس بالقاهرة، التى قضت فيها ليلة مع خاراميس، كانت ملكاً لليهودى؛ كما استطاعت التعرف على ذوق جامع التحف فى ديكور شقة إلياس خورى أيضاً.

كان سامى يعرف إيفيت أيضاً بطريقة أو بأخرى، فقد كان من أوائل الناس الذين وطأت أقدامهم المنزل الواقع فى مصطفى باشا. لقد مضى زمن طويل لم تعد الرغبة المحمومة التى يشعر به عظيماني تتحمل تلك الليالى التى كان يتسكع فيها فى شارع السبع بنات وفى الكباريات سيئة السمعة، وفى بيوت البغاء التى انتشرت فى قلب حى العطارين. لقد سئم النساء من كل الجنسيات: السوريات، البنانيات، الإثيوبيات، الفرنسيات، الإيطاليات؛ كما سئم من ديدى، دودو، سيسى، لولا. كان يبحث عن امرأة رفيعة، فنانة بطبيعتها، امرأة تكون أكثر إثارة أكثر فتنة. كان يرنو بداخله إلى التخلّى عن فكرة الحب الرخيص. ولكنه توجه، مرة أخرى، إلى " تاجر المتعة " الشهير، بيتروس ثيميستوكليس، الذى بدوره لم يخذله.

استطاع المنزل الكائن بشارع مصطفى باشا، الذى تديره سرّاً إحدى سيدات "الطبقة الراقية" (ذكرها بالفرنسية) - وجعلته متحفاً حقيقياً مملوء ببايئات الهوى - استطاع هذا المنزل أخيراً تحويل خياله إلى واقع، فمنذ زيارته الأولى للمكان تنوق بشرة روكسانى التى تشبه الخوخ، وجسد ذائئى الذى يشبه فى نعومته الزبد الفلاحى. لم تكن هذه الفيلا ذات الأجواء الأرستقراطية ثقل فى روعتها عن أى فيلا أخرى يقطنها صفوة المجتمع بالإسكندرية. كانت الفيلا بالتأكيد تلبى رغباته بشكل أكبر مما يجده فى بيوت بغاء وكباريهات تكتظ بها المدينة. كان ينتابه فى كثير من الأحيان إحساس بأنه بفضل هذا الممر السرى يستطيع التنقل مباشرة بين سهرات الإسكندرية وأحضان الفتيات فى منزل بمصطفى باشا. وكثيراً ما كان يمنى النفس بوحدة من سيدات المجتمع الراقى اللاتى يصعب تورطهن فى مغامرات عاطفية. ويرى إمكانية انحراف إحدى سيدات هذه "الطبقة الراقية" عن الطريق المستقيم للتنفيس عن رغباتها المكبوتة. عاش سامى فى أحلام اليقظة وكان يتخيل قصصاً أسطورية مع تلك المرأة الخفية (بونها بالإنجليزية) التى تملك كل شىء، وكان على استعداد للتنازل عن كل ما يملك حتى يسبر أغوارها ويجعلها ملك يمينه. لم يستطع كل هذا الخيال أن يثنيه عن الربط بين السيدة الموجودة فى شارع مصطفى باشا، وتلك التى رأها تسير بسرعة فى مساء يوم سابق تحت شرفة النادى.

* * * * *

لم يكن كامب شيزار (أو كامب قيصر) بالنسبة لكوستيس سوى حبة من الفول فى خط سير الترام بين الإبراهيمية والشاطبي، وهو خطأ تاريخى، وفقاً لما تقول والدته «حيث لم يعسكر قيصر أبداً بجيوشه فى هذا المكان»؛ وتعد المنطقة بأسرها جزءاً من "عالم الباب الخلفى" الذى عقد النية على البحث عنه من حين إلى آخر؛ وفى تلك العمارة المطلة على شارع إلفسينا، حيث وجد نفسه فجأة بصحبة نيكيتاس، يمكن لأى شخص بالتأكيد أن يقدم على فعل أسوأ ما يمكن أن يفعله.

كان البواب يجلس فى مواجهته يجهز أوراق اللعب؛ وهو رجل مصرى، أسود، شديد الخبث، اسمه عمر. وقد ثبت عينيه المتوهجتين على كوستيس. وفى الخلف يوجد سلم ضيق يختفى عن الأنظار يهبط إلى أعماق البدروم، ومن يدر إلى أين يؤدى هذا السلم.

دفعه نيكيتاس للأمام قائلاً: «هيا إذن، ماذا تنتظر، يا ابن العمة، فلن نقضى الليل بطوله فى مكاننا، سننتظرك أنا وعمر فى المقهى المقابل، لديك متسع من الوقت، اترك ثمار الموز للبواب وترفق بعزيزة، مفهوم، لأن عمر يتذمر». بعد ذلك تبادل الابتسامات مع عمر، المصرى داكن اللون، والتي ربما كانت تعنى له الكثير.

كان كوستيس بحاجة لذلك لدقائق معدودات، ولكن كبرياءه كان يمنعه من تبادل الابتسامات معهما. قدم لعمر ثمار الموز الذى كان قد اشتراه من سوق سيديا حتى يستميله إليه، ثم بدأ نزول السلم. كانت عزيزة بانتظاره فى نهاية السلم، تضىء بشرتها ناصعة البياض ظلمة المكان. لقد تخيل كوستيس أنها امرأة بدينة وممتلئة ككل الخادومات المصريات، لكنها كانت تمتلك جسداً رشيقيًا، هيفاء بالفعل، تعطر صدرها برائحة الليمون. مد كوستيس يده ليلمسها، إلا أنه تراجع مذعوراً. عندئذ وضعت عزيزة يدها على شعر رأسه وداعبته ضاحكة، ثم أخذته من يده وقادته إلى باب الحجرة المفتوح. وهكذا، فكما استطاع بالكاد أن يتبين ملامح جسدها شبه العارى وهو يتمايل، استطاع أيضاً أن يغرق فى أعماق رغبته التى لا تقهر. دفعته إلى داخل الحجرة، وفى تلك اللحظة شعر وكأنه ممثل تم دفعه فجأة إلى خشبة المسرح ليلعب دوراً لم يتسن له أن يحفظه. أصابه الذعر! ماذا يفعل؟ هل يحتضن هذا الجسد الساخن الثائر أم يبتعد عنه ويقفز إلى خارج الحجرة هرباً منها؟ لكنه فضل البقاء، وتحرك ترام الحب فى بدروم عمارة كامب شيزار، وكانت أنفاس عزيزة اللاهثة بمثابة آلة البخار التى تحرك مشاعره حتى بلغ مأربه ووصل إلى المحطة الأخيرة فى نهاية الطريق. بعد ذلك ساد صمت رهيب لم يقطعه سوى دقات قلبه النابض بجنون، فى الوقت الذى كانت عزيزة تداعب شعره.

بعد ذلك بقليل، استقل كوستيس الترام وأخذ يفكر فى كل ما حدث: كامب شيزار، عمارة شارع إلفيسينا، زوجة البواب، وبدا له كل ذلك وكأنها أحلام بل أوهام.

سأله نيكيتاس «هل أعجبتك عزيزة، يا ابن العمّة» (قالها بالفرنسية).

لم يجبه كوستيس، ولكن انتابته رغبة أن يسأله: «متى سنذهب مرة أخرى؟»، إلا أنه شعر بالخجل وأثر السكوت، وسأله فقط إذا كانت النقود قد أوفت بالغرض، فأجابه نيكيتاس ضاحكاً:

«بل هناك فائض أيضاً»، عندئذ بدأ يفكر فيما سيفعلانه بما تبقى من قطع النقود المعدنية التى كانت تصلصل بين يديه، عند هبوطهما من الترام.

«سوف نهبط فى محطة الرمل. هناك ستذوق "العسلية" (قالها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) وستأكل أصابعك بعدها! إنها تشبه حلوى السمسم التى تصنع فى بلادنا»، ثم أخذ يصف له كيف تصنع: «فوق عربة مثبت عليها قدر كبير، يقومون بغلى خليط من الماء مع العسل، يضعونه فى قوالب رفيعة، ثم يقلبون هذا حتى يصبح أقل سمكاً، ثم يقطعونه إلى قطع صغيرة. ألا يفتح شهيتك مثل هذا النوع من الشربات؟ بعد ذلك نذهب لتناول "السودانى" (قالها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) أو البطاطا من البائع».

وصل الترام إلى محطة الرمل، وما زال نيكيتاس يتحدث معه مداعباً النقود المعدنية التى فى يده. كان نيكيتاس يكبر كوستيس بعامين، إلا أنه كان يبدو فى كثير من الأحيان وكأنه قد امتلك حياة أخرى فى شوارع المدينة.

نيكيتاس: «الأفضل لك أن تشرب كوباً من عصير المانجو أو الموز، أو حتى القليل من الفراولة حتى تستطيع أن تستعيد قواك التى فقدتها»، كانت تلك هى نصيحة نيكيتاس، لكن كوستيس كان يشعر بأنه ما زال يحتفظ بقواه. استكمل نيكيتاس حديثه وقد لمت عيناه اللتان يختلط بهما اللون الأزرق باللون الأخضر، من فرط الحماسة:

«إذن، أيها الشاب، لك عندى شىءٌ - أكثر روعة - (قالها بالفرنسية)، ما رأيك فى شراب "العرقسوس" (قالها باللغة العربية وبنونها بحروف يونانية)، إنه شراب به بعض المرارة فى الطعم للرجال الحقيقيين، الذين يعرفون كيف يضاجعون زوجات البوابين. يكفى أن تشاهد كيف يصبونه من القدر الزجاجى الذى يحمله البائع، وكأنها شعيرة مقدسة بمعنى الكلمة».

سأله كوستيس منفعلًا: «مالذى قلته الآن يا ابن الخال؟» (قالها بالفرنسية).

نيكىتاس: «ماذا قلت؟».

- «أنا لا أصدق أن عزيزة هى زوجة عمر».

- «وإذا كانت زوجته، ماذا فى ذلك؟».

- «ألم تفكر أنه كان من الممكن أن يغضب، ويهبط ليزبحنى بسيفه؟».

- «هدئ من روعك. أتخشى بالفعل من ذلك الباب ضخمة الجثة؟».

- «كان يجب أن تخبرنى بذلك» قال ذلك وقد بدا عليه الغضب.

- «لو كنت قد أخبرتك فلم تكن لتقترب من كامب شيزار أو حتى الترام. أتعرف

لماذا؟ لأنك جبان!».

- «أنا لست جبانًا!».

- «بل أنت جبان! وإلا فلماذا لم يواجه الشباب الآخرون الذين يضاجعون عزيزة

هذه المشكلة».

- «لا، لست جبانًا، لكنى لن أنسى لك هذا المقلب الذى فعلته بى اليوم، يا ابن

الخال أعدك بذلك» (قال ذلك بالفرنسية).

- «أيها النذل الكبير، نحن من صنعنا منك رجلاً، ثم تتعدى حدودك. إذن أسحب

عرضى لشرب العرقسوس. هيا نذهب لناكل أرزًا باللبن، أو لناكل "الهريسة"

(قالها باللغة العربية وبنونها بحروف يونانية) بالقشدة، رغم أنك لا تستحق كل ذلك!».

- «لا تغضبني الآن يا نيكيتاس، وإلا سينقلب الأمر إلى مشاجرة».

- «تمهل، يا صعلوك الحى اليونانى، لقد تقابلنا منذ قليل، وتريدنا أن نبدأ فى الشجار؟».

الواقع أن كوستيس كان قد افتقد نيكيتاس طوال فصل الشتاء. كما افتقد عمارة باب سيدرا، والخالة ماريا بمأكولاتها الشامية، وقدر الطعام الذى كان يقفز متراقصاً من شدة النيران التى أسفلها، والطائرة المصنوعة من الورق أو" الطيارة" (قالها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) كما كان الأطفال يطلقون عليها، التى كانت تطير من فوق أسطح المنازل، كما افتقد أيضاً " للصوص" أو تلك الحمام المربة التى يملكها نيكيتاس والتى دربها على أن تجمع له الحمام من العمارات الأخرى، وقبل كل ذلك فقد اشتاق لركوب الدراجة والترام. كان نيكيتاس على حق، فما كان عليه أن يتعدى حدوده. وعندئذ صاح نيكيتاس متظاهراً بالفرح:

«كوستيس!».

- «ماذا هنالك؟».

- «إنه عمر، اركض، إنه يبحث عنك وسيقه فى يده!».

- «يا له من مزاح سخيف»، عندئذ استدار كوستيس وبدأ فى مطاردة نيكيتاس، ولكن كيف يلحق به. وهل كان من الممكن الإمساك بهذا "الجنى الأشقر؟"، كان وقع أقدامهما لا يكاد يختلف عن صوت قرقرة الخيول وهى تجرى على الطريق، وكانا يصطدمان أثناء عدوهما بالرجال والنساء المتائقين الذين كانوا يرددون فى تزمز: "يا لكم من أطفال أشقياء".

لم يدرك كوستيس كيف وجد نفسه بعد كل ذلك فى هذه المنطقة الفقيرة. فمنذ لحظة مضت كانا يقطعان شارع رشيد، لكنهما استمرا فى الجرى عبر بعض الأزقة الجانبية التى كانت بعيدة كل البعد عن التحضر الأوروبى. ولم يظهر بها سوى أناس يرتدون الجلباب والطربوش، والحمالين وعربات الكارو التى تجرها الحمير، فقد أصبح كل ما يراه مصرياً خالصاً.

صاح كوستيس بصوت لاهث: «توقف أرجوك».

- «لن أتوقف حتى نخرج إلى الشارع العمومي» فماذا يفعل كوستيس؟ لقد تبعه خوفاً من أن يفقده داخل هذه الأزقة الضيقة وعندئذ فالويل له.

فى النهاية وصلا إلى الشارع العمومي - شارع العطارين - عندئذ فقط أيقن كوستيس لماذا كانت أمه تحذره دائماً من هذه المناطق.

لقد بدا له الطريق وكأنه نهر جارف من البشر والحيوانات والنظرات التى كانت تلاحقه وتهدد بالانقراض عليهما أثناء سيرهما؛ وفى الجهة المقابلة لهما كان هناك ذلك المسجد المهيب، بمنذته ذات الطراز العربى الرصين، التى تحل من أعلاها بركات الله على كل هذا الزحام. أشار نيكيتاس لكوستيس إلى "عربية" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) حنطور كانت تسرع على الطريق خاوية من الركاب، وقد تعلق بها خلصة من الخلف طفلان، وعندئذ بادر بعض المشاه بالتنبيه على العربجى. وأخذوا ينادونه «كرباج ورا يا أسطى» (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية).

«انظر وشاهد ما سيحدث الآن» قال ذلك نيكيتاس ثم شارك بصوته ليصيح مع الآخرين.

بتعالى الأصوات، استدار العربجى وضرب الصبيان "بالكرباج" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) فأصاب أحدهما فى جبهته وأحدث به جرحاً مما جعل الدم يتدفق بغزارة. عندئذ قفز الصبيان من العربة وهما فى زعر شديد، وأكمل العربجى طريقه وهو يطلق صفيرا بقمه دون اهتمام، وكأن شيئاً لم يحدث.

نيكيتاس: «آآخ! ليتنى كنت فى مكان هذا الصبى الصغير عندئذ كنت سأقتنص الكرباج من يد هذا العربجى الحقىر وألقيته به تحت الحنطور» قال ذلك وهو فى شدة الغضب، حيث انتفضت عروقه، وبدا وكأنه اعتبر أن ما حدث أمر شخصى. وهنا نظر نيكيتاس إلى الشمس ثم قال: «لقد انتصف النهار. ما رأيك يا ابن العمه، هل نعود إلى باب سيدرا؟».

لم يستطع كوستيس أن يرفض هذا الاقتراح. فقد أصابه الإعياء من كل هذا الجرى، وفوق كل ذلك فقد أحس بالجوع والعطش. نعم، فقد حان الوقت للعودة إلى منزل الخال ثاناسيس. لكن ما رآه كوستيس على الجانب الآخر من الرصيف جعله يغير من رأيه.

- «آنسة جابى!» قال ذلك مرتعباً.

- «ومن تكون؟»

- «الآنسة جابى، مريبتنا، تلك التى ترتدى زياً محتشماً وقبعة.....»

- «وما الذى تفعله هذه المربية فى مثل هذا المكان، وبهذا الزى المحتشم؟»

- «وما يدرينى!»

- «هل تريد أن نتبعها؟» هكذا سألته نيكيتاس ولكنه لم يترك الفرصة لكوستيس ليحييه، فقد أسرع خلفها.

بدا وكأن المربية قد أدركت أن هناك من يتبعها فقد أسرعت فى خطواتها واضطرتها للركض خلفها. «ها نحن نجرى من جديد!» هكذا حدثت كوستيس نفسه، فى الوقت الذى شاهداها تدخل شارع عبد المنعم.

توقف كوستيس ونيكيتاس عند ناصية الشارع قليلاً. لأنهما أصبحا على مقربة منها بدرجة تمكنها من رؤيتهما.

قال نيكيتاس هامساً: «حسناً، هل تقومون بإرسال المربية لشراء الفحم؟»

- «لماذا تقول ذلك؟»

- «هذا الشارع ملىء ببيع الفحم، انظر.»

بالفعل، كان سواد الفحم يغطى المحلات والناس معاً. فى منتصف الطريق، كان الحمالون يحملون أجولة الفحم على ظهورهم وهم يترنحون من ثقل ما يحملون. وكانت

الآنسة جابى تبدو فى زيتها الأبيض وكأنها نموذج مرسوم بالطباشير فوق سبورة سوداء. لوهله ظنوا أنهم قد فقدوا أثرها، ولكنها ببساطة كانت قد دخلت إحدى العمارات القديمة. ولم يتردد نيكيتاس فى تتبعها وعندما وجد البواب الذى كان يحمل مسبحته الضخمة، تذكر قطع النقود المعدنية التى كانت تصلصل فى جيبه، وكانت، على الرغم من قلتها، كافية لتحل عقدة لسان البواب. تبادلوا بعض الكلمات باللغة العربية ثم عاد نيكيتاس بعد ذلك إلى كوستيس وقال :

«هيا "يا ابن العمّة" (قالها بالفرنسية)، لنذهب من هنا الآن، فقد عرفنا ما أردنا معرفته».

- «هيا إذن، أخبرنى بما ذكره لك البواب».

- «هذه المربية تأتى إلى هنا بشكل مستمر لتزور إحدى السيدات التى تعيش مع طفلها».

- «أهذا كل ما فى الأمر؟».

- «نعم، وماذا هناك أيضاً؟».

- «ألم يطلعك على علاقتها بهذه السيدة، ما اسمها، ما عملها؟».

- «لكى نعلم كل هذا، كان لابد أن يكون معنا المزيد من النقود» أجابه نيكيتاس بذلك ثم أفرغ جيوبه الخاوية من البنطلون، وأضاف: «يا ابن العم" (قالها بالفرنسية)، فى مصر كل سر له ثمنه، ألم تتعلم ذلك بعد؟».

ابتعد كوستيس عن شارع عبد المنعم وهو فى شدة الغيظ، فقد كان على استعداد فى تلك اللحظة أن يعطى ذهب العالم كله لمن يطلع على سر الآنسة جابى.

أضاف نيكيتاس قائلاً: «ولكن، لكى تأتى هذه السيدة إلى هذا المكان، فلن يكون الأمر ساراً ولا بد أنه أمر خطير».

- «نعم، يبدو أن لديك حقاً فى ذلك».

* * * * *

أخذ أندونيس خاراميس يكرر: «لا يوجد عمل مبهج، ولكن توجد أماكن مبهجة للعمل».

لذلك فقد كان حريصاً على أن يكون المصنع الجديد، الذى شيده فى محرم بك على ترعة المحمودية بجوار المخازن القديمة والثكنات العسكرية، عبارة عن تحفة فنية بالفعل.

يتكون المصنع الكبير من طابقين، اهتم فيه بشكل خاص بالواجهة المطلة على الترعة، طالباً من المهندس المعماري أن يلتزم تماماً بقواعد البناء الكلاسيكى الحديث. كانت صفوف النوافذ المتوازية تسمح للضوء بالانتشار فى المساحات الداخلية، كما أعطت أشكال النبات المرسومة على الزجاج الإحساس - من بعيد - بالفن العربى، فى حين كانت اللمسات الفنية البسيطة بالشرقة الموجودة بمكتبه، التى كان أندونيس يتطلع منها إلى مراكب الصيد أثناء إبحارها فى الترعة. كانت تلك الشرقة هى العنصر الوحيد الذى يعبر عن الفن الحر. وكانت الأعمدة شاهقة الارتفاع الموجودة فى أركان المكان تبدو كالأبراج الضخمة، التى تمكن أى شخص أن يرى فى أعلاها من بعيد بوضوح الحرفين (أ.خ) - اختصاراً لاسم أندونيس خاراميس. تمت حماية المدخل الرئيسى فى جانب المبنى ببناء أسطوانى يخفى الباب الزجاجى الشفاف من أعين الفضوليين. وفى الجانب الخلفى من المصنع كانت الأعمال قد بدأت بالفعل فى بناء الجناح الجديد، وهو ما كان سيجعل مجموعة المباني كلها تأخذ شكل حرف T. فى هذا المكان سيتم وضع ماكينات التصنيع الآلى. كل هذا كان محاطاً بأشجار النخيل العالية وأشجار الخروب الضخمة التى كانت ارتفاعاتها تتجاوز العشرة أمتار؛ أما الأسوار ذات الطراز الفرسالى التى كانت تحيط بالمنطقة كلها، فتنتهى ببوابة حديدية مزدوجة، كان أندونيس خاراميس قد فوجئ، فى صباح يوم الجمعة الموافق السادس عشر من شهر أبريل، بوجود شعار التاج الملكى مدوناً عليه عبارة: "المورد الرسمى لسمو ملك اليونان".

كان من المنتظر أن يصل فينيزيلوس بين يوم وآخر. أصيب الجميع فى مصر بالتوتر، وفى اليوم السابق للزيارة، قامت مجموعة من المؤيدين للملك باعتداءات متفرقة على مقاهى مؤيدى فينيزيلوس، التى كانت ترفع الأعلام انتظاراً لوصول رئيس الوزراء

السابق. كانت الجالية اليونانية على أهبة الاستعداد لاستقبال زعيم الأمة، وبدا واضحاً ازدياد نشاط المعارضين. فقد وقعت العديد من المشاجرات فى شوارع العطارين والإبراهيمية والميناء القديمة، وأصبح أبناء الدم الواحد فى بوتقة تغلى، حيث انتقلت عدوى الخلاف بينهم إلى مصر، وبدا أن اليونانيين المصريين قد فقدوا لغة العقل تحت وطأة النزاعات السياسية. وعلى الرغم من هذا الجو المشحون بالتعصب، لم يستطع أندونيس أن يستوعب السبب الذى دفع هؤلاء الناس لتعليق الشعار الملكى فوق باب مصنعه، حيث كان بالفعل هو المورد الخاص بالملك الدموى يورغيوس، لكنه منذ اللحظة التى تولى فيها قنسطنطينوس أصبحت جودة السجائر التى ينتجها توضح مشاعره المحبة لفينيزيلوس.

«لابد أنهم كلاب الملكية» هكذا دار بخلد أندونيس «لقد خدعوكم حتى ظننتم أن باستطاعتكم نقل أفكاركم إلى هنا!». يقفزات سريعة وصل أندونيس إلى المدخل حتى بلغ قاعة الاستقبال بالمصنع، ورفع نظره لأعلى حتى وصل بنظره بانبهار إلى عنان المبنى الذى كان يضاهاى فى ارتفاعه أشجار الخروب العملاقة، «لقد وصلت عالياً، يا أندونيس، لا تدع أحد يهوى بك إلى القاع مرة أخرى»، هكذا حدثته نفسه فى ذلك الصباح. عندئذ توجه بثقة نحو السلم الرخامى الذى يقود إلى الطابق العلوى، فى ذلك الحين، انقسم كل ما كان فى طريقه فى تلك اللحظة إلى صفين، صعد السلم مسرعاً حتى إن خطواته اختلطت ولم يعد لها صدى صوت يميزها. وصل إلى خارج الباب الكبير والمقوس لمكتبه، وقبل أن يفتح الباب استدار ونادى غاضباً:

«بابافينجوس!».

أغلق أندونيس الباب خلفه محدثاً صوتاً شديداً، ولم يطل انتظاره، فقد هروا إلى المكتب أناستاسيوس بابافينجوس- رئيس العمال- وهو رجل ضخم الجثة أو كما يطلقون عليه فى المصنع "العربة المتحركة". فى كل مرة يدخل فيها بابافينجوس مكتب رئيسه كان يعبر، بقامته العالية، مساحة الخمسة عشر متراً التى كانت تفصل بينه وبين مكتب أندونيس مسرعاً، مما أعطى انطباعاً عنه بأنه لا يسير على قدميه، ولكن

فوق عجلات متحركة. ولم ير أندونيس من قبل وجنتى إنسان ترتجف من الخوف بهذا الشكل، ولذلك فقد كان يحاول جاهداً التماسك حتى لا ينفجر من الضحك، ولم ينتبه بابافينجوس لذلك حيث كان أندونيس محافظاً على تلك النظرة الصارمة.

- «بابافينجوس، ابحث عن هؤلاء السادة الذين قاموا بتثبيت شعار التاج الملكى على البوابة الخارجية وأرسلهم إلى منازلهم فى الحال» (قالها بالفرنسية).

أخرج رئيس العمال منديلاً وأخذ يجفف عرقه، ثم قال:

«سيد خاراميس، لو سمحت لى.....».

- «بابافينجوس، لن أسمع لك بمناقشتى، قلت لك أن ترسلهم إلى منازلهم. انتهى الأمر» (قالها بالفرنسية).

بابافينجوس: «حسنًا، سيد خاراميس، مفهوم» (قالها بالفرنسية) سيد خاراميس.

ثم بدأ كالعتاد يسير للخلف دون أن يستدير، حتى يتأكد أن مديره لم يعد بحاجة إليه، وبعدها يستدير ويتجه للخروج. ومن المؤكد أن رئيس العمال قد تدرب كثيراً على التحرك بخفة فى مكان مثل هذا يعج بكل تلك المعوقات من سجاد ومناضد وأرائك، فقد كان يتحرك إلى الخلف بظهره دون أن يتعثّر ويسقط على الأرض؛ وجال بخاطر أندونيس عما سيحدث لو أنه قام يوماً ما دون سابق إنذار بتغيير ترتيب الأثاث فى حجرة مكتبه، الذى يغطى بالكاد مساحة المكتب التى تتعدى المائتى متر مربع، عندئذ سيصبح بابافينجوس فى موقف صعب.

يعد وجود رئيس العمال فى مكتب خاراميس فى ذلك الصباح بمثابة انتهاك لبروتوكول ثابت منذ أعوام، فالكل على علم بأنهم ممنوعون منعاً باتاً من إزعاج رب العمل الكبير فى النصف ساعة الأولى من الصباح. ولأنهم كانوا يشاهدون، جولياً، سكرتيرته الخاصة، تعد له القهوة وتقدمها على الصينية، فقد كانوا يفترضون أن رجل الصناعة غريب الأطوار كانت لديه الرغبة فى الاستمتاع بمفرده بمذاق القهوة، كعادته، ولكن يبدو أن الأمر كان أكثر من مجرد فنجان من القهوة أو سيجارة. حيث كان

يخصص هذا الوقت لاسترجاع شريط حياته بشكل سريع، وبخاصة في تلك اللحظة التي كان يفتح فيها علبة السجائر الفضية، التي تحتوى على أفضل أنواع السجائر، حيث كانت تنطلق من العلبة نفسها ذكريات حياته كلها. ورغم أنه كان يعمل داخل هذا المكتب الكبير الأنيق، فإن ذلك لم يجعله ينسى أنه كان يعيش في بداياته الأولى في كنف أب لا يستطيع أن يتحمل شظف العيش كونه مجرد عامل بسيط في مصنع للدخان، مما دفع زوجته وابنه للعمل بدلاً منه. أخذ أندونيس يتذكر نفسه عندما كان يعمل طوال أيام الأسبوع في واحد من أسوأ مخازن التبغ في مدينة كافالا باليونان، في ظل نظام سبى للتهوية وإضاءة ضعيفة. في مثل هذه الظروف، كان من المستحيل أن تتحمل أمه المريضة مثل تلك الحياة. وعندما ماتت، كان عمره يقترب من العشر سنوات، إلا أن هذا لم يمنع أباه من إرساله إلى صهره قاسيليس، وهو أحد صانعي الدخان في إسطنبول، ليعمل لديه على أن يقوم الصبي الصغير بإرسال كل ما يكسبه من مال إلى والده في كافالا. عمل الاثنان لمدة ثلاث سنوات في مصنع الأخوان سوسيزيس، في شارع إسكى بالوك رقم ٢٨ في مدينة جالاتا. وفي عام ١٨٧٤ عندما قامت شركة " ريجى أوتومان للدخان" ببيع مصنع إسطنبول وجد أندونيس الصغير نفسه في موقف حرج، حيث كان أبوه يهدد بإعادته مرة أخرى إلى مدينة كافالا، وبخاصة بعدما توقف الفتى عن إرسال أية أموال إليه من إسطنبول! عندئذ ترجى العم قاسيليس يوانيس سوسيزيس، الذى كان يتردد على القاهرة لتأسيس مصنع جديد للتبغ، لكى يصطحب معه ابن أخيه، وحتى يتمكن من إقناعه، فقد كذب عليه وأخبره أن الصبى قد بلغ سن الثامنة عشر من عمره.

لم يدرك أندونيس أبداً ما الذى جعله يرتبط بهذه المدينة ذات الميناءين. على أية حال، فقد قرر منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها قدماه مدينة الإسكندرية أن لا يهتم باتباع ما تم رسمه له من خطوات. لقد أصبح " سبرسجى " (هكذا ذكرها باللغة العربية وبونها بحروف يونانية) - يقصد جامعاً لأعقاب السجائر - وكان أحد الصبية في نفس مرحلته العمرية قد أشار عليه بجمع التبغ من أعقاب السجائر، ثم بيعه أو استخدامه في إعادة تصنيع نوع من السجائر رخيصة الثمن لدخنى السجائر، ولم تكن مهمة سهلة.

كان أندونيس وحده يعلم كم من الساعات تجوّل فيها بين المقاهى والمطاعم، شتاءً وصيفاً، مترقباً الحصول على أصغر عقب سجائر قد يجده، وهو ما كان معروفاً لكل الناس مما جعلهم يتفننون فى تعذيبه بكل الطرق: فكان هناك من يطأ بقدمه على يده فى اللحظة التى كان يمدّها لالتقاط أعقاب السجائر، وقد حدث ذلك مرتين أو ثلاث مرات. لكنه لم يستسلم واستمر فى هذا العمل المهين. ولم يتردد فى أن يكتب لعمه قاسيليس، الذى كان ينتظر منه خطاباً لكى يطمئن عليه، ويخبره بأنه قد وجد عملاً فى محل لبّيع السجائر فى الإسكندرية، وجاء هذا الخطاب على النحو التالى: «عمى الحبيب قاسيليس، الحصول على النقود هنا يتوقف على كمية السجائر التى تقوم بإعدادها، فبعض العمال يقومون بإعداد ألفى سيجارة فى اليوم، وأتمنى أن أصل أنا أيضاً فى القريب لهذا الرقم».

لم ينس أندونيس كيف كان العالم قاسياً على صبى صغير يحيا دون أسرته، كما لم ينس أيضاً ذلك الحب الذى عرفه فى ظل أسرة بابيس يورغاس التى تنحدر من جزيرة سيمى باليونان خلال أحداث عام ١٨٨٢، عندما احترق أكثر من نصف مدينة الإسكندرية وسارع الأوروبيون بركوب البواخر الأوربية باحثين عن النجاة. وحتى الآن ما زال يتساءل ماذا كان سيحدث له لو لم يأويه السيد يورغاس وزوجته فى منزلهما المتواضع "بشارع" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) القيامة. وظل فى كنفهما حتى هدأت حدة هوجة عرابى الوطنية ولم يخرج من مكانه، إلى أن دخل الإنجليز الإسكندرية وأحكموا سيطرتهم عليها، ثم احتلوا القاهرة بعد ذلك وأصبحت مصر مستعمرة إنجليزية. أقام الإنجليز الغزاة العديد من المحاكم العسكرية التى كانوا يحاكمون فيها المصريين بمحاكمات عاجلة، ثم يشرعون فى تنفيذ حكم الإعدام عليهم فى ميدان القناصل. ظل أندونيس مختبئاً لمدة شهرين فى جحر الفئران فى شارع القيامة، لم يتناول فيهما سوى الحساء والخبز. ثم قررت تلك الأسرة التى تنحدر من جزيرة سيمى أن تبقى معهم بعد انفراج الأزمة، وأصبح أندونيس بمثابة الأخ الأكبر لابنهم الوحيد. فى ذلك الحين، كان يورغوس فى الخامسة عشر من عمره، يذهب كل صباح إلى مدرسة توسيتسيايا، ويستذكر دروسه كل مساء تحت ضوء لمبة الجاز.

وجد يورغوس نفسه وقد أصبح تلميذاً ومعلماً فى نفس الوقت: تلميذاً يعلم نفسه، ومعلماً يعلم أندونيس. حتى أشار يورغوس على أندونيس بأن يتم قيده فى المدارس الليلية للغات الأجنبية. وهكذا فقد قدم يورغاس ووالداه الكثير من أجل جامع السبارس الذى ينحدر من كاثالو. وإذا كان تقدير خاراميس لأسرة يورغاس قد استمر حتى الآن، وهو أمر لا شك فيه، فقد تعرض هذا التقدير لأقصى اختبار.

فى أقل من ساعة عاد بابافينجوس مسرعاً إلى مكتب رئيسه، وكانت وجنتاه ترتجفان فى هذه المرة من نشوة الانتصار. فقد حدد بشكل رسمى "القائمة السوداء" التى تضم أنصار الملكية والذين تأمروا بثورة "التاج الملكى"، كما وصفها بابافينجوس، وقال: «لقد قمت بنفسى بتقرير مصير الخمسة الأوائل فى القائمة، أما السادس فقد ارتأيت أنه من الأفضل أن تقرر مصيره بنفسك».

مر أندونيس بعينه فوق الأسماء المكتوبة بحروف صغيرة ثم قام بتركيز نظره على الاسم الذى كان مكتوباً بحروف كبيرة فى أسفل الصفحة، وهو اسم "يورغوس يورغاس".

- «هذا ما كان ينقصنا، يا بابافينجوس، أن تتصرف بنفسك فى هذا الأمر» رد ذلك أندونيس وهو فى شدة انفعاله، ثم أكمل حديثه الغاضب قائلاً: «إذن لدينا: يورغوس خاريتوس "نائب مدير المبيعات"، نيكوس كسيناكيس "مدير المخازن"، ستيفانوس مانوس "الحارس الليلية"، ثم العاملان اللذان قاما بتثبيت شعار التاج الملكى، ويتبقى يورغيوس يورغاس "المحاسب". نعم..... قم بإسداء خدمة لى. يا سيد بابافينجوس».

بابافينجوس: «أنا رهن إشارتك، سيد خاراميس»

- «أبلغ يورغوس بالحضور إلى هنا بسرعة، على أن يكون بمفرده، وأريدك أن تستدير ككل البشر أثناء خروجك من مكتبى».

- «لكن سيد خاراميس، أنت تعرف، فأنا طبقاً لمنصبى.....».

- «أعرف، أعرف، حسناً، نفذ ما أمرتك به، ومن ناحيتى فلن أوجه بصرى تجاهك. هيا، أيها الرجل الطيب».

لم تكن طريقة دخول يورغوس إلى مكتب أندونيس تخضع لأية مراسم صارمة، على النقيض من طريقة دخول بابافينجوس؛ فقد طرق يورغوس الباب ببساطة ثم دخل مباشرة. لم يحرص على ارتداء الملابس الرسمية، حتى إنه لم يخلع الأكمام السوداء التي يرتديها دائماً لحماية أكمام قميصه، في حين كانت رابطة عنقه تتدلى حول عنقه دون أن يقوم بربطها. لم يكن أندونيس يقبل تلك الهيئة من أى شخص آخر، وأخذ يسأل نفسه إذا ما كان المحاسب قد بدا على هذا النحو ليظهر له مدى انهماكه في العمل أم أنه أراد أن يخبره بشكل غير مباشر أنه لا يملك الكثير من الوقت من أجله.

يورغوس: «هل أرسلت في طلبى، يا أندونيس؟» قال ذلك، ثم جلس فى أحد صالونى المكتب، لم يجلس يورغوس فى الصالون الذى يتميز بطرازه العربى، ولكنه جلس فى الصالون الآخر المريح الذى يحتوى على السجاد الفرنسى، وهو الصالون الموجود على يسار الغرفة. وفى الحال، قام بخلع نظارته المستديرة ومسحها بمنديله، ثم فرك عينيه وارتدى نظارته مرة أخرى، موجهاً بصره نحو خاراميس.

أندونيس: «يورغوس، يمكنك تدخين سيجارة» قال ذلك مديره وهو جالس فى مكانه.

- «لا تحاول إغرائى، يا أندونيس، تعرف أننى أحاول الإقلاع عن التدخين، فربما أتخلص بذلك من آلام معدتى».

- «لم تكن آلام معدتك بسبب التدخين، يا يورغاس، أشعل سيجارة إذن».

- «حسناً، طالما تقول ذلك، سأشعل سيجارة لتتذكر بها الأيام الخوالى. أتعرف، فى كل مرة أنظر إلى هذه العلب ويدخلها هذا التبغ غير المعبأ، وعليها رمز محمد على، أشعر وكأننى أراك أمامى مرة أخرى وعمرى ثمانية عشر عاماً»

- «يورغوس، لقد مرت سنوات عديدة منذ ذلك الحين، لماذا تريد أن تتذكرها؟».

- «لا ينبغي على الإنسان أن ينسى من أين بدأ، يا أندونيس».

- «صحيح، كما لا ينبغي على الإنسان أن ينسى فى كل لحظة أين أصبح».

نظر يورغاس إلى أندونيس نظرة قلق فى حين رأى أندونيس فى تلك النظرة وكأن
والدة يورغوس هى التى تنظر إليه.

- «هل كان الخطأ الذى ارتكبته قادحاً إلى هذه الدرجة؟».

- «بدرجة لا تتخيلها».

- «ظننت أنه لن يزعجك ذلك».

- «كيف وصلت إلى هذا الاستنتاج؟».

- «لم أعهدك مهتماً أبداً بالسياسة من قبل».

- «وهذا لا يعنى أنه ليس من حقى أن تكون لى وجهات نظر شخصية».

- «هل هناك شىء آخر!».

- «حسناً؟».

- «بصدق، لم أكن أعرف أن الأمر سيزعجك إلى هذا الحد!».

- «فلنترك أمر إذا ما كان يزعجنى أم لا جانباً، هذا الفعل المرفوض كان من
الممكن أن يعرضنى للمخاطر».

- «أى نوع من المخاطر؟».

- «لا أدرى، أولاً المخاطر السياسية، ألا ترى ماذا يحدث فى الإسكندرية كلها، ثم
المخاطر التجارية، إذا كانت لديك الرغبة فى المعرفة. لا تنس أننا قد توقفنا منذ
زمن بعيد عن أن نكون الموردين الرسميين للملك. ولا تنس أيضاً أن المورد
الرسمى الحالى للملك هو أحد منافسينا فى المدينة».

- «لديك حق فى ذلك، فقد كان تصرفاً أحمقاً من جانبى» قال ذلك يورغوس وقد
تلعنم فى حديثه، ثم أطفأ سيجارته فى منفضة السجائر، حيث بدأ يشعر بالفعل
بتقلص فى معدته.

- «حسناً؟».

- «أندونيس، لا تلقى بى فى الشارع، أرجوك. إذا كنت تذكر.....».

- «توقف، من فضلك، كيف وانتك الجراءة أن تفكر فى حدوث مثل هذا الأمر؟».

- «إذن، أخبرنى كيف يمكننى إصلاح ما فعلت، سأفعل أى شىء تطلبه منى. هل تريد منى التوقيع على اعتراف. سأفعل أى شىء تقوله». وكان أثناء حديثه يخلع نظارته ثم يضعها باستمرار ويلا داع.

كان يورغوس فى حالة سيئة، أما أندونيس، الذى لم يستطع أن يراه فى تلك الحالة، فقد نهض من مكانه، ثم توجه نحو النافذة الموجودة على يمينه. كادت السيارة التى كان قد أشعلها منذ لحظات أن تحترق فى يده. توقف برهة وقد أدار ظهره ليورغاس وأخذ ينظر للمراكب التى تسير فى ترعة المحمودية. ثم بعد ذلك، وبدون أن يستدير نحو يورغوس، قال:

- «يورغوس، كلانا يعرف جيداً ماذا قدم الواحد منا للآخر. ولا أخفى عليك، فأمام ما حدث اليوم أشعر وكأنا قد أصبحنا متساويين. لا أستطيع أن أبدى أى نوع من التعاطف معك بعد الآن، ويمكنك أن تعتبر هذا تحذيراً».

- «إذن، ماذا تريدنى أن افعل؟ أخبرنى، أرجوك، بالتأكيد هناك شىء يمكننى القيام به لإصلاح خطئى».

- «أعتقد أنها ربما تكون فكرة جيدة لو أنك تركت الإسكندرية لبعض الوقت. يمكنك، مثلاً أن ترعى مخازننا فى المنصورة وطنطا. ما رأيك؟» عرض خاراميس فكرته وجلس بجواره فى الصالون الأوروبى.

- «تريد أن تنفيىنى إذن، ليكن ذلك، فقد أخطأت ولا بد أن أدفع الثمن. ليست لدى أدنى شكوى من ذلك».

- «يورغوس، يا صديقي، أنا لا أنفك بل أحملك. فأنا أفعل بالضبط مثلما فعل أهلك معي منذ ثلاثين عاماً مضت. إذا كان وصول فينيزيلوس المتوقع قد أشعل النفوس إلى هذا الحد فكن واثقاً من أن وصوله لمصر سيؤدي إلى حدوث اضطرابات شديدة، ولا أريد أن أراك تواجه مثل هذه العاصفة».

- «لكن ألم تفكر في زوجتي، وابنتي....» ثم بدأ يخلع نظارته ويضعها مرة أخرى بشكل مستمر وبطريقة أثارت غيظ أندونيس.

- «يبدو أنه ينبغي علي أن أتحدث معك بطريقة أخرى، حسناً، استمع إلى ما سأقوله لك بحرص شديد. تعرف، بالطبع، ثاناسيس، ابن عم زوجتي....».

- «إنه معروف ولكنه ليس مميزاً» هكذا أجابه يورغوس بطريقة ساخرة.

- «حذرني ثاناسيس، المعروف وليس المميز، منذ عدة أيام من أن أنصار ثينيزيلوس يعدون لطرد أنصار الملك بحجة زيارة فينيزيلوس نفسه لمصر. إن ذكائك أنت وميخيليس يثير الاشمئزاز. فقد فكر ميخيليس في الهروب إلى القاهرة لبعض الوقت. وأنت، ماذا تنوي أن تفعل؟»

ترقرقت الدموع في عيني يورغوس، لكن التجاعيد التي رسمها الزمن حول عينيه منعتها من الانسياب على وجنتيه لأنها لو انسابت لرسمت على وجهه المجدد خطين واضحين. عندئذ قال أندونيس:

«اللعنة عليكم وعلى السياسة في آن واحد. أيها الفتى، ما الذي يجعلكم تتناحرون هكذا كالكلاب؟» قال ذلك بتأثر شديد، ثم عانق يورغوس عناقاً طويلاً.

أحس يورغوس بالخجل من انفعال أندونيس، ومسح عينيه بظهر كفه، ثم أسرع بمغادرة مكتب مديره تاركاً نظارته على المنضدة الصغيرة بالصالون. غاص أندونيس في المقعد الجلدي وقد شعر بالارتياح، ثم أخذ يجول ببصره في المكان. بداية من المكان الذي يجلس فيه حتى الباب الخشبي الضخم ذي النقوش البارزة الذي بدأ يتفحصه

بصعوبة. فمن هذا المكتب الفسيح، الذى قرر أن يكون مقراً له لإدارة مصنعه الكبير، كان يستطيع أن يتأمل جزءاً كبيراً من سماء الإسكندرية مقسمة بين النافذتين الواسعتين بمكتبه. وقد غمر ضوء النهار كل أرجاء الحجرة، موضحاً تفاصيل الديكور الداخلى، بأنأ الحياة فى ألوان السجاد الفارسى، ومبيناً العديد من التفاصيل الدقيقة فى اللوحات الأربع الثمينة المعلقة، والتى كانت تعبر عن إلهام رسامين عظام؛ كان الضوء المبهر أيضاً يحجب عن عيونه ذلك النقش المقوس الموجود أعلى الصالون من ماركة لوى كينز(أو لويس الخامس)، فى حين كان ينعكس فوق شريط الصدف الذى يزين الأريكة بالصالون العربى الموجود فى زاوية الحجرة. كما استطاعت بعض أشعة الشمس أن تتسلل حتى السقف، وتبعث البريق فى قطع الكريستال اللامتناهية فى الثريا المعلقة به، فى حين كان هناك خيط مضىء ينساب على المكتب الضخم، جاعلاً حبات تلك المسبحة الكهربائية الكبيرة التى أهداها له إلياس، تتلألأ بضوء يضاهاى ضوء تلك الأباليك المعلقة على الجدران. كان يمكن للستائر الثقيلة والأخرى الخفيفة أن توقف انتشار الضوء، إلا أن أندونيس كان مرحباً بتلك الانعكاسات الصادرة عن ضوء الشمس على أسطح الأثاث الموجود بحجرة مكتبه.

وكانت المطربة المشهورة ساره برنار قد أحست بنفس تلك الانطباعات منذ عدة سنوات عندما زارت المصنع الجديد لكى تستمتع عن قرب بذلك المكان «الذى ينشر فى العالم كله متعة التدخين». ويبدو أن المطربة الكبيرة لم تكن ترغب فى مغادرة مكتبه فى ذلك اليوم، فقد أمطرته بوابل من الأسئلة، وعندما عادت إلى الفندق، دعت أحد المصورين وجعلته يلتقط لها صورة تظهر ما بداخلها من متعة حسية تعادل إحساسها عندما تقوم بتدخين سجارة من سجائر ماركة خاراميس. ومنذ ذلك الوقت، مازال أندونيس يحتفظ لنفسه بتلك الصورة فى أول درج بمكتبه داخل حافظة جلدية خاصة. وكان ينظر أحياناً إليها، ثم يقرأ مرة أخرى ما دون عليها من إهداء مكتوب (باللغة الفرنسية)، والذى جاء فيه :

"إلى السيد خاراميس، تذكاري لزيارتي للمصنع ولتقديرى الخالص بهذه الهدية الملكية من السجائر".

ساره برنار

كانت لدى أندونيس الرغبة فى مشاركة إيفيت تلك اللحظات المؤثرة، حتى يشاهد فى عينيها ذلك الإعجاب البرىء بإنجازته وينوقه الرفيع الذى زين به مكان عمله من الداخل، وكذلك، وبشكل خاص، بقدرته على التعامل مع الناس ومع المواقف.

* * * * *

"لم نأت إلى هنا فقط بسبب الحرب أو التجارة أو حتى الحب، ولكن أيضاً بسبب السياسة"، هذا هو ما جال بخاطر أندونيس خاراميس فى اليوم التاسع عشر من شهر أبريل لعام ١٩١٥، عندما شاهد إيفثيريوس فينيزيلوس فى سيارة مكشوفة متجهة إلى ناحية شارع الجمرق القديم، حيث يوجد النادى اليونانى، مصحوباً طوال الطريق بهتافات حشد غفير من اليونانيين.

فى صباح ذلك اليوم، الإثنين، الذى كان أندونيس يفضل أن يستلقى فيه فى أحضان إيفيت، انتشحت المدينة كلها باللونين الأبيض والأزرق من أجل إبهار زعيم الأمة اليونانى. وقد عبر فينيزيلوس، بعد أن فوجئ بهذا الاستقبال الحافل الذى لم يشهده من قبل، عن سعادته برفع باقة الزهور التى كانت بحوزته والتلويح بقبعته رداً على تحية آلاف القبعات التى كانت تلوح له تحت الأعلام اليونانية. ومن شرقات قاعة أيسخيلوس شاهد فينيزيلوس إطلاق الحمام الأبيض، وفى نفس الوقت كانت مجموعة من الفتيات الصغيرات تقذف بالورود بشكل متواصل من شرقات نادى محمد على.

وفى نفس اللحظة التى تحول فيها الزعيم الوطنى إلى نقطة تجمع الجماهير ملتعبة المشاعر، كان أندونيس يعانى حتى يستطيع العبور من هذا الطوفان من البشر الذى اكتظ به المكان بأجمعه حول النادى اليونانى. لكنه تمكن فى النهاية من الدخول

إلى القاعة الكبرى بالنادى دون أن يصاب بأى أذى قبل وصول فينيزيلوس بلحظات قليلة، والأهم من ذلك أنه مازال يحتفظ بقبعته الطويلة الممددة فوق رأسه، تلك القبعة التى كاد أن يفقدها مرتين وسط الزحام. وقد قام بتحية بعض الحاضرين برفع وخفض قبعته خمس مرات على الأقل، وكان من بين من قام بتحيتهم جاره الذى يحمل اسماً مشابهاً لاسمه، أندونيس بيناكيس، الذى استقبله بابتسامة عريضة وودود من تحت شاربى الضخم، رافعاً قبضة يده لأعلى، وكأنه يريد أن يحييه على ردة فعله القوية تجاه "ثورة التاج الملكى" التى كانت على وشك أن تشتعل فى مصنع، فتلك الأخبار تنتقل بسرعة بين أرجاء مدينة الإسكندرية .

أما بالنسبة لقبعته الطويلة فقد دب شجار بين أندونيس خاراميس وبين زوجته بسببها. فقد أوشكت ذافنى أن تحطم أعصابه هذا الصباح عندما شاهدته يخرج من المنزل فى تكبر واختيال، مرتدياً قبعة مصنوعة من القش المجبول وبذلة أنيقة. كيف جرؤ على التفكير فى مقابلة فينيزيلوس العظيم برداء أقل من "الردينجوت" (وهى بذلة بستر طويلة) والبابايون، عندئذ قذفته ببعض الكلمات (الفرنسية) حيث قالت: «إنك لا تفهم جيداً فى الذوق الرفيع». أما أندونيس، الذى انتابه الشعور بأن مظهره يبدو مضحكاً فى تلك القبعة الطويلة، فقد تمسك برأيه فى أن القبعة تبدو ضيقه على رأسه، وكذلك كانت حال بذلة الردينجوت الضيقة من الاكتاف. ومن حسن الحظ أن هذا الطوفان من البشر كان يهدأ فى بعض الأحيان وإلا لضاعت كل هذه الأناقة سدى قبل أن يصل إلى النادى.

وكان قائد الأمة قد وصل إلى الميناء الغربية بالباخرة "سوريا"، قبل مواعده المحدد، بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة ظهراً، تحوطه العديد من المراكب، التى ما لبثت أن أفسحت له الطريق حتى يتمكن من العبور. ولم تسمح السلطات البحرية سوى للقارب الذى يقل القنصل ورئيس الجالية اليونانية بالاقتراب من الباخرة التى تقل فينيزيلوس. ويقولون إنه بمجرد نزول فينيزيلوس إلى الميناء، بات من المستحيل أن يتقدم قيد أنملة من شدة الزحام، وقد تطلب الأمر تدخل الشرطة حتى تمكن من ركوب

السيارة المكشوفة، ثم بدأ فى مسيرته الشعبية تجاه النادى اليونانى. وفى واقع الأمر، فقد بدأت الصعوبات منذ اللحظة التى صعد فيها القائد اليونانى إلى السيارة. فى تلك اللحظة، فقد الناس صوابهم بمعنى الكلمة والتفوا حول السيارة رافضين تماماً أن يفسحوا لها الطريق. بدأ السائق فى إطلاق نفيير السيارة بعصبية شديدة فى الوقت الذى بدأت فيه المراكب فى إطلاق صافرات الترحيب؛ كان الإيطاليون يحملون الأعلام اليونانية، كما أخذ الجنود الأستراليون يلوحون بقبعاتهم غريبة الشكل، ذات اللونين الأبيض والأزرق، من فوق الباخرة الروسية " أغيا كاثرين العظيمة"، تفاعلاً مع تلك المناسبة؛ فى حين كان رئيس الجالية اليونانية يتوسل لكل هذا الحشد من الناس أن يفسحوا الطريق حتى يتحرك المركب، لكن دون جدوى، مما دفع فينيزيلوس نفسه ليرجوهم دون أية نتيجة تذكر. وفى النهاية، استطاعوا المرور من هذا الزحام دون أن يدرك أحد كيف حدث هذا. تعطل المركب الذى كان يتكون من: الصحفيين وفينيزيلوس وطاقم حراسته مرة أخرى فى شارعى عمارة الليمون وفرانكا، حيث تجمع عدد كبير من المصريين واليهود مع اليونانيين، وتسبب ذلك فى زحام شديد لا يدانيه زحام؛ وتوقفت تماماً حركة المرور فى شارعى شريف باشا ورشيد. أما أندونيس الذى عانى بشدة لاجتياز شارع رشيد تجاه الجهة المقابلة، فقد استطاع أن يلمح من بعيد تلك السيارة المكشوفة التى تقل رجل السياسة اليونانى، الذى وقف فى تلك اللحظة لضباط الجيش الإنجليزى حتى يتمكنوا من تصويره من أعلى مبنى مركز الحامية الإنجليزية.

وهكذا وفقاً لما سارت عليه الأمور، فقد كان أندونيس محظوظاً بشكل كبير، إذ استطاع أن يصل إلى هذا المكان سليماً ومحافظاً على هندامه من أجل استقبال رجل السياسة اليونانى. وبعد بضع دقائق صاح أحدهم قائلاً «فينيزيلوس يدخل». كان هذا الصوت مفعماً بالحماسة وكأنه كان يصيح «حريق». شعر أندونيس بانقباض فى معدته فى اللحظة التى دخل فيها رئيس الوزراء السابق إلى القاعة الكبرى، وعندما تلفت من حوله، وجد أن كل من كانوا حوله تقريباً قد شرعوا فجأة فى البكاء. تأثر أندونيس بالحالة النفسية للجميع، ووجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه، فقد أحس بالدموع تبلل

وجنتيه؛ وعندئذ تذكر فجأة يورغوس وهو يبكي يوم الجمعة فى مكتبه، ثم تذكر إيفيت التى تنهمر دموعها كلما شعرت بالوحدة التى تعيش فيها فى الإسكندرية، وأخيراً تذكر ذافنى التى دائماً ما تستغل دموعها كسلاح قوى تستخدمه فى مشاجراتهما. ورغم كل هذا لم يشعر أندونيس بالارتياح، حتى بعد مصافحته ثاناسيس الذى يراه الآن غارقاً فى دموعه، مستنداً على كتف زوج أخته - موظف البنك. فى مثل هذه الأجواء التمس أندونيس العذر لميكى سينازينوس، رئيس الجالية اليونانية، الذى لم يستطع أن يقرأ كلمة واحدة من خطبته التى أعدها من قبل. وكان لابد أن يقوم أحدهم بتقديم الزعيم اليونانى، حيث تحولت كل تلك المشاعر إلى أمر مضحك، وكان كل شخص ينظر إلى الآخر بعيون دامعة. ولحسن الحظ، فقد استجمع سالفاجوس قوته لتقديم المتحدث، ساعده فى ذلك ممثلو الجالية الفرنسية. وفى خطبته بدأ فينيزيلوس قائلاً:

«أشكركم بشدة على هذا الاستقبال الذى أعدتموه» (عندئذ تعالت أصوات بعض الحضور قائلين: «الاستقبال لم يكن معداً، سيدى الرئيس، ولكنه ما أملاه علينا إحساسنا!») وعندئذ قال فينيزيلوس، مصححاً: «أعنى الاستقبال الذى حدث». وعندئذ تعالت أصوات الناس من خارج النادى يهتفون باسمه بشكل مستمر. بدأ السياسى اليونانى يفقد صبره، فقد أرهقته كل تلك المشاعر المعبرة عن الحب بشكل مبالغ فيه، حتى وصل به الأمر أن خرج بنفسه إلى شرفة النادى ليطلب من الجماهير أن تنصرف. وأخيراً، كان على أحدهم أن يضع حداً لهذه الهستيريا الوطنية، ولم يكن هناك أفضل من ذلك الذى يهتفون باسمه وهو فينيزيلوس.

«ألن تذهبوا إلى منازلكم» قال ذلك أندونيس متذمراً، كل ما فى الأمر أنه على دراية بأن إيفيت لن تقبل عذر وصول فينيزيلوس باعتباره سبباً لتأخره عليها. ولذلك فقد عاقبته بتأخير موعد رحيله عنها حتى تخطى الوقت المعتاد. وفى نهاية اليوم وصل أندونيس متأخراً إلى منزل جاره، بيناكيس، حيث كان مدعواً على عشاء رسمى على شرف رئيس الوزراء السابق. ويبدو أن البعض كان قد تحدث مع فينيزيلوس عما أسموه "بثورة التاج الملكى" مما جعل فينيزيلوس يلقى عليه بتحية مفعمة بالود، قائلاً:

«بمجرد عودتي من القاهرة، سأتوجه، بكل تأكيد، لزيارة مصنعكم. فقد سمعت أنه تحفة حقيقية».

وبالفعل فقد تحقق ذلك عندما عاد فينيزيلوس من القاهرة بعد مضي أسبوع واحد فقط، حيث أوفى بوعده ومنح أندونيس شرف العبور من بوابة مصنعه وفي صحبته سكرتيه الخاص مارك أنطوناكيس والقنصل ساختوريس. خرج جميع العاملين بالمصنع: من يونانيين ومصريين ويهود وأرمن وسوريين ولبنانيين، وأمطروا فينيزيلوس من النوافذ بالورود حاملين أعلام اليونان وهم يصيحون: «عاش فينيزيلوس العظيم».

عبر فينيزيلوس مرة أخرى عن سعادته بما يراه في المصنع قائلاً: «لقد حدثوني كثيراً عنه، لكنني لم أكن أتخيل أنه على هذا النحو من الإبداع». لم يكن أندونيس يدرك أن كل ذلك سيحدث بسبب ردة فعله الحاسمة تجاه من ادعوا أنهم أنصار الملكية وشعر بالرضا من نفسه.

وكان منزل أندونيس خاراميس من بين منازل عليا القوم من الجالية اليونانية التي زارها فينيزيلوس في تلك الليلة.

«إنها لحظة تاريخية» هكذا قالت ذافني وأسرعت لتلقط إحدى الصور لها مع فينيزيلوس، تلك الصورة التي علقتها بعد ذلك في مكان ظاهر بالمنزل. ومن ناحية أخرى، كان أندونيس يدرك طبيعة زيارات فينيزيلوس السريعة وكان يشفق عليه وعلى نفسه في ذات الوقت، وقد حرص أن يكون ثاناسيس دائماً بجانبه، بل وحرص على تقديمه بطريقة لائقة، حيث قال: «اسمح لي أيها الزعيم، أن أقدم لكم أكثر مؤيديكم قوة في الإسكندرية، أثاناسيوس بوستانندزوغلوس».

«لن تتاح له الفرصة ثانية ليرى مثل هذه العظمة " بقال منطقة السيوف"» هكذا أخذت زوجته تتمتم.

أما ثاناسيس فقد أحس بسعادة حقيقية، فقد وافته الفرصة للحديث لمدة دقيقة كاملة مع معبود الجماهير ثم توجه، وهو في شدة الامتنان، بالشكر لأندونيس.

ثاناسيس: «أشكر يا أندونيس، فقد كان هذا اليوم هو أهم يوم فى حياتى».

أندونيس: «ليس هناك ما يستوجب الشكر» (قالها بالفرنسية)، يا ثاناسيس، ومن جهة أخرى، إذا كان هناك من يستحق أن يشد على يد هذا الزعيم فى الإسكندرية كلها، فبال تأكيد هذا الرجل هو أنت».

وبخلاف روتين هتافات الجماهير وكلمات المديح والمصافحة والمناقشات السخيفة، فقد تذكر أندونيس فيما بعد خطبة فينيزيلوس الملهمة عن الجمهورية التى ألقاها فى النادي اليونانى، تلك الخطبة التى تم نشرها كاملة فى جريدة " نيا زوى " (أو الحياة الجديدة)، ولم ينس أندونيس أن يرفعها كل صباح فى وجه ذافنى:

أندونيس: «اقرئى ماذا يقول زعيم الأمة عن الجمهورية. اقرئىها أنت وميخيليس يا من كنتما ترغبان فى إدخال ابننا كوستيس فى مدرسة دخلية!» إلا أنها لم تمنحه الفرصة لاستكمال حديثه وقالت:

ذافنى: «أنت من تقول ذلك! يا من ذهبت لاستقبال فينيزيلوس العظيم مرتدياً قبة من القش، وبذلة بخطوط طويلة، " يا لك من سخيف " (قالت ذلك بالفرنسية)».

* * * * *

لو كان فى الإسكندرية كلها ما يؤكد بصفة مطلقة سيطرة الإنجليز، فبالطبع لن يكون المعنى بذلك هو الجيش الموجود فى شارع مصطفى باشا ولا السفن الحربية التابعة للأسطول الملكى فى الميناء الغربية، ولكن سيظهر جلياً نادى سبورتنج. إنه صنعة الطبقة الإنجليزية الراقية بالمدينة منذ عام ١٨٩٠، والذى كان يعكس الروح الرياضية لأعضائه؛ إنه مجتمع إنجليزى حاكم. من جهة أخرى، فلن يكون للأمر برمته معنى دون وجود ملاعب للتنس والجولف والبولو والكروكيه، أو دون وجود مضمار سباق الخيول بشكل أساسى. فى أى مكان آخر يمكن للإنجليز، بعقولهم الضيقة، وباقى الأوربيين الترفيه عن أنفسهم سوى فى ناد يمثل الجانب المضىء من الحضارة الغربية؟

فى أى مكان آخر يستطيع كل محدث نعمة أن يجد فرصة أفضل من هذه للتقرب من السلطات البريطانية؟ وفى العام الأخير لمعت أسماء أخرى، إلى جانب أسماء أعضاء مجلس إدارة النادى الذى يتكون من ثمانية عشر عضواً واسم القائد الأعلى للجيش البريطانى، وأحد ضباط سلاح الأسطول الملكى، مثل أسماء كل من صامويل أريمان وإلياس خورى.

إلياس: «ما حدث لى يعد شرفاً عظيماً، هل تدركين ذلك؟» هكذا صرح إلياس خورى لإيفيت عندما التقيا مصادفة لتناول فنجان شاي ما بعد الظهيرة فى منزل أحد تجار القطن الإنجليز.

إيفيت: «بهذه السرعة التى تسير بها، يا إلياس، فلا أظن أن هناك شرفاً آخر لن تناله فى هذه المدينة».

- «ألحظ فى كلامك لهجة تفيد عدم الرضا، أم ترانى قد أخطأت الفهم؟».

- «ما تلحظه هو بعض الضيق الذى له ما يبرره».

- «هكذا إذن!» (قالها بالفرنسية).

- «نعم (قالتها بالفرنسية)، وينبغى أن أذكرك بوجود مشكلات يومية فى منزل شارع مصطفى باشا، تلك المشكلات التى أضطر لحلها بمقردى. وبما أنك قد طلبت منا عدم المرور من شارع رشدى، فلا بد أن تحرص على أن نلتقى بين الحين والآخر، لا أن يكون اتصالنا مبنياً على المصادفة مثلما حدث اليوم، على سبيل المثال»

- «هل يضايك ذلك أننا لا نلتقى مثل الأيام الخوالى؟» قال ذلك وهو يشعر بثقة فى النفس، مما دفع إيفيت لأن تتفجر ضاحكة.

- «يا عزيزى (قالتها بالفرنسية)، إن ما يضايقنى ببساطة هو أنك قد حملتني كل المشكلات أما أنت فتفعل ما يحلو لك. لا شىء أكثر من ذلك».

- «إن اعلمى جيداً أن إلياس لا يمكن أن ينسى إيفيت الصغيرة أبداً» قال ذلك ثم أخرج من جيب الجاكت الداخلى كارتين.

- «ما هذا؟» (قالتها بالفرنسية).

- «كروت عضوية، فممنذ اليوم أصبحت عضواً فى رابطة نادى الفروسية بالإسكندرية».

- «ولماذا كارتين؟».

- «نما إلى علمى أخيراً أنك لا تذهبين لآى مكان بدون ماريانثى أرابيذيس».

- «أخبرنى إذن (قالتها بالفرنسية)، هل تكلف أحد بمراقبتى؟».

- «يا عزيزتى، عندما تحتسيان القهوة فى مقهى " أثيناىوس " أو أن تقوما بالتسوق فى محلات شارع شريف باشا، فلا داعى أن أكلف رجالى بمراقبتك، فكل الإسكندرية تتبعكما. ومن جهة أخرى، فليست لدى أدنى مشكلة، بل العكس هو الصحيح، تعرفى أن بانايوتيس هو صديقى، ويسعدنى أن أقوم بالترفيه عن زوجته ولو بشكل غيرمباشر».

- «هل يعنى هذا أنك مهتم بأمرها؟».

- «هل يعنى هذا أنك أصبحت غيورة فى الآونة الأخيرة عن ذى قبل؟».

كان بوسعهما أن يتجادلا لوقت أطول لو لم ترهما ربة المنزل وكلاهما يتأبط ذراع الآخر، تلك السيدة نحيفة القوام، ناتئة العظم، التى لها حدقتا عين هائمتين من تأثير وجود تضخم بغدتها الدرقية. قالت لهما تلك السيدة:

«ما الذى تتحدثان عنه كل هذا الوقت فى هذا الركن من المنزل؟ لو تركتكما مزيداً من الوقت لتحديث عنكما الإسكندرية بأسرها فى صباح اليوم التالى».

وعلى الفور ساور إيفيت الشك فى أن هذه السيدة، التى كانت من شدة نحافتها تبدو وكأنها تسبح داخل رداثها الحريرى، كانت على دراية كاملة بما يدور فى المنزل الذى تديره فى شارع مصطفى باشا. وفى الوقت الذى استسلمت فيه إيفيت لها وسارت معها حتى منتصف حجرة الطعام الكبيرة، حيث تتلأأ ثريا "هولندية الصنع"

(دُونَهَا بالفرنسية)، فكرت إيفيت فى عدد المنازل المماثلة فى المدينة التى يتم فيها تقديم هذا الشاى فى نفس التوقيت. وجمال بخاطرها احتمال أن لا تكون هذه الدعوة للشاى قد حدثت بالمصادفة، كما كانت تعتقد. كانت الجالية الإنجليزية بالإسكندرية عبارة عن دائرة صغيرة ومنيعه، مكونة من رجال متأنقين ونساء متعاليات، فإذا ما جمعهم مكان واحد، أمضوا وقتهم فى لعب الورق وفى تبادل التعليقات الساخرة وهم يحتسون الشاى، ولم يكن هناك قاسم مشترك بين إيفيت وبين هؤلاء الناس. مَنْ إذن، فيما عدا إلياس، يمكن أن يهتم بالحصول على هذه البطاقات؟ فقد كانت بحوزة " اللبنانى" بطاقتى دعوة لرابطة نادى الفروسية والتى حدد إلياس مسبقاً أنهما لها ولزوجة أرابيذيس. وفى النهاية أقنعت نفسها بأن تلك هى الطريقة الوحيدة التى اختارها إلياس ليتمكن من مقابلتها بين الحين والحين.

سحبت إيفيت نفسها مرة أخرى بسبب انزعاجها الشديد من تلك الأضواء المبهرة التى غمرت المكان، ولكنها اتجهت هذه المرة نحو الزاوية الأخرى، إلى ذلك الركن الصغير الذى يحتوى على المقعدين الوحيديين المجدولين ومنضدة صغيرة وفازة منحنية الأضلاع، والتى بدت جميعها وكأنها تمتص أشعة الغروب بدلاً من أن تعكسها ملفحة بغطائه البنفسجى. من ذلك الركن الصغير تفحصت إيفيت وجه إلياس الذى غمره ضوء الثريا فلاحظت عليه أولى علامات الكبر غير المرغوب فيها. فقد بدت ملامح هذا الإرتخاء البسيط فى عضلات وجهه بوضوح تحت تلك الأضواء المبهرة، مما أظهر تلك الظلال غير المستحبة. كانت موسيقى شويان، التى تنبعث من آلة بيانو غير مرئى، تعبر عن تلك اللحظة وكأنها تعلق بحزن على تلك الضرورة الملحة لوجود الفساد. بدت السيدة التى تعزف الموسيقى وكأنها أكبر سناً من تلك التى كانت تثرثر معها منذ قليل بلا انقطاع، ممسكة بيدها فنجان الشاى. اشتتمت إيفيت فجأة من حولها رائحة الكبر والموت، ولأنها شعرت للحظات بتهديدهما لحياتها، فقد سارعت بإطفاء السيجارة التى كانت قد أشعلتها منذ برهة وكأنها بذلك تقاوم قوة الزمن المدمرة.

* * * * *

كان فصل الربيع بمثابة معاناة حقيقية لماخوس الصغير، حيث ظهرت عليه بقوة بؤادر التهاب قديم فى قصبته الهوائية، وبدأ فى سعال متواصل استمر معه طوال الليل حتى كاد أن يحطم ضلوعه. تمننت ذافنى لو كان للتجول فى حدائق النزهة أثره الفاعل فى شفاائه وفى انتهاء هذه المعاناة، كان من الممكن أن يتحقق لها ذلك لولا إصابة الطفل الصغير بنزلة برد مفاجئة فى شهر مايو جعلته طريح الفراش مرة أخرى. كانت الأيام الثلاثة الأولى من هذا الشهر مخيفة: فقد ارتفعت درجة حرارته، دون أمل فى تحسينها، وكان لها أثرها السيئ على جسد الصبى الصغير. استجاب الطبيب اليونانى العجوز كومانوس باشا، وهو صديق قديم لعائلة سينجوس ومدير المستشفى اليونانى بالقاهرة، الذى كان وجوده بالإسكندرية مصادفة، استجاب لتوسلات ذافنى بفحص الطفل المريض. وصل فى عربة فاخرة، وكان من السهل ملاحظة تلك الأوسمة المعلقة على الجاكت الذى يرتديه وكأنه ضابط فى الجيش أكثر منه طبيباً. وصف الطبيب للطفل دواء الكينا^(٥)، لكن حالة الطفل لم تتحسن، وعندئذ رفع يديه لأعلى (إشارة لقلّة حيلته) وأخبرهم بأنه إذا لم تنخفض حرارة الطفل خلال أربع وعشرين ساعة، فلا بد من نقله إلى مستشفى "سان سوفرونيوس". وقبل أن يصلوا إلى تلك النتيجة، تذكرت ذافنى الطبيب الشاب ستيفانوس باتيلوس، كان البعض قد رشحه لها بوصفه عائداً من ألمانيا حاملاً معه شهادات علمية كبيرة.

قام الطبيب الشاب بزيارتهم مساء يوم السبت، وهو قصير القامة يرتدى نظارة بعدسات مستتيرة وجاكتاً فاتح اللون أكبر من حجمه حتى بدا وكأنه يسبح بداخله. وقد تزامنت زيارة الطبيب الشاب مع نهاية المدة الزمنية التى حددها الطبيب الآخر كومانوس. تم اصطحابه إلى غرفة الطفل المريض، حاملاً فى يده حقيبة بنية اللون كبيرة بشكل لا يتناسب مع حجمه وما زالت رائحة جلدها المصبوغ تفوح منها. بلغت الجدية المرسومة على وجهه مداها، وكان يهز كتفيه داخل الجاكت الواسع بطريقة توحى بأن جسده البدين كان ينكمش تحت ملابسه. بدأ يفحص الطفل بكل دقة،

(٥) كينا: دواء ضد ارتفاع درجات الحرارة والملاريا (المترجم).

ويستمع بسماعته الطبية لكل شىء فى جسد الطفل المريض. بعد قليل أدركت ذافنى أن هذا الانزعاج المرسوم على وجهه لم تكن له علاقة بالطفل المريض، بل بالنظارة التى كانت تزعجه فى كل مرة ينحنى فيها فوق السرير. وبالفعل، أثبت الفحص الطبى الدقيق، فى النهاية، عدم وجود سبب خطير يدعو للقلق، قال الطبيب: «سوف أحقنه بمادة ستجعله يغط فى نوم عميق. وفى صباح الغد سآراه مرة أخرى، كل شىء سيصبح على ما يرام».

لم يشارك كوستيس والأنسة جابى، دون غيرهما، الطبيب الشاب فى تفاؤله؛ ولهذا فكلما اقترب الأخ الأكبر من غرفة نوم أخيه الصغير، يرى مشهداً واحداً لا يتغير للأنسة جابى، التى كانت تبدو كالشبح فى الظلام بشعرها الأصفر المنسدل فوق رداؤها الأبيض الذى يغطى ركبتيها، كانت تنحنى فوق ماخوس ممسكة بقطعة من القماش مبتلة بالماء وتضعها فوق جبهته الساخنة. وكأن رسماً أراد أن يرسم مشهداً لطفل مريض يلقي العناية من مربيته فجعلها لا تتحرك من جانبه طوال الليل حتى ينتهى من لوحته.

وفى النهاية، تحسنت حالة الطفل فى صباح اليوم التالى، وشفى من الحمى التى أصابته وكأنه السحر، سواء أكان ذلك بسبب براعة الطبيب أم لمثابرة المربية، التى بدا وكأنها أخذت الأمور بشكل شخصى. هل الجميع لهذا التطور، حتى إن كوستيس، من فرط سعادته، قام بتقبيل يد الطبيب ستيفانوس باتيلوس الذى ابتسم سعيداً بتصرف الصبى وداعب شعره قائلاً: «لأبد أنك تحب أخاك الصغير حباً جماً، يا صديقى». أما بالنسبة لأمه فقد نبهها الطبيب بخطورة فترة النقاهة، وعندما شرع فى مغادرة المنزل، أخبرها وهو يهز أكتافه بقوله: «لم ننته بعد، مدام خاراميس، سنكون على اتصال».

أدركت ذافنى ماذا تعنيه هذه الكلمات عندما بدأ السعال اللعين يهاجم الصغير بعد عدة ساعات، ومن حدثه كان صوته يتردد صداه داخل أرجاء المنزل، تاركاً دلائل غير مبشرة لتحسن صحة الصبى الصغير. كان ماخوس يسعل طوال الليل، وفى كل مرة كان يشعر فيها بالعرشة كان يصيح (بالإنجليزية): «إنها قادمة، مس جابى، إنها قادمة». لكن تشخيص الطبيب فى اليوم التالى جاء مطمئناً. حيث قام بالكشف عليه

بسماعته الطبية وأعلن أن كل ما يحتاجه الآن هو بعض العلاج الشعبي^(٦) الذى تعرفه النساء فى الأحياء الشعبية.

ذافنى: «لكن، سيدى الطبيب، ألا يوجد نواء فاعل لهذا السعال؟ أى شىء يوقف هذه المعاناة، فكل مرة أسمعه يسعل بهذا الشكل، أخشى أن تنفجر رئتاه»
الطبيب: «عزيزتى مدام خاراميس، لا أريدك أن تنزعجى. ويجب أن تعرفى أن السعال نفسه هو الدواء. ليس من الحكمة أن نوقف هذا السعال طالما يوجد هذا البلغم، سواء أردنا أن نصدق ذلك أم لا» (قالها بالفرنسية)،
فى حالتنا هذه لن يساعدنا سوى الطب الشعبى. تعرفين بالطبع ماذا تعنى كلمة الطب الشعبى!».

ذافنى: «طبعاً طبعاً» تمتمت ذافنى بذلك، لأنها خجلت أن تقول عكس ذلك.
الطبيب: «أه، ولأننى الآن فى منزل رجل يعمل فى صناعة النخان، حيث تشتعل وتنطفئ هنا السجائر بلا انقطاع، فينبغى على أن أحذرك، فالتدخين ممنوع فى كل مكان بالمنزل، إلى اللقاء» (قالها بالألمانية)، مدام، وأنا فى خدمتك». أندونيس: «لعلك تقع يوماً تحت طائلة طبيب»، أبدى أندونيس هذه الملاحظة لاحقاً ووافقته ذافنى فى ذلك تماماً. أما كوستيس فقد لاحظ الحيرة التى انتابت أمه أمام نصيحة الطبيب الواضحة باستخدام الطب الشعبى، ولذلك لم يتردد أن يقول:

كوستيس: «أمى، أعتقد أن الخالة ماريا تعرف كيف تشفى ماخوس». عقدت ذافنى حاجبيها، لكن لم يكن أمامها حل آخر فاستسلمت للأمر المحتوم. وفى مساء نفس اليوم، حضرت زوجة "البقال" إلى قصر العائلة الأرستقراطية وصعدت السلم الرخامى الضخم الذى كان يؤدى إلى حجرة ماخوس. ويبدو أن مسحها بيدها على شعر ماخوس، الذى كانت تراه للمرة الأولى، وكذلك كلمات التدليل، كانت تمثل

(٦) العلاج الشعبى: المقصود به العلاج بالحجامة كما سيرد بشكل مفصل فى الصفحات التالية (المترجم).

جزءاً من إجراءات العلاج. وعندما شاهدها ذافنى تبلل ورقة من تلك التى يستعملها البقال فى لف بضائعه فى مادة بترولية سائلة، ثم تضعها على ظهر الصغير ماخوس، تمتمت بشئ يخص ابن عمها البقال. قامت ماريا بعد ذلك بوضع الكئوس الزجاجية على الكومودينو، جذب كوستيس والدته وقال لها هامساً: «الآن انظرى، يا أمى، ماذا ستفعل الخالة ماريا!».

بعود من الخشب ملفوف على طرفه قطعة من القطن، أشعلت الخالة ماريا النار، بعد أن غمستها فى الكحول، وقامت بتسخين الكئوس الزجاجية جيداً من الداخل وتركته تثبت فى البداية فوق ظهر الصبى المريض ثم وضعتها بعد ذلك فوق صدره، تركت الكئوس الزجاجية الساخنة بصماتها فى شكل دوائر شديدة الحمرة على جلده. وبدا منذ البداية وكأن ماخوس يستمتع بها، بل وكان يضحك فى كل مرة يسمع فيها صوت طرقعة الكئوس الزجاجية وهى تنتقل على جلده الرقيق. وفى النهاية طلبت الخالة ماريا قطعة نظيفة من القماش وقامت بغمسها فى الكحول، ثم أشعلت فيها النار وأطفأتها على الفور بوضعها تحت غطاء أحد الأوعية. وعندئذ قامت بلف قطعة القماش حول رقبة الصبى الصغير وقالت لأمه:

«عندما يستيقظ فى الصباح الباكر ستعطيه هذه الأعشاب لكى يشربها»، كانت الأعشاب ملفوفة فى كيس من الورق، وكانت أوراق الأعشاب الجافة تتساقط من بين يدي ذافنى، التى استدارت قائلة:

ذافنى: «ما هذا، يا ماريا؟».

ماريا: «هذا عشب من عند "العطار" (قالتها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) من أجل السعال، سوف تقومين بغليه مثل الشاي وتقديمه له ليشربه، حتى يذهب عنه السعال تماماً وينتهى أيضاً هذا الغليان الموجود فى صدره الضعيف. أما ما يتبقى، فاحتفظى به لنفسك، فلن يفسد».

ذافنى: «من عند العطار إذن!»، رددتها مدام خاراميس وهى غير مصدقة.

حدث كل شيء وفق المأمول من العلاج الشعبي، بداية من انكار الذات للأنسة جابى، ثم حكمة الطبيب الشاب، ثم تمكن الخالة ماريا، ولم يتبق سوى دهشة ذافنى وعدم تصديقها لما حدث. وفى وقت لاحق قالت الخالة ماريا بطريقة ساخرة: «لسوء الحظ، لم يجد العطار لديه علاجاً للمتكبرين!».

* * * * *

لم يكن وجود بيتروس ثيميستوكليس مرغوباً فيه فى منزل شارع مصطفى باشا، وبخاصة عندما بدأ يلعب دور القائم بإدارة المكان. ولهذا كانت رسالة مدام إيفيت تعد مفاجأة سارة له، تلك الرسالة التى طلبت فيها لقاءه فى صباح أحد الأيام لكى يتبادلا الحديث. أخذ القبرصى شديد الذكاء يقلب الرسالة فى عقله، لكن لم يصل لنتيجة، وقد عكست الطريقة التى طرق بها باب الفيلا عند وصوله فى ذلك اليوم، ما أصابه من توتر. فتح الباب جعفر، ذلك الخادم النبوى العملاق الذى يشبه الجبل فى هيئته، مرتدياً رداءً ناصع البياض كالثلج، يتكون من: عمامة بيضاء وجلباب أبيض يعطوه "صديرى" (ذكرها باللغة العربية وبنونها بحروف يونانية) لونه بلون السكر، تركه مفتوحاً، به عدد لا حصر له من الأزرار. لم يكن جعفر مرتدياً الحزام الأحمر حول خصره؛ وقد بدت فى وجهه العبوس ثلاثة خطوط فى كل وجنة من وجنتيه، وكأنها تجاعيد بارزة. رفع القبرصى أصابع يده الثلاث محيياً الخادم النبوى، وكأنه يدرك مدى أهمية تلك التحية، فأجابه جعفر بانحناء يصعب وصفها. " ذلك العبد الحقيق، مائة وأحد عشر (١١١)، " هكذا ما كان يجول بخاطر بيتروس فى كل مرة يرى فيها جعفر، ورغم ذلك فقد كان يبتسم له ابتسامة رقيقة؛ فقد أدرك أنه ينبغى عليه الحذر فى التعامل مع رجل بهذه القوة. أما مع سهير وأنطوانيت فكان الوضع مختلفاً، حيث كان بيتروس يشعر معهما بأنه الأمر الناهى، وبين الحين والآخر كان يمنح كل واحدة منهما ضربة خفيفة على مؤخرتها، وهما تضحكان أو تتظاهران بالضحك لهذا الرجل الكسول المعوق الذى يجرجر قدمه اليمنى خلفه أثناء سيره. كما كانتا لا تهتمان كثيراً عندما كان يخلط بين اسميهما، لا لسبب إلا لكى يُظهر لهما أنه لا يعيرهما أية أهمية. على أية حال، فقد كان

ذلك شعوراً متبادلاً بينهم. لم يكن هذا الفارس القديم بحاجة لأحد لكي يقوده إلى مدام إيفيت فهو يعرف الطريق جيداً. تقدم تجاه الطريقة، ودخل الغرفة الثالثة التي كان يسمع من داخلها صوت حبات المسبحة وهي ترتطم ببعضها بعضاً. كانت إيفيت مضطجعة على إحدى الأرائك التي يوجد فوقها عدد لا حصر له من الوسائد الصغيرة، وكانت تحصى بعيون ناعسة حبات المسبحة التي تضيء في الغرفة شبه المظلمة. وأمامها روكسانى تجلس القرفصاء فوق سجادة سميكة، وقد للمت فخذها الرقيقين تحت قميصها الذي لم يكن محكم الإغلاق، حيث كان باستطاعته أن يرى صدرها العارى إذا مال برأسه قليلاً. كانت الغرفة معبأة برائحة البخور النفاذة التي كانت تخرج من أعواد البخور المشتعلة الموجودة في منتصف الحجرة. توقفت إيفيت عن اللعب بالمسبحة، وأخذت تداعب خصلات شعر الفتاة الصغيرة روكسانى.

بيتروس: «ربما كان حضوري في وقت غير مناسب؟» قال ذلك متسائلاً وبدأ واضحاً في صوته ما أصابه من إثارة.

إيفيت: «تفضل بالدخول» (قالتها بالفرنسية)، يا ثيميستوكليس، جال في خاطر القبرصى كيف لا يوجد مثيل لهذه المرأة الصغيرة والجميلة في أى بيت آخر في العالم لممارسة الرذيلة. على أية حال، فقد كان يدرك جيداً أكثر من أى شخص آخر أن فيلا شارع مصطفى باشا لا مثيل لها في أى مكان.

- «أرسلت في طلبى، وها أنا ذا».

- «نعم أرسلت في طلبك، اجلس» (قالتها بالفرنسية).

- «ما الأمر إذن؟» سألها ذلك ولم يكن قد جلس بعد في الجهة المقابلة لها.

- «هل أحضر لك مشروباً؟».

- «ويسكى».

نادت إيفيت على الخادمة المصرية، وقالت: «سهير، ويسكى لبيتروس، من فضلك» (قالتها بالفرنسية)، وعلى الفور شرعت سهير تصب الويسكى فى الكأس، وكان بيتروس يطرب من سماع هذا الصوت ثم بدأ يتجرعه فى نشوة.

- «هناك أمر أريد أن أعاتبك عليه» (قالت ذلك بالفرنسية)؛ فالفتاتان اللتان رشحتهما لى أخيراً لم يتركا انطباعاً جيداً لدى الزبائن، الذين أعربوا عن عدم رضاهم.

- «هكذا دائماً حال من يأتين من الشمال، جميلات لكنهن باردات كالثلج»، هكذا أجابها بيتروس قبل أن تستكمل حديثها، كما لو كان على علم بما كانت إيفيت تريد قوله، ثم استطرد حديثه قائلاً: «لكنى لا أعتقد أنك طلبت حضورى لهذا الأمر، ومن جهة أخرى، فكما أرى أخيراً، فقد بدأت فى استيراد البضاعة بمفردك، وبالطبع، فهى من الدرجة الممتازة».

- «ماذا تريد أن تقول؟» سألته إيفيت منزعة وقد انتفضت من مكانها قليلاً، ثم أزاحت روكسانى التى كانت نصف نائمة على قدميها.

- «ماذا أريد أن أقول؟ بالطبع تعرفين ماذا أريد أن أقول؛ تلك المرأة التى كانت بمصاحبتك وكنتما تاكلان معاً الحلوى فى مطعم " أثيناىوس " منذ عدة أيام، ولا تخبرينى أنها.....».

- «يا لك من مخلوق غبى» (هكذا صاحت إيفيت بالفرنسية)، لا تنطق باسم هذه المرأة على لسانك مرة أخرى، فهى سيدة محترمة»، ثم عضت على شفتيها، خشية أن يكون كلامها قد ضايق روكسانى التى شعرت بها، من جهة أخرى، تميل برأسها للخلف، ولحسن الحظ فقد قام القبرصى، دون أن يدرى، بتصحيح الأوضاع.

- «حسنًا، إيفيت، لقد تعبت» (قالها بالفرنسية)، ألن تتركينى ولو مرة واحدة أقترّب من فتاتك الجميلات؟».

- «إنها ليست من أجلك يا بطرس» قالت ذلك وقد تلفظت باسمه كما يُنطق باللغة العربية بلهجة حازمة. نهضت روكسانى وجرت ناحية السلم، وقبل أن تصعد، استدارت وقالت له ضاحكة:

«أسمعت يا بطرس؟ لستُ من أجلك» أما بيترس، الذى شعر بظل جعفر المخيف من ورائه، فقد قرر أن يغيّر الموضوع.

- «حسنًا، حسنًا» (قالها بالفرنسية)، ليست من أجلى، هل أستطيع أن أعرف الآن لآى سبب أرسلت فى طلبى غير إهانتى، بالطبع؟».

- «أفكر فى الذهاب فى أحد هذه الأيام إلى مضمار سباق الخيول، ولكن كما تعرف» (قالتها بالفرنسية) فأننا أجهل تمامًا كل شىء عن الخيول، بقدر جهلك بأصول اللياقة».

- «تلك إذن إهانة أخرى» غير معقول» (قالها بالفرنسية) !».

- «هيا، ودعك من تلك المهاترات، أجبني عن سؤالى».

عندئذ نظر بيترس إليها بعين الجوكر المحنك وابتسم ابتسامة ذات مغزى، ثم قال: «هل ستذهبين وحدك؟».

- «ما أهمية ذلك؟».

- «صديقتى الصغيرة، ينبغى أن تعلمي أن مضمار سباق الخيول ليس من الأمور التى يمكن تعلمها بهذه السرعة».

- «بالتأكيد هناك بعض الإرشادات العامة التى يمكنك أن تخبرني بها. بعض القوانين، البروتوكول، طريقة اللعب» (قالتها بالفرنسية)».

كانت لدى القبرصى الرغبة فى شرح بعض الأمور لكنه، فى واقع الأمر، لم يستطع تحديد من أين يبدأ: من القوانين أم من الإجراءات، من إستراتيجية الفارس أم من المراهنات أم من تكتيك اللاعب؟ من أى شىء يحميها أولاً؟ من المارة، أم من الفخاخ؟ إلا أنه أدرك عدم جدوى كل ذلك واقتصر على نصيحة واحدة فقط:

- «طالما ترغبين بشدة فى الذهاب إلى مضمار سباق الخيول، فينبغى أن تدركى أنه ليس أكثر من عرض مثل العروض التى تقام فى ملهى "زيزينيا" أو فى ملهى "الأمبرا"، احرصى دائماً على أن تستمتعى بالزحام ويجو عرض لم تشاهديه من قبل. دعى القوانين والإجراءات إذن لمن يظنون أنفسهم قادرين على الثراء من مضمار الخيول».

- «لديك كل الحق» (قالتها بالفرنسية). وإذا نظرت للموضوع من وجهة نظرك، فربما لا يستحق أحد، سواء الخيول أو الخيالة، أن يأخذوا الموضوع مأخذ الجد».

- «ليت الجميع يفكرون بمثل تفكيرك. أتعرفين، منذ بضع سنين سأل أغاخان عن شخص كان يراهن بمبالغ كبيرة فى سباق الخيول، فأخبروه بأنه "شخص يونانى من الأثرياء المحدثين"، فأجابهم: انتبهوا إذن، فسوف يترك ثروته هنا قبل أن يغادر هذا المكان. ولم يخب ظنه».

- «ومن هو أغاخان؟».

- «إنه زعيم المسلمين. فى شهر رمضان من كل عام يكيلون وزنه ذهباً».

- «شئ بديع، فيما عدا الحكايات والنصائح هل لديك شئ آخر تريد أن تخبرنى به عن مضمار سباق الخيول بالإسكندرية؟».

- «إنه مكان "راق" (قالها بالفرنسية) يرتاده عليه القوم من الرجال والنساء. ماذا هناك أيضاً؟ من الأفضل أن ترتدى زيّاً رسمياً. قلت لك إن الذهاب للمسرح يشبه تماماً الذهاب لمضمار السباق لا فرق بينهما. تفتح الأبواب منذ الصباح الباكر، وإذا ما تصادف وجودك هناك فى نحو الثانية عشرة ظهراً، عندئذ يمكنك تناول طعام الغداء، إذا كانت لديك الرغبة فى ذلك؛ وفى نحو الثانية يبدأ "العرض الملكى" (قالها بالإنجليزية)، أما فى الثانية والنصف ظهراً فتبدأ جولة السباق الأولى، وفى الثالثة والنصف ظهراً يتم تقديم الشاي. أما جولة السباق الأخيرة

فتكون فى الخامسة والنصف من بعد الظهر، يتبعها حفل، ولكنه يحتاج لدعوة،
حقاً، هل ستذهبين بمفردك؟

- «وماذا إذا ذهبت بمفردى؟».

- «امرأة بمفردها! دعينى أرافقك».

- «انتبه، ألاحظ كيف يرمقك جعفر؟ إنه ينتظر منى إيماءة لكى يمزقك إرباً».

- «بالطبع كنت أمزح، لأنى أعرف أنك لن تذهبي بمفردك، سترافقك المرأة الشابة
التي رأيته معك فى مطعم "أثينايس" وأعرف أيضاً أن اسمها ماريانثى
أرابيذيس، إنها زوجة رجل أعمال من إسطنبول، وصديق لإلياس، أليس هذا
صحيحاً؟ لقد حدثنى عنها" اللبناني».

- «لماذا إذن تحدثت عنها بتلك الطريقة غير المهذبة من قبل؟».

- «أحب أن أراك غاضبة. حقيقة، لو أردت نحن الاثنان.....» ثم أكمل بإشارة
وسارع بالاختفاء مثل طفل صغير يعرف أنه ارتكب خطأ وسيعاقب عليه. وبينما
كان يجر قدمه تجاه الباب الرئيسى ناداها قائلاً: «على أية حال» (قالها
بالفرنسية) أتمنى لك قضاء وقت ممتع».

* * * * *

كانت تجارة ثنائسيس بوستاندزوغلوس فى شارع باب سيدرا تتمثل فى محل
يتمناه الكثيرون بالإسكندرية. فقد كان محلاً واسعاً يقع على الناصية، يتحكم فى
الحركة التجارية كلها فى هذا الشارع، وكان أول محل يقع عليه نظر الزبون بمدخله
ومخارجه الثلاثة، حيث يحتوى على مدخل لكل جانب من جوانب التقاطع. وهو مثار
حديث الكثيرين الذين يتحدثون عن مخزونه الكبير من الجوز وعين الجمل التي ارتفعت
مبيعاتها مرتين فى الفترة الأخيرة عما كان من قبل؛ كما كان يحتوى على منتجات من
جزيرة ميتيلينى عالية الجودة، والتي تبدأ بأجود أنواع الزيوت والجبن والزيتون المخلل
وبالطبع الحلوى المشهورة التي كانت الخالة ماريّا تعدها بيديها، وتؤكل بالملاعق

الصغيرة - وكان يضعها فى أنية زجاجية فى وسط المحل فوق منضدة خشبية ضخمة، وبكل تأكيد كان الطلب عليها كبيراً. لن ينسى كوستيس أبداً ألوان الفاكهة المتنوعة، بداية من اللون البنى الداكن للتين، ثم الألوان الأفتح مثل لون السفرجل ثم المشمش والبرتقال، كما لن ينسى أيضاً طعمها وبخاصة طعم الكمثرى المسكرة التى كان الخال ثاناسيس يستوردها مباشرة من جزيرة ميتيلينى، ولم تكن متوفرة فى مصر فى ذلك الحين.

كان المكان يلمع من شدة النظافة، كما يبرق " بلاط " (نكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) الأرضية، أما الأسطح الخشبية فى أركان المحل فتعطيك الإحساس باتساع المكان، دون أدنى أثر لآى غبار فوقها؛ حيث كانت الخالة ماريا بمثابة الحارس الأمين للمكان، يهرول خلفها ثلاثة من الصبية المصريين، يرتدون مرايل طويلة نظيفة؛ فى حين كان الخال ثاناسيس يجلس خلف مكتبه الصغير الأنيق ويتولى عملية البيع لزبائنه باعتباره تاجر جملة محترم.

«إنه عمل بلا قيمة، بارك الله فيه بيد وعبث فيه الشيطان باليد الأخرى» هكذا علق نيكيتاس لاحقاً عن تجارة والده بلهجة تشوبها الحزن. وفى الحقيقة، فقد شعر ثاناسيس نفسه بما يخبئه له القدر، فبعد ظهيرة أحد الأيام توجه ثاناسيس إلى محل مواطنه اليونانى باراسكيفاس ياذيليس - الخياط، فى شارع سيزوستريس، للقيام بعمل بروفة لقياس ليس فقط بذلته الصيفية الجديدة، ولكن أيضاً حظه العاثر.

كان الجميع فى الإسكندرية يتحدثون عن مهارة سكيفاس، فمن محله كانت تخرج بالفعل أعمال فنية، ويا له من شرف عظيم لآى رجل عندما يقول: «أقوم بالتفصيل لدى باراسكيفاس».

ودائماً ما تجد باراسكيفاس، الذى ينتمى إلى جزيرة ميتيلينى، منكباً على مائدته، وقد علق المازورة حول رقبة وأمسك بالمقص فى يده. ومن خلفه كان هناك سلم خشبى يقود إلى الصندرة حيث يوجد القماش وورق التفصيل. كانت التماثيل الخشبية التى يستخدمها بوصفها موديلات ويضعها فى الفاترينة وعليها نماذج من الملابس غير المكتملة، تعطى انطباعاً بحجم العمل الذى يقوم به، فى حين كانت المكواة المعدنية الضخمة تظل

لساعات طويلة بغطائها المفتوح خارج المحل حتى يشتعل الفحم وتصبح جاهزة لاستكمال المرحلة الأخيرة من التجهيزات التي كانت تكتمل على المنضدة الخاصة بالكي. كانت غرفة البروفات تقع تحت السلم، حيث يمكن للزبائن القيام بعمل بروفة للبنطلونات. أما بقية الملابس فيتم قياسها أمام المتر باراسكيكاس، الذي كان يقوم بالتدريس أو أخذ المقاس أمام مرآة بيضاوية كبيرة متنقلة.

بعد ظهيرة ذلك اليوم، كان ثاناسيس يقوم بعمل البروفة، وفي نفس الوقت كان مسئول الرهانات بمضمار سباق الخيول، القبرصى سوفوكليس قنسطنطينوس، موجوداً لعمل بروفة هو الآخر. وهو رجل طويل القامة، وسيم وله شارب، يرتدى نظارة على عينه، ولم يتوقف هذا الرجل عن النظر لنفسه بإعجاب فى المرأة. أما باراسكيكاس الذى أراد أن يبدو من على القوم أمام ثاناسيس، فقد همهم وهو يضع أحد الدبابيس فى فمه قائلاً:

«هيا يا سوفوكليس، أعطنا جواداً جيداً حتى نلعب أنا وبلدياتى عليه. ما رأيك يا ثاناسيس؟ إنها فرصة ومعنا الآن أفضل مسئول رهانات» (قالها بالفرنسية) فى الإسكندرية». ثم غمز بعينه لثاناسيس. إلا أن ثاناسيس أسرع موضحاً:

«ولكن، يا باراسكيكاس، إن حظى سيئ دائماً مع الخيول».

باراسكيكاس: «هذا ليس بالأمر المهم (قال ذلك بالفرنسية)، يا ثاناسيس، سوف نلعب للاستمتاع تمام» (قالها باللغة العربية وبونها بحروف يونانية؟).

ثاناسيس: «أه يا ابن جلدتى، إذا كان للاستمتاع فقط، تمام، فيكفى أن يمنحنا «السيد جواداً جيداً».

مسئول الرهانات: «أتمزح؟ أفضل جواد من أجل باراسكيكاس».

وفى البروفة التالية أخبر باراسكيكاس ثاناسيس بالفعل أن الجواد الذى راهنوا عليه مشاركة حقق رقماً خيالياً فى ذلك السباق وفاز بمبلغ ثمانين جنيهاً.

- «طالما أنك محظوظ، يا ثاناسيس، فما رأيك، ألا نذهب يوماً ما إلى مضمار السباق؟» هكذا اقترح باراسكيفاس على ثاناسيس.

- «لا، حاشا لله، فقد أخبرتك من قبل أنني ليست لدى أدنى فكرة عن الخيول».

- «وماذا فى ذلك، ماذا تخشى، فنحن لن نشترى مضمار السباق، ولكننا سنذهب إلى هناك مرة واحدة للعب، وستكون فرصة جيدة لكى تجرب بذلك الجديدة».

- «سوف نفكر فى ذلك، يا باراسكيفاس».

- «نفكر فى ماذا، يا ثاناسيس. حسناً سوف نذهب إذن يوم الأحد القادم».

- «حسناً وليكن ما يكون».

* * * * *

لم تكن إيفيت تخفى لقاءاتها المتعددة بماريانثى، لكنها كانت تتجنب زيارتها فى منزلها لفترة من الزمن حتى لا تلتقى أرابيذيس، ومع ذلك فقد كانت حريصة على لقائها فى أى مكان آخر: لتناول "قطعة صغيرة من الجاتوه" (دونها بالفرنسية) فى مطعم "أثيناىوس" أو للتسوق فى شارع شريف باشا أو لاحتساء شاي ما بعد الظهيرة فى أحد المنازل اليونانية أو اللبنانية أو فى بهو المسرح.

ومن جانبها، فقد أصبح التغير الذى حدث لماريانثى واضحاً فى الشهور التالية. كانت مدام أرابيذيس تعطى دائماً الانطباع بأنها تلميذة مجتهدة تتبع حرفياً أصول البروتوكول الغربى - الأوروبى؛ فلم تكن لتجرؤ أبداً، على سبيل المثال، أن تظهر فى إحدى الحفلات المسائية دون رداءٍ طويل ملفوف وشال حول كتفيها. وفى أوقات تدريبها فنادراً ما أظهرت أنها راضية عن نفسها. ربما كانت تدرك أنها لكى تصبح من أهل

الإسكندرية فقد كان لذلك معنى أكبر من مجرد اتباعها لقوانين "وأداب السلوك" (بونها بالفرنسية). وعلى الرغم من كثرة ما كان ينبغي عليها أن تتذكره من قواعد بشكل يومي، فإنها لن تتمكن، في يوم من الأيام، من مشاركة هذا المزيج المضطرب من المشاعر ومن نقاط الضعف التي تتأجج كل يوم في المدينة. ولأنها لم تكن على استعداد للتضحية بنفسها على مذبح المتعة، فقد ازداد إصرارها على اتباع بعض العادات المضحكة، وكانت تتحول في كثير من الأحيان إلى امرأة متعربة وساذجة بأسنلتها الطفولية، مما يضطر إيفيت أحياناً لأن توجهها للشئ الصحيح.

في نفس الوقت كانت تحاول أن تنسى أنها تركية المولد، على الرغم من تأثيرها الدائم عند سماع صوت الأذان وقيامها بخفض رأسها (تعبيراً عن الخشوع)، وكان المؤذن المسلم يوجه لها شخصياً هذا النداء بالأذان. داومت ماريانثى على تقديم نفسها بأنها يونانية من إسطنبول، وبفضل لغتها اليونانية المتميزة (التي أدت نشأتها في إسطنبول إلى تغيير لهجتها بعض الشيء) حرصت على أن لا يشك أحد في أصولها.

أما إيفيت، التي لم تكن تشاركها في تسرعها لاعتبارها من أهل الإسكندرية، فقد كانت تهتم دائماً بعطرها الطبيعي الذي كان ينبعث من بشرتها ناصعة البياض، إنها نموذج لبراءة الروح، وفقاً لرأيها، تلك البشرة البيضاء التي كان من الظلم أن تلقى بها في بحر الإسكندرية بأمواله المتلاطمة؛ وإذا كان هناك ما ينبغي إنقاذه بكل السبل في عالم الإسكندرية المتحضر فإنها بالتأكيد تلك المرأة، ماريانثى التي تحب باثاويوتيس أرايبيز حباً بريئاً.

بهذه الطريقة فقط تستطيع أن تنقذ براءتها؛ تلك البراءة التي أظهرها أحد الفنانين على وجهها، عندما رسم لها بورتريهاً في محل تصوير "عزيز & دويس" (بونها بالفرنسية) في شارع المستشفى اليوناني رقم ٣. ولكن يبدو أن هذه البراءة التي ظهرت في البورتريه لم يكن أحد يراها سوى إيفيت فقط، كما كانت ترى فيه أيضاً سحر ماريانثى باعتبارها سيدة مجتمع راقٍ (بونها بالفرنسية).

كانت تلك الفتنة بحاجة دائماً إلى من يحميها، وكانت تحاول جاهدة عن طريق الدروس المتتالية تلقينها أبسط القواعد الخاصة بمضمار سباق الخيول، لكن للأسف فمع معلمة مثل إيفيت لم يكن لديها أى أمل.

كانت تمطرها بوابل من الأسئلة من نوعية: «هل أذهب بزى رسمى أم لا؟ ما المراهنات؟ على أى حصان سنراهن؟ ما الذى يفعله مسئول الرهانات بالتحديد؟». فمن ناحية كانت ماريانثى تسأل وتسال، ومن ناحية أخرى كان على إيفيت قبول مقابلة بيتروس ثيميستوكليس اللعينة مرة أخرى. وعلى الرغم من أنها لم تخرج بفائدة من لقائهما، فإنها استطاعت على الأقل أن تضمن الحصول على برنامج أعضاء نادى رابطة سباق الخيول ليوم الأحد، الذى أرسله لها القبرصى عقب لقائهما؛ لكن ذلك أيضاً لم يف بالغرض. فلم يسمعها سوى قراءة أسماء الفرسان وأسماء الخيول فى الجولة الأولى، ولكنهما فى نهاية الأمر اتخذوا قراراً بالذهاب إلى نادى سبورتنج لقضاء أمسية أحد هادئة. ولكنهما لم يوفقا أيضاً فى ذلك، فقد كانتا تفكران فى الذهاب إلى مكان أكثر تحضراً، مثل مسرح "زيزينيا" أو "الأمبرا" بعيداً عن هذا الزحام الفظيع الذى تكتظ به مدرجات مضمار السباق التى تذكرهما بالقدر الذى يغلى، بسبب صيحات الجماهير التى تتحول إلى نوع من الهمهمة التى تملأ أجواء الإسكندرية، فى الوقت الذى كانت أصوات حوافر الخيول ترفع الإثارة إلى أقصى درجة. وعندئذ تنتاب كل هؤلاء النساء والرجال المتأنقين الرغبة، لو كان ذلك مسموحاً، فى القفز فوق سور مضمار السباق الأبيض وامتطاء الجواد الذى يختارونه بأنفسهم، بدلاً من متابعته من بعيد بالنظارات المكبرة، عاجزين عن فعل أى شئ سوى الصياح والتهليل بحركات مضحكة.

بدأ يوم السباق بحادث مؤسف أثناء القيام بعمليات الإحماء، فقد تعثر أحد الخيول وألقى بالفارس على الأرض. فما كان من الفارس، الذى شعر بحرج شديد أكثر من إحساسه بالغضب، إلا أن قام بضرب الحصان بالخوذة التى كان يرتديها فوق رأسه لحمايتها. عندئذ جاءت ردة فعل الجمهور قوية أسفرت عن حرمان الفارس من المشاركة فى السباق.

فى نهاية الجولة الأولى، وجدت إيفيت وماريانثى نفسيهما ضائعتين فى هذا المكان، ولم يسعدهما سوى تناول الشاى فى المساء. على العكس من ذلك، فقد ابتسم الحظ لباراسكيفاس وثاناسيس اللذين استمعا لنصيحة قنسطنطينوس وراهما على الحصان الذى اختاره لهما.

كان باستطاعة باراسكيفاس وثاناسيس أن يغادرا المضمار بعد ذلك فوراً؛ لكن الخياط، الذى كان يعشق سباق الخيول، كان له رأى آخر، فقد أصر على الانتظار قليلاً. لو أن ثاناسيس لم يحضر مع باراسكيفاس، لو أنه لم يقبل على غير عادته الاستمرار فى اللعب، لكان من المستحيل أن يمنح قدره فرصة أخرى ليلعب لعبته. ربما كان كل شىء مقدراً بطريقة تفوق الخيال. ومن جهة أخرى، فقد ذكر ثاناسيس نفسه فى وقت لاحق أنه كان يشعر بوجود يد خفية تقوده فى يوم الأحد هذا من فوق لوحة المراهنات.

الحب، هذا الحب الذى لم ينطفى أبداً كل هذه السنين، لكنه كان يتأجج خلصة بداخلها، ذلك الحب الذى اختارته ليفعل بها ما يشاء فى هذه المدينة التى كانت تتحدى المشاعر العابرة والبشر المتقلبين بكل ما تحمله من قوة، وكأن الحب قد أراد أن يرضى قسوته بتدمير ضحية من ضحاياه.

ألم يكن ذلك الحب المخادع هو المسئول عن إبدال نيهير لاسمها لتصبح ماريانثى؟ لقد جعلها الحب تتنكر لعقيدها، لوطنها، لأهلها، وأيضاً لزوجها؛ هو الذى جعلها تهرب من إسطنبول وتطير بعيداً مثل طائر ظل يبتعد حتى تحول إلى سراب. ففى منتصف ذلك النهار فى مضمار سباق الخيول بالإسكندرية كانت ترتدى رداء أبيض اللون، أما الشىء الوحيد الذى كان يدل على رحلتها الخيالية تجاه الساحل الأفريقى فيتمثل فى ريش طائر اللقلق الذى كانت تزين به قبعته.

لكن لو لم تكن الابنة شديدة الشبه بأُمها، لو لم تكن بحضورها قد استحضررت سر ثاناسيس الذى يعيش فى الإسكندرية، ربما استطاع ثاناسيس أن يواصل حياته فى الإسكندرية دون أن يلحظه أحد. ولكن بمجرد أن رآها فى صباح ذلك الأحد فى

نادى سبورتنج، حتى استعادت ذاكرته بصعوبة شديدة حبه الأول، وكأن ذاكرته ترفض بكل أسى أن يتحرك الزمن من جديد. ربما كانت رؤيته لحبيبته التي لم تتغير بعد كل تلك السنين، هي أهم حدث بالنسبة له ولا شيء غيره. لقد وجد ثنائيس نفسه، على حين غرة، ودون رغبة منه، واقعاً في حبال القدر. لقد كان إحساسه بالمرض - ذلك الذى أصابه حتى وصوله إلى البيت وما صاحبه من حالة نزيف وإسهال تماماً مثل أعراض الدوستاريا - هو أقل ما يمكن أن يحدث له، ومن المؤكد أنه سيستوعب كل هذه الأمور مع مرور الزمن.

* * * * *

كانت ذافنى، فى الفترة الأخيرة، تستيقظ من نومها فى منتصف الليل الحار شديد الرطوبة بمصر على حلم واحد. كانت ترى منزلها مليئاً بالمدعوين، أو بالأحرى بكل من عرفتهم فى الماضى. كان الأمر يشبه حفلات الاستقبال، من تلك الحفلات الرسمية التى يقوم الجميع بتليبيتها؛ فالأجواء احتفالية: الأضواء، الموسيقى، الشراب، الرقص، الغناء. وهكذا عادت الأيام الخوالى بكل ما فيها من عظمة، وفجأة دخل المنزل صبى يرتدى سروالاً قصيراً يشبه كوستيس، يحمل صندوقاً صغيراً معلقاً على كتفيه يصدر أصواتاً مزعجة بشدة، مما تسبب فى إزعاج ومضايقة المدعوين بالمنزل. صبت ذافنى جام غضبها على الخادمة التى سمحت له بالدخول، لكن الخادمة أخذت تبرر لها قائلة: «ولكنه كوستيس، كيف أتركه خارج المنزل؟» وفى كل مرة كان سلوكه هذا يتسبب فى فض هذا الجمع الراقى. بدأ المدعوون فى مغادرة المكان الواحد تلو الآخر وكأنهم أشباح من تراب ذهبى، ثم تآتى أسوأ اللحظات عندما يرحل آخر المدعوين وتبقى وحيدة بمفردها فى منتصف الصالون الكبير، وهنا يأتى صوت أنونيس من داخل غرفة المعيش، من دون الأصوات الأخرى، ضاحكاً وهو يمزح مع ذلك الصبى المتشرد. كانا يجلسان على المقاعد الكبيرة ذات المساند العالية، وبالطبع لم يكن باستطاعتها رؤيتهما من مكانهما، لكنها كانت تسمع بوضوح صوت ضحكاتها. الآن سوف أريهما! هذا ما كان يجول بخاطرها فى كل مرة وكانت تسرع لضبطهما،

لكنها كانت تصاب بالإحباط عندما تقترب منهما ولا تجد سوى مقعدين خاويين،
والشيء الوحيد الذى كانت تجده فى هذا المكان هو علبة سجانر أندونيس الفضية، وفى
اللحظة التى تنحنى فيها لالتقاطها، تشعر بيد قوية تمسك بذراعيها وتقول لها
(بالإنجليزية): «هذا لا يليق بسيدة مثلك»، وعندما ترفع بصرها لأعلى تجد أمامها رجلاً
مصرياً فاتناً مظهره يوحى بأنه أوربى، يضع طربوشاً فوق رأسه وينظر إليها نظرة
حانية، لكنها كانت تصرخ فيه غاضبة وتقول: «لن تتهمنى بأننى لصة، ليس وأنا فى
بيتى» لكنه كان يردد قائلاً: «إن هذا لا يليق بسيدة مثلك». كان يداعب شعرها وينحنى
نحوها ببطء، وكأنه يريد أن يقبلها. ولكن لحسن الحظ، كانت تستيقظ من نومها قبل أن
يلوث شفيتها بقبلاته، وعندئذ لا تسمع سوى دقات قلبها الذى ينتفض بجنون فى
سكون الليل.

ربما كانت هى نفسها لا تستطيع أن تفسر هذا الحلم الذى كان يزورها كل يوم
تقريباً فى نومها، لكنها كانت تعود بذاكرتها، فتجد زكريات عديدة من سنوات شبابها.
فعندما كانت عروساً باهرة الجمال، كانت تفعل ما يحلو لها فى صالونات صفوة
المجتمع وفى المسرح وفى كل الأماكن الراقية التى كانت ترتادها فى المدينة. فى البداية
تذكرت نفسها وهى فى الخامسة والعشرين من عمرها ترتدى فستان السهرة الأول لها:
كان رداءً حريراً طويلاً من ماركة "فينجال" بلون الفستق، مطرزاً بالدانتيل، يحيط
خصره حزام ناعم، أكمامه منقوشة كالأكورديون ومطرزة أيضاً بالدانتيل. أما شعرها
فكان مصففاً للوراء، وصديقاتها بينيلوبى بيناكي وإيفيغينيا أنطونياذيس وفانى
سيناذاينوس، كن جميعاً، كما تتذكر، فى أوج تألقهن ولم تتعد أعمارهن بعد الثمانية
عشر. كن يجاملنها بكل أنواع المجاملة. وباعتباره حليماً جميلاً كانت أصوات موسيقى
الفالس "كارمن - سيلفا" تتردد فى كل الأرجاء - كانت تلك هى الموضة السائدة فى
تلك الفترة. أما علبة سجانر أندونيس الفضية فكانت هى أغرب ما فى الأمر، حيث
تجدها تتحول فجأة إلى ألحان لذكراياتها تدون فيه كل الرقصات التى تدين بها لمن يطلب
مراقبتها. حتى منزلها لم يسلم من التحول بين الحين والآخر، فهو أحياناً يشبه قصر

ميناسيه، وأحياناً أخرى يشبه منزل سينانينوس فى حفل زواج صديقتها "فانى"، فى حين كان أحد أركان المنزل شديد الشبه بتلك المقصورة التى كان يحتفظ بها والدها فى مسرح "زيزينيا" لفترة من الوقت. حسناً، كل تلك الأشياء كانت معروفة ومحبية إلى النفس، ولكنها كانت تترك بداخلها إحساساً غريباً مفعماً بالحزن، أما الراحة التى كانت تشعر بها فى وجود هذا المصرى الوسيم فكانت أمراً غريباً، حتى لو كان يعنفها على شىء لم تفعله.

شىء لم تفعله؟ فى الحقيقة لا. على الأقل لم تفعله بعد. لقد راودتها هذه الأفكار لمرات ومرات، وحاولت جاهدة أن تتجنب عقوبة السرقة. ربما لم تكن الرغبة فى العزلة عن الجميع التى اختارتها فى السنوات الأخيرة بسبب سلوك زوجها غير الاجتماعى، أو بسبب خوفها من أن يؤدى استمرارها فى لقاءاتها الاجتماعية لوقوع المحذور بشكل أو بآخر. إن جريمتها الوحيدة - حتى الآن - هى تلك التى اقترفتها فى سنوات الصبا عندما كانت تسرق مراوح اليد الخاصة بصديقاتها، متظاهرة بأنها قد خلطت بين الحروف المكتوبة على كل مروحة، وعندئذ كانت صديقاتها يواسيها قائلين: «آه، كيف تخط ابنة سينجوس المسكينة بين الحروف!»، لكنها لم تعتبر ذلك النوع من السرقة أمراً خطيراً. المرة الوحيدة التى لم تستطع أن تقاوم فيها (تلك الرغبة المحمومة) لسرقة تمثالاً صغيراً من منزل، (كانت تتمنى لو أنها نسيت اسم صاحب المنزل)، لكن لحسن الحظ، وبسبب ذعرها، جرت ناحية غرفة تغيير الملابس ووضعت التمثال داخل الجيب الخطأ، ولكنها لم تعرف ما الذى حدث بعد ذلك.

كانت رغبتها المحمومة تجعلها تتشكك بشكل كبير فى كل شىء، حتى وصل بها الأمر إلى اتهام إحدى مدعواتها بسرقة ميدالية تذكارية، وهو ما لم يتم إثباته. أما ما يخص خادوماتها فلم تكن تسمح لهن فى الماضى بالخروج من المنزل قبل المرور على تفتيش ذاتى صارم. وسواء أكانت تحاول كبح جماح مرضها بداء السرقة أم بمحاولة إلقاء التهمة على آخرين، فقد بات من المستحيل اقتلاع هذه الرغبة من جذورها، وكانت تدرك جيداً أنه سوف يتم اكتشاف أمرها - فى إحدى المرات - فى مكان غريب، وربما

بين أناس أغراب، مثلما حدث ذات مرة فى المحل التجارى بالقاهرة بشارع عبد العزيز، على بعد أمتار قليلة من أحد فروع مصنع زوجها، فى إحدى الرحلات التى قامت بها إلى العاصمة المصرية التى كان من الممكن أن لا تقوم بها منذ البداية.

فى بداية صيف عام ١٩١٥، تلقت تلغرافاً من شقيقها لوكاس، جاء فيه (بالفرنسية): «أنا فى القاهرة، قابلينى هناك، لدى أخبار سارة لك. أخوك لوكاس».

أبلغت ذافنى أندونيس بأمر التلغراف، وسألتها:

ذافنى: «هل أذهب لملاقاته؟».

أندونيس: «أفعل ما شئت، لكن تذكرى دائماً أن القاهرة، فى هذا الوقت من العام، تغلى بمعنى الكلمة من شدة الحر. الآن مرة أخرى، إذا كان هناك احتمال أن يهبط علينا أخوك المدلل ويبدأ فى النحيب، فالأفضل أن تذهبي إليه».

«كلما أسرعتُ كان ذلك أفضل، غداً إذن» هذا ما جال بخاطر ذافنى، ثم أرسلت إليه التلغراف التالى (بالفرنسية):

«سأصل غدا»

لقد تسرعت ذافنى فى اتخاذ قرارها، ربما لأنها نسيت كيف أن حركتها بطيئة وتتصف بالتردد فى مثل هذه الحالات. فعلى امتداد ساعات المساء كانت تخرج ثم تخرج ثياباً وثياباً وتفاضل بينها لتختار واحداً منها: فالثوب الأبيض المصنوع من الكتان والمطرز بالدانتيل يزاحمه فى الاختيار ثوب آخر مشابه له مصنوع من القطن أو ثوب آخر بسيط لكنه مصنوع من الحرير الجميل سكرى اللون. وللجولة المسائية كان عليها أن تفاضل بين ثوب وردى اللون وآخر أزرق مصنوع من الحرير الناعم يحيط خصره حزام حريرى وردى اللون، وثالث باللون الأخضر مصنوع من الساتان اللامع. لم يكن أندونيس حاضراً حتى تسأله عن رأيه؛ أما فوزية وفاطمة فكانتا تقفان أمامها ببلاهة، فى حين اختارت الأنسة جابى، التى اضطرت للاستعانة بها، نفس الرداء الذى اختارته ذافنى، ولم تضيف أى شىء آخر.

«السفر كالكابوس، يا إلهي!» قالت ذافنى ذلك وهى تشعر بالغىظ، أما من داخلها فكانت تشعر بالسعادة لأنها ستقوم بتغيير الجو وستلتقى أخاها بعد فترة من طول الغياب. لكن التردد هو التردد، فى صباح اليوم التالى كان السائق محمود فى انتظارها، أدار محرك السيارة ليقوم بتوصيلها إلى محطة القطار، فى حين كانت ذافنى لا تزال تحشر بعض الأغراض فى حقيبتها وتمطر ولديها بالقبلات.

لقد نسيت كل ذلك بالطبع، بمجرد التقائها بأخيها بعد ظهيرة ذلك اليوم فى القاهرة، وقد تناولوا معاً طعام الغداء فى مطعم الفندق الذى تقيم به. أما لوكاس غير المعروف، فكان وزنه الزائد يوحى، بشكل أو بآخر، بأنه من الوجهاء، وكان شاربه الكبير المفروق بدقة كبيرة على الجانبين يكمل هذه الصورة. كان لوكاس يضع فى جيبه، إلى جانب ساعة والده التى لم تفارقه أبداً، رزمة منتفخة من النقود، بعد سنوات وسنوات من القحط غير معروف عددها.

لوكاس: «إنه لمن دواعى سرورى أن أبلغك أن الأمور "ومنذ زمن طويل" (قالها بالفرنسية) بدأت تتحسن» قال لوكاس ذلك بطريقة مميزة مستحضراً خليطاً من الكلمات الأجنبية واليونانية الفصحى.

ذافنى: «حقاً، يا لها من أخبار رائعة» قالت ذافنى ذلك (بالإنجليزية)، وقد أصابها شيء من الفضول لمعرفة كيف حدث ذلك.

- «لعلك تسألين الآن، يا شقيقتى الصغيرة" (قالها بالفرنسية)، كيف تمكن لوكاس الوضع.....».

- «لا، لستَ وضيعاً».

- «بل وضيع، وضع، كيف إذن وبأى وسيلة تمكن من إصلاح وضعه المالى».

- «ثم؟» (قالتها بالفرنسية).

- «ثم (قالها بالفرنسية)، إن الماضى البعيد ليس إلا مصدراً للثراء، يا ذافنى».

- «لم أفهم، يا أخى».
- «لكن كيف، أنتِ يا من تعشقين التاريخ، كان لابد أن تعرفى، اعلمى إذن أن أخاك يتجه للثراء من التاريخ».
- «وكيف حدث ذلك؟» (قالت ذلك بالفرنسية).
- «كيف حدث؟ أفعل ما يفعله الكثير من الأوربيين واللبنانيين فى مصر، وأولهم وأفضلهم صمويل عظيمان الكبير».
- «اليهودى؟».
- «أتعرفينه» (قال ذلك بالفرنسية).
- «بالطبع أعرفه، من ذا الذى لا يعرف صمويل عظيمان الكبير؟» هكذا أجابته ذافنى بصوت واثق يماثل طريقته الواثقة فى الكلام، ثم أضافت: «إننا إذن نتحدث عن لص الـ
- حالت يد لوكاس التى وضعها على فمها من أن تكمل كلمتها القاسية.
- «عزيزتى، لماذا هذه المغالاة؟ إننا نتحدث عن الثروة الأثرية التى تمتلكها هذه البلد».
- «لكنها سرقة، يا عزيزى لوكاس».
- «سرقة! هل فكرتِ فى قدسية هذا العمل، عندما يحاول من خلاله شخص أرسقراطى أن يحفظ لنفسه مكانته؟».
- «لا لم أفكر فى ذلك».
- «على الأقل، هل فكرتى أن تفعلى شيئاً مثل هذا؟».
- «أجنتت! (قالتها بالفرنسية) هل تريد أن يقتلنى أندونيس؟».

- «أندونيس....." بغض النظر!" (قالها بالإنجليزية) لم أفهم أبداً كيف دخل مثل هذا الرجل حديث الثراء فى عائلتنا».

- «لا تنس أنك تتحدث عن زوجى».

- «أه يا ذافنى، إنه لا يستحقك، بالطبع لا يستحقك! بينى وبينك، كان يستحق ما هو أسوأ».

- «لا تكن فظاً» هكذا صاحت ذافنى (بالإنجليزية) وهى تضحك، ولكنها كانت من داخلها سعيدة بلهجة أخيها القاسية.

- «على أية حال، الحقيقة أنه ساعدنى مرتين أو ثلاثاً للخروج من بعض المشكلات التى كان يمكن أن تحط من قدرى».

كان لوكاس هو الشخص الوحيد القادر على أن يصف الأشياء بهذه الطريقة، مدعياً ثقته بنفسه بطريقة مبالغ فيها.

عندما بقيت ذافنى بمفردها لاحقاً، كانت تحاول أن تمتص هذه الصدمة التى أفصح عنها لوكاس، ثم تعجبت قائلة:

«أخى مهرب آثار!»، ورويداً رويداً جعلها هذا الاكتشاف، الذى أصابها بالذعر فى البداية، تنظر فيما بعد إلى أزمته بنوع من التعاطف: "فى النهاية ماذا يعنى داء السرقة بالنسبة لى، فأنا دوناً عن غيرى أستطيع الآن التحكم فيه تماماً، وربما يرتبط هذا الداء بعائلتنا ويجرى فى دمائها، هكذا حدثتها نفسها. استرجعت ذافنى فى ذهنها كلمات أخيها لوكاس، وفكرت أنه ربما كان على حق فيما يختص بقضية السرقة حتى لا تتأثر الدائرة الاجتماعية المحيطة بها. بهذه الأفكار دخلت دون أن تدري، وكان ذلك فى بداية فترة ما بعد الظهيرة، إلى المحل التجارى بشارع عبد العزيز.

لم تكن المرة الأولى التى تزور فيها هذا المحل بواجهاته الثلاث الكبيرة وبنائه المعمارى الجميل، فقد كان يحتل ناصيتين كبيرتين، وتعلوه قبة ذهبية وكأنها عمامة

كبيرة. كان الزحام الموجود داخل المكان وخارجه يمنحها إحساساً كبيراً بالحرية. لكنها لم تكن حرية مطلقة. فقد قاومت بشجاعة شيطانها، وقبل أن تمد يدها، كان ثوبها الأبيض المصنوع من الكتان قد تبلل من العرق، لكنها عندما فعلت ما فعلت، كانت وكأنها بالفعل قد أصيبت بالعمى، فكل ما تراه يلمع فى عينيها دون أن تفكر فى قيمته الحقيقية، وإذا ما كانت فى حاجة إليه أم لا، أو عما سيحدث لها إذا تم القبض عليها. وما إن شرعت فى وضع ما سرقته فى حقيبتها حتى شعرت بيد قوية تمسك بها من معصمها، ولكن بطريقة حانية. تخيلت ذافنى قبل أن تستدير وتتنظر أنها ستواجه ذلك الوجه الأسمر الفاتن الذى دائماً ما تراه فى أحلامها، وأنه سيقول لها (بالإنجليزية) بنبرة مفعمة بالركة: «إن هذا لا يليق بسيدة مثلك».

* * * * *

من الخسارة أن نحيا حياتنا بأكملها انتظاراً لذلك اليوم الذى سيشرفنا فيه فينيزيلوس بالحضور، حتى يكون لدينا فيما بعد شيء نذكره، هذا ما جال بخاطر أندونيس خاراميس ذات مرة، متأملاً فى زيارة زعيم الأمة اليونانى لمصنعه. رجل أجنبى تمكنا فى أحسن الحالات أن نتبادل معه حوارات رسمية، وهو ما نعتبره أعظم شرف قد حدث لنا.

وفى الحقيقة، سوف تترك الأعوام القادمة بصماتها على مر الزمن. استحوذت الحرب العالمية على اهتمام المجتمع السكندرى، وبلغت تطوراتها، بما فى ذلك من إعادة تخطيط خريطة العالم، أسمع الناس وكأنها صدى بعيد، وكأنه حدث قديم أصبح فى عداد الماضى، يمكنك أن تقرأه على صفحات الجرائد من باب الاهتمام بالأحداث التاريخية. حتى إن تحرك كاليبوليس، الذى كان يستهدف ضرب ميناء الإسكندرية، لم يعكر صفو أهل الإسكندرية. كانت مضايق نهر الدردنيل على بعد مسافة كبيرة لا تمكن أحداً من سماع أصوات المدافع وزئير الحرب التى وصفت بأنها أبشع حرب فى تاريخ الإنسانية. ولابد أنها كانت كذلك، فسرعان ما امتلأت مستشفيات مدينة

الإسكندرية بالجرحى، حتى إن كازينو سان ستيفانو قد تحول فى لحظات إلى مكان لعلاج الجرحى.

فى هذه المدينة، حدث بالفعل كل ما يمكن أن يصيب الإنسان بالذعر، باعتباره نتيجة مباشرة لتلك الرقابة الصارمة التى فرضها الإنجليز. لكنه لم يكن هناك ما يمكن اعتباره حدثاً مهماً، فالحياة تشبه إلى حد بعيد أمواج البحر المتوسط المتلاحقة؛ أما الانطباع الذى خلفته تلك الأحداث فلم يكن ليستمر أكثر من استمرار الزبد الذى قد تحدثه موجة واحدة. هكذا كانت التطورات المرعبة بوجه عام تمنح أندونيس، وكل من يشبهه، الإحساس الكاذب بأنه يحيا، لكنه كان يتجاهل، فى نفس اللحظة، التغيرات التى أخذت حيزاً كبيراً فى حياة أهل بيته، متجاهلاً كذلك فى الوقت نفسه، أن عجلة الزمن مستمرة فى الدوران بالجميع وبصفة خاصة به شخصياً.

لهذا السبب، لم تكن نهاية الحرب كافية لإزعاجه، على الأقل ليس بالدرجة التى أثر فيه اكتشافه أن ابنه كوستيس لم يعد ذلك الصبى الصغير، ربما لأن ذلك قد تزامن مع حدوث تلك الفضيحة التى كانت مثاراً للحديث فى صالونات الإسكندرية، والتى وقعت أحداثها فى نهاية عام ١٩١٠.

أثناء ذلك، كانت إيفيت تدير ببراعة بيت البغاء فى شارع مصطفى باشا، دون أن يساور أندونيس أدنى شك فى علاقتها الخاصة بروكسانى. وذات مرة سألها، بينما كان مستلقياً فى أحضانها، قائلاً: «لقد رأيتك منذ أيام مضت مع إحدى السيدات (كان يعنى ماريانثى) تسيران فى شارع شريف باشا. هل هى صديقتك؟». إلا أنه كان مجرد سؤال عابر ولم يكن ينتظر منها إجابة عليه، كما لم يهتم بذلك الارتباك الذى بدا عليها. لم تكن عشيقته على استعداد لأن تحيا حياة "الأسيرات" داخل عالمها الصغير بشقة شارع السلطان حسين، وهو الأمر الذى لم يستطع أندونيس نفسه أن يدركه، ليس بسبب سذاجته، ولكن بسبب طبيعة الرجل الاقتصادية التى جعلته يتحمل مسؤوليات كبيرة، والتى كانت تبدو للآخرين وكأنها نوع من عدم الاهتمام بها. ولنفس السبب لم يعط أندونيس أدنى اهتمام لرحلات ذافنى إلى القاهرة، تلك الرحلات التى

كانت تستغرق وقتاً طويلاً. ربما كان يتفاجأ بعض الشيء من تلك الابتسامة التي كانت تملأ شفيتها في الفترة الأخيرة. على أية حال، كان غيابها المتكرر يسبب له نوعاً من الارتياح وبالتالي فلم يكن ليذهب بعقله بعيداً للتفكير في أنها تفعل شيئاً تستحق عليه اللوم. وفي نفس الوقت كان يشعر بقلق تجاه الطريقة التي يتحدث بها ماخوس، ورغم ذلك فلم تكن لديه الرغبة في التعمق في هذا الأمر، بل كان يكتفى من وقت لآخر بالقول: «لقد أصبح ابنا الصغير خجولاً كالفتاة الصغيرة!» وكان يعتبر أن ما يقوله شيء ذو قيمة.

وإذا لم يكن أندونيس مهتماً بكل صغيرة وكبيرة تتعلق بأهله الذين يخصصونه، فما بالنا بالبيئة الرحبة المحيطة به. وعلى سبيل المثال فقد أقرض ثاناسيس بوستاندزوغلوس مرتين من قبل، دون أن يسأله في كل مرة عن السبب الذي يجعل رجلاً مثله يطلب قرضاً وهو مندوب تجارى يحقق نجاحاً باهراً، بصفة عامة، في مجال عمله، وهو ما لم يحققه الكثيرون غيره. أما عن العلاقة الخاصة التي تربط إلياس بالسلطات البريطانية، فكان يعتبرها علاقة طبيعية بصفة عامة، رافضاً بإصرار أن يأخذ تلك الشائعات التي جعلت من " اللبناني " عميلاً في المخابرات الإنجليزية على محمل الجد. ومن جهة أخرى، كانت هناك أمور أخرى تشغل أندونيس طوال تلك السنين - مثل إمداد القوات الإنجليزية في الشرق الأوسط بالسجائر - وقد أسهمت الحرب بشكل كبير في جعلها عملية أكثر تعقيداً. فقد كانت صعوبة النقل التجارى عبر البحار، وكذلك النقص الشديد في الورق، بمثابة تهديد موجه لصناعة السجائر، هذا بالإضافة إلى توسعة المصنع وميكنة الإنتاج، وكلها تمثل موضوعات حيوية ومهمة تؤدي إلى تعطل الإنتاج دون مبرر، في حين قلصت البنوك من حجم القروض التي تمنحها. «نعطيك بدلاً من أن تعطينا!» تلك المقولة التي ذكرها أندونيس ذات مرة ما بين الجد والسخرية لثاناسيس، وهو يقصد بذلك بالطبع شقيق ماري - زوجة ثاناسيس - الذي يعمل مديراً لبنك " لاند"، إلا أنه كان على يقين من أنه (أي مدير البنك) لم يكن باستطاعته أن يمنحه هو نفسه القرض تلو الآخر. ومن جهة أخرى، فقد كانت

التغييرات التي تطرأ على القيادة البريطانية من الأمور التي تزعج أندونيس بشكل كبير، على الرغم من تأكيدات إلياس بأن كل شيء يسير سيراً حسناً، وقد ازداد قلقه عندما قام كوشنر بزيارته في مكتبه ليودعه، وهو ما حدث في شهر يناير من عام ١٩١٧. لم يتبق من ذلك المستعمر المتكبر، كما عرفه من قبل، سوى رقة الجنتلمان داخل ردائه العسكري الذي كانت يبعث على الرثاء؛ أما محاولته الإيحاء بأن منصبه أصبح أعلى من منصب المندوب السامي البريطاني فقد باعث بالقشل مرة أخرى عندما تولى السير هنري ماك ماون خلفاً لسير ريتشيناو وينجيت.

قال كوشنر (بالإنجليزية): «هذا ليس عدلاً، يا سيد خاراميس، فرجال الجيش يتلاعبون بالضباط في وقت الحرب». كانت لحيته تهتز صعوداً وهبوطاً طوال فترة حديثه معه، والتي كان قد أطلقها أخيراً لكي يخفي أذنيه الكبيرتين، مما أعطى تأثيراً كبيراً على كلامه.

لم تكن استقالة كوشنر هي العقبة الوحيدة في عمله. فقد كانت مراسلاته التجارية في الفترة ما بين عامي (١٩١٥ - ١٩١٨) تلخص محاولاته للعبور منتصراً في تحديات الحرب. من هذه المراسلات: «السيد المحترم. نفيديكم علماً أنه بخصوص التبغ الذي تسلمناه في يوم...../...../١٩١٥، وجدنا به تسع حاويات مبللة بالزيت، وقد طلبنا من مندوبكم الحضور.....». أو «بمقارنة سعر ورق السجائر بالذهب، أعتقد أنكم وسكرتيرتكم تذكران أن فاتورة الحساب الأخيرة لشهر يونيو ١٩١٦، أبدتكم رغبتكم في عمل خصم إضافي بقيمة ٥ ٪ عن السعر المتفق عليه. لذا نرجوكم.....».

وكأن كل ذلك لم يكن كافياً، فقد اشتعلت الحرب بين أنصار فينيزيلوس وأنصار الملك، في حين كان أندونيس خاراميس، وسط تشجيع من ثاناسيس، يسعى دائماً لإصلاح ما هو معوج، مثلما هي الحال بالنسبة للخطاب المرسل إلى القنصل ساختوريس، حيث كان توقيعه، من بين التوقعات الأخرى، مكتوباً بحروف كبيرة وعريضة، ظاهرة للعين، وقد جاء فيه: «السيد المحترم قنصل الإسكندرية، بخطابنا هذا نرجو التأكيد على المسؤولين بالقنصلية سرعة التحذير من خطر المجرم فيليبوس

ذراغوميس، مؤيد الملكية وصديق الألمان. إن اتحاد محبى الحرية بالإسكندرية يتحفظ على غياب الإجراءات الضرورية التى من شأنها أن تدحض هذا القرار، مع الاحترام».

لم يتعد كل ذلك كونه روتيناً يومياً يقضى على ما تبقى لديه من عزيمة، وقد أقسم أندونيس، الذى انخرط فى العمل بقوة منذ أن كان طفلاً، أن يمنح نفسه الوقت الكافى للاستمتاع قدر الإمكان رغم كل ما يجتمع حوله من متاعب، فإن كثرة مشاغل أندونيس واهتماماته بالعمل كانت تبدو دائماً أقوى من إرادته، حتى لو كانت لديه رغبة حقيقية فى تغيير حياته. كان أندونيس يمتلك دائماً الشعور بأنه سيصبح كالسمكة التى ابتعدت عن الماء إذا ما ابتعد عن نشاطه فى الدخان الذى أصبح وحده على دراية كافية بكيفية خلط أنواع التبغ المختلفة ببراعة؛ ولذلك فقد ظل مواظباً على نشاطه فى العمل، تاركاً نفسه لمفاجآت الحياة التى تسعده أحياناً وتحزنه فى أحيان أخرى، مدركاً أن الموت سيلاقيه يوماً ما، وهو بين كل تلك المشاغل والمخاوف.

* * * * *

يوجد فى مصر العديد من الباعة الجائلين، ولكل منهم، حسب مهنته، صوت مميز ونداء مختلف يعلن من خلاله عن مروره بالمكان حاملاً بضاعته. استطاع كوستيس بمهارة بالغة تمييز تلك الأصوات والنداءات، فبمجرد أن ترد إلى مسمعه أصوات طقطقة صحنين معدنين- تشبه صوت الكاستانييت- كان يتوقع أن يظهر على الناصية ذلك الوعاء الفضى اللامع الذى يحتوى على مشروب العرقسوس الذى يتميز بمذاقه المر، يحمله البائع على كتفه ويقدمه للمارة فى أكواب يغسلها بشكل سبى، وبفس الطريقة كان بائع البسكويت يعلن عن مروره بضرب قضيبين صغيرين من الحديد ببعضهما بعضاً. ومن بين كل هؤلاء الباعة يمر "الأراجوز" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، وهو النسخة العربية من "الكاراجيوزى" المعروف فى اليونان. كان الأراجوز يؤدى ألعابه فى الطريق بالعرائس، معلناً عن قدومه باستخدام الصاجات النحاسية والترومبيتة. وفى الأحياء الشعبية كانت السيدات المصريات السمينات يقسن أقمشة "الكاستور" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) الذى يبيعونه بطريقة مميزة:

من خلال قياس المسافة من الأنف حتى طرف اليد الممتدة. وفي الميادين العامة ينتشر الحواة والسحرة والرجال مفتولى العضلات - وجميعهم من الشبان الفقراء - يقدمون استعراضاتهم التي تجعلك مشدوداً من فرط الإعجاب. أما مدرب الدببة فكان يدفع الدبة المقيدة بالسلاسل للرقص على أنغامه، من أجل إبهار الجماهير. أضيف إلى ذلك باعة الفستق العربى (أى السودانى)، وأفران البطاطا المحمولة على العربات، وباعة " الذرة " (نكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، وباعة أسماك النيل التي يضعونها فى طاولاتها، وهناك أيضاً المحلات والأسواق الشعبية. ومن كل ما سبق ربما يفهم المرء لماذا تتصيد حياة الشارع فى شباكها - مثلها فى ذلك مثل العنكبوت الضخم - خيالات الصبية الصغار، مثل كوستيس، الذى كرس سنوات صباه فى دراسة شوارع الإسكندرية.

كان مقصده الدائم هو عمارة باب سيدرا، طالما يعوق الخال ثاناسيس خطط تشييد منزل خاص بهم فى منطقة فيكتوريا، مفضلاً أن يستثمر مكاسبه فى الخيول، التي كانت زوجته دائماً ما تشبهها مازحة بدوامات شاطئ العجمى. أما الخالة ماريا، التي كانت ابتسامة منها كافية لإزالة آثار السنين من وجهها، فلم تتوقف أبداً عن إسالة لعاب كوستيس بالأطعمة اللذيذة القادمة من جزيرة سيمى، مستبدلة أحياناً الأطعمة الشعبية اليونانية بالأطعمة الشعبية المصرية مثل " الفول والفلفل وشورية الملوخية " (ذكر كل ذلك باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) بلونها الأخضر الداكن. وكانت الخالة ماريا عندما لا تذهب بنفسها إلى المحل لتهتم بتوجيه ومراقبة العمال به، تبقى فى المنزل لتتشاجر أحياناً مع المكوجى عند إحضاره القمصان المكوية، وأحياناً مع إحدى الخادومات التي تشك أنها تسرقها، وأحياناً أخرى مع نيكيتاس الذى كان سلوكه، بخلاف جميع أشقائه، لا يشير إلى أنه سيتغير مع مرور الزمن.

وبتشجيع منه، اعتاد كوستيس على زيارة عمارة كامب شيزار بشكل مستمر للقاء عزيزة بجسدها المشوق الذى تفوح منها رائحة الغار وعطر الليمون(*)، ولم يكن كوستيس يعرف هل تفوح تلك الروائح من جسد تلك المرأة المصرية أم من شعر رأسها

أم من أوراق نبات الغار وقطع الليمون التي كان قد رآها وهي تضعها في طشت الغسيل. كان نيكيتاس، طوال الوقت الذي يقضيه كوستيس مع عزيزة، يقوم بدوره بلعب الورق مع زوجها عمر البواب، وأحياناً ما كان يجد نفسه مضطراً للعب مع عمر دورين أو ثلاثة أذوار. في غضون ذلك، كان الوقت يمضي وأبناء العم ينتقلان من فصل دراسي إلى آخر في مدرسة أثيروفقيوس الإعدادية. تخرج نيكيتاس أولاً في عام ١٩١٦، وفي يوم السادس والعشرين من يونيو أقيم حفل التخرج الكبير في مجمع المدرسة اليونانية بالشاطبي، وقام بطريرك الكنيسة اليونانية والقنصل اليوناني بتوزيع الشهادات على الخريجين. كان نيكيتاس يبدو مشرقاً في زي التخرج، وقد أغرق شعره الذهبي بكمية كبيرة من زيت تصفيف الشعر، حتى لا يثير شعره الكثيف حفيظة مدرسيه. أما الخالة ماريا، فكانت تبدو رشيقة داخل رداؤها أزرق اللون المصنوع من الحرير الناعم - الذي ترجع موضته إلى عشرين عاماً مضت، كما ذكرت ذلك لاحقاً والدة كوستيس - ولم تترك المنديل من يدها طوال الوقت مدعية بأنها تسمح دموع عينيها به بين الحين والآخر. أما ثاناسيس فقد حضر الاحتفال مرتدياً زياً رسمياً، إلا أنه رحل قبل نهاية الاحتفال بقليل حتى يلحق بسباق الخيول في نادي سبورتنج.

انتَهز نيكيتاس الفرصة، واستأذن من عمته ذافني لكي يصطحب كوستيس معه إلى كازينو سان ستيفانو في المساء. ودار بينهما الحوار التالي:

ذافني: «ماذا ستفعلون في الكازينو، هل ستذهبون لمشاهدة اللاعبين؟».

نيكيتاس: «لا أبداً، يا عمتي، ألا تعرفين أنه قد تم تجديد الكازينو وأنه سيخصص للغرض الحقيقي الذي أقيم من أجله؟ وأرغب في دعوة كوستيس لنشرب معاً عصير الليمون بمناسبة التخرج. ما قولك إذن؟».

- «ماذا أقول؟» هكذا أجابته، ولكن لم يرق لها مطلقاً أن تسمع نيكيتاس وهو يدعوها "عمتي"، ثم أضافت: «وكان إذن له أية أهمية! أتعادنتي على الأقل أن لا تتأخرا؟ هل هذا وعد؟» (قالتها بالفرنسية).

- «بالطبع هذا وعد» (هكذا أجابها بالفرنسية).

عند الظهيرة استقل ابنا العم الترام إلى سان ستيفانو، كان الجو شديد الحرارة وكان كوستيس يرتدى قميصاً أبيض اليوم بأكمام مثنية. وفى الطريق قاما بالتريض فى الحدائق أمام المنازل فى باكوس حيث قبيلات ومنازل المصطافين فى مصطفى باشا ورشدى. على جانب الطريق كانت أشجار الجميز والمطاط وغيرها بأزهارها الحمراء فاقعة اللون منتشرة فى كل مكان، وعلى الجانب الآخر توجد أشجار النخيل أمام البحر الواسع، كأنها لوحة فنية محاطة بأنهار من الدانتيل الأبيض.

فى الكازينو، كان على القوم يملأون المكان، وكانت الأوركسترا تعزف الموسيقى الكلاسيكية، لكن الألمان الموسيقية لم تكن على المستوى المطلوب. حيث كانت السلطات الإنجليزية قد أصدرت أوامرها بمنع عزف الموسيقى الألمانية. وبدلاً من أن يطلب كوستيس عصير الليمون قام باحتساء كوين أو ثلاثة من البيرة حتى بدأت رأسه تدور، فأخذ يسخر من تلك الخطوط المرسومة على وجنات النداء السودانيين، الذين بدأوا بدورهم يرمقونه بنظرات غاضبة. وعندئذ تساءل نيكيتاس إذا ما كان قد فعل صواباً عندما تركه يسرف فى الشراب. وكان ذلك لم يكن كافياً، فقد قرر كوستيس أن يجرب تدخين السجائر للمرة الأولى فى حياته، إلا أنه توقف فى التو عندما شاهد أحد الأشخاص ممن يعرفون والده، وقال:

«أأأخ، إنه القبطى»، هكذا تمت كوستيس وأسرع بإلقاء السجارة على الرمال، أما القبطى فهو رجل أعمال مصرى يعمل فى صناعة الورق، يدعى بطرس عبد المسيح، وهو أحد المقربين إلى أندونيس خاراميس، حيث كان قد ساعد أندونيس فى الخروج أكثر من مرة من أزمة اختفاء الورق فى سنوات الحرب. إنه رجل طويل القامة بدين الجسد، يبدو وكأنه وحش كثيف الشعر مثل الدب، أما الطربوش الذى يرتديه على رأسه فكان يخفى رأساً تكاد تكون صلعاء. كان صوته الأجش يوحى للآخرين بشخصية تخالف شخصيته الحقيقية، حيث كانوا يرون أن هذا المصرى فاحش الثراء هو كالحمل الوديع. أما بطرس برأسه لكوستيس محبباً بطريقة جافة فما كان من كوستيس إلا أن رد له التحية، وعندئذ علق نيكيتاس قائلاً:

- «تلك الفتاة التي تجلس بجواره هل هي ابنته، يا ابن العم؟» (قالها بالفرنسية).
- «يا لك من حيوان، ديب» (قالها بالعربية ودونها بحروف يونانية)، أيها المغفل، إنها زوجته».
- «زوجه؟ هل أنت متأكد، يا ابن العمة؟» (قالها بالفرنسية).
- «لم أرها من قبل، لكنى سمعت أنه قد تزوج من امرأة شابة، ولابد أن تكون تلك هي» هكذا أجابه كوستيس بنيرة جادة.
- «انظر كيف تتقمص القبطية دور امرأة أوربية؟ انظر لهذه المظلة وتلك القبعة وذلك الرداء الحريري إنه شيء يخطف البصر!».
- «لكنها تبدو أوربية بالفعل، يا ابن الخال، أليس كذلك؟» (قالها بالفرنسية).
- «حسناً، إذن، هذه المرأة هي ما يلزمك لمغامرة عاطفية جديدة».
- «هل جننت؟».
- «استمع لعمك نيكيتاس عندما يتحدث، فأنت مازلت صغيراً وساذجاً، لكنك ستصبح متمكناً بفضل مساعدتي لك. هذه المرأة فهمت الرسالة».
- «فهمت الرسالة؟».
- «فهمتها واستوعبتها تماماً».
- «قل ماشئت إذن، أيها العم "نيكيتاس"».
- «أما أنت فستظل جباناً كالمعتاد» هكذا أجابه وقد خرجت من شفثيه رغبة البيرة.
- «لستُ جباناً وأنت تعرف ذلك».

- «إنن أريد أن أراك وأنت تسبح فى المياه العميقة، أريد أن أفرح بك».

- «أفضل أن أغوص فى - بئر الشيطان نفسه - على أن ألقى بنفسى فى أحضان هذه المرأة. لأننى إذا نجوت بعدها من بطرس فبكل تأكيد سيقوم أبى بشنقى».

- «أرأيت إذن أنك جبان. لكن حدسى يحدثنى بأنك لن تستطيع الفكاك من هذه المرأة، "يا ابن العمة" (قالها بالفرنسية)».

أخذ كوستيس يتفحص النظرة الباردة لتلك المرأة الشابة، وجمال بخاطره مرة أخرى أن ابن خاله ربما لم يكن يدرى ما الذى يقوله حقاً.

* * * * *

«مستحيل!» كانت ذافنى تردد هذه الكلمة (بالفرنسية) باستمرار، وكأنها تستطيع بكلمة واحدة أن تصف كيف تحول كوستيس بمرور فصل صيف واحد من مجرد صبي صغير إلى رجل بمعنى الكلمة. «مستحيل!» رددتها عندما رأت بنطاله الأخضر وقد أصبح يصل بصعوبة إلى كاحليه «مستحيل!» رددتها عندما حاولت أن تلبسه، بجهد كبير، أحد قمصانه الذى تمت حياكته منذ فصل الربيع الماضى. «مستحيل!» رددتها عندما شاهده وهو يشد أكمام زيه البحرى حتى ينجح فى إنزالهما حتى رسغه؛ أما هو فكان يجد صعوبة شديدة فى السير عندما يحاول جاهداً، دون جدوى، ارتداء حذاءه المفضل، دون أن يعترف بأنه أصبح بحاجة إلى حذاء أكبر بدرجتين حتى يتمكن من ارتدائه. كانت أمه تعزى هذا التغيير المفاجئ الذى ظهر على ابنها إلى الألعاب الرياضية التى كان يمارسها، مثل: التنس، كرة القدم، الكروكيه، إلى جانب القليل من رياضة التجديف. إنه كالشجرة التى امتدت جذورها فى باطن أرض مصر الخصبة وكانت تنمو وتتعرعر يوماً بعد يوم؛ كان ابن أندونيس وذافنى يشبه النخلة الياقعة، وكان ظله يعكس كيف أصبح رجلاً ناضجاً يافعاً، كما اكتسب صوته تلك الطبقات التى تملأ سمع أى امرأة، وهو ما يبدو واضحاً الآن، حيث يتردد صوته داخل صالون المنزل مردداً بعض الألحان التى تحتاج إلى صوت رخيم خلف الأنسة جابى.

كانت ذافنى تفخر أحياناً بابنها، لكنها كانت تشعر فى أحيان أخرى نحوه بالقلق، وكان ذلك من حقها. فقد أثبت كوستيس حتى الآن أنه شيطان حقيقى، الله وحده يعلم إلى أى درجة من درجات الخطر يمكن أن يقوده هذا النضج المبكر. فحتى الآن لم تكن أمه التى ولدته تعرف أى شىء عنه، ولم تستطع أيضاً أن تواجه هذا "الشر" القابع خلف هذه النظرات الحاملة، وتلك الابتسامات الرقيقة، وكذلك أسرارهِ ومتاعبه الخفية. وعندما كان أندونيس يطالبها بتحمل مسئولياتها باعتبارها أمّاً تجاه ابنها، لم تكن تعرف بِمَ تجيبه.

يقولون إن الشر يمكن أن يبدأ بزيارة عائلية واحدة. وفى شهر سبتمبر من عام ١٩١٦، فى عزية بطرس عبد المسيح فى أبى المطامير، حيث شيد هذا الرجل المصرى فاحش الثراء قصره الخاص بأسوار هرمية الشكل من أركانه الأربعة، والمشيدة بالخرسانة تماماً كتلك المستخدمة فى بناء الأبراج العالية. كانت الواجهة الرمادية للمنزل تعطيك انطباعاً وكأن المنزل عبارة عن تنوء طبيعى فى بطن الأرض الخصبة.

على الرغم من أنه كان يوماً من أيام الآحاد، فإن بين أزهار القطن المزروعة فى كل مكان حول المنزل، كان مئات الفلاحين يعملون بجِد ونشاط. تشم فى الهواء الطلق رائحة جميلة وكأنها رائحة عطر خفيف، وقد بين لهم بطرس بلغة يونانية مدهشة سبب هذه الرائحة قائلاً:

«هذه الرائحة تعنى وجود دودة فى القطن ينبغى علينا أن نبدأ حالاً فى التخلص منها. ولكن ينبغى أن نقوم أولاً بعملية "تمشيط" جيدة للقطن المزروع. حتى نتخلص من أوراق القطن المصابة، ثم يتم إفراغ حقائب الفلاحين المليئة بالأوراق المصابة على أطراف العربة ثم تحرق بعد ذلك».

أندونيس: «أتعجب كيف يمكنك أن تربط بين عملك فى الورق وبين زراعة القطن!».

وكان من المعروف مدى كراهية أندونيس نفسه للقطن وبخاصة لتجار القطن.

ابتسم بطرس ابتسامة واثقة؛ عندئذ لمح كوستيس على وجه بطرس، بعيني صبي برى، ذلك الغرور الذى كان قد لمح في عينيه عندما التقاه فى بداية الصيف، فى كارينو سان ستيفانو، وجال بخاطره أنه ينبغي أن تعاقب الحياة، بشكل أو بآخر، مثل هذا الرجل الذى يتفاخر بشكل مستفز، على أمور كثيرة: على كونه متزوجاً من جيهان، زوجته الشابة، وعلى معرفته اللغة اليونانية، وعلى ثروته ونشاطه التجارى، وبشكل خاص على ابنه يوسف الذى يبلغ من العمر عامين؛ ذلك الطفل الجميل الذى كانوا يناوبونه جوزيف. كان يوسف يشبه أمه، وفى تلك الأمسية كان مثار حديث الجميع فى العزبة بكل كلمة يقولها وكل فعل يقوم به.

فى ذلك اليوم لم يكف بطرس عن إظهار قدراته أمامهم، بدءاً من الخيول التى يمتلكها، والى امتطى ماخوس أحدها وكان مهراً بنى اللون، أخذ يتجول به فى العزبة وقد امتدح الجميع موهبته الواضحة باعتبارها فارس. بعد ذلك اصطحب بطرس كلاً من كوستيس واباه واختبأوا بين أعواد الذرة لاصطياد الحمام. مرت أعوام طويلة لم يمسك فيها أندونيس بندقية بيده، أما بالنسبة لكوستيس فلم تكن تجربته الأولى فى الصيد ممتعة، وبخاصة عندما كان يرى هذه الطيور المسكينة وهى تترنح وتسقط مضرجة فى دمائها.

«سوف تعتاد ذلك» هكذا وجه بطرس وأندونيس حديثهما بلهجة واثقة لكوستيس، الذى تتمم بداخله قائلاً: «هل يتم التعود على الموت؟».

وبالفعل فلا الموت ولا الوحدة يمكن لأحد التعود عليهما.

«للحظات ولحظات أشعر بثقل ما جاثم على صدرى، أنظر إلى النجوم فأجدنى ضائعة. فمن يمكن أن أصاحب هنا؟ إنه شىء غير مقبول» (قالت ذلك بالفرنسية) «هكذا اعترفت جيهان لذافنى، التى أحست بأن فارق العمر بينها وبين جيهان يجعلها مضطرة للاستماع إليها بعاطفة الأمومة. كانتا تحتسيان الشاي وحدهما فى فترة الغروب داخل حجرة الصالون ذات الأثاث الضخم المنقوش الذى قام بصناعته أكبر صناع الأثاث بدمياط، فى الوقت الذى جلس فيه الرجال معاً. كانت الجدران تعكس

حرارة الظهيرة بالعزبة، وكان ضوء الشمس يصل داخل المكان بطريقة مبهرة وينعكس بنعومة على الأسطح الخشبية وعلى الكريستالات والفضيات الموجودة بالمكان. فى مثل هذا المكان الموحش، كانت المرأة القبطية الشابة تبدو جميلة ولكن حزينة، وكان ذلك الانحراف الخفيف (يقصد الحول) فى عينها يزيد من هذا الشعور بالحزن ويجعلها تبدو أكثر جمالاً. جال بخاطر ذافنى، دون قصد منها، كيف أن جيهان ستصبح أكثر سعادة لو كانت فى أحضان رجل أكثر شباباً، ثم انتهى تفكيرها بابتسامة عابرة ظهرت على شفيتها، ثم علقت على مائدة الطعام قائلة:

«على كل حال، الغداء، كان رائعاً» (قالت ذلك باليونانية ثم رددته مرة أخرى بالفرنسية). أما الأكثر روعة فكان ذلك الحمام بالأرز فى أطباقه الضخمة! أتصدقين، يا عزيزتى، أنني لم أذوق مثل هذا الطعام من قبل. "مستحيل" (قالتها بالفرنسية) أن يولد أحد فى مصر ولا يتذوق هذه الوصفة، لو قررت أن أعود إلى هنا مرة أخرى فسيكون لهذا السبب فقط " بدون مزاح" (قالتها بالفرنسية) «

لم تخف جيهان ضيقها، معتبرة أن ذافنى قد غيرت الموضوع متجاهلة مشكلتها، وأيقنت من خلال خبرتها البسيطة فى الحياة، أن السيدة اليونانية متوسطة العمر قد تبنت تكتيكاً محدداً لتغير الموضوع.

ساد الصمت بينهما لفترة وجيزة، وأخذتا تتأملان من النافذة أولئك الفلاحين الذين اعتادوا العمل وظهورهم منحنية صوب الأرض. فى حين كان صوت هديل الحمام يصلهما من مكان مرتفع، من أبراج الحمام .

«إنهم فى مرحلة التزاوج!» هكذا أبدت جيهان ملاحظتها، ثم تابعت: «فالحمام يستمتع بالحب أكثر منا نحن بنى البشر»، عندئذ أشرق نور وجهها فجأة وكأن هذه الفكرة كانت بمثابة الحل لى تكشف عن نفسها قليلاً قبل أن تفعل ذافنى ذلك.

ويبدو أن بطرس كان قد قرر أن يبهر شريكه فى العمل؛ ففى وقت متأخر من بعد الظهيرة، وبينما كانت عائلة خاراميس تستعد للرحيل، وصلت من الإسكندرية فرقة من

العازفين المصريين الذين يرتدون ملابس رسمية أوروبية مع الطربوش، اتخذ كل منهم مكانه فى الصالون الكبير وبدأوا فى عزف أنغام الفالس والكدريل^(٧). ملأت الموسيقى الحاملة أرجاء المكان بأثائه الضخم، وحلقت إلى خارجه من أبواب الشرفات الضخمة فى تلك الأمسية الهادئة وفى ذلك المكان ذى الطابع الأفريقى. كانت الألحان قديمة بعض الشيء، مما جعل ذافنى تستعيد بعض ذكريات سنوات شبابها الأولى عندما احتضنت بيديها القائمة التى سجلت فيها أسماء الراغبين فى الرقص معها، والذين كانت قد وعدتهم بمشاركتها فى الرقصات التالية، وهو ما كان يتكرر فى كل حفلات الرقص التى حضرتها. لقد بدأت أخيراً تتذكر كل شيء يخص تلك الفترة، وكانت تشعر بأنها محقة فى ذلك بعد أن بلغت مرحلة من الرضا مع نفسها ومع عواطفها وأمنياتها الشخصية. لقد استطاعت أخيراً أن تحول رغبتها المقيمة فى السرقة إلى شيء واقعى، طالما أدركت أن مشكلتها لم تكن بشكل جوهرى ذات علاقة بمجرد رغبة حقيرة فى سرقة أشياء تافهة من منازل صديقاتها أو من المحال التجارية أو من الفنادق، ولكنها كانت ذات علاقة بشيء أكبر من ذلك وأكثر أهمية. وفوق كل ذلك كانت لها حياتها، تلك الحياة الفانية التى تستطيع أن تستمتع بها بلا قيود فى رحلاتها إلى القاهرة، مع إحساسها بعض الشيء بالذنب تجاه أندونيس، هذا حقيقى، ولكن دون عوائق من جانبه. لقد كان تجاهله لها يصيبها فى كثير من الأحيان بالضيق. نعم، إذن، فلأول مرة فى حياتها يمكنها القول بكل ثقة إنها شعرت بسعادة غامرة فى تلك الأمسية! لكن وصول عائلة قبطية أخرى قادمة من "العزية" (نكرها باللغة العربية وبونها بحروف يونانية) المجاورة أدى إلى انقطاع أحلام اليقظة التى انتابتها؛ وقد وجدت فيهم السيدة خراميس من خلال حوارها معهم نفس الإصرار على التمسك بالثقافة الأوروبية. كان رب الأسرة رجلاً طويلاً القامة، أنيقاً، يتحدث الفرنسية بثقة كبيرة توضح مدى قدرته على الحديث بلغة أجنبية، أما بالنسبة لزوجته، فقد شعرت ذافنى بأنها قد سبق أن رأتها من قبل مرتين أو ثلاثاً فى حفلات الكوكتيل التى أقيمت فى أحد المنازل اللبنانية

(٧) الكدريل نوع قديم من الرقص يشترك فيه أربعة أزواج.

بالإسكندرية. أما أبناؤها فكانوا أصغر قليلاً من أبنائها، يرتدون الملابس الأفرنجية، ويتحركون بحرص يتعارض مع سنهم، حيث كانوا يتوجهون دائماً بنظرهم نحو أبويهم حتى يحصلوا على موافقتهم لكل خطوة يخطونها. ثم رفع وصول العائلة الثالثة درجة الاهتمام، وقام بطرس فجأة من فرط حماسه بجذب جارته من خصرها وشاركها في الرقص على أنغام موسيقى الفالس وهم يضحكون مما يفعل. أما الرقصة التالية فقد كانت لذافنى مع ابنها الصغير ماخوس، وقد عبر الجميع عن مدى إعجابهم بموهبة هذا الصبى الرائع فى الرقص.

أما كوستيس فقد خطف الأبصار منهما، عندما قام بغناء مقطوعتين لشوبيرت، وفى نفس الوقت قام بمصاحبة الفرقة الموسيقية بالعزف على البيانو. كان صوته رخيماً يمكنه من التنقل بسهولة ويسر بين الألحان الموسيقية المختلفة. وقد اتفقوا جميعاً بلا استثناء على أن الابن الأكبر لأندونيس يتمتع بصوت شجى؛ فى ذلك الوقت لاحظت ذافنى أن جيهان ترمق ابنها بعيون تملؤها الرغبة.

أصاب العرض الذى قدمه ولدا خاراميس بطرس بجرح فى كبريائه، ولم يهدأ حتى قدم استعراضاً، كان من الواضح أنه لم يكن من محاسنه الشخصية، ولكى يؤكد على ثقته بنفسه، اتخذ قراراً غير صائب بأن يلقي فى أحضان كوستيس "بأقوى ورقة لدية"، وهى زوجة الجميلة جيهان لكى ترقص معه. لم يظهر الصبى اليونانى بالطبع نفس براعة أخيه فى الرقص، لكن خطواته الثابتة ويديه القويتين اللتين أحاطت بها منحنى ثقة ألهمت مشاعرها، حتى إنه استمر يراقصها للخلف تارة وللأمام تارة أخرى ويدور بها فى دوائر متتالية مستمتعاً بذلك.

كان الضوء البرتقالى الذى يغمر الصالون الواسع، والجو الرومانسى الذى صاحبه، كافيين لتأجيج تلك المشاعر الرومانسية. وقعت جيهان أسيرة براثن ألوان الغروب الحاملة وكل الثقافة تقوم بها بين أحضان هذا الشاب جعلتها تتورط أكثر وأكثر وتلقى بنفسها فى شباك حبه، هذا الحب الذى لم تكن قد اكتوت بناره من قبل حتى هذه اللحظة. كانت ذافنى هى الوحيدة من بين كل الحاضرين التى شعرت بذلك الحب

العجيب ينمو ويملا جنبات المكان، لكنها لم تكن تتخيل أن تقع جيهان فى حب كوستيس الصغير، ولم تسمح لنفسها بأن تفكر فى هذا الأمر. لكن ما كانت ذافنى تخشاه قد حدث بالفعل.

بعد مرور أسبوعين قام بطرس وجيهان وابنهما يوسف بزيارة عائلة خاراميس رداً على زيارتهم لهم فى العزبة. وارتبط وصولهم إلى منزلهم فى شارع العباسيين بموقف مؤسف. حيث تأخر السائق محمود فى الوصول إليهم، مما دفع خاراميس للتعدي بالضرب على محمود بسبب تصرفه غير اللائق مع تاجر الورق المصرى.

لم يكن كوستيس حاضراً منذ البداية، لكن أدرك والده وهو يصنع محمود مرتين على وجهه، ذلك الوجه الضخم داكن اللون ذى العينين الصغيرتين اللتين يشع منهما الخبث، عندئذ قام السائق بعمل يتسم بالكثير من المداينة، حيث جثا على ركبتيه وأخذ يقبل قدمى سيده ويديه. لم يكن كوستيس يشعر أبداً بالارتياح تجاه هذا الشخص، كما لم يكن يثق به أبداً، بعكس والده.

كانت تلك هى المرة الأولى التى يزور فيها بطرس منزلهم فى الحى اليونانى، دخل بطرس إلى قاعة الاستقبال التى يغلب على الأثاث طراز لوى كاتورز (لويس الرابع عشر) وينتشر بها السجاد الجويلان والتحف التى تتميز بالطراز العربى؛ وفيما عدا الصالون الذى كان يتميز بالطراز الأوربى، شعر بطرس بأن ما شاهده لا يمثل، إلى حد ما، الطراز الأوربى. أصابته الكونسولات المزخرفة بالدوار من شدة انبهاره بها وكذلك قطع الموبيليا بنوقها الفنى الرفيع، والمقاعد المنخفضة التى لا تحتوى على مساند بأغطيتها الحريرية والمناظر الطبيعية من طراز لوى كينز (لويس الخامس عشر). أبدى بطرس اهتماماً شديداً بالتجول فى جميع أرجاء المنزل ولبى له أهل المنزل طلبه. كان كل مكان بالمنزل وكل حجرة تسبب له جرحاً فى كبريائه. فقد أحس أنه أقل بكثير من شريكه فى العمل، وأخذ يتصرف بشكل غريب حتى حانت ساعة الطعام. أما ذافنى فقد استطاعت، بعد أن أدركت بحسها أنها تتعامل مع طفل يريد أن يصيب الجميع بحالة من الارتباك لأسباب تافهة، ويعد أن شعرت قبل كل شىء بالشفقة عليه، أن تهدد

مشاعره المضطربة. وأثناء تقديم الطعام، استدارت صوب جيهان المتألقة وقالت لها: «حاولنا أن نقدم لكم طعاماً لائقاً، ولكن أعتقد أنه لا شيء يقارن بالحمام الذى تناولناه عندكم فى العزبة. ما رأيك فى ذلك، يا أندونيس؟». أوما أندونيس برأسه موافقاً بينما تنهد بطرس تنهيدة تنم عن ارتياحه، وقد شعر أنه ربح أولى جولاته.

اتفق خاراميس، مع ما ذكرته ذافنى، ثم أردف قائلاً:

«الأمر هنا جيدة، لا أنكر ذلك، لكن لا شيء يقارن بالحياة فى العزبة وفى الريف الطيب، هنيئاً لمن يستمتعون بهذه الحياة!».

عادت الابتسامة مرة أخرى إلى شفاه القبطى وعاد إلى طبيعته مرة أخرى وأعرب بدوره عن إعجابه بفيلا آل خاراميس.

شعرت ذافنى بهذا النوع من الرضا الذى يشعر به هؤلاء الناس الذين يعرفون كيف يتعاملون مع الآخرين، وقد استندت مسترخية على مقعدها. فى هذا الجو الودى لم يعر أحد اهتماماً خاصاً بجيهان، كما لم يهتم أحد بتغزلها بجمال عيني كوستيس، فقد ضاعت كلماتها باللهجة الفرنسية الرقيقة وسط صرير الملاعق والشوك أثناء تناول الطعام، حيث انشغل الجميع بالاستمتاع بالأطعمة. حتى الطفل الصغير يوسف كان يبتسم منسجماً بهذا الجو. تناوبت العائلتان فيما بعد تبادل الزيارات الواحدة تلو الأخرى لشهور وشهور، ولم يفتن أحد لذلك التحول الذى طرأ على مجريات الأحداث مع بدايات صيف عام ١٩١٧، وما تلاه. حتى المقربين منهم لم يفتنوا لذلك.

بدأ هذا الصيف بمشاعر غريبة بالنسبة لكوستيس. فقد كان يتعجل دائماً بشكل غير مبرر حلول فصل الشتاء وانتهاءه من الدراسة. وكان دوماً ما يناقش هذا الأمر مع نيكيتاس، لكن يبدو أن نيكيتاس لم يكن يفهمه.

نيكيتاس: «المدرسة لم تكن سوى عذر، يا ابن الخال، حتى تلقى باللائمة على أبيك، اسألنا نحن عن ذلك، فالحياة بعد التخرج مسئولية كبيرة. ألا ترى معاناتي؟ لابد أن ألهث دائماً وراء أبى، وأن أصليح ما لا يمكن إصلاحه. فسباق الخيول من ناحية،

والحرب بين أنصار فينيزيلوس وأنصار الملك من ناحية أخرى. أين العقل الذى يفكر فى العمل؟».

- «ما الذى يمكن أن تفعله لأبيك، يا ابن الخال؟» (قالها بالفرنسية).

- «وما الذى يمكننى أن أفعله؟» (قالها بالفرنسية). ثاناسيس ليس طفلاً صغيراً، هل أوجه له النصح؟ أشعر بالخجل من ذلك. فكان الأخرى أن يقوم هو بإسداء النصح لى».

- «هيا الآن، فأنا على يقين من أن الأمور ليست بهذا السوء».

- «لا تكن واثقاً إلى هذه الدرجة. فمنذ أيام أعطتنى مدام ماريا قطعة من الورق مكتوبة باللغة العربية لأقرأها وكانت تخص أبى. أتعرف ماذا تقول هذه الورقة؟ لقد قام الخال ثاناسيس برهن المحل. أتعرف ماذا يعنى ذلك يا كوستيس؟ سنصبح معدمين. كيف أصبح هذا الرجل بمثل هذا الغباء؟».

- «هيا الآن، لا تقل هذا، لابد من وجود حل».

- «أتقول لى هذا!».

- «هل ذكرت ذلك للخالة ماريا؟».

- «أجنتت! هل تريد أن أتسبب فى قتلها؟».

- «وأنا أيضاً أرى أنه ليس من الضرورى أن تخبرها بشىء. وسوف نجد حلاً».

- «نعم، أى شىء، فلم أعد متفائلاً، يا ابن العمة» (قالها بالفرنسية). ولكن ماذا هنالك؟ فما زلت تلميذاً نابغاً فى المدرسة الإعدادية ولكتك كثير الشكوى».

- «الامر ليس كذلك، فدائماً ما توجد مشاكل».

- «أى نوع من المشاكل يمكن أن تحدث لشخص له عقل مثل عقلك؟».

- «مثلاً، أريد أن أسألك ماذا أفعل مع زوجة القبطى».

- «ومن تكون يا ترى زوجة القبطى؟».
- «تلك التى رأيتها بنفسك العام الماضى فى كازينو سان ستيفانو، ألا تذكر ذلك؟ أسرة تاجر الورق الذى نتبادل معه الزيارة باستمرار فى أبو المطامير، لقد حدثتك عنها من قبل».
- «تذكرت، تذكرت، وقد أخبرتك حينها أن تطفى نارها، فكل أخبارها عندي، أنها امرأة مفعمة بالحياة والمرح، يقولون إنها لا ترغب فى الإنجاب مرة أخرى حتى لا تفسد قوامها. أتعلم ما الذى أنت بصدده، لا تضيع هذه الفرصة إذن».
- «الموضوع ليس بهذه السهولة، فبين أبى والقبطى علاقة عمل وطيدة. ولا أنوى أن أدمر كل شىء من أجل نزوة عابرة».
- «أنس الأمر، إذن!».
- «نعم، ولكنها المرة الثانية التى ألتقى فيها بالقبطية فى نادى سبورتينج. لعبنا معاً التنس. والأسوأ من ذلك هو أننا قد اتفقنا على اللعب مرة أخرى».
- «لعبة جيدة» (قالها بالفرنسية) من هذه المرأة!«.
- «والآن أخبرنى، ماذا أفعل إذا طلبت منى أن نلتقى فى مكان آخر؟».
- «لا تتسرع إذن، استمر فى لعب التنس معها الآن وسنرى ماذا سيحدث لاحقاً».
- «ولهذا أسألك، لأنك لن تكون معى فى اللحظة الحاسمة».
- «وأنت، ألا تملك عقلاً لتزن به الأمور؟».
- «ما أريد قوله إن المدينة ليست كبيرة للاختباء بها. وبمجرد أن تلمحك عين تكون نهايتك».
- «لا تدع المدينة تقلقك» (قالها بالفرنسية)، فلتصل أولاً إلى غرضك وسوف أجد لكما عشاً هادئاً تعششون فيه، يا طيورى الصغيرة».

- «يا لك من شيطان! تدفعنى للشر دون أن تشعر بتأنيب الضمير».
- «حسناً، يا للجرأة!» (قالها بالإنجليزية)، أنا على يقين من أننى سأسمع منك المزيد فى وقت قريب».
- «فليكن ما يكون إذن، ولكن أخبرنى ماذا يدور فى رأسك الآن؟».
- «ماذا يدور فى رأسى..... أتعرف شارع القائد جوهر؟».
- «أتعنى شارع الكنيسة القبطية، حيث توجد كنيسة العذراء؟».
- «بالضبط، فى شارع الكنيسة القبطية نحتفظ أنا وأثنان من أصدقائى المقربين بشقة رحبة بها صالة كبيرة وحجرتان منفصلتان تلتقى فيها دائماً بفتاة لا بأس بها؛ وهناك دائماً متسع لكى تلتقى أنت فى هذه الشقة بتلك المرأة القبطية وإقامة علاقة حب معها بعيداً عن أعين الناس، ويوصفها قبطية فلن تجد ذريعة لغيابها أفضل من زيارة كنيسة العذراء».
- «ألم أقل لك إنك شيطان كبير؟ تساعد على إغواء امرأة مسيحية مخلصة لطريق الضياع».
- «دعنا إذن لا نتعجل الأمور، دع كل شىء يحدث فى وقته»

* * * * *

وقع كوستيس فى الحب بأسرع مما كان يتصور، فمئذ أن بلغ السابعة عشر من عمره استمر فى الاستمتاع باعتباره صبيّاً بعلاقته بعزيزة؛ إلا أن تلك المرأة التى كانت تتقلب على الفراش بجسدها المرمى المثير، لم تكن تبادل كوستيس أية مشاعر عاطفية ولكنها كانت تمنحه فقط جسدها بسخاء. أما هذا الكرم غير المعتاد من زوجها عمر، الذى قدم زوجته لقمة سائغة لتطفئ لهيب شابين فى عنفوان الشباب، حتى لو كان ذلك دون مقابل فقد كان سبباً، بكل تأكيد، فى توحش تلك الرغبة المحمومة ونموها

السريع داخل وجدان شاب فى مقتبل العمر، مما دفعه للبحث عن المزيد من تلك العلاقات بشكل مستمر. لكن خلافاً لعلاقته بعزيزة، فلم تتعد خبراته فى الحب مجرد الخيال أو كانت بالنسبة له مجرد أحاسيس لأمور غير مكتملة، مثلما حدث فى إحدى المرات منذ عامين، عندما أمسك بإحدى الخادومات المصريات، وهى ابنة أخت فوزيه، وهى تسرق فأجبرها على ملاطفته ومداعبته^(٨) فى قبو المنزل، مع الخوف فى كل لحظة من أن يفتضح أمرهما؛ فى حين كانت الخادمة الصغيرة تبكى وهى تفعل ذلك مرغمة، الأمر الذى أفقده الإحساس بالمتعة، مما دفعه للتوجه مباشرة إلى أمه ليشى بها، فقامت فى التو بطردها.

كل ذلك لم يرض رغبته المحمومة فى الحب الرومانسى باعتباره شاباً صغيراً. وعلى الرغم من شخصيته العنيدة، فإنه كان دائماً ما يتأثر بقراءة كتابات شكسبير الشعرية، وأشعار شيللى، وبايرون، وريمبو وما لارمى. ويبدو أنه كان من المستحيل " لصعلوك الحى اليونانى " أن يقع فى الحب بتلك الطريقة الفريدة التى ظهرت فى قصائد كامفا الرومانسية^(٨)، التى تبرز فيها معانى التضحية وإنكار الذات دون قيود ولا شروط. لهذا لم يكن كوستيس على استعداد للاستمرار فى لعب التنس فقط، ولكنه أيضاً كان يسعى للقاءات حميمة فى أماكن خفية، لجولات رومانسية فى أماكن بعيدة، للعب وسط أمواج البحر، لاعترافات العشاق أمام أشعة الغروب الساحرة، وفى النهاية لتلك اللحظة المقدسة التى يتحد فيها جسدان معاً، نكابة فى كل الشرائع السماوية والقوانين البشرية، معطياً ملامح واضحة لكل ما له علاقة بالحب: للإعجاب، للغرام، للشك، للشوق، لليقين، للحقيقة، للكذب، للولع وأيضاً لإقامة علاقة بين رجل وامرأة.

كم كانت روح كوستيس الجامحة على استعداد للقيام بكل شئ عدا الهداية والسير فى الطريق المستقيم؛ لهذا كانت دهشته عظيمة عندما سمع جيهان وهى تقول فى إحدى المرات: «هذه الأرض ملك لنا نحن الأقباط، أحفاد الفراعنة الحقيقيين.

(٨) قصائد كامفا قصائد شعرية من أربعة وعشرين بيتاً (المترجم).

أما أنتم فتدنسونها جميعكم بوجودكم على أرضها - المسلمون، اللبنانيون، اليونانيون، الأوروبيون - وسوف يأتى اليوم الذى ستجبرون فيه جميعكم على الرحيل بعيداً عن هذه الأرض». فى البداية تبادر إلى ذهن كوستيس أنه ربما كانت هذه المرأة الجميلة التى كانت رغم كل شىء تتبع سلوك وأخلاقيات المسيحيين وعادات الأوروبيين، تمزح، ولكن عندما أخبرته بأنها تعنى كل كلمة قالتها، أدرك كوستيس أن تعصبها هذا ما هو إلا وسيلة لكى تخرجها وقتما تشاء من تلك العلاقة المحرمة.

وحتى يصلا، طبقاً لخطه نيكيتاس، من ملاعب التنس بنادى سبورتنج إلى شقة شارع القائد جوهر، استغرق الأمر منه ثلاثة أشهر كاملة. فلم تشأ قلعة الفضيلة للمرأة القبطية الجميلة أن تنهار بهذه السهولة، حتى وصل الأمر بابن خاراميس للاعتقاد بأنه ربما كان عليه أن يغير من ملته حتى تهبه نفسها .

من الصعب أن يشعر أى رجل بمعاناة امرأة مذنبه تخون زوجها، حتى ولو كانت لا تحبه. وكانت رغبة كوستيس فى أن تصبح له وحده رغبة حقيقية.

وكان يريد لها وهى إلى جواره على السرير ذى المرتبة المحشوة بريش النعام، أكثر استسلاماً فى أحضانه، وأن تأتى المبادرة الأولى منها، بسبب سنّها، لا أن تترك له الوقت ليتخذ قراره، متغاضية عن قلة خبرته وجهله بأدق ما تحتاجه المرأة فى مثل تلك الأوقات. فى بعض الأحيان كان إحساسه بالبرودة فى مشاعرها يدفعه للعودة مرة أخرى لأحضان عزيزة مدفوعة الثمن، ضارباً بعهود الولاء والإخلاص التى قطعها كل منهما على الآخر عرض الحائط، وفى الوقت نفسه كان يتمنى أن تحافظ هى على عهدا وأن لا تهبط حبها لشخص آخر، حتى لو كان هذا الشخص هو زوجها.

وبينما كان يهبط درجات السلم على مهل فى عمارة كامب شيزار ليغوص فى أحضان عزيزة، التى كانت تنتظره باستسلام، كان يصعد درجات السلم مهرولاً ليصل إلى شقة شارع القائد جوهر، مداعباً تلك النقوش العربية الموجودة على الحوائط. كان دائماً ما يصل مبكراً، منتظراً محبوبته؛ يلقى ببصره بين الحين والآخر من الشرفة

الأمامية لكى يتأكد من عدم وجود أولئك الصبية الصغار الذين كان يطاردهم كل مرة فى الشارع، وأن الطريق قد أصبح ممهداً من أجلها. وعندما يحالفه الحظ، كانت جيهان تظهر بعد نصف ساعة، وفى أوقات أخرى لم تكن تظهر قط، وعندئذ كان كوستيس يتوقع تلك الحجج التى سيسمعا منها فى اللقاء التالى، مثل: «كان يوسف مريضاً»، «لم يكن بطرس فى مزاج جيد ولم يسمح لى بالذهاب للكنيسة»، «كان لدينا ضيوف فى العزبة».

أما عندما تسير الأمور سيراً حسناً وتتمكن من الحضور، يدرك أنه لابد له من السيطرة عليها منذ البداية، يهدئ من روعها ويخفف من حدة شعورها بالذنب، وأن يجد المبرر لقبلاتها الباردة وترددها وعصبيتها تجاهه. كانت جيهان تعتبر كل ذلك أمراً ضرورياً حتى يظل لديها شعور دائم بأنها مازالت طاهرة، وأنها أبداً لم تلوث نفسها بجريمة الزنا. كانت الجميلة جيهان، بلامحها المتفطرة كالتمثال، تعذبه فى كثير من الأحيان بتصرفاتها الغريبة، وبخاصة عندما كانت تنتقد ملابسه. «أين بذلك؟ إذا كان على أن أهبك نفسى، فأريد على الأقل أن أهب نفسى لجنّلمان». هكذا حدثته فى أحد الأيام، عندما وجدته ينتظرها مرتدياً البلوفر المدرسى فوق القميص الأبيض. كانت تعامله فى كل مرة وكأنها المرة الأولى التى يلتقيان فيها فى هذه الشقة، وكان لزاماً عليه أن يتحمل منها هذا الشعور الكاذب. أحياناً ما كان يبدأ فى خلع ملابسها وعندئذ كانت تواجهه بالصد بطريقة جافة، وتقول: «الويل لك، يا فتى، إذا ما ظننت أنك قد ملكت امرئ». كانت تصر على أن تخلع ملابسها بنفسها، وأن تختبئ خلف طبقات كثيفة من الملابس تضمها صفوف معقدة من الأزرار، والمشابك والأربطة، تماماً كالزهرة التى تحتاج لأن تقطف أوراقها حتى تصل إلى قلبها. بعد ذلك تقوم بترتيب ملابسها قطعة قطعة فوق أحد المقاعد بحرص شديد، وكأن أقل تجعيدة بالملابس يمكن أن تشى بها وتكشف جريمتها. وفى المقابل، كان كوستيس يتعامل مع ملابسه بإهمال شديد، وفى بعض الأحيان كان يجذب قميصه بجنون من فرط لهفته، مما يؤدى إلى نزع أحد الأزرار. وعندما يخلع بنطاله والجاكت الذى كان يرتديه، تلك الملابس المصنوعة من

أرقى أنواع الأقمشة، يلقي بها على الأرض فوق حذائه ومن فوقها قبعته، حتى إن من يرى هذه الكومة من الملابس يظن أن صاحبها قد تبخر في الهواء وأنها هي كل ما تبقى منه. وعندما يلتقي جسده بجسدها^(*)، يغلّق عينيه وينتابه شعور بأنه يقفز من نافذة مفتوحة إلى السماء الواسعة، بدون جسد، بدون مشاعر، تقوده تلك الكلمات التي كانت جيهان تهمس بها في أذنه (بالفرنسية)، قائلة: «أريد أن يبقى حبنا أبدياً». إلا أنه عندما كان يفتح عينيه ويرى كومة الملابس كان يتيقن أنه ما زال على الأرض في تلك الحجرة من الشقة. كم كان كوستيس مرتبطاً بهذه المرأة، مقيداً بعهود الحب الخالدة التي قطعها على نفسه لجيهان، ولم يكن يرغب في العودة إلى ذلك العالم الخارجى، الذى كان على يقين من أن الحب فيه ليس أبدياً. ومن جهة أخرى، فقد فاجأته المرأة القبطية بقولها: «بمجرد أن تتخرج في المدرسة سوف أتركك»، لكنها لم تستطع أن تنفذ تهديدها بعد أن تخرج في شهر يونيو من عام ١٩١٨، لأنها ببساطة قد أعادت صياغة الجملة مرة أخرى قائلة: «بمجرد أن تنتهى الحرب سوف أتركك».

لكن حتى ذلك لم تفعله أيضاً، وكان ذلك، كما كتبت له لاحقاً (بالفرنسية)، خطأها الكبير، حيث قالت:

«كان ينبغي أن أترككم، يا سيدى، بمجرد تخرجكم في المدرسة أو حتى بعد انتهاء الحرب».

لم يفهم كوستيس مطلقاً السبب الذى جعلها بعد افتراقهما تكتب له، ولم يفهم أيضاً لم تحدّثه بصيغة الجمع. فى ذلك الخطاب الذى لم يرد كوستيس عليه أبداً، كانت جيهان تشبه نفسها بالمصارع القوى الذى يستطيع أن يأتى بحركات لا حصر أمام خصم قليل الخبرة^(*)، وقد أبهر كوستيس ذلك كما أبهرته قدرتها على طرحه أرضاً، إلا أنه لم يكن لديه من الخبرة ما يجعله يتصور أن تتركه جيهان يوماً ما حتى لو تم اكتشاف أمرهما.

لم يكن كوستيس أبداً لينسى ذلك اليوم الذى أرسل والده الأنسة جابى إليه لتخبره بأنه ينتظره فى الصالون، ولم يكن والده فى ذلك الوقت بمفرده، فقد كان

بصحبه صديقه الفننى عن التعريف بطرس، زوج جيهان، الذى لم يكن يبدو باعتباره رجلاً راشداً، ولكن باعتباره طفلاً متذمراً أتى ليسترد لعبته التى سرقته منه. هب أندونيس واقفاً وصفع كوستيس على وجهه مرتين - صفعة على كل جهة. تقبل كوستيس ذلك دون أن ينبس ببنت شفة، ولم يسأل عن السبب، فقد كان هذا ما ينقصه! ولكنه كان يتمنى فقط أن لا يكونان على علم بكل شىء. طأطأ رأسه لأسفل، وردد متلعثماً: «لن يحدث ذلك مرة أخرى!» لم تكن لديه أدنى رغبة فى الدفاع عن حبه لزوجته بطرس. لقد قهرته هى نفسها من قبل بأسلوبها المتناقض. كان مستعداً للتخلى عن مشاعره ليس بسبب الخوف، ولكن بسبب فتور مشاعره التى لم يكن لها على الأقل أن تستمر.

لكن جاء ذلك متأخراً، فالتبعات الاقتصادية لانهايار العلاقة بين الأسرتين كانت أقل ما يمكن حدوثه. ومن جهة أخرى، كان أندونيس، الذى يبدو وكأنه كان يتوقع حدوث مثل هذه الأمور، قد استعد منذ صيف عام ١٩١٨ للتعامل مع آخرين لكى يمدونه بما يحتاجه من الورق، أما الفضيحة التى بدأت تنتشر أخبارها فلم يستطع أن يخفيها. ففى صباح اليوم التالى بدأ الحديث عن تلك الجريمة فى صالونات ونوادى المجتمع السكندري بأسره. لم تكن التفاصيل معروفة لدى الناس، ولذلك فقد تم اختلاق الكثير منها على شفاه أناس يترقبون وينشغلون، بما تعنيه الكلمة، بأخطاء الآخرين. اكتسب شارع القائد جوهر سمعة تشبه سمعة شارع السبع بنات. وانتشر العديد من الأخبار المبالغ فيها على لسان الناس، فممنهم من ادعى معرفته بكل ما كان يحدث فى هذا المنزل المشبوه، حتى وصل بهم الأمر للتأكيد على أن المرأة القبطية كانت على علاقة بأربعة رجال يونانيين فى نفس الوقت. والغريب أن كل من تعرضوا لهذه القصة توصلوا إلى نهاية مماثلة مفادها؛ أن العشاق الأربعة قد قطعوا علاقاتهم بها، ثم اعترف أحدهم بكل شىء لزوجها. نهاية متوقعة لمثل هذه الفضيحة التى حدثت بين أفراد هذه الطائفة الفاسقة، طائفة الأقباط، الذين يصرون على أنهم أحفاد طائفة أخرى فاسقة، وهم الفراعنة، مما يجعلنا نعى أن انتشار الكذب فى مثل هذه القصص لا يحدث بسبب الواقع، ولكن بسبب الشر الذى يقبع داخل ضمائر البشر.

لم يبذل كوستيس أى مجهود لكى يعرف كيف وصل الخبر إلى الزوج المخدوع. ولكنه اكتفى بتلقى عقابه على ما اقترفه من ذنب، دون أدنى رغبة منه فى الاعتراض أو فى الدفاع عن نفسه. لقد قبل كل شىء، حتى قرار والده المفاجئ بإبعاده إلى ألمانيا. وقد حدث هذا بمحض المصادفة، فقد كان من الممكن أن يرسله إلى أى بلد آخر. فقد تصادف فى تلك الفترة أن تناول والده طعام العشاء مع عائلة الطبيب الشاب، ستيفانوس باتيلوس "الكاريوتاكي" كما كانت تلقبه ذافنى، وذلك بسبب أصوله التى تعود إلى مدينة إيكاريا. كان ستيفانوس طبيباً جيداً، بلا شك، لكنه كان يصيبهم بالسأم من كثرة حديثه عن ألمانيا المتقدمة عسكرياً: «الألمان فعلوا هذا، الألمان فعلوا ذلك». حتى إن ماخوس، فى النهاية، عندما سُئل فى إحدى الأمسيات فيما يفكر أن يصبح عندما يكبر، أجاب بطريقة تجمع بين الجد والهزل: «وهل هذا يحتاج لسؤال، سأصبح ألمانيا». عندئذ ضحك أندونيس كثيراً، لكن على ما يبدو فقد أوجت له هذه المزحة بالفكرة. تحت وطأة الفضيحة، استدعى أندونيس كوستيس ذات يوم فى نهاية صيف ١٩١٩، وقال: «سأرسلك إلى برلين لتدرس الهندسة المعمارية»

لم يخطر ببال كوستيس أبداً هذا التطور فى الأحداث، وبدا له وكأنه حمل على كاهله عبء المستقبل كشخص أجنبى. ومن ناحية أخرى، فقد انتابته مشاعر جياشة تجاه الإسكندرية، ذلك البلد الذى كان ينبغى عليه أن يضمم جراحه سريعاً بعد حربه الخاسرة. وفى اليوم الذى كان يودع فيه الإسكندرية راحلاً من مينائها الغربية، هبت على المدينة نسمات الفجر بلونه الوردى. وأخذ يحدق فى سماءها لكى يشاهد بزوغ الشمس، وكان وكأنه يودع فجر حياته إلى الأبد.

الفصل الثانى

كل الأسر السعيدة تتشابه فيما بينها
وكل الأسر تعيسة ليست سوى حالة فريدة

(أنا كارنينا، ليو تولستوى)

ميونخ فى ٩ أكتوبر ١٩٢٢

أخى الحبيب كوستيس، لا أستطيع أن أصدق أنه قد مر شهران منذ أن غادرتُ مدينتنا الحبيبة - مدينة الإسكندرية، ربما لأن حياتى هنا فى العاصمة البافارية قد وجدت إمتدادها الطبيعى. ولم تعد تتملكها، لحسن الحظ، ظلمة شوارع برلين الموحشة التى دائماً ما تصفها فى خطاباتك. لذلك، وأرجو أن تسامحنى يا أخى الحبيب، يتعذر على أن أفهم كيف يمكن أن تتحمل ابتعادك عن سماء الإسكندرية لمدة ثلاثة أعوام متواصلة. وأمام قتامة ذلك الأفق الألمانى الملبد بالغيوم، يستطيع المرء أن يدرك نعمة الحياة التى كنا نحياها فى مدينة الإسكندرية بصيفها الأبدى، بجوار هذا البحر الخالد ندى النور والرمال.

لكنى أعتقد أنه من الممكن للإنسان أن يجد طريقة للتأقلم مع هذا الأمر من خلال نعمة أخرى وهى نعمة النسيان، أمر كهذا ينبغى على فعله أنا أيضاً حتى يتسنى لى الحفاظ على صفاء روحى، ذلك الصفاء الذى أشعر بأننى فى أمس الحاجة إليه. إننى أتساءل باستمرار عن السبب الذى جعل والدنا يقوم بنفىنا إلى أرض الهون^(٩). من

(٩) الهون، هم شعب المغول المرتحل الذى سيطر على جزء كبير من أوروبا الوسطى والشرقية بقيادة أتتلا عام ٤٥٠ م، وأصبح يشار بها للجنود الألمان. (المترجم).

المؤكد أن ذلك يتعلق بعقابنا: فوالدنا يعاقبنا، يا عزيزى كوستيس، ولا أستطيع أن أفهم لماذا. فنحن لم تطرأ على ذهننا إطلاقاً الحضارة الألمانية، وكما ترى، فحتى الآن، يميل تفكيرى دائماً وبشكل عفوى تجاه الحضارة الفرنسية، فالأخلاقيات الألمانية تبدو غريبة علينا، إلا أننا أتعنا - أنا وأنت - لغتهم فى السنوات الأخيرة. صدق أو لا تصدق، فقد أحببت ألمانيا فى فترة من الفترات، ويرجع الفضل فى ذلك إلى ستيفانوس، طبيب العائلة، الذى كان يفتخر دائماً أمامنا بتعليمه فى ألمانيا؛ واليوم أشعر بالامتنان، ولا أخجل من قول ذلك، حيث أدركت وبشكل يثير دهشتى قدر ومكانة هذا الشعب الذى شوهت الدعاية الألمانية الفرنسية صورته فى عيوننا. وإذا كان أجدادنا هم الذين حملوا مفاتيح الحضارة فى العالم القديم، فالألمان هم، بلا شك، حماة الحضارة فى العالم الغربى فى عصرنا الحاضر. وهو ما يمكن للمرء أن يشاهده فى كل مكان، وفى كل إنجازات هذا الشعب العظيم، أولاً فى الفلسفة، وبالطبع فى الموسيقى، وأيضاً فى الفن وفى الشعر، ولم لا.

ألا ترى، يا أخى الحبيب، أنه ليس من الطبيعى أن نوجد - أنا وأنت - داخل نفس البلد دون أن نلتقى، ألا تتفق معى فى ذلك؟ فأننا أشتاق كثيراً لرؤياك، وأتصور أنك، بدورك، لديك نفس الرغبة. وأؤكد لك أننى قد تغيرت فى خلال هذه السنوات الثلاث، وأؤكد لك أيضاً أنك ستجد صعوبة بالغة الآن فى التعرف إلى أخيك الصغير إذا ما قابلته بالمصادفة فى الطريق. لكن قد يبدو ذلك من محاسن الحياة، أليس من الرائع أن يشكنا الزمن كما يتشكل العجين، وفى كل مرة يشكنا فيها يمنحنا ملامح مختلفة؟

قد أبدو لك أكثر حماسة عن ذى قبل، لكن لابد أن أبوح لك بأننى قد استطعت فى ميونيخ أن أقيم، بشكل سريع، العديد من العلاقات المهمة التى ساعدتنى بدورها على التغلغل فى المجتمع الألمانى. فمن بين الكثيرين هنا، تعرفت إلى شخص من الإسكندرية، «فى كل مكان يمكنك أن تجد سكندريين!» هذا ما كنت تقوله من قبل. أتذكر ذلك؟ هذا الشخص يدعى رودولف إس، وهو ابن فريتس إس، التاجر الألمانى، الذى مازالت أسرته تعيش فى الإسكندرية، وتحديدًا فى منطقة الإبراهيمية، وتنتمى والدته لجذور يونانية،

أليس ذلك غريباً؟ لقد فضل رودولف إس أن ينضم للجيش الألماني وأن يحارب ضمن صفوفها بدلاً من العودة خاضعاً لسيطرة والده المستبد، وهو فى ذلك يشبه والدنا، كما يبدو. إن له عقلاً متفتحاً يجعله قادراً على استيعاب التيارات الحضارية الحديثة، فقد درس إس، وما زال يدرس فى جامعة ميونيخ: الاقتصاد السياسى، التاريخ، الجغرافية السياسية، تحت إشراف الأستاذ الكبير كارل هاوس هوفير، الذى تربطه به علاقة صداقة، أليس ذلك رائعاً؟ لقد أدخلنى هذا الشخص إلى معجزة الشيوعية العالمية التى تتعاضم كل يوم داخل هذه الدولة الجريحة؛ فقد اصطحبنى منذ أيام وتابعنا معاً خطبة رجل على نفس القدر من الإبداع، إنه أدولف هتلر. إنه ساحر بشكل غير معقول: شخص ضئيل الجسم ذو مظهر مضحك، عندما يتحدث يشبه العرائس الخشبية (أطاريونيت) التى كنا نشاهدها فى شوارع الإسكندرية، ورغم ذلك فله قدرة فائقة بحركاته وكلماته المؤثرة على إبهار الجمهور. ويبدو لى أن حركاته الآلية هذه لا يمكن أن ترتبط بأية لغة أخرى سوى اللغة الألمانية ذات السحر الغجرى. السيد هتلر، إذن، محظوظ لأنه يتحدث بهذه اللغة التى يستطيع من خلال إتقانها التقليل من أهمية الناتج الاقتصادى، إنه يكافح من أجل كرامة الشعب الألماني، ويحث أبناء شعبه على تلك الكراهية المقدسة تجاه الأعداء، بل ويعتبر وجود اليهود بمثابة صفقة قوية على وجه ألمانيا وعلى وجه العالم بأسره. كان ينبغى أن تتابع أنت أيضاً هذا الخطيب اللامع. ربما يكمن فى كلماته المخرج الوحيد الذى تسيطر فيه القسوة على الجنس البشرى. بهذه الكلمات القليلة عن الهر هتلر، والذى يعتقد رودولف إس أنه سيصنع التاريخ فى يوم من الأيام، وهو أمر قد لا نكون متفقين عليه فى الوقت الحالى، أخشى أن الوقت قد داهمنى وينبغى أن أترك الآن، يا أخى الحبيب، حيث تنادىنى أنهار من الأفكار الفلسفية. أتمنى وأطلع إلى لقاء قريب يجمع بيننا.

مع قبلاتى

أخوك ماخوس

* * * * *

توصف فترة العشرينيات من هذا القرن بالنسبة لشعب الإسكندرية بأنها جنة ما بين الحريين العالميتين، فقد شغل الناس أنفسهم بمطاردة الثروات والخبرات في مدينة كانت تمنح أهلها كلا الأمرين بكرم بالغ، في ظل هذا الجو من التفاؤل الذي عاشته الإسكندرية بشكل أساسي، والذي صنعه الخروج من هذه الحرب الكبرى، من خلال ما ورد من أنباء في الصحف الخاضعة للمراقبة، تزايدت أصداء التنبؤات المشئومة للمستقبل التي كان يطلقها أشخاص مثل إلياس خوري " اللبناني " المعروف بنظرته المستقبلية، فكان إلياس يصر على أن يصيب أصدقاءه المنعمين من أهل المدينة بنوع من التوتر، بقوله في كل مرة يلتقي بهم: «تمتعوا قدر استطاعتكم، فهناك حرب أخرى قادمة، دون شك " (قالها بالفرنسية) ، وسوف تطرق بابنا!«.

كل من كان يعتقد أنه بتلك الطريقة يبحث عن عذر مقبول لكي يستمر بشكل مفرط في " أسلوب حياتها " (بوتنها بالفرنسية)، بدون تلك القوانين التي شرعتها السنوات الطوال المتوقعة من السلام في حياة البشر، فهم لا يرون سوى نصف الحقيقة. ففي انتظار نشوب حرب أخرى، كان من الطبيعي أن يصب الأغلبية اهتمامهم على مجريات الحياة اليومية، وأن يساورهم شعور بعدم جدوى استغلالهم من قبل أشخاص مثل إلياس.

لكن يبدو أن هذه الحرب الثانية المتوقعة لم تكن اكتشافاً مخططاً لمستقبل مظلم، ولكنها كانت مجرد خدعة، استطاع " اللبناني " من خلالها الاستفادة بفكرة الديون غير المشروعة (الربا) بداعي غموض ما سيحدث غداً. فقد كان التهديد واضحاً أمامه، ممثلاً نوع من المعاناة النفسية التي كانت تلقى بظلالها على أيام الإسكندرية التي يعيش فيها، وهو ما كانت إيفيت تعتقده أيضاً، التي لم يكن لديها هي نفسها، على الأقل حتى تلك اللحظة، الوقت لكي تهتم بهذه السيناريوهات المستقبلية، معتبرة أن لديها ما يكفيها من المشكلات في الوقت الحاضر. ففي البداية تخلت عنها حبيبته روكساني في صباح أحد الأيام الجميلة، بعد أن ابتسم لها الحظ. فقد تعلق بها أحد زبائن منزل مصطفى باشا المهمين، وهو الصائغ الأرمني سيمون كريكوريان، وأحبها بجنون، وقرر أن

يخرجها إلى الأبد من حياة الفجور والمجون، عارضاً عليها تصوراً خيالياً لزواج ثرى. فالليونير الأرميني من مدينة سميروني - وهو رجل في الستين من عمره، موفور الصحة، صاحب العديد من المحلات في مدينتي الإسكندرية وباريس - جاء مطارداً في خريف عام ١٩٢٢، وقرر الإقامة في مصر. وشاعت الأقدار أن تصبح زيارته لمنزل مصطفى باشا هي الأكثر تأثيراً في حياته وحياة الصغيرة روكسانى التى لم تعد صغيرة، حيث كانت تقترب من سن الثلاثين، والتي كادت أن تصاب بالاضطراب عندما كانت تفكر في أنها سوف تفنى عمرها في هذا العمل المهين. لم تعد أسطورة المرأة البغى الجاسوسة تروق لها. وربما لم تكن هذه الشخصية المزبوجة سوى خدعة أوهمها بها الآخرون من أجل أن يجملوا لها واقعها الذي تعيشه. كانت ترى بنفسها الصاقية حقيقة أن حياتها لم يكن لها أن تستمر لفترة طويلة بهذا الشكل. وكانت إيفيت تؤكد لها كل فترة أنها قد أعدت مبلغاً من المال لها ولأختها، حتى يكون جاهزاً عندما تتخطيان حاجز الثلاثين عاماً، وتنسحبان من هذا العمل وتعيشان حياة كريمة ما بقى لهما من حياة. لكن كل ذلك لم يتعد مجرد وعود شفوية، ولم تر منها روكسانى أى شىء.

لذلك لم يكن لدى روكسانى أى استعداد للتخلي عن ذلك الفارس الأرميني. كانت حياتها محدودة إلى حد كبير داخل المدينة، ولم يكن يعلم بوجودها عدد كبير من الناس. أما بالنسبة لعملها، فلم يكن يعرفها سوى أولئك الذين ارتبطوا بها فقط، وبالتالى فلم يكن هناك ما يمكن أن يعوق زواجها من كريكوريان. وبالفعل فقد تم زواجهما في حدود ضيقة. وعلى الرغم من أن حياتهما الزوجية كان من الممكن أن تمر بسلام في الإسكندرية، فإنها فضلت بشكل أو بآخر أن ترحل إلى باريس حتى تتمكن من الابتعاد بشكل نهائى عن ذلك الماضى المهين. وبما أنها "قد تم إنقاذها"، كما يقال، بواسطة "فارس نبيل"، فمن الطبيعى ألا تترك أختها بلا حول في يد تلك القوادة إيفيت، ولذلك كان اهتمامها منصباً على اصطحاب ذانائى معها.

كان ألم إيفيت مضاعفاً، فقد كان عليها أن تواجه الحقيقة المؤلمة بأنها، وهى فى الخامسة والثلاثين من عمرها، لم يكن من حقها أن تشعر بمشاعر الشباب. منذ سنوات

مضت كانت تعتقد بأن اليوم الذى ستترك فيه هذه "المدينة الملعونة" (بونها بالفرنسية) لن يتأخر، وأنها ستعود مرة أخرى إلى أوربا، وهى فى ريعان شبابها، لكى تتمكن من العثور على خيط حياتها الضائع مرة أخرى، لكن كان عليها أن تقتنع بأن حظها كان موثقاً برباط غليظ بمنزل شارع مصطفى باشا وبأن حياتها العاطفية التى كانت رهينة برجل متزوج ، يكبر فى السن يوماً بعد يوم ويصبح أكثر ملأ وإثارة للشفقة. كانت علاقتها بأندونيس خاراميس قد توقفت منذ زمن عند خدمة أية خطط مشتركة بينها وبين إلياس خورى، فى حين أصبح لديها وفرة من المال تجعلها لا تعتمد على هبات رجل صناعة الدخان اليونانى. أما علاقتها بأنطوان فقد استمرت نتيجة للتعود الأحمق، وأصبحت على قناعة بأن أندونيس بات يتعامل مع علاقتها على أنها اتفاق تجارى طويل الأمد، ولا ترقى لأن تكون علاقة عاطفية. من جانبها، كانت إيفيت بحاجة، وبخاصة مع مرور السنين، لأن تشعر بأن هناك من يهتم بأمرها: يدفع عنها إيجار الشقة فى شارع حسين باشا، ينفق المال من أجلها، كما يمكنها أن تملأ دولا بها كل عام بالملابس الجديدة. كان هذا الشعور يعمل على تهدئة مخاوفها، حتى إن مشاعرها استمرت طوال الوقت بنفس الرغبة التى كانت تشعر بها منذ اليوم الأول الذى وطأت بقدميها الإسكندرية، أما عدا ذلك فيمكن إصلاحه.

بدا واضحاً أن الفراغ الذى تركته روكسانى وذانائى من المستحيل أن يعوضه أى شخص آخر، وكانت الدلائل تشير إلى أن إيفيت سوف تتأقلم من خلال حلول سريعة، على الأقل بعد فترة من الزمن، معتمدة فى ذلك بشكل كلى على بيتروس ثيميستوكليس، تلك الفكرة التى كانت تلهب حماسها. كانت الفتيات اللاتى يرسلهن القبرصى، حتى لو لم يشبهن فى جمالهن الفتاتين اليونانيتين، يبدن عدم الاهتمام بالاشتغال فى بيت البغاء فى منزل شارع مصطفى باشا، كما كن دائماً مثاراً للشكوى المبررة من قبل زبائنها المفضلين. وفى النهاية، منحتها الحياة الحل لكل تلك المشاكل بطريقة مؤثرة وغير متوقعة.

فى إحدى الأمسيات فى نهاية عام ١٩٢٢، كانت إيفيت تنتظر أندونيس فى شقتها. وبعد أن غادرت الخادمة المنزل، وأصبحت بمفردها بالمنزل، أصابها قلق شديد. وفى كل مرة تسمع صوت المصعد، تفتح الباب برفق وتتطلع من خلفه إلى ذلك القفص الخشبى الضخم بدعاماته الحديدية وهو يمر من أمامها ثم يكمل صعوده لأعلى. عندئذ كانت تجذب بعنف حزام الروب الذى ترتديه وتنفث دخان سيجارتها فى الهواء وهى تغدو وتروح فى طرقة الشقة. وفجأة نما إلى أسماعها صوت زوجة بواب العمارة وهى تصيح، أدركت أن هذا هو الموعد الذى تتناول فيه أسرة رمزى (البواب) طعام العشاء وتخيلت رمزى وزوجته وأطفاله الثلاثة الصغار وهم محشورون فى حجرتهم الضيقة أسفل السلم لتناول الطعام، يلتفون حول "الطبلية" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، تلك المائدة الشعبية بأرجلها الصغيرة حيث توضع فوقها أصناف الطعام الشهية التى تتناولها الأسر المصرية البسيطة. فهناك أرغفة العيش المكسدة فوق بعضها إلى جانب الفلافل "والقلة" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) التى تمتلئ بالماء البارد حتى تطفئ عطشهم من حرارة الفلافل المقلية وطعمها الحار.

فى ذلك الوقت بدأ الأطفال يصرون أصواتاً مزعجة كما بدأت زوجة رمزى فى الثرثرة. تلك الضوضاء التى لا تنتهى إلا عندما يقرر البواب أن يخرج يده من أكمام جلبابه المتسخ وتوجيه صفعتين أو ثلاث على وجوه أطفاله. فى هذه المرة، لم ينقطع الضجيج الذى يحدثه الأطفال بل زاد عن الحد المعتاد، وكادت إيفيت أن تنظر من بئر السلم وتطلب منهم أن يلزموا الصمت، حيث لا تتناسب تلك الضوضاء مع الوقت الذى سيمكث فيه أنطوان معها. استطاعت إيفيت من بين صراخ الأطفال أن تتبين صوت رجلين يتحدثان العربية بصوت مرتفع. كان أحدهما بوضوح هو صوت رمزى، أما الثانى فلم يكن صوتاً مألوفاً لها ولكنه كان يتحدث بلكنة شامية، لو لم تكن إيفيت تعتبر أن وجوده هنا مستحيلاً، لأقسمت أنه صوت إلياس. لكن لم تستغرق شكوكها وقتاً طويلاً حتى تأكدت أن الرجل الذى خرج فجأة من المصعد هو "اللبنانى" بعينه. كان يرتدى معطفاً أسود طويلاً، وكانت القبعة التى يرتديها على رأسه تغطى ملامح وجهه.

إيفيت: «أأنت هنا؟ لكن ماذا تفعل، "هذا جنون" (قالتها بالفرنسية)، فأنا أنتظر وصول أنطوان بين لحظة وأخرى».

إلياس: «ارتدِ ملابسك "لا بد أن نرحل في الحال" (قالها بالفرنسية)» هكذا أجابها إلياس، وبينما كان يخلع قبعته، وقد تلالأ الحجر الأحمر الضخم الذى يزين خاتمه فى النور.

- «ألا تسمع ما أقوله لك؟ " أنطوان قد يصل بين لحظة وأخرى" (قالت ذلك بالفرنسية)»، ثم أزاحت بأصابعها شعرها المتدلى على وجهها إلى الوراء.
- «إنها مسألة حياة أو موت، ارتدِ أى شئ، وهيا بنا نذهب» قال ذلك بإصرار وهو يميل برأسه للخلف.

فى هذا الوقت كان المصعد قد هبط ثم بدأ فى الصعود مرة أخرى، ولم يكن هناك احتمال أن يكون الموجود بداخله شخصاً آخر غير أندونيس.

أندونيس: «ما هى مسألة الحياة أو الموت؟» كانت هذه أول عبارة يلقيها أندونيس بمجرد خروجه من المصعد.

إلياس: «عذرا على هذا الإزعاج" (قالها بالفرنسية)، يا أندونيس، ولكن هناك صديقاً فى حالة حرجة» هكذا أجابه إلياس وهو يقلب قبعته بين يديه بشكل عصبى، ثم استكمل حديثه قائلاً: «أخشى أنه فى تلك اللحظة ينبغي أن تأتى إيفيت معى».

أندونيس: «إذا كان لا بد أن تذهب معك، فلا مانع إذن» قال أندونيس ذلك دون أن يبدو عليه الاقتناع التام بهذه الحالة الطارئة. ثم أردف قائلاً: «فلندخل إذن حتى تستعد إيفيت ونحتسى بعض الشراب. فسوف أبقى هنا على أية حال لأنى بحاجة إلى بعض الهدوء قبل أن أعود إلى منزلى».

أحست إيفيت بالضيق الذى أصاب أندونيس وهو يذكر منزله، الأمر الذى لم يفعله من قبل، كما لو كان يريد أن يخبرها بأن هناك مكاناً آخر يذهب إليه حال رحيلها.

وبصدق لم تكن تعرف من منهما ترضى أولاً. لكن فى النهاية، ما الذى حدث حتى يتعكر صفو أمسيتهما الهادئة؟

كان لإصرار إلياس على اصطحابها الغلبة، وبعد نصف ساعة كانا فى الطريق، وهو يتذمر كيف أنه بسبب عجلته جعلها تخرج معه " وقد ارتدت أى شىء على عجل " (بونها بالفرنسية). وفى ظل ظروف أخرى، فإن ما فعله " اللبناى " يعد بمثابة انتصار كبير على منافسه الذى لا يقهر، على الرغم من استمرار عشيقته السابقة فى طلب تفسير لهذا "الاختطاف"، كما أسمته. أما المبررات فقد عرفتھا لاحقاً فى طرقات المستشفى اليونانى، هناك حيث شاهدت شبحاً مخيفاً لماريانثى اليائسة. ارتمت تلك المرأة التلسة فى أحضان إيفيت بجسدها الهزيل الذى أنهكته مأساتها غير المتوقعة وقضت على كل مظاهر الحيوية فيها. أحست إيفيت وكأنها تحتضن شبحاً لا يفعل شيئاً سوى البكاء والنحيب، وكانت تكرر بشكل مستمر «بانايتيس، يا إيفيت، حبيبى بانايوتيس...» كانت رائحة الكحول النفاذة والأدوية المطهرة تعبئ المكان. وكانت المرضعات تجوب الطرقات بخطوات عسكرية، فى حين ظهر طبيبان تبدو عليهما الجدية والمهابة وكانهما قائدان عسكريان. أحدهما ضخم الجثة له شارب كثيف، شعره رمادى اللون ينحصر فى منتصف رأسه، اتجه هذا الطبيب ناحية زوجة أرابيذيس فى حين أسرعته هى تجاهه، تحدث إليها بجمل قصيرة ورفض أن يستمع إلى أية أسئلة، مشيراً بكفه إشارة تدل على ذلك الرفض. كان موقفه الراض سبباً فى إثارة غضب إلياس الذى تحرك تجاهه غاضباً، إلا أن الطبيب ظل ثابتاً على موقفه غير مهتم بانفعال إلياس. وبدا واضحاً أن موقفه الغامض قد زاد من حيرة ماريانثى.

إلياس: «إنسان سخيف!» (قالها بالفرنسة)، سأطلب من أحد أن يتحدث إلى هذا "المخلوق" (قالها بالفرنسة)، انتظرانى هنا، وسأعود بسرعة " (قالها بالفرنسية).

اختفى إلياس ثم عاد بعد عشر دقائق وهو يبتسم ابتسامة رضا، وقال:

«أعتقد الآن أن كل شىء سيكون على ما يرام».

طوال ذلك الوقت كانت إيفيت تحتضن ماريانثى وتهمس فى أذنها:

«الأمر ليس جد خطير، أنا على يقين من ذلك».

وكأن الواقع أراد أن يكذبها بطريقة قاسية، فقد ظهر أرابيذيس بعد دقائق معدودة وهم يحملونه وقد بدا فى حالة سيئة. كان وجهه شاحباً جامداً، لون وجهه يدل على أنه، إن لم يكن بالفعل قد مات فإنه بكل الحسابات المنطقية على وشك الموت. كان المريض - وهو مصرى، طويل القامة، ذو بشرة سمراء، يرتدى رداءً ناصع البياض - يدفع العربة التى تحمله إلى الأمام بحرص شديد، وكأنه ينقل قطعة من الزجاج مهددة بالتحطم فى أية لحظة. تحركت ماريانثى قليلاً تجاهه، ولكن الطبيب، الذى كان يتابعها أثناء ذلك، أوقفها وأوضح لها أن المريض فى تلك اللحظة يكون فاقد الاتصال بمن حوله، وإلى أن تفهمت ماريانثى ذلك، كانت العربة قد اختفت فى طرقات المستشفى خلف أحد الأبواب. وكانت لهجة الطبيب قد تغيرت بشكل لافت للنظر فى أقل من الربع ساعة. انفرد بإلياس وأخذ يشرح له وهو يشير بيده إشارات لا حصر لها. لم تستطع إيفيت أو ماريانثى أن تفهما ما الذى يقوله بالتحديد، لكنهما كانتا تلحظان أن السماعات الطبية تصعد وتهبط وهى على صدره من كثرة إشاراته، وشعرتا أن كل إشارة كانت بمثابة تشخيص علمى لحالة أرابيذيس الصحية.

تذكرت إيفيت مشهد عربة الحنطور فى الشارع الكبير فى بيررا بإسطنبول، عندما أنقذ بانايوتيس حياتها، كانت تريد أن ترد له الجميل وتفعل شيئاً مماثلاً، لكنها لم يكن بمقدورها أن تفعل شيئاً. أسرع إلياس بثقه وأناة لتهدئتهما قائلاً: «أترين، كل ما فى الأمر هو العلاج السليم؟ مكالملة واحدة من البطيريك، وبعدها تم نقل بانايوتيس إلى غرفة الإنعاش؛ كما وصل طبيب متخصص لفحص حالته. كل شىء تحت السيطرة. إذا ما أردتما معرفة رأى، فبعد أسبوع على الأكثر سنجلس جميعاً لنحتسى الشراب فى النادى».

لم يشكل هذا التنبؤ أى نوع من التفاؤل فى حالة المريض - ومن جهة أخرى - فلم يكن إلياس متفائلاً بطبعه - لكن يبدو أنه كان واثقاً من تدخل بطيريك الكنيسة

اليونانية الأرثوذكسية وكأنه سيجلب نتائج سحرية. وكأنه أصبح يمثل هذه الطريقة على اتصال بالذات الإلهية، تمكنه من التأثير على مشيئته. ربما لم يكن إلياس على دراية كافية بمدى خطورة حالة أرابيذيس، ربما لم تكن كلمة "سكتة دماغية" (قالها بالفرنسية) كافية لإصدار حكم نهائى على أرابيذيس. تذكرت إيفيت فجأة صورة بانايوتيس منذ ثمانية أعوام مضت فى أزقة إسطنبول وهو يضع المنديل الأبيض على أنفه الذى أصابه الاحمرار فجأة فى ثوانٍ معدودات، وقد أيقنت حينها أنه ليس بالأمر الطبيعى.

قضى بانايوتيس أكثر من ثلاثة أشهر فى المستشفى ثم عاد مرة أخرى إلى منزله على كرسي متحرك، وكان يجد صعوبة بالغة فى الكلام وفى البلع، وكانت تصريحات الأطباء واضحة: فلم تكن حالته الصحية جيدة. أما بقاؤه على قيد الحياة وتقليل درجة عجزه فهو أفضل ما يمكن تحقيقه من نتائج علاجية ! إلا أن حدوث سكتة دماغية ثانية - الأمر الذى لم يتوقعه أحد - لم تؤد إلى وفاته.

تردد أعظم أطباء المدينة على شقة بانايوتيس الواقعة فى شارع ميسالا، فقد يستطيع أحدهم أن يفتح طاقة أمل للمريض. وكانت ماريانثى المسكينة تردد فى كل مرة: «لكنه مازال شاباً صغيراً! أمن المعقول أن يحدث له هذا!» عندها كانوا يرفعون أكتافهم وينصحونها بالصبر. إلا أنه كان من الواضح أنهم قد تخلوا عن حبيبها بانايوتيس، وهكذا أصبحت لا ترغب فى سماع أى شىء عن الأطباء أو المستشفيات. أغلقت الباب على نفسها وتفرغت لخدمة زوجها القعيد، وتقبلت بامتنان تلك المساعدات المالية من إلياس ومن أصدقائها الآخرين منذ بداية المشكلات المالية التى عانى منها بانايوتيس بعد الحرب. لم يكن باستطاعة الأصدقاء الذين وقفوا بجانبه أن يساندوه للأبد، وبالطبع لم تكن ماريانثى لتقبل مساعدتهم إلى ما لا نهاية. قامت الشركة الفرنسية بقطع الكهرباء عن منزلهم، ولم يكن الأمر مأساوياً بدرجة كبيرة، حيث استطاعا أن يتأقلا مع ضوء لمبة الجاز. ولكن عندما أوقف البقال إمدادهما بما اعتادا أن يشترياه على الحساب، وبات شراء أدوية بانايوتيس أمراً عسيراً، عندئذ استشعرت

ماريانثى بالخطر، وأصبح لزاماً عليها أن تجد حلاً لتلك المشكلة. كان إلياس يدفع بالمرأة التبعة تجاه حل واحد، ذلك الحل الذى لم تكن إيفيت نفسها تتخيله أبداً.

ففى مقهى "جراند تريانون" حيث كانتا تجلسان كالمعتاد فى مكانهما المفضل أمام البحر، بعد أن أزاحت ماريانثى الستارة من خلف النافذة الزجاجية حتى لا يغيب عنها منظر البحر المتوسط، وقد بدا واضحاً أنها ترغب فى العودة سريعاً إلى بانايوتيس، لكنها تظاهرت وكأنها تتطلع إلى تلك الأمواج الضخمة التى تتحطم على "الكورنيش" الجديد (ذكر ذلك باللغة العربية ودونها بحروف يونانية). قالت ماريانثى:

«أنت وحدك تستطيعين مساعدتى الآن»، ثم قالت (بالفرنسية) وهى تبعد يد

إيفيت عنها بعد أن أخرجت بعض النقود من حقيبتها «لا، لا أريد نقوداً»

إيفيت: «ولم لا!»

ماريانثى: «الغرض من الدعوة لتناول الشاي، يا عزيزتى إيفيت، هو طلب عمل»
هكذا أجابت ماريانثى، فى حين استمرت فى النظر للخارج.

- «عمل؟» هكذا سألتها إيفيت مندهشة.

- «نعم. عمل أستطيع من خلاله العمل لساعات قليلة وكسب أموال كثيرة. هكذا أستطيع أن أعتنى ببانايتيس، وأن أكون بجانبه لأطول وقت ممكن»

- «لكن ما طبيعة هذا العمل الذى أستطيع أن أوفره لك، ويمكن أن تجنى من ورائه أموالاً كثيرة؟».

- «أنت أدري بذلك..»، هكذا أجابتها وهى تنظر إليها بعينيها المبتسمتين اللتين جعلهما الألم تلمعان بشكل غريب فى ضوء النهار.

شعرت إيفيت برجفة مفاجئة وأحست بالحرمة تصبغ وجهها.

- «إيفيت، أنا أعرف» هكذا همست لها ماريانثى وابتسمت ابتسامة متعالية بطريقة لم تعجب مديرة بيت البغاء بشارع مصطفى باشا، ثم استطردت قائلة:

«أعلم منذ أعوام عن ذلك المشروع الذى أقمته أنت وإلياس. ربما لم نتحدث من قبل فى هذا الموضوع، ولكننى على علم به».

- «أنا لا أفهمك» هكذا أجابتها إيفيت بطريقة تبين مدى الإهانة التى شعرت بها. فمئذ وقت بعيد كانت قد بدأت تلوم صديقتها على عجزتها.

ما الذى تعرفه إذن؟ ألم تكن ماريانثى تنظر إلى حياتها الطاهرة نظرة جادة؟ لكن لا ينبغي عليها أن تنسى أنها أصبحت زانية من أجل حبها، وأنها قد غيرت ملتها وتخلت عن عائلتها، بل وتخلت عن عقيدتها وعن وطنها؛ وربما يعاقبها الله الآن بتلك الطريقة على ما اقترفته. من ناحية أخرى، كانت ماريانثى بالنسبة لإيفيت تمثل آخر قلعة أخلاقية ثابتة فى مدينة كانت تتغذى على مثل تلك المشاعر، وطوال تلك السنوات التى أدارت فيها هذا العمل، رأت بعينها هؤلاء الذين كانوا يعبرون بوابة منزل مصطفى باشا من على القوم ووجهاء المجتمع بالإسكندرية، ولكن لم يكن من بينهم من يرتبط برباط الحب والإخلاص مثل بانايوتيس وماريانثى، ويبدو أن الفساد والدنس اللذين استشرى فى المدينة قد أدا إلى تلف كل شيء، فأى معنى يبقى للحياة بعد ذلك؟

- «هيا الآن، هذا ليس بالوقت المناسب» (قالت ذلك بالفرنسية) لكى تختبئ منى، فى اللحظة التى أطلب فيها العمل بالقرب منك. أم أننى لست على قدر من الجمال يليق بزبائنك؟».

- «ليس الأمر كذلك». فأخر إنسان يمكن أن أراه على فراش الحب المحرم هو أنت، يا ماريانثى.»

- «ما الأمر إذن؟».

- «ماريانثى، فلنكشف إذن أوراقنا طالما أن هذا ما نرغب فيه. هذا العمل لا يناسبك». حتى تلك اللحظة، كانت إيفيت تشعر بداخلها بنوع من التحدى بسبب تلك الثقة التى تتحدث بها ماريانثى عن هذا العشق المحرم، وفى الوقت نفسه كانت لديها الرغبة أن تخفف ولو لمرة واحدة من حدة استهزائها بها.

- «لما لا؟ (قالتا بالفرنسية) ألسنتُ امرأة أنا أيضاً؟».

- «بالطبع، ولكن هناك أموراً أخرى» (قالت ذلك بالفرنسية)، فالنساء اللاتي يمارسن هذا العمل ينتمين إلى.... "كيف أقولها!" (قالت ذلك بالفرنسية). ينتمين إلى طبقة خاصة». هذا ما كانت إيفيت تعتقده حتى تلك اللحظة على الأقل.

- «هكذا تظنين؟ حسناً إذن، أود أن تعلمي أن كل امرأة تخفي بداخلها امرأة لعوب» (قالتا بالفرنسية).

- «يا له من كلام مبتذل» (قالت ذلك بالفرنسية) لا أريد أن أسمع منك شيئاً كهذا. ولا تحاولي أن تخيبي ظني فيك. أعلم أنك لا تؤمنين بذلك، ولكن المحنة التي تمرين بها هي التي تدفعك للحديث بهذه الطريقة» هكذا أجابتها إيفيت وهي تشعر برضا خفي لأنها ترى ماريانثي وهي تسقط أخيراً من نظرها.

- «ولكنك مخطئة، يا عزيزتي» (قالتا بالفرنسية) هكذا أجابتها مدام أرابيذيس وهي تضع مروحتها أمام وجهها الجميل المعذب دائماً، دون أن تشك في تلك المشاعر المتضاربة التي أحدثتها داخل صديقتها.

داخل نفس إيفيت، التي انقسمت ما بين إصرارها على حماية ماريانثي وبين رغبتها الشديدة في إهانتها حتى تشعر أنهما متساويتان، كانت إيفيت تميل حتى هذه اللحظة إلى الرغبة الأولى. وحاولت، في واقع الأمر، رفض فكرة أن تشارك في هذه "الجريمة". لكنها، تحت ضغط وإصرار ماريانثي، أذعنت لرغبتها وبدأت تعد الإطار الذي ستصنع بداخله حلاً لهذا المأزق الأخلاقي، لذلك لم تستطع إلا أن تضع شروطاً لهذه اللعبة تحاول من خلالها حماية شرف وسمعة صديقتها، ومن ناحية أخرى ستجعل احتقارها لها أكثر قسوة. كان الاحتقار بالنسبة لإيفيت دافعاً لكي تخلق أغرب المخلوقات في العالم الأسطوري للحب بالإسكندرية. فقد أجبرت ماريانثي بعد كل تلك السنين أن تعود من جديد إلى نيهير التركية، وتقبلت ماريانثي ذلك الأمر، تقبلت أن تتحول إلى امرأة شريرة ترتدي قناعاً في عملها بشكل دائم، امرأة ترضى بفضل

شراستها كل المشاعر السادية لعشاقها. كانت مديرة البيت تعرف جيداً كيف تطلب من صديقتها توظيف موهبتها في منزل شارع مصطفى باشا؛ أما ماريانثى فكانت على وشك الهروب من أول يوم لها في ممارسة الحب المحرم. كان عليها أن تحول خوفها إلى لعبة حتى تستمر في هذا المكان، وكلما كان ذلك ضد رغبة الإنسان، كلما زادت المتعة داخل عقلها الساذج.

ولأنها كانت على ثقة من أن القناع لن يحمي عفتها إلى الأبد، فقد وضعت لنفسها بروتوكولاً صارماً بشروط لا يمكن الإخلال بها: حيث ينبغي أن يحل الظلام أولاً، ويمر العامل الحكومي المصري لكي يشعل بعصاه لمبات الجاز في شوارع المدينة، حتى تتمكن من الدخول إلى المنزل من الباب الخلفي. لم يستطع أى من العاملين في المنزل رؤية وجهها على الإطلاق، وعندما تنتهى من عملها، تقوم عربة حنطور تقف دائماً في انتظارها خلف الفيلا بإعادتها إلى المنزل في سرية تامة.

كان زبائنها الذين مروا من تحت يديها ينتمون إلى عليّة القوم ووجهاء المجتمع السكندري، ضحايا ومضحّيين من أجل ممارسة الرذيلة حتى عرفت باسم "بائعة الهوى ذات القناع" (كررها بالفرنسية). في البداية كانت الأمور تسير سيراً حسناً، تماماً مثلما كانت إيفيت تتصور. كانت ماريانثى تستمتع بتلك "اللعبة" التي منحنتها إياها صديقتها، وكثيراً ما كانت تعلق على قيامها بجلد الجنود الإنجليز بسخريتها المعهودة، وكأنها هي نفسها ليست طرفاً في ذلك، أو كأنها مجرد مراقب يتابع ما يحدث من شذوذ بغيض من زاوية بعيدة. ولكن بمجرد مغادرتها المنزل، تسرع بخلع قناع نيهير البغيض وتعود مرة أخرى ماريانثى ذات العواطف الجياشة، الرقيقة، الصبور تجاه زوجها القعيد. كانت قناعتها مطلقة في أن ما تقوم به لا يتعدى اللعبة، وكانت تعجز في كثير من الأحيان أن تضع حدوداً لنفسها وللقسوة التي كانت تعامل بها هؤلاء الناس. أما إيفيت فقد اقتصر دورها في هذه اللعبة على إيجاد الطول لبعض المواقف الصعبة التي تواجهها. مثلما حدث مع لولو، تاجر الأنتيكات المعروف، الذي استمرت "ذات القناع" في جلده بالسوط حتى فقد وعيه، وكان بحاجة ماسة لتدخل الطبيب من أجل إفاقته.

- «ما الذى حدث لك؟» هكذا سألتها مديرة البيت وقد شعرت بالخوف من وحش الجنس الذى خلقته بنفسها.

- «ليس ذلك بالأمر الخطير» (قالت ذلك بالفرنسية)، بعض الساعات الخفيفة على مؤخرته حتى يصبح ولدًا مطيعًا، كان بحاجة إليها، ألا تعتقدين ذلك؟» هكذا أجابتها ماريانثى ثم انتابتها نوبة من الضحك.

لم تكن تلك اللعبة لتستمر إلى الأبد، لكن إيفيت كانت عازمة على استغلال هذه البراعة الشاردة لصديقتها لأقصى حد، حتى إنها لم تسمح لها بالانسحاب بعد أن بدأت تهاجمها آلام الصداق الشديدة . وبدأت تشكو بشكل مستمر مع مرور الوقت، قائلة:

- «رأسى، يا إيفيت، رأسى تؤلمنى بشدة، أزيز رهيب فى رأسى، وكأن هناك آلاف المطارق تدق رأسى، من المحال أن أجد الهدوء، أو أن يداعب النوم جفونى».

- «لا شىء هناك، يا عزيزتى، سأبلغ "الطبيب" (قالت ذلك بالفرنسية) لكى يكتب لك علاجاً يذهب عنك الألم سريعاً، سوف ترين». هكذا كانت تجيبها دائماً فى محاولة منها لكسب المزيد من الوقت.

وكان إلياس قد ألقى بتبعاتها فى السنوات الأخيرة على مستر برايس، ذلك طبيب بريطانى، الذى لم تكن إيفيت تعرف عنه شيئاً إلا أنه كان يخدم فى الفريق الطبى للجيش الإنجليزى فى الشرق الأوسط فى سنوات الحرب، وقد تم استبعاده لأسباب مجهولة. كانت مهمة هذا الطبيب طويل القامة، ذى الجسد الضخم والشعر الأصفر الذهبى والنظرة الحازمة، هى الاعتناء بصحة كل العاملين بالمنزل والزبائن فى نفس الوقت، فكان يقوم بفحص الفتيات والتأكد من أنهن يتمتعن بصحة جيدة، كما كان يتم استدعاؤه لحل المشكلات الطارئة. كان صديقاً لبيتروس ثيميستوكليس، كما كان من مؤيدى العلاج بالمورفين، ولذلك فلم يكن يتردد فى وصفه لبعض الرجال وأيضاً النساء لمساعدتهم فى ممارسة الرذيلة.

أما بالنسبة لحالة ماريانثى فقد كان قوله قاطعاً:

«إنها تعاني من صدام نصفى!» (قال ذلك بالفرنسية) وبسبب عدم فاعلية الدواء المشهور (Pirsol Gattaneo) الذى كان قد وصفه لها، فقد ألقى بها دون تردد فى بحار المورفين العميقة. وعندما قررت إيفيت أن تساعد على الإقلاع عنه، كان الوقت قد تأخر: فكل ما كانت تحتاجه ماريانثى هو مجرد ركن هادئ لتحقق نفسها بالمورفين، وبعد ذلك تعود إليها رغبتها بشكل مؤقت.

حتى إلياس فعلى الرغم من لا مبالاته التى كان يتميز به، فإنه أصيب بصدمة من الحالة التى وصلت إليها مدام أرابيذيس، حتى إنه كان دائماً ما يقوم بتوجيه اللوم لإيفيت بقوله :

«أفخورة أنت بذلك الكائن الذى خلقتيه؟».

عندئذ كانت إيفيت تلوم مستر برايس، ذلك النصاب الوقح الذى جنى ثروة طائلة من الاتجار فى المخدرات وكانت تدور حوله الشكوك فى أنه كان يستغل إدمان ماريانثى جنسياً.

لقد بدت على جسدها الغض أعراض الانهيار فى فترة زمنية وجيزة، وربما كان موت أرابيذيس فى بداية عام ١٩٢٤، رحمة به، حتى لا تدرك الحال الذى آلت إليها زوجته التى حاولت جاهدة حتى النهاية أن تبدو أمامه فى صورة ماريانثى الجميلة الطاهرة. وربما كانت تلك الابتسامة الباهتة المرسومة على وجهة الميت تعبيراً عن حب عظيم، حب فريد من نوعه انتقل مع بانايوتيس إلى عالم الخلود.

* * * * *

فى البدايات الأولى للعشرينيات كان أندونيس خاراميس يرى أن التغيير قد أصاب، وما زال يصيب، حياة الآخرين. فى الوقت الذى أثرت فيه التغييرات عليه هو نفسه بطريقة أو بأخرى، حتى إنه بدأ يعتقد أن المقربين منه يتآمرون عليه لتدميره.

وفى اللحظات التاريخية العالمية التى كان ينبغى على كل أفراد المجتمع السكندرى، أن ينشغلوا فيها بالأحداث التى تهتم المجتمع العالمى، وهو أمر طبيعى، كان اهتمام أندونيس منصباً على ولديه. فبعد فضيحة شارع القائد جوهر والعلاقة غير المشروعة بين كوستيس والمرأة القبطية التى تفجرت مع نهاية الحرب العالمية الأولى؛ جاءت أحداث محطة ترام باكوس لتكون بمثابة الصفحة الكبيرة والأخيرة فى حياة ذلك الأب المسكين، والتى دارت أحداثها قبل كارثة أسيا الصغرى بشهور قليلة، هناك حيث تم اكتشاف علاقة شاذة بين أربعة صبية من أبناء أرقى العائلات اليونانية فى المدينة. وكان على رأسهم ابنه ماخوس. كانت المراكب الأولى قد بدأت فى الوصول حاملة اللاجئين من زميرنى باليونان، ولم تكن أصداء تلك الفضيحة قد أوشكت على الانتهاء. لم يكن أهل المدينة، بذاكرتهم القوية ورغبتهم فى انتقاد الآخرين، ليتروا بسهولة مثل هذا الحدث بتفاصيله الشيقة؛ أما أندونيس الذى توقع ذلك فقد سارع بإرسال الابن الأصغر إلى ألمانيا وبالتحديد إلى ميونيخ.

فى تلك الأثناء، تبنى أندونيس وجهة نظر أخرى، فبدلاً من اهتمام أبناء الجالية اليونانية بشذوذ أربعة صبية مدللين، كان من الأفضل لهم أن يصبوا كل اهتمامهم فى التفكير بمستقبلهم فى أرض أجنبية، وما يحدث بها من تغيرات مقلقة: بداية من أحداث عام ١٩٢١ الدموية، التى تبعتها شهور سوداء بعد نفى عرابى. كان إلياس، الذى مازال يحتفظ بانطباعات مؤثرة عن المدينة، يخبره منذ زمن بأن «أئمة المسجد الكبير فى أبو العباس يملأون عقول الناس بكلام فارغ، " الأمر الذى سيؤدى بنا إلى التهلكة " (قالها بالفرنسية)». وذات مساء يوم خميس، فى التاسع عشر من شهر مايو، اندلعت "مظاهرات" (ذكرها بالعربية وبتنها بحروف يونانية) عارمة، تبعتها أعمال تخريبية فى المحلات بميدان محمد على. وفى غضون الثلاثة أيام التالية استمرت الأمور على نفس المنوال، حتى فرض الجيش الإنجليزى الحصار على المدينة وفرض عليها حظر التجوال. ترك العديد من اليونانيين منازلهم، كما تركوا أيضاً أموالهم ولجأوا إلى القنصلية وإلى مقر الجالية. امتلأ المستشفى اليونانى بالعديد من اليونانيين ما بين قتيل وجريح.

وعندما عادت الأمور فى المدينة إلى طبيعتها، نسى الجميع ما حدث، حتى وقعت فيما بعد كارثة زميرنى لتذكر كل المتحذلقين أن الأرض التى تستضيفهم لن تكون فى خدمتهم إلى الأبد.

وفى تلك الأثناء، لم يكن اليونانيون بالأسكندرية يفعلون أى شىء آخر سوى النميمة أو التشاجر فيما بينهم حول السياسة. ويبدو أن الشقاق الوطنى لم يكن لينتهى أبداً. وفى عام ١٩٢٢، وقعت مشاحنات بين مؤيدى الملكية ومؤيدى فينيزيلوس، بسبب ما قام به البعض من تمزيق صورة زيتية لفينيزيلوس. أما فيما يخص النميمة، فقد استشعر أندونيس أن كل حدث تاريخى عالمى، يهز بعنف سمعة عائلته. حتى عند اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون كان للمقربين منه دور أساسى يلعبونه. فقد ارتبطت فضيحة نهب الآثار التى اكتشفت فى شهر فبراير من عام ١٩٢٣، وسميت حينئذ "توت عنخ أمون" على الرغم من عدم وجود أية صلة بينها وبين مقبرة الملك المصرى، إرتبطت بشكل أساسى بشخصين معروفين، هما صمويل عظيمان الشهير ولوكاس سينجوس (شقيق زوجته). وتحدثت الصحف العربية عن نهب العديد من الآثار المصرية وعن المومياءات التى أوقظت بعنف من سباتها وعن التماثيل والآثاث الجنائزى بالمقابر. كان جامع التحف اليهودى قد أمّن لنفسه حصانة بسبب شهرته الواسعة، أما صهر أندونيس فقد تعرض لخطر السجن، واتخذ الموضوع أبعاداً خطيرة: فيبدو أن الصهر العزيز، الذى يجرى فى عروقه مبدأ "أنفذ نفسك أولاً"، لم يتردد فى أن يلقى بالمسئولية على أخته، ولكن بفضل تدخل إلياس استطاعت ذافنى أن تنجو بنفسها من مصير سيئ. وبدأ أندونيس يفكر بجدية فى احتمال الطلاق. لم يكن ضيقه وانزعاجه منها بسبب الزج باسمها فى تلك الفضيحة، كما أوضح للبنانى، ولكن لشعوره بأنها قد خدعته: «إنك تفهم ما أعنيه، فقد كنت أعتقد أن زوجتى شىء ثابت لا يهتز، كالموبيليا فى المنزل، وكنت على يقين دائماً من أننى سأجدها فى كل مرة أعود فيها إلى المنزل فى المكان الذى تركتها فيه». الشىء الوحيد الذى صدق فيه توقعه طوال تلك السنوات، كما كان يقول، هو حدسه المالى، ليس فقط لأنه أصاب فى قراراته التى اتخذها قبل الحرب،

لكن أيضاً لأنه خرج منتصراً من هذه الحرب العظمى - مثلما توقع خورى فى القاهرة اليوم الذى ستعلن فيه الحرب - والآن لديه حدس قوى بسيناريو متفائل لما بعد الحرب، وهى الفترة التى أطلق عليها إلياس فترة ما بين الحربين . كان الجناح الجديد للمصنع فى محرم بك قد اكتمل، وكذلك ماكينات التصنيع. لكن كل ذلك كان له ثمنه، حيث بدأت موجة من الإضرابات فى المصنع فى عامى ١٩١٩ و ١٩٢٠، بشكل مباشر بعد فصل الكثير من العمال بسبب البدء فى استخدام الماكينة الجديدة فى التصنيع. وكانت ما تسمى " بنقابة عمال مصانع السجائر العالمية " تشجع على القيام بإضرابات فى العديد من مصانع السجائر فى مصر، وبالطبع لم يكن خاراميس بعيداً عن ذلك. ودائماً ما تعقب تلك الإضرابات اشتباكات مع الشرطة. ومن اللافت للنظر أن المصريين كانوا يأتون بأسرهم معهم إلى ساحة الإضراب. وبعد فترة من الإضرابات التى استمرت لمدة ستة أشهر، شعر أندونيس بأنه قد تم استدراجه، بما تعنى هذه الكلمة، ومعه عدد من رجال صناعة الدخان الآخرين، لتوقيع عقد نقابى - هل يعقل هذا! - حيث تم الاتفاق ولأول مرة، على أن التعويض الذى سيحصل عليه العامل المفصول يعادل الأجر الذى يقبضه فى شهر كامل ؛ لكن حتى هذا كان سيتم تطبيقه يوماً ما . وفى القاعات المشمسة فى الدور الأرضى بقسم التغليف، يعمل ما يزيد على ألف ومائتى عامل، أغلبهم من أهل البلد، كانوا يعملون بجد ونشاط حول الموائد الطويلة وهم يرتدون العمامات البيضاء فوق رؤوسهم، التى تشبه صفوف البيض المتراصة التى لا تنتهى. من يستطيع أن يرى مثل هذا المشهد ولا يعتقد أن لديه القدرة على امتلاك العالم بأسره؟

فى صباح أحد أيام شهر مارس من عام ١٩٢٣ - بعد الاحتفال بالعيد الوطنى لليونانيين - طارت حمامة بيضاء ثم هبطت على إفريز نافذة مكتب أندونيس. كان صوت هديلها حزيناً ومتواصلاً، حتى إنه عكر صفو وتركيز رجل صناعة الدخان اليونانى، وكأنها لم تكن ترغب سوى فى جذب انتباهه، لأنها بمجرد أن اقترب من النافذة، حتى طارت بعيداً. تابع خاراميس الحمامة وهى تطير حتى اختفت على الجانب الآخر من ترعة المحمودية. ماذا لو كانت روحها؟ ماذا لو كانت روح سارة بيرنار؟ تلك التى قرأ

فى صحف اليوم التالى عن موتها فى باريس. مرت عشرون عاماً منذ أن قامت "النجمة" (ذكرها باللغة العربية وُدونها بحروف يونانية) المشهورة بزيارة مصنعه، والدليل الوحيد المؤكد لتلك الزيارة هو؛ ذلك الإهداء المكتوب على ظهر صورتها التى يحتفظ بها فى أحد أدراج مكتبه. الآن تبهر ذكرها مع المراكب فى المحمودية. كل هذا المجد، كل هذه العظمة، كل تلك الموهبة أصبحت دخاناً. «لا شىء يبقى» هكذا حدثت أندونيس نفسه بينما كان يحاول جاهداً أن يتماسك، فكر فى الاتصال بإيفيت تليفونياً. استمر التليفون الضخم اللامع نو السماعه الذهبية فى الرنين عدة مرات داخل منزل إيفيت، لكنها لم تكن هناك لتجيب، وشعر أندونيس فجأة بأنه وحيد، وحيد بلا رفيق معه سوى فكرة الموت.

* * * * *

عندما وصل كوستيس إلى برلين فى نهاية عام ١٩١٩، وجد نفسه فى قلب الدولة الألمانية التى مازالت تنزف من الحرب الأخيرة: كان قيصر غولييلموس الثانى، الإمبراطور الأخير، قد ترك الحكم منذ عام مضى، قتلت روزا لوكسيمبورج، ثم تلى ذلك ارتكاب العنف على يد كتائب (Freikorps) وتجربة الديمقراطية الجديدة التى بدأت فى يوليو فى مدينة فائمارى، ولكن حتى فى عاصمة ألمانيا كان الدمار والفقر يسودان كل شىء. شعب ذليل يكافح كل يوم فى الشوارع ضد شبح الجوع والبطالة والمرض، مدافعاً عن جمهورية جبانة كانت تجرى لتختبئ بعيداً عن برلين مع أى أزمة تواجهها. كان مصابو الحرب يواصلون مسيراتهم المهيبة فى الشوارع احتجاجاً ومطالبة بتعويضات، عدد كبير من الخطباء المتحمسين اعتلوا قمة التماثيل فى المدينة، جاذبين تجاههم الفضوليين، ثم يشروعون فى إلقاء خطب رنانة بنفس الطريقة التى يرفعون بها قبعاتهم ويلوحون بها للجماهير.

كان الشتاء الأول شديد القسوة على ذلك الشاب السكندرى فى تلك المدينة القاسية. كل من عاش لىالى برلين، بأطوارها العنيفة فى شوارعها الخالية وأصواتها

الخفاقة الواحدة بعد الأخرى، يشعر وكأنها العلامات الأولى لاستعادة الاقتصاد عافيته وسط هذا الظلام الاقتصادي، واختلطت الفنون التعبيرية بمذهب الدادية^(١٠)، الذي أخذ في الانتشار. وبالنسبة لكوستيس فقد كانت وجهة نظر والده بدراسة الهندسة وكأنها نوع من الحرمان من ميراث الإمبراطورية الاقتصادية التي أسسها أندونيس خاراميس في مصر. عاش كوستيس شهوره الأولى في المدينة مبتعداً عن التزاماته الجامعية، متذرعاً بالحالة الاقتصادية غير المستقرة التي سببتها الإضرابات اليومية، ولذلك فقد اكتفى بدراسة الهندسة في الشوارع وفي غمار الحياة اليومية. وهكذا تعلم فن الروكوكو^(١١) الذي ينتمى إلى كنوييلسدورف، وكذلك فن الباروكية^(١٢)، الذي ينتمى إلى لانجهانز، كما أبدى إعجابه بوجه خاص بكلاسيكية شينكل الجديدة، الذي أثر في صورة برلين أكثر من أى فنان آخر. كانت شمس الشمال الألماني الباهتة تترك ظلالاً مخيفة على قبة الرايخشتاج وعلى بوابة فراند إمبورجو، ولكنها كانت تدخل بصعوبة إلى " المساكن " (ذكرها بالألمانية)، وإلى العمارات الضخمة والمنعزلة المشيدة في ساحات متجاورة، وكانت الحاجة إلى إيجاد مأوى رخيص سبباً في إنتشارها حول هذه الساحات، حيث كان يعيش أغلب أصدقائه، مثل: كارل فويتير، ابن لوكسيمبورج، وهو شاب ألماني شيوعي، ضخم الجثة بشكل لا يصدق عقل، وهو رمز للمتظاهرين الشيوعيين في برلين؛ ويعقوب، ذلك الشاب اليهودي الفقير، الذي يجمع بين كونه شاعراً وفيلسوفاً، يعيش في البدروم، ويقرأ للفيلسوف كانط من بعض الكتب المهترئة. عندما كان كوستيس يناديه تجده يهرع إلى الشباك ذى القضبان الحديدية، وهو شخص ضئيل الحجم، نحيف الوجه، يرتدى نظارة بعدسات مستديرة، لم يتعلم من كل ما قرأ سوى أن يقول: «أنا جوعان!». اعتاد كوستيس أن يذهب إليه حاملاً رغيماً من

(١٠) "دادييه: Dadaist": هو مذهب في الفن مبني على تأكيد حرية الشكل والتخلص من القيود التقليدية. (المترجم).

(١١) "روكوكو: Rococo": هو أسلوب في التزيين وفنون العمارة ظهر في القرن الثامن عشر، ويتميز بالمبالغة في الزخرفة. (المترجم).

(١٢) "باروكيه: Baroque": أسلوب فني في التعبير يعود للقرن السابع عشر. (المترجم).

الخبز وقطعة من السجق ملفوفة فى ورقة جرائد قديمة، يضعها تحت إبطه. ثم يجلس القرفصاء أمام الشباك ويطلع يعقوب لقمة لقمة مثل الطائر الصغير، ثم يسأله وهو يمسح على شعره برقة قائلاً:

«هل شبعت؟ صدقنى لقد رأيت يهوداً كثيرين فى حياتى، ولم أصادف من هو أفقر منك» عندئذ كان يعقوب يبتسم ثم يختفى فى جحره ثانية.

وهناك أيضاً ماكس نايسيماجر، الرسام، مدمن الخمر؛ وهو حالة خاصة، لكنه، شأنه شأن الكثيرين فى ذلك الوقت، كان يكفيه «أن لا يكون فناناً، ولكن أن يعيش كفنان». كان كوستيس يذهب إليه فيجده بين أنقاض أحد المصانع، أو بين أوعية قديمة أو قطع من القماش القذرة. وبدلاً من الخبز واللحم، كان يحمل إليه زجاجة كونياك تحت إبطه. اعتاد كوستيس أن يسأله: «كيف تعيش فى هذا المكان؟» فيجيبه ماكس: «إن ما يخيفنى ليس أننى كيف أعيش هنا، ولكن كيف سأستمر فى الحياة، عندما لن يسمحوا لى أن أعيش فى هذا المكان». أما كوستيس فبالدعم المالى غير المحدد من والده (حيث لم يكن أندونيس يخل على ابنه أبداً بالنقود، فقط كان يكفيه أن يبقيه بعيداً عن الإسكندرية، لأن وجوده فيها سوف يؤثر بالطبع على سمعته وأعماله) كان يستطيع ببساطة أن يقيم بشكل دائم فى فندق "قيصر" الذى يقع فى شارع فريدريخ، لكنه على العكس من ذلك، على الأقل فى البداية، كان يفضل أن يقتسم كل شىء مع أصدقائه، حتى فتياته: مارلين وألريكى وروسا. فتيات قاماتهن طويلة، كالتماثيل الضخمة، كان من الممكن لمثلهن أن يعشن فى الإسكندرية حياة رغبة، ولكنهن دائماً قانعات بحياتهن القاسية فى برلين، يتبادلن بكل سعادة فيما بينهن الملابس والشعر المستعار والمرايا الصغيرة والسجائر وبودرة التجميل، محافظات على بياض أجسادهن من أجل إمتاع اليونانى وأصدقائه نوى الطبع الغريب.

من خلال هذه النماذج البشرية، استطاع كوستيس أن يجتاز محنة حنينه للعيش فى مصر. وربما كانت الحانات هى الشىء الوحيد الذى يذكره بالإسكندرية، فديكوراتها والجو الخاص بها كانا يحلقان به مباشرة إلى الإسكندرية وإلى شارع

البورصة القديمة. أما بالنسبة لبقية الأمور، فقد تعود سريعاً على التلطف بالكلمات السيئة بكل اللغات. لكن الكلمات الإنجليزية والفرنسية التي اعتاد أن ينمق بها كلماته كانت تثير ضيق من يتحدث إليه. ولذلك عندما كان كارل يرغب في مضايقته، يضع له مصطلحاً فرنسياً بين كلماته، وكانت لهجته الألمانية تساعد في ذلك دون أن يلحظه أحد. كان كوستيس يفضل أن ينسى ذلك المجتمع متعدد الأجناس الذي ولد وترعرع فيه، ولكنه لم يتمكن من ذلك إلا بعد مرور وقت طويل، إن كان قد تمكن من ذلك بالفعل، كما احتاج لوقت طويل حتى يترجم في ذهنه أولاً تلك العبارات البسيطة التي كان يسمعها ويقرأها في الشوارع وعلى المباني وفي محطات المترو وفي الميادين. كلمات مثل (Strasse, Ausgang Buchhandlung)، فكان يحولها في البداية في ذهنه إلى الفرنسية ومنها إلى اليونانية حتى يستطيع فهمها وهي تعنى على التوالي: "مكان الخروج"، "مكتبة لبيع الكتب"، "طريق".

حتى هذه اللحظة لم يكن هناك ما يبشر بـ "العقد الذهبي" بداية من عام ١٩٢٠، وكانت برلين تعاني أشد المعاناة لكي تخرج من ظلمة التخلف الذي كان يصفه كوستيس في خطابه. كانت المدينة تعاقب نفسها، تماماً مثلما كان كوستيس يفعل بنفسه عندما كان يرفض أن يعترف بمدى اشتياقه لسماء الإسكندرية ويحررها الشاسع. وخلال أربع سنوات من الغربة كان كل جزء يشعر بالحنين لمدينة الإسكندرية يموت بداخله رويداً رويداً، وهو ينتقل من دراسة علم إلى آخر، وهو ما كان يمنحه شعوراً خاطئاً بأنه يكتسب بذلك مقاماً أعلى في المعرفة الإنسانية. فجاء تعلمه لتاريخ الفن بعد انتهائه من الهندسة بشهور قليلة، ومن الفلسفة إلى الأدب اليوناني القديم، ثم العودة مرة أخرى لدراسة الهندسة بنهم، عندما يكتشف أنه قد أكمل دورة دراسية كاملة في هذه العلوم، تماماً كالذي يعود إلى حبيبته بعد أن يتنوق أحضان نساء أخريات. ورغم ذلك كان الشيء الوحيد الذي استطاع تحقيقه بعد كل تلك السنين التي قضاه في أوروبا هو: اكتساب الخبرة من خلال الصقل والتهذيب غير التقليديين. أما مؤهله المهني فقد بات كحلقات الدخان الناتجة عن ضوضاء المفكرين ببرلين.

جاء صوت أخيه ماخوس من ميونيخ ليقطع هدوء تلك السنين الطوال وعندئذ، تذكر كوستيس أنه يعيش فى جنوب ألمانيا، وحاول، لأول مرة، أن يحسب براحة يده على الخريطة المسافة التى كانت تفصله عن أخيه. وبلا شك، فقد عزم على الذهاب إليه فى يوم من الأيام، أما فى الوقت الحاضر فكان يكتفى بقراءة خطاباتة الحماسية، حتى لو لم يكن يستطيع دائماً أن يشاركه تفاعله فى كل ما كان يحدث فى ألمانيا فى تلك الفترة. فى هذا الجرح الذى أصاب هذه الأمة وأخذ يتقيح، ويفرز جروحاً صغيرة، ظهرت فصائل متناحرة وأيديولوجيات وجدت أرضاً خصبة لتنتب فى نفوس الألمان التسعة.

فى بداية عام ١٩٢٢، كانت المرة الأولى التى يفكر فيها كوستيس جدياً فى ترك برلين الباردة والانتقال لأجواء أكثر سخونة، وعندئذ عارضه كارل قائلاً:

«أجننت، لقد مررنا بالصعب والآن تريد الرحيل بعد أن تحسنت الأمور، لا: Nein!»

وعلى الرغم من أن كوستيس لم يلحظ أن هناك أموراً قد تحسنت، فإنه بقى فقط من أجل أصدقائه، ولحسن الحظ، فقد كان والده يصر من البداية على أن يمدّه - بالعملة الصعبة -، وإلا كان سيضطر هو أيضاً، مثل الكثيرين، إلى جر إحدى العربات الصغيرة المحملة بالكثير من العملات الورقية التى أصبحت بلا قيمة، ثم يعدو محاولاً الحصول بها على طعام للعشاء قبل أن يصل إليه التضخم الاقتصادى. ثم بدأ السقوط المدوى للمارك الألمانى، وطرق شبح التضخم أبواب المدينة، مسبباً حالات مأساوية مخيفة. كان الرجال والنساء يتسلقون فى يأس المبانى والتماثيل العامة، لسرقة كل ما يستطيعون الحصول عليه ويمكن بيعه؛ بينما يتوجه آخرون نحو الأبواب والنوافذ المغلقة لكى ينتزعوا منها المقايض والمزاليح، أما فى الشوارع فكان الأطفال يبنون لهم منازل صغيرة برزم العملات الورقية التى لا قيمة لها. رجال يائسون بلا مأوى، مجبرون على استئجار أسرة فى أماكن قذرة لأخذ قسط من الراحة ساعات قليلة، فى الوقت الذى كانت ألفا ماكينة طباعة تواصل العمل ورديتين أو ثلاثاً لطباعة المزيد من العملات الورقية، حتى وصل الأمر فى شهر أغسطس من عام ١٩٢٣ إلى حد طباعة عملة ورقية

من فئة المليار مارك. داخل هذا البؤس الذى يتنافى مع كل منطق، كان كوستيس يحيا حياة الأمراء. الغرف فى الفنادق الفخمة، الشراب غالى الثمن، أفضل كباريهات أوروبا، إلى جانب العديد من النساء اللاتى يأتمرن بأمره بشكل لم يحدث من قبل، فقط لأنه تصادف وكان يحمل فى جيوبه مئات من الجنيهات الإسترلينية. ولم ينس كوستيس أصدقائه: فقام بإسكان فتياته فى جناح بفندق "قيصر"، وتعاقد مع أحد أفضل المطاعم ببرلين لكى يهتم بإرسال الطعام إلى يعقوب وإلى ماكس بشكل يومي، واستأجر عربة حنطور وخصصها لنقل أطباق الطعام داخل صحنون فضية أولاً إلى بدروم اليهودى المفكر ثم بعد ذلك إلى الأنقاض التى يعيش بينها الرسام. فى تلك الجحور القذرة كان يوجد بصفة دائمة نادل مخصص لتلبية رغبات كلا السيدين، كما كانت تفتح أعلى زجاجات النبيذ، ومعها يقدم أطيب الطعام.

كل ذلك كان، بالطبع، يجعل كوستيس يشعر بالإطراء، لكنه كان يتسائل دائماً إذا ما كان من حقه الشعور بالسعادة وسط كل هذا البؤس، وكان يسأل كارل، قائلاً:

«إن بكلمة "الأفضل" ماذا كنت تقصد؟».

أما الألمانى ضخّم الجثة، الذى كان يشعر بالذهول من ذلك التحول الجذرى فى الأمور، فكان يتنبأ دائماً بنهاية سريعة للرأسمالية، لكن فى الوقت الذى كان حريصاً على الاستفادة من عطايا صديقه السكندرى وعلى التخفيف من إحساسه بالذنب. وفجأة تغيرت الأحوال وأصبحت الحياة رائعة. امتلأت الكباريهات بالفتيات العاريات، وسالت الشمبانيا فى الكؤوس وامتلأت الأطباق بأطيب الطعام، بمئة دولار كان يمكن لأى شخص أن يستأجر أوركسترا برلين الموسيقية لليلة كاملة، وبمبلغ أقل كان من الممكن أن تجعل أجساد الفتيات والفتيان فى المدرسة تتلاحم فى مشهد ليس له مثيل، دون أدنى حياء، إنها ثورة جديدة، إنها "ثورة الرفاهية". ولكن يبدو أنها كانت مجرد مرحلة انتقالية تجاه الشيوعية.

وفى خضم هذه الرفاهية المصطنعة، نسى كوستيس أخاه مرة أخرى (فمنذ وقت ليس بقليل كان قد توقف عن الرد على خطابه)، إلا أنه تذكره فى نهاية عام ١٩٢٣:

فعندما فر ماخوس هارباً إلى برلين في محاولة منه لتجنب القبض عليه بعد ثورة الحانة الفاشلة -، رآه كوستيس فجأة ماثلاً أمامه، لم يستطيع حينها أن يصدق أن هذا الرجل طويل القامة الوسيم، ذا الشعر الكثيف والعينين المتوهجتين هو ذلك الصبي الذي تركه منذ أربعة أعوام في الإسكندرية.

* * * * *

«سلام» (ذكرهما باللغة العربية وبونها بحروف يونانية)، هكذا صاح الحارس المصرى الذى يرتدى جلباباً أبيضاً وطربوشاً، وانحنى تحية لذلك الرجل طويل القامة الذى دخل إلى فناء المصنع فى حين اكتفى هذا الرجل بالإيماء إليه، وفى نفس الوقت كان يجفف وجهه من العرق بمنديله ثم توجه بعد ذلك بخطوات سريعة تجاه مدخل المبنى صامتاً، متجهماً، وفى أقل من دقيقة كان قد صعد السلم الضخم المصنوع من الرخام دون أن يخبر أحد وطرق الباب ثم دخل إلى مكتب أندونيس خاراميس. فى تلك اللحظة كان رجل الصناعة يقف أمام النافذة متأملاً ترعة المحمودية، وعلى الرغم من أنه لم يكلف نفسه بالاستدارة تجاه الباب، فإنه ألقى تحية جافة قائلاً: «مرحباً».

بلغ الرجل الذى يدعى ستاماتيس ريقه بصعوبة بالغة، وقبل أن يتفوه بكلمة سمع خاراميس يقول:

«أعرف، أعرف، أغلق الباب وضعه على المكتب». أطاع ستاماتيس الأمر وغادر المكتب فى نفس التو، ولكنه سمع خاراميس يتوجه إليه بالحديث مرة أخرى قائلاً: «إلى أين تذهب؟ ألن تحصل على أجرك؟»، كان أندونيس يقف أمام مكتبه، مرتدياً نظارته الطبية، تماماً مثلما اعتاد أن يفعل فى كل مرة يرغب فى مراجعة بعض الحسابات، وفى النهاية لم يستطع أن يمنع نفسه من الاعتراض قائلاً:

«إلى هذا الحد!، ما هذا يا ستاماتيس؟ ما كل هذه الأموال؟».

رفع ستاماتيس أكتافه ببساطة لكى يذكره بأنه هو نفسه لا يتحمل أية مسئولية فى القصة كلها. ثم سأل رجل الصناعة قائلاً:

أندونيس: «على أية حال، هل تعتقد حقاً أن هذه القصة يمكن أن تستمر لوقت أطول؟».

ستاماتيس: «ماذا أقول لك، يا سيد خاراميس..» جاءت إجابة ستاماتيس بصوت أجش متقطع يتردد بشكل كئيب داخل المكان.

أندونيس: «ماذا تقول، يا ستاماتيس» هكذا أجابه أندونيس بينما كان يبدي إنزعاجه في كل مرة يسمع هذا الصوت الغريب، ثم استكمل أندونيس حديثه قائلاً: «أتمنى فقط أن تكون قد حافظت على سرية الموضوع، لقد أكد لي يورغاس أنك مصدر ثقة مطلقة»

ستاماتيس: «لا تقلق بشأنى، يا سيد خاراميس، فانا أعرف جيداً كيف أبقى فمى مغلقاً». ثم طأطأ ستاماتيس رأسه وتظاهر بأنه لم ير أندونيس وهو يخرج من درج مكتبه رزمة جنيهاات مصرية، ثم ألقى بها على حافة مكتبه الضخم؛ عندئذ تحرك ستاماتيس لالتقاطها، وقبل أن يفعل ذلك مسح يده الغارقة فى العرق بمنديله، ثم ألقى بالتحية وأسرع بالاختفاء من أمامه دون أن ينتظر الرد على التحية من رئيسه فى العمل.

بقى أندونيس وحيداً مرة أخرى وأخذ يتساءل كيف استطاع أن يفعل ذلك. فبدلاً من أن يفصل عن ذافنى بعد تورطها فى فضيحة تهريب الآثار ويتخلص منها ومن أخيها الغبى، أخذ على عاتقه إصلاح ما ارتكبه زوجته من سرقات فى محلات مختلفة بالإسكندرية. كان يميل إلى تصديق أن طلاقه لن يكون قضية سهلة فى ذلك الوقت، مفضلاً الاستمرار فى حياته الغريبة مع امرأة لا يحبها ولا يفهمه، بدلاً من أن يسقط من نظر الناس، أولئك الذين كانوا سيجدون، فى كل الأحوال، شيئاً يتحدثون عنه. حقيقة كان يغبط الأجيال القادمة على ما سينعون به من حياة حقيقية، يستطيع فيها الواحد منهم أن يختار بكل حرية شريكته فى الحياة. إلى هذا الحد، لم يعد واثقاً إذن من أن قراره بالإبقاء على ذافنى سيؤثر على المجتمع المحيط به أم أن كل شيء كان مرتبطاً بشخصيته المحافظة التى كان يشعر دائماً بنوع من الفخر تجاهها. يا لك من ملعونة يا روح الإنسان! ما حقيقة داء السرقة المفاجئ الذى انتاب ذافنى أخيراً؟ فمنذ اللحظة التى قرر فيها أن لا يطردها، أصبح لزاماً عليه أن يحمى شرفها وسمعتها.

لذلك قام بتعيين شخص لمراقبة كل تحركاتها على أن يتدخل قبل أن تقع فى قبضة الشرطة، ولكن جال بخاطره أنه ربما لى ينعم براحة البال فلابد أن يكون على استعداد لتسليمها للشرطة وللأسنة السيئة فى مجتمع الإسكندرية، ولكن ما الذى منعى من ذلك؟ وأخذ يفكر مرات ومرات عن السبب.

فى تلك اللحظة أتى رنين التليفون لى يخرج من تلك الأفكار. على الجانب الآخر من التليفون جاء صوت ذافنى الرفيع الهادئ، الذى يشبه صوت الأطفال بطريقة لا تتناسب مع مركزها أو سنها، غير عابئة بما سببته له من مشاكل بسبب ما اقترفته من ذنوب، لكنها اتصلت فقط لى تذكره بالآتى:

«لقد دعوت القنصل الفرنسى الليلة على العشاء، وأرسلت دعوة أيضاً إلى.....»
لم يستمع أندونيس إلى الأسماء التى عدتها ذافنى، وعندما أنهى المكالمة، وجد نفسه يعود مرة أخرى سريعاً إلى أفكاره التى قطعتها مكالمة التليفون.

هل من المعقول أن تفعل ما فعلت دون أن تشعر بالقلق فى النهاية؟ على الأقل كان ينبغى عليها أن تتناول طعام العشاء فى المنزل هذه المرة، من المهم أن تفعل ذلك. أتخيل أنها قد يصل بها الأمر إلى درجة سرقة أشياء من منزلها نفسه. أما بالنسبة لضيوفنا، فسوف أفتح عينى جيداً. يا لها من ورطة!

لم تكن لذافنى نفس وجهة النظر، فقد صارت طوال تلك السنوات داء السرقة اللعين بشراسة، واضطرت أن تحبس نفسها، لفترات زمنية طويلة فى منزلها حتى لا تتورط فى أى شىء آخر. كانت تعتقد أن المرة الوحيدة التى تعرضت فيها لخطر إلقاء القبض عليها هى تلك التى حدثت فى محلات شارع عبد العزيز، ولكن لحسن حظها، فقد أرسل القدر لها رجلاً طويل القامة، مصرياً قبطياً، يدعى ماركوس داود، لى يمنعها من ارتكاب خطأ لا يحمد عقباه ؛ ثم أصبح عشيقاً لها فيما بعد لمدة ما يقرب من ثماني سنوات، وقد منحها متعاً لا توصف خلال رحلاتها الدائمة إلى القاهرة، فكل ما كانت تتمناه ولم تكن تستمتع به بالقرب من أندونيس، استمتعت به بجانب عشيقها ماركوس فى كل مرة كان جسده الممشوق ذو الجلد السميك يعتصر جسدها. هذا

الرجل الذى كان رائعاً فى كل شىء، كان يعرف كيف يأخذها فى أحضانها كالريشة. كيف يجعلها ملكاً له، متقلباً فى سلوكه معها بين النعومة والهمجية، كيف يحتويها، كيف يوقظ فيها كل ما كانت قد تناسته من مشاعر الأنوثة. استطاع هذا الرجل الذى ظل غامضاً لمدة ثمانية أعوام والذى أتى من المجهول أن يشعل لهيب الحب بداخلها. لقد قدم لها نفسه على أنه موظف بمصلحة الآثار المصرية، لكن ذافنى لم تكن واثقة إذا ما كان المصريون يهتمون فعلاً بالحضارة القديمة لمصر، حتى يقوموا بإنشاء مثل هذه الهيئة. وعلى أية حال، فقد تحول علم المصريات إلى هوس مقدس لعشرات الباحثين حول العالم، الذين كانوا يحبون أرض النيل من أجل اكتشاف أصل التاريخ وفك طلاسم الحضارة المصرية العظيمة. كانت الدولة تلعب لعبة القط والفأر مع كل البعثات الأثرية التى كانت تصل بهدف ترك بصماتها من خلال إضافة قطعة مكملية من حجر البازلت فى صرح التاريخ. كان الطرفان يعقدان عدة إتفاقيات وشروط التى ما تلبث أن تُنتهك فى اللحظة التالية، وينتهى الأمر برفع القضايا أمام المحاكم المختلفة. لم يستطع أحد أن ينكر ذلك الاهتمام الحقيقى وتلك المعرفة التى يتمتع بها المجتمع العلمى حول العالم، ولا حتى الحقوق الضمنية للدولة، مثلما لم يستطع أحد أن يمنع فئران تهريب الآثار أن يجدوا لأنفسهم مكان بين كل هذا فيتشكل فى النهاية طابور من الموظفين الحكوميين والعلماء والمغامرين والباحثين وحتى مهربي الآثار، كان كل واحد منهم يرى أن لديه الحق فى الوصول إلى هدفه قبل الآخرين، كائن من كان. كل اكتشاف جديد لم يكن يثرى المعرفة البشرية بقدر ما كان يثرى أيضاً جيوب بعض أولئك الذين يمتلكون حاسة الانقضاض فى التوقيت المناسب من أجل الاستفادة من تلك اللحظة التى يلتقى فيها الحاضر بالماضى.

لذلك كان تخصص ماركوس غاية فى الأهمية. فكل معلومة عن التوابيت والتماثيل الموجودة فى أطراف القاهرة تمكن ذافنى من الحصول عليها بمهارتها من ماركوس، يتم التحقق منها فى اليوم التالى عن طريق شقيقها لوكاس وأعوانه. كانت تسأله متظاهرة بعدم الاهتمام: «ما أخبار عملك الجديد، يا ماركوس؟»، عندئذ كان يتفاخر

أمامها، دون أن يساوره أدنى شك فى نويياتها، ويطلعها على كل الاكتشافات الحديثة، ويبدو أنه قد أحبها بالفعل – وإلا فلماذا كان يطلب منها بإلحاح أن تنفصل عن زوجها حتى يتسنى له الزواج بها؟ نعم، لقد تعلم أن يعرض عليها الزواج بلغة يونانية ركيكة، معتقداً أنه بهذه الطريقة قد يحظى بفرصة أكبر. إلا أن ذافنى، حتى لو كانت تذوب عشقاً وهى بين أحضانها، فلم تكن لديها أدنى رغبة فى الانفصال عن أندونيس. وكانت تحدث نفسها قائلة: «من مدام خاراميس إلى مدام داود! هذا الأمر لا يمكن أن تجرؤ عليه سوى امرأة مجنونة!». ».

كانت ذافنى تكتفى بالاستمتاع بحبها مع رجل يعرف كيف يبتسم لها ابتسامة حانية، كيف يوجد بجانبها من أجل إشباع رغباتها، وبشكل جوهري، كيف يحميها من اللحظات الحرجة التى تزداد فيها رغبتها فى السرقة. وهكذا، ومن خلال حياتها المزدوجة، كانت تستطيع أن تتخطى بثقة مشاكلها العائلية، وأن تتحمل غياب ابنها كوستيس وماخوس عنها، وأن تبرر قسوة أندونيس – فهى باعتبارها أمّاً لم تجد على الإطلاق سبباً واضحاً لتبرير تلك القرارات الصارمة التى أصدرها أندونيس ضد أبنائها – كما كانت تستطيع بوجه خاص، أن تستجمع قواها حتى تستمر حياتها، وأن تفتح الباب لمواصلة علاقاتها الاجتماعية التى كانت قد أغلقتها منذ أعوام مضت، لكى تحمى نفسها من مشاعرها الدفينة.

عندما تورط اسمها فى فضيحة تهريب الآثار، وأوضح لها ماركوس وهو فى شدة إنفعاله أن هذه الفضيحة كانت سبباً فى نهاية العلاقة بينهما، كانت قد حصلت بالفعل على كل ما أرادت، بل وأكثر مما أرادت. لم تستطع طبيعتها الأنثوية إلا أن تهدأ، بعد أن تخطت الخمسين من عمرها، فالمتعة التى منحها إياها ماركوس كل تلك السنين بفحوله الطاغية(*) بدأت تتحول شيئاً فشيئاً إلى ألم غير مرغوب فيه. حتى تحوالت حياتها المزدوجة فى القاهرة إلى ورطه كبيرة. كان لزاماً عليها أن تتخلص منها بأسرع ما يمكن. ومن هذا المنطلق أصبح قرار داود وكأنه نجدة لها من السماء.

* * * * *

«إننى أحدثك عن عالم جديد، يا أخى العزيز كوستيس، "عالم جديد" (دُونْها بالألمانية)» هكذا صاح ماخوس فى شرفة "مقهى رومانس" (دُونْها بالألمانية). كان صوته حاداً وواثقاً، على الرغم مما عُرف عنه من رقة، وجعل كل من فى الميدان يتطلع إليه. لم يكن كوستيس يرغب بأى طريقة أن يكونا محطاً للأنظار فى واحد من أشهر الأماكن وأكثرها ازدحاماً فى برلين، فأشار إلى أخيه كى يخفض صوته، كما لو كان هذا "العالم الجديد" (دُونْها بالألمانية) سرّاً أثماً ولا بد أن يبقى سرّاً فيما بينهما.

ابتسم الأخ الأصغر مرتبكاً بسبب حماسة السانجة وهو ابن التاسعة عشر عاماً. إلا أنه كان معتاداً على جذب انتباه الآخرين، أما الغريب فهو أن لا ينظر إليه أحد . من ناحية أخرى، كان يبدو واضحاً كيف أنه كان يعتبر نفسه مجرد رسولاً أكثر من كونه متآمراً، وعلى الرغم من أنه قد أصيب ببعض الإحباط عندما تأكد أن السلطات الألمانية لم تكن تبحث عنه بسبب مشاركته فى " ثورة الحانة " فإنه أصر على اعتبار نفسه ممثلاً للنظام الجديد، وكانت ثقته فى ذلك تعطيه إشراقة تنير له وجهه، كما تعطيه أيضاً شعوراً بالعظمة لا يتناسب مع سنه الصغيره ؛ وعلى الرغم من أن كوستيس لم يبد موافقته نهائياً على الزج بأخيه فى كل هذه القصة، فقد استحلفه بما يؤمن به أن ينأى بنفسه عن هذا الموضوع. " على الأقل فهو يؤمن بشيء " (هكذا حدثت كوستيس نفسه)، ولكنه رأى أنه من الأفضل أن لا يمنحه مزيداً من الجراءة.

فى تلك الأثناء، لم يكن كوستيس يصدق أن هذا الشاب الذى يجلس أمامه هو نفسه ذلك الصبى الصغير الذى كان يرتدى الشورت القصير قبل مغادرته الإسكندرية. فى الأيام الأولى لم يكن يشعر بالسعادة وهو يتجول مع ماخوس فى شوارع برلين، فقد كان يشعر بالضالة أمام جمال أخيه. ولكنهما فى النهاية شقيقان، لماذا إذن منح الله شقيقه هاتين العينين الخضراوين الجميلتين، فى حين منحه عينين عاديتين، غير متميزتين؟ لم يكن كوستيس يعانى من تلك المشكلة من قبل، أما الآن وقد تأكد أن ماخوس يفوقه بست أو سبع مراحل، فهو يشعر بشيء من الإهانة. حتى إنه لم يكن يلحظ من قبل أن شعر أخيه كان كثيفاً، داكن اللون، وهو ما يتناقض مع لون بشرته

شديدة البياض. كان عليه إذن أن يقنع بلون بشرته البرونزى، الذى يعكس أصالة أرض النيل. وفى نهاية الأمر، كان كوستيس، الذى أرهقته المقارنة الدائمة بينه وبين أخيه، يصل دائماً إلى استنتاج غريب بأن هذا "الظلم"، الذى تعرض له قد لعب دوراً خفياً فى الإسكندرية، وأنه لو كان مقيماً بها فى السنوات الأخيرة، فلم يكن ليسمح بحدوث مثل هذا الأمر، أما الآن فلم يعد باستطاعته فعل شئ، "فالإله اليونانى" (ذكرها بالألمانية) - كما كانت صديقات كوستيس الحسنات يطلقن على ماخوس، قد أثار جنون الرجال والنساء من شدة الإعجاب بمظهره. وفى حقيقة الأمر، فقد كان هذا الشاب يتعامل بتجاهل شديد تجاه كل مشاعر الإعجاب بشخصه، إلا أن ذلك لم يهدئ من حدة تلك المشاعر التنافسية التى سيطرت على كوستيس فجاء، بل وبدأت تتزايد، فكيف يتعايش مع فكرة أن أخاه أصبح يستأثر باهتمام الجميع؟ ولأنه لم يكن باستطاعته أن يصب جام غضبه على أخيه، فقد كان الآخرون هم من يدفعون الثمن، فها هو ماكس، الرسام، يبدي ندمه لأنه عرض على ماخوس أن يرسمه عارياً، مما أدى إلى قطع كوستيس تلك الوجبات الغذائية عنده التى كانت تصله بشكل مستمر؛ كما خسرت الحسنات الثلاث إقامتهن فى سويت فندق "قيصر" وعدن مرة أخرى إلى أحياء برلين الفقيرة. كان لتداول العملة الصعبة، التى تسمى ريدينمارك، واختيار وزير مالية جديد، أثر فاعل فى انتهاء الأزمة الاقتصادية فى ألمانيا، كما كان بمثابة بداية النهاية لحياة الرفاهية التى كان يعيشها الابن الأكبر لخاراميس فى برلين، وأصبحت مبرراً قوياً لقطع معوناتة السخية عن الآخرين؛ أما الشخص الوحيد الذى استمر فى تلقى عطايا كوستيس الكريمة فهو كارل الشيوعى، الذى أدرك ببصيرة نفاذة وجود خطأ ما فى طبيعة الشقيق الأصغر الجنسية، ومن ثم فقد أبدى وجهة نظر عبقرية أراحت صديقه كوستيس راحة لا مثيل لها وأزاح عن كاهله عناء مقارنة لا داعى لها بينه وبين شقيقه، حيث قال: «أنا لا أشعر بالغيرة تجاه هذا الجمال، لأننى أؤمن بأن (هذا الجمال) لا تهتم به النساء بشكل كبير مثلما يهتم به الرجال».

لم يتوقف كارل عن الكفاح حتى تتسلم، وفقاً لكلامه، الأجيال القادمة عالمًا أفضل، وكم من مرة كان يذهب فيها مباشرة من الكباريه إلى المظاهرات، بعد أن يقبل الفتيات

الواحدة تلو الأخرى قائلاً بشكل مؤثر: «طيورى الحبيبة، ربما لا أراكن مرة أخرى!» وبالطبع، كان يعود إليهن مرة أخرى فى الليلة التالية فى صحبة كوستيس، أنيقاً وهادئاً بعد أن يكون قد قام بواجبه. كان كارل يحذر صديقه السكندرى دائماً من أن أخاه قد سقط بالفعل فى "جحر مليء بالشعابين"، وأن لزاماً عليه أن يخرج منه فى أسرع وقت ممكن. لكن كوستيس لم يكن يشاركه تلك الوسواس وقبل أن يقدم على اتخاذ أى إجراء قاسٍ، وكان يفضل الاستماع إلى أخيه الصغير أولاً.

فى أول أيام الربيع من عام ١٩٢٤، كانت برلين تشع بنور الأمل، وأخذت تبث أشعة التفاؤل الذهبية لغد أفضل، ذلك الغد الذى كان البائسون من أهلها فى أمس الحاجة إليه. فى الشرفة المغطاه "بمقهى رومانس" (ذكرها بالألمانية)، حيث كانت ترسم أشعة الضوء ظلالها على الأرض البيضاء للشرفة. كان الشقيقان يجلسان حول مائدة فى داخل الشرفة على الجانب الأيسر، يتابعان الميدان المزدحم. لاحظ ماخوس أن الطريقة التى وضعت بها الموائد والمقاعد أشبه بالترام أكثر من كونها المقهى. «إنه نقطة التقاء للفنانين» كان ذلك هو تعليق كوستيس، أما ماخوس فلم ير سوى رجال يجلسون بمفردهم، ونساء منكبات على الكتب والصحف مستمتعين بشمس الصباح، رجل واحد شجاع اضطر للجلوس فى المائدة المجاورة للطريق، لأنه بهذه الطريقة يستطيع أن يضع كلبه الضخم بجواره، وسيدة أخرى كانت تجلس فى المائدة المجاورة له وقد خلعت معطفها، تنظر باستمرار إلى ساعتها، ربما كانت تنتظر رفيقها. كان مصطلح "عالم جديد" (ذكرها بالألمانية)، كالحربة المدببة الموجهة تجاه ضمائر هؤلاء البشر، وقد لمح كوستيس فى نظراتهم وقع المفاجأة، ليست سارة وليست حزينة، ولكنها مجرد مفاجأة.

جال بخاطر كوستيس «أن الإعلان عن عالم جديد دائماً ما يقابل بالترحاب. لكن هذا العالم الجديد لم يكن أبداً مقنعاً»؛ فهذا القزم الليليبوتى^(١٢)، الذى يدعى أدولف

(١٢) القزم الليليبوتى: هو قزم أسطورى من جزيرة ليليبوت الخيالية. (المترجم).

هتلر، كان من المستحيل أن يوصف بالمسيح الجديد ؛ أما فيما يخص "الحواريين" فقد وصلت كوستيس بالفعل العديد من المعلومات عنهم، وهى معلومات لم تكن سارة إلى حد بعيد، فالغالبية العظمى منهم من أنصار العنف، وقد شقوا طريقهم إلى قلب الحزب بهدف القيام بأعمال عنف وعلاقات جنسية بون رقيب. وسط كل هذا، كان رودلف إس هو الاستثناء الوحيد الذى يحترم القانون. وهنا سأل كوستيس ماخوس قائلاً:

«لقد علمت أنه قد فر إلى الخارج، لكن سرعان ما عاد من أجل محاكمته. هل تعتقد أنه رجل صاحب مثل عليا وصادق؟».

- «لقد قلت لك من قبل إن رودلف إنسان رائع، رجل صاحب مثل عليا بالفعل، كما أنه مفكر لا مثيل له. ما الذى يمكن أن تنتظره من رجل سكندرى مثله؟» قال ذلك، ثم أشرق وجهه إشراقة تعكس سذاجته.

- «لا تجزم بذلك، فقد عرفت أناسا من الإسكندرية ليست لهم أدنى قيمة!».

- «رودلف ليس من هؤلاء، أؤكد لك».

- «حسناً، لكن رودلف الذى تتحدث عنه وأصدقائه يحاكمون فى اللحظة التى نتحدث فيها الآن بتهمة الخيانة العظمى. ألا ترى أنت أيضاً أنهم هالكون؟» هكذا صاح كوستيس، رغم أنه يعلم جيداً أنه لا يوجد ما يدعو لى خفض صوته طالما يتحدث باليونانية.

- «هراء» (قالها بالإنجليزية)، كل هذا من خيال تلك الديمقراطية الداعرة. فهؤلاء الناس هم مستقبل ألمانيا، وربما مستقبل العالم كله. سوف ترى أن العدالة ستكون رحيمة بهم، ومن جهة أخرى، فللعبقرية بالضرورة جانبها الثورى، هكذا أصر الأخ الأصغر على رأيه بطريقة يشوبها الغرور، مما أدى إلى إثارة غضب أخيه .

- «لست أدري أية عبقرية تقصد. هل تقصد هذا القزم الكسول؟» .

- «كنت أظن أن كوستيس خاراميس ليس هو من يلقي بتهكمات اجتماعية، ما الذى حدث إذن؟ هل غيرتك ألمانيا إلى هذا الحد؟» قالها ماخوس معترضاً وقد هم بالرحيل .

- «لم تغيرنى ألمانيا، يا ماخوس» قال ذلك وهو يمسك به حتى لا يغادر المكان.

- «هل غيرتني أنا إذن؟ ولكن قل لى، من أين تستقى كل هذه المعلومات، من كارل؟ هذا الغوريلا البلشفية، أم من فتياتك الحسناوات؟ أم ربما من ماكس الرسام الذى يبتهج من السعادة لمجرد مشاهدة جسدى عارياً؟ هل هؤلاء هم أصدقاؤك، يا كوستيس، وإذا أردت يمكننى مقارنتهم بأصدقائى» .

- «ماكس ليس شاذاً، إذا كان هذا ما تعنيه» هكذا صاح كوستيس، ولكنه شعر بأنه أحمق لأنه، قبل كل شىء، كان يدافع عن رجولة صديقه ماكس.

- «أهذا ما تقول، إذن لماذا كان أول ما فعله هو تحسس جسدى كله، وكأنه كان يقوم بتفتيشى ذاتياً؟».

- «اهتمام فنى!» هكذا أجابه، ثم تجرع قليلاً من الشيكولاتة الساخنة التى أمامه. لم تكن هناك حاجة لتلك العصبية التى نشأت بينهما، كما لم يكن أمراً غريباً يحدث بين شقيقين. لكن هذه الكراهية المتعمدة من كوستيس تجاه أخيه ماخوس ذو العينين الخضراوين لم يكن لها ما يبررها. ثم أبدى كوستيس دهشته وهو يسأل أخاه قائلاً: «حقيقة، لم تخبرنى حتى الآن لماذا قرر والدنا أن ينفيك أنت أيضاً إلى ألمانيا؟»

لكن ماخوس لم يجب سؤاله، وفضل أن يسند ظهره إلى الخلف، ثم بدأ يطرق بقدمه على الأرض بشكل عصبى. منذ تلك اللحظة، شعر كوستيس أنه قد أصبحت لكل منهما تطلعات وأفاق مختلفة فى هذا العالم.

* * * * *

المنفيون لا يهنأون بحياتهم بعيداً عن أوطانهم. يحيون نصف حياة فى أرض غريبة، أنصاف أرواح وأنصاف عقول، جزء من أجسادهم يهيم كشبح فى طرقات المدينة التى ولدوا بها، مرددين أبياتاً لشاعر سكندري كان كوستيس يحتفظ بها فى حافظته مدونة فى ورقة صغيرة، وكأنه إهداء خاص:

سوف تلاحقك المدينة

وسوف تعود إلى نفس الشوارع

لقد أحس كوستيس نفسه بمعاناة " وجوده بنصف عقل" فى برلين. وبقدر شعوره بالحنين للإسكندرية، كانت الخطابات هى سبيله الوحيدة متابعة أحوال الحياة فى مدينته الإسكندرية من خلال سطور تلك الخطابات، تماماً مثلما يقوم شخص باستكمال رواية كتاب ما لشخص كان قد توقف عن قراءته عند أحد فصوله، فكان يقرأ له كل فترة فقرات من صفحات مختلفة. وبالطبع كان لهذه الطريقة جانبها السلبي، مثل المقاطعة المؤقتة للاتصال بينه وبين ابن خاله نيكيتاس والتى كان كوستيس هو المسئول عنها بالطبع. « نيكيتاس دائماً ما يتذمر منك لأنك لا تكتب له» كانت تلك العبارة تتكرر دائماً فى خطابات ماخوس منذ عام ١٩١٩، أما كوستيس فكان يلزم الصمت محتفظاً لنفسه بالسبب الذى جعله يتخذ هذا القرار القاسى. حتى هو نفسه لم يكن يدري لماذا أخذ على محمل الجد ما أخبره به ابن خاله عشية سفره من الإسكندرية.

ما زال صوت نيكيتاس الواثق يتردد فى أذنه عندما اعترف له قائلاً: «سامحنى، يا ابن العم (قالها بالفرنسية)، كان من الواجب على أن أخبرك بذلك من قبل. ففى ذلك اليوم الذى كنا نراقب فيه الأنسة جابى فى حى العطارين، لم أشأ أن أطلعك على ما أخبرنى به البواب عن تلك المربية. ولا أعرف لماذا فعلت ذلك. ربما لأننى شعرت أن ذلك سيسبب لك الحزن. اليوم أعتقد أنه لم تعد هناك أهمية لأن تعلم أن الأنسة جابى كانت فتاة فرنسية ابنة رجل ديوث وأم من مارسيليا، وهى امرأة بغى معروفة فى شارع السبع بنات. وكانت جابى تتردد هى وأخوها الصغير الذى كانوا يسمونه جان كلود، كما أتذكر، على هذه العمارة». فى تلك الليلة شربا معاً واستمتعا بوقتتهما ولم يعر كوستيس للأمر

أهمية. ولم يتفوه سوى بجملة واحدة: «ليس بالأمر المهم» (قال ذلك بالفرنسية)، وانتهى الأمر عند هذا الحد لكنه عاود التفكير فى الموضوع أثناء وجوده فى الباخرة فى طريقه إلى مارسيليا. وكان يردد باستمرار «لماذا فعل بى هذا نيكيتاس؟». ومنذ ذلك الحين، أصبح هناك ما يعكر صفو روحه رويداً رويداً تجاه ابن خاله الحبيب، فكان يتجنب الكتابة له، مما أفقده مصدر المعلومات التى كانت تغذى روحه المتعطشة بالأخبار المهمة عن الإسكندرية. إلا أن نيكيتاس وجد طريقة أخرى ليرسل بها الأخبار لكوستيس، فمع كل خطاب يرسله لماخوس، توجد نشرة إخبارية موجزة تخصه وتخص عائلته. وهكذا وصلت، على الأقل، أخبار الخال ثاناسيس الذى أوشك على إشهار إفلاسه، كما علم أن نيكولاس، الأخ الأكبر لنيكيتاس قرر احتراف مهنة الموسيقى، لكنه مازال عاطلاً حتى هذه اللحظة لأن الإيطاليين كانوا يشغلون أغلب الوظائف. وعلى العكس من نيكولاس، فقد عاد وجود الإيطاليين بالخير على شقيقتهم أوليمبيا التى تزوجت من دبلوماسى إيطالى، وكانت سبباً فى بث السعادة والتفاؤل فى أسرتهما. أما عن الخالة ماريا، فعندما قرأ جملة «ولدت شقية، وستموت شقية»، أدرك أنها مازالت كعادتها فى حالة شد وجذب مع الجيران، وهو ما يعنى أنها ما زالت تترك الطعام من حين لآخر حتى يحترق. أما نيكيتاس فيبدو أنه كان يعانى بشدة من أجل الحفاظ على ثروة العائلة. بعد أن فقد والده عقله. وكان ماخوس، فى محاولة منه لتصوير مدى ما وصل إليه الخال ثاناسيس من اختلال عقلى، يتذكر دائماً ذلك الموقف الذى حدث فى كنيسة إيفانجيليسموس، والذى استمر محور حديث كل أهل الإسكندرية لفترة طويلة. ففى الفترة التى كان الملك قنسططينوس يتولى حكم اليونان، وعندما بدأ البطريك يقول فى يوم من أيام الأحد: «ملكنا العظيم قنسططينوس»، سمع الجميع الخال ثاناسيس وهو يصيح قائلاً: «فليذهب إلى الجحيم». كان كوستيس يتخيل تعبيرات وجه ثاناسيس وقد تحول وجهه إلى اللون الأحمر، يقف على أطراف أصابعه، مثلما اعتاد دائماً أن يفعل عندما يفعل، عندئذ ضحك كوستيس قائلاً: «الخال ثاناسيس، ياله من مهرج كبير!». لن ينسى كوستيس أبداً تلك المرححة التى ذكرها عن القمر عندما التقى فيفى، وهى امرأة ساذجة من نفس بلدة زوجته، وسألتها فى إحدى المرات قائلة :

«إننى أتساءل، يا أستاذ ثاناسيس، إذا ما كان القمر الموجود فى الإسكندرية هو نفس القمر الموجود فى سيمى» فأجابها ثاناسيس، البقال صاحب الإجابات الحاضرة دائماً قائلاً: «كيف راودتك هذه الفكرة، يا فيفى! بالطبع ليس هو نفس القمر. لقد عشت فترة من الزمن فى سيمى، وكان لزاماً عليك أن تتذكرى أن القمر هناك لونه أصفر. أليس كذلك؟ إذن ، فهناك قمر فى الإسكندرية وقمر آخر فى سيمى، يختلف عن قمر جزيرة رودس وقمر ميتيلينى. لا أريد أن أسمعك ترددين مثل هذه الحماقات مرة أخرى، يا سيدتى». فأجابته تلك المرأة «نعم، نعم، لديك كل الحق، يا ثاناسيس!». وكان شعور كوستيس بالحنين للإسكندرية يزداد كلما تذكر كل هذه القصص.

الأسوأ من كل هذا، أنه لم يكن متأكدًا أنه استطاع التعرف بالفعل على مدينة الإسكندرية، لكى يعشقها أكثر ويجعلها ملكاً له. كانت والدته على حق عندما قالت له فى أحد خطاباتها التى كتبها له فى منتصف العشرينيات: «لا بد أن تفكر فيما تعنيه الإسكندرية بالنسبة لنا يا ولدى».

وكان نيكيتاس على حق أيضاً، عندما كان يقول له بين الحين والآخر: «ما الذى تعرفه أنت عن الإسكندرية!»، على الرغم من أن ذلك كان يسبب له جرحاً غائراً.

ما الذى كان يعرفه عن الإسكندرية؟ كانت الصور والكارت بوستال التى أرسل فى طلبها تطرح عليه بدورها نفس السؤال بطريقة درامية. فقد كان مرتبطاً، على سبيل المثال، بمشهد الإسكندرية المضيئة فى ليالى رمضان، ومن هذا المشهد تتوالى الذكريات حتى استعدادات المسلمين للعيد الكبير: فى ساعة الغروب تصبح المدينة خالية من المارة، حيث يجلس الصائمون أمام طبق "الكشرى" (ذكرها باللغة العربية وبنونها بحروف يونانية) الذى يسيل أمامه لعابهم، وهم ينتظرون انطلاق مدفع الإفطار لكى يسدوا جوعهم، ثم تذكر مرور "المسحراتى" (ذكرها باللغة العربية وبنونها بحروف يونانية) لإيقاظ الصائمين فى المساء، وكان نيكيتاس أحياناً ما يفعل المقالب فى الصائمين فى الحى الذى يعيش فيه بأن يوقظهم قبل الموعد الذى يستيقظون فيه لتناول

الطعام بساعة، كما يتذكر جو الاحتفال فى شوارع المدينة بالحلوى المصرية ، يأتى فى مقدمتها "الكنافة" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) المشهورة.

وتذكر شرفات إحدى العمارات القديمة فى الأزاريطة، من خلال إحدى الصور التى ربما تكون قد التقطت من الترام، والتى ذكرته بشرفات عمارة باب سيدرا، حيث أبراج الحمام الخاصة بابن خاله والأرانب والبيغاوات، وقد علمه نيكيتاس كيف يفرق الببغاوات الذكور من الأنثى، حيث يتميز الببغاء الذكر بوجود خط أزرق يزين غرفه. تذكر أيضاً الحفلات التى تقام فى الحدائق ومظاهر الاحتفالات الأخرى بالمدينة، والأزياء الأوربية والأوربيين فى ميدان محمد على، والشاليهات الخشبية على الشواطئ، والفتيات اللاتى يمارسن التزلج فى شارع رشيد تحت إشراف مربياتهن، وطوابير العروض الكشفية والموسيقى الوطنية اليونانية.

وعلى الرغم من معرفة كوستيس بكل هذه الأمور، فإن هناك أشياء أخرى لم يكن يعلم عنها شيئاً، برغم محاولات نيكيتاس معه لكى يتعلمها، فعلى ما يبدو كانت هناك إسكندرية أخرى لا يعلمها. أحياء كاملة كانت تنتظره لكى يستكشفها يوماً ما فى قلب حى العطارين وما بعده، فى كرموز وفى الأنفوشى، مناطق مجهولة مثل "كوبرى الطريق وسوق الجمعة" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، وشواطئ العجمى الساحرة المعروفة بدواماتها، بير مسعود، أو "بئر الشيطان" الذى لم يجرؤ أحد على الغوص فى أعماقه. أناس غرباء، ملابس عجيبه، سلوكيات وعادات لم يكن أحد يستطيع أن يتعلمها طوال حياته. أما الأحياء التى كان يعرفها فلم يعد بإمكانه التعرف عليها من خلال الصور، حيث كانت المدينة تتغير باستمرار، طرقها الملتوية كالثعبان التى كان يتزلج بها فيضل طريقه. عندئذ كان يشعر بالضياح، مستسلماً لكلمات نيكيتاس التى كانت تتردد دائماً على مسامعه، وكأنها حكم أبدي «ما الذى تعرفه أنت عن الإسكندرية!».

* * * * *

فى تلك الأثناء، استمرت الإسكندرية بدونه فى رحلتها عبر الزمن. واستمر أناسها يتقلبون فى حياتهم ما بين لحظات معدودة من الفرح والانتصارات ولحظات أكثر من الآلام والمحن، غير عابئين بذلك الزمن الذى يمر من بين أيديهم كأمواج البحر التى تتحطم على شواطئ الإسكندرية. لكن حتى أفعال وأقوال الناس لم تكن تترك أثراً على رمال الزمن المتحركة، فقد كانت نتائج أفعالهم تصل بشكل ما إلى أعمدة الأخبار فى الصحف، فتصبح عندئذ جزءاً من تاريخ هذه المدينة. فى كل عام كانت الصحف اليومية تخصص مقالات كبيرة عن الصيد فى بحيرة مريوط. وفى شتاء عام ١٩٢٥، نشرت الصحف خبر العثور على جثة أحد الأشخاص، مما تسبب فى إثارة حالة من الذعر بين الناس، وقد جاء فى الخبر: " تم العثور على جثة أحد أعضاء فريق الصيد - معاون حاكم الإسكندرية - كريم شلبى فجر أمس، وهو ابن عائلة مصرية عريقة. كانت جثة الشاب المتوفى، والذى كانت أسرته تبحث عنه بلا انقطاع فى الأيام الماضية، مصابة بالعديد من الجروح القاتلة من بندقية صيد، وكانت الجثة طافية وسط أعواد البوص بالبحيرة. وتشوب الوفاة شبهة القتل العمد. يتولى التحقيق فى الجريمة مفتش الشرطة فريد عباس. عزأؤنا الخالص لأسرة الفقيد " .

إنها طريقة تستحق التقدير تعرض من خلالها الصحف العديد من الأحداث الواقعية أحياناً. ومن خلال قراءة هذا الحادث، هناك تسعة أشخاص من بين كل عشرة فى الإسكندرية سيدركون أن هذا الشاب التعس ما هو إلا ابن فاسد لأحد الباشوات المصريين، وأنه لم يترك بيتاً من بيوت ممارسة الرذيلة، ولا نادياً ولا كباريها فى الإسكندرية كلها إلا وارتاده. أما والده فقد كان عميلاً للإنجليز، وكان بمثابة " الراية الحمراء " لحزب الوفد، حزب الأمة المصرى ؛ وفى تلك السنوات المضطربة بعد إعلان الاستقلال عام ١٩٢٢، وجلس الملك فؤاد على عرش مصر، كان هناك أكثر من سبب يجعل هذا الأب يشعر بالخوف على حياته وحياة أسرته. ففى حرب المصالح القذرة التى ضمت كلاً من الإنجليز والملك والمواطنين كانت كل معلومة صغيرة تحمل قدراً من الأهمية فى مثل هذه الأجواء السياسية.

استطاع إلياس إقناع إيفيت بقبول زبائن جدد، وبخاصة من الطبقة الأرستقراطية الجديدة بمصر، تلك الطبقة التي لم تكن تتمتع بسمعة طيبة في الإسكندرية. يتسم أسلوب عدد كبير من هؤلاء السادة بالغلظة والاستفزاز، وكانوا يتصرفون بطريقة لا تتناسب مع الفتيات والعاملين بالمنزل، وكانت لهم رغبات شاذة يصعب تحقيقها، كما خالفوا الذوق العام والقانون المتعارف عليه، والذي اعتاد زبائن المنزل القدامى أن يتبعوه. عبرت إيفيت عن غضبها "للبناني"، وأنها لم تعد تحتفل هؤلاء الأشخاص أكثر من ذلك؛ وكانت مجرد مسألة وقت حتى تثبت شكوكها وحدث ما لا يحمد عقباة: ففي مساء ذلك السبت كان من المفترض أن يوجد هذا الشاب المصرى مع والده في منزلهم الصيفى في بحيرة مريوط، حيث كان من المفترض أن يخرجوا في فجر اليوم التالى في رحلة لصيد الطيور. وفي وقت متأخر من الليل قرر هذا الشاب أن يحدد موعداً له في منزل مصطفى باشا مع "نيهير ذات القناع" ذائعة الصيت، في الوقت الذي كانت نيهير تقيم في وحدة لعلاج الإدمان في مكان ما بجنوب فرنسا، لكن إيفيت استمرت في إحياء أسطورة نيهير وقامت باختيار بديلة لها من بين بعض الفتيات التركيات اللاتي كن يقمن بالرقص في ملهى شانتون بالإسكندرية. ويبدو أن هذا الشاب النهم لم يكتف بهذه "المعاملة الخاصة" التي قدمتها الفتاة التركية - بعد أن شرب كمية كبيرة من الخمر - فأصر أن يزيع عنها القناع، وعندما رفضت تلك الفتاة، ما كان منه إلا أن انهال عليها ضرباً مبرحاً، وعندئذ جاء تدخل جعفر أكثر من حاسم. فاندفع هذا العملاق الضخم إلى داخل الغرفة من أجل تهدئته، مما أصاب الشاب المصرى بالفرع، وأسرع بإخراج مسدسه، لكنه أخذ يترنح بتأثير الخمر للخلف وسقط على الأرض فاصطدمت رأسه بأعمدة السرير المعدنية. وقد إكتفى مستر برايس الذي تم استدعاؤه على عجل بإعلان وفاته. وعندئذ تم إبلاغ إيفيت في جنح الليل بأن تسرع إلى المنزل وهي لا تدري ماذا تفعل مع وجود جثة في المنزل، فقررت بدورها استدعاء إلياس لإيجاد حل لهذه المشكلة. حتى لحظة وصول الليموزين التي أقلت "البناني" ودخولها من الباب الخلفى وتوقفها في نهاية حديقة المنزل، كانت إيفيت قد قطعت طرقا المنزل الموجودة في الطابق الأرضى ذهاباً وإياباً وهي تدخن السجارة تلو الأخرى.

«أظن أنني أخبرتك من قبل، أن النتائج لن تكون طيبة مع المصريين» هكذا انطلقت إيفيت معلقة فور دخول إلياس المنزل بشعره غير المصفف وعينه الناعستين.

لم يكن إلياس قد وطأ المنزل بقدمه من قبل فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، كما لم يشعر من قبل بهذا الجو المعبأ بالأنفاس التى تفوح منها رائحة الخمر ونكهة دخان النارجلية، بأجساد الفتيات المعطرة، وتلك الأضواء الضبابية الخافتة، بدخان السجائر، وبخاصة برائحة الفساد التى تملأ المكان فلا تجعل هناك أدنى فرق بين ماخور رخيص لممارسة الرذيلة أو منزل أكثر رقياً للبغاء .

«فلتشعلوا أى ضوء حتى يرى كل منا الآخر» هكذا صاح إلياس معتقداً أن إضاءة المكان ستأتى بحل سحري للمشكلة. ولكن لم يتحرك أحد، وعندئذ تولى هو بنفسه إضاءة الثريا الضخمة التى ربما نسى كل من فى الفيلا وجودها بالمنزل. لم يترك الضوء الأبيض غمر المكان أى ركن مظلم. كما غمرت الأضواء تلك الأركان المخفية خلف الأعمدة، وبالإضافة إلى كل هذا أظهرت التجاعيد المنتشرة على وجه إلياس وكأنها جروح تركتها السنون لم يتح له نومه المضطرب فرصة لعلاجها.

«قهوة!» هكذا أشار إلياس أمراً سهير، التى سارت وهى تعرج تجاه المطبخ؛ تعجب إلياس قائلاً: «لماذا تعرج هذه المرأة؟».

إيفيت: «إنها على هذه الحالة منذ ثلاث سنوات هل هذه أول مرة تراها فيها وهى تعرج؟ هل هذا كل ما يثير اهتمامك الآن ولا تفكر ولو لقليل من الوقت فى العمل؟ فليحفظ الله إذن تلك المغفلة إيفيت».

إلياس: «توقفى عن التذمر وتكلمى، ماذا حدث لها؟» .

- «ماذا أقول لك؟ لقد أخبرونى أن أحد الزبائن المخمورين دفعها على السلم. ومنذ ذلك اليوم وهى على هذه الحال».

- «ألا يؤثر منظرها على الزبائن؟».

- «يا عزيزى» (قالتها بالفرنسية)، الزبائن لا يأتون إلى هذا المكان من أجل سهير» هكذا أجابته ثم دفعت بشعرها إلى الوراء بكبرياء جعله يتذكر كيف كانت إيفيت قديماً.

- «على أية حال، فلنعد لموضوعنا. إذا لم نجد طريقة لإخفاء الأمر، فغداً سوف يكتب التاريخ أن الثورة المصرية بدأت من بيت للبغاء فى شارع مصطفى باشا»، ولم يكن مبالغاً فيما قال، فما زالت الذكريات المتعلقة باضطرابات ربيع عام ١٩٢١ ماثلة فى الأذهان؛ ثم استطرد قائلاً: «فلتأتوا لى بجعفر».

كان جعفر، النبوى، مختبئاً طوال الوقت فى كوة أسفل السلم، ثم أتى وانحنى أمام إلياس، وقد بدا ظله الضخم وكثته بقعة ضخمة تغطى الأرض الرخامية، بقعة تهتز تحت ضوء الثريا، فقد كان ذلك الرجل العملاق يرتعد من شدة الخوف، وتحدث بصوته الطفولى المرتجف فلم يفهم إلياس شيئاً من كلامه.

- «حسناً، حسناً، اذهب أنت الآن»، لم يشأ إلياس أن يطيل معاناة ذلك الرجل المعتز بنفسه، ثم استطرد قائلاً: «لأبد أن تفكر الآن فى شىء» قال ذلك وكأأنه يحدث نفسه، وأخذ يهذب بأطراف أصابعه خصلات شعره الناعم، ثم قال: «سوف أتصل بفريد».

- «هل أنت مجنون؟ أم ماذا؟ (ذكرت ذلك بالفرنسية) لا تنس أن فريد فى النهاية رجل مصرى. أتريد أن تدمرنا؟» قالت ذلك ثم ألقى برماد السيجارة بعصبية وهى تطرق الفلتر فى منفضة السجائر الموجودة على المنضدة الكريستال.

- «فريد صديق قبل كل شىء، ولا تنس أنه شريك»، قال ذلك ثم رفع سماعة التليفون الذهبية. طلب أربعة أرقام، انتظر قليلاً وفى النهاية جاءه الرد على الجانب الآخر، وعندئذ بدأ «اللبنانى» يتحدث بتلك اللهجة الغريبة التى كانت تجعله يبدو إنساناً آخر من خلال سيل الكلمات العربية التى لم تتبين منها إيفيت أى شىء سوى اسم فريد الذى كان يتردد بين الحين والآخر. كان إلياس

نادراً ما يتحدث بلغته العربية أمام إيفيت، وكأنه كان يخجل من أصله. وفي الحقيقة، فقد كانت اللغة الفرنسية تليق بمظهره الوسيم، وبمكانته باعتباره مواطناً عالمياً.

«إنه قادم» قال إلياس ذلك (بالفرنسية، ثم كررها باليونانية)، بينما كان يضع سماعة التليفون، وربما وجد أنه من الأفضل أن يكرر ما قاله باليونانية، ثم أضاف: «إن فريد بمثابة صديق لنا!».

في البداية تظاهر فريد بالرفض قائلاً: «هل تطلبون منى أن أتستر على جريمة قتل رجل مصرى عريق، " هذا أمر مستحيل!" (قال ذلك بالإنجليزية)»، ثم تجرع كأساً من الويسكى مرة واحدة. ملأ له إلياس الكأس مرة أخرى قائلاً:

«هيا يا فريد، لقد كانت حادثة عارضة كما نقول لك، ثم ماذا تعنى كلمة "رجل عريق"، أى تخريف هذا، لقد كان فتى فاسداً وكلانا يعرف أنه بلغ النهاية التى يستحقها» .

فريد: «إن والده صديق لى. كيف سأواجهه غداً؟» قال ذلك متسألاً، بينما كان يداعب بعصبية النقوش الكريستالية فى كأسه.

إلياس: «إذا ما عرفت هذه القصة، سنصبح جميعاً فى ورطة» هكذا أجابه إلياس إجابة ذات مغزى، ثم أضاف: «وعندئذ أود أن أرى بأى وجه ستواجه ليس فقط أبيه ولكن الناس كلهم».

طوال ذلك الوقت الذى كانا يتناقشان فيه، كانت إيفيت تتابع بدهشة كم التعبيرات المتغيرة التى كانت ترسم على وجه رجل الشرطة. وفى النهاية اتسعت حدقتا عينيه بشكل غير طبيعى، ساعده على ذلك كنوس الخمر التى كان يتجرعها دفعة واحدة، ولعت عيناه فجأة ببريق شيطانى فى اللحظة التى ربت فيها بنعومة على فخذ إيفيت، وقال: «فلتعرف إذن يا إلياس أننى لا أفعل ذلك من أجلك أنت. ولكن من أجل مدام إيفيت، فقط من أجل مدام إيفيت، وهى بالطبع تعرف كيف سترد لى خدمتى».

مرت بخيال إيفيت صور مخيفة، وحاولت أن تعترض، لكن إلياس أشار لها أن لا تتكلم. وكأنها فهمت ذلك الأمر الحتمى من خلال إشارة اللبثانى وبدأت لأول مرة

تتفحص فريد باعتباره رجلاً. نظرت في البداية بطريقة خفية إلى جفونة السوداء، ثم إلى أنفه المعقوفة وفكه المقوس، ثم إلى جسده المشقوق المفعم بالحيوية والنشاط على الرغم من كبر سنه؟، وتخيلت إيفيت أنها لو استسلمت لرغبات ذلك الضابط المصرى، فسوف تجد نفسها تتعامل مع عاشق أكثر عنفاً وأكثر همجية، مفهوم الجنس يختلف عن مفهوم إلياس وخاراميس.

قبل فريد أن يساعدهم، وأثبت لهم مرة أخرى مدى أهميته، فقط عندما تكون لديه الرغبة فى ذلك. ولحسن الحظ أن الشاب القاتل كان قد جاء إلى المنزل بسيارته. كانت الفكرة بسيطة ولكنها عبقرية. فقد وضعوا الجثة فى السيارة وتحركوا بها تجاه بحيرة مريوط. وعلى المقعد الخلفى للسيارة وجدوا بندقية صيد خاصة بالقتيل. وفى الطريق قام فريد بإطلاق النار مرتين على القاتل. ثم وصلوا إلى بحيرة مريوط فى الوقت الذى أوشكت الشمس على الشروق. حمل جعفر الجثة بين يديه وألقى بها بين أعواد البوص، حيث كان يصعب على من يراه أن يتبين وسط الظلام الدامس أنهم كانوا يحملون جثة آدمية. وكانت حركة جعفر ستعطى الانطباع بأنه كان يلقي بصخرة فى الماء، وسوف يؤكد الصوت المكتوم للجثة وهى تغرق ذلك.

أما ما تبقى من أمور فقد تولاهم الضابط فريد الذى كتب بنفسه ملابس وفاء الشاب المصرى. فقد ألقى بتهمة قتله على جمال، ذلك الفلاح الفقير الذى كان يعمل تابعاً فى الصيد لكامل. كان جمال يصرخ فى محبسه مؤكداً براءته، إلى أن تم العثور عليه فى النهاية مشنوقاً، بعد أن كان فريد قد حصل على توقيع ثلاثة أعضاء من حزب الوفد بشهادتهم على ضلوع جمال فى قتل ذلك الشاب المصرى.

«فريد! إنه رجل لا يخاف الله» هكذا كان إلياس يعيد هذه العبارة مراراً وتكراراً وهو يفرك يديه من فرط سعادته وهو يضيف فى كل مرة قائلاً: «والآن جاء دورك» يا عزيزتى (قالها بالفرنسية) «.

لقد ظن إلياس الساذج أنه قد وضع إيفيت فى مأزق، وأنه بذلك سيكون قد انتقم من خاراميس. أما إيفيت فلم يكن لديها ما يمنعها من أن تسلم نفسها إلى ضابط

الشرطة فريد، وهو ما حدث بالفعل فى شقة إلیاس بشهادة مرايات الشقة الفخمة. كان الشئ الوحيد الذى یزعجها أحياناً هو عادة فريد فى أن یتفاخر أمامها فى المرايا مستعرضاً جسده العارى. لیس ذلك فقط، بل كان یتعامل معها بطريقة حیوانیة، مغتصباً مشاعرها ویقودها بطريقة غیر مسبقة إلى المتعة المؤلمة. لقد حدث لها بالفعل ما تخيلته فى تلك اللیلة التى ربت فیها على فخذها، عندما قام إلیاس باستدعائه لتخلیصهم من الجثة بمنزل شارع مصطفى باشا. أما إلیاس، فقد كان یتسائل دائماً كيف ستكون حال خارامیس إذا ما علم أن امرأته قد استجابت لتلبية تلك الرغبات الوضیعة للضابط المصرى.

لكن، فى النهایة، كانت تلك قضية لیس من مصلحة أى منهما أن یکشفها أحد. ولحسن الحظ فقد كانت هناك الصحافة الیومیة بقوتها المطلقة فى التعتیم على الأحداث بدلاً من إلقاء الضوء علیها، من خلال تقديم شهادة مزیفة لأى حدث مماثل حتى تتحول إلى جزء من شهادة الصحافة على الأحداث الیومیة.

فى نفس تلك الأحداث الیومیة، وینفس الطریقة، كان یتم إقحام قصص أخرى، منها على سبیل المثال قصة طرد ثاناسیس بوستاندزوغلوس ومنعه من دخول نادى الأحرار، تلك القصة التى تم نشرها فى جریدة تاخیزروموس "البوسطجى" فى الخامس من شهر مایو لعام ١٩٢٥، وجاء الخبر على النحو التالى:

"بالأمس، قام تاجر الجملة المعروف ثاناسیس بوستاندزوغلوس، المولود فى میتیلینى، بتسلیم حسابات وکارتیه عضویته فى مجلس إدارة نادى الأحرار، بعد أن تمت مواجهته بتهمة التبدید والاختلاس، وفقاً لما ذکر المصدر. كما أعلن ثاناسیس الذى یعد من أشد أنصار نینزیلوس أنه سىستمر فى محاربة القوى المعادية له باعتباره مواطناً حراً، بوصفه أيضاً مناضلاً شجاعاً، ورب أسرة محترم ورجل أعمال مُمیز".

أما فى الحقیقة، فقد أجبر ثاناسیس على الاستقالة بعد ذلك التلغراف الذى أرسلته اللجنة مرکزیة. وقد اعترف بالفعل أنه قام فى واقعین على الأقل بإصدار فواتیر خاصة بأطعمة ومشروبات، كان قد وفرها لبعض الحفلات بالنادى وحصل عن

طريقها على مكاسب كبيرة. أما أعضاء النادي، فلم يرغبوا، بسبب وضعهم الاجتماعى، فى نشر تفاصيل هذه القصة على الناس، واكتفوا فقط بالسخرية من تلك القصة الساخرة التى تشكك فى نزاهة ذلك "المناضل البرىء"، الذى لم يكن على الإطلاق "رب أسرة محترم" أو حتى "رجل أعمال مميز". أما عن تطورات الموضوع، فقد تسارعت الأحداث بعد "تلك الفضيحة الكبيرة" (ذكرها بالإيطالية)، التى تم اكتشافها فى ذلك الوقت وتتعلق بمضمار سباق الخيول بالإسكندرية والتى ارتبطت بدورات السباق والمراهانات التى تم التلاعب فيها، حتى وصلت القضية للعرض على المحاكم المختلطة. ومن بين المتهمين كان بيتروس ثيميستوكليس، الذى تمت تبرئة ساحته فيما بعد.

لقد دفع ثاناسيس ثمنًا لعلاقاته مع ذلك الفارس القبرصى السابق. ومنذ تولى بيتروس إدارة منزل مصطفى باشا، أطاح بنصف تجار الإسكندرية. وعندما تأكد ثاناسيس أن فاتورة الحساب الخاصة بالشعبانيا فرنسية الصنع التى كان يشتريها القبرصى منه كل فترة وصلت إلى أرقام خيالية، قرر أن يمسك بخناقه ويطالبه بما يدينه به، لكن الوقت كان قد تأخر. وكان هذا الشخص الذى يعد من أشباه الرجال قد علم بعشق تاجر الجملة اليونانى للخيول فأخذ يتلاعب به، وجعله ينزل رويداً رويداً إلى خدعة الرهانات المنوعة الكبرى.

كان بعض وكلاء السباق الفاسدين قد ابتدعوا بعد الحرب بوقت وجيز طريقة شيطانية للمراهانات المربحة فى المضمار الفرنسى لسباق الخيول. فى البداية كانوا يقومون بإغراء اللاعبين بالمكاسب السهلة حتى يكبلوهم بأنصاف الأسر النفسى والمادى لسنوات طويلة، الأمر الذى كان يؤدي بهم - ببطء ولكن بثبات - للإفلاس، ووفقاً لذلك فقد كان ثاناسيس محظوظاً، لأن بيتروس، الذى كان فى حاجة ماسة إلى "شريك" فى أعمال النصب، لم يتركه دون حماية. فكان يدس له سم إدمان المراهنة فى دم "بقال منطقة السيوف"، بأن يوزع عليه المكسب تارة والخسارة تارة أخرى من كل سباق، حتى يبقى على اهتمامه للأبد، ويحصنه مما يحدث للآخرين. وفى مضمار سباق الخيول بالإسكندرية فى فصل الصيف، تماماً مثلما يحدث فى مضمار سباق الخيول بمصر

الجديدة فى الشتاء، كان ثاناسيس يضع فى جيبه نفس المبلغ الذى يخرج من جيبه الآخر فى مضمار السباق العالمى، كانت تحوطه النساء الجميلات والرجال الأثرياء من كل جانب - أورييون ومصريون - وكان محظوظاً بشكل خاص لأنه يستطيع إرضاء شغفه للعب وهو يراهن بجنيهاًته على أفضل الخيول العربية. كان يبحث أحياناً بين تلك الجميلات الأجنيات والمصريات اللاتى يتألّقن بلبس الماس والأحجار الكريمة والفراء، عن ذكرى وحيدة لحب قديم، مثلما رأها ذات مرة وهى تسير فى نادى سبورتنج، لكنه لم يرها بعد ذلك فى أى مكان آخر، فكان يضحك من نفسه ومن تلك الحالة الرومانسية التى يعيشها.

كانت تلك هى الذكرى الرومانسية الوحيدة التى يحتفظ بها بداخله. ومن ناحية أخرى، فقد أصبح نصير فينيزيلوس القديم عبداً للثروة، ولم يتردد فى أن يقبل بثيميستوكليس ناصحاً أميناً له. فأصبح حديث السوق بما ارتكبه من سرقات عن طريق تزوير فواتير الشراب والطعام التى كان يقدمها فى كل الحفلات بالإسكندرية. ولكن يبدو أنه كان متمسكاً ببعض من كبريائه، ففي كل مرة كانت زوجته ماريّا ترى ذلك "الأعرج" - كما كانت تسمى ثيميستوكليس - وهو يطاءً بقدمه محلهم فى شارع باب سيدرا، تصرخ فى ثاناسيس، الذى لم يكن يحرك ساكناً، فكان يطاءئى الرأس ويتقبل إهاناته بكلمات مثل: «أيها المخرف» ؛ حتى بدأ أولاده يشعرون بالشفقة عليه. وفى تلك الأثناء، كانت عجلة الثراء والإفلاس الأبدية مستمرة فى الدوران بالإسكندرية.

فى عام ١٩٢٤، تم الإعلان عن ترقية أندرياس سيستانيس وتوليّه إدارة مصنع الدخان بمحرم بك. جاء القرار الذى تم توزيعه على الصحف على النحو التالى:

" منذ اليوم يتولى العضو المميز بالجالية اليونانية بالقاهرة أندرياس سيستانيس مهام المدير العام بمصنع سجائر أندونيس خاراميس، وبناءً على ذلك فقد اضطر للانتقال إلى الإسكندرية. والجالية اليونانية ترحب بابنها البار وتتمنى له نجاحاً باهراً فى عمله الجديد".

كان سيناريو ترقية سيستانيس يدور منذ أعوام فى عقل أندونيس، فقد كان أندونيس على دراية بأن بقاء مثل هذا الشخص فى القاهرة يعد خسارة كبيرة له. كان يداوم على الاتصال به قائلاً: «أندرياس، جهز حقائبك اليوم، فالיום أو غداً أو الشهر القادم سوف تأتى معى إلى الإسكندرية». لكن يحدث دائماً ما كان يؤجل ترقيته. وفى حقيقة الأمر، فقد كان هناك بالفعل ما يحدث، وكان أندونيس يتبع حدسه الذى كان يخبره دائماً بأن الوقت لم يحن بعد، إلا أن الأحداث أنصفته فى النهاية.

فى خريف عام ١٩٢٤، رفض الإنجليز- كما كان منتظراً- تجديد العقد الذى ينص على إمداد الجيش الإنجليزى بالسجائر، زاعمين أن هناك تغيراً فى جودة السجائر، وتأخيراً غير مبرر فى التسليم. ولم يكن أندونيس يعلم عن ذلك شيئاً. وفى الحقيقة، كان أندونيس ينظر إلى التزامه مع الجيش الإنجليزى على أنه علاقة مراهقة كان لابد لها أن تنتهى فى يوم من الأيام. فمئذ فترة من الزمن فكر أندونيس أن إنتاج سجائر رخيصة من أجل الجنود سوف يشوه صورة السجائر التى ينتجها مصنعها. ودائماً ما كان يحكى عن ذلك المشهد الذى رآه بنفسه فى إحدى الحفلات فى منزل من منازل الحى اليونانى، حيث رفض القنصل البريطانى أن يشعل سيجارة من ماركة خاراميس المشهورة، معلناً: «إنكم لا تنتظرون منى بالطبع أن أضع فى فمى سيجارة يدخنها جنودى». كان يتشوق للعودة إلى ذلك العصر الجميل عندما كان اسم خاراميس مرتبطاً بالجودة. لقد استطاع طوال عشر سنوات أن يقوم بإمداد معسكرات الجيش الإنجليزى بمصر والشرق الأوسط بالسجائر. وفى واقع الأمر، لم تستأثر شركة واحدة فقط بمنصب الموزع الأساسى للسجائر، ولكن كان هناك ثلاث من كبرى الشركات اليونانية فى صناعة الدخان بمصر تقوم بالتوزيع، وكان ذلك بمثابة تأكيد آخر على صعوبة هذه المهمة. أراد أندونيس أن لا يلقى بالاً بعد ذلك لهذه الحقبة الزمنية. وكان يبحث فى الوقت نفسه عن حلول لكى لا يضطر لفصل عدد من العمال فى مصنع الجديد، ومن أجل ذلك كان يخطط لفتح أسواق جديدة فى أوروبا والشرق، حتى يتمكن من تعويض مكاسبه الثابتة التى كان يحصل عليها سنوياً من تموين الجيش الإنجليزى بالسجائر؛ حتى جاعته تلك المكاملة الهاتفية الغريبة من سيستانيس

الذى طلب حضوره على عجل إلى العاصمة قائلاً: «يا سيد خاراميس، ينبغي أن تحضر صباح غد إلى القاهرة، وسوف تكتشف حدوث أمور طيبة ومعجزات!».

وبطريقة غريبة ذكرته رحلته إلى القاهرة بتلك الرحلة التى قام بها قبل عشرة أعوام من أجل توقيع العقد مع الإنجليز، وعلى الرغم من أن سيستانيس هو من سينتظره فى محطة القطار، دون أن يصحبه إلياس - مثلما حدث فى الرحلة السابقة- فإنه لم يصطحب معه ميخيليس، رفيقه فى الرحلة السابقة. ومن ناحية أخرى، فقد استقبله نفس الجحيم الموجود فى محطة القطار بالعاصمة - القاهرة التى لا تتغير - كما أحس بجو الحرب الذى تسبب فيه مقتل السردار - السير لى ستاك - الذى قتل على يد أحد المواطنين المصريين.

تابعت سيارة سيستانيس نفس الطريق بمحاذاة النيل. إنها القاهرة، التى تعج بالمساجد والمآذن والمباني العالية وبالقصور والحدائق التى يحوطها تلال الرمال الصفراء مما يصعب الرؤية فيها بسبب جوها الحار، يا له من منظر. أخذ أندونيس يشرح له خططه بخصوص ماركة السجائر الجديدة، وكان أندرياس يستمع إليه صامتاً، بلامح جادة وكأنه يجلس فى حداد. وعندما أدرك أندونيس أنهما قد وصلا إلى القاهرة القديمة قال:

«أستحلفك بالله يا أندرياس، هل أتيت بى إلى هنا لكى نذهب إلى السوق؟».

أندرياس: «لابد أن تلتقى شخصاً ما، يا سيد خاراميس، ينبغي أن تسمع وترى بنفسك، إنها أمور لن تصدقها».

أندونيس: «ماذا أقول لك إذن، هيا بنا وأرجو أن يكون لديك سبب قوى لكل ذلك».

دخلت السيارة فى حوارٍ وطرق ضيقة غير ممهدة وقذرة، وبدأت تصل إلى أسمع أندونيس الأصوات الصادرة من الأسواق، وتسلك إلى أنفه الروائح المنبعثة من التوابل والفاكهة الطازجة، من السودانى واللب، من الفول، من البصل، من الخبز لدى البائعين. صف طويل من الجاليب والطرابيش ترقص جميعها أمام عينيه. وفى تلك

اللحظة وصلوا إلى أطراف السوق، عن يمينهم تمتد أزقة ملتوية ومظلمة بما فيها من تجار للبشر، فى تلك البقعة من الأرض اجتمع هؤلاء الناس ليبيعوا أرواحهم للشيطان فى كل يوم. كما تنتشر الأرفف الخشبية فى كل مكان يعرض عليها الباعة بضاعتهم، والتي تحمل فوقها "برتقال، بلح، رمان، ليمون" (ذكرها جميعها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) هكذا كان بائع الفاكهة المصرى ينادى على بضاعته، وكان أندونيس يرددها خلفه باللغة اليونانية الواحدة تلو الأخرى. وإلى جانب الفاكهة الطازجة، هناك أيضاً معروضات أخرى على ظهر البغال: مثل الحلوى والحقائب والمصنوعات الخشبية والسجاد والأوعية الملونة. وأخيراً المصاصات (لولى بوب). من هذا المكان تنبعث أيضاً الروائح القوية والنافذة للأطعمة ودهانات الشعر وأيضاً رائحة الأفيون (الذى يستخدم بوصفه علاجاً مسكناً للألم) كان هناك من يستلقون على الأرصفة وهم يأكلون بنهم البلح والليمون السكرى، والرمان والموز وأعواد القصب. عيون هائمة، نصف مفتوحة ينظرتها التائهة التى تبدو وكأنها تنظر لشيء آخر غير هذا الزحام. فى نفس الوقت كان أحد الصبية قد تسلق موطئ باب السيارة وبدأ يعرض عليهم - وهو يشير بكف يده التى فتحها على شكل زهرة - الاستمتاع بممارسة الجنس مع امرأة جميلة مقابل خمسة قروش، وبسبب تجاهلهم له بدأ يفلق إصبعاً تلو الآخر لتقليل المبلغ، وفى النهاية قفز من السيارة محبطاً. أما السبرسجى الذى يجمع أعقاب السجائر من أجل بيع ما تحتويه من تبغ إلى المصانع فقد ذكره بنفسه منذ سنوات عديدة مضت، وهناك أيضاً ذلك المتسول بثيابه الرثة الذى نظر إلى أندونيس نظرة مليئة بالتوسل، والفلاحات ربات البيوت اللاتى يحملن أطفالهن على أكتافهن ويسرن متمايلات فى الشوارع. كانت هناك لحظات اختلط فيها المشاء بالدراجات والسيارات وتحولوا إلى كتلة واحدة على الطريق غير الممهّد، بينما كانت شمس الظهيرة تلفح وجوه المارة. بدأ أندونيس يتلملص وأخذ يضرب الأرض بحذائه بطريقة عصبية. هل كان من الضروري أن يمر بكل هذه التجربة؟ «كدنا نصل!» قالها سيستانيس، ولم تمر سوى دقيقة واحدة، حتى توقفت السيارة فجأة أمام مقهى بلدى قديم. مصابيح قدرة معلقة على أعمدة بيضاء حوائط متسخة وأبواب متهاكة. استقبلهما رجال سمر البشرة بابتسامات عذبة مرسومة على

وجوههم القاسية. كان بعضهم يدخل الشيشة أو الجوزة، والبعض الآخر يحتسى "البوظة" (نكرها باللغة العربية ويؤنّها بحروف يونانية)، وآخرون يلعبون الورق بأوراق كوتشينة قذرة وممزقة. البعض يتحدث بصوت منخفض وآخرون يتحدثون بصوت صاخب وكأنهم يتشاجرون، يكثرّون الإشارة بأيديهم أثناء حديثهم، ويبصقون بشكل مستمر على الأرض. فى حين كان الرجل الذى ينتظرهم يجلس صامتاً فى أحد أركان المقهى، وكان يدخل الشيشة وعندما رأهما، انتفض من مكانه وبدأ يتظاهر بأنه ينفذ القبار عن مقعدين اختارهما لضيوفه. كانت ملابسه الأفرنجية تلمع فى ضوء الشمس، ويضع فوق رأسه طربوشاً داكن بلون الدم. استقبلهما بانحناءة إحترام وصاح معقفاً القهوجى بكلمات بذيئة باللغة العربية، لأنه تجرأ وأراد تقديم شىء من مشروباته القذرة لهذين السيدين.

«هذا هو كامل» قالها سيستانيس إلى مديره باللغة العربية، ثم أضاف: «إنه الذراع اليمنى للإنجليز، الرجل الذى يستطيع عمل أى شىء».

انحنى كامل مرة أخرى وهو يلقي التحية على أندونيس قائلاً (بالعربية): «سلام».

«لا يفعل كامل أى شىء طوال اليوم سوى إنهاء الأوراق من مصلحة حكومية إلى مصلحة حكومية أخرى» هكذا أوضح سيستانيس لخاراميس.

كان كامل المصرى يفهم سيستانيس وهو يتحدث باليونانية، لكنه لا يستطيع أن يتحدث بها، ولذلك كان يهز رأسه مبتسماً تعبيراً عن رضاه بما يسمع. وهو رجل ضئيل الحجم أسمر اللون، زادت الشمس الحارقة من سمرة بشرته، وكانت ابتسامته تكشف عن تجاعيد وجهه الداكن والتي تشبه الشقوق.

«كامل، أريدك أن تقدم للسيد خاراميس الأوراق التى أظهرتها لى من قبل» هكذا وجه سيستانيس حديثه لكامل، فما كان منه إلا أن دس يده فى جيب بذلته الداخلى وأخرج حفنة من الأوراق المثنية بعناية وقدمها لأندونيس.

تلقى أندونيس الأوراق بيديه بحرص شديد، وكأنه يظهر احترامه لقيمة تلك الأوراق، ولكن فجأة تغير لون وجهه ألف مرة، عندما بدأ فى الاطلاع على الأوراق الواحدة تلو الأخرى، ويقرأ كل تلك الأرقام والأسماء والإمضاءات. ثم صاح أندونيس فى النهاية بطريقة عصبية قائلاً:

«لكن ما كل هذا؟».

- «إنها عروض أسعار، يا سيد خاراميس، عروض أسعار مزورة قدمها منافسوك للإنجليز حتى يستطيعوا انتزاع اللقمة من فمك!» هكذا أوضح له سيسستانيس بهدوء.

- «نعم، لكن الأوراق مزيلة بتوقعات تؤكد صحة هذه المعلومات الكاذبة، توقعات لأشخاص معروفين».

- «هل أنت متأكد من أنها توقعاتهم؟» .

- «بالقطع، ها هو. توقيع يورغاس!» قال ذلك وهو يطرق الورق بظهر يده، ثم استطرد قائلاً: «وهذا توقيع ستراتيس ميخيليس! أقطع ذراعى بأنه توقعه».

- «عظيم، فقد شاهدتهم كامل أكثر من مرة يدخلون ويخرجون من مكاتب الإنجليز فى صحبة منافسيك» .

- «هذا يعنى أن.....».

- «بالضبط!».

- «آه، الكلاب.....» قال ذلك وقد استشاط غضباً، ثم أردف قائلاً:

«ولم أتركهم فى المنصورة وفى طنطا حتى يتعنفوا».

ثم ضرب أندونيس جبهته بيده، وألقى بحفنة الأوراق على المائدة المعدنية بالمقهى. فخلال دقيقة واحدة فقد ما هو أكبر بكثير من عمله مع الجيش الإنجليزى، فقد ثقته فى الناس. وأصبح كل من حوله فجأة بمثابة تهديد له. امتلأ المقهى القديم بهمسات

الجالسين وغمزاتهم. ومن يضمن أن هذين الاثنين اللذين كشفوا له الخونة ليسا على استعداد لطعنه فى ظهره فى وقت لاحق؟ كل هذه البشاعة الموجودة فى باطن الناس الناس وفى ظواهرهم جعلته يشعر بالاشمئزاز. أراد أن يرحل، أن يرحل منذ زمن. وعندما بدأ كامل يتحدث مع شخص حسن المظهر طويل القامة بالفرنسية المخلوطة بالعربية، اتجه تفكيره نحو إلياس. وعلى غير عادته فرك شفتيه بيده واستدار منهمكاً تجاه سيستانيس وقال له:

«ألا تظن أن هذا يكفى لهذا اليوم، يا أندرياس. يكفى هذا! فلنذهب إذن».

بصعوبة تمكن سيستانيس من إخفاء سعادته واكتفى بتحية مصدر معلوماته بكلمة "تمام" (قالها بالعربية وبونها بحروف يونانية)، واضعاً على قدمه حفنة من الجنيهات، ثم جرى خلف خاراميس، الذى كان يتعجل ركوب السيارة. ويبدو أن سيستانيس لم يدرك مدى الضرر الذى أحدثه رغماً عنه لرئيسه فى العمل، لأنه لم يكتف بذلك، فقد استمر فى طريق العودة بإمطاره بوابل من الأخبار السيئة:

«اعلم أيضاً أن منافسيك قد قرروا أن يدخلوك فى صراع معهم لتدميرك، أتعرف أنه منذ زمن طويل أن هؤلاء الناس يتحدثون إلى التجار فى القاهرة الواحد تلو الآخر حتى لا يشتروا السجائر من مصنعنا؟ وقد نشروا أخباراً كاذبة بأن مصنعنا على وشك أن يغلق أبوابه. لقد أخبرونى أيضاً بذلك. والآن أنا مضطر للذهاب إلى التجار بنفسى لتهدئة مخاوفهم. وسوف أرسل أناساً تابعين لى لإنقاذ الموقف، لأنهم لن يتركوا مدينة ولا قرية فى مصر إلا ونشروا سمومهم فيها».

- «فلتفعل ذلك، يا أندرياس، ولا تدعهم يفرقوننا بأكاذيبهم» قال ذلك، وهو يشعر بالعجز عن السيطرة على مجريات الأمور، وكأن اكتشاف المناقصات المزورة كان بمثابة الطعنة التى سيحتاج لوقت طويل للشفاء منها.

- «لا تشغل بالك، يا سيد خاراميس. كل هؤلاء الكاذبين لهم أرجل طويلة وأنا أعرف كيف أقطع أقدامهم أرجلهم تماماً».

كان أندونيس متعجلاً حتى يعود للإسكندرية وقد نفذ صبه، ليتأكد على الأقل من أن كل شيء مازال كما هو، ولكى يلقي بنفسه فى أحضان عشيقته، حتى يستعيد كل ما يحتاجه من قوة تمكنه بحرص من تنفيذ انتقامه من أعدائه.

* * * * *

لم يعد التغيير سوى خطوة واحدة عما كنا نتخيله، وربما كان الإحساس بالعظمة الذى قد ينتج عن تلك القفزة الذكية لشخص فاسد هو شعور كاذب بالمتعة التى من خلالها لا يكون الضمير الفاسد على استعداد للتخلّى عنها . لكل من يرفضون ذلك لم يكن هناك ما يمكن قوله سوى: «لقد أدركتم شيئاً لا تستطيعون أن تدركوه، وجعلتم من شهواتى بوابة رئيسية».

لقد تعرف كوستيس فى برلين فى العشرينيات من هذا القرن على مدينة الرغبات، تلك البوتقة العجيبة للرغبات الشخصية والإيقاعات المختلفة: هناك حيث كانت موسيقى شينمبيرج تسيل فوق جسد أفروديت داكن البشرة، تتراقص عليها راقصة التعرى جوزيفين بيكر، حيث كانت موسيقى الجاز مثل فوران الشمبانيا الرخيصة فى الكباريهات سيئة السمعة، وأسىء توظيف أساسيات هندسة باوهاوس المعمارية وواقعية جروس وديكس الجديدة، فى حين كان أخلاقيات الجنس تجرى كالخيول الجامحة فى الشوارع والطرق، فى بيوت البغاء للرجال والنساء، حتى يحدث تزاوج بين الخيال المكبوت وبين تلك الصور المشوهة.

كان كوستيس يتحدث أخيراً عن الانفصام فى الشخصية الأخلاقية الذى تُصدره مدينة برلين للناس، من خلال تحليل الأشكال الحديثة فى الرسم، التى تعتمد على النكات المسفة التى تلقى فى الكباريهات على أنغام آلة الساكسوفون. «هناك، حيث يستطيع أى شخص غريب الاطوار أن يحول حلمه إلى حقيقة» هكذا كان كوستيس يحدث نفسه، وأضاف: «تخلوا أنه قبل رحيلى عن برلين بوقت قليل كان هناك مائة وسبعون بيتاً لممارسة الرذيلة بين الرجال يعملون بتصريح من الشرطة. وربما كان

العدد أكبر من ذلك بكثير. وفي بعض الكباريات، مثل كباريه "إلدورانو" (قالها بالفرنسية) الشهير، في "شارع مودز" (ذكرها بالألمانية)، كان من الصعب العثور على فتاة واحدة ممن يرفهن عن الزبائن في حالة صحية سليمة. كانت برلين في "العشرينيات" (قالها بالفرنسية) لا تعدو كونها مدينة شاذة».

وفي ليالى الربيع لعام ١٩٢٤، عندما كان كوستيس يقف مع ماخوس أمام المرأة وهو يهتد له ملابسه، لم يكن يفكر بنفس الطريقة. كانت برلين في ذلك الحين لا تزال المدينة التي استيقظت في التو من شبح ما بعد الحرب ثم استسلمت بطريقة لا يصدقها عقل للهذيان والمرح. وكان جمال ماخوس الأخاذ الذي يشبه الإغريق القدماء قد سحر الجميع في المدينة، وعلى الرغم من غيرته التي لم تتوقف، كان كوستيس يسعد عندما يعرف من أصدقاء مختلفين أنهم قد شاهدوا في ليلة سابقة أخاه ماخوس وهو يتناول طعام العشاء في أحد المطاعم الراقية بمصاحبة إحدى الفاتنات، أو أنه كان يسير في الأسبوع الماضي متأبطاً ذراع فتاة حسناء حمراء الشعر أثناء خروجهم من إحدى محطات مترو الأنفاق في "ميدان بوتستامر" (ذكرها بالألمانية). ولذلك كان في كل مرة يضبط له رابطة عنقه أو يضع له المنديل في جيب بذلته، ويتفحص شعره المصفف وهو يداعبه برقه، كان كوستيس يسأله بصفته أخاه الأكبر قائلاً :

«أين تذهب الليلة، يا صغيرى؟».

كانت ابتسامة ماخوس تقول كل شيء، مما يجعل كوستيس يضيف في كل مرة قائلاً:
«كل نساء برلين لقمة سائغة بين يديك. ولكن لا تنس أن تخبرهن أن أخاك كوستيس هو "أمير برلين"».

ولم يكن كوستيس يكذب في ذلك، فهذا اللقب الذي استمر كوستيس يحمله بكل فخر لعدة سنوات، يعد بمثابة منزلة شرفية كان كوستيس قد اكتسبها في فترة التضخم، عندما كانت المدينة كلها راکعة تحت قدميه.

كان يشير إلى برلين في العشرينيات قائلاً "إنها مدينتي"، وكان يؤمن دائماً بأن عاصمة الجنس والحفلات التي لا تنتهي لياليها الخالدة كلها تؤول إليه، كما يؤول منزل

أو سيارة لشخص ما؛ لأن برلين فى تلك الحقبة لم تكن فى الحقيقة مجرد مبانٍ وميادين وشوارع، ولكن كانت بحراً من الخبرة، عطرًا ينساب سريع الزوال احتفظ به حتى نهاية هذا العقد من الزمن ، حتى أدرك أن الوقت قد حان ليقول "وداعاً برلين!". ولكن حتى ذلك الحين، كان قد ارتشف بنهم من متعتها دون توقف، كان يقهر كل عشيقة له بمبدأ أنه "السيد العظيم" كما يقولون، سواء حدث ذلك فى برج لفتاة أرستقراطية أو حتى فى أسفل سافلين مع فتاة شعبية كانت قد وهبت له روحها وجسدها فى مقابل ماركات قليلة. وهكذا كانت كل نساء هذه المدينة طوع يمينه. عندما فكر فى اقتسام بعض هؤلاء النساء مع أخيه ماخوس، جاءت تلك الليلة السوداء فى يوم العشرين من مايو، وعندئذ تهدم كل ما بناه فى مخيلته مرة واحدة. فى تلك الليلة، تم نقل أخيه على عجل إلى مستشفى برلين وهو يعانى نزيفاً حاداً فى عضوه الذكري، فى البداية تحدث الأطباء عن نزيف المستقيم، وأن عملية جراحية بسيطة وعاجلة كافية لعلاج هذا المكان، ولكن عندما بدأت العملية الجراحية ظهرت معطيات جديدة فى التشخيص الأولى، وهى كالتالى: «تهتك شديد فى فتحة الشرج بعد دخول جسم غريب بعنف فيها». وكان هذا التشخيص الذى لا يشوبه أدنى شك بمثابة الانهيار الذى أسفر عن اكتشاف أسرار جديدة.

ويبدو أن أندونيس الصغير قرر أن يتخلى لبعض الوقت عن ضحايا فنتته، تلك النساء الجميلات اللاتى لم تكن كافيات لإرضاء رغبته النرجسية، وقرر أن يذهب إلى حيث يمكن أن يلقي بجسده فوق من يشتهي من الرجال. لم يكن يريد أن يُعجب بأحد لكن أن يكون هو مثار إعجاب الآخرين، لم يكن يريد أن يكون عاشقاً؛ ولكن أن يكون هو المعشوق. ولهذا السبب كان إعجاب النساء به شيئاً يزعجه بشكل لا يوصف. ولم يكن غرور هذا الرجل الجميل يسمح له، بالطبع، بالاختلاط بتلك الفتيات الجميلات، ولذلك فقد ثارت تلك النرجسية المتأججة بداخله ضد السلطة المتحكمة للنساء، وجعله شيطانه يفقد دائماً مشاعره الطبيعية باعتباره رجلاً. وعندئذ لم يقع فقط ضحية لعشق نفسه، لكنه تسلل إلى المرأة التى كان يرى فيها نفسه لكى يشوه ذاته باختياراته الجامحة. كان يعبر إلى ذلك الجانب المظلم، وبدأ يغير قدر المستطاع من طبيعته والتلذذ بقدرته ليس فقط على التشبه بالنساء، ولكن على أن يتحول هو نفسه إلى واحدة من هؤلاء

المخلوقات المتكبرة. فبسبب هذا الجمال الذى لا يقهر كان باستطاعته أن يصبح رجلاً وامرأة، إلهاً إغريقياً مختنئاً، إلهاً للعشق الجديد الذى كانت تفاصيل جسده الكاملة تفوق كل تصور. ولكن لكى ينتهى به المطاف فى المستشفى بهذه الحالة، فيبدو أن البعض لم يستطيعوا مشاركتهم فى هذا الرأى، إلى أن آل به المصير أن يستلقى فى المستشفى وهو فى هذه الحالة، بعد أن تم الاعتداء عليه فجأة وبطريقة وحشية فى أحد بيوت ممارسة الرذيلة للرجال فى برلين ما بعد الحرب وكأنها "سدوم"^(١٤) الجديدة - أى مدينة قوم عاد. أما الآن فيرقد الشاب الجميل - شبيه آلهة اليونان - فى غرفة باردة منعزلة، محاولاً تجرّع مرارة الخجل التى سببها له اكتشاف الآخرين "لحياته المزوجة".

لوهلة من الزمن ظن كوستيس أن ما ينظر إليه ما هو إلا تمثال من الشمع يرقد تحت الملاءات البيضاء. حاول ماخوس الذى يتألم وهو شبه غائب عن الوعى من تأثير المخدر أن يقول شيئاً، ولكن كوستيس لم يسمح له بذلك، ثم مسح على رأسه وقال: «الأمر ليس خطيراً، يا عزيزى ماخوس، مجرد ألم بسيط. لكن الآن كل شىء على ما يرام، بعد ذلك ينبغى عليك أن تنتبه لما تأكله، وكل الأمور ستسير سيراً حسناً. لا تقلق فاخوك هنا بجوارك وسيظل بجانبك دائماً».

كانت لدى كوستيس الرغبة فى البكاء لم يعرف لها سبباً، فقد اختفى من أمامه أخوك ماخوس شبيه أدونيس فى الجمال، وعادت أمامه صورة الطفل الصغير ماخوس وهو يرتدى الشورت وتقوم أمه بهدهدته وهو جالس على قدميها، رفيق سنوات طفولته. وعلى الرغم من إدراكه بزيغ ذلك الشعور بالغيرة الذى كان قد انتابه فى يوم من الأيام وعدم وجوده، فإنه بات يشعر بأنه قد تخلص للأبد من تلك المنافسة بينه وبين أخيه، فلم يعد لديه ما يغار منه بسبب هذا الشاب الجميل الذى خارت قواه. لقد فرقتهما قناعاتهما المختلفة والآن جمعتهما من جديد النهاية غير السعيدة لتلك الرغبة المحرمة.

* * * * *

(١٤) سدوم: مدينة بفلسطين القديمة دمرها الله لانغماسها فى الرذيلة والفساد. (المراجع).

عندما غادر كوستيس برلين فى بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، كان لديه شعور بأنه لم يعرف هذه المدينة أبداً ما عدا تلك السنوات الأولى منها، فلم يجد الوقت لكى يتعايش بشكل عملى مع هذه المدينة. لم يعر إيقاع الحياة اليومية اهتماماً، لم يضطر فى يوم من الأيام للنوم فى إحدى الغرف التى كان يوفرها الكثيرون من أهل برلين المعدمين فى منازلهم للشباب الأعزب، من أجل الحصول على المال ودعم دخولهم الهزيلة ودفع ما عليهم من ديون. لم يعرف معنى أن يعيش المرء فى شقة ضيقة، وأن يختنق برائحة البطاطس والزبدة الرخيصة. لم يتقوقع داخل حدود الإفطار الألماني المقدس؛ فنجان من القهوة وقطعة من الخبز ونقطة من الزبد. وبالطبع لم يضطر ليلاً للقفز فوق أجساد الناس النائمين للذهاب إلى دورة المياه لقضاء حاجته، أو أن يجد فوق رأسه ربة ذلك المنزل وهى تعنفه لاستيقاظه فى تلك الساعة المتأخرة من الليل .

منذ ذلك الوقت الذى انتشر فيه التضخم، كان كوستيس يحتفظ لنفسه بالجناح الذى يقيم فيه فى أكبر فنادق المدينة، وبخاصة فى فندق "قيصر" طالما كان من المستحيل "لأمير برلين" أن يقبل بمستوى أقل من ذلك. وبعد عدة سنوات قرر أن يكرس حياته لكل المتع والأمور المبالغ فيها، محولاً حياته إلى سهر دائم ، مستمتعاً بكل لحظة جميلة تقدمها له برلين مع بداية كل صباح . مثل تناول الآيس كريم اللذيذ فى أحد المقاهى الموجودة بجوار حديقة الحيوان أو التنزه فى حديقة تيرجارتين. وأكثر ما كان يفعله هو محاولة السير بتمهل وأناة فى طريق كور فيستردام الملىء بالفنادق الراقية والمعارض والمطاعم، وكان يصل فى أغلب الأحيان "كافيه كرانسler" (بونها بالألمانية) التى كان يتطلع من شرفتها إلى المارة.

وفى الإسكندرية عندما كان صغيراً، كان شوقه لأن يستمع إلى نبض المدينة التى ولد بها يدفعه للقيام بأمور لا يصدقها عقل بالنسبة لغير أرستقراطى مثله. أما الآن وهو حر وحيد فى مدينة أوروبية، يشعر بالفتور للتعرف على الحياة اليومية بها. كان يتمنى فى العديد من المرات لو أن نيكيتاس كان بصحبته، لحرص طوال تلك السنوات على التعرف على كل تفاصيل جسد تلك المدينة الرمادية وحفظها عن ظهر قلب، لكنه ليس

نيكيتاس. ما زال بداخله مواطن عالمى ذو طابع راق، لم يتأثر بعد بما يتأثر به العامة. ربما كان يفضل مراقبتها من بعيد، كان يبتسم للأطفال الذين كانوا يكونون فى الطرقات، ويقوم بتشجيع الشباب من العامة الذين يرتدون البلوفرات الصوفية ، وهم يجوبون الشوارع بدرجاتهم ويعاكسون الفتيات، كان يحيى بانعى الآيس كريم بعرباتهم وهم يخرجون للشوارع كل ربيع بعد فترة بيات شتوى، وفى بعض الأحيان كان يشتري منهم الآيس كريم، ودائماً ما يترك لهم الباقي من النقود. نفس الشيء كان يفعله مع بانعى الصحف، على الرغم من أنه لم يكن يقرأ الجرائد والمجلات التى يشتريها منهم، وكان دائماً ما يتعجل للتخلص منها. لم يهتم أبداً بتفحص جريدة ألمانية، أو أن يغوص داخل أعماق الحياة فى برلين. أما أصدقائه من بين كل هؤلاء الفقراء الذين جمعهم فى "عالمه" فربما كانوا هم الرابط الوحيد الذى يربطه بالحياة. وفى الوقت نفسه كان حريصاً على تحليل شخصياتهم: فهناك كارل، ذلك اللفظ الذى كان على وشك التخلي عن معتقده وكفاحه عندما استسلم قليلاً لترف حياة الليل وفسادها فى برلين. وماكس الرسام الذى أصبح يوماً بعد يوم كسولاً يستغل الكرم البالغ للشباب السكندري، وهو يرسم بريشته بما يشعر به من مخاوف أكثر من إضافته لإبداعاته. حتى السنوات الثلاث اللاتى تعرف إليهن فقد تحولن إلى أدوات للجنس، أشباحاً لمدينة بلا مستقبل. الوحيد الذى أظهر مقاومة كبيرة كان ذلك اليهودى الفقير، الذى بقى محبوساً فى البدروم من شدة خوفه ومن الجوع أو من كليهما معاً. كان كوستيس ينظر إلى حياته وكأنها ستارة داخل كباريه تخبئ له كل ليلة مفاجأة رخيصة. وكان مرتبطاً بتلك المائدة فى محل (Bon Viver) أو المنغمس فى ملذات الحياة، وبزجاجته التى لا تفرغ أبداً، وكان يستمتع وهو مخمور بما يقدمونه من عروض وبالموسيقى التى كانت بمثابة جواز سفره الوحيد فى هذه المدينة المجنونة. أما بالنسبة لدراسته فلا شيء، لأنه كان يعتبر أن معمل المعرفة الوحيد بالنسبة له هو المقهى الفنى الموجود بجوار الكاتدرائية، حيث كان اليهود واليساريون المفكرون يدخلون فى مناقشات أدبية رائعة. وفى بعض الأحيان، كان يبحث عن نسمة منعشة يتنسمها فى أماكن أخرى مثل قهوة رومانس أو قهوة يوستى، وليس أكثر من ذلك.

لم يتمكن كوستيس من التعامل مع الشعب بجدية، ذلك الشعب الذى كان يعانى من أعباء الحياة فينتفض بين الحين والآخر، وينطلق فى الشوارع فى مظاهرات حاملاً رايات ملونة، لم يهتم فى يوم من الأيام بأولئك النازيين الصاعدين الذين نبتوا فجأة فى حياة المفكرين ببرلين، وبدأوا فى الانتشار بسرعة عجيبة، مستنزفين كل طاقة سياسية، ومعبرين عن كل ما يثير غضبهم وكل ما يرون أنه يثير اعتراضهم. كانت مسيراتهم تذكره بمسيرات الكشافة بالإسكندرية، بدون أحداث العنف والضرب التى كانوا يقومون بها، كل هؤلاء الذين يشبهون الممثلين المسرحيين برمزه الذى يشبه الصليب المعقوف وطريقتهم فى التحية لم تكن أكثر من لعب أطفال، عرض من عروض العرائس المتحركة. كيف ينظر بجدية، على سبيل المثال، لهذا الرجل القصير المريب الذى كان يقطع بإزعاجه عرض فيلم " لا شيء جديد من الجبهة الغربية " (حيث كان كوستيس فى ذلك الحين فى باريس، إلا أنه استطاع أن يتخيل المشهد الذى وصفه له كارل فى أحد خطاباتة)، مما جعل بعض الصبية يلقون بحبات الطماطم على الشاشة ويطلقون الفئران فى قاعة العرض بإحدى دور السينما. أما ذلك القزم فلم يكن شخصاً آخر سوى جوزيف جايبيلس.

* * * * *

كان أندونيس بحاجة ماسة للعودة إلى الإسكندرية، وأن يلقي بنفسه على مقعد مكتبه فى صباح اليوم التالى، لكى يشعر بأنه مازال أندونيس العظيم. استند مستريحاً على ظهر المقعد وتفحص المكان الواسع الذى يعمل فيه كل يوم. وحيثما أدار يدير عينيه، كان يرى أمامه ما يبرهن على قوته. لم يسمح لسكرتيrote فوليا أن تغلق الستائر الثقيلة وتحرمه من ضوء الشمس، وبدأ الضوء فى رسم مربعات ضخمة على الأرض، مما كان يسبب له الضيق بعض الشيء. فقد كان يخاف الأماكن المظلمة منذ أن كان صبياً صغيراً. أما الشمس فقد كانت سخية وطوع بنانه، وكأنها تطارد أشباح الحزن وتنتير له الجزء المظلم من روحه. فقليل من الضوء كان يكفيهِ لإعادة تفاؤله بالمستقبل.

وبعد أن قام بجمع الأوراق المبعثرة فوق المكتب، فتح علبة السجائر، وأخذ منها سيجارتين ووضعهما بحرص في منتصف المكتب، وقال في نفسه «يورغاس وميخيليس»، ثم فكر قليلاً وأطلق زفيراً بهدوء تجاه السيجارتين ونظر إليهما وهما تجريان فوق سطح المكتب الخشبي داكن اللون، وعندئذ ارتسمت على شفثيه ابتسامة النصر.

طلب أندونيس استدعاء يورغاس الذى حضر على الفور، وكأنه كان ينتظر طوال ذلك الوقت خلف الباب. لم يكلف نفسه أبداً من قبل أن يخلع الأكمام التى يرتديها فوق قميصه، كما لو كان يريد دائماً أن يذكر أندونيس بمدى جديته فى العمل.

أندونيس: «مرحباً بك يا يورغوس» قالها بصوت مرتفع، فاثارت حديثه المحاسب، بعض الشيء، ثم استطرده قائلاً: «اجلس هنا، لا تظل واقفاً» وأشار إليه، حتى قبل أن يغلّق الباب.

يورغوس: «هل حدث شىء DV، يا أندونيس؟» هكذا سأله بقلق.

- «كلا، وماذا يمكن أن يحدث؟».

- «لا أعرف، أنا فقط أسأل».

- «وأنا أجبتك، حسناً؟ هل تعرف ما الذى كان يجول بخاطرى فى الأيام الماضية، يا يورغوس؟» أكمل أندونيس حديثه بنفس الطريقة المتكبرة.

- «ماذا؟...؟».

- «كنت أحاول أن أتذكر كم مضى من الوقت منذ أن تحدثنا أنا وأنت باعتبارنا أصدقاء فى هذا المكتب؟».

- «كم من الوقت؟» سأله يورغوس وهو يمد حملاًات سرواله.

- «مر وقت طويل، يا يورغوس، نحو عشر سنوات، منذ حادثة التاج الملكى على بوابة المصنع، أثناء زيارة فينيزيلوس».

- «لم أفكر فى ذلك، ولكن طالما أنت من يقول ذلك، فلا بد أن يكون الأمر كذلك» .
- «نعم، هذا ما أقوله لك، ومن بعدها رحلت أنت لمدة عامين، وعندما عدت كانت وظيفتك فى انتظارك، أليس كذلك؟».
- «ليس لدى أدنى اعتراض».
- «من الذى تكلم عن اعتراض؟ نحن هنا نقول إنه قد مرت عشر سنوات، دون أن نجلس مثلما نفعل الآن ونتكلم. حقيقة، لم تخبرنى أبداً كيف مر عليك العامان اللذان كنت فيهما غائباً».
- «عامان ونصف العام، بل كادوا أن يصبحوا ثلاثة، يا أندونيس» .
- «حسناً، لن نضيع وقتاً فى العد، لابد وأنها كانت سنوات صعبة بعيداً عن الإسكندرية وبعيداً عن عائلتك».
- «أكثر مما تتصور».
- «صديقى العزيز، أريدك أن تعرف أن كل ما فعلت وقتها قد فعلته من أجل مصلحتك. لم تكن لدى النية لعقابك».
- «لقد شرحت لى ذلك فى حينه، وقد فهمت مقصدك».
- «وأ تذكر كيف أنك وميخيليس دفعتما ثمن الصراع بين أنصار الملك وأنصار فينيزيلوس، وكنت ألوم نفسى لأنكما من رجالى المخلصين، وكان لزاماً على أن أحميكما» .
- «لم يكن بوسعك شىء، يا أندونيس».
- «أعتقد ذلك حقاً، يا يورغوس؟».
- «بالطبع أعتقد ذلك».

- «أوف! لا تعرف مقدار الراحة التى أشعر بها لسماعى ذلك منك. كما أشعر بالأمان لمعرفتى أنك لا تكن لى أية ضغينة».

- «أستحلفك بالله، أعتقد أنه كان بإمكانى التفكير فى إيذائك؟».

- «لم أقل إنه كان بإمكانك إيذائى، وفى حقيقة الأمر، هل تعتقد أنك فى وضعك هذا يمكنك أن تؤذينى؟».

- «حتى أضعف الناس يجد القوة للإيذاء، إذا توفرت له الرغبة فى ذلك».

- «دعنى إذن أعيد صياغة السؤال مرة أخرى، هل تعتقد أنى سأمنحك الفرصة لكى تؤذينى؟».

- «رويدك، رويدك يا أندونيس، ما هذه المناقشة التى بدأناها وما زلنا فى الصباح؟».

- «معك كل الحق، فلنغير الموضوع إذن، فمثل هذه المناقشات تدور فقط بين الإخوة. لأننا بالفعل إخوة، يا يورغوس. فأنت أخى الذى لم تلده أمى، وبالنسبة لك فأنا الأخ الذى لا تستحقه».

- «جمعتنا لحظات صعبة».

- «حقاً، هل تذكر هوجة عرابى؟ والمدينة مدمرة بأسرها، حيث أحرق المصريون كل شىء».

- «ومن ورائهم وصلت البارجات الحربية الإنجليزية لكى يستكملوا الدمار. حتى إن شارع شريف باشا ما زال مليئاً بآثار الدمار، مازلت أذكر ذلك كما لو كان قد حدث الآن. وأتذكر أن أبى كان يقول لى دائماً إننا لن نستطيع العودة أبداً لنقطة البداية».

- «ولكن هذا ما حققناه، يا يورغوس»

- «لقد حققناه بالفعل، يا أندونيس» هكذا أبدى المحاسب موافقت،ه وابتسم بكل ما تحمله روحه من براءة. ثم نظر بعد ذلك بعيداً ورفع بكبرياء حمالات سرواله.
- «لكننى ما زلت أصر أننى لم أتصرف بشكل جيد تجاهك وتجاه ميخيليس. لكن دائماً هناك فرصة لإصلاح الخطأ».
- «لا أعتقد أن المحاولة تستحق الآن».
- «إذن، ألا توجد طريقة لتسامحنى بها؟» .
- «ومن قال لك أن هذا الأمر مطروح للنقاش؟».
- «لا أدرى كيف تقول ذلك، ولكن الضرر الذى لحق بكما سيطاردنى مدى الحياة».
- «أقول لك بكل صدق، الآن لا يوجد شىء لأسامحك من أجله، ولو لم نسمعك وقتها ومن يدر ما الذى كان سيحدث لنا. ففى ذلك الوقت أدركتنا الحرب. وتحول كل أنصار الملك إلى مؤيدين للألمان. ولم يكن ليدهشنى لو أنهم قاموا بنفينا لمالطة».
- «معك كل الحق فيما تقول، ولكن حتى اليوم لم تنجُ بعد من مالطة، كن على يقين من ذلك، يا أخى».
- «أه لا، لقد انتهى ذلك.....».
- «لا تقل ذلك، يكفى أن يظهر شخص جرىء ويهمس بكلمات مؤثرة فى الأذن المناسبة، وعندها ستعرف إلى أين ستذهب. ماذا؟ لا تنظر إلى هكذا فلن أفعل بك شيئاً كهذا. ألم نقل إننا إخوة، لا يوجد عليك خطر منى، كما لا يوجد على خطر منك. قل ذلك لستراتيس ميخيليس. لا يوجد ما يخيفه منى».
- «ولكننى لست على علاقة وطيدة بميخيليس».

- «حقاً؟ وأنا من كنت أعتقد أن نفيكما قد وحد بينكما؟».
- «ليست لى علاقة به. الشيء الوحيد الذى يجمعنا هو الاحترام الذى نكنه تجاه شخص الملك. ولكنى أظن أن ذلك ما يجمع نصف اليونانيين».
- «معك كل الحق، ما العلاقة التى يمكن أن تجمع بينك وبين ميخيليس؟ لا شىء. إنها حماقة منى أن فكر بهذه الطريقة. فقد أثبت المحامى الخاص بنا أنه فاسد. يقولون إنه بمساعدة محاميين آخرين استطاعوا تجريد امرأة عجوز قعيدة من ثروتها، التى اسوء حظها لم تكن تعرف اللغة العربية. ستقول لى وماذا ستفعل هذه العجوز الشمطاء بكل هذه الثروة فى مثل عمرها؟ معك حق، على أية حال، إنه محام فاسد».
- «أما أنت فلست غاضباً منه، أليس كذلك؟».
- «أنا؟ ولماذا أغضب منه؟ ومن جهة أخرى، فأنا لست امرأة عجوزاً لا تعرف العربية، فلتقل ذلك لميخيليس».
- «ولكنى أخبرتك بأنه لا توجد علاقة تربطنى به».
- «وخير ما فعلت، يا يورغوس».
- «لكنك اليوم تبدو غريباً!».
- «أقول غريباً؟ إطلاقاً! إننى فقط أفكر فى رحلتى إلى أوربا».
- «أستغيب، يا أندونيس؟».
- «نعم، يا يورغوس، أفكر أن أترككم قليلاً».
- «ولكن هل هذا هو الوقت المناسب للسفر؟ أريد أن أقول إن منافسينا يهدوننا الآن بالحصول على نصيبنا من الكعكة التى تميزنا فى السوق، لقد خسرننا بالفعل تموين الجيش الإنجليزى بالسجائر».
- «وهل يقلقك هذا، يا عزيزى يورغوس؟».

- «ألا يحق لى أن أقلق؟ لقد خسرنا نقوداً، يا عزيزى أندونيس، إنها ليست دعاية».
- «أنا من يخسر، يا يورغوس، ولكن كما ترى لست قلقاً. فنحّ عنك هذا القلق جانباً أنت أيضاً».
- «ما تأمر به، ولكن، لكى تسافر إلى أوربا فلا بد أنك تفكر فى شيء. أو ربما ستلتقى ولديك هناك؟».
- «دع أولادى هناك فى مكانهما، فهما ينفذان عقابهما. لا أدرى ما الذى دهانى حتى أقوم بنفى أقرب الناس إلى!».
- «إنك تمزح، يا أندونيس. ألن تقول لى ما الغرض من رحلتك؟».
- «شيء فى عقلى، ربما أستطيع أن ألقن به منافسى درساً قاسياً، ولكن فى الوقت الحالى لا أستطيع أن أخبرك بأكثر من ذلك. لقد إستدعيتك حتى أبلغك أن.....».
- «أن..... ماذا؟».
- «سوف أحضر سيستانيس من القاهرة، وسوف يتولى الإدارة أثناء غيابى وأريدك أن تساعدوه فهو لا يعرف المكان. أتعذى أنك ستساعده، يا يورغوس؟».
- «بالطبع يا أندونيس، هل هذا سؤال؟ سأفعل كل ما فى وسعى، أنت تعلم مدى تقديرى لأندرياس».
- «وأنا أيضاً أقدره، لهذا أقول لك: أطلب بتعاون بناء بينكما، حتى لا نمكن منافسينا من أن يحلوا محلنا».
- «ماذا تقول، يا أندونيس، لكن الأمور صعبة بالفعل».
- «لست خائفاً، وأنت تعلم لماذا، فلدى موظفون صالحون مخلصون. مثلك أنت وميخيليس، حتى لو لم أثق به. والآن سيأتى أندرياس فمن سيجرؤ على إيذائى طالما يعمل لدى أناس مثل هؤلاء».

- «لا أحد».

عندئذ ضغط أندونيس على الجرس وحضرت سكرتيرته، فبادرها بالسؤال:

- «هل النشرة جاهزة، أنسة جوليا».

- «نعم، يا سيد خاراميس».

- «فليتّم توزيعها فوراً على الصحف اليونانية»، انحنت السكرتيرة العانس انحناء خفيفة ثم بادرت بالخروج.

عندئذ أخذ أندونيس يتطلع إليها وهو يقول لنفسه: «على الأقل هناك من يخلص لى، مثل قوليا».

* * * * *

مرت عشرين سنوات منذ آخر مرة تطلعت فيها إيفيت إلى الساحل المصرى المعتم من فوق سطح أحد البواخر. ويقدر ما اكتسبته فى الحياة بسبب ارتباطها بعلاقة مع رجل صناعة الدخان الغنى، والمشكلات التى إرتبطت بإدارتها لبیت البغاء الراقى، لم تكن لديها الرغبة فى الاعتراف لنفسها بأن عشيقاً عجوزاً وبيئاً للبغاء قد طويا منها سنوات عديدة فى القارة الأفريقية. كانت تفضل أن تعتبر الحرب أمراً ضرورياً. «إنها الحرب» هكذا كانت تقول دائماً. وكان الحرب لم تنته منذ ستة أعوام، وكان الحود مازالت مغلقة والبارجات الحربية البريطانية تجوب البحر خارج الموانئ لتمنع إبحار السفن. ويقدر ما كان صعباً عليها أن تتخذ قراراً بالقيام برحلة إلى أوروبا، بقدر قبولها بسهولة دعوة أندونيس للقاء فى فيينا، فى طريق عودته من ألمانيا، ليقضيا معاً بضعة أيام قبل أن يسافرا إلى جنوب فرنسا، ويبحرا بالسفينة عائدين إلى مصر من ميناء مارسيليا. بعد سنوات عديدة من الأسر فى شقة السلطان حسين، حيث كانت تشعر أن وجودها فى حياة أندونيس يأتى دائماً فى المرتبة الثانية، ولم يكن ذلك من الأمور التى تسرها. كانت دعوته لها، أياً كانت، بمثابة انتصار صغير لها. ولكنه لم يكن

السبب الوحيد الذي جعلها تترك ملاذها بالإسكندرية دون تردد وأن تسافر إلى محل ميلادها، فرنسا.

فى الشهور الثلاثة الأخيرة، كانت تتلقى بشكل مستمر خطابات من روكسانى، التى وجدت نفسها بعد موت زوجها الأرمينى المفاجئ وحيدة فى باريس، ومعها كل تلك الثروة الضخمة. تلك الوحدة التى سبق أن عانت منها بعد رحيل أختها زانانى، إلا أن وطنها أصبحت أشد بعد وفاة زوجها. فلم تكن زانانى قد شفيت تماماً من ميكروب الغناء، وبعد أن عانت من أجل تسجيل الأغنيات لحساب شركة باتى، فى محاولة منها لقتل إحساسها بالحنين لإسطنبول، أقنعتها المطربة الشهيرة إيفثاليا، التى كانت أثناء قيامها بجولات غنائية فى أوروبا، بالعودة مرة أخرى إلى موطنها.

لقد دفع الفراغ الذى تعيشه روكسانى - باعتبارها أرملة ثرية - لإرسال خطابات ساخنة إلى إيفيت بعد فترة طويلة من الصمت. وفى خطابها الأخير كتبت لها قائلة: الآن فقط يمكننى أن أشعر بمدى الجرح الغائر الذى سببه لك رحيلى من منزل مصطفى باشا ومضايقات جموع الزبائن الذين انتشوا بغرامى^(*)، الآن أشعر فى كل لحظة بوجودك الخفى بجانبى، أشعر بجسدي وكأنه يزين فراشى فى مدينة النور، أبحث عن الحب من جديد بنعومة ورقة، بدون مغامرات أو استعراض للقوة. فى مدينة النور أبحث عنك.

وفى اليوم التالى أرسلت إيفيت إليها تلغرافاً تخبرها فيه بأنها قد حجزت التذاكر إلى مارسيليا على إحدى عابرات المحيط تسمى (Messageries Maritimes): إنى قادمة إليك يا باريس، إنى قادمة إليك يا حبيبتى، هكذا اختتمت إيفيت تلغرافها المختصر (الذى كتبه بالفرنسية) بطريقة شعرية. كان الجميع يشعر بالسعادة تجاه قرارها هذا، الجميع عدا إلياس الذى أبدى تدمره بعد أن ألقى على كاهله فجأة كل تلك المسؤوليات. وكان لقاؤهما فى شقة مصطفى باشا عشية سفرها عاصفاً.

إلياس: «هذا ليس قراراً سليماً» (قالها بالفرنسية) لا يمكنك أن ترحلى دون سابق إنذار» كان هذا هو أول رد فعل للبنانى.

- «ولما لا؟» (قالتها بالفرنسية) لم أكن أعرف أننى كنت أسيرة»
- «لست أسيرة. ولكننا ببساطة أقمنا هذا العمل هنا، "أليس كذلك؟" (قالها بالفرنسية) لا يمكنك إذن أن ترحلى فى أى وقت يحلو لك».
- «كفاك تظاهراً!» (قالتها بالفرنسية) طوال تلك السنين تعيش حياتك دون أدنى اهتمام بأى شىء، طالما لديك إيفيت المغفلة التى تهتم بكل شىء. جاء الوقت لترعى بنفسك قليلاً هذا العمل القذر. وما الذى يعنيه شهر واحد فقط أمام عشر سنوات قضيتها هنا».
- «اللعة!» (قالها بالفرنسية) ومن الذى يؤكد لى، يا سيدتى، إنك لم تعدى العدة للهرب من الإسكندرية، بعد أن حصلت على كل ما تريدينه منى ومن عشيقك العجوز. وترجلين الآن لتسعدى بحياتك سعيدة مع حبيبك فى أوروبا. أم تعتقدين أننى لا أعرف أن روكسانى ترسل إليك بخطابات.....».
- «لديك الواشين المتربصين بى إذن؟».
- «بكل تأكيد» (قالها بالفرنسية)، لكن لابد أن تعرفى أنها ستمل منك مرة أخرى وستتركك وأنت فى شدة الدهشة، ولكن عندما تفعل ذلك فمن الأفضل أن لا تعودى إلى الإسكندرية».
- «يا لك من غبى!» هكذا صاحت (بالفرنسية)، ثم ألقت بالكأس الكريستال المعبأة بشرابها المفضل، فتحطمت الكأس فوق الحائط وانساب الشراب الأحمر الداكن وهو يرسم شكلاً غير واضح المعالم، بينما كان يسيل تجاه السجادة ببطء.
- فوجئ إلياس بردة فعل إيفيت الجنونية، ولكنه سرعان ما ضحك ساخرًا. وفرك يده اليمنى فوق المائدة، وكأنه يستعرض الحجر الكريم المثبت فى خاتمه وقال:
- «آخر مرة وطأت فيها قدمائى فى القفلا، قمت بإخراجك من مشكلة، إذا كنت تذكرين. أردت فقط أن أقول لك إنى سأظل بجانبك دائماً، وقتما تكونين فى حاجة إلى».

أحست إيفيت لأول مرة بحاجتها لتوضيح الأمور. كانت تشعر بأن اللبناني، "زير النساء"، قد سرق منها روحها طوال تلك السنين من أجل خدمة مصالحه؛ منزل شارع مصطفى باشا، المخابرات، وجودها أسيرة فى شقة شارع السلطان حسين. كل ذلك لم يكن ضمن العهود والمواثيق التى قطعها على نفسه يوماً فى باريس. وبالقطع فقد نسى كل ذلك عندما ألقى بها فى أحضان جاكو، ثم فى أحضان خاراميس، أو عندما أجبرها أن تستسلم للرغبات الجبرية لضابط الشرطة فريد. كانت ترغب فى أن تبوح له بكل تلك الأمور، ولكنها صمتت، ربما بسبب كبريائها، ولكنها قالت ببساطة:

«وأنا أردت أن أقول لك إن أنطوان ليس عجوزاً، أما بخصوص روكسانى، فكان يجب أن تفهم ما الذى تقدمه لى ولا تستطيعون أنتم - معشر الرجال - تقديمه لى. أفهمت؟».

ربما لم يستطع إلياس أن يدرك كيف كانت تشعر بالفعل كل تلك السنين، ولكنها على الأقل ربما عرفت كيف تضرره فى المكان الذى يؤله، محتفظة دائماً لنفسها بالتفوق عليه فى لعبة المشاعر. وقبل أن تبدأ رحلتها إلى الشمال الفرنسى، تحركت إيفيت بطول الساحل الأزرق (دونها بالفرنسية) حتى تلتقى ماريانثى فى قرية صغيرة فى أعماق التلال الخضراء بمدينة نيس. كانت المصحة النفسية التى تقيم بها أشبه بمتحف للمرضى النفسيين من البشر، وهو ما لم يعجب إيفيت بأى حال من الأحوال. أما ماريانثى فكانت تبدو سعيدة. لكنها عبرت عن حالها بقولها:

«إنه نوع من الموت. فهنا، نحن جميعاً موتى ولكن بشكل مؤقت، أستطيع إذن أن أرافق بانايوتيس، لست نادمة على ما حدث. الحب يتطلب التضحيات، يا إيفيت، هذا هو كل ما فى الأمر» (قالتها بالفرنسية).

أخذت إيفيت تنظر إلى ماريانثى فوجدتها ترتدى ملابس بسيطة، فقيرة تقريباً، ترتدى رداءً أبيض وكأنها مبعوث الحب. أين ذهب إذن تاج الجمال الذى كان يزين هذه المرأة التى تبعت خطوات الحب الأبدى؟ إنه لمن المميت أن تحب شخصاً بهذا القدر. ومن الغريب أن تحاول بهذه الطريقة أن تملأ فوق الخيانات ومشاعر الغيرة.

فقط لو يقبل الشيطان أن يعفر نفسه بتراب الخير، فقط لو يقبل كل ميت تخليصه من ذنوبه إلى الأبد . هذا هو كل ما تبقى لدى إيفيت من شعور، بينما كانت تودع ماريانثى من السيارة، كانت تعتقد أنها تودع شخصاً ميتاً. حتى إعانتها لها كانت تحمل شيئاً من إحساسها بعدم الأمان تماماً مثلما حدث من قبل. لهذا فضلت إيفيت بعد ذلك مباشرة أن لا تفكر سوى في باريس.

لم تكن باريس التي وجدتها إيفيت تشبه باريس التي تركتها، شىء طبيعي، طالما أن المدينة - تماماً مثل الإنسان - يمكن أن تصبح مختلفة خلال عشر سنوات، وبخاصة إذا كانت طرفاً في الحرب. كانت جحافل المهاجرين الذين احتلوا مونمارترى ومونبارنا في بداية الثلاثينيات قد أثرت على فلسفة المغامرة. إلى جانب ذلك، فقد أطلت الشمس على غير العادة في ذلك الوقت وأشرقت فوق نهر سيكوان، وكان إشراق الشمس في شهر نوفمبر أمراً نادر الحدوث، مما أثار ضيق إيفيت بشدة، إذ كانت ترغب بشدة في استعراض المعطف القرو الذي اشترته من محلات سيستوفارى.

وزعت إيفيت وقتها خلال الخمسة عشر يوماً بين شارع بويس، حيث يوجد منزل روكسانى وكذلك محل المجوهرات، وبين نشاطها القديم المحبب إلى قلبها؛ وهو التريض على ضفاف نهر سيكوان، ثم تقضى بعض الوقت فى أحد مقاهى شارع سان جيرمان. وفى المساء كانت تستمتع بالذهاب إلى كباريه مونمارترى، تروى جسدها بجرعات من الخمر وعروض الراقصات شبه العاريات. لم تكن نغمات الجاز الحاملة التى يعزفها عازفو أمريكا السود تسيطر على درجات السلم الموسيقى فقط، ولكن أيضاً على شخصيتها.

فى اللحظة التى كانت تغوص فيها فى أحضان روكسانى، تذكرت الراقصات العاريات الممشوقات^(*) مثل خشب الأبانوس؛ يدرن بطريقة تداعب مشاعرهم المخدرة، وكانت ألحان الجاز الثورية التى لا يزال صداها فى أذنيها تعطىها رغبة أكبر فى الارتواء فى أحضانها. أما الأرملة - روكسانى - فكانت لها طريقته التى نقلت بها نفس الجو الموجود بمنزل شارع مصطفى باشا إلى ذلك المنزل الباريسى العتيق. حتى

يبدو وكأنها مستمرة فى علاقتها التى بدأت منذ زمن مع إيفيت، مديرة المنزل السابقة، التى كانت تتأرجح فوقها كما لو كانت تتأرجح فوق انحناءات الكتبان الرملية بالصحراء الأفريقية. كانت روكسانى بالنسبة لإيفيت كالبلسم الذى يشفى الروح، وهو شعور يختلف عن شعورها عندما تهب جسدها للرجال^(٥) لكنها مع حلول الفجر كانت تنهياً لإبعاد كابوس الليلة السابقة عن مخيلتها، ومع أول ضوء للنهار وجدت نفسها نائمة منهكة إلى جوار جسد امرأه عاري تماماً، وعندئذ جال بخاطرها كلام إلياس الذى عبر من خلاله عن مدى بغضه للنساء السحاقيات اللاتى «يخلعن ملابسهن وتعلق الواحدة منهن الأخرى مثل الأبقار». عندئذ كانت تشعر بشعوره، وتشاركه فى هذا البغض لما اقتربته من إثم، حتى إنها كانت على استعداد للهرب بدون تأخير من هذا المنزل الملعون، لكن سرعان ما كان يداهمها النوم اللذيذ. هبت لفحة من الهواء الساخن فوق التلال الرملية الساحرة، حتى الأفق المشوش، والتى كانت تذكرها بريح "الخماسين" (نكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) التى كانت تهب على الإسكندرية، مما جعلها تغلق عينيها. وأخيراً تستسلم للنوم.

عندما استيقظت إيفيت فى وقت متأخر من الظهيرة، شعرت بصدا ع خفيف يدق رأسها بسبب الإفراط فى شرب الخمر، ووجدت نفسها بمفردها على الفراش الوثير، مما منحها إحساساً خادعاً أن كل ما عاشته فى الليلة الماضية لم يكن سوى أضغاث أحلام، أو أن ما حدث كان من وحى خيالها، أشياء من الممكن أن تكون قد حدثت ولكنها لم تحدث بالفعل. لهذا، عندما كانت تنظر إلى عيني روكسانى الحاملة، كانت تشعر بالضيق لبعض اللحظات، رافضة أن تتقبل ما حدث فى الليلة الماضية. لكنها بعد عدة أمسيات تعاود الكرة وتبدأ من جديد فى لعبة المطاردة مع عشيقته الصغيرة روكسانى من مقهى إلى آخر ومن محل حلويات إلى آخر. استمرت روكسانى فى التهام كميات كبيرة من الشيكولاته، وبدلاً من الشيكولاتة التى كانت تتناولها فى مطعم "بورديو" أصبحت تلتهم الشيكولاته الفرنسية الشهيرة. وفى أحد اللقاءات المسائية أخبرتها روكسانى بأنها تعتزم بيع المنزل ومحل المجوهرات، وعندئذ سألتها إيفيت:

«وماذا ستفعلين؟».

روكسانى: «سأعود مرة أخرى إلى الإسكندرية أو سأفتتح معرضاً فنياً. هنا فى باريس، لا يوجد شىء ذو قيمة عالية مثل الأعمال الفنية».

كانت إيفيت فى كل مرة تسمعها تتحدث بهذه الطريقة، تمسك برأسها من الدهشة.

إيفيت: «احترسى من الفن يا صغيرتى» هكذا حدثها (بالفرنسية)، ثم أردفت قائلة: «فالفن مضاربة غير محسوبة. كثير من الناس يستثمرون أموالهم فى الفن، القليل منهم أصبح بالفعل من الأغنياء، "ثقى بى" (قالتها بالفرنسية)، لقد عشت كل هذا من قبل».

لم تكن إيفيت ترتبط بشارع بويس فقط من أجل علاقتها بروكسانى. لكنه كان يربط كل خيوط حياتها. فهل يمكن لأحد أن يتخيل أنه على بعد ثلاثة مبان فقط من منزل الأرمينى يقع معرض الفن الخاص بوالدة إيفيت.

كان والد إيفيت، موريس شانتون، المهاجر السويسرى، قد ترك عمله المبشر بمستقبل مشرق فى سلك الحماماه حتى يكرس حياته للفن، وفى العقد الأخير من عام ١٨٨٠، حضر إلى باريس باحثاً عن المجد. أما أمها، سيمون لابين - المعروفة بين المحيطين بها باسم "الأرنبة الصغيرة" على الرغم من أن اسمها المستعار ربما كان "البطة القبيحة" - فقد وقعت فى حب أبيها بعد أن أسرها بأسلوبه الرقيق وبالأخيلة البيضاء فى شعره الأشقر، فتزوجته على الرغم من معارضة أهلها. ومنذ الشهر الأول من الزواج أدرك موريس أنه يئن تحت وطأة التزامات الزواج، فقرر أن يعيش بطريقة بوهيمية. فى تلك الأثناء كانت سيمون تنوب به عشقاً، فتقبلت بسهولة فكرة الحياة التى اختار زوجها السويسرى أن يعيشها. كانت إيفيت منذ صغرها تكره الفن وتشعر بالغضب عندما تتذكر بعض المشاهد التى حدثت لها فى الحياة، مثل ذلك المشهد الذى كانت أمها تجرها فيه جراً - وهما يصعدان تجاه شارع رافينسيان، فى قلب مونمارترى،

لكى تقولاً "صباح الخير" (قالتها بالفرنسية) لأبيها العظيم. فى ذلك الوقت كان موريس يعيش ويرسم فى صومعة فنية أصبحت تعرف باسم باتو لافوار. ثم أتبع ذلك بإقامة معرضين فنيين فى صالة العرض الخاصة بوالدتها، ولكنهما سجلا فشلاً ذريعاً. واجه المهاجر السويسرى وأبلاً من سهام النقد وتجاهل الجمهور. وفى غمرة شعوره بالأزمة، أدرك أنه لا يملك الموهبة. لقد دمر نفسه وحياته وزوجته وطفلته. ولأنه لم يجد من يعاقبه على ما فعله، فقد قرر أن يعاقب نفسه وأن ينتحر بطريقة استعراضية. فيقال إنه أخذ يرسم فوق قطعة من القماش الأبيض بدماء شرايينه - التى كانت - تسيل لوجته الفنية الأخيرة التى كانت تعبر عن رغبته فى مغادرة الحياة بإرادته. وبسبب هذا العمل فقط قام زملاؤه بوداعه باعتباره فناناً حقيقياً. فى نفس الوقت توقف معرض الأم الفنى، ثم لحقت سيمون بزوجها بعد عام واحد من موته بعد أن أصابها الضعف والوهن. أما إيفيت - تلك الفتاة الحسنة التى بلغت الثامنة عشر من عمرها - فكانت تعاني من الإفلاس، وبعد أن أصبحت حرة كان عليها أن تكافح ضد المستقبل المجهول.

روكسانى: «تكرهين الفن إذن؟» هكذا سألتها روكسانى وهى تداعب بملعقتها شراب الشيكولاتة الذى أمامها.

إيفيت: «لا يمكنك أن تتخيلى مدى كراهيتى له».

- «يا لها من تعاسة كبيرة أن يكره أحدهم الفن - عالم بدون فن....».

- «سيكون أفضل بلا شك» (قالتها بالفرنسية)، فكرى فى عالمى بدون كل هؤلاء المتحولين المتكبرين، هؤلاء الفنانين الكسالى، عديمى القيمة، الجشعين، الذين يأكلون أموال الناس بدون وجه حق».

- «إن عالمًا بدون ذلك الجمال الذى يقدمه لنا الفن سيكون كالجحيم، صدقيني يا إيفيت» (قالتها بالفرنسية)».

- «لكن ما الذى ستفعلينه بجمال الفن عديم الروح، عندما تلتفت حواك مخلوقات مثلك».

وفى لحظة نضج مفاجئة قالت روكسانى:

«رغم أن جمالى، وجمالنا، على عكس هذا الفن عديم الروح، كما تسمينه، فإن جمال الفن» (قالتها بالفرنسية) يظل يافعاً للأبد، وفى كل الأحوال» (قالتها بالفرنسية)، هذه الكلمات كأنها الكفر فى عاصمة الفن، فى المدينة التى جعلت من الفن أسلوب حياة».

- «وماذا بعد يا صغيرتى» (قالتها بالفرنسية)، إذا كانت باريس هى عاصمة الفن، فلا أريد أن أكون باريسية، أنا التى ولدت فى هذه المدينة أرفضها أمامك اليوم».

- «أكرهين باريس، حقاً؟».

- «نعم أكرهها» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «مثلما تكرهين الإسكندرية؟».

- «أنت مخطئة فى ذلك، فأنا لا أكره الإسكندرية، لكننى فقط أخاف منها. إنها قصة يرويها الأوربيون، حيث يقولون إنه سيأتى وقت ينهض فيه هؤلاء الذين يرتدون الطرابيش والجلاليب وعندئذ..... من رأى الله» (قالتها باللغة العربية وهى مدوّنة بحروف يونانية) ولم يخشهُ فليتحمل ما لا يحمد عقباه. فى هذا الشأن كان المرحوم الأرمينى سيعطيك فكرة عندما يحدثك عن زميرنى. لهذا أقول لك، لا تفكرى أبداً فى العودة إلى هناك».

- «إذن فلماذا تبقى أنت هناك؟».

- «أنا! قلت لك من قبل إننى أكره باريس، أكره الفن، أما الإسكندرية فعلى الرغم من أننى أسيرة بها فإنها تقدم لك الحلو والمر، السم والترياق معاً. أه يا جميلتى روكسانى، كم كنت أود أن تشعري بى».

كانت روكسانى كلما سمعت ذلك، تطأطئ رأسها وكأنها فى حالة إحباط من نفسها، كانت تفتقد السيطرة على نفسها باعتبارها أرملة ثرية، وتذكر إيفيت بروكسانى

التي عرفتھا منذ زمن: ذلك الموديل العارى، الراقصة (بونها بالفرنسية) فى قهوة شانتان التركية، البغى بمنزل شارع مصطفى باشا. ظهرت مرة أخرى تلك البقعة الوردية على وجنتيها، وكأنها تخلصت لوهلة من عشر سنوات ألقاها على كاهلها الزمن، فى النهاية، هكذا أرادت أن تتذكرها. فالمرأة التى تجلس أمامها لم تكن تعنيها، لكنها ببساطة كانت مخلوقاً هادئاً يبحث عن معانٍ مجهولة فى الحياة. كانت مسألة وقت حتى تصل إلى تلك المعانى وعندئذ كانت ستتركها مرة أخرى. أما مدام إيفيت، مديرة المنزل بشارع مصطفى باشا، فقد تعلمت كيف تحمى نفسها جيداً. بتلك الأفكار تركت أرملة سيمون كريكوريان باريس- أرض المهاجرين الأمريكيين- وأبحرت إلى الجنوب، إلى قيينا، بلدة شينبرج وفرويد، حيث كان ينتظرها الجانب الآخر من حياتها، حبها الخالد أندونيس خاراميس.

* * * * *

كانت رحلة أوربا قراراً صائباً بالنسبة لأندونيس، ليس فقط بسبب حبه للتجول فيها، ولكن أيضاً لأنه رحل مدركاً أنه ذهب وترك خلفه جراحاً مفتوحة تخص عمله، وأخرى تخص منزله: كانت جريمة السرقة تهدد مستقبل زوجته كما تهدده هو شخصياً بفضيحة فى المدينة؛ والأسوأ من ذلك اكتشافه أن سماتيس، المكلف بملاحقة أفعال زوجته المخزية فى محلات الإسكندرية، لص كبير بشكل يفوق زوجته. ولذلك فقد تولى سائقه - محمود - دور الملاك الحارس لزوجته، والله المستعان! أما بالنسبة للثعبانين يورغوس وميخيليس، فقد قرر أن يقطع ذيلهما عن طريق زيادة نشاطهما الاستشارى وإمضاءاتهما التى ستكون موقعة على الأوراق الخاصة بالشركة. وعندما يعود بسلامة الله إلى الإسكندرية، سيكون قد سوى معهما حساباته إلى الأبد.

فى تلك الأثناء، لم تكن مشكلاته مع خصومه كافية، بل كان لازماً عليه الآن أن يواجه خصمه اللدود فى أوربا؛ فهناك كميات هائلة من السجائر التى لم تكن تصنع فى مصر يتم بيعها على أنها إنتاج مصرى، مشوهين بذلك سمعة جودة إنتاجه فى

السنين الماضية. فى نفس الوقت، أوضحت الحكومة المصرية، بطريقة ما، مدى قصر نظرها فى السياسة الضريبية للدولة، ولم تقرر أن تمنح صانعى الدخان " العائد (ذكرها بالإنجليزية) من ضرائب التصدير، ولكنها قررت أن تعيد فارق الضرائب عن السجائر التى يتم استيرادها. كانت هناك طريقة واحدة فقط من أجل التغلب على هذين العائقين: وهى العمل على تأمين تعاونه مع بيوت التجارة العالمية التى كان يمتلكها اليونانيون من مواليد مصر، والذين يقومون بنشاطاتهم فى الخارج. لقد أحس من خلال تلك الرحلة أنه قد فتح لنفسه نافذة جديدة على العالم. كانت محطته الأولى فى عاصمة ساكسونيا، دريسدين. ذهب إليها لى يتأكد من أنه يستطيع التعاون مع خلفاء باتايوتيس باباستاثيس من أجل تسويق ماركة جديدة من السجائر، ولكنه أصيب بالإحباط: حيث قامت العائلة ببيع المصنع بعد موته مباشرة وعادت إلى اليونان، أما الملك الجدد فلم يبد أية رغبة فى أى نوع من التعامل.

عندئذ قام بالاتصال بكوستيس وطلب منه تحديد موعد مع أبناء موراتوغلوس فى برلين. فقد كانت السجائر من ماركة "موراتى: Muratti" تتنافس لسنوات عديدة مع سجائر "خاراميس: Charamis" فى أوروبا، وكان أندونيس يأمل فى توقيع اتفاق معهم. كان كوستيس ينتظره على محطة القطار وقاده مباشرة إلى مكان اللقاء، لكنه أخبره فى نفس الوقت بأن هناك مفاوضات قد بدأت بالفعل لبيع الشركة، وانحصر كل شيء فى مجرد لقاء للتعارف لم يستغرق أكثر من نصف ساعة. عندئذ أصبح لديهم متسع من الوقت على مدار اليوم لى يتحدثا معاً كأب وابنه. ولحسن الحظ، كان لدى أندونيس مشكلات أكبر من مجرد التفكير فى دراسة ابنه المتعثر.

أندونيس: «كيف تغيرت إلى هذا الحد؟ لقد أفزعنى أن أربط بين هذا الرجل الوسيم الذى كان ينتظرنى على محطة القطار وبين ابنى الصغير. طوال تلك السنوات لم ترسل لنا أية صورة تخصك. كانت أتمنى أن تكون والدتك معنا حتى تفخر بك، تعرف ذلك بالطبع، وأتخيل كم تفقدك».

- كوستيس: «لم أكن قط نقطة ضعف بالنسبة لها» قال ذلك كوستيس وهو يشعر بالمرارة.
- «لكنك كنت نقطة ضعفى أنا، أيها الشقى الصغير» قال ذلك أندونيس وهو يربت على شعره. أدهشت تلك الحركة كوستيس بشكل ضايقه، فهو لم يعتد من أبيه على هذا النوع من الملاحظات. ثم استكمل أندونيس حوارهِ قائلاً: «أين شاربك؟».
- «شاربى؟ لكن يا أبى الشارب ليس هو "الموضة الآن" (قالها بالفرنسية)».
- «لماذا تقول ذلك؟» قال ذلك أندونيس وهو يداعب شاربه، ثم أردف قائلاً: «إننى أرى العديد من الشباب فخورين بشواربهم، فهذا شارب ضخّم، وذاك شارب حاد ولكنه شارب. أطلق شاربك، يا بنى، سيكون لائقاً عليك» قالها والده ناصحاً.
- «سوف أطلقه، يا أبى، أعذك فى المرة القادمة أن تجدنى وقد أطلقت شاربى»، عندئذ انخرط الرجلان فى الضحك بعفوية بعد أن فهم كل منهما الآخر. كان الوالد معجباً بشخصية ابنه الجريئة، وكان الابن معجباً بصراحة أبيه.
- «هل ما زالت تلك المرأة (جيهان) ترسل إليك خطابات يا كوستيس؟» هكذا سأله والده بشكل مفاجئ بعد أن مرت على وجهه سحابة كآبة.
- «كلاً، بالطبع» هكذا أسرع بالرد مهدئاً أباه، ثم قال: «كيف راودتك هذه الفكرة الآن يا أبى؟ إنها قصة قديمة، ما الذى تسعى إليه حضرتك؟ ولماذا تنبش فيها؟ حقيقة أنا لا أذكر هذه المرأة الآن على الإطلاق».
- «عندما تحدثنى بلهجة الاحترام هذه، يا بنى، أعتقد أن شيئاً ما يجرى».
- «أنا على يقين من أن هذا الحب الفاشل كلف أسرتى غالياً، وبخاصة أنت يا والدى، ولهذا فمئذ خمس سنوات وأنا أعاقب نفسى على هذا الخطأ فى هذه المدينة القاتمة الكئيبة».
- أندونيس: «أنت تبالغ كثيراً، فلا تبد أمامى باعتباره إنساناً يعاقب نفسه. أما بالنسبة لهذه المدينة فهى شئ آخر غير أن تكون قاتمة وكئيبة».

كانت عين خاراميس الخبيرة تستطيع أن تشعر بمستقبل برلين الجديدة، وكانت الشمس الساطعة فى تلك الأيام تستطيع أن تخذع بسهولة أى زائر للمدينة.

- «ما وجهتك التالية، يا أبى؟».

- «ماذا! أرى أنك تتعجل لكى تتخلص منى أم ترانى مخطيء فى ذلك؟».

- «حاشا لله، ولكننى أعرف أنك جئت إلى أوروبا من أجل العمل لا المتعة».

- «نعم، غالباً للعمل» أجابه أندونيس وذهب عقله إلى إيفيت، ثم استكمل حديثه قائلاً: «فى صباح بعد غد، سأسافر إلى ميونخ لكى أرى أخاك ماخوس».

- «أخى! لقد أصبح رجلاً بمعنى الكلمة، كما أصبح شاباً مميزاً، إنهم يتحدثون فى برلين عن جماله».

- «كلام لا يجدى، فجمال الرجل ليس كل شىء» هكذا علق أندونيس بكلمات لها مغزى.

ماذا هناك؟ هل علم شيئاً؟، هكذا حدثت كوستيس نفسه.

- «سوف أذهب إلى ميونخ، ربما ألحق ببعض العمل، فقد انتشرت بعض الشائعات بخصوص تعاون يونانى - ألمانى، على أن تكون قاعدته فى مدينتى ثيسالونيكى وميونخ، لإنتاج بعض أنواع السجائر الفاخرة التى ستخصص فقط للسوق الألمانى. ما قولك إذا ما استطاع والدك أن يجعله مثلاً بإضافة الإسكندرية فى نفس اللعبة؟».

- «إنها فكرة طيبة، يا أبى».

كان أندونيس يتذمر من النظام الغذائى الألمانى الذى كان يبذله ثقيلاً فى ذلك المساء، ولذلك فقد قرر هو وكوستيس العودة معاً مترجلين إلى الفندق، فاتجها ناحية الغرب وتابعا سيرهما فى شارع "أودين دير ليدين" باتجاه ميدان "باريزير" وفندق "الدون". لم يخطر ببال كوستيس مطلقاً أن يحجز لأبيه غرفة فى فندق "قيصر"،

ولا سيكون ذلك بمثابة الدمار الشامل بالنسبة له إذا ما اكتشف أبوه نوع الحياة التي يعيشها ابنه الصغير. ثم مرا من مدخل فندق "الدون" ودخلا إلى قاعة الاستقبال الواسعة ذات الأعمدة الضخمة المصنوعة من الرخام الداكن. أصر أندونيس أن يحتسبا معاً كائناً من البيرة ولم يجد كوستيس ما يمنع من تلبية دعوة أبيه. اتجها ناحية البار الذي كان يعج بالصحفيين والدبلوماسيين.

«فلتنتهيا من دراستكما وتعودا الواحد تلو الآخر إلى مصر. المصنع بحاجة إليكما» هكذا تحدث أندونيس في اللحظة التي كانا يقرعان فيها أكوابهما، على الرغم من أنه لم يكن على ثقة من أن كوستيس سيفعل ذلك قريباً؛ فطوال تلك السنين التي عاشها بجوار أبيه لم يكن قد أدرك جيداً ذلك القلق وتلك المضايقات اللتين كان يعاني منهما أى شخص يقوم بهذا العمل. أخرج نفسه لفترة وجيزة واتجه بفكره بعيداً عن تلك الحياة الخاملة في برلين، ووضع كل ذلك فوق مقعد مدير المصنع. وعلى الرغم من المشهد الحالم لترعة المحمودية الذي كان يراه من مكتبة، فإنه لم يستطع أن يستبدل حياة الشهوانية التي يحيها في العاصمة الألمانية. وعلى الرغم من كل ذلك فقد أدرك في تلك الليلة أن كل شيء في عالم المال ليس مستقراً. قدم موظف الاستقبال الليلي في فندق "قيصر" تلغرافاً لكوستيس من الإخوة كريادزى - وهم تجار دخان يونانيون مصريون. نما إلى علمهم أن أندونيس موجود في ألمانيا، كانوا يعدون العدة لافتتاح مصنعهم الجديد في مدينة هامبورج. فوجهوا إليه الدعوة للقيام بجولة في مصنعهم. وفي الحال قام كوستيس بالاتصال بأبيه وأطلعه على المستجدات.

«أنفى تشم رائحة تعاون، سأذهب إليهم إذن» قال ذلك أندونيس دون أن يتردد، وأعجب كوستيس بحزم والده. " إنه يبلغ الآن من العمر ستين عاماً ولكنه ما زال منفتحاً على الحياة. ربما كان هذا هو سر نجاحه "، هكذا جال بخاطر كوستيس.

وفي اليوم التالى رافق كوستيس والده إلى محطة القطار وحرص على اصطحابه حتى يركب القطار السريع إلى هامبورج. وبمجرد أن شاهده وهو يشير إليه من نافذة

الدرجة الأولى زفر كوستيس زفرة تعبر عن إرتياحه. لكن أندونيس لم يتوقف عن مفاجأته حتى قبل رحيله، حيث قال:

- «ألا تخجل من نفسك وأنت تدخن سجاائر ماركة "موراتي" أمام أبيبك. مضى يومان وأنا أنظر إليك نظرة ذات معنى وأنت لا تفهم».

أسرع كوستيس وألقى بالسيجارة التي لم يكن قد أشعلها من يده، وأتبعها بإلقاء علبة السجاائر ذات الطبقات الثلاث، قائلاً:

- «معك حق، يا أبى، معك حق بكل تأكيد. حقيقة أنا لم أفكر فى ذلك».

* * * * *

فى نهاية الحرب العالمية الأولى وجدت هامبورج نفسها وقد فقدت أسطولها التجارى الضخم الذى يتعدى ١٤٦٦ سفينة، كما تم تدمير أرصفة الشحن والتفريغ الجديدة وحضانات السفن على الضفة الشمالية لنهر ألقا بأبنيتها التى كانت رمزاً لعظمة ألمانيا. كانت كل علامات الخزى من الهزيمة واضحة فى تلك المدينة التى لم يكن يظهر فيها سوى قمم أبراج الكنائس الخمس التى تعانق السماء. وكان أول ما جال بفكر أندونيس وهو يواجه الميناء ببحره الساكن على امتداد الأفق المفتوح داخل المحيط: "أهذا إذن هو أكبر الموانئ فى ألمانيا؟ لكن أى ميناء هذه الذى يطل على ما يشبه البحر".

أما الإخوة كريادزى فقد جلبوا معهم بعضاً من غلظة اليونانيين المصريين إلى المدينة. وكانت مصانعهم فى شارع هويلوف تشبه بشكل جيد فندقاً فاخراً وليس مجرد مصنع. عبر أندونيس من البوابة بمظهر أكبر رجل لصناعة السجاائر اليونانية فى مصر وخرج وهو يحمل بين يديه عرضاً رائعاً ينص على: "أن يتم التعاون فيما بينهما لإنتاج اسم جديد سيكون بمثابة التاج فوق جميع السجاائر بالسوق الألمانية". وإلى جانب ذلك فقد دار النقاش بينهم حول موضوع المنتجات المصرية المزيفة من الدخان التى غزت الأسواق الأوربية. واتفقوا على أنه بدون تعاون الحكومة المصرية فلن يستطيعوا

التوصل إلى نتائج طيبة. ثم اختتم هذا الاتفاق بعشاء رسمى فى أرقى مطاعم المدينة، فى واحد من الأماكن المميزة فى هامبورج، كما قيل لأندونيس، حيث يقدمون اللحم البقرى منزوع الدهون وأنواع النبىذ عالية الجودة. داخل هذا المطعم يجلس عدد كبير من كبار السن الذين كانوا يعرفون كيف يعيشون. وإذا ما سار كل شىء بشكل جيد، سيتم توقيع العقود فى القاهرة، وهو ما يعنى دخول أندونيس مرة أخرى بقوة فى لعبة السجائر الفاخرة فى أوروبا. وكنوع من تبادل المصالح فقد قرر الإخوة كريادزى أن يتولوا إمداده بماكينات الصناعة الحديثة، التى تأكد أندونيس من قوتها بنفسه من خلال قيامه بجولة سريعة إلى ميلانو.

هكذا كانت المكاسب التى حصل عليها أندونيس من رحلته إلى ألمانيا عظيمة، وفى الوقت نفسه لم تجعله يحيد عن الطريق الذى اختاره. أما فى ميونخ، فقد حدث العكس، حيث صارت الأمور فى طريق آخر غير ذلك الذى خطط له. حيث كانت المفاوضات التى تهدف إلى تفعيل الشراكة اليونانية الألمانية قد اكتملت بالفعل، ولكن حتى هذه اللحظة، لم تتح له الفرصة لزيادة الشركاء. لم يزعج أندونيس من هذا الإخفاق بقدر انزعاجه من تجاهل ابنه الصغير له، ذلك الفتى الذى يبدو أنه كان يهتم بقضية الإفراج عن مواطن ألماني مصري يدعى رودولف أس، وهو سياسى محتجز فى سجون لانتسمبرج، أكثر من اهتمامه بوصول أبيه إلى المدينة.

أندونيس: «وما علاقتنا نحن، يا بنى، بهذا الرجل رودولف أس؟».

ماخوس: «إنه ابن فريتس فس، الرجل المشهور بالإسكندرية. لابد أنك تعرفه».

- «لم تكن لى علاقات أبداً بألمان مصريين. فى أى مجال يعمل هذا الرجل فريتس؟».

- «وفقاً لمعلوماتى، هو تاجر جملة يدير مؤسسة ناجحة لتجارة الجملة فى شارع فرنسا" (قالها بالفرنسية) فى المستوى الذى يسمح به الإنجليز للألمان المصريين لكى يكونوا ناجحين».

- «مثل خالك ثاناسيس إذن؟».
- «هذا نوع من التحقير، يا أبى».
- «أنا لا أحقر من شأن أحد يا بنى، لكنى ببساطة أحاول أن أفهم من هو هذا الرجل فريتس. وإذا لم تفهم والدك ولو لمرة واحدة، فهو أيضاً لا يفهمك، أليس كذلك؟».
- «لا يا أبى، أنت لا تعرفه، وسوف تتعرف إليه قريباً، كن على ثقة من ذلك».
- «ولماذا يجب أن أكون على ثقة من ذلك؟».
- «بالنسبة لنا نحن الشباب فلدينا قادة جدد لهم أفكار جديدة، رؤى جديدة للعالم. أما أنتم أيها الكبار فمن الصعب عليكم أن تفهمونا» هكذا أجابه ماخوس بذلك الكبرياء الذى عرف عنه منذ نعومة أظفاره.
- ويقدر ما كانت هذه التفرقة بين الشباب والعجائز ترتكز على أساس، فإنها كانت تفرقة قاسية بالنسبة لإنسان لم يبتعد عن مصاعب الحياة ولحظاتها السعيدة. لقد شعر أندونيس بكبر سنه أكثر من ذى قبل، وفى نفس اللحظة فكر كيف كان يشعر وهو يتحدث مع ابنه الأكبر كوستيس بأنهما من سن واحدة. ولذلك فقد تشجع وسأله السؤال التالى:
- «وماذا بالنسبة لكوستيس، فهو شاب مثلك، ولكنه لم يحدثنى عن كل هؤلاء؟».
- «أمير برلين!» هكذا علق ماخوس ساخراً، فسأله أبوه بلهجة شديدة:
- «ماذا قلت؟».
- «أبى العزيز، لماذا تصر على المقارنة بينى وبين كوستيس؟ لقد كان يصر دائماً على أن يظلم نفسه. كان يحب أن يصادق العامة من الناس، حقيقة لم أستطيع أن أتوأم مع الطريقة التى يفكر بها».

- «أحفظاً ما تقول، يا صغيرى، إذن ينبغي على أن أخبرك بأنك أنت نفسك تنتمى إلى هذه الطبقة من العامة» هكذا أجابه أندونيس وهو يشير إلى نفسه.

أما ماخوس ففي لحظة تعبر عن غيائه الشديد أجابه مجدداً:

«لحسن الحظ، إذن، أننى كبرت وأشبه أُمى تماماً».

- «ماذا أقول الآن: أنت..... أنت.....» هكذا صرخ أندونيس بشكل جنونى وهو يتطلع إلى النظرة البلهاء التى ارتسمت على وجه ابنه، وقرر أن يوقف نقاشهما.

وقبل أن يفترقا لم يفت الابن أن يقول له:

«يا أبى، إلى جانب اسم رودلف تذكر اسماً آخر، وهو أولف هتلر، الذى سيصبح معروفاً عما قريب!».

أما أندونيس فقد أجابه بكلمة من تلك الكلمات القليلة التى تعلمها فى ألمانيا:

«اللعنة» (قالها بالألمانية وكررها باليونانية).

* * * * *

أسبوع واحد فى قيينا قضاه أندونيس مع إيفيت، كان بمثابة الهدية التى كان أندونيس قد وعد نفسه بها منذ سنوات طوال بعيداً عن المضايقات والخطط والمخاوف من المستقبل. وصل إلى فندق "شاخر" (دونها بالألمانية) الفاخر الذى مازال يعكس مجد هامبورج البائد بآثاره باروكية الطراز، ولوحاته العتيقة من طراز القرن التاسع عشر المعلقة فى كل غرفة. وفى الجهة المقابلة كان مبنى الأوبرا يقف شامخاً أمامه، حيث كانت إيفيت فى كل مساء تستمع إلى الفنون الشعبية التى كانوا يقومون بعمل بروفاتها، وكانت من الأعمال الفنية المحببة لها. فى "مقهى" (ذكرها بالفرنسية) الفندق، كانت شابات قيينا الجميلات ذوات العيون الواسعة والشعر الداكن القصير الذى تم تسفيفه وفقاً لأحدث موضة (à la garçon)، كانت تلك الفتيات الجميلات يقدمن

الحلوى التى يشتهر بها الفندق وهى "حلوى شاخر" (ذكرها بالفرنسية) لأفراد الطبقة العليا فى المجتمع، تلك الحلوى الجميلة التى فكرت إيفيت فى أنها ستنال إعجاب روكسانى. بدأ شهر ديسمبر وبدأت فيينا تستعد لاستقبال أعياد الميلاد بحدائقها المكسوة بالجليد. لم يعد لتلك اللفات الصيفية التى عاشها فى باريس وبرلين أدنى أثر هنا فى عاصمة النمسا. وقد بدأت مظاهر الاحتفال بالفعل منذ الثامن عشر من نوفمبر. وقد استعدت محلات بيع الزهور بالزهور النادرة، وكذلك استعدت الأشجار المصفوفة على جانب الطرق بدورها لكى تصبح أدوات للزينة فى صالونات المنازل وقاعات الفنادق. وقفت إيفيت أمام واجهة أحد المحلات، وأشارت لأندونيس على أحد التماثيل الطينية التى تزين مشهد الميلاد، ثم قالت ضاحكة: «إنه أحد أقربائى» (قالتها بالفرنسية ثم كررتها باليونانية). ولأنه لم يفهم ما قالت، استكملت قائلة: «ألم تفهم؟ هذه التماثيل تسمى شانتون».

فى "محل بيع الملعبات" (قالها بالإنجليزية) توجد كل أنواع الفاكهة فى أغلفة فاخرة. وكانت المدينة كلها تحفها غلاف من الموسيقى الدينية لمؤلفين مشهورين مثل: هنديل، هاوون، موتسارت. وكانوا يستمعون إلى مقطوعات "المسيح" (ذكرها باللغة العربية وبونها بحروف يونانية) فى قاعة (Musikverein) الفاخرة. كانت إيفيت ترغب فى سماع كل تلك الألحان الدينية، أما أندونيس فقد أصيب بالسأم من مجرد سماع فكرة التنقل من قاعة إلى أخرى، لكنه فى النهاية إستطاع أن يقنعها بتعويض كل رغباتهما بقضاء ليلة فى الأوبرا، حيث يمكنها منافسة تلك الزينة والمجوهرات الفاخرة التى ترتديها نساء الطبقة الأرستقراطية فى فيينا. وفى البنوار الذى كلف أندونيس مبلغاً كبيراً من المال، إستطاع أن يستمتعاً بالألحان الجميلة لأوبرا "الهولندى الطائر" لقاجنر، وأن يعلق بنظرات وإبتسامات المحب للفن على هذا الجمهور الذى يبدى إحتراماً مطلقاً تجاه تلك العروض الحاملة فى مكان مثل هذا، حيث يحبس الناس فيه أنفاسهم. وربما تكون قلة الحركة لفترات طويلة هى التى أرهقت أندونيس أكثر من موسيقى فاجنر الرخيمة.

أندونيس: «ربما أكون قد كبرت فى السن، يا إيفيت ، ماذا أقول» هكذا قدم أندونيس اعتذاره فى النهاية.

إيفيت: «مستحيل» (قالتها بالفرنسية)، رجل مثلك مستحيل أن يكون قد كبر فى السن» قالتها هامسة.

كانت إيفيت تبدو سعيدة، تماماً مثلما كان يبدو جمالها متألّفاً، جميلة رقيقة فى ثوبها الحريري ومجوهراتها التى كانت تعانق الفراء الذى ترتديه. لم يستطع أندونيس أن يمنع نفسه من الفخر بمثل هذه المرأة التى لم تكن فى الواقع تطلب الكثير حتى تشعر بالرضا: فكانت تكتفى بجولة سريعة فى "شارع رينج" وصولاً إلى "ميدان ستيفان"، حتى يستمتعا عن قرب بتلك المسلة من الطراز القوطى للقديس إستيفانوس؛ تراها تبدى سعادتها كطفل صغير من منظر أهل قريتنا وهم يقطعون الشوارع بسرعة، ممسكين قبعاتهم فى مواجهة رياح الشمال الشديدة التى تهب على المدينة فى فترة عيد الميلاد، كانت تشعر بكل هذه السعادة فقط لأنها توجد بجانبه، بجانب أندونيس. أما أندونيس فكان يشعر بالتأثر تجاه إخلاصها له، رغم أنها كانت تناديه باسم أنطوان لأنها لم يكن باستطاعتها أن تناديه باسمه بطريقة صحيحة؛ لقد منحته لحظات فريدة من السعادة طوال تلك السنين، وأصبحت أكثر من مجرد عشيقة؛ إنها صديقة حقيقية يستطيع أن يعتمد عليها فى الوقت الذى كان الجميع - رجال ونساء - يشاركون ولو بقدر ضئيل فى خيانتته. كان يشعر بمدى اعتزازها به وهى بجانبه، فكانت تبدو هادئة مطمئنة؛ كان يشعر بمدى امتنانها له وهى ترتشف من حبه العجوز، كانت تمنحه الثقة بكل صدق فى كل موقف صعب كانا يواجهانه معاً. كان يشعر بأنه محظوظ لأنه يحظى بمثل هذه المرأة.

أما إيفيت، فمن ناحيتها، كانت تشعر بأنها حقاً سعيدة بوجودها فى مثل هذه المدينة، حيث تستمتع بالاستماع فى كل ركن منها لإحدى مقطوعات شوبرت أو موسيقى الفالس لشترواس. كانت موسيقا بيتهوفن الحاملة وعبقريات موتسارت تداعب أحلامها، تلك الموسيقى التى لا تشبه على الإطلاق ذلك الفن الفاسد فى باريس. كل شىء كان

يحمل الطابع الكلاسيكي، بقيمه المختلفة التى لا تستطيع أن تتجاهلها حتى لو كانت لديها الرغبة فى ذلك. أما فى مدينة النور المخادعة فكل شخص يعد عبقرياً، وقد تسبب عشق الفن فى إغلاق العديد من المنازل والقضاء على حياة العديد من الناس، على العكس من فيينا التى لم يكن شخص - مثل موريس شانتون - يجرؤ على ادعاء الفن، ولا يجرؤ على خداع أحد بموهبته الزائفة. إضافة إلى ذلك، فقد وصلت إيفيت إلى فيينا هرباً من عشقها لروكسانى، فقد أيقنت فى النهاية أن الحب ليس سوى مغامرة صداقة بين روحين تتطلعان إلى نفس الأفق. إلا أنها لم تعد تشعر بهذا مع روكسانى، وربما لم تشعر به مطلقاً. ربما كانت إحداهن تستغل الأخرى طوال تلك السنوات. لم تعد تحبها لأنها لم تعد تشعر بجانبها بالأمان. فامرأة فى مثل عمرها لابد أن تشعر بالأمان لكى تحب، وهو ما حدث بالفعل مع أندونيس. أو ربما لم يكن الأمر كذلك؟ ربما نكون مخلوقات متميزة، حتى مشاعرنا، على العكس مما يعتقد الكثيرون، ينبغى أن لا تتجزأ وأن يستمر الأمر هكذا دائماً، الأمر يستحق أن نتفحص فى كل مرة الحاضر، واضعين فى الاعتبار اختيارات الماضى. وبهذا نصبح سعداء، مرتاحى البال أبد الدهر فيما نحياه. لم يكن لدى إيفيت أدنى شك فى هذا، وكانت تبدى قدرات خاصة فى تحقيق رغباتها، وفى علاقاتها مع الناس، وكانت تتخلص بشكل تلقائى من كل ما يمكن أن يغير فكرتها عن نفسها. وأصبحت قادرة على تحقيق ذلك فيما يخص حياتها، ففى أعماقها كانت تحمل روحاً بريئة، لكنها لم تكن قديسة على أية حال، ولكنها إنسان نقى، شخص ساذج يسكن فى برجه العاجى، نسخة جديدة من موريس شانتون ولكن فى هيئة نسائية. بهذه القدرات استطاعت إيفيت أن تحيا بجوار رجل لم تفكر أبداً فى كل مرة من أين يأتى وإلى أين يذهب، فالأمر يحتاج إلى نفس بريئة تستطيع أن تتحمل تلك الحياة المزوجة لشخص آخر. غير أن أندونيس أثناء وجودهما فى فيينا، وبدافع من الثقة المتبادلة بينهما، كان قد ارتكب خطأ جسيماً، وكأنه يستنفر تلك الروح غير البريئة، عندما بدأ يتحدث فجأة وبدون سبب عن زوجته وأبنائه، مقدماً لها أبعاداً حقيقية لمخلوقات كانت حتى هذه اللحظة تبدو لها كأشكال غير واضحة المعالم. وكانت لهجة

وطريقة ماخوس فى ميونيخ هى الفتيل الذى أشعل غضب أندونيس الشديد، مما أعاقه عن الاستمتاع بجنة قيينا .

«أكلمنى هذا الشقى بتلك الطريقة!» أخذ أنطوان يردد هذه الجملة مرات عديدة. وعندما يغضب المرء تجده يتخلى عن حكمته بسهولة فى الحفاظ على سرية موضوعه؛ وفى محاولته تبرير غضبه الشديد، لم يتوقف أندونيس فقط عند ما حدث فى ميونيخ ولكنه تطرق إلى الحديث عن أفراد أسرته غير الجديرين بثقته - بداية من تلك الفضيحة الغبية التى سببتها قصة حب كوستيس لجيهان، أو عن أعراض الشذوذ التى بدت على ماخوس أو عن داء السرقة الخاص بذافنى - مما كان له عظيم الأثر على مكانته واحترامه " باعتباره رب أسرة " (نُونْها باللاتينية).

- «عزيزتى» (قالها بالفرنسية)، ليست لديك أدنى فكرة كم كافحت ومازلت أكافح. إذا ما جلست لكى أشرح لك يوماً من الأيام، بالقطع سأجعلك تجهشين بالبكاء» قال لها ذلك، ولكنه لم يحدثها أبداً عن حياته.

- «يا لك من مسكين. لابد أن الأمر كان مؤلماً» هكذا أبدت إيفيت ملاحظتها (باللغة الفرنسية)، وعندئذ تذكرت حديث إلياس عندما كانا معاً فى مدينة إسطنبول وقال لها بالحرف الواحد «كان أنطوان طفلاً فقيراً».

- «بالطبع كان كذلك!» (قالها بالفرنسية)، ثم بعد ذلك ماذا كانت كلمة الشكر؟ خيانتهم، نعم! أنت الوحيدة التى لم تسبب لى أى ألم، يا طفلى الصغيرة».

وبدلاً من أن تشعرها كلمات أندونيس بالرضا، شعرت بالفرغ. فلم يكن أنطوان المسكين يعرف مع من يتعامل! لكنها على الأقل لم تحاول أن تخونه مثل باقى أفراد أسرته، ربما لأنها لم تحتج إلى ذلك لكنها بالطبع لم تخنه.

فى تلك الأثناء، كان أندونيس، وكأته يعاند قدره المستمر فى القفز من موضوع غريب إلى آخر أغرب منه، فسألها بجدية:

«هل فكرت فى يوم من الأيام أن يكون لك طفل؟» هكذا سألها أندونيس وعندئذ انخرطت إيفيت فى الضحك. فاستطرد قائلاً: «ليس بالأمر المضحك!» قال أندونيس ذلك (باللغة الفرنسية) وهو يشعر بشيء من الإهانة.

- «سامحنى، لا أقصد السخرية. لكننى فقط أكره الأطفال. لم يصادف وتناقشنا فى هذا الأمر من قبل، لكن ينبغى أن تعرف أن هناك شيئين أكرههما فى حياتى: الأطفال والفنانين».

- «ولكن لماذا؟» (سألها بالفرنسية).

- «الأطفال يولدون لكى يعذبوا الكبار، أما الفنانون فيبقون دائماً أطفالاً».

- «هكذا إذن!» (قالها بالفرنسية).

عندما لا ينزلق أندونيس وإيفيت إلى مثل هذه المناقشات، يلهب العاشقان روحيهما بالحب الذى افتقدا أهميته بين جدران شقة شارع السلطان حسين. فى ظل هذه المشاعر الملتهبة كانت إيفيت تشعر بأنها قامت بمراجعة حياتها العاطفية. فعلى سبيل المثال، عندما تتولى حلالة ذقن أندونيس، وبينما تحلق شعره الأبيض الذى يمتد حتى رقبتة، كانت وكأنها تعود إلى أيام عشقها فى باريس، عندما منحت حبها وكل روحها إلى إلياس، وهى معتقدة أنه سيظل عشيقها مدى الحياة ؛ وعندما يجلسان فى أحد المقاهى الراقية بالمدينة، ويعدان نفسيهما للقاء عاطفى، كانا ينظران إلى بعضهما البعض بعيون العاشقين وهما يحتسيان القهوة بمقهى " ميلانج الشهير" فى فيينا، بينما يضع النادل أعداداً من الصحف والمجلات على مائدتهما، فى تلك الأثناء، عادت إيفيت قليلاً بذاكرتها إلى الشهور التى كانت فيها على علاقة بفيليب جاكو.

وفى الجناح الإمبراطورى بالفندق، كان الفراش مزودجاً؛ أما بالنسبة لإيفيت فكان يبدو أضعاف ذلك، حيث كانت تستدعى فى مخيلتها أشباح الحب الخاصة بروكسانى وفريد، فى الوقت الذى يستعد فيه أندونيس لمطارحتها الغرام، مستحضراً كل قوة لديه تركها له الزمن. أما هى ، فكانت تعرف كيف تمنحه الثقة دائماً فى نفسه،

فأخذت تمازحه بقولها: «حقاً! (قالتها بالفرنسية) كان لابد أن يكون ابنك الصغير هنا في هذه اللحظة ليرى من هو العجوز!». أما الشيء الوحيد الذي كان يضايقها منه فهو؛ شاربه الرمادى الذى كان يوخزها فى مختلف أنحاء جسدها، مما كان يجعل أندونيس يضحك ساخراً.

كانت السبعة أيام التى قضتها معه فى قيينا بمثابة قداس لهذا الحب المحرم الذى لم يفتر بمرور السنين، ولكن حق لهذا الاحترام المتبادل بين العاشقين وتسامحهما أن يحتفظ بشيء من بريقة الأول. فإذا كان لإيفيت أن تتذمر من شيء فكانت تتذمر دائماً من "العودة إلى الأسر" فى شقتها الواقعة بشارع السلطان حسين، تلك الشكوى التى تعود أندونيس منذ زمن أن يقابلها بالإبتسام.

* * * * *

«إنها إذن "الموضة الجديدة" ^(١٥) (قالها بالفرنسية) فى أوربا!» قال ذلك إلياس معلقاً وهو يستمع إلى أندونيس الذى كان يصف له انطباعاته عن رحلته الأخيرة بمشاعر مختلطة. أما أندونيس، الذى كان ينتظر من "اللبنانى" أكثر من مجرد تعليق، فقد أصيب بالإحباط بعض الشيء. فإذا لم يكن باستطاعة خورى إبلاغه بالمتغيرات التى حدثت فى أوربا، وأن يضىء له الطريق فيما يختص بهذا الخطر الذى يشككه هذا العالم الجديد - "عالم ماخوس الجديد" (ذكرها بالألمانية) - وكذلك للظروف السياسية فى إيطاليا بعد صعود موسولبنى للحكم؛ فمن يستطع إبلاغه، إذن؟

استمر أندونيس إذن فى إطلاق وابل من المعلومات المتنوعة، مع اهتمامه الشديد بإظهار انبهاره أحياناً وقلقه فى أحياناً أخرى، فى محاولة منه لانتزاع رأيه القيم فى مثل هذه المناقشات. لكن إلياس كان يتابع حديثه دون أن يتفوه بكلمة، غير راغب فى الوقوع فى الفخ الذى نصبه له.

(١٥) الموضة الجديدة: أى "جيل الشباب الطليعيين فى أوربا" (المراجع).

وعندما بدأ أندونيس يتحدث عن نظام حكم موسولينى بكلمات معبرة، علق إلياس مرة واحدة فقط، بطريقة متهمكة، قائلاً:

- «يبدو أن " الرفيق " (قالها بالفرنسية) موسولينى قد أثر فيك بشدة».

- «بالفعل، فهذا الرجل قد اتخذ قراره بتغيير مصير بلده وشعبه، لقد أعرب عن عزمه القيام بمشروعات طويلة الأجل وعطايا عظيمة سيقدمها للناس».

- «فى هذه اللحظة» (قالها بالفرنسية)، لابد أن يؤمن موقفه. فبعد اغتيال ماتيتوتى أصبح فى خطر».

"يبدو أن هذا الرجل (يقصد إلياس) كان على علم ببواطن الأمور، وطوال هذا الوقت جعلنا نعتقد بأنه لا يعرف أى شىء"، هكذا فكر أندونيس وابتسم راضياً بأنه استطاع حتى ولو للحظة أن يجر بإلياس إلى فخ الحذر.

- «اغتيال ماتيتوتى، نعم، لقد سمعت شيئاً عن هذا وأنا فى ميلانو. إنهم يتهمون دوتشى، لكن لم يتم إثبات ذلك حتى وقتنا هذا، وأنا أحدثك عن وقائع وعن كل ما رأيته بعينى» هكذا رد أندونيس على اللبائى، دون أن يكون متأكداً من أنه يصدق أى مما قاله، وأضاف: «إنه ميلاد جديد مرة أخرى لإيطاليا. وفى هذه المرة ليس فقط للفنانين أصحاب الخيال الواسع ولكن أيضاً للعالم بأسره».

"نعم ولكن هناك شخصاً آخر يكره الفنانين"، هذا ما جال بخاطر إلياس واتجه بذهنه على الفور لإيفيت. ثم قال محاولاً الإيقاع بأندونيس فى الكلام:

«إذن أنت تصر على أنك لم تلتق إيفيت».

- «نعم، وسبق أن ذكرت لك ذلك، وأنا السبب، فقد ظهرت بعض الأعمال التى لم أكن أتوقعها».

"فلتذهب إلى الجحيم، أيها العجوز، يا من تحاول أن تستغفلنى" هذا ما جال بخاطر إلياس، لكنه استطرد قائلاً لرجل صناعة الدخان اليونانى:

- «هكذا إذن! (قالها بالفرنسية) "العمل يأتى أولاً" (قالها بالإنجليزية)، كما قلنا».

- «هذا هو كل ما فى الأمر» (قالها بالفرنسية)، قل لى حقاً، ألا يثير اهتمامك كل ما يحدث فى ألمانيا وإيطاليا؟ وكأنك لا تعرف شيئاً!».

- «أقسم لك» (قالها بالفرنسية) ليس لدى أدنى فكرة عما يحدث فى أوروبا. مضى وقت طويل منذ أن سافرت آخر مرة. فالعمل يشغل كل وقتى» هكذا أجابه إلياس وهو يأخذ سيجارة قدمها له أندونيس من علبة السجائر الفضية الموضوعية على مكتبه. انحنى لى يأخذ القداحة المقوسة، ثم أخذ نفساً عميقاً، وأضاف قائلاً: «إنك دائماً ما تدهشنى، يا أندونيس، وأنت تتحدث هكذا، فأنت أحد الموالين لقينيزيلوس وتتحدث بهذا الشكل عن موسولينى!».

- «وماذا تريدنى أن أقول؟ لا شىء يحدث ونحن نمسك بالصليب فى أيدينا وكلانا يعرف جيداً ذلك أكثر من الآخرين. وبما أنك تتحدث عن فينيزيلوس، "لحظة واحدة" (قالها بالفرنسية) سأستدعى لك خصماً عنيداً»، ثم ابتسم وضغط على زر الجرس.

ظهرت ثوليا بوجهها الشاحب عند الباب فقال لها:

«ناد على يورغوس».

ومنذ تلك اللحظة بدأ أندونيس ملاحظة ردة فعل إلياس باستمرار، فى محاولة منه لتحليل تلك الانطباعات التى تبدو على وجهه والتى قد تؤكد ظنونه فى احتمال تورطه فى تلك المؤامرة الخطيرة.

- «ها هو يورغوس، لماذا تنظر إليه وكأنك لا تتذكره؟» قال ذلك أندونيس فور

دخول المحاسب من باب المكتب، إلا أن إلياس أجابه:

«أمن الضرورى أن أتذكره؟».

- «كان لدى إنطباع بأنكما سبق وأن التقيتما منذ وقت قريب» لم يبد على إلياس أى اضطراب أمام المحاسب، ولكن الشيء الوحيد الذى لاحظته إلياس هو أكمام قميصه المتأكلة التى يرتديها منذ أعوام. ثم قال إلياس معلقاً:

- «إنها المرة الأولى التى أرى فيها موظفاً يدخل مكتب مديره مرتدياً تلك الأكمام. ويبدو فى هذا المكان، لا أحد يستطيع الحصول على فترة راحة بسبب العمل الكثير». ويبدو أن هذا هو الانطباع الذى أراد يورغوس أن يأخذه الآخرون عنه طوال السنوات الماضية، فقد أظهرت الابتسامة المرسومة على شفتيه مدى رضاه من ذلك.

تذكر أندونيس فى النهاية أن يسأل إلياس:

- «أتعرف فى الإسكندرية عائلة تحمل اسم أس؟».

- «شئ ما يوحى به هذا الاسم، لماذا؟».

- «إنن ربما يوحى لك اسم هتلر بشئ؟»

- «هتلر! لا، لا يوحى لى بشئ» هكذا كان رد إلياس، ولكن يبدو أنه كان كاذباً.

* * * * *

كانت العودة إلى الإسكندرية بمثابة ميلاد جديد بالنسبة لإيفيت بدأت من الميناء بممراتها المرصوفة والمخصصة للجمارك، حيث كان فى استقبالها أمواج متلاحقة من الطرايش والجلابيب وعمامات الرأس. كانت العودة إلى مصر بسماها، وبهذا العدد الهائل من "الحمالين" (ذكرها باللغة العربية ووثنها بحروف يونانية) الذين انقضوا بالعشرات على الباخرة، مشهداً كفيلاً بأن يمحو من ذاكرتها صورة الحضارة الأوربية، وبخاصة ذكرياتها النفيسة لرحلتها فى أرض ميلادها. وفى محاولة منها لإنقاذ حقائبها من هجوم الحمالين البدائيين شبه المساطيل، احتاج الأمر لأن تكافح بمعنى الكلمة ضد كل هذه الأيدي الضخمة التى امتدت إليها من كل صوب. كلمات

عربية دسمة مثل الزبد "الفلاحى" (يذكرها بالعربية ويدوّنُها بحروف يونانية)، كانت تسمع أزيزها من حولها مثل الذباب، أحاطتها الابتسامات الساذجة والعيون الحمراء المليئة بالنيّات الخفية فى هذا الصراع الذى يفوق الاحتمال .

وسط هذا الطوفان الكبير، لم يكن أندونيس موجوداً. فقد شاهدته وقد جرفته الأمواج البشرية، عاجزاً بأية حال من الأحوال أن يقدم لها شيئاً أكثر من ابتسامة تشجيع، على الأقل فقد نجا هو من ذلك، ففى اللحظة التى وطأت فيها قدمه أرض مصر، حرص سائقه محمود على تخليصه من هذا التجمع البشرى.

فى تلك الأثناء، وفى محاولة منها أن لا يغيب عن ناظرها هذان الشيالان اللذان حملا حقائبها وشرعا بالنزول بها من على سلم الباخرة بحركات أكروبياتية، شعرت بأنها ستسقط على الأرض، حيث كان من الخطورة الاندفاع فوق تلك السقالات الخشبية، كما لو كانت واحدة من تلك الحقائب. كان من الممكن أن تصبح فى موقف أسوأ بكثير لو لم يظهر فجأة رمزى البواب، وهى لا تدرى من الذى أخبره بمجيئها، فقد وضع رمزى نهاية لكارثة نزولها من الباخرة. وبعد قليل بدأت تتحرك تجاه شقتها بعربة حنطور محملة بأغراضها، فى حين تعلق رمزى بعربة الحنطور من الخلف وأخذ يوجه العربجى بصوته الأجش. تركت إيفيت رصيف الميناء المزدهم غير مصدقة أنها تمكنت من الإفلات بسهولة من هجوم الحمالين.

كانت شمس شتاء الإسكندرية الحنون تشع فوق رأسها، وأخذت تقول لنفسها (بالفرنسية)، بإحساس مريح: «أخيراً، عدت». أياً كان الذى تعنيه لها أوربا من قبل فقد عادت فى النهاية إلى منزلها، هنا فى الإسكندرية. لقد ظلت رحلتها فى شتاء شمال إيطاليا القارس، حيث بدأت رحلتها بميلانو ثم أتبعته بفيينا - فيما بعد - كذكرى فى عقلها الباطن وكأنها حلم رآته فى الليلة السابقة. كان مرورها عابراً على هاتين المدينتين، ومن جهة أخرى، اكتفت إيفيت بوعود أندونيس لها بالقيام بجولات أكثر فى ميلانو وفيينا فى رحلة قادمة. على الأقل فقد تمكنت أن ترى من بعيد الأوساط المشهورة من الفنانين، فالفنانون الذين تعشقهم كانت تراهم بشكل أو بآخر كل عام

فى الإسكندرية تحت قيادة توسكانينى العظمى على مسرح " الأمبرا " أو على مسرح " محمد على "، أو فى شارع فؤاد، كما أعجبت، وإن كان ذلك من بعيد، بالكاتدرائية فى ميدان "دل دوومو"، ومن ورائها التلوج التى كانت تشكل خلفية بديعة لها، ثم دقت الأجراس بشكل منتظم فى (Galleria Vittorio Emanuele II). لقد شاهدت كل ذلك فى صحبة أندونيس، ولكى تكون صادقة مع نفسها، فإنها لا تعرف إذا ما كانت تريد شيئاً أكثر من ذلك فى الوقت الحالى أم لا. كانت ميلانو مليئة بأنماط من الشخصيات: مثل جوزيبى، وهو رجل مضحك برأس مربعة وشارب قصير، وهو من تولى تنقلاتها وكان يغازلها أمام أندونيس. كان هذا المتغرس مرابطاً أمام عجلة القيادة، ممسكاً بسيجارته التى قد يظن البعض أنه لا يطفئها أبداً، وكان يحيى أصحاب القمصان السوداء من الفاشيين، ويتحدث عن الطرق الجديدة التى سيشقها دوتشى عبر الجبال فقط إذا ما تركه هؤلاء المتحذلقون. فى شوارع ميلانو، كان الفاشيون أصحاب القمصان السوداء، التابعون لموسوليني، يشبهون "أصحاب الأقنعة" (ذكرها بالإيطالية) فى الحفلات التنكرية، وبخاصة وهم يسرون متخفين، فى حين لم تكن حدة اغتيال ماتيوتى قد هدأت بعد منذ الصيف الماضى، وسرت الشائعات بإغلاق صحف المعارضة حتى نهاية الشهر، كما بدأت حملات التفتيش فى منازل أعداء الفاشية. شهد أحد الأزقة المجاورة للفندق حادثاً مؤسفاً: فقد شوهد رجلان بملابس مدنية وهما يطاردان شاباً نحيفاً قام أثناء مروره بإلقاء حفنة من المنشورات أمامهما تتبع جماعة "أونيتا".

أما بالنسبة لفينيسيا، حيث وصلا (إيفيت وأندونيس) بالقطار فى طريق فاصل حيث تغيرت الطبيعة الساحلية للمدينة، داعبتها تلك المدينة الرومانسية ببحيراتها الساحرة. وقد عانى أندونيس وهو يشرح لها، دون جدوى، الطريقة التى شيدت بها المدينة فوق خليج مجموعة من الجزر، وكيف أن "قناة جرانت" تمر من خلالها كالثعبان، وكيف يحيطها مائتا قصر، أما من جانبها قد حاولت إيفيت، دون جدوى، أن تستوعب هذا التناغم غير المعتاد بين الصخور والماء والهواء فى هذا المكان العتيق. كانت الساحة المرصوفة بميدان سان ماركوس قد غطتها الثلوج، لكن إيفيت كان عليها أن

تتذكر تلك اللحظة التي عبرت فيها بالجندول من أسفل كوبرى العشاق، فى اليوم الأخير لها قبل العودة، وقد ضمها أندونيس بقوة بين أحضانه، كما لم يفعل من قبل، ثم همس فى أذنها قائلاً: «من بين كل ما عشناه معاً، أريدك أن تذكرينى دائماً بهذه الأحضان».

وفى باخرة العودة، سار كل شىء بطريقة غريبة. فقد تصادف أن يسافر معهما هذا الإيطالى الثرثار، إرنستو كالكانى، الذى يمتلك مصنعاً فى الإسكندرية، كما كان يعمل مع أندونيس فى بعض الأعمال. وكلما فتحت إيفيت الباب الذى يفصل بين كابينتهما، لا تجد لأندونيس أى أثر، وعندما تشكو له ذلك كان يوضح لها أنه كان يرافق هذا الرجل وزوجته إلى الصالون الموجود فى الدرجة الأولى، لأنه لم يكن يرغب فى إثارة الشك فى أنه يسافر بمفرده فى تلك الرحلة. أما إيفيت فكانت بدورها تشك فى أن أندونيس كان يغازل زوجته إرنستو. وكانت تقول:

«لقد لاحظت الطريقة التى كانت تنتظر بها إليك هذه الإيطالية القذرة؛ عليك أن تدرك جيداً أنك لو اقتربت من هذه المرأة فسوف أقتلع لك عينيك، يا أنطوان، هذا ليس مزاحاً» (قالتها بالفرنسية).

أندونيس: «إنك تثنين على عندما تغارين على رجل فى مثل سنى».

كانت حماقة منها أن تشعر بالغيرة على أنطوان. لكن عندما تكون مجبراً على عبور البحر الأدرياتيكي المضطرب فى كابينة مغلقة، تمر بذهنك أفكار غبية ناهيك عن أنه بعد أن أفصح لها أندونيس فى فيينا عن بعض الأسرار الخاصة به أصبحت لها حقوق أكثر فى حياته. وهو بالطبع ما كان يستلزم منها العكس: فكان لزاماً عليها أن تبعده تماماً عن كل ما يتعلق بحياتها الأخرى من أحداث. لقد تساءلت أكثر من مرة ما الذى يمكن أن يحدث لو شعر أندونيس بالحاجة لقضاء وقت ممتع فى مكان مثل منزل شارع مصطفى باشا. وبالتأكيد كانت ستفصل عنه إذا ما أقدم على فعل شىء مثل هذا. أما أندونيس فلم يكن بهذا "الغباء" (قالتها بالفرنسية) لكى يعرض سمعته للخطر، فى الوقت الذى يستطيع الإبقاء على عشيقته واحدة فى المدينة كلها.

وبالنسبة لعودتها لحياتها المعتادة فى منزل مصطفى باشا، ذلك المنزل الذى كان يخفى لها دائماً المفاجآت غير المتوقعة، فقد وجدت أن هناك من جاءه الإلهام وقام باستبدال سهير، التى كانت طوال تلك السنوات تعتنى بها والمتريدين على المكان، بفتاة مصرية فظة، كل ما يشغلها هو ترتيب الأسرة أكثر من اهتمامها بالمطبخ وبالنظافة. نفس الشخص تقريباً قام باستبدال الفتيات بالمنزل، ونتج عن ذلك أن إيفيت نفسها أصبحت تشعر بأنها غريبة فى هذا العمل. ولم يكن هذا الشخص سوى إلياس "اللبنانى" الذى أخبرها بصراحة وثقة بقوله :

«لقد تغير كل شىء هنا. فالسادة قلقون جداً بشأن "العصر الجديد" (قالها بالإنجليزية). فمن ناحية كان هناك المصريون الوطنيون، ومن ناحية أخرى ظهرت الموجة الصهيونية، إيطاليا التابعة لموسوليني ثم ألمانيا الجريحة. لا أحد يعرف إلى أين سيقودنا كل هذا. "حتى تلك اللحظة" (قالها بالإنجليزية)، نحن بحاجة إلى شىء أكثر من اليقظة إلى الاختيار الدقيق للعاملين بالقبلا، وأيضاً إلى المعلومات الدقيقة»

كان هذا يعنى أن هناك واحدة أو اثنتين من بين فتيات المنزل تعملان مباشرة لحساب المخابرات البريطانية، وتقومان بنقل المعلومات لرؤسائهما مباشرة، دون أن تتكلفا عناء إخبار مديرة المنزل. كان بيت البغاء بشارع مصطفى باشا يتحول تدريجياً إلى تكتة عسكرية صغيرة، لكن إيفيت لم تكن هى القائد، وقد فكرت لوهلة أن تستقيل ولكنها كانت على يقين من أن الأمر لم يكن بيدها. ومن ناحية أخرى، لم تكن لديها أدنى رغبة فى تسليم هذا المشروع الذى عانت من أجله طوال تلك السنين لأى شخص آخر، والعودة للانعزال من جديد بين جدران شقتها فى شارع السلطان حسين. إلا أن هناك بعض العناصر الإيجابية التى ظهرت من خلال الوضع الجديد: فقد جرؤ إلياس أخيراً على طرد بيتروس ثيميستوكليس "الأعرج" الذى لم تعد هناك حاجة إليه فى هذا المكان سواء بالحضور أو بإرسال فتياته إلى منزل مصطفى باشا، وقد أصرت إيفيت أن يتوقف عن القيام بواجباته بوصفه المورد الرئيسى للقبلا حتى لا يصبح أكثر ثراءً بسبب الأسعار الفلكية التى كان يحددها، وعندئذ أجابها اللبنانى:

«سوف يتم ذلك فى وقته، كل شىء فى وقته» (قالها بالإنجليزية)، أما هى فكانت على ثقة تامة بأن هذا الثراء الشديد لم يصب القبرصى، بل أصاب أيضاً عشيقها القديم أيضاً؛ فى الوقت الذى كان يضغط عليها كالمعتاد لكى تحافظ على علاقتها بضابط الشرطة فريد، قائلاً:

«أعلم كم هو مؤلم بالنسبة لك، ولكن لابد أن تفعلنى ذلك من أجلنا».

إيفيت: «مؤلم؟ لا يمكن أن تتخيل كم هو مؤلم. بشكل لا يمكن أن تتخيله، يا عزيزى(*)» كانت إيفيت تقول ذلك متعمدة، وهى تعلم أن مثل هذه الموضوعات كانت تخرجه باعتباره رجلاً.

وفى محاولة منه لتلطيف الأجواء، سعى اللبئانى لإقناعها بالفتاة الفرنسية، زيزيل، واحدة من الفتيات الجديديات بالفيللا. كانت زيزيل بالفعل فتاة جميلة، ذكرتها بنفسها منذ خمسة عشر عاماً مضت، ولكن كانت نظرتها تحمل الكثير من التعاسة أكثر مما كانت تحتمل، وبالإضافة إلى ذلك، كانت إيفيت تخشى من أن تكون زيزيل واحدة من الفتيات اللاتى قام إلياس بزرعهن فى الفيللا للتجسس على الزبائن وعليها هى شخصياً لحسابه، ولذلك فقد أجابته: «هذا ما كان ينقصنى» (قالتها بالفرنسية ثم ذكرها مرة أخرى باليونانية).

* * * * *

منذ أن رحل ماخوس إلى ألمانيا، قد يعتقد البعض أن فيللا خاراميس قد عرفت طعم الهدوء، ولكن الحقيقة أن أندونيس عاد مرة أخرى للتذمر من هذا المنزل الكبير الذى يتكون من إحدى عشرة غرفة، ومن هذا الثرى كثير الأبناء الذى ينتمى إلى أوروبا الشرقية والذى باع له هذا المنزل الضخم. «أنتِ السبب فى هذا»، هكذا استمر أندونيس فى ترديد هذه الجملة، ثم استطرد قائلاً: «بل هو جنون العظمة!».

وحتى تتجنب شكواه، فقد قررت ذافنى أن تفتح البيت أكثر وأكثر للمجتمع الراقى بالإسكندرية، أعضاء يأتون بأعداد كبيرة لإبداء إعجابهم فى الخفاء بمجموعتها

الصغيرة من الآثار المصرية التى تحتفظ بها، كما كانت الأصوات تهمس فى كل مكان عن ذلك التعاون المشبوه بينها وبين أخيها لوكاس سينجوس، لص الآثار المعروف. ومن بين تلك الآثار يقال إن صمويل عظيمان المعروف قد منحها ثلث الآثار التى كان يخفيها فى الطابق الأول بمنزله فى رشدى بالإسكندرية.

كان أندونيس يصم أذنيه أمام تلك الحكايات، فى حين كان يعتبر أن مجموعة الآثار المشهورة التى تملكها زوجته لم تكن، فى أحسن الأحوال، سوى قطع من الأحجار والبرونز عديمة القيمة. أما ما كان يشغله بشكل أكبر فهو؛ كيفية الدفاع عن سمعته أمام أى احتمالات سيئة لكشف داء زوجته ذافنى بالسرقة. وقد نصحه أحد الأطباء النفسيين بالخارج بأن يراقبها أثناء الحفلات التى تقام فى المنزل، حيث يؤدى الأمان الذى تشعر به فى منزلها إلى تقليص رغبتها الشخصية فى السرقة، أما أندونيس فقد كان مضطراً، دون رغبة منه، إلى فتح أبواب المنزل للحفلات. فى حين كانت ذافنى، كالمعتاد، تبالغ فى الأمر، وأغرقت الإسكندرية كلها بدعواتها حتى وصلت إحدى تلك الدعوات إلى إيفيت - عشيقته - التى كانت مستعدة، بحكم فضولها الأنثوى، للحضور إلى الحى اليونانى، وبالكاد استطاع خاراميس أن يثنيها عن ذلك بعد أن تأكد أن أسبوعاً واحداً فى قيينا كان كافياً لكى يجعلها تعتقد أن لها حقوقاً كثيرة فى حياته، وبخاصة بعد كل ما اعترف لها به عن ذافنى، فكانت تشير عليه دائماً - ما بين الجد والهزل - بأن يطلقها. كان أندونيس يتأمل بفزع احتمال انفصاله عن زوجته وفى نفس الوقت، احتمال اكتشاف علاقته بعشيقته. "سيكون فى هذا دمارى!" هكذا كانت تحدثه نفسه. وفى الحقيقة كان أندونيس يدرك أن علاقته بذافنى لم تكن علاقة سوية منذ زمن بعيد، إلا أنه لم تكن لديه الرغبة فى التفكير فى العواقب الوخيمة التى سيدفع ثمنها فيما بعد على يد زوجته المتطرفة. ومن ناحية أخرى، كانت تفرعه فكرة الحياة وحيداً فى المستقبل بدوئها: لم تكن تخيفه الفضيحة فى المجتمع مثلما يخيفه اختفاء هذا الجو الأسرى الذى يجده فى المنزل عندما يعود من العمل. لم يكن يعرف ما الذى سيشعر به إذا ما عاد يوماً، ولم يجد ذافنى تنتظره جالسة عند المائدة المعدة بالطعام،

بكل هذا العدد الكبير من الخدم كل فى مكانه، بكل هذه الانتيكات الغربية من الماضى، فى هذا المكان الذى تتجمع فيه الذكريات الأسرية القليلة التى تضىفى بلمساتها على الصالون المصرى الصغير، على طرف المنضدة الصغيرة، هناك حيث كان دائم التذمر بسبب وجود كل تلك الخادومات الجديديات اللاتى كن عديمات الفائدة فى كيفية إعداد المائدة وتقديم الطعام ، مما جعل ذافنى تقوم بتقديم الطعام بنفسها . ولذلك كان يقول لها دائماً: «احسبى، من فضلك، كم نحتاجه هنا نحن الاثنان فقط من بين كل هؤلاء الخدم؟ ففى كل مرة أقوم بعدهم، يخيل إلى أنك قد أحضرت خادماً إضافياً». كان أكثر شىء يصيبه بالعصبية، ليس فقط فى أنها لم تكن ترى أى مفالة فى ذلك، ولكن لأنها كانت تصر طوال تلك السنين أن تشرح وجهة نظرها، إما باللغة الفرنسية أو بالإنجليزية، متجاهلة تعصبه للغة اليونانية التى أعلنها من قبل لفة رسمية للمنزل.

«ثم ماذا بعد، ما هذا الجنون الذى أصابك تجاه تلك الموميאות، ألا تخبرينى؟» هكذا كان يسألها مشيراً إلى مقتنياتهما من الآثار التى كانت تشمل كل شىء عدا الموميאות، «لقد تحول صالون المنزل إلى مقبرة لتوت عنخ آمون» كان يقول ذلك، ثم يصاب بالاحمرار. وفى نفس تلك اللحظة كان يفكر بانزعاج: "ما الذى سيحدث إذا ما صبت على يوماً ما غضبها؟".

أما من الناحية العملية، فقد أصبحت لذافنى اليد العليا فى حياتهما من زمن بعيد، وكأن غياب أبنائها قد أعطاها دفعة قوية للأمام. فبدأت تنظم كل شىء وفقاً لرغباتها، بطريقة عفوية، دون أن تمنح التقدير المناسب لعقل الأسرة المدبر؛ أما بالنسبة للمفاجآت الزوجية، فقد كانت تواجهها بهدوء نسبى، مجيبة ببعض الهمهمات التى لم تكن أذن أندونيس تميز منها سوى بعض الكلمات مثل "العجوز، القذر" (دونها بالفرنسية). كان من الواضح أن ذافنى لم تعد تحترمه، كما لم تعد تحبه مثلما كانت من قبل، وإن كان هذا يضايقه إلى حد بعيد، لكن كان يعزى أسلوبها المرفوض لمرضاها النفسى، وبدلاً من أن يغضب منها، كان يشعر بأنه مسئول بشكل أو بآخر عن حالتها.

ويبدو، فى النهاية، أن كل ما كان يجمعهما هو الخوف من الشيوخوخة، وهو ما لم تكن ذافنى، فى هذا الوقت على الأقل، تشاركه فيه، حيث كانت تعيش مستمتعة بحياتها وكأنها شابة من جديد، مستمتعة بعدم شعورها بالمسئولية تجاه زوجها من ناحية، وتجاه "مجتمع الإسكندرية الراقى" (دونها بالفرنسية) من ناحية أخرى.

إنه لأمر غريب، فقد كانت تلك النميمة التى انتشرت عنها وكأنها جدار واقٍ لكل نشاطاتها، كما ظهرت بوصفها شخصية مشهورة فى فترة ما بعد الحرب مثلها فى ذلك مثل الإسكندرية نفسها التى كانت حالتها تعد، دون مبالغة، وكأنها معجزة عالمية.

وفى إطار المبالغات الاجتماعية التى واجهها أهل الإسكندرية فى العشرينيات والثلاثينيات، فقد تقبل الجميع حقيقة مرضها بداء السرقة. كان وجودها يشع مثل الضوء فى محلات الإسكندرية، وأصبح بعض أصحاب المحلات الذين يضبطونها وهى تسرق من محلاتهم؛ يرون أن ذلك من شأنه أن يميز محلاتهم. كان شيئاً "راقياً" (دونها بالفرنسية) أن يتحدثون فى الصالونات فيما بعد عن ذافنى خاراميس التى تم الإمساك بها فى هذا المحل، وهى تسرق بعض الملابس الداخلية أو زجاجات العطور. كان مرضها بداء السرقة، الذى أصبح لا علاج له، قد أخذ يتحكم شيئاً فشيئاً فى رغباتها، وكلما حدث هذا، كلما أقدم الآخرون على إغوائها بالسرقة، فكانوا يتركون الأشياء الثمينة أمامها ويتوجهون للناحية المقابلة، أملين فى أن يكونوا قد نجحوا فى إغوائها وأن تمد يدها لتلك الأشياء لكى تسرقها.

كان لذلك التسامح دور كبير فى التأثير على السمعة التى اكتسبتها زوجة أندونيس فى الدوائر الاجتماعية بسبب تلك الحفلات الأسطورية التى كانت تقيمها فى منزلها فى الحى اليونانى. وبإحساس مفعم بالديمقراطية، كانت ذافنى تحتضن ليس فقط المجتمع اليونانى، ولكن أيضاً الأجناس الأخرى التى تعيش فى كنف الإسكندرية، فاتحة الباب لكل أصحاب المقامات الرفيعة؛ ضباط الجيش، القناصل، قضاة المحاكم المختلطة، مديرى البنوك، وأيضاً لبعض الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والألمان والنمساويين واليهود والسوريين، كل بالترتيب. كانت حديقة الفيلا الضخمة تعج أحياناً

بالمدعويين بشكل يجعل من الصعب التحرك فيها . وكان بريق المجوهرات يبهر العيون، وتسلسل رائحة العطور تداعب الأنوف، مزيج بين المال والجمال، بين القوة والتجارة، يلتقون فى أجمل الأماكن، وإن حدث بينهم منافسة فلتكن فى الرقص على أنغام الموسيقى، الذى كان ينتهى عادةً بصدام لا أهمية له، فوق سجادة يطأها الجميع بما يرتدونه من ملابس وبما يتسمون به من غرور .

أما أندونيس فقد كان يفضل أن يتتعد عن كل ذلك متذرعاً بأعماله الكثيرة، أو كان يحرص بالكاد أن يكون موجوداً من باب أن وجوده طبيعى، مقتصر على بعض الأشخاص الجديرين، وفقاً لما يراه، بالاستماع إلى وجهة نظرهم فيما يختص بالسياسة والمال. ورغم ذلك، كان أندونيس يبدى اهتماماً شديداً فى كل مرة بقائمة المدعويين، مضيفاً بعض الأسماء التى من الممكن أن تكون ذات فائدة بالنسبة لأعماله. أما عن تكاليف الرقص والحفلات فلم يكن هذا الأمر يزعجه. فعلى العكس مما أشاعه منافسوه، شهد مصنع خاراميس للسجائر فترة رواج اقتصادى؛ ولكن حتى إذا لم يكن كذلك، فقد زادت ثروة ذافنى الخاصة بشكل مضطرد فى السنوات الأخيرة، وبالأطبع لا يرجع السبب لنشاطات أخيها التجارية فى كفر الزيات. فالكل يعلم كيف أن ثروة عائلة سينجوس قد زادت بسبب تجارتها فى الآثار المصرية فى إحدى رحلات السفارى فى الصحراء الوعرة. وفى هذا الشأن قال صمويل عظيمان الكبير ذات مرة:

«من المحتمل جداً أن تفوقنى هذه المرأة فى يوم من الأيام ثراءً»، وعلى الرغم من أنها لا تتعدى سوى بضع كلمات فإن ثروة ذافنى المتضخمة فى السنوات الأخيرة أصبحت شىء معروف: أما أندونيس، فعلى الرغم من أنه كان عليه أن يطلب منها تفسيراً لهذه الأمور الغريبة التى تحدث فى منزله، فإنه فضل أن لا يسمع أو يرى أى شىء منذ تلك اللحظة التى أصبح فيها غير مضطر للإنفاق على هذه الحفلات من أجل إرضاء رغبات زوجته الكثيرة. فكان يكتفى فى بعض الأحيان بهز رأسه مبدئياً اعتراضه وكأنه يشير إلى أن زوجته ذافنى قد بدأت تفقد صوابها، ومع هذا أيضاً فلم يشأ أبداً أن يعقب إلا فى الوقت المناسب .

كل من لا يعرف شخصية أندونيس سيعتقد أن هذا التردد الواضح فى علاقاته بالآخرين كان مرتبطاً بكبر سنه، إلا أنه فى واقع الأمر كان يشعر بأنه أصبح حازماً عن ذى قبل، وأنه إذا كان يتردد فى بعض الأحيان فإن ذلك مرجعه إلى تفهمه، ربما أكثر مما ينبغى، لطبائع الناس والصعوبات التى تواجههم إلى الحد الذى يجعلهم عرضة للفساد.

ولم تكن حالة يورغوس وميخيليس حالة مماثلة. فقد كان اكتشافه لحياتهما المزدوجة صدمة كبيرة له، حتى أنه لم يجد طريقة للانتقام منهما تجعله يشعر بالرضا، فترك لنفسه فرصة من الوقت، متلاعباً فى نفس الوقت بإحساسه بالذنب تماماً مثل القط والفار.

لم يكن أندونيس على ثقة من أن أى عقاب سيوقع عليهما سيجعله يشعر بالسرور الذى يمنحه له رؤيته اليومية لذلك المحاسبة المرتعب. كان تلاعبه بالألفاظ يثير خوف يورغوس ويجعل لون وجهه يتغير إلى ألف لون، وكان أفضل شىء عندما ينظر إليه نظرة بها ابتسامة خفيفة من تلك التى تدل على أنه يعرف كل شىء، لكن لسبب مجهول لم يقدم على فعل أى شىء معه. وعندئذ كان من يعتبره "أخاً" له فى السابق يبدو وكأنه على وشك الانهيار، كان العرق يسيل من جبينه بارداً، تصاحبه آلام مفاجئة فى معدته تجعله ينتنى من شدة الألم.

«أى سجن فى العالم سيسبب لى إحساساً بالسعادة أكثر من رؤية وجه يورغوس الذى يمنحنى الشعور بالسعادة كل يوم؟» كانت تلك هى إجابة أندونيس لسيستانيس الذى كان يضغط عليه من أجل إنزال العقاب على المجرمين. وفى الوقت الذى وصلت الموازنات المالية المزورة إلى القنصل اليونانى، الذى انتظر بدوره إشارة خاراميس حتى يبدأ فى إجراءاته القضائية ضدهما، كان أندونيس مستمراً فى التلاعب بالخائنين.

«لقد أصبحت بينى وبين هذا المحامى خصومة كبيرة» هكذا أخبر أندونيس سيستانيس، وربما لهذا السبب كان أندونيس يدعو ميخيليس بشكل دائم إلى الحفلات حتى يجعله محط أنظار كل المدعوين، فكان يصيح قائلاً: «إنه يدى اليمنى»، وفى نفس

الوقت كان يجمع ضده بعض الأدلة عن الممتلكات الضائعة لتلك المرأة العجوز البائسة، وكانت تلك القضية وحدها كفيلة بإرساله إلى السجن لسنوات طويلة. أما ميخيليس، الذى لم يكن ساذجاً حتى يظن أن رقة قلب رجل الصناعة المفاجئة هي أمر طبيعى، فقد شعر بالسكين توضع فوق رقبتة وهو يعلم أن الكشف عن أمره ليس إلا مسألة وقت.

وفى اليوم الذى قرر فيه أندونيس خاراميس أن يضع نهاية لهذه القصة، استدعى هذين الرجلين إلى قاعة الاستقبال بمصنعه، وأمام أندرياس سيسستانيس ألقى على المائدة البيضاء الأدلة التى تثبت جرمهما؛ الموازنات المالية المزورة التى قاما بتوقيعها لحساب خصومه. ثم قال بصوت هادئ، ولكنه فى نفس الوقت حاد:

«لقد كنتما غبيين حتى تضعا توقيعكما على هذه الأوراق التى سواء أكانت صحيحة أم لا، كان من السهل إثباتها، لا أدرى ما الذى دفعكما لذلك. لا أدرى إذا كانت عندكما أسباب لكراهيتى إلى هذا الحد حتى تفكرا فى تدميرى. أم أن هناك من أعطاكم مقابلاً أكبر مما أعطيكما. لكنى على يقين من أن عقابكما الذى سأسعى لتحقيقه بكل الطرق سيكون به خلاصكما أكثر من عقابكما».

كان هذا هو رأيه ولم يغيره حتى عندما استطاع فى النهاية أن يزج بهما إلى السجن، على الرغم من محاولات ذافنى لكى تثنيه بشتى الطرق عن قراره الخاص بتدمير ابن عمها الحبيب، لكن أندونيس بدا ثابتاً وكأنه قد حصل بذلك على نصره الأخير عليها هى وعائلتها.

* * * * *

«أنا أسف (قالها بالفرنسية)، ولكن فى هذه الليلة لدى "مدعوين" (قالها بالفرنسية) فى المنزل ولا أستطيع أن أتغيب عنهم» كان ذلك هو رد أندونيس على دعوة العشاء التى وجهها إليه إلياس أثناء خروجهما من بوابة المصنع فى مساء يوم الثلاثاء. كان الحارس يقف من خلفهما، وهو رجل أسمر البشرة صارم الوجه يضع على كتفيه شال ويرتدى "جلابية"، وقد قام بفتح البوابة الضخمة التى تحمل شعار (أ. خ).

إلياس: «انس الأمر إذن (قالها بالفرنسية)، ولكنى كنت سأعرفك اليوم
بشخصيتين مهمتين».

أندونيس: «ربما فى يوم آخر» هكذا أجابه (بالفرنسية).

وبدلاً من أن يستمر معه فى الحوار، قام اللبباني بارتداء قبعته مبتسماً ابتسامة
أظهرت تجاعيد وجهه، حتى إن بشرته البيضاء تحولت إلى اللون البرونزى، لون أشعة
الشمس وقت الغروب. عندئذ أخذ أندونيس يتمتم «بتحية المساء» ثم أتجه نحو سيارته،
التي كان قد ركنها خلف المصنع تماماً. توقف أندونيس لبرهة، لكن عندما أحس بأنه
ينتظر بلا جدوى، أحنى رأسه سريعاً ثم أسرع بالدخول إلى المقعد الخلفى من باب السيارة
بعد أن قام السائق محمود بفتحه منذ وقت. لم يكن لديه وقت ليضيعه، على عكس
إلياس، وهكذا أمر سائقه بأن يتحرك على الفور. وبينما كانت السيارة تتحرك بمحازاة
ترعة المحمودية، كان يرقب اللبباني من المرأة، فرآه يشعل سيجارة ثم يقفز فى سيارته،
إلا أنه لم يتحرك من مكانه وكأنه ينتظر شيئاً. وللحظة واحدة شعر أندونيس بالغيرة
منه، فقد كانت لديه سيارة جديدة رياضية بسقف من الجلد، وبدأ أنه بلا مشاكل: فهو
رجل فى الخامسة والأربعين من عمره، وهى أفضل مرحلة عمرية، بدون التزامات، بدون
مشكلات تشغل باله. استمر هذا التفكير طول فترة متابعة أندونيس "اللبباني". لكنه بعد
ذلك كان ينبغى عليه أن يفكر فى هذا التجمع المسائى الذى ينتظره فى منزله.

ففى الأيام التى كانت ذافنى لا تفتح فيها منزلها لعلية القوم بالإسكندرية، كانت
تحرص على الأقل على دعوة بعض الأصدقاء المنتقين لكى يمضوا وقتهم فى لعب الورق
والثرثرة. وبسبب تلك العادة فقد أصبحت فيلا خاراميس البيت الثانى لبعض الناس،
مثل نائب القنصل الفرنسى السابق، وأحد كبار موظفى بنك لاند وأحد تجار القطن
اليهود وزوجته. ولأنها كانت دائماً ما تتحدث فى مثل هذه اللقاءات إلى هؤلاء الأصدقاء
حول العديد من الموضوعات المتعلقة باهتماماتهم بالآثار، فقد كان البعض يدعى أن تلك
اللقاءات كانت تتعلق بنهب الآثار! أما أندونيس الذى حضر بعض هذه الأمسيات، فقد
كان يجد أن ما يدور من مناقشات بين الحضور ما هو إلا حوارات لا طائل منها.

خرجت السيارة عن طريق ترعة المحمودية واختفت فى أعماق محرم بك ، وقد عبرت شارع راصافا حيث يرتفع منزل البارون دى ميناسيه شامخاً. ثم مروا بعد ذلك من أمام المقابر ودخلوا فى شارع فؤاد، الذى كان أندونيس مستمراً فى تسميته باسم شارع رشيد على الرغم من مرور أكثر من ثلاثين عاماً على تغيير اسمه. كانت الفلل الضخمة تتنافس بعضها بعضاً فى هندستها المعمارية وفى اتساعها، فى حين كانت واجهاتها بحدائقها المزهرة التى كانت تشير إلى قدوم فصل الربيع تعطى بلا شك رقباً واضحاً للطريق الذى كانت ذافنى تقول عنه إنه يتبع طريق كانوبى القديم. وعندما توجهوا بالسيارة لليسار نحو شارع العباسيين - حيث يقع منزله - كانت مصابيح الشارع قد أضيئت أنوارها بالفعل. ومن بين ظلاله الغريبة استطاع أندونيس أن يتبين ملامح شخص يعرفه، كان قد دخل على الفور من بوابة منزله الحديدية.

"هذا ما كان ينقصنى!"، هذا ما جال بخاطر أندونيس وهو يعبر بدوره من نفس البوابة. وسرعان ما جرى نحوه عدد هائل من الخادمت اللاتى كن يرغبن فى إثبات أنهن يقمن بعمل مفيد فى المنزل، فأخذت إحداهن معطفه، بينما أخذت الأخرى قبعته ، فى حين كافح جاهداً من أجل أن يظل محتفظاً بحقيبة أوراقه التى تحوى أوراقاً مهمة لم يكن ليثق فى وجودها فى يد أى شخص غريب.

توجه على الفور لرؤية زوجته، التى كانت غاضبة منه بسبب ما حدث مع ميخيليس، وقال لها:

أندونيس: «يخيل إلى أننى قد شاهدت الأنسة جابى وهى تدخل المنزل. لا تقولى إنك ستعيدينها إلى عملها من جديد»

ذافنى: «هذا ما أنتوى أن أفعله بالضبط» هكذا أجابته ذافنى (بالفرنسية).

- «لكن لماذا؟ فمن خلال ما أعرفه، نحن لسنا بحاجة إلى مربية. إلا إذا كنا سنتبنى طفلاً بدون علمى».

- «ولكنى لا أريدها باعتبارها مربية، أنا أحتاجها باعتبارها سكرتيرة، يا عزيزى».

- «أيا كان، أنت تعلمين جيداً أنني لا أحب هذه المرأة. إذا كنت حقاً تحتاجين إلى سكرتيرة، كان عليك فقط أن تقولى ذلك، كما كان بإمكانك ببساطة أن تقومى بتعيين فتاة أخرى».

- «على أية حال (قالتها بالفرنسية)، نحن نعرف هذه الفتاة جيداً، وهى شخصية محترمة وأنا أتعاطف معها، ماذا نفعل الآن؟».

- «أعتقد أنه ليس الوقت المناسب الآن للاستمرار فى هذا النقاش» هكذا أنهى أندونيس حديثه، فقد تعلم متى يتراجع؛ ثم استطرد قائلاً: «سأصعد لأستعد حتى أكون موجوداً فى الموعد».

- «سيكون من الأفضل أن تفعل ذلك» قالت ذلك زوجته (بالإنجليزية) بشكل غير مبالٍ تقريباً.

عندما صعد أندونيس إلى الطابق العلوى، رأى النور مضاءً فى غرفة الأنسة جابى القديمة، وقد شعر بعدم الارتياح بداخله من عودتها. حاول أن يستعد بسرعة حتى يستطيع العودة إلى الصالون، لكن يبدو، على الرغم من هذا، أنه قد تغيب وقتاً كافياً، فعند عودته كان الجميع قد حضروا، وفى كل مرة كان يشعر بأن وجوده يسبب الإحراج لهؤلاء الناس. لهذا، فقد انتابته السعادة عندما شاهد بينهم إيميل شتايجر، نائب مدير بنك باكلينز، وهو رجل سويسرى مذهب كان يثرثر معه بسعادة فى العديد من الموضوعات. كانت الطريقة الودود التى شد بها على يده لا تخفى غرضه الحقيقى، وكما تقول ذافنى، فإن زوجها يصبح رجلاً آخر إذا ما التقى رجال البنوك، حيث يصبح متحدثاً ماهراً .

كان شتايجر رجلاً طويل القامة، ينتمى للجانب الألمانى فى سويسرا، وكان يعانى من قصر النظر، ورغم ذلك فلم يكن يرتدى نظارة طبية لأنه يعتبرها لا تليق بحضوره القوى وبملامح وجهه الفرنسية. لهذا كانت لديه حركة طبيعية يقوم بها دائماً، وهى إلقاء رأسه إلى الوراء، إلا أن البعض كان يعتبر هذه الحركة كنوع من الاختيال. أما بالنسبة لأندونيس فلم يكن به شىء من هذا الاختيال، وعندما يستحثه أحدهم للحديث عن الوضع العالمى لصناعة الدخان، كان يلاحظ فى عينيه المتعبتين تلك النظرة الطفولية.

وبجوار مكانه المفضل تجد دائماً زجاجة الويسكى، ولم يكن عليه فقط سوى إضافة ما يريده من الصودا. وعندما يطلبون منه الحديث عن السجائر، يتحدث ببطء وكأنه يجعل شخصاً آخر يتحدث نيابة عنه حتى يتمكن هو من متابعة باقى المدعوين. وفى اللحظة التى كان يشرح فيها لضيفه السويسرى الوضع العالمى لصناعة الدخان، ورد إلى أسماعه صوت ذافنى وهى تشتبك فى حوار مع امرأة مجهولة تصر على أن بيلزونى ودروفيتى مجرد دجالين كسبا ثروات طائلة من آثار مصر. ودار بينهما هذا الحوار:

ذافنى: «عزيزتى، قد أقبل مثل هذا الكلام عن دروفيتى فقط، أما بالنسبة لبيلزونى وزوجته فمستحيل، فقد كانت لهما رؤية حقيقية. وبدون هؤلاء الذين تدعى أنهما دجالان، ما كان لشامبليون أى وجود، أوؤكد لك ذلك».

المرأة المجهولة: «لا تضعى شامبليون فى نفس المكانة مع هؤلاء».

«لم لا؟ فالآثار تشمل علوم عديدة: كالتاريخ واللغة والهندسة المعمارية..... ولن تأتى الآن لكى تنفى كل هذا».

- «ولكن عن أى علماء للآثار نتحدثين، إننا هنا نتحدث عنمن يقوم بنش القبور وسرقة الآثار».

- «إنه لأمر مؤلم (قالت ذلك بالفرنسية) أن تفكرى بهذه الطريقة، ستجعلين من السيد كارتر أيضاً نباشاً للقبور».

- «إن الكشف عن مقبرة كاملة غير مسروقة، مثل مقبرة توت عنخ آمون حدث مهم بالطبع، ولكنه يثير العديد من التساؤلات الجادة».

- «أه فلتصمتى إذن» هكذا قالت ذافنى(بالفرنسية) معبرة عن غضبها بطريقة واضحة، حتى إنها أجبرت محدثتها على أن تهز رأسها بانفعال.

كان نائب القنصل الفرنسى السابق، الرجل العجوز ضخمة الجثة، يضغط كل حين بإصبعه على نظارته الطبية حتى يثبتها فى مكانها، وهو يتابع تلك المناقشة الحامية، فاستدار إلى رب المنزل طالباً المساعدة منه، قائلاً:

«يا سيد خاراميس، ما رأيكم فى كل هذا؟».

أما أندونيس، الذى لم يكن يتوقع مثل هذا السؤال، فقد وجد نفسه فى موقف حرج، وإذا كانت عقدة لسانه تنحل أمام رجل البنوك، فإنها تنعقد أمام الآخرين.

«عذراً، أنا... أنا لم أكن متابعاً» هكذا تلعثم (بالفرنسية) فى رده عليه، إلا أنه كانت لديه الفرصة لكى يرد بعد ذلك رداً دبلوماسياً:

«بخصوص هذا الموضوع! فى الحقيقة سوف أصيبكم بالإحباط. يمكنكم أن تسألونى عن السجائر، عن المشروعات، عن أى شىء تريدون، أما فى مثل هذه الموضوعات فأعتقد أن زوجتى أكثر دراية منى».

وعندئذ لمح بطرف عينه زافنى وهى ترمقه بنظرة حادة، لكنه لم يكن يكذب فيما قال. وإذا كان هناك ما يعجبه فيها، فهو حبها للعلم. وأخذ يتذكر أنه فى السنوات الأخيرة كان يراها منكبة دائماً على قراءة أحد الكتب. كان أمراً يفوق قدرة البشر أن تحفظ كل تلك الأمور بشكل يومى: التواريخ، المواقع الجغرافية، المؤرخين، بذلك الإيقاع الذى كانت تقرأ به وتحفظ به المعلومات، كان من الطبيعى أن تحتاج إلى سكرتارية، حتى لو كان أندونيس لا يوافقها على اختيارها. وبمجرد أن تذكر أن جابى قد عادت مرة أخرى إلى غرفتها القديمة، شعر بالكآبة، ثم استدار إلى نائب مدير بنك باركليز حيث كان موعد تناول العشاء قد حان، على أنغام موسيقى باخ التى كانت تنساب من الجرامافون، وبعد تناول الطعام كان لكل منهم الحرية فى اختيار الطريقة التى سيقضى بها أمسيته. وفى أثناء تناول الطعام، بدأت الرياح تهب فجأة، ثم تبعها هطول الأمطار فى تناغم مع أصوات السكاكين والشوك فوق الأطباق البورسلين الغالية، وعندئذ تذكرت ربة المنزل أنها تركت نافذة مفتوحة وأرسلت على الفور الخادمة لإغلاقها، ثم قالت والابتسامة تلو وجهها:

«فلنتمنى أن نحظى بليلة هادئة بلا مضايقات».

* * * * *

عندما كانت ذافنى تتحدث عن ثروة عائلتها فى كفر الزيات كانت تتبادر إلى ذهنها مزارع القطن وصفوف "الفلاحين" الذين ينحنون بصبر فوق الأرض المصرية الخصبة من أجل زراعتها لصالح عائلة سينجوس. ولم يكن هذا بعيداً عن الواقع ، غير أن صفوف الفلاحين الهائلة لم تكن موجودة من أجل الزراعة، ولكن من أجل الحفر بعمق بمعاولهم فى أكثر البقاع مجداً، فى أرض النيل، ليس فى مكان آخر سوى كفر الزيات، باحثين عن كنوز وآثار الماضى حتى يمكنهم زيادة "ثروة العائلة" بطريقة أكثر إثارة من أى زراعة للقطن فى العالم. لم يكن الصعود المفاجئ لثروة لوكاس سينجوس فى فترة العشرينيات من الموضوعات التى قد تمر دون أن تثير فضول المجتمع السكندرى. فالأب سينجوس مات غارقاً فى ديونه، تاركاً وراءه ابناً له نفس الطباع وابنة متحررة من سلطة زوجها؛ أما محاولة إنقاذ ما تبقى فكانت ضرباً من الخيال. وكان شقيق ذافنى قد أعلن، بحديثه الطنان الذى دائماً ما يوقعه فى الخطأ، أنه سيرحل إلى كفر الزيات من أجل مراعاة ثروة العائلة. لم يصدق أحد هذا الشاب المتباهى بشاربه المميز وشعره المفروق من منتصف رأسه، أنه سيتمكن من إنجاز أى شىء بعيداً عن الإسكندرية. وفى السنوات الأولى اضطر أن يحافظ على هذه الصورة بشموخه واعتزازه بنفسه، من خلال تلك الخطابات المؤثرة التى كان يرسلها يميناً ويساراً للأقارب والأصدقاء يهددهم فيها بالانتحار. فى حين كان إعلان الحرب العالمية الأولى بمثابة قفزة إيجابية بالنسبة له، حيث بدأت حالته الاقتصادية فى التحسن دون سبب واضح. وفى كل مرة يظهر فيها الابن سينجوس فى المدينة كانت تبدو عليه علامات الثراء، مما يثير العديد من التعليقات من أولئك الذين كان يكذبهم بإصرار. وبالطبع، كان يستعد للعودة منتصراً إلى الإسكندرية، إلا أن تورطه فى فضيحة (توت عنخ أمون) هدد بنهاية مستقبله المشرق. عندئذ قرر أن يترك مصر لفترة من الزمن، وأقام فى بيروت لمدة عامين، كان يداوم خلالها على إرسال الخطابات لأخته، وكان يكتب قائلاً: «أعتقد أننى أمر بأفضل فترة فى حياتى»؛ وعندما عاد إلى مصر، قرر أن يستقر فى القاهرة، فى حي هيليوبوليس الذهبى. حتى لو كانت هناك شكوى حول ثروته المجهولة، فسرعان ما اندثرت فى ذاكرة الناس فى النهاية ولم يبق سوى إعجاب المجتمع به؛ مثلما تم إجمال

شخصيته فى بعض الكلمات المعبرة من إحدى عجائز الإسكندرية، صديقة العائلة، التى أخذت تقول: «أيها البطل، لقد فعلتها فى النهاية».

كانت تهمة نهب الآثار تحيط عائلة سينجوس بشكل دائم، لكن لم يتم إثبات أى شىء عليهم، وعندما يُطلب من ذافنى تبرير وجود مجموعة كبيرة من الآثار المصرية فى منزلها، لم تكن تتردد فى الحديث عن ثروة العائلة فى كفر الزيات، مستطردة: «مهما يكن من الأمر (قالتها بتالفرنسية)، فنحن واحدة من أغنى العائلات فى مصر»، وكأنه لا يوجد شخص آخر يمكن أن يصبح غنياً بسهولة.

كان تورط اسم ذافنى فى فضيحة (توت عنخ آمون)، على عكس ما كان ينتظره الجميع، ذا فائدة مزبوجة بالنسبة لها. فقد أعلى من شهرتها فى مجتمع، على الرغم من تحفظه، فإنه لم يتوقف عن الركوع أمام الثروة؛ وبما أنها قد حصلت على مكاسب اقتصادية كبيرة، ومع طلب أخيها أن تغيّر من شأنها، قررت ذافنى شراء سيارة رياضية - مثل سيارة إلياس - تؤكد بها مكانتها باعتبارها امرأة مستقلة اقتصادياً، وفى ذات الوقت لم تعد بحاجة لتطلب أى "مليم" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) من زوجها. وعندما شاهد أندونيس، الذى لم يكن يتمتع بقوة ملاحظة، السيارة واقفة أمام المنزل دخل وهو يعتقد أنه سيجد إلياس فى انتظاره.

ذافنى: «وما الذى جعلك تعتقد أن صديقك إلياس موجود "عندنا" (قالتها بالفرنسية) فى هذا الوقت من الليل؟».

أندونيس: «ماذا تعنى بم الذى جعلنى أعتقد؟ لقد شاهدت سيارته تقف أمام الباب الخارجى».

- «لكنها ليست سيارته».

- «سيارة من إذن؟».

- «سيارتى» (قالتها بالفرنسية).

- «سيارتك؟ ماذا تعنين بسيارتك؟ وكيف اشتريتها؟».

ذافنى: «من ثروة عائلتى بالطبع» هكذا أجابته بتلقائية مطلقة، وعندما ذكرت ذافنى كلمة "ثروت العائلة" كانت تقصد بالطبع ثروة عائلتها الزراعية التى كانت ذريعة لها لتفعل ما تراه مناسباً لها دون الرجوع لزوجها: مثل زيادة مجموعتها من الآثار المصرية، والقيام بتعيين أشخاص جدد، دون سابق إنذار، لمعاونتها، وأن تكون لها سكرتيرة وسائق خاصان بها - فلم تكفها إعادة توظيف الأنسة جابى، ولكنها قررت أيضاً أن تجعل فى خدمتها فان كلود، أخاها غير الشقيق، هذا المخلوق السخيف الذى لم يكن أندونيس يرغب حتى فى رؤيته - وفى النهاية أن تقرر القيام برحلة كبيرة إلى أوروبا. ومن أين ستبدأ غير تورينو التى كانت مفتونة بمتحفها للآثار المصرية.

* * * * *

«بالنسبة لى فالطريق إلى ميونخ وبرلين يمر من تورينو» هكذا صرحت ذافنى وهى تردد كلمات فان فرانسوا شامبليون بعد إعادة صياغتها. وفى اليوم الذى سعدت فيه إلى الباخرة التى ستتحرك فى رحلتها من الإسكندرية - بيريه - فينيسيا، كانت بصحبته الأنسة جابى وفان كلود. وكان ذلك فى ربيع عام ١٩٢٥. وإذا كان عقلها فى تورينو، فقد كان قلبها فى ميونخ حيث يعيش ابنها الحبيب ماخوس.

لم تكن اعتراضات أندونيس كافية لمنعها من القيام بهذه الرحلة. لكنها وعدته فقط بأن تبعث إليه بتلغراف يومى، إلا أنها ندمت على ذلك فيما بعد لأنها لم تكن تتصور أنه من الصعب أن تجمع كل أحداث وانطباعات يوم كامل فى كلمات قليلة بتلغراف، لكن على أية حال كان موظف التلغراف يحرص على المرور ولو لمرة واحدة على الأقل كل يوم على منزلها فى شارع العباسيين.

(وصلنا إلى فندق تورينو بالاس، "الرائع"!) (قالتها بالفرنسية) ! الأنسة جابى سعيدة، أصيب فان كلود بنزلة برد). هكذا كتبت له فى أول يوم لوصولها إلى تورينو. وبالطبع لم تذكر له شيئاً عن جناحها الإمبراطورى بالفندق. (المتحف المصرى يقع فى قلب المدينة) (قالتها بالإيطالية). شىء فريد وعمل مدهش من أعمال سكياباريلى).

هكذا كتبت فى اليوم الثانى، غافلة كل ما شعرت به فى قاعة الأكاديمية للعلوم التى كان شبح دروفيتى يحوم بها، وبتلك الآثار التى كانت تتحدث إليها فى نفس المكان الذى كان يقوم فيه شامبليون بثقة واقتدار بفك رموز اللغة الهيروغليفية وإرساء دعائم علم الآثار المصرية. لقد أغفلت أيضاً أن تشير إليه كيف كانت تشعر بالتأثر وهى تغادر بوابة القاعة التى كان يزينها قوس من أقواس النصر بأعمدة ضخمة. فوق كل ذلك فقد أخفت عنه مقابلاتها مع شخصيات من الطبقة الحاكمة. ففى إيطاليا لم تكن طبقة العلماء هى وحدها المهتمة بالآثار المصرية، وهو ما كانت ذافنى تعرفه جيداً. ومنذ بداية ذلك العام كان موسولينى قد بدأ فى إرساء دعائم الديكتاتورية، وظهرت طبقة جديدة بعناصرها الفاشية وأثريائها الجدد، كانت تلك الطبقة تبحث بأصرار عن رموز الثراء والتميز وتدفع الكثير لى تسيطر على كل ما يجعل وجودها شرعياً. فى الوقت الذى ازدهرت فيه السوق السوداء فى هذا البلد، وبدأت ذافنى تحلم بالحصول على مكاسب ذهبية.

وعندما لم تكن تنشغل بالآثار المصرية، كانت تحرص على الاستمتاع بأجمل لحظات حياتها فى المدينة. كانت الخدمة فى مقهى تورينو، حيث ذهبت مع الأنسة جابى وفان كلود، خدمة تليق بالملوك، حتى لو كنت ستدفع فى مقابلها ثروة طائلة. هذا بالإضافة إلى روعة الثريا والأثاث الخشبي الموجود فى المقهى؛ لكن حتى هذا لم يكن أندونيس بحاجة لأن يعرفه، حيث كان إهدار النقود من الأمور التى تزعجه، حتى لو لم تكن هذه النقود من جيبه الخاص. لاحظت ذافنى أن فان كلود يمسك باستمرار بمنديل فوق أنفه، فتوجهت بالسؤال لجابى:

«هل هو مريض؟»

جابى: «لديه بعض الحساسية، وهو يتعرض لنفس المشكلة مع حلول فصل الربيع». لم تفهم ذافنى المقصود ذلك، إلا أن لون جلده الشاحب وشعره المائل للصفرة وصوته الهزيل كلها تشير إلى أنه إنسان مريض.

لاحظت ذافنى أيضاً كيف تولى الأخت العناية بأخيها بشكل مبالغ فيه، على الرغم من كراهيتها لأن تراهما يلاطفان بعضهما بعضاً فى أحد أركان الفندق. ويقدر عدم انزعاجها من طبيعة فان كلود العاطفية - لأنها لو رفضت ذلك فينبغى عليها عندئذ أن ترفض سلوك ابنها ماخوس - يقدر انزعاجها من عصبية الأنسة جابى وقرط حساسيتها التى تجعلها تبدو وكأنها خالية من المشاعر العاطفية. وكانت ذافنى تتساعل باستمرار إذا ما كانت قد أصابت عندما أسندت رعاية ماخوس إلى هذه المرأة. فالنزعة العاطفية عند كوستيس، على سبيل المثال ، كان من الصعب أن يؤثر عليها أى شخص حتى لو كانت الأنسة جابى، أما بالنسبة لابنها الصغير ماخوس فكان طبعاً يسهل التأثير عليه، وربما كان قرار إسناد رعايته للأنسة جابى قراراً مصيرياً بالنسبة له. وهناك العديد من الأمور التى أزعجت ذافنى فى تورينو وبخاصة الطقس. لقد ترك الشتاء من خلفه الرطوبة والثلج فى لياالى المدينة الربيعية، مما أصاب عظامها بالبرودة حتى النخاع وسبب لها ألماً مبرحة.

فى اليوم الأخير لها فى تورينو أرسلت تلغراف إلى أندونيس تقول فيه: «ربيعاً شتوى. هنا كنت ستتألم من الروماتيزم».

"هل أنا مصاب بالروماتيزم دون أن أدري؟" هكذا تساعل أندونيس ثم تذكر أن فى إحدى المرات كان يشكو من ألم فى أقدامه، وكانت هى تجيبه بعفوية دائمة مؤكدة أنه روماتيزم. "إنها من ضرورات الزواج، ففى سن معينة وما بعدها، أصبح يتمسك بزوجه بسبب الخوف من المرض"، هذا ما جال بخاطر أندونيس.

فى تلك الأثناء، كانت زوجته تستعد للركوب من "محطة الباب الجديد" (دوئها بالإيطالية)، وهى محطة القطار الرئيسة، واستقلت القطار المتوجه إلى ميونيخ. كان فان كلود يكافح وهو يحمل الحقائب الخاصة بهم، فى حين كانت السيدتان تستمتعان بمكانهما فى الدرجة الأولى. سافرت ذافنى من بلد تعرف لغته جيداً، وهو ما كان يمنحها شعوراً كاذباً بالراحة، إلى ألمانيا التى كان الناس فيها يثيرون فزعها دائماً. وعندئذ تساعلت ذافنى كيف فكر أندونيس فى نفى أبنائها إلى هذا المكان غير

المضياف، لم تكن تطبيق الانتظار حتى تضم ابنها الصغير بين أحضانها. كانت الأنسة جابى وشقيقها فان كلود يشعران بنفس اللفة تجاهه.

مضت على فان كلود ثمانية أعوام منذ المرة الأخيرة التى رأى فيها ماخوس. فبعد موت أمه تبع أخته إلى القاهرة، حيث تمكنت، بفضل خطابات التزكية التى حصلت عليها من ذافنى، من الحصول على عمل فى منزل أحد اليونانيين المصريين. طوال تلك السنوات لم يبرح ماخوس خياله أبداً. كان قد سمع عنه وعرف أنه سىلتقى رجلاً غاية فى الجمال، وكان يأمل أن يوقظ بداخله ذكريات تلك الصداقة الحاملة منذ سنوات الصبا. لكنه كان مخطئاً، مثلما أخطأت أخته كذلك، التى كانت تنتظر على الأقل لقاءً حاراً من هذا الإنسان الذى أصبح رجلاً على يديها.

استقبلهم ماخوس ببرود شديد وبعدما اهتم بشئونهم التقليدية، اختفى عن الأنظار لمدة يومين متتاليين بزعم انشغاله ببعض الأعمال. لم يخف ماخوس عن أمه ضيقه حيث قال: «ما الذى دفعك لإحضار هذين الشخصين معك إلى هنا، يا أمى العزيزة؟» هذا ما أخبرها به فى أول فرصة بينهما. أما هى فقد أرسلت بدورها تلعرافاً إلى أندونيس قالت فيه: «كان استقبال ماخوس لنا استقبالاً بارداً. وصلنا إلى فندق "كيمبينسكى".»

كان جان كلود وأخته يشعران بالسعادة، حيث كانا ينامان فى أحد الأجنحة الفندقية التى استقبلت من قبل العديد من الملوك. «أنا متيم (قالها بالفرنسية) بهذا الفندق، إنه أجمل مما توقعت»، هكذا صرح لأخته لكنها لم تجبه بشىء، ثم ابتسمت وربت برقة على شعره، وفى اليوم الثالث كان فى انتظاره مفاجأة أخرى غير سارة. فقد تعرف إلى الوجه الفاتن للبارون إريك شولتسير باعتباره عاشقاً رسمى لماخوس، مما هدم كل أحلامه. حتى هذه اللحظة، وطوال الفترة التى قضاها فى ألمانيا، كان فان كلود عبوس الوجه، إلا أن أحداً لم يعره أية أهمية.

«يبدأ الربيع هنا مبكراً» كان هذا ما يكتبته ذافنى فى التلعراف التالى لأندونيس، وهى تشعر ببعض الإحباط، لأنها كانت تعتقد أن الجليد سيكون فى انتظارها بشكل أكبر

فى إقليم بافاريا بجمال الألب. لكن مع البدايات الأولى لشهر إبريل ظهرت الأشجار المورقة، كما انتشرت الأزهار على السفوح ومراعى جبال الألب، فى حين تكونت العديد من الجداول المائية من الثلج الذائب بفعل دفء الجو على جبال الألب. كان إقليم بافاريا يستعد للاحتفال بعيد القيامة وقد أصبح الجليد مجرد ذكرى.

فى اليوم الرابع بدأت جولات التنزه فى المدينة، كما يظهر فى التلغراف الذى أرسلته مدام خاراميس، حيث كتبت: «تمشية على ضفاف نهر "إيزار". شىء رائع" (بونها بالفرنسية)، ثم جولة حول "الريزيدنت" ومنازل "فيتيلباخ"، معارض اللوحات، وبخاصة معرض "ماريين بلاتس"، ساحرة! ماخوس يقول: لم تروا شيئاً بعد».

فى اليوم الخامس لم ترسل ذافنى تلغرافها المعتاد إلى أندونيس، فقد حدثت اضطرابات فى المدينة، بعض الأحداث الصغيرة التى وقعت، ولم يجد ماخوس تفسيراً لتلك الكدمات الموجودة على وجهه، والتى حاول إخفاءها بوضع بعض مساحيق التجميل على وجهه. لكنها بوصفها أمّاً وجب عليها أن تسأله قائلة:

«أنا قلقة بشأنك، يا بنى» (قالتها بالفرنسية) «أما هو فبدلاً من أن يجيبها انخرط فى الضحك وقال لها (بالألمانية): «هل تتحدثين الألمانية؟».

لم تكن الأمور تدعو للضحك. ففى الأيام الأولى كانت أمه قد لاحظت أن من بين الأوراق التى يحملها صليباً معقوفاً، ولأنها لم تكن تشك فى ميوله السياسية، أشارت إليه بهذه الملاحظة: «إنه رمز قديم لحضارة ما بين النهرين، إنه رمز للنجاح!»، وعندما علمت أن ابنها نازى، وأنه كان يخرج فى الشوارع ويتشاجر مع الشيوعيين، لم يعجبها ذلك أبداً. إلا أنها لم تخبر أندونيس بهذا الأمر، كما لم تجرؤ أن تحدثه عن البارون الفاتن. سألت ماخوس أكثر من مرة، إذا ما كانا يعيشان معاً، لكنه لم يكن واضحاً فى إجاباته، قائلاً وهو يبتسم إنه يعيش فى مكان ما فى "سفانبيج". فى تلك الأثناء، كانت تشعر بصعوبة مقاومة فتنة هذا الرجل الأشقر ذى العينين الواسعتين والشارب المذهب والجسد الرياضى المشوق، الذى يفصح أسلوب حياته عن أصوله وثرائه الفاحش. "هل من الممكن أن يكونا عاشقين؟" هكذا تساءلت ذافنى ببراءة الأم التى

لا تريد أن تصدق ما تراه أمام عينيها، وعندئذ بدأت مشاعر الغيرة تعتصر روحها. "هل من الممكن أن أشعر بالغيرة من ابني!" هكذا فكرت ثم ضحكت من نفسها كما ضحكت من فان كلود الذى كان يقوم بعمل أشكال مضحكة أمامهم. وفى الحقيقة، كان من الصعب على ذافنى أن تحدد عمر هذا البارون. وقد لاحظت أنه فى كل مرة كان يلتقيها يقبل يدها بطريقة مسرحية، تجعل الشك يتسرب لقلب أية امرأة. كان دائماً ما يمتدح أسلوبها فى اللبس، ويصر على أنه لا يصدق أنها أم ماخوس. «هذا إطراء منك» هكذا كانت تجيبه (بالفرنسية) بكل دلال، وكان هو يرد بفرنسية سليمة: «أقسم لك أننى لا أصدق ذلك».

وعلى العكس من ذلك، كان حضور الأنسة جابى غير لافت للأنظار. وكانت مدام خاراميس تبدى فى كثير من الأحيان ملاحظات عن الطريقة التى ترتدى بها ملابسها، وإلى قوامها فكانت تقول لها (بالفرنسية): «إنك تشبهين "الجمال" بهذا السنم على ظهره». وبالفعل كانت جابى تتحنى أمامها وكأنها كانت تحمل سنماً على ظهرها. وعلى الرغم من اعتراض ذافنى على هذا المظهر، فإنها كانت فى أعماق نفسها تشعر بالسعادة لأن هذه المرأة ذات الخامسة والثلاثين ربيعاً والربية السابقة لابنها ماخوس لم تسرق منها الأضواء، والأمر الجيد أن جابى نفسها لم تشعر بالضيق، لكنها، على عكس أخيها، ظهرت وكأنها تفضل أن تلعب هذا الدور المهم، وكأن له معانى أكثر أهمية من مظاهر الإطراء ولعبة المشاعر. ذات مرة ذكرت ذافنى وهى تتحدث مع ماخوس جماله الذى لا يضاهيه شئ، مستخدمة ألفاظ الإعجاب، لكنها كانت تفعل ذلك كأنهم تبدى إعجابها بابنها.

فى ذلك الوقت، كانت أيامهم فى ميونيخ تحمل طابع الجمال البرى، فكانت مقسمة بين الحانات المتناثرة والمقاهى الفاخرة والمطاعم الراقية، التى كان من المستحيل وصف الديكور الداخلى لها فى كلمات قليلة بالتلغراف. لاحظت ذافنى أن ماخوس كان يحرص على أن يذهب بهم إلى الأماكن التى اعتاد مشاهير المدينة ارتيادها. ومن بين هؤلاء، كان هناك شخص تعذر عليها أن تنطق اسمه بطريقة صحيحة، حيث أشار ماخوس إلى

شخص، وقال: «ألا تذكرك هذا الرجل بأبي؟». وكان هذا الرجل هو توماس مان. كانت عينا ابنها بمثابة النظارة المكبرة التي ترى من خلالها المدينة بعظماؤها: من مغنين بالأوبرا ورسامين وأدباء وأساتذة جامعة، أسماء لا حصر لها كان من الصعب تذكرها. كما لاحظت أيضاً أن ماخوس يكن بغضاً واضحاً لليهود، حتى إنها قالت له: «ما الذى حدث لك تجاه اليهود؟ لقد عشنا لسنوات طويلة معهم. ولم يسببوا لنا الضيق من قبل. فما سبب هذا العداء؟».

وقد ظنت ذافنى أن لهذا العداء علاقة برجل الإسكندرية الغامض، رودولف إس، الذى التقياه فى أحد المطاعم بالمدينة. كانت ذافنى تكره هذا الرجل، لأنها تأكدت من خلال كلام ماخوس أن السيد إس هو ابن لأحد تجار الجملة الألمان - المصريين، مثل ابن عمها ثنائيس. وفى اليوم التالى، بينما كانت تسير فى شارع "لودفيغ" شاهدوا سيارة مرسيدس مكشوفة سوداء اللون تعبر من أمامهم. وكان قائدها رجلاً ذا شارب صغير، يرتدى جاكيتاً وبالطو فاتح اللون واقياً للمطر، كان مظهره يعطى الانطباع بأنه أحد رجال العصابات، وكان محاطاً بحرسه الخاص. وقد علق ماخوس بحماس قائلاً: «أدولف هتلر!».

فى نفس اليوم أرسلت ذافنى تلغرافاً (بالفرنسية) لابنها الأكبر فى برلين قائلة: «أنا قادمة إليك الأسبوع القادم»، فريما استطاع كوستيس أن يعطيها تفسيرات لكل ما يحدث، حيث انتابته بعض المخاوف بسبب إقامتها فى ميونخ، تلك المخاوف التى لم تستطع أن تطلع أندونيس عليها.

وكان كل ذلك لم يكن كافياً، فقد قاموا بزيارة إلى "قصر" (ذكرها بالفرنسية) البارون شولتسير الذى يقع خارج "باشا" فى إقليم بافاريا، حيث قامت ذافنى، وهى تشعر بتأنيب الضمير، بعرض ذلك على زوجها فى التلغراف الذى كتبت فيه: «رحلة إلى إقليم بافاريا بالألب». ما الذى يمكن أن تضيفه؟ كان انتقالهما بالسيارتين الفارهتين الخاصتين بالبارون يمثل شيئاً رائعاً. كان السائقان يرتديان زيّاً رمادياً فاتح اللون،

صامتين ثابتين فى مكانهما، يشبهان عساكر الجيش خلف عجلة القيادة. فى أثناء الرحلة أخذت ذافنى تتخلص ببطء من مخاوفها ومن إحساسها بالذنب. مروا بطرق تحفها الأشجار، وعند المساء رأت الشمس وهى تغرب وتلقى بأشعتها الذهبية على أوراق الأشجار العتيقة. وبالنسبة لها فقد بدأ اليوم بمجرد وصولهم إلى " القصر ". لم تكن ذافنى تتخيل مدى روعة تلك المنازل الصيفية بإقليم بافاريا الأرستقراطى، وكأنها زهور حجرية فى سفوح جبال الألب. لم تكن تعرف ما الذى تبدى إعجابها به أولاً؟ بالمدخل المكسو بالكاليل الزهور المصنوعة من الرخام! أم بالنوافذ المقوسة بالطابق الأول! وكأنها منازل رسمها طفل من وحى خياله، وقد اختار اللون البرتقالى الفاتح لدهان الحوائط الخارجية، أم بتلك السقيفة فى الجناح الملحق الذى كان يداعب خيال الزائر؟ استقبلهم رئيس الخدم، ذلك الرمز الأصيل للبارونية، بابتسامته الصلبة المرسومة على وجهه وبصلابة ياقة قميصه. إلى جانبه تقف الخادمة السمينة فى زيها الرسمى. وعبر ذلك السلم الذى يضيق فى الطابق الأعلى صعدوا إلى الطابق الأول، وعندئذ اكتشفت ذافنى أن تلك النوافذ المقوسة التى أبدت إعجابها بها كانت تسمح لشعاع ضئيل من الشمس بالدخول لإضاءة الطريقة، حيث كانت غرف النوم متناثرة فى كل مكان. أخذ إريك يوزع الغرف على ضيوفه. كان هناك العديد من اللوحات العائلية التى تبدأ مع بداية السلم وتستمر حتى الغرف فى تسلسل واضح لشجرة العائلة. ومن النوافذ يمكنك مشاهدة البرجين التوأمين لكاتدرائية سان ستيفانو اللذين يظهران بوضوح من أى مكان مرتفع فى "باشاو". كانت المدينة كلها مبنية على ضفاف الأنهار الثلاثة، أحدهم هو نهر الدانوب، وكانت نسمات الجنوب التى تداعبها تعطيتها انطباعاً بجو يشبه جو البحر المتوسط. فى غرف النوم ذات الأسقف العالية كانت ألوان واجهة القصر تنعكس عليها ولكن بدرجات داكنة. بعض الأشكال المبالغ بها، مثل تلك اللوحات الزيتية الثلاث وهذه الثريا الصغيرة، كانت تعطى انطباعاً بجو المتاحف البارد فى مثل هذا المكان الذى كان ينبغى أن يكون أكثر دفئاً؛ وكانت القبة التى تعلو السرير تساعد فى زيادة هذا الشعور. ربما لهذا السبب شعرت ذافنى لبرهة قصيرة برجفة تسرى فى جسدها، ولذلك فلم تدع الخادمة تأخذ عنها المعطف، وقد أوعزت لها صورة تلك المرأة

العجوز الموضوعة على الكومودينو بأنها " غرفة الوالدة " عندما قررت ذافنى بعد ساعتين الخروج من الباب الأبيض الضخم ذى الحواف الذهبية، كان الباكون قد اجتمعوا بالفعل فى غرفة الجلوس الكبيرة. وبينما كانت تهبط من السلم وصل إلى سمعها صوت إحدى سيمفونيات باخ، وقد تعرفت من خلال تلك النغمات على أصابع الأنسة جابى. ثلاث ثريا تشبه عناقيد العنب، كانت تنشر ضوءها فى قاعة الجلوس الفسيحة الواسعة، أما الشمعدانات المتساوية الأذرع التى كانت تذكرها بتلك الموجودة بكنيسة إيفانجيليزموس بالإسكندرية، فكانت تلقى بضوئها الأصفر فى الأركان المنزوية بالقاعة. وبعد أن أرخى الليل سدوله بدأ دفا المدفأة الرخامية الضخمة ينشر معه الشعور بالسعادة. كانت المدينة تتلألأ من خلف الستائر الثقيلة بوصفها مجموعة من النجوم. تم إعداد العشاء فى موعده: حساء به قطع صغيرة من الكبد، أما الطبق الرئيسى، فلم بقرى مطهو على البخار مع الخضراوات. يصحب كل ذلك نبيذ أحمر مميز وروح البارون المتلألئة، الذى لم ينطق طوال السهرة بكلمة ألمانية واحدة، وكان فى حالة مزاجية شيطانية. حتى فان كلود كان يضحك على مليحاته. جلست ذافنى معهم تلك الجلسة "الشبابية" لوقت قصير فى قاعة الجلوس، ولكنها تحت تأثير النبيذ والإرهاق اللذين أثقلا جفניה أرادت أن تتركهم، فإن النوم كان قد غلبها مرتين بينما كانت تجلس على الأريكة. ورفضت مساعدة جابى لها، قائلة (بالفرنسية): «اعتن أنت بالرجال» ثم انسحبت بعد ذلك بمفردها.

استيقظت ذافنى فى صباح اليوم التالى فى حالة مزاجية أفضل، ولكن يبدو أن الجميع كانوا فى حالة يرثى لها، بدءاً من ماخوس الذى ظهر دون أن يضع أية مساحيق، مما أدى إلى ظهور بعض الآثار الداكنة على وجهه، تلك التى كانت بودة التجميل تخفيها حتى هذه اللحظة. لكنه عندما أدرك ذلك عاد مسرعاً إلى غرفته وهو يخفى وجنتيه بيديه. ثم ظهر بعد ذلك جان كلود بوجه عبوس، وعندئذ شرحت جابى لذافنى السبب فى ذلك، فقد خدعه كل من ماخوس وإريك فى لعبة قذرة فى الليلة السابقة وأجبراه على الخروج عارياً إلى حديقة القصر. كانت ذافنى على وشك الضحك، لكنها

تماسكت لأن الأنسة جابى لم تكن تعتبر ذلك أمراً مضحكاً على الإطلاق. أما الصدمة الكبرى فكان بطلها البارون نفسه عندما هبط باحثاً عن أزرار قميصه الذهبية. وعندئذ فكرت ذافنى فى أن الجميع سوف يتهمونها بسرقتها، وسوف تتسبب بهذه الطريقة المهينة فى إحراج ابنها وإحراجها هى نفسها أمام البارون البافارى. أما الأسوأ: فهو أنها لم تكن واثقة تماماً من براعتها. ولحسن الحظ فقد أخرجتها الخادمة سريعاً من هذا الموقف السيئ بعد أن أحضرت الأزرار الذهبية الخاصة بسيدها من حجرة نوم السيد ماخوس!

ويبدو أن الأمور قد هدأت بعض الشيء بعد تلك الجولة التى قاموا بها بالقرب فى نهر الدانوب تحت أشعة الشمس وقت الغروب، حيث أخذ ماخوس يستعرض أمامها مهارته الرياضية فى التجديف. بعد ذلك أخبرهم إريك أنهم سيتناولون العشاء الليلة فى ضيافة إحدى الأسر الأرستقراطية بالإقليم، وعندئذ بدأت تستشعر بعض الخوف من أنها ربما لن تستطيع أن تمنع نفسها من سرقة إحدى علب السجائر الفضية أو أى شىء آخر من على مائدة العشاء.

فى حجرة الطعام الفسيحة فى منزل آل شولتسير، كان هناك العديد من الأعمال الفنية والأشكال المنحوتة على الحوائط وعلى الأرفف، وكذلك الأضواء التى تنبعث من الثريا الضخمة، كل ذلك كان يساعد على إبراز ذلك البورتريه الخاص بلودفيك الثانى بيافاريا، الذى كان معلقاً خلف المقعد الذى يجلس عليه رب الأسرة. كانت قائمة الطعام تحتوى على العديد من الأصناف، ومن بينها لحم الخنزير المطبوخ الذى تم تقديمه فى حسائه، وقد أعجب ذافنى كثيراً.

كانت العائلة الأرستقراطية مملة. وحول المائدة كان كل ما يمكن أن تراه هو: ملابس السهرة والباييون والأزياء الحريرية الملونة، كما كان الجميع يتبادلون حوارات مملة لا طائل منها. استمعت ذافنى للعديد من المبالغات والأكاذيب الكبيرة التى يلقبها أشخاص لمجرد لفت الانتباه، حتى إن الأنسة المتماسكة جابى كادت تتخطى كل الحواجز المسموحة فى التفاخر، مما جعل ذافنى تشعر بالحنين لحفلات الإسكندرية.

وفى بعض الأحيان كانت تضطر للتهرب من الإطراء الذى يحاصرها به أحد البارونات المسنين، وقد اكتشفت أنه من أشد المعجبين بالسجائر التى ينتجها زوجها. «شئ غريب أنك لم تدخنى قط!» قال ذلك بلكنة فرنسية واضحة، بينما كان يشعل سيجاره من شعلة أحد الشمعدانات التى أمدّه بها الخادم. أما ذافنى فكانت لديها الرغبة فى أن تخبره بأن الدخان يزعجها وبخاصة دخان السيجار، لكنها ابتسمت ببساطة ابتسامة متحفظة. على أية حال، وبما أن أغلب المدعوين من المسنين، فقد إنتهى بها الأمر لتصبح الجسر الذى يربط بين الخمسة أفراد المجتمعين. فبطريقة معتادة شعرت أنها هى المسئولة عن إنجاح هذه الأمسية لكن إحساسها بالإحباط كان لا يوصف، فقد وصل الأمر فى النهاية بماخوس وإريك إلى الدخول فى حوار عنيف - أو على الأقل هذا ما بدا لها حيث إنها لا تعرف الألمانية - عندما انصب الحوار على النازيين وعلى هتلر. «عزيزى ماخوس، ليس النازيون سوى عصابة من المخبولين المخربين» هكذا أبدى إريك ملاحظته، بينما كانت ذافنى تتابع نظرات الحاضرين وهى تتطلع إليه.

ماخوس: «مخبولون ومخربون؟» سأله ماخوس غاضباً.

إريك: «نعم، هل يبدو لك ذلك غريباً؟ على أية حال، يجب أن أعترف أن لهم فائدة فى شئ واحد، فسوف يخلصوننا من الشيوعيين، وبعد ذلك سيكون حسابهم معنا عسيراً».

- «معكم؟ من تقصد بكلمة "معكم"؟ من أنتم إذن؟» قالها ماخوس بإصرار وقد ازداد انفعالاً.

- «نحن ألمان، الألمان، يا عزيزى ماخوس، هل لديك شك فى ذلك؟».

- «إطلاقاً، لكن إذا أردت رأيي.....».

- «لسنا بحاجة لرأيك، يا صغيرى، فأنت يونانى. دعنا نحن الألمان نتفرغ لشئون بلادنا، فلدينا هذا الحق».

أما ما حدث فيما بعد فكان مخيفاً. فقد بدأ ماخوس فى العواء، وهو يحمس أصدقاءه، وأصبح البارون فى حالة من الجنون لما يفعله ماخوس. ولم يكن ينقص سوى أن

يتشابكا معاً بالأيدى. شعر الجميع بالحزن على ما آل إليه الأمر، وربما يستثنى من ذلك فان كلود، الذى كان جالساً فى أحد الأركان مبتسماً وكأنه قد انتقم لنفسه. ارتاحت ذافنى لفكرة أن ولدها الصغير لن ينام هذه الليلة على الأقل فى أحضان البارون.

فى صباح اليوم التالى إعترف كل من ماخوس وإريك أنهما قد تسببا فى إفساد الليلة الماضية، لكنها ليست أول مرة يحدث ذلك بينهما. أما البارون شولتسير، فبرغبة منه فى إصلاح الأمور، أعلن أنه من أجل السيدة خاراميس سوف يذهب بهم إلى حيث تمتع عينيها برؤية الجليد؛ أما ذافنى التى لم تر الجليد منذ عام ١٩١٠، حين هطل لآخر مرة على الإسكندرية، فكانت كالطفل الصغير من فرط سعادتها وهى تفكر كيف أنها ستمكن من الغوص بأقدامها فى الثلج ناصع البياض الذى يشبه القطن فى جبال الألب. ولم تكن ذافنى تتخيل أنهم سيضطرون للابتعاد لمسافة طويلة عن ميونخ، وعبر الحدود مع النمسا ثم الاتجاه نحو الجنوب، وصولاً إلى محل ميلاد موتسارت، حتى سالزبورج. والأكثر من ذلك، أنها لم تكن تتخيل أن أول لقاء لها مع هذه الظاهرة المناخية الغريبة سيكون لقاءً مصيرياً بالنسبة لها: فلم تكن ذافنى معتادة على السير على الجليد، ونتيجة لذلك فقد انزلت قدمها وسقطت على ذراعها الأيمن. وفى طريق العودة، لم تستطع ذافنى تحريك يدها وظلت تصرخ من شدة الألم، كانت ترتجف من تلك اللحظة التى سوف تضطر فيها إلى تقديم تفسير لاندونيس. لكن كانت رؤيتها لمنزل موتسارت فى (٩) شارع جيندرادينجاس كافية لمواساتها.

عادت ذافنى بعد عناء إلى ميونخ، وكتبت تلغرافاً إلى كوستيس تطلب منه الحضور إلى برلين. لكن ابنها الأكبر أجابها (بالفرنسية): «أنا مشغول جداً هذه الأيام. من الصعب الحضور. لا داعى للقلق».

"أنجب أطفالاً وسترى العجب" هذا ما جال بخاطر ذافنى، وبدون تأخير أرسلت لزوجها قائلة: «"حادث بسيط" (قالتها بالفرنسية). كسرت ذراعى. أنا فى طريقى للعودة».

* * * * *

اعتادت ذافنى منذ أن كانت طفلة صغيرة أن تسخر من جروحها وكثيراً ما كانت تظهر وقد ربطت ذراعها أو رأسها أو قدمها، كانت عادة لديها، وبلا أدنى شك، فقد حافظت عليها رغم كبر سنّها، حيث لم تتمكن أمّها من إخافتها عندما قالت لها يوماً: «سوف توضعين على الرف، إذا ما داومت على الحفاظ على تلك الأربطة» (قالتّها بالفرنسية)، لكن كان عليها هذه المرة أن تواجه زوجها فى هذا الموقف.

أندونيس: «كان معى الحق إذن عندما لم أوافق على هذه الرحلة منذ البداية» هكذا قام أندونيس بتحيتها عندما شاهد يدها التى وضعت فى الجبس.

ذافنى: «أنا لست طفلة صغيرة» أجابته بعصبية، ثم استطردت: «يمكن أن يحدث هذا لأى شخص».

- «هكذا، أخبرينى إذن، ما الذى جعلك تبحثين عن الجليد فى أوروبا ونحن فى فصل الربيع. فى حين أننى أرسلتك للاطمئنان على ولدينا، أما أنت فكنت فى النمسا بذراع مكسورة. هل يمكنك أن تشرحي لى هذا؟».

- «دعنى أرجوك فأنا أتألم» قالتها فى محاولة منها للتخلص من فترة تقديم التفسيرات العسيرة. ثم فكرت أن تبدأ هى فى الهجوم: «ولكن ماذا تعنى بأنك أرسلتنى؟ فى النهاية، أنا أبلغ من العمر خمسين عاماً، بينما تصر على أن تحدثنى وكأنك جدتى أو والدتى».

- «إنه لأمر جيد أن تذكرى عمرك فى بعض الأحيان».

- «أستحلفك بالله، يا أندونيس، إنها مجرد رحلة قمت بها مثل كل النساء. ولا تنس أنك أنت الذى حرمتنى من ابنى. أنت الذى قمت بنفيهما إلى ألمانيا. أنا أم، ولم أرهما لسنوات طويلة».

- «والآن وقد رأيتهما، هل شعرت بارتياح؟».

- «لقد رأيت ماخوس فقط، أما كوستيس فلم نستطع أن نلتقى. لقد تمكنت من إبعادى عن أبنائى».

- «ولكن أبناءك بخير حيث هما، لا تقلقى عليهما، وليست لديهما أية رغبة فى العودة إلى مصر. أما بالنسبة لك، فقد كان من المقترض أن تسافرى لرؤيتهما، ولكن كانت لديك رغبة أشد فى رؤية الآثار المصرية فى تورينو والجليد فى سالزبورج».

- «مهما يكن من الأمر (قالتها بالفرنسية)، أنا لم أطلب منك قرشاً واحداً. كان ينبغي على الأقل أن تقدر ذلك».

- «أه " ثروة العائلة " المعروفة!».

- «نعم، يا سيدى، ثروة عائلتى، ولم لا؟ حتى الآن تتذمر بسببى، وبسبب أخى، وبسبب أسرتى المدمرة. تفضل إذن!».

- «نعم، بثروة العائلة تلك، التى يعلم الله وحده مصدرها، أسست إمبراطوريتك الخاصة هنا، وتقومين بتوظيف من يحلو لك. وملاأت المنزل بهذا الكم من المومياوات والتماثيل، وبالطبع لن أذكر الصفقات والحفلات. امرأة تملك سيارة وسائناً وسكرتيرة. ثم تقولين لى بعد ذلك إنك تشتاقين لأبنائك. إنها كوميدى إلهية، يا عزيزتى ذافنى، هذا كل ما فى الأمر! لكن أرجو أن يكون ذلك الحادث بمثابة درس حتى تبقى فى منزلك».

كان وقوع ذافنى فوق الجليد هو أول حادث جاد فى حياتها، والذى كانت لتشعر بالفخر والسعادة تجاهه لو لم يتذمر أندونيس أو يصر طبيبها ستيفانوس أن تشرب كوبيين من اللبن يومياً.

لقد أصبح زوجها يتنبأ بما ستفعله فى المستقبل: «بعد هذا الحادث» (قالها بالفرنسية)، لا أعتقد أن ذافنى ستجرؤ على مغادرة المنزل» هكذا كان أندونيس يردد لكل من كان يسأله عن صحة زوجته. وربما لكى تكذب كلامه قررت أن تسافر مرة أخرى إلى أوربا خلال فصل الصيف، متجاهلة اعتراضه، حيث أعلنتها بقوة «أنا بصحة جيدة» (قالت ذلك بالفرنسية). هكذا اختارت طريقها، ثم صعدت إلى الباخرة وغابت عن الأنظار.

أما أندونيس فكان يصرخ، من وراء ظهرها، بأن زوجته قد فقدت عقلها، لكنه فى الواقع كان يشعر بالغيرة تجاه تلك الحيوية العجيبة التى دبت فى أوصالها، والتى لم تكن من وجهة نظرة تليق بسنها. "الجاموسة" (قالها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) العجوز! أصبحت فى الخمسين من عمرها وتتناهر وكأنها طفلة، هكذا كان أندونيس يحدث نفسه.

فى تلك الأثناء، كانت ذافنى عازمة على أن تنهل من الحياة حتى آخر قطرة. الآن وقد استقرت طبيعتها الأنثوية أصبحت أكثر قوة. لقد واجه واجبها باعتبارها أمًا التجاهل التام من ولديها، الآن فقط أدركت المعنى الحقيقى للحياة وأصبحت حرة أخيراً. لقد تحررت تماماً من نزعة حبها الفطرى لابنيها تماماً مثل تحررها من اعتمادها على زوجها. لم تعد لديها أية أمنية، أية رغبة، أية واجب، أية وجهة. أخيراً أصبح لديها الوقت لكى تفكر، لكى تقرأ، لكى تتناقش، لكى تسافر فى عالمها الواقعى، وبالأخص فى عالم الماضى الذى كان يسحرها دائماً. كانت تكتشف فى نفسها كل يوم شيئاً جديداً، تلك التى كانت تكرس نفسها لخدمة الآخرين طوال تلك السنوات. لكنها لم تحدث أحداً فى ذلك. كانت تتغلب على نزعتها الغامضة تجاه رغباتها الشخصية، لقد أصبحت بدورها قادرة على القيام بكل أنشطتها، تلك الأنشطة التى كان معظم الناس يطلقون عليها اسم نهب الآثار، بينما كانت تعتقد أنها مجرد امتداد مفيد لعشقها للآثار. رحلة عبر الزمن، عبر كل أنواع الاكتشافات، لم تكن تلك هى الوسيلة الوحيدة لكى تحصل على السعادة التى تتوق لها، ولكنها أيضاً بمثابة ذلك الشيطان الذى سيجعلها تشعر بالأمان النفسى الذى كانت تبحث عنه فى وقت سابق. ولهذا فقد خصصت غرفة من بين الإحدى عشرة غرفة بالفيلات لتحويلها تدريجياً إلى "متحف شخصى". فى هذه الغرفة قامت بنقل أثمن القطع التى لم يكن مسموحاً أن تراها عين شخص آخر، والأسباب معروفة بالطبع. كانت تلك القطع بالنسبة لها هى الصحبة التى تقضى معها ساعات من التأمل والقراءة فى الحضارات القديمة. بدأت بقلادة من الذهب المرصع لم تستطع تهريبها إلى الخارج، ثم أضافت إليها رويداً رويداً الأواني الزجاجية المزخرفة، إناء من الفخار الأسود عليه رسومات لبعض الحيوانات، تمثالاً فرعونياً، صندوق لحفظ الحلى

من الخشب المطعم بالذهب، تابوت يحتوى على أوعية صغيرة لحفظ أحشاء الموتى. تظل تلك الغرفة مغلقة طوال اليوم، ومع حلول الليل، عندما ينهك أندونيس فى العمل فى مكتبه لمراجعة حسابات اليوم، كانت ذافنى بدورها تغلق على نفسها متحفها وتتجاذب أطراف الحديث مع تلك الأشياء التى لا حياة فيها. وفى كثير من الليالى تظل مستيقظة حتى الفجر، وبخاصة فى الليالى المصرية الرطبة والحارة التى كانت تتسبب فى حرمانها من النوم؛ كان يغلبها النوم أحياناً وهى جالسة على مقعدها الضخم ذى المسند المصنوع من الجلد. وعندئذ يأتى إليها النوم محملاً بالعطايا: أحلام عن عظمة الفراعنة، قصور ومعابد ضخمة، أشكالاً من الحجر والرخام والذهب. كانت الحياة تدب فى التماثيل وتبدو وكأنها تتجول فى الطرقات الواسعة، قاعات مزخرفة وغرف سرية، موميאות محنطة تُبعث إلى الحياة من جديد، تتعاقب، تحارب، تسيطر، تحكم. لكن لم يكن كل ذلك يستمر لوقت طويل، فقد كان ضوء النهار يصيب تلك الأحلام بالفزع ويجعلها تختفى فى مخابئها. كانت المعابد والقصور تنهار، والذهب والحجر يتحولان إلى رمال، والهمسات التى كان يخيّل إليها أنها تسمعها من تلك التماثيل الضخمة لم تكن سوى صوت فروع شجرة الأوكاليبتوس^(١٦)، وهى تلامس نافذة الغرفة بينما تداعبها الرياح التى تهب من البحر. يا للإحباط! الآن فقط استطاعت أن تفهم صمويل عظيماني الذى كان يصر على أن يحتفظ بالطابق الأول فى فيلته برشدى مغلّقاً لاستخدامه الشخصى، ولم يكن مستسلماً كلياً لجشع الثروة على العكس من أخيها لوكاس. كان يشعر بنفس العشق، وإلى جانب ارتباطه الروحى والقوى بعالم الماضى، فربما كان مثلما كانت هى أيضاً، من رسل الحضارات القديمة المختارين الذين كان فرضاً عليهم أن يوجدوا هنا ليحموا ويثبتوا كل ما شهدته تلك الحضارات من مجد.

لم يفارق ذافنى أبداً الإحساس بالماضى، وفى اللحظة التى كانت سيارتها تتحرك ببسر فى شارع فؤاد، يجول بخاطرها أنها تتابع علامات "الطريق الكانوبى" عبر "بوابة الشمس" حتى "بوابة القمر"، بينما كانت تسعى للوصول إلى البحر. لم تكن تتطلع عبر

(١٦) الأوكاليبتوس، نوع من الأشجار التى تستخدم أوراقها وأزهارها فى العلاج. (المراجع).

شرفة النادى البحرى اليونانى - مثل الآخرين - إلى حركة البواخر فى الميناء الغربية، ولكن إلى السفن العتيقة، التى تبدو بمجاديدها الهائلة مثل حشرة أم أربع وأربعين الضخمة وهى تقترب من مرساها فوق سطح المياه الهادئة. اعتادت أن تتجول على شاطئ البحر، باحثة فى أعماق تلك الرمال والصخور المتناثرة عن آثار تلك البيوت والقبور القديمة. مقر الحكم الذى أقام فيه البطالة قصورهم أصبح الآن تقريباً تحت سطح الماء، لكن ذلك لم يمنعها من أن تلهب خيالها وأن ترى من جديد الفنار الشامخ الذى كان يقف يوماً على تلك الجزيرة الصغيرة أمام الميناء.

كانت لديها القدرة أن تحدد، من أى مكان توجد فيه بالإسكندرية، كيف يمكن الذهاب " إلى قيصرية، إلى سرايوم، إلى قصور البطالة، إلى المسرح، وبخاصة إلى المتحف وإلى مكتبته العظيمة. تلك المجموعة الهائلة من الأبنية التى كان لدى علماء الآثار فكرة بسيطة عنها، كانت ذافنى تراها أمام أعينها، بل ويمكنها أن تصف بدقة قاعات المحاضرات، المعامل، مراصد النجوم، قاعة الاستقبال، حديقة الحيوانات. وقد اعتادت هى نفسها أن تتجول فى تلك الأماكن، وأن تتجاذب أطراف الحديث مع إقليدس عن الأرقام، ومع إراتوستينيس الذى قام بحساب مساحة الأرض، ومع كاليماخوس -الذى يحمل ابنها نفس اسمه- عن الشعر، ومع أريستارخوس عن نظرية المركزية، ومع أراسيستراتوس عن الدورة الدموية. كانت أصوات المصريين من بانعى الفاكهة فى المدينة الحديثة يتردد صداهم وهم يعلنون عن بضاعتهم، أصوات أقدام الخيول وهى تجوب الطرقات، أصوات السيارات وهى تروح وتجيء، السائقين وهم يضغطون بشدة على نغير سياراتهم، احتشاد الناس فى الحانات والكازينوهات بالكورنيش، فى محلات الحلوى وفى المقاهى الراقية، كل تلك المظاهر الساحرة التى تتكرر كل يوم كانت تحيط هذا السيل المتدفق من الذكريات. لقد وجدت ذافنى نفسها وأثبتت ذاتها مرة أخرى فى هذه الضوضاء، فى هذه التجمعات، فى جولاتها فى المحلات التجارية، ومن خلال مشاركتها فى كل الأنشطة الاجتماعية. كانت شديدة الحرص على الإبقاء على علاقتها الوثيقة بأعضاء الجالية اليونانية من أجل مصلحة زوجها، كانت تحيا من أجل المشاركة فى تلك الدائرة المحكمة التى كانت تشكلها

الاحتفالات الوطنية والدينية. فى أعياد الميلاد التى كانوا يحتفلون بها بالعبادات الأوربية، وفى العروض الاحتفالية ليوم ٢٥ مارس التى كانت تفيض فيها مشاعر اليونانيين، فى احتفالات عيد الهالويين وفى الرحلات التى كانت تقوم بها فى أعياد الربيع إلى الحدائق الخضراء، فى الاستعدادات للاحتفال بعيد القيامة وفى الشعائر الدينية بكنيسة سان سافاس وزهرة يوم الجمعة الكبيرة، وفى الاحتفال بعيد القيامة فى كنيسة إيفانجيليزموس، فى الاحتفال "بشم النسيم" (ذكرها باللغة العربية وبوئها بحروف يونانية) وفى التجمع الكبير فى الأول من شهر مايو، فى العروض المدرسية فى استاد البلدية بالمدينة، تلك العروض التى كانت إيذاناً ببدء موسم السباحة فى البحر على رمال شاطئ ستانلى وسيدى بشر، وسان ستيفانو وجليم.

وفى النهاية عندما كانت تشعر بالتعب من كل هذا، كانت تستقل أول باخرة لترحل بها إلى أوروبا فى رحلات طويلة، لم يكن بينها وبين أندونيس خلالها أى اتصال سوى أن يتلقى منها إما كارت بوستال أو تلغرافاً.

* * * * *

كان إلياس خورى على حق عندما كان يقول: «لماذا أسافر بعيداً عن الإسكندرية؟ من هنا أستطيع أن أرى العالم ومستقبله بشكل أكثر وضوحاً».

حقيقيةً، لو أراد أى شخص أن يرى التغيرات المستقبلية على الخريطة العالمية، فلم يكن عليه سوى الحياة لوقت قصير من فترة ما بين الحربين فى مدينة الإسكندرية، هذه البوتقة الغريبة متعددة الأجناس، حيث تكشف الرغبات والموجات بوضوح كل ما هو أت. بنظرة واحدة يمكنك أن تستنتج الخطوة التالية التى سيقوم بها المصريون ومحاولات اليهود لإقامة وطن لهم فى فلسطين، صعود الفاشية والنازية، أما إصابة الأسد البريطانى بالشيخوخة فقد كانت الحرب القادمة بمثابة الرقصة الأخيرة بالنسبة له.

قام حايم وايزمان، زعيم الحركة الصهيونية بزيارة الإسكندرية للمرة الأولى فى عام ١٩١٨، ومن بعدها تعددت زياراته لها، ولكن على الرغم من ظهوره الدائم بصحبة صامويل عظيمان، فإنه لم يقبل أبداً أن يقيم فى فيلته فى رشدى، وكان يفضل أن يقيم فى ضيافة البارون دى ميناسيه فى محرم بك. وكان قد حضر باعتباره زعيماً لإحدى اللجان اليهودية من أجل تحقيق مصالح اليهود فى فلسطين، مطمئناً العرب تجاه نيات اليهود الخفية. لقد أدرك أن السمعة التى تطارد صديقه باعتباره مهرباً للآثار من شأنها أن تفسد القضية برمتها. أما صمويل الذى لا ينبغى الشك فى صدق نيّاته، فلم يظهر أى إحساس بالإهانة تجاه ذلك القرار، معتبراً أنه من الطبيعى أن يحل وايزمان ضيفاً على رئيس الجالية اليهودية بالإسكندرية، متحلياً بالصبر من أجل تحقيق الهدف اليهودى.

لقد اتهمه إلياس، دوناً عن غيره، بأنه المورد المالى الرئيس لدعم تهريب السلاح إلى فلسطين من تسليح "الهجانة" (ذكرها باللغة العربية وبوئها بحروف يونانية)، التى كانت بمثابة جنود الجيش الصهيونى السرى. وعندئذ كان صمويل يدعوه على الملأ بأنه "عدو للسامية"، ومن ثم قطع كل منهما علاقته بالآخر، وأصبح يوم الأربعاء الذى كان يوماً ثابتاً للعب الورق فى منزل عظيمان فى عداد الماضى.

والحقيقة أن إلياس كان قد أفرط فى الانغماس فى حلم كل العرب، وكان من بينهم السوريون - اللبنانيون المسيحيون الذين كان البارون دى ميناسيه يشكو منهم لحايم وايزمان قائلاً: «إنهم لا يأخذون الأمر مأخذ الهزل، ولكنهم معادون للسامية». ويقال إن إلياس غادر ذات مرة إحدى حفلات الحى اليونانى مسرعاً، بعد أن وجد نفسه مضطراً للجلوس مع أحد اليهود المعروفين بمعتقداتهم الصهيونية. وطبقاً لهذه الرواية، فقد جاءت الإجابة التى أعطاها لرب المنزل الذى حاول أن يثنيه عن المغادرة على النحو التالى: «لا تورطنى مع أحد السفارديم القدرين! إلى اللقاء» (قالها بالفرنسية).

أما فى واقع الأمر، فلم تتأثر علاقة إلياس بيهود الإسكندرية بشكل جوهري. ومن جهة أخرى، لم يعط الكثيرون ممن كانوا يحيون فى رغد من العيش فى تلك الحقبة أية أهمية لتطلعات وايزمان الصهيونية ومن معه. ولم تكن أراؤه تجاه المطالب العربية

واضحة على الإطلاق. ففي حين كان يدعى أنه يحاول إيقاظ الطابع العربي بالشرق الأوسط، فإنه، من ناحية أخرى، كان يصف سعد زغلول بالمهرج السياسى، ولم تكن لديه رغبة حقيقية فى الاستماع إلى أنصار حزب الوفد المتشددين. كما يرى البعض أن تعاونه مع الإنجليز تشويه مشاعر متناقضة، لكنه كان يعتبر هؤلاء هم جيل عام ١٩١٤. كان أندونيس، الذى سمع إلياس يتحدث مراراً وتكراراً عن تلك القضايا، قد توصل إلى استنتاج مفاده؛ أن بداخل هذا الرجل صراع بين المواطن العالمى ذى النشأة الغربية والمواطن العربى. ووفقاً لمعتقداته، فقد توصل إلياس إلى قناة مصطنعة من أجل الإغلاء بوجه عام من شأن النبوءة الخاصة بالصحوه العربيه، مغرقاً بين هذه النبوءة وبين أشكال النشاط ضد أصدقائه الإنجليز الذين، وفقاً لقناعاته، سوف يدعمون العرب قبل أن تنهار إمبراطوريتهم إلى الأبد. أما بالنسبة لعذائه للساميه، فلم يكن سوى رد فعل قوى على نزعات الصهاينه التى تبدو متناقضة مع ما يعلنه ممثلوها من حسن النيات. كان من الصعب على شخص مثل إلياس - تعلم كيف يتعايش مع اليهود فى سلام ووثام مثلاً تعايش مع اليونانيين والأوربيين الآخرين - أن يرى اليهود فجأة باعتبارهم أعداء خطرين، أو هكذا كان أندونيس يعتقد.

فى تلك الأثناء، لم يتوقف " اللبنانى " لحظة واحدة عن الحديث عن الحرب القادمة من أوروبا، وكلما مرت السنون، كلما تجنب السفر إلى القارة العجوز قدر الإمكان. أما بالنسبة لإيفيت فقد أصابها الذعر من الحرب، ولم تشأ أن تدركها وهى فى إحدى دول أوروبا. وعندما يسأل أحدهم إلياس عن الحرب القادمة، يشير باتجاه كرموز- حيث يتجمع الإيطاليون المعدمون على حدود المدينة المصرية - ويقول: «أرى يد موسوليني الشيطانية تلقى بظلالها على الإسكندرية!». انتشرت هذه الفكرة فى حانة دانييل، وقد نبعت من ردة فعل دوتشيه الشيطانية. لم يعد هناك شئ فى حانة ذلك الإيطالى يذكر بمجد تلك السنوات البائدة. فبعد الحرب أقيم العديد من الأماكن التى يستطيع أى شخص أن يستمتع فيها باحتساء كوب من البيرة أو فنجان من القهوة أو كأس من الويسكى. لقد أضاف "الكورنيش" الجديد، الذى تم استكماله فى عام ١٩٢٠ .

مدينة جديدة داخل المدينة الموجودة بالفعل؛ أما الناس، وهو أمر طبيعي، فقد انقسموا على أنفسهم. «لقد دمر الكورنيش الجديد الإسكندرية!» (ذكرها بالإيطالية) هكذا كان دانييل يتذمر دائماً، ويتحسر على تلك الأيام التي كان موظفو "البورصة" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) ينتهون من عملهم وتمتلئ الحانة بعدها بالظمأى منهم. إلياس: «لا تتحسر، يا صديقي، إذا كان الكورنيش قد دمر المدينة، فسوف ينقذها دوتشيه!» هكذا كان إلياس يقول ضاحكاً.

دانييل: «أعرف أنك تسخر مني، لكن ألم تر ماذا يفعل موسوليني لمواطنينا الإيطاليين» (قالها بالإيطالية) بالإسكندرية؟ لقد شيد لنا مستشفيات أفضل ومدارس أكبر. إنهم يفتتحون النوادي ويقيمون رحلات مجانية لأولادنا إلى إيطاليا».

هكذا علق دانييل حتى إن عينيه الضيقتين الثابتتين اكتسبتا بريق الحياة مرة أخرى. وكان ابنه ريناتو قد انضم لجموعة الفاشية الشابة وأصبح يسير في شوارع الإسكندرية مرتدياً القميص الأسود والوشاح الأزرق. وسرعان ما شاهد خوري الحانة وهي تمتلئ بالأعلام الإيطالية وصور دوتشيه، إلى جانب دعايات السلطة التي كان ريناتو يأتي بها من الرحلات المجانية للوطن.

وهكذا استمر مالك الحانة في توجيه التحية الرومانية إلى أصحاب القمصان السوداء الذين كانت الحانة تعج بهم، الذين مثلوا نوعاً جديداً من الزبائن الدائمين. لكل هؤلاء كان دانييل السمين يقوم باستعراض العظمة الفاشية، بعد أن قام بتعليق صور للديكتاتور بكل الأشكال والأوضاع؛ وفي كثير من الأحيان كان كل من يمر بشارع شريف باشا تصل إلى مسامعه فجأة هتافات وتصفيق. كان بإمكانك، وأنت تحتسى كوباً من البيرة، أن تتعلم من دانييل درساً من دروس التاريخ، وكيف كان البحر المتوسط بأكمله في وقتٍ من الأوقات مسرحاً للمجد الروماني، بشواهد لاشك فيها تتمثل في تلك الآثار التي تحيط ببحرنا (قالها بالإيطالية)؛ وهكذا كانت لكل أصحاب القمصان السوداء المتحمسين حقوق في مدينة الإسكندرية، باعتبارهم أحفاداً حقيقيين ليوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس. لقد حلت القمصان السوداء محل "الجلاليب"

المطرزة بالخيوط الذهبية التي كان يرتديها العاملون، مثل فوزى. أصبح هناك أناس مثل إلياس وخاراميس مرغوباً في وجودهم في بؤرة الفساد الفاشية هذه، حيث كانوا يقيمون مسابقات في شرب البيرة حتى الثمالة باسم الزعيم الكبير.

في تلك الأثناء، بدأ الرعايا الألمان، الواحد بعد الآخر في التوافد على الحزب النازي المصري الذي أسسه ألفريد إس، الشقيق الأصغر لروبولف إس. وقد طلب أبوهم فريتز إس، أن يلتقى أندونيس خاراميس لسبب مجهول، لكن إلياس، الذي استشاره أندونيس، أشار عليه بأن لا يفكر في مقابلته، حيث كانت المخاطبات البريطانية تراقب عائلة إس مراقبة دقيقة.

* * * * *

من بين أفراد عائلة ثاناسيس بوستاندزوغلوس استطاع أندونيس أن يميز بنيامين نيكيتاس، "الشیطان الأشقر"، فقد كان هذا الشاب مشهوراً بشعره الأصفر وعينيه الخضراوين. كان الجميع يذكرونه بوصفه فتى هزيل البنية، شديد العصبية، يجوب شوارع الإسكندرية بدراجة متهاكة، لديه استعداد فطري لارتكاب أكبر الفضائح. يقولون كيف عانت أمه الكثير من أجل تربيته، وعلى الرغم من ذلك فلم تبد أى تدمير أو استياء منه، طالما كانت تعرف أنه وحده من بين أبنائها الثلاثة قد ورث عنها شخصيتها وذكاءها. وعندما يسمعوها أحدهم وهي تتحدث عن نيكيتاس وعن مشاكلاته، كان بوسعهم أن يتبين على الفور كم الفخر الذي اعتادت أن تصف به مدى معاناتها مما يجلبه عليها هذا الشيطان الصغير. كما كانت تشعر بالاحباط الشديد عندما تتذكر- ولو مرة واحدة- أن نيكيتاس لم يتمكن من إفزاعها حين عودته متأخراً وقد بدت على ركبتيه ومرفقيه آثار الكدمات والملابس المتسخة، حيث اعتاد أن يدخل المنزل ليس من الباب ولكن من نافذة الطابق الأول بعد أن يتسلق شجرة الخروب ثم يقفز في شرفة العمارة الكائنة بشارع باب سيدرا. ومن جهة أخرى، كانت تشركه معها في مقابلها مع جاراتها، على العكس من كل من نيكولاس وأوليمبيا اللذين كانا أكثر

جدية منه إلى حد المبالغة تجاه مثل تلك الأمور، ولم يقبل قط المشاركة فيما كان يفعله الصغير. مثل هذا الساحر كان جديراً بأن يصبح المثل الأعلى لكوستيس.

كان أندونيس يقدر حقاً تأثير نيكيتاس على ابنه، كما كان يقدر موقف نيكيتاس عندما رفض الوظيفة التي عرضها عليه في المصنع أثناء خلافه مع والده واضطراره لترك محل البقالة، مفضلاً مغادرة منزل الأسرة والإقامة في كفر الزيات التي كافح فيها وإجتهده لكي يثبت نفسه باعتباره رجلاً يعمل في زراعة القطن. كان رجلاً شريفاً مثل ثاناسيس، لكن تفوق على ثاناسيس في حدة الذكاء، ورغم ذلك، فقد تولد لدى خاراميس انطباع بأنه لن يحقق، في النهاية، النجاح في حياته تماماً مثل والده، لأن ذكاه كان يوجه مسيرته بطريقة يشوبها الاندفاع. عندما علم أندونيس بوجود نيكيتاس في الإسكندرية مع بداية عام ١٩٢٠، طلب رؤيته وكانت لديه أسبابه.

وفي الصباح، حضر نيكيتاس إلى المصنع مرتدياً قميصاً جميلاً وقبعة بيضاء ودخل بجرأة إلى مكتبه مباشرة، كان مظهره بأكتافه العريضة وقامته المشوكة يشبه ثاناسيس في سنواته الأولى في الإسكندرية. وبمجرد أن علق قبعته على الشماعة، جلس في الصالون الصغير على مقربة من المدخل منتظراً انتهاء أندونيس من بعض الأعمال مع بابافينجوس، ثم علت وجهه ابتسامة ساخرة من كبير الموظفين بسبب عادته في الخروج من المكتب عائداً بظهره.

«مرحباً نيكيتاس» قال ذلك أندونيس بصوت كان يعرف أنه سيمنح الثقة لزياره ويجعله أيضاً يشعر بالغليان في مكانه.

نيكتاس: «مرحباً بك، يا عمي» أجابه نيكيتاس، موضحاً بهذه الطريقة درجة القرابة التي تجمع بينهما، الأمر الذي لم يعجب أندونيس.

أندونيس: «أخيراً، كان ينبغي أن أحاول بأي شكل حتى أراك تعبر باب مصنعي ولو باعتباره زائراً». عند هذا التعليق لم يجبه ابن أخيه، كما كان منتظراً. قدم له سيجارة فأخذها نيكيتاس بارتياح من علبة السجائر القضية.

- «هل تقوم بتدخن سجائر مصنعنا بين الحين والآخر؟»
- «الويل لى لو لم أكن أدخن مثل هذه السجائر».
- «هيا، فلى صديق لبنانى يقول لى نفس الكلام، وفى كل مرة أضبطه يدخن ماركة مختلفة من السجائر. فالمدخنون ليست لهم مصداقية. صدقنى، لى سابق معرفه بذلك».
- «ليس لى أدنى شك فى هذا» وبينما هما كذلك، دخلت جوليا لتقدم لهما الشاى، وفى منتصف الصينية وضعت إناء صغير به مكعبات السكر البيضاء.
- «يا بنى، فى البداية أريد أن اشكرك لأنك قبلت وساعدت ابن عمك حتى أصبح رجلاً فى بيئة قاسية مثل مدينتنا».
- «لم أفعل شيئاً، يا عمى».
- «لا تقل ذلك، بل فعلت، وفعلت الكثير» هكذا قال أندونيس وقد بدأت عبارة «يا عمى» هذه تزعجه، ثم استطرد قائلاً: «أنا أعلم كم هى صعبة شخصية ابنى الكبير. أشكرك إذن وأستكمل حديثى. لقد استدعيتك هنا، يا ابنى العزيز، لى أسألك عن بعض الأشياء». ثم بدأ يتجرع بعض رشقات من الشاى، يحصل خلالها على قدر من الوقت للتفكير، وقد قلده نيكيتاس فى الحال. ثم استدرك قائلاً:
- «كنت أقول إذن إننى أرغب فى سؤالك عن بعض الأشياء فى كفر الزيات، وستعرف بالطبع أن لى أيضاً فى حقول القطن بعض المصالح مع مزارعى القطن من عائلة زوجتى».
- «نعم نعم، أعرف ذلك».
- «أتصور أنك وعمك لوكاس (قالها وهو يؤكد على كلمة عمك، وكأنه يقول له إن هذا هو عمك الحقيقى) كنتما تلتقيان كل يوم تقريباً. أليس كذلك؟».
- «لا أستطيع أن أقول ذلك، فأنتم تعرفون، أن العم لوكاس قد استقر فى القاهرة منذ عودته من بيروت، ونادراً ما يزورنا فى كفر الزيات».

- «ماذا! لم أكن أعرف ذلك. ومن الذى يرمى حقول القطن؟ لكن ما هذا السؤال.
لابد أنه وضع من يحل محله».

- «نعم، ربما يكون هذا ما فعله».

- «ليس هناك حل آخر، اليس كذلك؟».

- «نعم، ربما».

- «هذا ما أقوله أنا أيضاً» هكذا أبدى أندونيس ملاحظته ثم أشعل سيجارته، وهو يرسم أشكالا تعبيرية بشفتيه تاركاً دخان سيجارته يخرج كالأمواج من فمه، ثم استطرد قائلاً: «وأنت، الآن وقد تعلمت هذا العمل، ما رأيك فى مزارع القطن تلك؟ هل هى تجارة مربحة؟».

- «ماذا يقولون لكم؟».

- «يقولون إنها مربحة».

- «طالما يقولون لكم ذلك، فهى كذلك». هذا الشيطان الصغير لم تكن تستطيع أن تنتزع منه كلمة واحدة.

- «وإذا قلت لك، إننى لو سمعت هذا الكلام من شخص مثلك، فسوف أصدقه على الفور؟».

- «هل تريدون أن أعطيكم بعض المعلومات عن العم لوكاس؟» هكذا سألّه نيكيتاس بشكل مفاجئ.

عندئذ أوماً أندونيس برأسه موافقاً والسيجارة فى فمه.

- «حسناً لأنى أريد أنا أيضاً شيئاً منكم، فظروف العمل فى كفر الزيات باتت صعبة، لكن هذا العمل لا يخيفنى، كما لا تخيفنى تهديدات والدى بأنه سيحرمنى من الميراث. على أية حال، فهو لن يترك لنا فى النهاية سوى الديون، فلتتذكروا هذا الكلام لكن.....».

- «لكن.....»

- «لكن..... أنا على يقين من أنه لا يملك الكثير، وأن حالته الصحية تتدهور من السيئ إلى الأسوأ. فمرض السكر أصبح ينخر في جسده يوماً بعد يوم. لا أريد أن يموت ثاناسيس العجوز ونحن على خلاف. وكأن كل ما حدث لم يحدث. إنه أبى، سوف أراجع عن موقفى. أعتقد أنكم لو تكلمتم معه، فسوف يستمع لكم. فهو يكن لكم كل التقدير والاحترام».

- «وأنا أكن لوالدك، يا نيكيتاس، كل التقدير والاحترام، إن لثاناسيس قلباً كبيراً. ربما يكون قد أفسد الأمور قليلاً فى السنوات الأخيرة، ولكن ما الذى سيحدث. إن الحياة طويلة وليس من المعقول أن لا يقع الإنسان فى أى خطأ طوال تلك السنوات. من حقنا جميعاً أن نخطئ ومن حقنا أيضاً أن نطلب الصفح. سوف أحدثه إذن، هذا وعد» قال ذلك أندونيس وقد تأثر بموقف نيكيتاس، ولكن لم يعجبه أن تطول هذه المناقشة أكثر من ذلك وتظاهر وكأنه ينظر فى ساعة الجيب الخاصة به.

أدرك نيكيتاس الموقف وقدم التحية لأندونيس. لكن قبل ذلك كانت عيناه قد وقعتا على خطاب من كوستيس تركه خاراميس على سطح مكتبه، فشعر بالحزن لأن ابن عمه الحبيب توقف لمدة ثمانى سنوات عن الاتصال به.

- «أشكرك يا عمى» قالها وهو يستدير تجاه الباب، وسمع رجل صناعة الدخان وهو يرد له تحيته قائلاً:

- «وأنا أيضاً أشكرك لأنك سوف تهتم بموضوع العم لوكاس».

استدار نيكيتاس ناحيته ولح فى عيني خاراميس نظرة ووداً بدلاً من النظرة الحازمة والقاسية التى اعتادها منه. ابتسم له بطريقة ذكرت أندونيس بجرأة كوستيس، موقظاً بداخله ولأول مرة بعد تلك السنين حنين الأبوة. عندئذ فكر أندونيس فى أن يرسل تلغرافاً إلى ابنه الأكبر فى نفس اليوم، لكن الوقت قد حان لعودته: ومع انشغاله بالعمل نسى إرسال التلغراف، ربما يكون قد ندم على ذلك، من يدر.

* * * * *

قبل أربعة أيام من إجراء انتخابات الرابع عشر من شهر سبتمبر لعام ١٩٣٠، ألقى هتلر خطاباً فى "قصر الرياضة" ببرلين أمام ستة عشر ألفاً من الجماهير. علم كوستيس أن ماخوس كان على مقربة منه، لكن الشقيق الأصغر تجنب لقاءه. بعد ذلك بقليل أدرك أن من كانوا يقولون إن هتلر هو نوع من "المرض المعدى" كان لديهم الحق فى ذلك، فعلى الرغم من أنه فى مرحلة ما قبل الانتخابات نادراً ما كان يحمل أحدهم بشكل صريح على اليهود - على الأقل لم يقل عنهم فى برلين أى شئ - فإنه كان أثناء مروره عبر كل مدينة، ييثر سم أفكاره التى كانت تعكر صفو النقاش الهادئ بين الناس.

وبعد مضى شهر، حدثت مصادمات فى شارع لايتشيجر، حيث تظاهر بعض النازيين المتطرفين ضد اليهود. وشرعوا فى الاعتداء دون تفرقة على كل من له شعر أسود اللون وأنف معقوفة وقاموا بتعطيم واجهات المحلات المملوكة لليهود. وفى اليوم التالى أبلغ كارل كوستيس بضرورة الإسراع إلى القبو الذى يعيش فيه يعقوب، المفكر اليهودى. إلا أن الشرطة كانت قد وصلت قبلهم وأحاطت بالمكان. كل ما تبقى من هذا المخلوق الذى كان كوستيس يدعوه حتى هذه اللحظة يعقوب - حيث يقول كارل إنهم هشموه رأسه - فقد قاموا بلفه فى ملاءة وأبعدوه عن مكان الجريمة. أما كارل الشيعى ضخم الجثة الذى لحق بالشرطة، فقد استطاع التقاط أحد المنشورات التحذيرية التى ألقاما القتلة فى الطريق وقدمها لكوستيس.

«كل اليهود سيموتون، وكذلك كل من يحملونهم» قرأ كوستيس هذه العبارة وشعر لوهلة أنهم كانوا يهدونه هو شخصياً، ربما لهذا السبب قال لكارل فيما بعد:

كوستيس: «يكفى هذا، أعتقد أن هذه المعركة تخصكم وحدكم - فلتجدوا لها حلاً وسوف نلتقى ثانية. سوف أرحل من ألمانيا فى أسرع وقت ممكن، "أعتذر عن هذا" (قالها بالألمانية)».

كارل: «أنت مخطئ فهذه المعركة تخص العالم بأسره، وسرعان ما سترى» ورغم ذلك فلم يستطع إقناعه بالبقاء، ربما بسبب خوفه وربما بسبب غضبه، وربما للسببين معاً، لم تعد لدى كوستيس الرغبة فى رؤية برلين أو الألمان. وفى العام الأخير رأى أن

شبح التضخم لعامى (١٩٢٢، ١٩٢٣) يعود من جديد. وقد أدى انهيار البورصة إلى انهيار الاقتصاد الألماني. تحول الشعب الألماني إلى شعب مشرد، وقرص الجوع الجميع. كان الناس يتساقطون فى الشوارع دون سابق إنذار. بالإضافة إلى ذلك تجد النازيين يقفون فوق رأسك وهم يهددونك! لقد أنهكتك تلك المفارقة الغريبة. أرسل تلغرافاً إلى أهله يقول فيه: «سأغادر برلين. هناك خطر حقيقى على حياتى. وجهتى التالية هى باريس». لكنه عاد وأيقن أن التلغراف الذى أرسله كان مبالغاً فيه وشعر بالخجل من نفسه، فقد أظهر أنه شديد الجبن.

من بين الجامعات المختلفة بالمدينة التى درس بها لبعض الوقت، لم يتمكن كوستيس من الحصول على شهادة دراسية واحدة، فقد كان هذا الأمر هو آخر شىء يمكن أن يشغل باله. قرر كوستيس مغادرة المدينة، حتى لو كان يعرف أنه سرعان ما سيسهر بالحنين لزحام "بوتسدام" و "بلاتس" ومدينة "أودير دى ليدين" بمبانيها الشاهقة، والزحام الشديد فى محلات "كورفيسستيردام" التجارية، وليالى برلين الخالدة وكل أصدقائه الذين حضروا لمحطة القطار يوم رحيله ليتمنوا له "رحلة سعيدة" (ذكرها بالألمانية) - كارل الشيوعى وماكس الرسام وصديقاته الثلاث: مارلين، أولريكي، روسا. كانت الفتيات الثلاث يرتدين ثياب العمل: الفساتين الحريرية، جواكت زرقاء ضيقة من ناحية الصدر وقبعات، تاركين جزءاً صغيراً من قصة الشعر (à la garçon) تبدو من تحت القبعات. الشىء الوحيد الطويل فيهن هو فلتر السجائر الذى وصل طوله إلى أكثر من نصف متر.

«وداعاً!» قالتها الفتيات الثلاث معاً (بالألمانية) فى الوقت الذى كان القطار يتحرك فيه وقد رفعن معاً ثيابهن لأعلى ثم انخرطن فى بكاء وضحك فى نفس الوقت. لقد أغضب هذا القرار المفاجئ ماكس، الذى تسمر فى مكانه دون حراك بطريقة تحمل عنداً طفولياً. أما بالنسبة لكارل، فكان كعادته متقائلاً، حيث قال: «سنقضى على هؤلاء النازيين» وكان قد تحدث بإصرار مع كوستيس منذ دقيقة مضت قائلاً: «سوف ترى. فخلال عام على الأكثر لن يكون هناك أى أثر للنازيين، عندها ستعود، أليس كذلك؟».

وعندئذ أجابه كوستيس وهو ينظر تجاه ماكس الذى كان يقف ممتعضاً على جانب
رصيف القطار وقال (بالألمانية):

«أرجو ألا تكونوا غاضبين منى».

كارل: «بالطبع لسنا غاضبين منك. اكتب لنا بين الحين والآخر، تحيا الشيوعية!».

كان كوستيس قد ابتعد بشكل كافٍ عن برلين عندما بدأ يتذكر كيف كانت هذه
المدينة التى عاش بها ما يزيد على ثلث سنوات عمره مدينة آمنة، وكأنها وطنه الثانى.
على أية حال، لم يكن كوستيس متردداً ولو للحظة واحدة فى القرار الذى اتخذه، وكان
واثقاً تماماً من أنه قد غادر برلين فى اللحظة المناسبة، لا قبلها ولا بعدها. وهو ما شعر
أن صرير عجلات القطار فوق القضبان تقوله له.

* * * * *

كل مدينة تعد بمثابة المحرض الصامت الذى يوجه أفعال وأقوال الناس. فإذا كان
هذا يسرى على أولئك الذين يعيشون فيها بشكل دائم، فما بالنا بمن يأتونها عابرين.
بوصوله إلى باريس، استطاع كوستيس الإقامة فى أحد الفنادق التى تقع على الضفة
الشمالية لنهر سيكوانا، كما استطاع فى نفس الوقت الإبقاء على "إيقاع الحياة"
(نكرها بالفرنسية) الذى كان قد تبناه طوال السنوات الماضية. لكن فجأة جال بفكره
أنه ما زال يعيش فى نفس الغيبوبة التى كان يعيشها فى برلين، عندئذ قرر أن يبحث
لنفسه عن غرفة فى قلب المدينة ليقيم بها.

فى البداية، عثر على غرفة فوق سطح أحد المباني القديمة بالحي اللاتينى، وكانت
تشبه عش الطيور أكثر من كونها غرفة يسكن فيها البشر. كان الفنانون فى شرفات
المباني المقابلة ينشرون الرسومات الزيتية على الأقمشة لتجف، مثلما تنتشر ربات
البيوت الثياب، فى حين كان الباعة الجائلون يصمون أذان الناس بأصواتهم العالية فى
الشارع.

وكانت المرة الأولى التى يدخل فيها وسط زحام مدينة باريس عندما ذهب إلى سوق شارع "بيسى". وعندما أصبح أكثر جرأة بدأ يتجول فى شارع سان جيرمان، الذى كانت أصوات أبواق السيارات الهستيرية تصل إلى أسماعه داخل غرفته. كان جو "المقامى" (ذكرها بالفرنسية) فى المنطقة يعطيه الإحساس بأن أفضل سنوات عمره قد مضت، وأنه بعد أن ظل حبيباً فى برلين لمدة عشر سنوات وصل الآن إلى باريس بعد أن فعل - أو تقريباً قد فعل - كل ما يحلو له. وسط رغبته فى التعرف على كل زاوية من زوايا هذه المدينة الساحرة، لم يدرك كيف أمضى عامه الأول فيها، وبمجرد أن بدأت رياح الشتاء فى الهبوب، اكتشف أن الحياة فى تلك الغرفة أصبحت لا تطاق، وعلى عكس الجميع، كان عليه أن يتشارك فى مكان الاستحمام مع بعض السكان ممن يقطنون الطابق الخامس، مما دفعه لمغادرة الغرفة دون أن يستعيد مقدم الإيجار الذى دفعه لصاحب الغرفة بعد أن اقتنع فى النهاية بحتمية الإقامة لفترة فى أحد الفنادق المجاورة، حيث كان الاستحمام يكلفه عشرة فرنكات بخلاف الإيجار المتفق عليه. ولا شيء أكثر من ذلك.

وعلى الرغم من أن "حنفية النقود" لم تغلق مطلقاً - وكان عليه الاعتراف بفضل أبيه فى ذلك - فإنه لم تكن لديه الرغبة فى الاستمرار كذلك فى إهدار ثروة أبيه، فسيطرت عليه فجأة حالة من البخل الشديد وفرض على نفسه لعدة أشهر نظاماً صارماً للطعام. "ليس معنى نقود سائلة، لكنى أفضل أن أضعها تحت الفراش"، هكذا كان يجيب (بالفرنسية) على "الحسناوات" (ذكرها بالفرنسية) اللاتى كن يسخرن منه لعدم امتلاكه حتى عشرة فرنكات ليضاجعهن. ولم تكن مجرد كلمات، ولكنه أقدم على ذلك بالفعل: فكان يجمع النقود تحت مرتبته فينتابه شعور بالسعادة، وبخاصة فى الصباح وفى المساء عندما كان يقوم بعدّها. استمر كوستيس على هذه الحال حتى فصل الربيع. وفى يوم من الأيام - يا له من بائس - اكتشف أن نقوده قد تبخرت وكاد أن يجن جنونه وتشاجر مع صاحبة الفندق وهددها بإبلاغ الشرطة، لكنها شرحت له أنها لم تكن مسئولة عن أية نقود أو أشياء ثمينة كان يخفيها دون علمها فى غرفته،

وفى الوقت ذاته ذكرته أن رجال الشرطة سيطلبون منه قبل أى شىء الاطلاع على "تصريح إقامته" (ذكرتها بالفرنسية) الذى لم يكن بحوزته، وسواء كانت لديه الرغبة أم لا، فقد أمسك لسانه وظل فى الفندق طوال الشهر الذى كان قد دفع مقابله مقدماً. ويبدو أن هذا الحادث المؤسف قد عالج للأبد نزعة "البخل" (ذكرها بالفرنسية) التى انتابته. وبالمبلغ التالى من النقود الذى تسلمه من والده، حرص على استخراج تصريح للإقامة، فى حين بدأ فى نفس الوقت يتجول بعينه فوق تل مونمارترى البديع، الذى يشتهر جانبه الآخر بسمعته السيئة، حيث يمكنه الحصول على كل ما تتمناه روحه الملتاعة. وأخيراً، عزم على الإنفاق مرة أخرى، سيعقد صداقات جديدة، سيبدأ حياة بوهيمية جديدة، وسوف يثبت للجميع أنه لم يحصل على لقب «أمير برلين» مصادفة.

كان أول من تعرف إليه هو برندراك إيفيتس، وهو صربى، أشقر، بشع الملامح بأنفه الضخم، كان يعيش فى مدينة ثيسالونيكى باليونان، وبعد حريق عام ١٩١٧، انتظر حتى نهاية الحرب فى أوروبا حتى يستطيع التوجه إلى باريس. الآن، وقد بلغ من العمر ثلاثين عاماً أصبح معروفاً باسم "نو الأصابع السريعة" (ذكرها بالفرنسية)، بسبب قدرته الفائقة على ملء صفحات عديدة مليئة بتاريخ البشر فى زمن قصير، بنفس قدرته على إفراغ جيوب السذج الذين يمرون من طريق "بوليفار دى كليسى". كان هذا الساحر القبيح، خلافاً للآخرين، يتحدث اليونانية وبعض التركية، كان يتمنى أن يصبح يوماً ما "هيمينجواى البلقان"، أما فى الوقت الحالى فقد كان مضطراً للعيش متكسباً رزقه بطرق غير شرعية. وطالما أنه فشل "باعتباره محتالاً" (ذكرها بالفرنسية) - وأيضاً بوصفه نصيراً للبؤساء الذين كان يكتب عنهم فى الشوارع المجاورة - فقد جرب لحظة "باعتباره نشالاً" (ذكرها باليونانية وكررها بالفرنسية)، بعد أن تأكد من قدرة يديه على ذلك. ففى إحدى الأمسيات راهن كوستيس على سرقة سبع مرات دون أن يشعر به، وبالفعل نجح فى ذلك.

فضل إيفيتس أن يقوما بتعيين سائق سيارة قوى يدعى ميسكليه، وكان اسم عائلته هو: ميسا قورويانوف. كان ميسا ضابطاً روسياً بالجيش الأبيض المهزوم، وقد

أصبح مفلساً بسبب الثورة البلشفية، ولكى يستطيع أن يعيش أضطر لاستغلال قوته الجسدية غير الطبيعية، كأن يقوم ببعض العروض الأكروبياتية فى شوارع باريس. هكذا أصبح الرجل مفتول العضلات ذو القبة والجاكت الصوف هو ثالث تلك المجموعة غريبة الأطوار، التى أقدم بها "أمير برلين" المضطرب على أولى خطواته الحذرة تجاه عاصمة روحه الجديدة، بدءاً بالأماكن الكلاسيكية: مثل "مولان روج" و"كازينو دى بارى"، حيث تعمل صديقه القديمة من برلين - جوزفين بيكر- وتثير الحاضرين برقصاتها المثيرة للغرائز. وصلت الحال بكوستيس إلى حد استمتاعه بشراة بالليل الباريسى ولا يأوى إلى فراشه إلا مع طلوع فجر يوم جديد على المدينة، وبعد أن تنتهى الرقصات العاريات من أداء رقصاتهن أمامه فى ملهى "فولى بيرزير"، مثيرين شهوته بطريقه تدفعه لإفراغها بين أحضان إحدى بانعات الهوى الرخيصات.

لكنه كان كلما غاص فى غياهب باريس، بما فيها من دورات مياه عامة ومخابئ لدمنى المخدرات وكباريات وبيوت بغاء، كلما ازداد تفكيره فى برلين، مدينته التى استمر فيها، لفترة طويلة، الأمير المتوج الوحيد وليس مجرد واحد من أمراء الليل الذين لا حصر لهم؛ وعندما يجلس فى السيارة بجوار ميسكليه - ذلك الرجل الصامت، بشاربه الحاد، الذى كان يدور به بسيارة بالية فى طرقات مونمارترى المرتفعة - كان يشعر بالحنين لثرثرة كارل المحببة إلى نفسه، فى كل خطاب يصله من صديقه الألمانى الشيوعى كان يتشوق لقراءة أخبار الجيش الأحمر، ويتمنى لو أنه قضى تماماً على النازيين حتى يعود بأول قطار إلى برلين. وربما كان الشيء الوحيد الذى سيفتقده فى برلين هو؛ برندراك إيفيتس بيونانيته المؤثرة، لكن حتى هذا الشخص لم يكن يمثل له فى باريس سوى مصدر للمشكلات.

كان "هيمنجواى البلقان" قد وضع نصب عينيه مكتبة "شكسبير وشركاه" الشهيرة ببيع الكتب، وهو يحلم بأن صاحبة المكتبة - سكيلا بيتس - ستقوم يوماً ما بطباعة كتاب له. لكنها على أية حال، كانت تهدده فى كل مرة تراه أمامها باستدعاء الشرطة، وقد حذرته من أنه إذا ما رغب فى الحديث معها، فعليه أولاً أن يعيد كل الكتب

التي سرقها من المكتبة. أما إيفيتس فكان يصبر، من ناحيته، على أن كل ما تقوله لا يعدو سوى مراوغات، وأن السيدة "سكيلا" - أى "المرأة البغي" "bitch"، وهو يتلاعب هنا بالألفاظ مستخدماً كلمة مشابهة لاسمها الذى يعنى "الشاطئ" "beach" - كان عليها أن تتفرغ أولاً لأعمالها الانتقامية مثل جيمس جوس. أما كوستيس، فبعد أن شعر بالإرهاق من سماع شكواه، قرر أن يتبرع بتكلفة طباعة كتابه، عندئذ تقبلت السيدة "سكيلا" بطريقة سحرية أن تقوم بطباعة كتابه، ولكن من بين كومة الأوراق الضخمة التى قدمها لها، اختارت خمس روايات فقط، مؤكدة له أنه لا يعدو سوى أن يكون كاتب رديئاً. كان إحباط إيفيتس لا يوصف عندما شاهد كتابه فى واجهة المكتبة مطبوعاً بشكل ردىء، ثم ازداد إحساسه بالمرارة عندما اختفى كتابه من المكتبة بعد بضعة أيام، ولم يظهر أبداً فى أية مكتبة أخرى بباريس. منذ ذلك الحين تحول برندراك إلى شبح. أما كوستيس، ففى محاولة منه للتخفيف عن صديقه، وجد أن الشيء الوحيد الذى يمكن أن يرفه عنه قليلاً، وأن يعيد السعادة إلى عينيه العسليتين مرة أخرى هو، حضور أحد عروض الكباريهات على الجانب الآخر من تل مونمارترى، وبخاصة كباريه "لابين أزيل". فى هذا الكباريه، على خلاف الكباريهات الأخرى، كانت الشاعرة فيرنارد أوليفيه - عشيقة بيكاسو السابقة - تلقى قصائدها. ثم دأب الاثنان فى الذهاب معاً إلى هناك، وفى إحدى الأمسيات طلب الصربى العنيد من أوليفيه أن تسمح له بالقاء بعض قصائدها، لكن أثناء محاولته إقناعها، يبدو أن شيئاً أكثر من مخيف قد حدث له، فأخذ يلقي على المسرح بالزجاجات وبالكؤوس. خلاصة الأمر أن إيفيتس لم يكن يستوعب شيئين: الرفض والإسراف فى شرب الخمر. أرسلت إدارة المكان برجالها من أجل إلقائه فى الشارع هو ومن معه، ولحسن الحظ كان معهم فى تلك الليلة ميسكليه، وإلا لئالوا علقة ساخنة لن ينسوها أبد الدهر.

كانت مغامرات برندراك إيفيتس تشعر كوستيس بالسعادة، على عكس ما يمكن أن يتصور أى شخص، كما كان يشعر بنفس السعادة تجاه وجه الصربى العبوس، الذى كان يزداد عبوساً بمجرد جلوسه على أحد مقاهى مونبارنا، حيث كان يقوم

بإحصاء عدد الأجانب الذين يمرون من أمامه، وقد لاحظ أن عددهم يتناقص فى كل مرة وبخاصة الأمريكيين، عندئذ صاح إيفيتس (بالفرنسية): «الفرنسيون خنازير حقيقيون، فهم يريدون طرد الأجانب من باريس، عاصمة الفن»، فاجتذب ناحيته نظرات مسكليه الحائرة. لقد أصبحت لدى إيفيتس قناعة بأن " تحرير" باريس من المهاجرين الأمريكيين كان جزءاً من مخطط شيطانى للفرنسيين، ذلك المخطط الذى سرعان ما سيشمل باقى الجنسيات. لقد حاول كوستيس أن يبعد عن مخيلته تلك السيناريوهات التى يصنعها فى خياله، وأن يوجهه للتفكير فى كيفية معاشية تلك الحالة ؛ وعندما أخبره إيفيتس فى أحد الأيام، أنه قد وقع عليه الاختيار للعمل فى بيت شانيل للموضة، بدا له أمراً شديداً السخرية.

«وماذا ستفعل هناك؟» سألته كوستيس، ثم استطرد قائلاً: «ربما ستجرد الحضور غير المنتبهين من محافظتهم أثناء عروض الأزياء؟». إلا أن الصربى كان يتحدث معه فى هذا الموضوع بشيء من الجدية وأخذ يشرح له أن لقب " ذو الأصابع السريعة " لم يكن يعبر فقط عن قدرته فى الكتابة بسرعة على الآلة الكاتبة أو فى النشل، ولكن أيضاً عن قدرته على رسم الاسكتشات. ولكى يثبت له صدق كلامه؛ أراه التصميمات الأولى التى وضعها. كان إيفيتس قد اتفق على تقديم بعض التصميمات، على أن يحصل على مقابلها فى حالة قبولها من الإدارة، إلا أن كوستيس قام على الفور بتحذيره من أن بيت الموضة قد يستحوذ على تصميماته دون أن يدفع له فرنكاً واحداً، لكن إيفيتس أصر على أن شيئاً من هذا لن يحدث. ثم بدأ يتغزل فى "مديرته المتحررة" التى استطاعت أن تحرر المرأة بعد عام ١٩٢٠ وحتى عام ١٩٣٠، من طغيان الملابس الفضفاضة والمحتشمة التى كانوا يتخيلون أنها تحمى عفاف النساء لكنها جعلتهن مثاراً للسخرية فى الشوارع. أما كوستيس الذى سمع هذا الكلام من قبل، فلم يوافق فى رأيه، موضحاً أن الموضة تماماً مثل السياسة ليس من الصواب أن تسير وفقاً للأهواء الشخصية، مؤكداً أن نزعة النساء فى ارتداء الملابس البسيطة بلونها الأسود المفضل هو خير دليل على ذلك، لكنه كان يرفض فكرة أن ذلك الاختيار يرجع إلى شخص بعينه أو حتى شخصين، ثم دار بينهما الحوار التالى:

- «لقد خرجنا للتو من حربٍ كبرى، يا عزيزي» (قالها بالفرنسية)، لا تنس ذلك، وفي كل مرة يخرج الإنسان من حربٍ كبرى، يفقد جزءاً كبيراً من تخیلاته».

- «ثم ماذا؟».

- «ثم إن المرأة في عصرنا الحالي تعتبر أنه من السخيف أن ترتدى مثلما كانت أمهاتنا ترتدى: الريش المثبت في القبعات والملابس المزركشة التي تجعلهن وكأنهن باقات من الزهور تسير بجانب الرجال. أما "الموضة الجديدة" (قالها بالفرنسية) فهي مطلب لكل المشاعر الضائعة التي خضعت لها كل بيوت الموضة طوعاً أو كرهاً».

- «شيء مشابه للسياسة الذين تنازلوا عن حقوقهم السياسية، أهذا ما تريد أن تقول؟».

- «بالضبط» (قالها بالفرنسية).

في هذه الفترة من اليوم - فترة ما بعد الظهيرة في فصل الخريف - ترسل الشمس أشعتها الدافئة بسخاء فوق رؤوس الزبائن الجالسين بالمقاهي المفتوحة، وتصنع أشكالاً وظلالاً عديدة على جوانب الطريق. أخذت عين كوستيس تتطلع لوهلة إلى وجوه الناس غير المبالين، واكتشف أن الشخص الوحيد الذي يختلف في ملبسه عن كل هؤلاء الرجال والنساء كان إيفيتس نفسه الذي كان يصر على أن يرتدى الملابس الملونة ووشاحاً متعدد الألوان.

- «بالمناسبة (قالها بالفرنسية)، إنني أتساءل: أين يمكن للمرء أن يجد اليوم ملابس مثل ملابسك».

- «لماذا تقول ذلك؟» سأله إيفيتس وهو يشعر بالإهانة إلى حدٍ ما.

- «انظر حولك. ألم تكن تحاول إقناعي بالملابس البسيطة باعتبارها موضة جديدة منذ قليل؟».

- «الفنانون العظماء يمثلون الاستثناء».

- هراء! (قالها بالفرنسية) أتمنى على الأقل أن تهديك مدام شانيل إلى فضيلة الاحتشام».

وفى النهاية، كان الشيء الوحيد الذى فعلته مدام شانيل هو؛ رفض تصميماته بإصرار وعاد إيفيتس حزيناً من جديد. أما كوستيس، فقد كانت لديه كل الأسباب لكى يبتسم، بعد أن خرج رابحاً من كل تلك القصة.

* * * * *

من الملاحظ أن الأشخاص الذين يؤثرون بشكل واضح فى حياتنا دائماً ما يدخلون حياتنا من الباب الخلفى لضمائرننا. ففى خريف عام ١٩٣٢، أبدى كوستيس اهتمامه لأول مرة بالأنسة هايكى رويسندال، فى أحد مقاهى مونبارنا، فى ذلك الحين بدت له كواحدة من عارضات الأزياء، حيث كان رداؤها البسيط المصنوع من الجيرسيه يكشف عن ذوق رفيع. أما إيفيتس، الذى كان يجلس بجوارها، فقد فسر ذلك بقوله: «إنها إحدى عارضات الأزياء لدى شانيل. إحدى الدمى المتحركة التى يدفع بها كل بيت للموضة من أجل نشر خطوط موضته». وكان هذا بالنسبة لكوستيس تبريراً منطقياً للهجتها الجافة الباردة وأوضاعها المختلفة فى الوقوف كالتماثيل. لم يكن كوستيس ينبهر بمثل هذا النوع من النساء، ولأنه اعتقد لوهلة أن هناك شيئاً ما بينها وبين الصربى، ففقد اهتمامه بها تماماً. ثم تصادف أن التقيا مرة أخرى بعد شهرين فى إحدى الحفلات، ثم فى عرض مسرحى باسم " الصعلوك" على مسرح الكوميدي فرانشيز، لكن حتى ذلك الحين كانت تسيطر عليه فكرة " الدمية المتحركة "، فلم يعر رداها المميز أية أهمية، وكان رداءً طويلاً أسود اللون، بأزرار لؤلؤية صغيرة وقبعة كبيرة تلف الرأس كأنها تحيط بأحد الأحجار الكريمة. ثم حدث أن التقيا بعد ذلك فى الملهى الليلى الصغير فى مونمارترى، حيث كان الشباب يقضون أوقاتهم فى أمسيات مليئة بموسيقى الجاز، وبعد أن تشاركاً معاً فى خطوات رقصة السوينج عادا وافترقا

ثانية نون أن يتبادلا الحديث. ولكن عندما أقسم له إيفيتس بعدم وجود أية علاقة بينهما من قبل، بدأ كوستيس ينظر إليها بشكل مختلف، كما بدأ في تطبيق خطته لحصار تلك "الزهرة الهولندية" (ذكرها بالفرنسية) حيث ولدت في هولندا، ثم تبعت أمها وهي في سن صغيرة إلى باريس عندما رفضت في ذلك الوقت أن تتخلى عن ديانتها اليهودية وفضلت في المقابل أن تهجر زوجها في أمستردام. عاشت والدة هايكي باعتبارها موديل، بدءاً من كونها "مبتدئة" (ذكرها بالفرنسية)، حتى أصبحت "الموديل الأولى" (ذكرها بالفرنسية). وإلى جانبها وجدت ابنتها طريقة محترمة لكي تكسب قوت يومها، إلى جانب دراستها البيانو الكلاسيك، وكان ذلك مفاجأة سارة لكوستيس الذي وجد نفسه يتذكر من جديد صوته الرخيم وهو يغنى في منزله بالإسكندرية، تذكر ذلك بينما كان يحاول إبهار الحساء الهولندية اليهودية. وطوال كل تلك السنين لم تتعد علاقته الحقيقية بالموسيقى حضور الحفلات الصاخبة في كباريهات برلين وهو مخمور، بعد ليلة فاسدة يكون قد قضاهما، وكان جمهوره فيها هو الراقصات الناعسات والجرسونات المنهكين الذين كانوا ينتظرون اللحظة التي سيغادرونها فيها هو وصديقه كارل.

حتى لو لم يعد صوته الرخيم جميلاً، فإنه مازال رخيماً، مما جعل عيناها الخضراوين تدمعان من فرط التأثر، ومن المقطوعات التي أنشدتها: مقطوعة "بحر الوطن" (di provenza il mare) من سيمفونية "الجزر" لفيردي أو مقطوعة "ماذا لو" (si quo) من سيمفونية "المهرجين" ليونكافاللو، لكن مثل هذه المقطوعات، من وجهة نظر كوستيس، لم تكن كافية كأسلحة قوية حتى ينال إعجابها. ولهذا فقد قام باستئجار جناح في فندق "ريدز" لبعض الوقت، ولم يكن اختياره لهذا الفندق قد تم بمحض المصادفة، حيث كان يستطيع في جناح "بلاس فاندوم" أن يبهز أية امرأة بما سيهديه لها من مجوهرات وملابس وعطور تم شراؤها من كارتيه أو سوميه. لكن لم تعد باريس في حقبة الثلاثينيات مكاناً يرحب بالأمراء المزيفين، ولم تعد النقود مجرد أداة ورقية يستطيع أن يلعب بها أي شخص في أثناء الحرب، مثلما فعل في برلين إبان عصر التضخم.

كانت المطاعم الغالية واستنجار قصر من عصر لويس التاسع فى ضواحي باريس وليالى الأوبرا، جميعها بمثابة الأدوات المستخدمة فى خطة حصارها، مما أدى فى خلال شهر ونصف الشهر فقط إلى إرهابه مادياً وعاطفياً فى النهاية. ومثلما قبلت هايكى هذه المبالغت، قبلت أيضاً ما قدمه لها من فحولة طاغية^(١٧) استطاعت أن تثير مشاعرها الأنثوية مما كان له أثره فى تهدئة ضميرها الذى كان قد بدأ يوخزها، مثلما كانت تعرف ما الذى يعنيه أن يكون كوستيس ابناً لأكبر رجال صناعة الدخان بالإسكندرية فى مصر. ولذلك فقد استيقظت على مفاجأة غير سارة، حيث جاء اليوم الذى انتهى فيه كل ذلك الحلم الذى كانت تعيشه من خلال ثلاث كلمات حُفرت فى ذاكرتها، ولم يكن هناك أى أمل فى أن تكون قد أخطأت فهمها، حيث ترك لها ورقة كتب فيها: «طريقنا ليس واحداً» (كتبها بالفرنسية وكررها باليونانية).

عاد كوستيس مرة أخرى إلى أصدقائه الضائعين، وإلى لياليه الجامحة فى مونمارترى التى كانت تكلفتها فى كل الأحوال أقل بكثير مما كان ينفقه عليها. ثم مر ما يقرب من الشهر ولم تحاول الأنسة رويسندال أن تزججه ثانية. وكان ذلك أمراً جيداً وسيئاً فى نفس الوقت، ففى تلك الفترة بدأت مشاعر الحب تتأجج مرة أخرى بداخله، بعد أن كانت شعلتها قد خبت لفترة من الزمن. كانت المشاعر الملتهبة تطرق بعنف جنباته، وأصبح يعانى فى محاولته لتهدئتها ولكن دون جدوى. وبدأت أول أعراض الحب السيئة تظهر فى حياته، فبدأ يشعر بالأرق! أما الشراب والأصدقاء والفتيات الحسنات فلم يستطع أى منهم أن يمحوها من ذاكرته، وبالبطبع كان السبب واضحاً.

مرت سنوات طويلة منذ أن وقع كوستيس فى الحب للمرة الأولى. حتى تلك اللحظة التى رأى فيها الأنسة هايكى رويسندال، كان على يقين من أن الناس قد أصدروا حكماً على مشاعره بسبب تلك المرأة القبطية المتزوجة، وقاموا بنفيه إلى بلاد الهون^(١٧) (ألمانيا). وبسبب مرارة هذا الحكم الجائر، ترك حياته تضيق فى فساد جامع بمدن أوروبا،

(١٧) الهون شعب مغولى رحال، سيطر على جزء كبير من أوروبا الوسطى والشرقية بقيادة أتيل، نحو عام ٤٥٠م (المراجع).

تزحف غير عابئة فوق أجساد نساء لا هوية لهن، يتذوق قبلات مسروقة، ويقيم علاقات مضطربة، ويتذوق رحيق متع سرعان ما تزول، تاركة فراغاً في روحه المضطربة. كان يواجه عقوبة نفيه طويلة الأجل باعتبارها نوعاً من العقاب، ولم يكن يخفف من حدته في السنوات الأولى سوى سخاء والده المالى وخطابات أمه وأخيه. إلى أن صمت ماخوس فجأة واقتصرت أمه على إرسال كروت المعايدة اللطيفة من مدن أوروبية مختلفة: مثل بودابست، براغ، فينيسيا، باريس - أثناء وجوده في برلين، ومن برلين أثناء وجوده في باريس، بعبارة واحدة كانت تكتبها له: «أتشوق لرؤيتك»، (بوئها بالفرنسية وبالإنجليزية وبال يونانية).

طوال تلك السنوات كان كوستيس يعتقد أن هناك من يعاقبه على حبه الفاشل في سنوات المراهقة، بعد أن نجح أولاً في قتل هذا الحب. وبعد هذا التدخل العشوائى من الآخرين، لم تعد هناك أدنى فائدة من استمراره. لقد سحق جمود التجاهل كل مشاعره. لم تعد هناك أهمية إذا ما درس الهندسة أو الفلسفة أو أى شيء آخر. لقد جاء وجوده في برلين بمحض المصادفة، بل ومكث بها عشرة أعوام كاملة، وكان من الممكن أن يذهب منذ البداية إلى باريس؛ لكن هذا لم يكن ليغير من الأمر شيئاً، كما لن يتغير أى شيء لو عاد في صباح اليوم التالى إلى الإسكندرية لكى يدير مصنع والده، أو لم يعد أبداً إلى مصر ويستمر في إهدار حياته هباءً.

لقد ظهرت تلك المرأة الهولندية اليهودية فجأة في حياته بجمالها الأخاذ وشعرها اللامع وأنفها الدقيق وشفهيا. المرسومتين وقوامها الأوربي الشمالى، لكى تذكره بمن يكون. كان يتعجب من نفسه عندما يستمع إلى ما يقوله وهو بجانبها، فلأول مرة يتحدث عن مشروعات العائلة وعن خطته المستقبلية لتطوير مصنع أبيه، لم يكن ذلك فقط لإثارة إعجابها به، ولكن لأنه كان يرى في عينيها الحالمتين تطلعاته للحياة التى كانت قد دمرتها قصة حبه الفاشلة. لقد عذبت جيهان بلا هوادة. وكانت نفسه تعاني من لهيب حبه لتلك المرأة القبطية الشيطانة ؛ أما لقاءاته مع هايكى الرقيقة فكانت فرصته للشفاء، أخرج فيها كل مشاعره الملتهبة. نعم، لقد دفع الكثير من أجل هذا الشفاء

باهظ الثمن، وعندما أحس بالشفاء أخيراً، رأى أنه من الصواب أن يعود إلى حياته البوهيمية مرة أخرى، ولكنه لم يحسب الأمور جيداً.

لقد تمكنت "الآنسة" (ذكرها بالألمانية) رويسندال، من الاستحواذ على جانب كبير من روحه - وصدق كوستيس بالفعل أنها كانت تمدحه من باب الاهتمام به - أما الآن فقد أصبح كل شيء فيه ييحد عنها. كانت مسألة وقت حتى ينهار أمامها، وكان كلما شعر بأقدامه تقوده إلى شقتها الفاخرة في الحي الأرستقراطي بشارع "فومبور سانت أونوريه"، حيث كانت تعيش مع أمها اليهودية، ينحى نفسه جانباً ويدخل في أول بار يقابله في الطريق ثم يبدأ في الشراب حتى الثمالة، متجاهلاً إحساسه بالمهانة. وحتى يهرب من حبه لهايكي، وصل به الأمر للتفكير في العودة إلى برلين، لكن كانت الأمور هناك أكثر سوءاً عما تركها. فلا يبدو أن كارل وأصدقائه استطاعوا التغلب على النازيين. «أعتقد أن قادتنا ما زالوا أكثر غباء وضعفاً من هتلر وصحبته» هكذا كتب لهم في آخر خطاباته. فاجابه بأن كتائب الإمدادات قد وصلت إلى الحي الذي يعيش فيه - في مساكن العمال "برلين-فيتيج" - وقاموا بتدميره عن آخره. هذا ما آلت إليه الأمور، ولذلك فقد كان يعتبر نفسه محظوظاً، عندما تسلم منها رسالة تحتوي على جملة واحدة ليس أكثر: «انتظر طفلاً»، (قالتها بالفرنسية وكررها باليونانية).

«سوف نتزوج»، (دونها بالفرنسية وكررها باليونانية) هكذا كتب على ظهر الورقة، ثم أرسلها لها مع إيفيتس، دون أن يفكر ما الذي سيقوله والداه عندما يعرفان أنها أجنبية ومن ديانة مختلفة.

بكل تلك الأحداث وصل عام ١٩٣٢، إلى نهايته وكان قد مضى على كوستيس عامان في العاصمة الفرنسية. وفي بداية العام الجديد وصله تلغراف عاجل من والديه يقولان فيه: «هناك أمر عاجل، أحضر فوراً إلى الإسكندرية. إنها مسألة حياة أو موت». لم يجد كوستيس مفرأ من تلبية هذا الأمر وكان الشيء الوحيد الذي جال بفره أثناء تجهيز الحفائب "أنها فرصة لكي نوضح الأمور قبل مواعدها".

* * * * *

«كان صعود هتلر للسلم يبدو بطيئاً ولكنه كان صعوداً ثابتاً، لكن تخيلي، يا أمي، كيف يشعر الآن وهو يتطلع إلى العالم من عليّ»، هكذا كتب ماخوس إلى ذافني بحجة صعود نجم هتلر وتولييه القيادة في يناير ١٩٣٣. وكان ماخوس قد تابع عن قرب ذلك الصعود المتدرج لهتلر، ويستطيع أن يتذكر تلك المراحل التي أدت إلى هذه النتيجة العظيمة في مسيرة طويلة منتظمة. «لكن أن تعتقدى فقط أن كل شيء قد بدأ بانقلاب عسكري فاشل. هذا أمر كان الجميع قد نساه في ذلك الحين. أما اليوم....». بتلك الكلمات استكمل ماخوس خطابه، وكان منطقياً في حديثه بشكل كبير. وفي الحقيقة، فقد بدأ كل شيء قبل أن يولد هتلر، تمشياً مع نظرية المسيح المخلص الذي سيأتي ليحيى من جديد مجد الشعب الألماني. لكن الشعب الألماني نفسه لم يستطع أن يتعرف إلى منقذهم في ملامح فنان فاشل أتى من النمسا، حتى لو كان قد عُرف برجولته التي اشتهر بها في الحرب الكبرى. كانت الحياة نفسها عاقدة العزم على اختبار هذا الرجل المختار بعد معاناة، حتى تصبح على يقين من أنه الشخص الجدير بالثقة عندما تسلمه زمام الأمور بألمانيا والعالم بأسره. لكن حتى هتلر نفسه كان عليه أن يجهز بدوره أسلحة قوية، وكان من أهمها إيمان الآخرين به وإخلاصهم له. «أعلم أن البعض قد يعتقدون أنها مبالغة وجنون، ولكنها ثقة فطرية تلك التي تميز سلوكه غريب الأطوار» أؤكد لكم ذلك " (كتبها بالفرنسية). هذا الرجل هو حالة صارخة للبطل الأسطوري وكل من لا يدرك ذلك فهو على الأقل أعمى وعديم الإدراك [.

لقد أظهر ماخوس قدرة كبيرة على تبصر الأمور، وإدراك مدى عظمة هتلر وكل المحيطين به - مثل: إس صاحب التفكير العميق، والعبرى جايبيلز، والنشط جايريك، والصارم ريم، والغامض هيملر - وجميعهم يمثلون انعكاسات للجوانب المتعددة لشخصية الزعيم. وكان ماخوس يشعر بينهم بالفخر لأنه يرى نفسه هو الآخر انعكاساً ولو ثانوياً لهم. «وبالطبع، فهناك الكثيرون الذين يهتمشون دور هتلر بسبب سلوكه العنيف ضد اليهود والشيوعيين، لكن ليس لهم الحق في ذلك، يا أمي، وينبغي أن تعلمي أن القادة العباقرة لديهم من البصيرة ما يملكه الطبيب الجراح الذي لن يتردد

فى استئصال الجزء المصاب بالسرطان بهدف الحفاظ على توازن الحالة الصحية لأحد أعضاء الجسد. إننى على يقين من أنه مع بداية تولى السلطة، فسوف تبدأ القيادة الجديدة فى عمليات جراحية ضرورية من أجل تنقية الدم الألمانى من دماء أخرى غير مرغوب فيها. أه، كان ينبغى أن تعيشى معى هذه الحقبة فى ألمانيا، وأن تشعرى بهذه الحماسة وبذلك النزعة الرومانسية والنبيل الطاهر الذى يتنفسه شعب ألمانيا!«.

وبغض النظر عن إخلاصه المفروغ منه، لم يكن ماخوس نفسه مستمتعاً بمميزات اتصاله المباشر بهتلر، ولكنه كان يكتفى بأن يشيد بمجد هتلر من خلال مستشاريه المقربين. مع بعض من هؤلاء، وخاصة مع إس، كان ماخوس يحافظ دائماً على علاقاته الودية بهم، وكان يصف لأمه تلك العلاقات على النحو الآتى. «لا أدرى ما انطباعك عن رودولف، يا أمى، لكنه يعد حالة استثنائية، فهو شخص عميق الفكر، مثالى، واسع المعرفة، صاحب قرار. نتحدث معاً بشكل مستمر عن الإسكندرية ونتبادل الدعابات، نشعر بالحنين لمدينتنا. وهو يكتب أيضاً إلى والديه بشكل مستمر. أحياناً ما ألقى عليه بعض الكلمات العربية فأقول له: "إزيك!"، وعندئذ يجيبنى أيضاً بالعربية: "كله تمام"، لكن لا يزيد على ذلك كلمة واحدة. وإذا ما تماديت فى حديثى معه (بالعربية)، يرمقنى فى الحال بنظرة شرسة. وبالطبع لا أجرؤ على التحدث معه بالعربية إذا ما كان هناك آخرون. لكنه طيب القلب».

مضى أحد عشر عاماً منذ أن تفتق ذهن أندونيس بفكرة نفى ابنه الأصغر بعد الحادث المؤسف الذى لم يتوان المجتمع الثرثار بالإسكندرية فى تسميته "فضيحة قطار باكوس". وبدأ قلق ذافنى يزداد على مصير ابنها عاماً بعد عام، إلا أن الأب والابن لم يشاركما هذا القلق. كان قلقها الأول بسبب علاقة ماخوس بالبارون شولتسير التى سرعان ما ستتقوض، لأنها كانت ترى بوضوح العلاقة التى ربطت ابنها بالنازيين - تلك العلاقة التى كانت تقلل من شأنها - إلى جانب ما اتبعها من كراهيته لليهود، التى تطورت بشكل مخيف عما كانت تتوقع. ومن جهة أخرى، بدأت قصة ماخوس مع البارون تصل إلى نهايتها بعد شهور من صعود هتلر للسلطة، حيث بدت خيبة أمل

ماخوس واضحة فى خطاباته: «رأى الهر شولتسير أن الوقت قد حان لكى يتزوج، فليكن إذن. لست أنا من سيمنعه. إلا أننى على يقين من أنه سيعض أصابع الندم فى القريب العاجل».

فى ربيع عام ١٩٣٣، اضطر بنيامين خاراميس أن يغادر منطقة سفانبيج، حيث كان قد استقر بها لسنوات عديدة فى أحد المباني الحديثة بشارع ليوبولد- فى قصر إيريك - مما تسبب فى شعوره بإهانة مضاعفة. أولاً، لأنه كان يعرف أن امرأة أخرى ستأخذ مكانه قريباً، تلك التى أصبح وجودها فى حياته أمراً حتمياً حتى لو لم تكن مهمة به. وثانياً، لأن منطقة سفانبيج لم تكن مثل أى منطقة فى ميونخ يستطيع أن يستبدلها بأخرى بسهولة، وإلا لم يكن ليحبها هتلر نفسه بهذا القدر.

عندما يغادر شخص ما شارع لوندفيخ بأبنيته الكلاسيكية، ثم يتوجه نحو الغرب والجنوب، إلى داخل سفانبيج، كان يشعر بأن هناك رياحاً مختلفة تهب، وكأن كل الطاقة الروحية لهذه المدينة تجمعت فى واجهات تلك الأبنية العظيمة بتناغم عظيم لطرزها المعمارية، مثلما كانت الحال بالنسبة للمقاهى الموجودة بالمنطقة التى كانت تتمتع بوجود نخبة من أبرز أعضاء الحياة الفنية والفكرية بألمانيا. وقد دار هذا الحوار بين ماخوس والبارون شولتسير فى آخر ليلة له فى منزله:

ماخوس: «أهذا يعنى أننى لن أستطيع التردد على نفس الأماكن القديمة؟» كان هذا هو الشيء الوحيد الذى سألّه ماخوس بينما كان ينظر غاضباً من نافذة الصالون الضخمة إلى الحوائط متعددة الألوان فى الجانب الآخر من الطريق.

إيريك: «حاشا لله، يا بنى، لن أمنعك من الحضور إلى سفانبيج، لم تكن هذه رغبتى، صدقنى» قال إيريك ذلك وهو يلقى بعود الكبريت الذى كان قد أشعل به سيجارته منذ لحظات.

- «لا أعرف ما الذى أصدقك فيه، يا إيريك. ولا تطفئ سيجارتك التى قمت بإشعالها منذ برهة».

- «أنت تعرف عندما أكون غاضباً، أشعر بالحاجة إلى إشعال وإطفاء السجائر. إنها طريقة أهدىء بها أعصابى».

- «السيجارة تحتاج إلى مجهود حتى تصبح سيجارة، يا إيريك، وليس من الصحيح أن تهرسها بهذه الطريقة. أما بالنسبة لأعصابك، فالخطأ ليس خطأ أحد غيرك. أنت من اتخذ هذا القرار».

- «أنت لا تفهم مدى الضغط الذى تمارسه ضدى عائلتى؟ ما الذى أستطيع أن أفعله؟ الحياة ليست متعة فقط».

- «كنت تقول لى غير ذلك».

- «يجب أن تفهمنى، يا ماخوس».

ماخوس: «أنا أفهمك، يا إيريك، أنا أفهمك، وأفهمك جيداً، لم يكن هناك حاجة لكى ترتدى بذلتك الرسمية وتضىء المنزل. ماسبب كل هذه الرسميات؟ يكفى القليل من الشمبانيا، وبعض الموسيقى وسيجارة، وهو كل ما يلزم صديقين لكى يغلقا حساباتهما».

- «لقد كنا أكثر من مجرد أصدقاء، أليس كذلك؟» هكذا أبدى إيريك ملاحظته، فى حين سمع من الغرفة المجاورة رنين الهاتف المتواصل وظهر خادم البارون العجوز حاملاً الهاتف الذهبى الثقيل، وهو يجر ورائه أمتاراً عديدة من السلك الأسود. استأذن إيريك وانسحب إلى الغرفة المجاورة، حيث كان ماخوس يسمعه وهو يتحدث ضاحكاً مع رجل أو بالأحرى امرأة على الطرف الآخر. شعر ماخوس بالاشمئزاز من لهجته المباشرة، وطرأت بذهنه فكرة أنه ربما كان هذا جزءاً من خطة إبعاده. وكان قد حرص منذ اليوم السابق على جمع متعلقاته، ولم يبق له سوى الرحيل دون أن يقول له وداعاً. وقبل أن يستدير تجاه البوابة الضخمة التى تحمل شعار البارونية، ألقى نظرة أخيرة على صديقه، حيث كان يظهر فى المرأة الضخمة بالصالون، تحت ضوء الثريا المضيئة. برغم كل شيء، ما زلت أجمل مخلوق فى ميونخ " هذا ما جال بخاطر ماخوس،

ثم أشعل سيجارته الأخيرة فى هذا المنزل وتركها تشتعل فى نفس منفضة السجائر المليئة بالأعقاب المطفأة. وكان ذلك بمثابة نوع من التحذير من الحسابات المفتوحة التى لم تغب عن ذهن البارون. وقد اعترف ماخوس بعد ذلك بأنه كان تصرفاً بلا معنى، ذلك التصرف الذى دعم اتهامات عائلة شولتسير ضده عندما تم القبض على إيريك بعد عدة شهور، وكانت اتهامات ظالمة حيث لم تكن لماخوس يد فى ذلك. كل ما فعله ببساطة هو: إبداء ملاحظة أمام بعض الأصدقاء فى منزل إس، حسب ما يعتقد، بأن الطبقة الأرستقراطية بإقليم بافاريا لم تكن تشارك هتلر بشكل مطلق تطلعاته، مشيراً، على سبيل المثال، إلى اسم إيريك. لكن كان من المضحك أن يؤكد أحدهم أن هذا هو السبب الوحيد الذى أدى إلى اعتقال إيريك. لكن أصدقاءه النازيين ليسوا بهذا الغباء.

* * * * *

فى حاجبى رودولف المتصقين اللذين كانا قد تأثرا بذلك العصر الذى دخلت فيه الشيوعية باندفاع حتى وصلت إلى السلطة بألمانيا، كان ماخوس يتأمل دائماً ذكرى والده القوى، تلك الذكرى التى كان يبحث عنها بتلهف هنا فى ميونخ، حتى ينساها. ولكنه كان أمراً غريباً، لأن رودولف نفسه كان قد أفضى إليه بمشاعر مماثلة تجاه والده: «مما أتذكر، فإن فريتز العجوز كان لا يُحتمل، وكان هذا هو السبب الذى جعلنى أفضل التوجه للحرب بدلاً من العودة إلى الإسكندرية».

لكن يبدو أن إس قد نسى كيف يكون الأمر عندما يحكمك أب صارم. وإلا لما تبنى منذ البداية مثل هذا الموقف المتشدد تجاهه، الذى جمد أحياناً الدماء فى عروقه وجعله يدافع عن أشياء كثيرة لم يكن يهتم بها من قبل مطلقاً. من ناحية أخرى، كان موقف الرجل الألمانى المصرى الصلب قد ساعده فى مسألة دراسته، على الرغم من أن ماخوس كان يتجنب لقاءه لفترات طويلة لأنه لم يكن يحتمل أن يسمع يوماً جملة «ما أخبار رسالة الدكتوراه التى تعدها عن نيتشه؟» بدلاً من صباح الخير.

كان من النادر أن يتم تحديد موعد للقائهما، فقد كانا يدركان أنهما سوف يلتقيان إن عاجلاً أو آجلاً في أحد المقاهى بسفانبيج. لقد اعتاد أن يبحث بين رؤوس الجالسين عن رأس رودولف الصلعاء. وعندما كان يعثر عليه، لم يكن ليذهب أبداً ناحيته، وربما كان يتبع بذلك بروتوكولاً غريباً ينص على أن الشخص الأدنى هو الذى يجب أن يذهب إلى الشخص الأعلى وليس العكس.

عندما يتمكنان فى النهاية من احتساء القهوة معاً أو يتناولان طعاماً خفيفاً وهما وقوف، كان إس يبدو وبدوأ على غير المعتاد، ويستمر فى الحديث معه بشوق وحنين عن سنوات الطفولة والصبا بالإسكندرية، ثم يسترسل فى الحديث معه بسرد حكايات عن الحرب وعن انتصار ألمانيا، ذلك الانتصار الذى كان المنافقون يدعون قدرتهم على تحويله إلى هزيمة مخزية. كان إس يستعرض معه سنواته الدراسية الأولى، سنوات "القبضة الحديدية"، ويتباهى دائماً بأنه دخل فى الحركة الشيوعية قبل أن يدخلها هتلر نفسه. ولأنه سبب لماخوس إزعاجاً شديداً بسبب رسالة الدكتوراه، وبعد أن انتهى ماخوس من إعدادها بعد عناء كبير قدمها له لكى يقرأها، لكن لم يكلف نفسه عناء قراءتها، ربما لأن عنوان الرسالة قد منعه من ذلك: "نيتشه والمصادقة السعيدة لجنون العظمة"، واكتفى فقط بقوله: إن دكتور ماخوس قد قدم من خلال هذه الرسالة العلمية خدمات قيمة للحزب ولقائد الحزب، الذى يهتم شخصياً بالفيلسوف الألمانى.

كان ذلك حتى عام ١٩٣٣، لأنه منذ اللحظة التى وصل فيها الحزب القومى الشيوعى للسلطة، فإن إس، الذى كان كثير التنقل بين ميونيخ وبرلين، أصبح نادر الظهور، وكان على ماخوس أن يواجه العديد من الصعاب لكى يلتقى صديقه السكندرى، الذى كان يتنقل متباهياً بارتداء زى الحزب النازى العسكرى ويموقفه باعتباره وزيراً وناثباً لرئيس الحزب، مفتقداً بهذه الهيئة ملامحه السابقة باعتباره واحداً من الألمان المصريين المتميزين.

بعد القبض على إيريك، حاول ماخوس جاهداً أن يستصدر من رودولف وعداً بالعفو عنه، ولكن الشئ الوحيد الذى نجح فى تحقيقه فى النهاية كان توجيهاً صارماً له بأن لا يشغل بما لا يعنيه.

ماخوس: «أرجو أن تخبروني على الأقل كيف يمكن لمناقشة عابرة في منزلكم أن تحدد مصير البارون» هكذا قال ماخوس متوسلاً، معتبراً أنه كان من الواجب أن يحدثه بصيغة الاحترام منذ أن أصبح صديقه القديم عضواً في النظام الحاكم.

إس: «هل لذلك أية أهمية، يا صديقي الدكتور؟».

- «إن عائلته تتهمني بخيانتها».

- «عائلته.. ما الذي يعرفونه، لو افترضنا أن ذلك النقاش كان له أثر على مصيره، فإننا بالطبع لا نستطيع أن نتحدث سوى عن تقديم خدمة عظيمة للرايخ الثالث فقط».

- «يمكنكم، ربما، أن ترتبوا لى لقاء مع البارون شولتسير، لكى أتحدث معه، وأحاول أن أعيد له صوابه. إنه مواطن عظيم، وأكد لكم، أنه لا يستحق هذا المصير».

- «أخشى أننى لم أعد أستطيع عمل أى شىء، يا دكتور. وربما ينبغي عليك أن تتوجه إلى هيملر، لكن حتى هذا، باعتبارى صديقاً، لم أكن لأنصحك به».

خرجت كلمة عربية من بين شفتى ماخوس بطريقة عفوية، فرمقه صديقه نائب رئيس الحزب بنظرة نارية. أراد أن يخبره بأنه لم يفعل ذلك متعمداً، لكن أحجم عن ذلك لأنه لم يكن ليغير شيئاً فى مصير إيريك.

منذ اللحظة التى صعد فيها الحزب للسلطة، فكر ماخوس العديد من المرات فى مغادرة ألمانيا، لكنه لم ينفذ ذلك القرار، على الرغم من أن خطابات والدته جعلته يدرك أنه كان ينبغي عليه العودة إلى مصر فى تلك المرحلة التى تتعرض فيها مصالحه كلها للخطر. لكن حتى لو عاد إلى الإسكندرية لبعض الوقت، فكان سيفعل ذلك بشكل أساسى لأنه يرى بوضوح أن ما كان يبحث عنه أصدقاءه القدامى طوال السنوات الماضية - وهو الوصول إلى السلطة - قد سلب ميونخ ريادتها وحرمها من رومانسيتها، وكذلك بسبب المبالغة فى التعبير عن الحزب. فأماكن مثل ميدان "مارين"

وميدان "أونيون" لم تعد قلباً للنازية ولبرلين. فقد استأثرت تلك العاصمة المظلمة بعقليتها الريفية، بعظمة تلك الحركة التي كانت تؤول إلى مدينة أخرى. لم يكن دكتور ماخوس يعرف إذا ما كان هتلر قد احتل السلطة أم أن السلطة هي التي احتلته. حتى تلك الهمجية التي تعاملوا بها منذ البداية مع الآخرين لم تعط أية فرصة لتخليها أكثر هدوءاً فيما بعد. لقد شعر ماخوس أنه مرتبط بمدينةته الحبيبة برلين، وبوجوده الفعلى فيها، وكانت مشاعره تتضارب عندما يلتقى بأصدقائه القدامى فى إحدى طرقات المباني الحكومية، لأنهم لا يستطيعون إخفاء مدى استيائهم من وجوده فى المدينة. كانوا يعرفونه بوصفه شخصاً حاصلاً على دكتوراه فى الفلسفة أكثر من معرفتهم له باعتباره رجلاً مكافحاً من أجل السلطة. أما إس فقد اقترح عليه، فى لحظة كرم غامر، العمل فى إحدى المؤسسات الجامعية ببرلين، إلا أن ماخوس رفض هذا الاقتراح.

كان روبولف صديقاً حقيقياً له، وقد أثبت ذلك فى شهر يونيو من عام ١٩٣٤ . عندما أرسل له سراً رسالة لكى يغادر على الفور فندق " هانسلبوير" الذى يقع بالقرب من ميونخ، حيث كان يقضى وقتاً ممتعاً مع ريم وقادة آخرين من الحزب الشيوعى. وبعد وقت قصير اقتحم هتلر الفندق ومعه رجال الشرطة وبعض من أنصاره وألقى القبض على كل من بالفندق. وهكذا أفلت ماخوس من "كابوس ليلة السكاكين العظمى". كان ماخوس يتطلع إلى مستقبله فى ألمانيا فى حقبة الثلاثينيات بتفاؤل كبير. وكان إختفاء إيريك، الذى اعتبره فى مكانة وسط بين الأب والأخ الأكبر من حياته أمراً محزناً، لكن لحسن الحظ فقد وجد البدلاء المناسبين، لكن بعد هذا الحادث الدموى بفندق "هانسلبوير"، كان عليه أن يصبح أكثر حذراً فى اختيار أصدقائه. أما بالنسبة للأمور الأخرى، فقد حرص أصدقاؤه النازيون أن يتعاملوا معه باحترام باعتباره عضواً مميزاً فى ماكينة الدعاية النازية مقابل أجر زهيد. ولذلك فلم يستطع ماخوس أن يتحرر من اعتماده على دعم والده المادى له.

فى منتصف عام ١٩٣٥، أسندت إليه مهمة الترويج لدورة الألعاب الأولمبية لعام ١٩٣٦. ربما لأن البعض اعتبره جديراً بذلك أنه بسبب أصوله الإغريقية ومظهره الذى يشبه آلهة الإغريق، كما كان بمثابة دعاية حية لروح النازية المؤيدة للرياضة. لكنه بالطبع شعر بالإهانة لأنه، على الرغم من تعاونه القيم مع السلطة، قد أجبر على متابعة

تلك المسابقات من مقاعد المتفرجين العاديين وليس من المقصورة الرئيسية، حيث يجلس هتلر وإلى جانبه نخبة من أعضاء الحزب النازي. وربما كان ذلك أيضاً سبباً جعله يرفض مرافقه جايبيلز في زيارته لليونان ومصر. وقد سبق ذلك تسلمه تلغرافاً من أخيه كوستيس من الإسكندرية، ينصحه فيه أن لا يفكر في الظهور برفقة أحد رجال هتلر؛ أما ماخوس، الذي كان حذراً بطبيعته، فلم يشأ أن يعرض نفسه للخطر في وطنه الأول والأوحد. ويبدو أن رفضه قد أصاب البعض بالضيق وعجل بشكل درامي بإنهاء إقامته في ألمانيا.

في بداية شهر أكتوبر استدعاه إس إلى مكتبه لكي يسلمه مظروفاً، وقال له:

«بهذا المستند سوف تتوجه إلى سفارتنا في أثينا، وسوف يتولى رجالنا هناك وضعك في المكان المناسب» قالها بطريقة غير مبالية، وكأنه يتحدث مع شخص غريب. بهت ماخوس وأخذ المظروف بيد مرتعدة، ثم استطرد إس وسأله باندهاش: «سيدي الدكتور، ما الذي أصابكم؟».

ماخوس: «عذراً، ياعزيزي رودولف، لكني كنت أتمنى البقاء في ألمانيا، إلى جانب هتلر. أما ما يحدث هنا اليوم، فماذا أسميه؟ إنه نوع من التخلص مني» هكذا علق ماخوس وهو في شدة الحيرة.

إس : «أوه، أرجوك اهدأ، يا دكتور. فنحن نرسلك إلى اليونان، إلى وطنك. ماذا تريد غير ذلك؟».

- «لقد شرحت لكم. أريد البقاء هنا، بجانبكم».

- «للأسف، هذا أمر مستحيل».

- «ولكن لماذا؟».

- «لأن، لأن بعض الأمور التي كانت قد حدثت من قبل لا يمكن أن تستمر للأبد. فالظروف تتغير، وكان من الأحرى أن تكونوا قد تعلمتم ذلك».

- «أريد البقاء هنا».

- «دعك من هذا الهراء، بهذه الورقة ستقدم نفسك إلى سفارتنا.» قالها إس بجمود.

- «حسنًا، عَلمٌ» قالها ماخوس وهو يعطيه التحية النازية، وخرج ممتعضًا.

* * * * *

يمتلك السيد فاسيليس فى مدخل شارع العباس بالزقازيق مقهى صغيراً بالقرب من محطة السكة الحديد، ذلك الشارع الذى كان أهل المدينة يسمونه شارع البوسطة. استطاع هذا الرجل أن يتأقلم طوال ثلاثين عاماً قضاها فى مصر، وأن يحمد الله على أنه قد غادر اليونان فى بداية القرن العشرين، باحثاً عن حظ أوفر وحياة أفضل فى أرض النيل. رجل عجوز بلا أسنان، مقوس الساقين، أصلع الرأس، كبير الأنف، كانت له طريقة تجعل هيئته القبيحة تختفى تحت ابتسامته التى تملأ وجهه دائماً. وكان لشريكة حياته السيدة سيفاستى رأى مخالف، لأنها لم تجد سبباً يجعل أى شخص يتسم بالعطف فى هذه الحياة المليئة بالحرمان والمعاناة. كانت محرومة من نعمة الأمومة، وكانت تعبيرات وجهها، على عكس زوجها، تحمل الكثير من الكآبة التى كانت تظلم شخصيتها النبيلة وتطفئ لمعان عينيها الحانيتين.

مرت عليها أعوام كثيرة منذ أن كانت تتشوق ليكون لها طفل، وذات ليلة اتبعت إحدى الوصفات الشعبية القديمة، حيث صعدت فوق قمة " تل البوسطة " المجاور، واستحمت " بالقلة " (ذكرها باللغة العربية ودوَّنها بحروف إنجليزية)، ثم حطمتها بعد ذلك فوق بعض التماثيل الفرعونية. لكن ربة الخصوبة الفرعونية خدعتها، ولم تحدث المعجزة. وقد وجدت سلواها فى ولدهما بالتبنى فانيس، الذى جعل لحياتها معنى، أما الفضل فى ذلك فيرجع لابن عمها يورغوس يورغاس.

لكن لم يشاركها زوجها أبداً هذا الرأى، فقد كان السيد فاسيليس يكن عداوة وكراهية غير مبررة منذ البداية تجاه ذلك الطفل اليتيم الذى أرسلته إليهم عناية

السماء، وكان يقول دائماً: «لقد أعطانا ابن عمك شيئاً عديم القيمة، أؤكد لك ذلك!». وكلما مرت السنون، كانت السيدة سيفاستى ترى، وهى تشعر بحزن شديد، أن الهوة تتسع أكثر فأكثر بين هذين الرجلين فى المنزل. عندما وصل فانيس إلى سن يستطيع فيها التعبير عن نفسه بوصفه طرف مساوياً فى المنزل، بادر بالإعلان عن كراهيته لزواج أمه.

كانت المشاجرات والإهانات تصيب القهوجى فاسيليس بالآلم فى نفسه. أما بالنسبة لاسر التبنى، فكان فانيس يشعر به بغريزته، حتى إن الصبى المراهق لم يتردد فى أن يعلنها صراحة: «من المستحيل أن يكون هذان الشخصان هما من أتيا بى إلى هذا العالم!» كان إحساسه بالعظمة دائماً ما يجعله لا يفكر حتى فى المرور من أمام المقهى الصغير، مما يدفع فاسيليس للتذمر وإبداء رغبته فى أن يراه ولو لمرة واحدة مرتدياً مريلة القهوجى، يأخذ منه الصينية ويساعده فى عمله فى المقهى. كل تلك السنين كانت سيفاستى تقوم بالعمل بدلاً منه، وهى ترتدى رداءً من قماش "الشيت" (قالها بالعربية وبونها بحروف يونانية) الرخيص صيفاً وشتاءً، تعد القهوة والشاي على وابور الجاز، وهى تقف تحت صورة ملك اليونان، ثم تقدم هذه المشروبات لمرتادى المقهى من المسافرين الذين ينتظرون القطار للسفر إلى القاهرة أو إلى الإسكندرية. ومن كثرة العمل أصيبت بالنوالى التى تسلفت قديمها كنبئة معترشة، كما أدت الزيادة المفرطة فى وزنها إلى عصبيتها وتذمرها المستمرين. ورغم كل ذلك، كانت تصر على أن العمل بالمقهى لا يتناسب مع قدرات فانيس، «سوف يصبح ابنتا فانيس موظفاً، انتهى الأمر إذن، فلن أهدر حياته بالوقوف أمام الإبريق والوابور!» هكذا كانت تقول لزوجها فى كل مرة يتذمر فيها. كانت لدى سيفاستى خطط لابنها المدلل ولا بد أن تحققها، فلم تتردد فى أن تطرق أبواب "رابطة التجارة اليونانية" صباحاً ومساءً، أو أن تطلب من كل ممن ينتمون لجزيرة سيمى اليونانية مساعدة ابنها، متمنية أن ترى فانيس يوماً ما جالساً خلف أحد هذه المكاتب، وقد تمكنت فى النهاية من أن تجد له وظيفة صغيرة فى الشركة اليونانية للقطن، التى كانت تملك مصنعاً لحلج القطن بالمدينة، عندئذ أحسست أنها قد حققت هدفها فى الحياة. أما فانيس فكان، على العكس من ذلك، يشعر أن

حظه الحقيقى ينتظره فى الجانب الآخر من العالم، ولذلك فقد أبدى عدم اهتمام بتلك الوظيفة. لكنه كان يولى أهمية أكبر، على سبيل المثال، لشعره الكستائى الغزير الذى يقف بالساعات أمام المرأة ليصففه بمشط بنى اللون مصنوع من عظم ظهر السلحفاة، ثم يببله بماء النيل. وكان يحرص على عمل فارق شديد البياض فى الجانب الأيمن من رأسه، كما كان يهتم كذلك بإعادة خصلات شعره المتناثرة إلى مكانها.

كان السيد فاسيليس يقول له باستمرار: «لا تبلل شعرك باستمرار، يا بنى، فسوف تتسبب فى تساقطه».

«رأينا ما حدث لك وأنت حتى لم تكن تبلل شعرك» هكذا كان يجيبه فانيس، ثم يستمر فى الاهتمام بمظهره بشكلٍ مبالغ فيه، معلناً بأسلوب وقح: «هذا هو حظى!» وكان يقصد أنه يفكر فى زيجة ناجحة، لكن يبدو أن عينيه البراقنتين وشعره المصفف وشاربه الأشقر لم تكن كافية لتحقيق غرضه. من جهة أخرى، كان الناس فى الزقازيق يعلمون جميعاً أن ابن القهوجى قناص للثروات ولاعب للورق، ولذلك كان الآباء بالمدينة يحرصون على إبقائه بعيداً عن بناتهم. فى بدايات عام ١٩٢٠، لو قام فانيس كوستاراس بمراجعة حياته حتى ذلك الوقت، لوجد بصعوبة شديدة شيئاً يبرر به وجوده. فقد قارب الخامسة والثلاثين من عمره، لكنه لم يتخذ قراراً تجاه حياته التى تمر به بلا هدف فى هذه المدينة الصغيرة بمصر. ومن ناحية أخرى، فلم تكن لديه الجراءة لمغادرة الزقازيق والانطلاق إلى القاهرة أو إلى الإسكندرية أو إلى أية جهة أخرى خارج مصر. وعندما يوجهون إليه اللوم، كان يجد راحة فى تهديهم قائلاً: «سأرحل من هذا الجحر، لا أنتوى العيش مدفوناً هنا طوال حياتى!». إلا أن كل ذلك كان مجرد كلام فى الهواء. كان فانيس جباناً ومدلاً أما سيفاستى التى كانت تعرفه جيداً، فكانت تشعر بالقلق على مصيره من بعدها. وكأن ذلك لم يكن كافياً، فقد ظهر فجأة فى أحد الأيام ابن عمها يورغوس لكى يزيد من متاعبها. كان يمكنك أن ترى فى وجهه ما تركه السجن من علامات على مر السنين، كما فقد الكثير من وزنه وشاخ قبل الأوان، لكنه كان يحاول أن لا يظهر ذلك:

يورغوس: «ألن ترحبى بى إذن؟».

سيفاستى: «لقد اتفقنا أنك لن تضايقنا أبداً».

- «أذكر ذلك جيداً، ولكن الأمور تغيرت. فهل كان هناك من يتصور أنى سأدخل السجن؟».

- «نعم لديك حق».

- «ظلم العالم عظيم، يا ابنة الخالة» قالها معلقاً وأخذ يتأمل بعينيه المقهى القديم الذى كان يجلس فيه مع سيفاستى وزوجها. كانت بعض قطع البلاط محطمة، ومعظم الموائد المعدنية الصغيرة يعلوها الصدأ، كما تاكلت بعض الكراسى المصنوعة من الخيزران. كانت صورة ملك اليونان فقط تبدو جديدة، وهى محفوظة داخل بروازها الزجاجى.

- «تحافظون على الملكية كأعينكم!» قال ذلك يورغوس بشكلٍ عفوى.

- «أقول لنا ذلك؟ أنت تعرف أنه فى اليوم الذى مر فيه علينا هذا البغيض (تقصد فينيزيلوس) وهو فى طريقه إلى الاسماعيلية، قام فاسيليس بإغلاق المقهى».

- «الإخلاص للملك هو الواجب الأسمى لكل وطنى». هكذا أبدى ملاحظته بطريقة آلية، وكأنه يلقى بخطبة كان قد أعدها من قبل. إلا أن سيفاستى سألته مقاطعة وقد تجاهلت لفظ "الإخلاص":

- «ما الذى أتى بك إلى هنا، يا يورغوس؟».

- «أرغب فى رؤية فانيس».

- «أنت تعلم أن هذا لن يحدث» أجابته بصوت جهورى.

- «لا تخافى. لم أت إلى هنا وأنا أضمر الشر. لكن هذا الولد يستحق حياة أفضل من العمل فى أحد المقاهى القديمة بالزقازيق».

- «هل تعي ما تقول! كيف وانتك فكرة أننى سأجبر ابننا على العمل فى مقهى أبيه. لقد أعطيتك وعداً من قبل ولم أخلف وعدى، أريد أن تعلم أن ولدنا لديه الآن وظيفة محترمة. ولو سألته فأنا على يقين من أنه سيؤكد لك أنه لا ينقصه شئ».

- «ولكنه ليس ابنكما، يا سيفاستى، لا تنسى ذلك. أنا الذى أستطيع أن أذهب به إلى والديه الحقيقيين».

- «إلى والديه الحقيقيين! نحن والداه الحقيقيان. أما الآخران فأتيا به إلى الدنيا فقط. ولكن من الذى قام بتربيته؟».

- «هل تزوج؟» هكذا سألتها، متجاهلاً انفعالها.

- «كلا».

- «عظيم، هذا يسهل الأمور».

- «أنت آخر إنسان كنت أنتظر أن أراه، يا ابن الخالة». سمع يوغوس من خلفه صوتاً انبعث على حين غرة، وعندما استدار رأى فاسيليس، وكان كل ما احتفظ به من أيام الشباب هو ابتسامته، لكنها كانت كافية لكى تجعله يدرك أنه سيستطيع أن يتواصل معه.

* * * * *

عندما فوجئ أندونيس بوجود فانيس كوستاراس أمامه، تذكر نفسه قبل خمسة وثلاثين عاماً. وبالنسبة له كانت مسألة ميلاد ابن غير شرعى له قد طواها النسيان تماماً، حتى إن سماعه للكلمة " أبى " من شفاه شاب غريب عليه كانت تبدو كالمزاح السخيف، ولم يكن يدرى ما الذى ينبغى أن يفعله عند سماعها، أيضاً أم يغضب. كان أندونيس منهمكاً فى قراءة بعض الأوراق على مكتبه، واندھش فى البداية من استطاعة شخص غريب أن يقطع المسافة من مدخل المصنع حتى باب مكتبه، ثم يقف أمامه مباشرة أثناء ساعات العمل دون أن يعترض طريقه أحد. تصور لوهلة أن

ما يراه أمامه ما هو إلا مزحة ناتجة عن وحي خياله فأغلق عينيه، ربما يستطيع أن يطرد بهذه الطريقة ذلك الضيف غير المرغوب فيه، ولكن عندما فتحها مرة أخرى كان الضيف لا يزال موجوداً، بشحمه ولحمه. كان النداء "أبى" الذى سمعه أندونيس مرة أخرى بحاجة إلى تفسير، تفسير ليس فى خياله ولكن فى الواقع، وتذكر أندونيس أنه ليس هناك سوى شخص واحد فقط فى هذا العالم كان باستطاعته أن يؤذيه بهذه الطريقة، وعاتب نفسه لأنه لم يمنعه منذ زمن، لكن يبدو أنه فى حقيقة الأمر قد نسى ما حدث منذ خمسة وثلاثين عاماً ولم يظن أبداً أنه سيؤثر على حياته الآن. سنوات طويلة إستطاع خلالها أن يعزل نفسه عن تلك المشاعر الزائفة، شعر أنه بمنأى عن الجميع، حتى عن ماضيه. كم كان أحمقاً! ربما مازال هناك وقت لكى يصحح خطأه. ربما كان من الأفضل أن يتصل بإلياس ويطلب منه الحضور فوراً. فهو الوحيد القادر على إيجاد حلا لمثل هذه المشكلات. فى تلك الأثناء، فكر أنه لا بد أن يأتى من يلقى هذا الشخص الذى ظهر فجأة فى مكتبه إلى الخارج. لكن لم يظهر أحد. وكأن الجميع شركاء فى هذه المؤامرة المذهلة، وكأن هذا الثعبان يورغوس قد تمكن من إحياء أشباح الماضى، بل وأن يقوم بتنويم جميع موظفيه مغناطيسياً فى وقت واحد.

امتدت يده تجاه التليفون، لكن فى اللحظة التى حاول أن يلتقط فيها سماعته، شعر بتتميلة فى أصابعه وسرعان ما انتشرت فى كل الجانب الأيسر من جسده. وفى نفس اللحظة بدا كل شيء حوله يدور: علبة السجائر الفضية، الصور المعلقة على الحائط، حتى النقوش المرسومة على قطع السجاد السميك فقدت تفاصيلها من هول هذه المفاجأة المذهلة وصدى كلمة "أبى" الذى كان يتردد بطريقة حزينة فى أذنه. وقبل أن ينهار تماماً بدأ شريط حياته السابقة يمر من أمامه، وكان يعتقد أنه قد نسيها. كان يتابع تلك الذكريات بنظرة غير عابئة كالمشاهد الذى يجلس فى قاعة السينما يشاهد فيلماً لا يخصه هو شخصياً، ولكنه يحكى قصة رجل أحب يوماً ما امرأة تدعى لورنا، وهى راقصة إيطالية تعمل بمقهى شانتان، عاش معها قصة حب بلا أمل، فذلك هو الحب الذى يمكن أن يشعر به أى رجل تجاه امرأة من هذا النوع.

* * * * *

«قام السيد فاسيليس القهوجى بالزقازيق وزوجته طوال تلك السنوات بتربية ابن خاراميس غير الشرعى!» بهذه الجملة المليئة بالكراهية بالفعل اختتم يورغوس رغبته فى الانتقام من أندونيس، ولكى يسمعها من أفواه الناس يوم ما، تحمل السجن والخزى. وبعد ما عاد يورغوس إلى منزله بعد معاناة طويلة، وجد زوجته وقد أصبحت شبه المجنونة، وأن ابنته البدينة قد فاتها قطار الزواج بعد أن حملت على عاتقها إخفاقات الحياة، هذا بالإضافة إلى قبحها الذى أفقدها الأمل فى الزواج. ومع وجود عائل الأسرة فى السجن، واجهت السيدتان صعوبات كبيرة فى تدبير أمور معيشتهم، كما لم تجدا فى عودته بعد طول انتظار حلاً لصعوبات الحياة. لقد واجه المحاسب السابق ما كان يتوقعه، فكل الأبواب أغلقت فى وجهه، كما تجمدت الابتسامات والمجاملات فى وجوه كل من يعرفهم - فى الطريق، فى المقاهى، فى المحلات، وحتى فى المكاتب - وكان الجميع يتظاهرون بأنهم لا يعرفونه. لقد حدد خاراميس القاسى مصيره، فمن يجرؤ على مخالفة رغبته؟ حتى منافسيه كانوا يخافونه، وقد سمع أحدهم يقول ذات مرة: «من يخون عدوى فهو خائن مرتين». أشار البعض عليه بالعمل فى المقهى اليونانى بالعطارين، لكن كان من المستحيل أن يفكر فى ذلك، فكيف يقدم المشروبات لهؤلاء الذين كانوا ينحنون يوماً ما أمامه عندما كان يمر بهم. انغلق يورغوس على نفسه داخل بيته وشارك زوجته وابنته الجوع والفاقة. أثر الضعف والسجن على صحته، ولم يكن ذلك الألم الذى عاوده أخيراً فى معدته مؤشراً جيداً، كما لم يكن هو نفسه مستعداً لأن يغادر هذا العالم قبل أن ينتقم.

عاش يورغوس يورغاس سنوات عديدة وهو يشعر بأنه قد ظلم فى علاقته "بأخيه الكبير". وكان بعودته إلى تفاصيل هذه العلاقة يتذكر هذا الفأر^(١٨) المذعور، تماماً مثلما وصفه من قبل، هذا الذى اختبأ فى منزلهم من أجل أن ينجو بنفسه من أحداث هوجة عرابى. كيف كان حالت أندونيس فى هذا الوقت؟ كان مشرداً فى الشوارع بلا مستقبل،

(١٨) استخدم المؤلف لفظ "ابن عرس" ولكننا فضلنا استخدام لفظ "الفأر" عند الترجمة لاعتقادنا بأن لها وقعاً لفظياً أفضل فى اللغة العربية. (المراجع.)

هذا السبارسجى الذى كان يجمع أعقاب السجائر من الشوارع، حتى إنه لم يسلم من سخرية المصريين. ما الذى كان سيصبح عليه أندونيس الآن لو لم يقدم له يورغوس يد المساعدة حتى يستطيع الحصول على قدر محدود من التعليم تحت ضوء لمبة الجاز، أو لم يضغط عليه من أجل أن يسجل نفسه فى إحدى المدارس المسائية للغات الأجنبية. وأخيراً، كيف كان سيسطيع أن يشق طريقه فى خضم مجتمع الإسكندرية؟ والأهم: أين كان سيوجد خاراميس العظيم المشهور الآن، لو لم تقم أسرته فى تلك السنوات العصيبة بالتقاطه من شوارع الإسكندرية؟

لقد عاش أندونيس وتعلم بفضل مساعدة أسرة يورغوس الذى رآه يتضخم باعتباره رجل أعمال. هذا الرجل القط الذى ينحدر من مدينة كافالا اليونانية تحول بين يوم وليلة إلى جنتلمان بالمعنى العالمى للكلمة. لكن كيف؟ لو لم يستكمل له يورغاس الأب ما كان يحتاجه من نقود ليتمكن من افتتاح مصنعه الأول، كيف كان سيتمكن بعد ذلك فى إنشاء مجموعة مصانع متكاملة؟ ولم تكن اهتمامات أندونيس تنصب على العمل فقط. فمنذ صغر سنه وهو يستمتع بجذب فساتين النساء لأعلى، وعندما كان يتحصل على المال كان أول ما يحرص عليه هو؛ إنفاق تلك النقود على نساء ساقطات. لقد كلفه حبه للورنا - الإيطالية، راقصة مقهى شانتون - ثروة طائلة، وفى النهاية هجرته بعد أن أنجنت منه طفلاً غير شرعى لم تكن لديها الرغبة فى تربيته على حساب مستقبلها الفنى. عندئذ استنجد أندونيس مرة أخرى بعائلة يورغاس لمساعدته. وكانت ابنة خالة يورغوس التى لم تنجب تقيم بالزقازيق، ففكرت والدته أن تمنحها هذا الطفل غير الشرعى ويبدو أن ذلك قد تم تنفيذاً لمشئته الله. ربما يكون أندونيس قد نسى كل ذلك، أما يورغوس فلم ينسه مطلقاً، إلا أنه أحياناً ما كان يلوم والدته الراحلة لأنها قالت له فى أحد الأيام: «فلتعمل مع صغيرى أندونيس، يا يورغوس. اليد الواحدة تساعد الأخرى». لقد سمع كلامها وأطاعها ولكن ما الذى عاد عليه؟ أهدر قدراته فى خدمة رجل لا يعترف بالجميل، شخص متكبر كان حريصاً طوال تلك السنوات أن يحقر من شأته وأن يسخر منه بشتى الطرق. لكن مهما علا شأن أندونيس خاراميس، فلم تكن لديه القدرة على محو ماضيه، الذى كان يورغوس على دراية به أكثر من أى شخص آخر.

بهذه الأفكار استقل يورغوس القطار فى صباح أحد الأيام متوجهاً إلى الزقازيق، وقد ارتدى بذلته القديمة المحفوظة فى النفتالين؛ وبعد أن تجرع بعض كنوس الخمر الرديء عادت إليه شجاعته من جديد، إلا أنه كان يشعر بوخزة فى معدته.

كان يشعر بالقلق الشديد، ولكنه أحس بالهدوء عندما التقى "وجهاً لوجه" (ذكرها بالفرنسية) مع فانيس كوستاراس. فقد أدرك أن إرادة الله غالبية فى كشف هذه البغضاء بعد أن جعل فانيس الابن صورة طبق الأصل من أبيه.

«إنك صورة طبق الأصل من أبيك!» قال يورغوس ذلك بحماسة، وكان بداخله سبب آخر جعله يشعر بالسعادة، لأنه لم يجد صعوبة فى اكتشاف أن ابن فاسيليس وسيفاستى بالتبنى وقد ورث صفات أندونيس، فقد كان صعلوكاً بمعنى الكلمة.

* * * * *

«عندما رحلت من هنا حملت معك فى حقائبك حرباً كانت قد انتهت. أتمنى أن لا تكون قد عدت وجلبت معك حرباً أخرى» قال ذلك إلياس لكوستيس وهو يستقبله خارج رصيف الميناء القديمة بالإسكندرية فى حديث يمزج بين الجد والمزاح، وفى نفس اللحظة ألقى نظرة ذات مغزى إلى تلك الحسنة الشقراء التى ترافقه وسأله: «ألن تقدمنى إلى صديقتك؟». لم يكن لدى كوستيس أى سبب يجعله يتعجل فى اعطائه أية تفسيرات، وفى نفس الوقت لم تعجبه الطريقة التى نظر بها صديق والده إلى هايكى وفكر أن لا يدع أية فرصة لسوء الظن، فقال له:

كوستيس: «نعم، اسمح لى أن أقدم لك زوجتى هايكى رويسيندال» (قال ذلك بالفرنسية).
إلياس: «حقاً؟ إذن فقد تزوجت، يا صغيرى» هكذا هلّل اللبثانى مبدئياً اندهاشه ثم استطرد قائلاً: «أرجو أن تعذرنى (قالها بالفرنسية)، لكننى لم أكن أعرف أنك قد تزوجت» ثم استدار ناحية السيدة الجميلة وقبّل يدها، وهو يهمس قائلاً (بالفرنسية): «تشرفنا، يا سيدتى».

وبدورها تقبلت هايكى التحية بابتسامة مجاملة. تأملها كوستيس لوهلة ولم يكن الحمل تأثير واضح عليها. كانت تقف شامخة، وهى تلف جسدها برداء من موديلات شانيل، تداعبه الرياح، وكان لديها انطباع بأنها قد وصلت إلى الإسكندرية مرتدية أحدث خطوط الموضة. ولم تكن المسكينة تعرف أن كل خطوط بيوت الموضة العالمية قد وصلت بالفعل إلى الإسكندرية.

«فلنتهى إذن من هذه "الرسميات" (قالها بالفرنسية)» قال ذلك كوستيس وقد بدا عليه الضيق من أسلوب معاملة خورى لزوجته. وكانت السحب قد تجمعت فى سماء الإسكندرية لتتذر بسقوط المطر فى أية لحظة. أما هايكى، التى كانت تتخيل يومها الأول فى أفريقيا بشكل مختلف، فقد أخذت تنظر إلى سماء الإسكندرية وهى فى شدة الإحباط. إلا أن كوستيس كان قد أعدها نفسياً من قبل. ألقى التحية على محمود، الذى أسرع بفتح أبواب السيارة للزوجين، ثم نظر كوستيس خلفه فى قلق، وسأل إلياس:

- «أعتقد أنه لا ينبغى القلق بشأن الحقائق، "أليس كذلك" (قالها بالفرنسية)؟».

- «لا، لا تقلق. سوف يقوم محمود بعمل اللازم، وسوف يتم إرسال بقية الحقائق إلى المنزل مباشرة. "لا تقلق إذن" (قالها بالفرنسية).

جلس الزوجان فى المقعد الخلفى للسيارة، فى حين جلس إلياس فى المقعد المجاور للسائق. وكانت لدى كوستيس فرصة كافية لكى يتأمل بدقة التغيرات التى أحدثتها الزمن فى صديق أبيه، ثم قال له مداعباً:

- «لقد بلغت من الكبر عتياً، يا إلياس. هل تدرك ذلك؟» تقبل إلياس ذلك، ثم أجابه:

- «أه، هذا أمر حقيقى، لقد نلت حظى من الكبر (قال ذلك بالفرنسية) لكن كلنا نكبر، أليس كذلك، يا صديقى؟».

- شعر كوستيس بالندم لأنه كان جافاً مع إلياس وحاول أن يلطف موقفه بقوله:
- «معك حق، "على أية حال" (قالها بالفرنسية)، ولكنك مازلت من أكثر الرجال وسامة في مصر. كنت أتأمل بذلتك، وصدقني، أنا الذي كنت أجوب أوربا، نادراً ما التقيت رجالاً مهندمين مثلك».
- «ربما تفسد السن "الأناقة" (قالها بالفرنسية). أنظر، إلى محمود على سبيل المثال هل ترى أى تغيير فيه؟».
- «لا شيء، إنه كما تركته تماماً» عندئذ ضحك السائق المصرى البدين نو الرأس العريض، الذى كان يحاول طوال تلك السنين أن ينال رضا كوستيس.
- «أترى إذن، أما أنا فقد أخذ الشيب يغزو رأسى، وصدقنى فى كل صباح أدخل فى معارك مع التجاعيد المحفورة فى وجهى، أنفخ وجنتى، وأقوم بعملية شد لجلد الوجه حتى أذننى، ثم أضع على وجهى فوطاً ساخنة. ورغم ذلك فلم يتغير من الأمر شيئاً».
- «شئ جميل أن تقول لى كل ذلك. فسوف أستفيد بخبرتك هذه فى القريب العاجل».
- «لا! فما زلت صغيراً».
- «لست صغيراً إلى هذا الحد. فالعمر يجرى سريعاً».
- «نعم معك حق، وما أنت ذا قد تزوجت حقاً، هل يعرف والداك بهذا الخبر؟ أنا أسألك لأنى لم أسمع منهما شيئاً».
- «لا، إنهما لا يعرفان، "مفاجأة!" (قالها بالفرنسية) أليس كذلك؟».
- «أه، يا عزيزى (قالها بالفرنسية)، اسمع لى أن أخيب ظنك. فلسوء الحظ هناك مفاجآت أخرى فى انتظارك».

- «أى نوع من المفاجآت؟».

- «أولاً بالنسبة لى، ألم يثر دهشتك أننى من حضر لاستقبالك؟».

- «نعم، حقاً كيف لم أفكر فى ذلك أبداً. ما الذى يحدث؟» (قالها بالفرنسية).

- «ما الذى يحدث؟ من أين أبداً؟ إنه لأمر بالغ الصعوبة».

- «هل حدث مكروه لأبى أو لأمى؟ فقد شعرت فى التلغراف الذى وصلنى منها لهجة استعجال لحضورى».

- «حدثت أمور حزينة فى الفترة الأخيرة و.....».

- «وماذا؟....».

- «لا أدرى ما الذى سيضايقك أكثر. أن تعلم أن والدك مريض أم أنه قد أصبح لك أخ جديد؟»

أبرقت السماء بضوء مبهر، وتعالى صوت الرعد الهادر، ثم أتبعه صوت الأمطار وهى تسقط. ظن كوستيس أنه لم يسمع ما قاله إلياس جيداً وصاح (باللغة الإنجليزية) مندهشاً:

«أستميحك عذراً!».

بهذه الجملة الأخيرة كان إلياس يبدو وكأنه قد أخرج بالوناً كبيراً، وكان ينبغي عليه أن يملأه بالإجابات، أما محمود الذى كان على ما يبدو يفهم ما يدور، فكان يقود السيارة ببطء شديد تحت الأمطار الغزيرة حتى يمنح إلياس وقتاً كافياً ليشرح لكوستيس، وعندئذ أدرك كوستيس أن اللبائى الذكى أخذ يحدثه بمزيج من اللغات. فكل النقاط التى لم يكن من المفترض أن تفهمها هايكى كان يرددها باليونانية، حتى لو كان ذلك غير مقبول من جنّلمان مثله أن يتحدث بلغة أجنبية أمام إحدى السيدات. أخذ يحدثه عن الظهور المفاجئ لفانيس كوستاراس، وعن السكتة الدماغية التى أصيب بها

والده. كان إلياس يتحدث مع كوستيس بطريقة لاعب ورق محترف، فكانت لديه القدرة على إخفاء أوراقه الراححة، محولاً تلك الأوراق إلى معلومات يمنحها إياها الواحدة تلو الأخرى، كما كان حريصاً أيضاً على أن يخبره بالتغيرات التي طرأت على المدينة، والتي كان كوستيس على علم بمعظمها من خلال خطابات والديه؛ فكانت لديه أخبار، مثلاً؛ عن استكمال طريق الكورنيش بالميناء الشرقية، مثلما كان يعرف ما الذى سيراه فى ميدان سعد زغلول، حيث اكتمل بناء الفندق الكبير الجديد بالمدينة - وهو فندق "سيسيل" (ذكرها بالفرنسية) - فقد سبق أن وصفته له أمه وأخبرته بأنه يشبه أحد قصور شمال أفريقيا، بواجهاته المربعة وموقعه المتميز على البحر. حتى تغيير اسم شارع رشيد إلى شارع فؤاد كان على علم به، ورغم معرفته بكل تلك التغيرات فإنه لم يقل شيئاً لإلياس، وكان يبدو سعيداً بخداعه ولم يشأ أن يصيبه بالإحباط.

«بكل صدق، كان الأمر مؤلماً بالنسبة لى، أن أتولى إبلاغك بهذه التطورات المحزنة فى منزلكم. لكن كان لابد أن يفعل ذلك أحد. أفهم شعورك، يا بنى» قال ذلك إلياس بصوت يفيض بالحزن

كوستيس: «إنها بالتأكيد ليست أخباراً مفرحة..... هكذا.....».

وعلى العكس مما قد يتوقعه أى شخص، فقد اعتبر كوستيس أن هذه الأخبار تدعم ما يخطط له، يكفى أن ينفذها بشكل سليم. ولذلك فقد أجبر محمود للتوقف بالسيارة على بعد عدة أمتار من المنزل. ثم كتب فى عجلة رسالة إلى أمه، التى كانت تنتظره فى مدخل المنزل محتمية من الأمطار، وطلب من إلياس أن يسلمها لها. فى حين قام بعد ذلك مع هايكى بعمل جولة حول الحى لىكى تشاهد حدائق الشلالات، وفى الوقت نفسه لىكى يمنح ذافنى وقتاً كافياً لقراءة واستيعاب محتوى رسالته. خرج "اللبنانى" من السيارة حاملاً مظلة سوداء ضخمة، وعبر الطريق بخطوات مسرعة. وكان يضع فى جيب البالطو اليسار خطاب كوستيس الذى يقول فيه:

أمى

لقد أخبرنى إلياس بكل التطورات التى حدثت فى بيتنا. لابد أن أبلغك أنتى فى الإسكندرية مع زوجتى، إنها امرأة هولندية يهودية تدعى هايكى رويسيندال. تزوجنا فى باريس عندما علمنا بحملها. أرجو أن تحترمى موقفها، أما بالنسبة لأبى، فتعاملى مع الموقف كما تشائين. أتشوق لرؤيتك.

ابنك الأكبر

* * * * *

عندما أدخلت جوليا المفتاح فى باب مكتب أندونيس خاراميس، لم تتحمل الموقف وانفجرت باكية.

جوليا: «سامحنى، يا سيد كوستيس، سامحنى،" كان ذلك غباءً منى" قالت ذلك بالإنجليزية)، لكنى لم أكن أتوقع أن يحدث شيء كهذا لأبيك. كان يبدو قوياً. وهذا الشخص كيف وصل داخل المكتب دون أن نلاحظه؟ أوه، إن أسامح نفسى أبداً».

كوستيس: «إهدئى، يا فوليا، كل شيء سيكون على ما يرام. كانت لحظة ضعف من أبى، ليست بالأمر الخطير. اهدئى فأنت لم تخطئى فى شيء» قال لها ذلك وهو يحاول أن يطمئنها. فى تلك اللحظة، ودون أن يدري، جال بخاطره ربما كانت السكرتيرة العانس مغرمة بأبيه، وبالكاد منع نفسه من الضحك.

جوليا: «أتريد أن تقول، يا سيد كوستيس، إن السيد خاراميس سيعود إلى المصنع مرة أخرى، أوه، يا إلهى، سوف أعيش حتى أرى هذا اليوم صدقنى. لكى أراه وهو يدخل عظيمًا ووقوراً إلى مكتبه ولأمت بعد ذلك».

طوال الوقت الذى كانت جوليا تتحدث فيه، كانت نظاراتها تتراقص فوق أنفها المدب من فرط ارتجاف عضلات وجهها وأذنيها اللتين كانتا تصعدان وتهبطان بشكل مضحك. كان شعرها الخشن الذى جمعته فى ضفيرة واحدة يبدو وكأنه مجموعة من الأسلاك المربوطة إلى بعضها بعضاً. كانت جوليا من أولئك النساء اللاتى قد لا تمنحك السعادة بقدر ما تمنحك القوة. ومع الوقت كانت تذكره بربة منزل من برلين.

«فى النهاية فكل شىء مقدر (قال ذلك بالإنجليزية)، أليس هذا ما يقوله أصدقائنا الإنجليز؟ كل شىء سيعود كما كان، سوف ترى» هكذا أجابها كوستيس. وكم كانت رغبته شديدة فى أن يؤمن هو نفسه بذلك. كان انهيار والده المفاجئ قاسياً بالنسبة له. فمن ناحية، كان يشعر بأنه على استعداد أكثر من أى وقت مضى لإدارة المصنع، ومن ناحية أخرى، كانت المسئولية تخيفه. كان كوستيس يؤنب نفسه على إهداره كل السنوات الماضية فى أعمالٍ تافهة. كان أقل ما يمكن أن يفعله هو؛ أن يقوم ببعض الدراسات المتخصصة، مثل أبناء بعض المصريين اليونانيين العاملين بصناعة الدخان. الآن ستكون الأمور مختلفة وسوف يتعامل مع الآخرين بشكلٍ مختلف. شعر كوستيس بالخوف من المكتب الواسع. فقد قطع بداخله مسافة عشرة أمتار ولكنه لا يزال فى المنتصف، استدار تجاه جوليا من أجل أن يستمد منها بعض القوة، وقال:

«لو أن والدى، لا قدر الله، لم يعد مرة أخرى، ما رأيك وقد أمضيت هنا سنوات عديدة، هل تعتقدين حقاً أننى سأتمكن من إدارة المكان؟» وبمجرد أن أنهى حديثه انفجرت السكرتيرة العانس مرة أخرى فى البكاء، واختفت عبر الباب الضخم المصنوع من خشب الماهوجنى والمبطن بالجلد.

«حسنًا، الجميع هنا يثق بك ثقة كبيرة» هذا ما قاله كوستيس لنفسه متهكماً. وفى نفس اللحظة قام بتعليق الجاكت الخاص به والقبعة على الشماعة وفتح أزرار قميصه صائحاً بصوت عالٍ: «والآن إلى العمل ثم العمل!».

* * * * *

«يوم غسل يوم بصل» هكذا كانت ذافنى تجيب (باللغة العربية) كل من يسألها عن أخبارها مع هايكى، زوجة ابنها. لكن فى واقع الأمر، كانت العلاقة بين المرأتين أفضل بكثير مما كانت والدة كوستيس تتصور. ومن جهة أخرى شعرت كل واحدة منهما منذ اللحظة الأولى أنها بحاجة للآخرى. وبالطبع كان على ذافنى ليس فقط مواجهة انهيار أندونيس وانضمام شخص غريب إلى العائلة، ولكن أيضاً مواجهة الفضيحة التى تبعت

هذا الأمر. أما هايكى، التى كانت تنتظر مولودها الأول، فكانت تشعر بإحساس غير مسبوق بعدم الراحة: فهى وحيدة فى بلدٍ غريب وزوجة لرجل من جنسٍ آخر وديانة مختلفة، رجل لم تكن تعرفه جيداً.

كان التحالف بين هايكى وذافنى أمراً ضرورياً إذا أراد أن ينعم كوستيس بالهدوء وعدم التششت فى ذلك الصراع الصعب الذى وجد نفسه فيه، والذى كان من المهم أن يحافظ من أجله على هدوئه. كانت لدى كوستيس الرغبة فى أن يكون على ثقة مطلقة من ذلك التوافق بين الحماة وزوجة الابن، ولذلك فقد حرص منذ البداية على توزيع الأدوار التى تلعبها كل منهما فى الحياة اليومية. فبدأت هايكى من جانبها تلعب دور الزوجة المستسلمة، مع مطالبتها الدائمة بالاحترام ومراعاة ظروف حملها، ومن جهة أخرى كانت ذافنى تظهر بصورة الحماة المتسامحة التى تشعر بالفخر تجاه تلك الموديل السابقة فى بيت شانيل للموضة، والتى أغرقت المنزل بموسيقى باخ ورحمانينوف وشوبان، مخالفة بذلك نغمات البيانو التى كانت تعرفها الأنسة جابى، تلك المرأة التى لم تكن لدى كوستيس الرغبة فى رؤيتها أمامه أو رؤية أخيها، وكان يوجه كراهيته فى الوقت الحالى للعبة المفاوضات التى تدور بينه وبين أمه حولهما.

كانت ذافنى تتخيل عودة ابنها الأكبر بطريقة مختلفة. لكن طوال الثلاثة عشرة عاماً التى تغيب فيها، تحول كوستيس تحولاً جعلها تشعر بالرضا تجاهه. "فصعلوك الحى اليونانى" أصبح رجلاً ناضجاً، قوياً ذا شخصية، وأحياناً مرناً ودبلوماسياً - وفقاً لما تقتضيه الحاجة. كان لوجوده فعل السحر فى عودة إحساسها بالأمان الذى كانت قد افتقدته بعد الأحداث الأخيرة، أما الرسالة التى أرسلها لها قبل وصوله وزوجته بمثابة الدليل على سعة أفقه ذلك، فقد كان يعرف كيف يستغل المواقف والمآسى التى واجهها فى حياته ويحوّلها لصالحه. لم تكن الزوجة التى أتى بها معه هى ما كان يحلم به، لكنه كان من الصعب فى نفس الوقت أن تجد فى الإسكندرية كلها من يرى أن العروسين لا يناسب كل منهما الآخر، حتى لو كانت هايكى تخلق نوعاً من الإحساس الكاذب بأنها أكثر طولاً من زوجها من خلال ارتدائها حذاءً بكعب عالٍ، ذلك الطول الذى كان كوستيس يحاول التغلب عليه باحتفاظه بقامته منتصبه.

ومن جانبه، تولدت لدى الابن الأكبر لاندونيس خاراميس قناعة تزداد يوماً بعد يوم بأن عودته إلى الإسكندرية كانت حتمية، وبأن كل تلك الكوارث التي طرقت أبواب منزلهم كانت وسيلة يدعم بها حياته. لكن الآخرين لم يشاركوه وجهة نظره المتفائلة بشكلٍ مبالغ فيه. كان والده يتلقى العلاج في مستشفى سان سوفرونيوس بعد إصابته بالسكتة الدماغية. وعندما أصبح المصنع بلا إدارة، بات منافسوه يهللون فرحاً، فى الوقت الذى كانوا يعربون فيه عن حزنهم ومساندتهم لآل خاراميس. أما الشاب الذى قدم نفسه فجأة على أنه ابن غير شرعى لاندونيس، فقد كان مصراً على المضى قدماً فى انتقامه قدر استطاعته. وقد حاول مرتين زيارة والده المريض بالمستشفى، لكن لحسن الحظ لم يسمح له الأطباء بذلك. كما وافته الجرة للظهور فى منزلهم بالحي اليونانى، وعندما وجد الباب مغلقاً، ظل فى مكانه بالخارج لوقت طويل وهو يصيح بأنه ليس هناك من يستطيع أن يحرمه من حقوقه. وتحولت المسألة إلى كيفية التخلص من هذا المخلوق الذى يقول عنه كل من يراه: إنه يشبه والده بشكل لا يصدق، مما لم يدع مجالاً للشك فى أنه من صلب اندونيس. وكان غياب ماخوس فى تلك اللحظات الحرجة بمثابة فضيحة إضافية تناقلتها الدوائر الاجتماعية بالإسكندرية.

وفى خضم كل تلك المواجهات والمشاكل المجتمعة، لم يجد كوستيس الوقت لإبداء اعتراضه على قطع الآثار المصرية التى جمعتها أمه. وفى الحقيقة، لم تعجبه فكرة أن السيدة ذافنى قد حولت المنزل إلى متحف فرعونى، بغض النظر عن الشائعات التى كانت تحيط به من كل جانب وتتعلق بنهب الآثار - وكانت بمثابة صداد آخر فى رأس كوستيس. كان اهتمام ذافنى بالحضارة المصرية القديمة يبدو أمراً مشوقاً بالنسبة لها، وهو ما جعل ابنها لا يجد تفسيراً للطريقة التى كان يراها بها، وقد أصبحت أصغر سناً مما كانت عليه منذ خمسة عشر عاماً. كان كوستيس يفكر باستمرار فى احتمالية أن يكون لأمه عشيق جعلها أصغر سناً، ولكن سرعان ما كان يرفض مثل هذا الاحتمال، ولذلك فقد وجد أنه من الأفضل أن يدعها تتشغل بتلك الآثار القديمة. الأمر الآخر الذى كان يشغل باله هو: هذا العدد الهائل من العاملين بالمنزل، لكنه كان يعتبره من الأمور الأقل ضرراً إذا ما وضع فى اعتباره أن أجورهم لم تكن ذات قيمة عالية.

اعتاد كوستيس أن يترك روح الكرم فى المنزل ولا يأخذها معه إلى المصنع أبداً. فمن أول يوم له فى المصنع نراه يفرض فلسفته الجديدة التى أعلنها أمام أندرياس سيستانيس عندما قال : «كل شىء قابل للتفاوض».

لقد أجمع كل الناس على أن المدير الجديد يتمتع بشخصية مستقلة. وإلا فكيف يتسنى لهم تحديد شخصية إنسان لا يجلس أبداً فى مكتبه، يستبدل بذلته الفاخرة بملابس العمل البسيطة التى كانت تجعله كأنه واحد من عمال المصنع، حتى يستطيع أن يشارك بنفسه فى جميع مراحل التصنيع، وفى هذا كان يقول:

«لدى رغبة عارمة أن أتعلم التصنيع فى جميع مراحله. أهذا أمر سيئ؟» هكذا كان يسأل شركاءه بالعمل، ولكن الأمر لم يكن يتوقف على مجرد الكلام. إذا أراد أن يخلف والده، فكان لزاماً عليه أن يتبع خطاه فى كل شىء. كان أندونيس يردد دائماً أن صانع الدخان الجيد لابد أن يكون على صلة بالتبغ فى حقله، بالطبع كان هذا مجرد كلام، خاصة بالنسبة لمصر، حيث لم تكن هناك زراعة للدخان، لكن ذلك كان يعنى أن مسئوليته تبدأ قبل أن يتم وضع بضاعته فى مخازنها. كان كوستيس يتذكر قلق والده فى كل مرة يتسلم فيها شحنة من التبغ. كان يراجع مراراً وتكراراً العلامة التجارية للمورد، الكمية، المنشأ، الجودة، المنتج، حتى تعبئة التبغ بالقدر الكافى فى السجائر. وإذا ما تصادف، وكان التبغ أقل من الكمية المطلوبة فى كل سيجارة فالويل للجميع، وفى ذلك كان دائماً ما يقول:

«التبغ هو الذى يصنع السيجارة، أما بقية الأمور الأخرى: مثل ورق السجائر والوسائل اللزج والنكهة، فجميعها ليست سوى عوامل مساعدة لإعطاء المدخن الإحساس بالمتعة». كان هذا الخليط هو الشغل الشاغل بالنسبة لهم! ولذلك كانوا يقومون بفحص دورى للجودة، كما كانوا يتعاملون مع أكثر من مورد بغرض الوصول إلى أفضل عناصر تلك الجودة. وفى النهاية كان يتذمر من ذلك المخزون الضخم الموجود فى مخازنه فى حين كان يعلم أنه لا يوجد مفر من ذلك.

الآن أصبح على كوستيس الاهتمام بكل شىء بنفسه، طالما تمكن من توفير أنواع التبغ المختلفة مثل: باسماء، سامبسوندوس، كامبا كولاك، ميروداتا زميرنى، وهى أنواع التبغ التى تصل من غرب مقدونيا وطراقيا وتركيا. كان عليه أن يحل محل والده فى تعاقداته الموثقة التى أقامها بينه وبين مورديه. وعندما يضمن توفر أنواع التبغ المختلفة بالكمية والجودة المطلوبتين، كان عليه أن يتعلم كيف يمزج بينهما. فى تلك المرحلة التى كانت تسبق وضع اللمسات الأخيرة فى تصنيع السجائر. لكنه لم يكن يقف عند هذا الحد، فقد كان ينشغل حتى بماكينات التصنيع الآلى. كانت صيانة وتشغيل ماكينات تقطيع وتصنيع السجائر تمثل قطاعاً كاملاً كان والده يتجنب الانشغال به باستمرار. ولذلك لم يكن من الصعب أن يكتشف كوستيس قلة إنتاجية ماكينتين على الأقل بسبب الإهمال فى صيانتها. كما اكتشف أيضاً أن قطع الغيار التى يقوم المهندس إيرنيستوس كالكانيس بتركيبها بمساعدة اثنين من المهندسين بالمصنع كانت قديمة ومتآكلة، عندئذ قام فى اليوم التالى باستدعاء المهندس الإيطالى صديق والده، وأبلغه بإنهاء التعامل معه. وفى الوقت ذاته قام بمقاضاته بسبب الخسائر التى تسبب فيها للمصنع وعدم قيامه باعتباره مهندساً بأداء عمله على أكمل وجه، كما قام بفصل المهندسين الآخرين. كان لهذا التصرف تأثيره القوى على السوق وربما كانت المرة الأولى التى يعترف فيها البعض بمدى جدية هذا الشاب العايب.

كان فى كل لقاءاته مع رجال صناعة دخان آخرين، ومع أعضاء من الحكومة المصرية يبحث عن حلول للمشكلات التى تواجهها صناعة الدخان الراسخة بمصر، كما كان يبحث أيضاً عن علاقات وثيقة مع مصانع جديدة بالخارج، وعن تثبيت عمالقة صناعة الدخان الأمريكيين فى مصر. إلا أنهم أعلنوا جميعاً عن فشلهم فى إيجاد حل لتلك المشكلات. وعلى العكس منهم جميعاً، كان كوستيس متفائلاً بمستقبل المشروعات اليونانية، يكفى أن لا تقع حرب أخرى فى أوروبا، كما كان إلياس خورى يتوقع. فى تلك الأثناء، كان العمال يمارسون ضغوطاً كبيرة من أجل توفير مناخ آدمى أفضل للعمل، وكان كوستيس هو أول من طالب اتحاد صناعة الدخان بالدخول فى حوار مع نقابة العمال.

«لقد بلغنى، يا سيد خاراميس، أنه كانت لك علاقات قوية بالشيوعيين فى أوربا» قال ذلك أحد أصحاب مصانع الدخان، ثم استطرد قائلاً: «وبصفتى صديقاً قديماً لوالدك، ينبغى على أن أخبرك بالتالى: هنا تستطيع أن تتعامل مع "البيزنيس الحقيقى" (قالها بالإنجليزية). فالأمر يتسم بالجدية».

كوستيس: «سيدى الفاضل، علاقتى بالشيوعيين، كما تقولون، علمتنى أن هناك فارقاً بين كونك ليناً فى المفاوضات مع العمال أو أن تتركب رأسك بغباء!».

كانت شئون الشركة الداخلية موضوعاً للنقاش فى "مجلس يوم الجمعة"، تلك الهيئة التى بدأت منذ الأسبوع الثانى فى تولي مهامها الجديدة. أما الماركتان الجديدتان اللتان دفع بهما والده إلى الأسواق الداخلية وإلى السوق الأوربية وهما "كليو إكسترا" و "أليكس سبيسيال"، فكانت لهما أهمية كبرى فى رفع شأن الشركة. وعلى الرغم من اتباع أندونيس لسياسة تقشفية فى كيفية دفع وعرض المنتجات الجديدة - مع تأكيد على الجودة - كان كوستيس، على العكس من ذلك، فقد بدأ حملة إعلانية كبيرة فى الصحف والشوارع، معتبراً أن سلاحه الإعلانى الفاعل يكمن فى المعارض الدولية، التى كان والده يشجعها أيضاً. وكان كوستيس يعد العدة جيداً لكى يصبح حضوره قوياً فى معرض مدينة ثيسالونيكى الدولى فى السنوات القادمة، وأيضاً فى المعارض التى تقام فى كيب تاون وفى لندن وفى فيلادلفيا. فى نفس الوقت، كان يعتبر أنه من المهم أن يظهر باعتباره مورداً رئيسياً للبيوت الملكية بأوربا. وبالنسبة للاتفاقيات الأخرى، فقد بدا وكأنه عاد إلى فترة ما قبل عام ١٩٢٠، حيث أنهى الاتفاقيات التى كان والده قد بدأها مع رجال صناعة الدخان اليونانيين - المصريين فى هامبورج، فى نفس اللحظة التى كان يستعد فيها لتوقيع اتفاق جديد مع سلاح البحرية الإنجليزية. ولهذا الغرض قام بالإعلان عن شراء وتركيب ماكينات جديدة لتقطيع ولف السجائر. كما قام بافتتاح منافذ جديدة للبيع القطاعى فى جميع أنحاء المدن الكبيرة بمصر تقريباً؛ ولكى يواجه تلك المنافسة الشرسة قام بفرض وجود إعلان دائم عن منتجات مصنعه لدى تجار القطاعى. ولأنه أدرك صعوبة أن يتولى شخص بمفرده الإشراف

على كل تلك الأمور.. فقد حرص على تعيين أشخاص آخرين محل ثقة مطلقة، إلى جانب أندرياس سيستانيس؛ ويعد أسابيع قليلة استقبل في الإسكندرية رفاقه القدامى بباريس: برندراك إيفيتس وميسا فورويانوف. وكان الصربي صاحب الماضي القديم في ثيسالونيكى هو الأنسب للقيام بالسفر إلى كل من مقدونيا وطراقيا لإجراء المفاوضات الخاصة بشراء التبغ. وخلال فترة زمنية قصيرة أصبح الضابط الروسى مصدرًا للخوف والرعب فى المصنع، حيث عينه كوستيس مشرفًا على العمال، فكان يتعامل معهم بقسوة، ووضع نظامًا صارمًا لحضور العمال إلى المصنع كل صباح، كما كان صارمًا فى نظام العمل. ويبدو أن اختفاء أندونيس المفاجئ كان قد تسبب فى حدوث جو من التراخى فى المصنع. ولذلك كان البعض فى حاجة إلى الشدة، ولم يكن هناك من هو أنسب من ميسا للقيام بهذه المهمة. كان ميسكليه الباريسى يقف فى الفناء المكشوف، معترضاً باكتافه العريضة العمال المتأخرين ويعوقهم عن المرور، مما كان يضطرهم للعودة إلى منازلهم والحضور فى اليوم التالى. كما كان الانقطاع بلا سبب عن العمل لمدة ثلاثة أيام يعنى الفصل النهائى، طبقاً لقانون العمل لعام ١٩٢٠، بعد كل هذا، من كانت لديه الجراءة على التأخير مرة أخرى.

فى تلك الأثناء لم تكن الأنباء الواردة من ألمانيا تحمل أخباراً سعيدة؛ فقد أكد صعود هتلر للسلطة مخاوف كوستيس، الذى أرسل بدوره تليفراً إلى كارل يطلب فيه حضوره إلى الإسكندرية. ولكن يبدو أن هذا الشيوعى الألمانى كان مؤمناً بأنه ومن يشبهونه هم الوحيدون القادرون على اقتلاع النازية من جذورها، ولذلك فقد قابل دعوة كوستيس بالرفض، وكتب له قائلاً: «ألا تخشى أن أتسبب فى قيام العمال بثورة ضدك، يا عزيزى الرأسمالى؟».

عادت عائلة خاراميس مرة أخرى لتصبح مادة للحديث فى حفلات الشاي وحفلات الاستقبال الخاصة بالجالية اليونانية والجاليات الشرقية الكبرى، ولكن فى هذه المرة كانت الفضيحة تخص "رب الأسرة" (قالها باللاتينية) نفسه، ذلك الرجل العظيم الذى انهار لرؤية ابنه غير الشرعى، الذى كان قد ألقاه فى الزقاقى. كان باستطاعة

كوستيس أن يتخيل خيوط المناقشات الدائرة حول تلك الفضيحة. فالسيدات كن يخفين وجوههن وتحمر وجناتهن لمجرد سماع تلك الفضيحة، أما الرجال المسنون الذين يضعون عيوناً زجاجية، صلع الرؤوس، فكانوا يهزون رؤوسهم بامتعاض؛ نفوس حاقدة لم تكن لتصبح راضية إلا بعد دمار أسرة خاراميس دماراً كاملاً. ومن بينهم من تناول طعامه على مائدة العائلة مرات ومرات، لكنهم سارعوا بالابتعاد عن اسم خاراميس، الذى ارتبط بآبن شاذ جنسياً وأم من لصوص الآثار، وأب ختم أفعالهم بتلك القصة المفزعة عن ابنه غير الشرعى. حتى كوستيس لم ينج من شرهم، فلديهم العديد من القصص المحزنة التى تخصه: فقد تورط فى البداية مع امرأة قبطية فى جريمة زنا بشعة، وكان على وشك إثارة الأقباط ضد الأجانب، الذين لم يفهم أن يسرقوا ثروات أرضهم، لكنهم أرادوا أيضاً أن يسرقوا نساءهم. ثم انغمس فى ملذات عواصم المدن الأوربية قرابة ثلاثة عشر عاماً وهو يبعثر ثروة والده. حتى لو غفروا له كل ذلك، فكيف يستطيعون أن يغفروا له عودته إلى مدينتهم ثم تحوله فجأة بعد كل هذا الماضى المخزى إلى منقذ ثروة آل خاراميس، فهل يستطيع أن يلعب دور أبيه أمام منافسيه؟ ولكن يبدو أن هذا الشاب غريب الأطوار ذا الطابع المغرور والزوجة المتميزة، التى كانت تبدو جميلة حتى فى حملها، قد عاد ليقود دفة عائلة خاراميس بمصانعها الكبرى لصناعة الدخان فى مصر إلى بر الأمان. وكان الشئ الوحيد الذى يستطيع أن يفعله هو: أن يستبدل بذلته بملابس العمال ثم يتجول داخل المصنع وهو يردد جملته السحرية: «كل شئ قابل للتفاوض».

لقد أصبحت تلك الجملة هى العبارة المتكررة، والشعار الأجوف المثير للسخرية بين الدوائر الأرستقراطية. كان الاعتقاد السائد بين رجال الأعمال بالمدينة، أن الابن المدلل لخاراميس لم يكن يعرف الفرق بين التبغ والدخان. كان شعور كوستيس بالخوف يدفعه كل ليلة، بعد يوم عمل شاق، إلى التوجه إلى غرفة والده فى مستشفى سان سوفرونيوس، والحديث إلى إنسان غائب عن الوعى لم يكن لديه أى اتصال بمن حوله، لكن كوستيس كان يحدثه عما جرى من أحداث طوال اليوم، وكأنه ناقد محترف.

لقد سمح الأطباء بحدوث مثل هذه الكوميديا لاعتقادهم أن هذه الطريقة ربما تساعد المريض على العودة إلى وعيه مرة أخرى. وكانت ابتسامة الرضا المرسومة على شفתי أندونيس تمنحهم الدافع ليكون لديهم أمل. وفي تقريره اليومي لم يكن كوستيس يترك أدق التفاصيل حتى السيئ منها لإبلاغ والده بها. وفي إطار هذا الحوار الذي يتخلله، كان الابن في كثير من الأحيان يصيغ بداخله اعتراضات أبيه، ثم يبدأ فيما بعد في وضع الطول التي كان سيصل إليها. ولأنه كان يرفع أحياناً من حدة صوته أكثر من المسموح به دون أن يدري، كانت الممرضة الموجودة داخل الغرفة بصفة دائمة تنبيهه لذلك.

وبعد شهر كامل عاد أندونيس خاراميس إلى منزله، لكن أصبح مشلولاً، بفم معوج، ذلك الذي كان لسنوات طويلة رمزاً للسلطة والتجبر، ولم يعد يخرج من هذا الفم سوى كلمات متلعثمة غير مفهومة. لقد أصبح أعظم رجل يوناني لصناعة الدخان في مصر حبيساً في حديقة منزله، قعيداً على كرسي متحرك، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة بلهاء، يمسك في يده مضرباً للذباب. كان أندونيس ينتظر ابنه كل يوم بعد عودته من المصنع ليقدم له تقريراً مفصلاً عما حدث طوال اليوم. ويقدر ما كان البعض يشعر تجاهه بالشفقة فإنهم كانوا يدركون أن أبسط الأشياء كانت تسعده، كان ينفث أحدهم بدخان السجائر في وجهه.

لكن حتى ذلك لم يجعل الحاقدين عليه يشعرون بنوع من الراحة، فقد سبب صعود نجم كوستيس في تحطيم قلب يورغوس يورغاس، الذي كان يعتقد بعد انهيار أندونيس أنه قد نجح في هدفه بطريقة لم يكن يحلم بها. أما بالنسبة لفانيس كوستاراس فعلى الرغم من أنه كان يشعر بالإحباط، فإنه وصل إلى الإسكندرية تحديه أحلام كبيرة، ولكن يبدو أن الحظ لم يكن حليفه لتحقيقها. فمن ناحية، فقد أصاب أندونيس ما أصابه وانتهى الأمر، ومن ناحية أخرى، فقد أثبت ابنه الذكي، الذي كان يورغوس يطلق عليه "عديم الفائدة" و"المبذر"، أنه قادر بشكل كبير على إدارة الأزمة حتى دانت له اليد العليا.

«ربما لم يكن من الأفضل أن أترك الزقازيق» هكذا كان فانيس يردد دائماً، فما زال يشعر بالضيق في تلك المدينة الغريبة، ولم يحصل بعد على تلك المكاسب التي أخبره بها المحاسب السابق. لو أن أندونيس خاراميس هو والده بالفعل، وهو ما يؤكد ذلك التشابه الشديد بينهما، فإن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يسعى للحصول عليه هو ثروة أبيه فقط. " ما الذي يمكن أن تطلبه غير ذلك من رجل ألقى بك بعيداً عنه طوال تلك السنوات ولم يهتم أبداً بمعرفة كيف حاله، وكيف تعيش، وإذا ما كانت أحوالك تسير على ما يرام؟ وبعد ذلك يمتلك الأغنياء القوة والوسائل للتخلص منك بالحسنى أو بالقوة، إذا استلزم الأمر. لم يكن فانيس على يقين من خطورة حالة الرجل العجوز. كان من الممكن أن يظل في المستشفى حتى يثبت تلك الفضيحة، ولكنه ترك ابنه المجتهد ليجد حلاً لهذه الفضيحة بطريقته. هذا بالنسبة لأبيه المزعوم، أما بالنسبة لأمه الحقيقية، فالوضع لم يكن أفضل: مخلوقة لا يعرفها، عديمة الأخلاق تدعى لورنا، مرت ذات يوم من مصر مثل النجم في السماء، ثم فرت بعيداً حتى لا تتحمل مسئولية تربيته، وهى بلا شك تعيش اليوم مختبئة كالفأر العجوز فى أحد أحياء إيطاليا الفقيرة، تعيش مع الخوف من الموت الذى قد ينقذها مما هى فيه " .

بتلك الأفكار التى من الممكن أن ترد بخاطر أى إنسان عاقل، كان كوستاراس يستعد للتخلي عن كل شيء والعودة مرة أخرى إلى الزقازيق حتى ظهر على مسرح الأحداث شخص يعرفه جيداً منذ زمن بعيد، إنه ميخيليس ستراتيس، الذى تنتابه هو الآخر رغبة عارمة فى الانتقام من أندونيس خاراميس، فتولى بنفسه خطة القضاء عليه. لقد تسبب السجن فى تحجر مشاعر المحامى اليونانى الذى ينحدر من جزيرة ميتيلينى، بل وقضى على أية لمحة إبداعية أو إنسانية فيه، تاركة له إحساساً بالمرارة وبالرغبة فى تدمير الآخرين. لم يعد لديه اهتمام بالعودة للحياة الاجتماعية أو العملية، ولم تعد تعنيه أية مكاسب مادية جديدة، فقد كسب بالفعل الكثير من المال. كان كل ما يشغل تلك الرأس العريضة ذات الشعر الخفيف، وتلك النظرة الباسية التى تختفى داخل أكواب الشراب، هو إسقاط الآخرين. وكلما كانوا يقفون فى مكانٍ عالٍ كلما كان

سقوطهم مروّعاً. وفى حالة أندونيس خاراميس كان لديه سبب إضافى للقضاء عليه، ولم يكن ينقصه المال لتنفيذ هذا المخطط. فقد بدأ بإعداد شقة فى الأزاريطة لإقامة فانيس كوستاراس، ثم ظهوره معه فى أنحاء كثيرة بالإسكندرية، مقدماً إياه بالطبع على أنه ابن أندونيس خاراميس. كان يمر كل يوم تقريباً من مطعم " أثيناىوس " ومقهى " ديليس " و" باستروذيس "، ولم يفتهما أن يظهر فى مطعم (thes dansants) وفى "جراند تريانون" وفى سبورتنج كلوب وفى النادى اليونانى للبحرية. كانا يذهبان كل مساء تقريباً إلى الكباريه المعروف: "إكسيلسيور" الذى يقع فى الميناء الشرقية، بعد أن يكونا قد مرا فى البداية بكباريه "بيللا فيستا" الواقع على الكورنيش و"مونسييه" الذى اشتهر بفرقة الرقص البرازيلية. هكذا بدأ فانيس أخيراً فى تذوق طعم حياة الرفاهية التى كان على وشك أن يحصل عليها من حقه الطبيعى فى ثروة أبيه، على الأقل هذا ما كان يعتقد، لكن حارسه الأمين كان له رأى آخر. لم يكن ميخيليس يبحث عن توفيق أوضاعه مع عائلة خاراميس وإرضاء كوستاراس، ولكن كان يبحث بطريقته عن الوسيلة التى تتم من خلالها هذه المواجهة القديمة، تلك المواجهة التى ستمكنه رويداً رويداً من تدمير العائلة. كان سقوط أندونيس يثبت أن كل شىء من الممكن أن يتحقق بالفعل، فقط إذا لم يتمكن كوستيس من إدراك نيّاته.

* * * * *

فى اليوم الذى مر فيه فانيس كوستاراس من باب المصنع، مرحباً به من قبل أخيه غير الشقيق، أطل كل العاملين بالمصنع من النوافذ وتطلعوا منبهرين وهم يظنون أنهم ينظرون إلى أندونيس خاراميس وهو يعبر الفناء بعد أن عاد به الزمن ثلاثين عاماً للوراء. بدأ العاملون المصريون، المأخوون بذلك السحر والغموض، يتضرعون إلى "الله" لكى يمدّمهم بتفسير لتلك المعجزة. فى تلك الأثناء، كان فانيس قد وصل بالفعل إلى باب مكتب المدير، وكادت جوليا أن تصاب بانهيار عصبى بعد أن شاهدته، وعندما لاحظ كوستيس ردة فعلها خرج بنفسه لاستقباله.

«مرحباً بك» قال ذلك كوستيس فرد عليه فانيس التحية، ولم يكن يتوقع مثل هذا الاستقبال الحار. كان فانيس فى حيرة من أمره، وقد أحس برغبة شديدة فى أن يعود أدراجه مرة أخرى.

«هيا، لماذا توقفت؟ أظنك لا تنتظر أن نتحدث ونحن وقوف عند الباب» هكذا تحدث كوستيس ثم أشار إليه بالجلوس. بعد ذلك، طلب من فوليا أن تعد لهما الشاي والفتائر، وعندما همت بإغلاق الباب، أصدر لها أمراً بأن لا يزعجها أحد، ثم دار بينهما هذا الحوار:

كوستيس: «والآن ما نحن الاثنان بمفردنا، يا فانيس، أنا أحدثك بلهجة بسيطة لأننى مضطر أن أعتبرك فرداً من العائلة، على الأقل بدرجة ما».

فانيس: «هذا ما ينبغى أن يكون عليه الأمر، يا كوستيس، سواء رغبتنا فى ذلك أم لم نرغب، فنحن فى النهاية إخوة».

كوستيس: «هكذا تقريباً» أبدى كوستيس هذه الملاحظة، تاركاً احتمالاً ولو صغيراً لوجود خطأ، ثم استطرد قائلاً: «الآن وأنا أراك أمامى أشعر بالغيرة منك بعض الشيء، لأننى أصبحت الآن على يقين من أنك، كما يقولون، صورة طبق الأصل من والدى».

فانيس: «نعم، الحقيقة هى أنى أشبهه بالفعل».

كوستيس: «وهذا يجعل الأمور أكثر سهولة، لأنى بذلك أصبحت متأكدًا من أننى لم أقترف خطأً بالاقتراب منك، تفضل سيجارة ؛ أتعرف، هذه هى لعبة سجانر أبى المفضلة».

اكتفى فانيس برفع حاجبيه مبدئياً انطباعه. ولم يكد يأخذ السيجارة حتى أغلق كوستيس اللعبة بعنف، وكأنه كان يريد أن يغلقها مطبقاً على أصابع يده.

كوستيس: «حسنًا، يا فانيس، الأمور بمنتهى السهولة. أنا أدرك مدى لهفتك لحصولك على حقوقك التى تؤول إليك بسبب نسبك لمؤسس هذا المصنع.

ومن الطبيعي جداً أن تشعر بكل هذا الظلم والتجاهل. لكن هذا لا يعنى على أية حال أن من الممكن أن تحصل على ما تستحقه من حقوق فى الحال، أليس كذلك؟».

فانيس: «فلنقل إنه كذلك، ثم ماذا؟» هكذا سألها فانيس ثم انحنى تجاه القداحة المشتعلة التى قدمها ناحيته.كوستيس.

نهض كوستيس من مقعده، واتجه ناحية فانيس، وربت على كتفه، وأشار إلى مقعد المدير وسأله:

«حسناً، ما رأيك أن ترى العالم لبعض الوقت من هذا المكان. اجلس وأخبرنى. هل أنت مستعد لتتولى إدارة المصنع من هذه اللحظة؟ لو كانت الإجابة نعم، فأنا مستعد أن أترك لك المكان فوراً».

نهض فانيس بثقة واتجه إلى مقعد المدير، لكنه توقف فى اللحظة الأخيرة، ثم استدار تجاه كوستيس وقال:

«ما هذا المزاح؟».

كوستيس: «إننا لا نمزح فى مثل هذه المسائل، أؤكد لك ذلك» أجابه كوستيس ثم أشعل سيجارة لنفسه.

فانيس: «على أية حال الأمر ليس هيناً. ما أريد قوله إنه لا يوجد من يستطيع أن يتولى هذا المنصب الكبير دون سابق خبرة».

- «أنا سعيد لتفهمك ذلك، يا أختى». قال ذلك كوستيس معقّباً وهو ينفخ دخان سيجارته بثقة، ثم استطرد قائلاً: «وبالطبع أعلم أنك تتألم لحال المصنع، وأنا على يقين من ذلك، ولا ستكون أحمقاً. لأن هذا المصنع فقط هو الذى سيمنحك كل ما تهفو إليه».

- «ليست النقود هى كل شىء فقط، يا كوستيس» قال ذلك فانيس متبرماً.

- «بالتأكيد، بالتأكيد (قالها بالفرنسية)، إلا أن النقود تعد عنصراً أساسياً، لا بد أن تعترف بذلك. فلنفترض إذن أنك قد حصلت عليها في هذه اللحظة على الأقل ما الذي سيعود عليك وفقاً لما تراه في مصلحتك».

- «أعرف جيداً ما هي مصلحتي في ذلك».

- «بالطبع أنت تعرف مصلحتك، وإلا لم تكن لتترك هذين الكلبين الهائجين يلعبان لعبتهما على حسابك».

- «أتعني يورغوس وميخيليس؟».

- «وهل هناك أحد آخر؟».

- «إنهما ليسا بـكلبين هائجين» قالها فانيس بهدوء ثم ابتسم، ربما لأنه وجد أن لهجة كوستيس بها شيء من المبالغة، ثم استطرد قائلاً: «إنهما من أصدقائي، كما كانا صديقين لعائلتك في يوم من الأيام».

- «هل هذا ما تعتقده حقاً؟ إذن دعني أخبرك أن كل ما يريدانه ويسعيان إليه هو الانتقام من والدنا، لأنه زج بهما في السجن دون أن يتأكدا إن كان معه حق في ذلك أم لا. لكن لتكن على يقين إذن من أنهما لن يترددا في التضحية بك من أجل أن يحققا غرضهما».

خرجت زفرة غضب شديدة من كوستيس، مما أدى إلى اضطراب صوته الرخيم وجعلته يبدو محتدماً بطريقة يشوبها الانزعاج.

وفي نظرة فانيس الراجعة إليه، رأى كوستيس نفس تلك النظرة الساخرة التي كان يراها في عيني والده في مواقف مشابهة، ثم استكمل كوستيس حوارته بنفس القوة قائلاً:

«أريدك أن تفهم أن مصلحتنا واحدة. لا بد أن تفكر أيضاً إذا ما كانت لديك الرغبة في الاهتمام بالمصنع، لكن انتبه جيداً، لأن هذا يعني أن تقوم بالدراسة لعدة سنوات

فى أوربا، ثم التدريب لفترة فى المصنع حتى يثق بك كل من يتعامل معنا، وفى نفس الوقت لكى يكون لك اعتبارك لدى منافسينا. لكن هناك حلاً أكثر سهولة، دون أن تتنازل عن حقوقك».

- «بما يعنى؟»

- «بما يعنى أنك من الممكن أن تحصل كل فترة زمنية محددة على مبلغ من المال يسمح لك أن تحيا حياة كريمة، بدون مشاكل أو إزعاج، شريطة أن تذهب لتعيش فى مكان بعيد وتحيا الحياة التى تريدها. دون ضوضاء، أو فضائح يمكن أن يستفيد منها منافسوننا».

- «لو أنك مكاني ماذا كنت ستختار؟».

- «أنا، يا صديقى، بعد أن تذوقت بالفعل طعم المسؤولية الجميل، صدقنى، كنت سأختار الحل الثانى بعينين مغمضتين».

- «لابد أن أفكر فى الأمر» قالها فانيس مهمهما، ثم نهض فجأة واقفاً فى مكانه. وكان فنجان الشاي الخاص به فى مكانه دون أن يمس. ألقى عليه التحية ثم أسرع تجاه الباب، وبينما كان يسير خارج حجرة المكتب الواسعة ذات الأثاث الضخم، والسجاد المفروش والنوافذ الواسعة، انتابه شعور بعدم فائدة كل هذا. لم يعد فى وسعه أن يدرك ماذا حدث له. ولو كان قد استدار للخلف فجأة، لراى كوستيس وهو يفرك يديه، راضياً عن المسرحية التى قام بأدائها أمامه.

* * * * *

حقيقة لم يكن كوستيس على يقين من انتهاء شتاء عام ١٩٣٣، بالإسكندرية. فعندما تعود بعد كل تلك السنين إلى المدينة التى نشأت وترعرعت بها، فإن أول ما ترغب فيه هو، أن ترى ثانية وعلى الفور كل ما كان ينتظر عودتك: أشخاصاً، أشياء، منازل، شوارع، أماكن، الحياة اليومية. ترغب فى تسجيل كل ما طرأ بها من تغييرات،

ثم تقارنها بما فى ذاكرتك، متمنياً ألا تكون قد وقعت أحداث مهمة أثناء غيابك، حتى لو كانت أسرتك حدثتك فى خطاباتها عن تلك التغيرات العالمية. بهذا فقط يمكنك أن تتسلل مرة أخرى إلى واقع الحياة بمدينةك وتشعر مرة أخرى بنبض الحياة فيها. لكن لم يكن لدى كوستيس هذا النوع من الرفاهية. فم منذ اللحظة الأولى التى وطأت فيها قدماه أرض الإسكندرية، دخل مباشرة فى تلك الحرب التى أعلنت ضد عائلته، ولكى يكون مستعداً لتلك المواجهة، كان عليه أن يتخلى عن كل ما يشغله من تفكير أو نشاط غير ذى فائدة. استطاعت المعارك التى كسبها فى تلك الفترة العصبية أن تكذب الشائعات التى دارت حوله، فى حرب - بغض النظر عن جوانبها الأخلاقية والإنسانية - كان الدافع الأساسى لها اقتصادياً. لكنه لم يكسبها بسهولة كما قد يتخيل البعض، فلم تكن قليلة تلك الليالى التى جافاه فيها النوم، وهو يغير قراراته فى كل دقيقة بل فى كل لحظة. لم تكن قليلة تلك اللحظات التى شعر فيها بالحاجة للبكاء، والله وحده يعلم كيف تغلب على هذا الشعور واستطاع أن يتماسك. فكثيراً ما كان يحبس أنفاسه، يجز على أسنانه، يضغط على يديه المخضبيتين بالعرق، يضع قدماً فوق الأخرى، يشعل سيجارة بينما ما زالت الأخرى مشتعلة أمامه فى منفعدة السجائر، لم يكن هناك من يستوعب كل ما يحدث! كانت أمه فى بعض الأحيان تتخيل معاناته وتقول له حانية:

«عزيزى كوستيس، لن تتحمل كل هذه الضغوط!».

إلا أنه كان يهدئ من روعها ويحييها بقوله:

«يا أمى، لا تنسى أنى صعلوك الحى اليونانى، وصعلوك مثلى لابد أن يتحمل كل شىء»، يقول ذلك ثم يستدير للناحية الأخرى، حتى لا يراها وهى تهز رأسها بعدم الثقة.

وفى اللحظات النادرة التى كان يستريح فيها، يطير بفكره إلى برلين، حيث استولى النازيون على السلطة، وأيضاً إلى ليالى وأيام باريس الحاملة. وفى نفس الوقت كانت زوجته هايكى تواجه بعض متاعب الحمل التى جعلتها طريحة الفراش، وهو أحد الأسباب التى جعلته يتجنب العلاقات الاجتماعية والظهور فى الأماكن العامة. حيث

كان يعتبر أنه من الخطأ أن يذهب بمفرده إلى حفلات الكوكتيل المسائية أو إلى الحفلات الساهرة، ويجلس وسط النساء اللاتي يرتدين أجمل الثياب ويضعن أزكى العطور، وأن يصبح حبيباً لبذلة السهرات الرسمية، في جو يبدو فيه وكأنه يخضع للاستجواب من خلال تلك الأسئلة الفضولية والتعليقات السخيفة التي تطرحها الأسئلة التافهة والنظرات التي تحمل الكثير من السخرية. في هذه المرحلة، كان عليه أن يبتعد عن دائرة المهتمين به باعتباره جنتلمان، وأن يحرم نفسه من المتعة التي قد يحصل عليها من لعب مباراة للتنس في سبورتنج كلوب، أو من ممارسة التجديف في الميناء الغربية أو في قضاء عطلة نهاية الأسبوع في بحيرة المريوطية من أجل صيد البط. كان عليه أن يؤجل كل الرحلات العائلية التي كانوا يقومون بها إلى ضواحي الإسكندرية، وأن يمنع نفسه من قضاء أمسية هادئة بالنادي اليوناني، حيث يستطيع أى شخص أن يقضى وقته في احتساء ما يتخيره من المشروبات، بينما يتناقش مع الآخرين في موضوعات تخص العمل أو في السياسة، كما كان عليه أن لا يهتم بالاستمتاع بالأمسيات الموسيقية التي تقدم في منازل اليونانيين الأثرياء وعلية القوم بالمدينة، أو بالعروض المسائية بالمسرح أو بالأوبرا أو بالسينما أيضاً، متعماً هي الحال بالنسبة لحفلات التعارف التي قد يدعى إليها. لا، لم يكن هناك وقت لكل ذلك، في حين كانت فضيحة فانيس كوستاراس ومرض والده الخطير ما زالتا هما الشغل الشاغل لأهل الإسكندرية.

كانت العزلة والسرية هما الطريقة الوحيدة التي تمكنه من تجنب المقابلات غير المرغوب فيها التي كان من الممكن أن تهز بعنف ذلك التوازن النفسى الذى حققه بصعوبة. كان يتجنب السير في شوارع المدينة، ويفضل عليه ذلك الأمان الذى كان يشعر به وهو جالس في المقعد الخلفى للسيارة، إلا أنه كان يفضل في الوقت نفسه الانغماس في قراءة الصحف، حتى يستطيع التعرف على ما يجرى في العالم من أحداث: في ألمانيا قام النازيون بفتح معسكرات مجمعة لمعارضيههم وقاموا بحرق كل الكتب الممنوعة، في الوقت الذى هجرت فيه الأفكار التقدمية البلد، في حين أصبح الرايخ الثالث هو المحرقة التي تغذى هذه النار. أخذ يتساءل عن رأى ماخوس في كل

ما يدور، كما بدأ يشعر بالقلق الشديد تجاه كارل. فى مدينة فارس، العاصمة القديمة للفرس، اكتشف الأثريون قصر الملكين الفارسين كسيركسيس وداريوس، ها هو خبر سيحظى باهتمام أمه. فى الاتحاد السوفييتى زاد ستالين من تشدد موقفه، وفى الشرق الأقصى نشرت اليابان تطلعاتها الإمبريالية على حساب الصين ؛ وفى الولايات المتحدة حاول شخص يدعى جوزيبى زينجارا اغتيال الرئيس روزفلت أثناء زيارته لليونان، من قبل حركة التحرير التى كانت تساند فينيزيلوس. حتى فى الإسكندرية، قرأ كوستيس فى جريدة " تاخيزروموس" (أى ساعى البريد) التعليقات المقتضبة على موت قسطنطينوس كفافيس، شاعر الإسكندرية العجوز لكن لماذا عجوز؟ ولماذا يدعى بشاعر المدينة؟ لم يعجبه هذا العنوان، هل تغير إلى هذا الحد موقف أهل الإسكندرية تجاهه؟ وهنا تذكر كوستيس بوضوح موقفاً حدث بإحدى الحفلات الساهرة عام ١٩١٨، حيث أحاطت بعض سيدات الطبقة الراقية بالشاعر كفافيس بهدف السخرية منه، حتى وصل الأمر لقول إحداهن: «يا سيد كفافيس، ألن تجلس جانباً لتكتب لنا إحدى قصائدك؟».

هكذا إذن، من سخرية الدوائر الاجتماعية، وصلنا الآن إلى اللقب الرنان "شاعر المدينة" هذا ما يحدث الآن وهذا ما سيظل عالماً بالذاكرة. وكان قد سمع أخيراً أنه يرقد فى المستشفى اليونانى فى حالة حرجة. مات كفافيس فجر يوم السبت التاسع والعشرين من شهر أبريل، ودفن فى مساء نفس اليوم، طيب الله ثراه. عندئذ أخرج كوستيس من محفظته حفنة من الأوراق تتضمن بعض الرسائل الخاصة بكفافيس وقرأ منها:

سأذهب لأرض أخرى سأذهب لبحر آخر.....

"الموت فقط هو الذى سيحررنا من هذه المدينة، أنت يا من تحمل نفس اسمى"، هذا ما جال بخاطر كوستيس.

فى كل الأحوال، لم تكن تلك الحياة الرهبانية لتستمر إلى الأبد. فقد أضع عمراً بأكمله فى الإسكندرية: فى الكرنفالات وفى الحفلات التنكرية وفى الرحلات الجماعية يوم عيد القيامة، فى احتفالات الجالية اليونانية فى الخامس والعشرين من شهر مارس.

أما الأسبوع الكبير الذى يسبق عيد القيامة فكان يفضل أن يتردد بين كنيسة القديس أنارغيروس وبين أبى قير، غريباً بين غرباء. أما بالنسبة للأول من شهر مايو، فكان يكتفى بشراء إكليل من الزهور من أحد الباعة المصريين الذى كان ينادى على بضاعته بخليطٍ من اللغتين العربية واليونانية قائلاً:

«الـ... ستيفانيا، بتاع الـ... كالا خرونيا (أى إكليل السنة السعيدة)».

أوشكت هايكى فى هذه الأيام على وضع مولودها وقد بث انتظارهم لهذا المولود شعوراً بالتفاؤل كانت العائلة كلها بحاجة إليه. وقبل الحادث السعيد بأيام قليلة، تجول كوستيس فى صباح أحد الأيام فى حجرة مكتبه، ووقف أمام إحدى النافذتين الموجودتين بالمكتب. وكان قد استيقظ وهو يشعر بانقباض فى حلقه وأنفه، وعندما تطلع إلى الأفق المعتم، توقع ما الذى يمكن أن يحدث، ولذلك فقد أسرع بالتوجه إلى المصنع، والدخول إلى مكتبه. فى تلك الأثناء، كانت السماء قد بدأت فى الغيوم كحاجب العين المعتم الذى يفتح ويفلق بشكلٍ مخيف. كانت الرياح التى تعصف بعض الأحيان والأمطار الخفيفة التى تسقط دلائل لا شك فيها على حالة الجو. اختفت المدينة كلها وأغلق الناس عليهم أبوابهم انتظاراً لرياح "الخماسين". كانت المراكب التى تبحر فى ترعة المحمودية وكأنها مراكب خيالية يقودها أشباح ملتثمون. لم يكن هناك من يجرؤ على السخرية من قوة العواصف الرملية التى كانت ترسلها الصحراء الغاضبة على الناس فى المدن. وحيثما حاولت الاختباء، فلم يكن بوسعك النجاة من ذرات الرمال الدقيقة التى كانت تتسلل إلى كل مكان، إلى النوافذ والأثاث، إلى أنوات الطعام، إلى الشعر والشفاه، إلى الجفون. كانت تلك الذرات من الرمال التى تشبه البودرة تغطى الريشة المستخدمة فى الكتابة، وتفسد كوالين الأبواب، وتغطى أوراق الكتابة. كان كوستيس يصاب بالذعر فى كل مرة يشعر فيها بازدياد حدة الرياح وهى تهاجم الأبواب والنوافذ المغلقة، وكان قد ابتعد لسنوات طويلة عن التعرض لرياح الخماسين، قام بالاتصال بالمنزل للاطمئنان على هايكى. فأجابته أمه بضيق قائلة: «دعنا فى حالنا، يا كوستيس إنك تصعب علينا الأمور» (قالتها بالفرنسية)، إنها ليست نهاية العالم».

وكان ذلك لم يكن كافياً، ففي اليوم التالي جاءه نبأ حزين: فقد مات الخال ثاناسيس فجأة بسبب أزمة قلبية. ما هذا الذى يحدث؟ وكان ثاناسيس يعاني فى السنوات الأخيرة من مرض السكر ومن المراهبين. لقد أصبح محل البقالة فى حوزة أشخاص آخرين. ومنذ عامين اضطروا إلى بتر قدمه اليسرى لإنقاذ حياته. لم يتخيل كوستيس أنهم سيفقدونه بهذه السرعة، لذلك كان دائماً ما يؤجل وعده بزيارته فى منزله بباب سيدرا، ربما لأنه كان يكره فكرة أن يراه قعيداً، إلا أن هذه الحجة لم تكن بالقوة التى تجعله يخلف وعده. بأى وجه سيواجه الآن الخالة ماريا وأبناء خاله؟ حتى ذافنى كانت قد عفتة بقولها: «لماذا، يا بنى، لم تذهب ولو لمرة واحدة لتراه؟ لقد اقتربت ذنباً عظيماً!». لكنه فى الوقت نفسه لم تحضر جنازته. حيث قررت البقاء إلى جانب زوجة ابنها، بينما ظهر كوستيس بمفرده فى المقابر اليونانية بالشاطئ.

لم يكن ظهوره الأول أمام الناس إذن فى حفلة من الحفلات أو فى إحدى الأمسيات الراقصة، ولكن فى الجنازة الفقيرة لخاله ثاناسيس، تلك الجنازة التى اجتمع فيها عدد قليل من الناس. فيبدو أن مجريات الأحداث فى الأعوام الأخيرة تسببت فى إفساد سمعته بشكل لا يقبل التغيير. لم ترسل رابطة الأحرار بالإسكندرية باقة زهور، أو حتى "جمعية إيسخيلوس- أريون"، وفعل ذلك "اتحاد سباقات الخيول" بالإسكندرية. كان لزاماً على كوستيس أن يكون حاضراً. اقترب من الخالة ماريا وقال لها فى حزن وأسى: «سامحيني، يا خالتي، لم أكن أعرف أن حالة خالي بهذا السوء، ولم يتسن لى....». عندئذ وضعت الخالة ماريا يدها النحيلة المرتعشة على فمه ومسحت بيدها الأخرى على شعره مسحة حانية، وقالت: «لا تتقل على نفسك، يا بنى! يكفى أنك حضرت لوداعه فى رحلته الطويلة!».

انفجر كوستيس فى البكاء، دون أن يدرك لأى سبب كان يبكى، ليس فقط لأن ذلك كان مقبولاً، لكنه أيضاً كان مطلوباً فى مثل هذه المواقف، وقد شعر براحة حقيقية تسرى بداخله بعد فترة من الانفلات التى مر بها. عندئذ شعر كوستيس بيدٍ تربت على كتفه فاستدار وتطلع إلى ذلك الرجل الأشقر ذى العينين الخضراوين التى رأى فيهما ذكريات مرحلة المراهقة، فصاح قائلاً (بالفرنسية):

- «ابن الخال!» هكذا صاح متأثراً بتلك الابتسامة التي تعرف عليها، تعرف على هذا الخليط من الطيبة والرجولة الذي كان قد تعلمها يوماً ما على يد نيكيتاس.
- «اليوم فقدت أباً، ولكنى عثرت مرة أخرى على صديق حقيقي» قال ذلك نيكيتاس، ثم استجمع بعض القوة ليبترسم من بين أحزانه.
- كان كوستيس يحارب إحساسه بالذنب، ووجد أنه من الصواب الاعتذار لنيكيتاس، فقال:
- «لقد أسأت إلى الخال ثانسيس، يا ابن الخال!» (قالها بالفرنسية).
- نيكيتاس: «أسأنا إليه، أساء إلينا. لا تشغل بالك. كانت أكبر حكمة قالها لى والدك: الحياة أكبر من أن تعيشها بلا أخطاء، بالمناسبة، أخبرنى كيف حال السيد أندونيس؟».
- كوستيس: «إنه بين الأحياء حتى هذه اللحظة، لكن ما الذى يمكن أن تفعله من أجله، وهو نصف إنسان....».
- «لابد أن هذا قد كلفه الكثير».
- «فوق ما تتصور».
- «إنه أمر ليس بالهين. وماذا عن ابنه غير الشرعى القادم من الزقازيق؟».
- «كان له وقع الصاعقة عليه».
- «ووسط كل هذا تنتظر طفلاً فى أية لحظة» .
- «نعم».
- «أفكر فى البقاء بالإسكندرية لمدة أسبوع، هل تريد أن نتناول معاً الطعام فى أحد الأيام؟».
- «أهذا سؤال، ليكن من الغد. إن هايكى فى آخر أيام حملها، ويمكن أن تأتى لنا بالمولود فى أية لحظة».
- «عظيم، إلى الغد إذن» (قال ذلك بالفرنسية).

- «إلى الغد إذن (قالها بالفرنسية)، أريدك أن تعرفنى من جديد على المدينة مثلاً كنت تفعل ونحن صغار» وكان كوستيس قد ألقى بهذه الجملة قبل أن يقاطعه إخوة نيكيتاس، أوليمبيا المتشحة بالسواد وزوجها الإيطالى الذى ترقى فى عمله وأصبح السكرتير الأول الذى ألقى التحية لكوستيس بطريقة عادية، بل بطريقة باردة. أما بالنسبة لنيكولاس، الذى يعمل فى أوركسترا بيلفينديرى، فقد بدا له شخصاً ودوداً. وبشكل عام كانت الأمور تسير بطريقة جيدة بالنسبة لكوستيس. وعلى أية حال، فقد كان هذا اليوم هو يوم جنازة أبيهم.

* * * * *

«الحياه عملة ذات وجهين. أحدهما يمثل الحياة والآخر يمثل الموت» هكذا كان المرحوم ثاناسيس يقول دائماً. وبعد وفاته بثلاثة أيام وضعت هايكى مولودها من كوستيس. أنجبت طفلة أسمتها ذافنى. وقرر الأب السعيد أن يتبع التراث العائلى وقام بنفخ دخان السجائر حول الطفلة الصغيرة لكى يجلب لها الصحة والحظ.

لم يتم التعامل مع الدخان فى بيت آل خاراميس على أنه مصدر للرئق، ولكن بوصفه بواء له خصائص مدهشة، من ذلك: أن أندونيس كان يحتفظ ببعض من أجود الأنواع "التبغ" الناعم، واستخدامه كدواء "لأى مرض أو لأى تعب عارض" هكذا كان يقول. وكانت الجدة ذافنى تقوم بابتلاع كمية صغيرة منه عندما تشعر بالصداع. أما الخادومات المصريات فكن يسرقن بعض التبغ من اللعبة بانتظام لابتلاعه فى المساء عندما يحل بهن التعب، كذلك كان يفعل العديد من الضيوف الذين كانوا يحضرون للمنزل خصيصاً لهذا الغرض. كانت ذافنى تؤكد أن هذا التبغ المعجزة قد عالج ضيق التنفس الذى عانى منه ماخوس، عندما أعلن الأطباء عن عجزهم فى علاجه. ولأن التبغ كان موجوداً دائماً فى جميع مناسبات آل خاراميس، فلم يكن بوسع كوستيس سوى تقديمه إلى أصدقائه الثلاثة المقربين، إيفيتس وميسا ونيكيتاس، من أجل الاحتفال بمولد ابنته. ويبدو أن الدخان كان يحافظ على روابط الصداقة القوية بينهم، مثل

صداقة نيكيتاس مع إيفيتس، التى استمرت لفترة فى الإسكندرية فيما بين الحربين العالميتين وبخاصة فى حياة الليل بالإسكندرية.

فى الوقت الذى عادت فيها المياه إلى مجاريها بين كوستيس ونيكيتاس، لم يكن كوستيس على علم بتلك الصعوبات التى كان صديقه يواجهها فى العمل. لكن حتى ذلك لم يكن مفاجأة بالنسبة له، وبخاصة عندما علم أن ابن خاله أصبح من مؤيدي الشيوعية. لقد كلفته أفكاره هذه وظيفته باعتباره تاجر أقطان بعد قيام الاضطرابات فى حقول القطن. عاد نيكيتاس إلى كفر الزيات ببساطة لى يجمع أغراضه، فى حين كانت أمه الملتاعة قد خرجت تشكو للجيران وهى تنوح قائلة: «يا لشقائى، ابنى كافر، تورط مع الشيوعيين!» فسارعت بعض جاراتها إليها لى يقدمن لها النصيحة قائلات لها: «العلاج الوحيد للشيوعية يكمن فى الزواج». وهكذا عندما عاد نيكيتاس إلى الإسكندرية لم يكن يعانى فقط من البطالة، ولكن أيضاً من أمه السيدة ماريا التى كانت تصر أن ترشح له الفتيات الواحدة تلو الأخرى لى يختار زوجة المستقبل. وفى حين كان يرفض ما تعرضه عليه أمه كل يوم، كان يبحث بكل جهد عن عمل فى الصباح، وفى المساء يقضى الوقت مع إيفيتس. "مونسينير"، "بيلفيندىرى"، "إكسليسيور"، "فاليرون"، كانت تلك هى معابد الحياة الليلية فى الإسكندرية التى يرتادها الصديقان الكافران "المنغمسان فى الملذات" (قالها بالفرنسية). كانا كثيراً ما يندسان فى الأزقة الضيقة والشوارع الخلفية بحثاً عن جحيم الرذيلة والبغاء الرخيص ومقاهى شانتان، حيث كان بالإمكان مشاهدة الراقصات التركيات وهن يتمايلن ببذلات الرقص، وكان ذلك بالنسبة لهما وكأنه مرحلة تطهير بعد الموت يحتاجها رجلان مذنبان مثلهما. وفى النهاية، كان إيفيتس السكير ينخرط فى الغناء وهو يحتضن بعض النساء اللاتى ينحدرن من جزيرة زميرنى ويقول:

«أمان، أمان يا سميرنى،

فليذهب الأتراك إلى الجحيم.....».

وفى تلك الأثناء، كان نيكيتاس يتحدث فى محطة الرمل مع أحد المراهبين القبارصة يدعى أندونيس خريستوفوريديس بحثاً عن عمل. ولم تكن لدى نيكيتاس الرغبة فى الامتناع عن احتساء الخمر، تماماً مثلما لم تكف أمه عن حلمها بإيجاد زوجة جميلة لابنها الأكبر. وربما لم تكن مبالغة إذا قلنا إن من أهم الأسباب التى دعت نيكيتاس لمصاحبة إيفيتس والتطوع معاً فى القيادات الدولية للجيش الإسبانى فى نهاية خريف عام ١٩٣٦، هى الهروب من معرض الزوجات الذى أقامته أمه له فى منزلهم بباب سيرا.

توجهت ماريا البائسة إلى كوستيس لى يجعله يعدل عن رأيه، لكنه لم يستطع أن يمنعه من السفر، على الرغم من عدم موافقة كوستيس على اتخاذ هذا القرار. وفى نفس الوقت أرسل إليه كارل - المطلوب القبض عليه من النازيين - رسالة من إحدى الغرف الضيقة ببرلين جاء فيها: «المحطة القادمة إسبانيا، فقد تم نقل الاحتفال إلى هناك.. وداعاً برلين» (كتبها بالألمانية).

* * * * *

الإسكندرية ما هى إلا باريس الصغيرة (دونتها بالفرنسية)، لا تتخلى شيئاً أقل من ذلك، هكذا كتبت هايكى لامها عن شهورها الأولى فى مصر، محاولة أن تهدئ من روعها تجاه متاعب حملها من خلال تعليقات الإعجاب بالمدينة وأهلها. إنها مدينة مدنية متحضرة مليئة بالنور وكرم الأخلاق. إنها معجزة حقيقية أن يتجمع ويتعايش الجميع فى نفس المدينة على اختلاف توجهاتهم وأعراقهم ودياناتهم. لقد كان كوستيس "محظوظاً" (دونتها بالفرنسية) بالعودة إلى مدينته (كان حديثها هنا عن الجو العائلى) وأنا أيضاً، لأننى أشعر أننى "على الرحب والسعة" (دونتها بالفرنسية)، أما والدته فهى امرأة لها سحر خاص، رغم أنها ليست جميلة. إنها تتحدث أربع لغات بطلاقة، "ومتمكنة" (دونتها بالفرنسية) من الفرنسية. إنها قصيرة إلى حد ما، ذات أنف مضحك، وعينين مستديرتين ضيقتين، ومن شدة حبها للفراغة فقد حولت المنزل إلى

متحف فرعونى. إنه بالفعل إحساس غريب أن يعيش أحد فى مثل هذا المنزل. لكن لماذا أقول منزل! نحن نتحدث هنا عن "قصر" (دونتها بالفرنسية) حقيقى. منزل كبير مصنوع من خشب الماهوجنى والرخام فى أفضل "الأحياء" (دونتها بالفرنسية)، تحوطه حديقة مترامية الأطراف، يحتوى على غرف صالون واسعة وقاعات استقبال وإحدى عشرة غرفة نوم، نعم إحدى عشرة غرفة بالطابق الأول. ننام تحت ناموسيات كبيرة تغطى الفراش بأكمله. فى الصباح، على العكس من ذلك، لابد أن تمسك بمضرب الذباب بصفة مستمرة، إذا أردت أن يتركك الذباب تنعمين بالهدوء.

الأثاث فرنسى الصنع، بطراز الأرابيسك. وهناك صف طويل من الخادومات تلاحقك لخدمتك طوال اليوم: مريبات، طاهيات، بستانيون، سائقون، سفرجية. يمكنك أن تتناولى أنواعاً هائلة من الأطعمة فى أسبوع واحد، بداية من " قائمة المقبلات " (دونتها بالفرنسية) الغربية حتى الوصفات المصرية الغربية، والتى من أشهرها ذلك النوع من الكفتة^(١٩) التى يدخل فى عناصرها الفول والتوابل ويتم تحميرها فى الزيت المقلّى وتقديمها فى أرغفة الخبز البيضاء. إنهم هنا يحبون اللحوم والدواجن، ولكنهم يفضلون عليها الحمام الذى يقدمونه محشواً بالأرز، محمراً فى الزبد الفلاحى. كما يأكلون بشراسة أسماك النيل والجمبرى الضخم الذى يتم صيده من البحر المتوسط. كما قدموا لى شرباً من عيدان السكر (عصير قصب). شىء رائع! وقد تسألين عن الملابس؛ لديهم آخر صيحة فى الموضة! وأنا الحمقاء قد ظننت أننى جئت لأعلم المصريين الموضة. أوه إننى فخورة لأن طفلى سيولد ويتعرع فى هذا البلد. أما الأمر السيئ فهو أن والد كوستيس يعانى من مشكلة صحية حدثت له أخيراً، لكنى أتمنى أن يتمكن من اجتيازها. أه، يا أمى، كم كنت أتمنى أن تكونى بجانبى، لكن صدقنى، أنا لا أشعر بأنى وحيدة. فمن المستحيل أن يشعر أحد بالوحدة فى الإسكندرية. هذا المكان المضيف الذى يتصف أهله بحسن الضيافة، دون تظاهر أو تكلف.

(١٩) المقصود هنا هى الفلافل. أشهر أنواع الأطعمة الشعبية فى مصر. (المترجم).

من خلال خطابات هايكى فهمت أمها راشيل أن ابنتها تعيش حياة محدودة إلى حدٍ ما فى بداية وجودها فى مصر، وكانت تسألها بشكلٍ دائمٍ إذا ما كانت تواجه مشكلة مع الحمل، وعلى الرغم من أن الإجابات التى كانت تحصل عليها كان مطمئنة، لكنها لم تكن تصدق أن السبب الوحيد الذى كان يجعلها تقضى معظم وقتها داخل المنزل بالحقى اليونانى كان هو انشغال كوستيس فى عمله.

أياً ما كان الأمر، فقد ولدت حفيدتها بعد شهر ونصف الشهر، وتغيرت تماماً رؤية هايكى فى خطاباتهما، حيث انعكست صورة الإسكندرية بشكلٍ أكبرٍ وقل حديثها عن المنزل وجدرانها:

"ستمائة ألف نسمة يعيشون هنا" يا أمى " (دُونْتِها بالفرنسية)، إنهم ليسوا قليلين، "أليس كذلك؟" (دُونْتِها بالفرنسية)، أشجار النخيل الشامخة وآلاف المصريين الذين يرتدون الجلابيب والطرايبش الحمراء. أصواتهم المتداخلة تشبه الصلاة وبخاصة عندما ينادون على الفاكهة التى يبيعونها فى الشوارع. رائحة الياسمين النفاذة التى تعطر الهواء تعنى حلول فصل الصيف. الشيطان الرملية جميلة، الواحد تلو الآخر، تليها أماكن الاستحمام فى البحر، حيث يبدأ ذلك هنا مبكراً. لقد قمت أمس ولأول مرة بالاستحمام فى البحر على شاطئ ستانلى، ذلك الشاطئ الذى يشبه كتاباً من الرمال، حيث أبدعت القدرة البشرية فى ملئه بصفوف متراصة من الكبان. به فرقة موسيقية تعزف موسيقى الجاز على مسرح مبنى من الأسمنت، حيث يجلس العديد من المصطافين أمام الموائد لاحتساء البيرة. البحر خلّاب بأمواجه المتلاحمة التى يسرع حراس الشواطئ برفع الرايات السوداء عندما يرتفع منسوبها. وتظهر ملابس البحر مدى احتشام الناس، كما أوضح لى كوستيس أن خليج ستانلى معروف بأنه موطن اللواطيين.

غداً مساءً نحن مدعوون على العشاء، ثم سنذهب بعد ذلك إلى الأوبرا. أما بالنسبة لليوم، فهناك دعوة لحضور حفل كوكتيل فى إحدى السفن الحربية البريطانية. حاملّة طائرات، إذا كنت قد فهمت جيداً. شئ جديد من نوعه، أليس كذلك؟ لقد فكر كوستيس كثيراً قبل أن يوافق، لكن لم يكن أمامه اختيار آخر، فهو يستعد لعمل بيزنيس مع

البحرية الإنجليزية وسوف يصحبنا رجل لبناني محترم يدعى إلياس خورى الذى كلما تصادف والتقينا، يبالغ فى مدحه لى بطريقة تغضب كوستيس، يا له من أحمق!.

كانت هايكى بخطاباتها لأمرها تدون بالتفصيل ما يحدث فى مجريات الحياة اليومية بالإسكندرية، وفى كل مرة كانت تذكر لها شيئاً يثير الاهتمام، أو تحدثها عن معارف جديدة وعادات جديدة وانطباعات جديدة، مؤكدة على سحر وجمال مدينة الإسكندرية، بالطريقة التى تراها بها بمفردها. ومن جانبها كانت راشيل، تقرأ وصف ابنتها للمدينة الأوربية بمصر، حيث كان كل ما يحتاجه أى شخص للتكيف بها هو معرفة اللغة الفرنسية، وشعرت بأنها لم تخطئ عندما احتفظت لنفسها باعتراضاتها وسمحت لابنتها بالزواج من رجل يونانى والحياة معه فى الغربية. وبالتركيز على عدد كبير من الكارت بوستال التى كانت راشيل تتلقاها بين الحين والآخر من هايكى، والتى كانت تصور: البورصة، ميدان محمد على، الحدائق الفرنسية، ميدان سعد زغلول والفندق الجديد بالمدينة (فندق سيسيل)، كازينو سان ستيفانو، خليج ستانلى، عمود بومبى، أعجبت راشيل بالمدينة وشعرت معها بالآلفة من خلال ذلك الوصف التفصيلى الذى تقدمه لها ابنتها مع كل كارت، حتى إنها أصبحت واثقة من أنها أصبحت قادرة على معرفة ذلك الجزء من الحياة اليومية التى تعيشها الآن ابنتها مدام خاراميس.

عندما تصلين بالسلامة إلى الإسكندرية، لابد أن نذهب معاً إلى مقهى "باستروذيس" و"بودرو"، حيث توجد هناك "صفوة الصفوة" (دوئتها بالفرنسية) من المجتمع. وسوف أصطحبك إلى "جراند تريانون" وإلى "أثيناىوس" حتى ترى "الرقى" بكل معانى الكلمة. يوجد فى المدينة كل ما تريدين: فنادق فاخرة، مطاعم كبيرة، محال تجارية، دور للسينما، مسارح، مضمار سباق الخيول، ملاعب تنس، نواد للليخوت. ومنذ وقت قريب قدمت فرقة "الكوميدي فرانشيز" عروضها لمدة أسبوع فى المدينة. شعراء مشهورون وموسيقيون من جميع أنحاء العالم يقدمون لنا المتعة بفنونهم. حتى الإسطوانات المسجل عليها أغانى بيج كروسبى، الذى يعيشه كوستيس، تباع هنا فى نفس الوقت تقريباً مع أمريكا. لا ينقصنا هنا تقريباً شئ. لك أن تتخيلي أنه عندما

نفدت عبوة أحمر الشفاه ماركة "ماكس فاكتور" الذى أستعمله، لم أجد أية صعوبة فى شراء عبوة أخرى من هنا. اتخذى قرارك إذن، يا أمى. لا تدعى شيئاً يخيفك. البواخر التى ترحل من مرسيليا بواخر فاخرة.

كانت الجمل الأخيرة تتكرر بشكل واضح فى كل خطابات هايكى، ورغم ذلك لم تتخذ أمها القرار، على الرغم من كل تلك المغريات التى تدفعها لترك "عاصمة النور". حتى إنها لم تتأثر بالصور الأولى لحفيدتها متعلقة بالرومانيزم الذى يجعلها لا تستطيع أن تبارح باريس. على الأقل كانت سعيدة بأن ابنتها سعيدة فى زواجها وتحيا حياة كريمة. وكان يسعددها بشكل جوهري أن تسمع عن زيارات ابنتها إلى معبد "النبي دانيال" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية).

هناك يجتمع "علية القوم" (دُونْتها بالفرنسية) من يهود الإسكندرية. كانت لليهود جالية قوية بالمدينة تتألف من عدة آلاف يعيشون متالفين مع الجنسيات الأخرى. حاول كوستيس فى البداية أن يمنعنى (بتأثير من أمه على ما أعتقد) لكننى ذكّرتُه أننا قد وضعنا هذه الأمور من قبل، كما أن تحولى إلى ديانة المسيحية لم يكن سوى حبر على ورق لكى نتم زواجنا، ولكن لا نية لدى للتخلّى عن عقيدتى. أعتقد أننا جميعاً فى المنزل سعداء بمولد الصغيرة ذاقنى وكنا نحتاج إليه، مما يجعلهم يغفرون لى الأخطاء الأكثر جدية. كوستيس يفهمنى جيداً. ومن جهة أخرى، فإنه يعرف جيداً أن الإله الذى تعبدّه كل نساء "الطبقة الراقية" (دُونْتها بالفرنسية) هو إله طويل القامة، أنيق ذو عينين جميلتين وصوت رخيم، وإذا ما أراد كوستيس أن يختار بين هذا الإله وبين رب اليهود، فسوف يفضل بالتأكيد رب اليهود حتى يريح باله من هذا الموضوع.

كانت اعتراضات عائلة خاراميس من النوع الذى يمكن لهايكى أن تعرضها على أمها فى خطاباتهما. فهى إن تكتب لأمها أبداً عن آلهة الإسكندرية من النساء الثريات، وما سمعته من حماتها وهى تخبر ابنها قائلة: «ستجلب لنا زوجتك اليهودية الكثير من المتاعب! إنها مثار حديث الإسكندرية. حقيقة، كنت أتمنى لو كانت لك عشيقة من بين عامة البشر بدلاً من تلك التى تتبع "يهوه"».

لكن لو أن الأمر يتعلق فقط بديانة هذه اليهودية، فإن زوجة كوستيس، معتمدة على المنزلة الاجتماعية لعائلة خاراميس، قد اعتبرت أن باستطاعتها أن تفعل ما كانت الجدة ذافنى تصفه " بالألعاب الصهيونية التى تمارسها على حسابنا " .

لقد أتحت لى الفرصة للقاء حاييم وايزمان، هكذا كتبت هايكى إلى أمها، إنه جنتلمان حقيقى يشغل بالسياسة، المثالية والروح العملية اجتمعتا فى هذا الرجل، إنه شىء لا يوصف، أؤكد لك أننى وجدت فى كلماته معنى لحياتى. فلم يهتم أحد بمشكلات جنسنا مثله، إنه يعتقد أن حصولنا على وطن، الذى لا يمكن أن يكون فى مكان آخر غير الأرض التى ولد فيها اليهود، لهو أمر عظيم الشأن الآن أكثر من أى وقت مضى. إنه يلهمنى وكأنه نبي!

أصاب تلك التعليقات الحماسية حول قائد الحركة الصهيونية، والددة هايكى بالحيرة، التى كتبت لها مراراً: لابد أن ينصب تفكيرك فى المقام الأول على زوجك، وطفلتك وبيتك. فالمشكلة اليهودية كبيرة ومعقدة، ولا أعتقد أن هناك من يستطيع أن يقدم حلاً سحرياً لها- مثل وايزمان - مستنداً على دعم بعض الصهاينة. سيظهر حل لها، مثلما سيظهر حل لكل المشكلات الأخرى، مع مرور الزمن. هكذا استطاعت راشيل من على بعد مئات الكيلو مترات أن ترى بوضوح تلك السحب التى بدأت تتجمع فوق حياة ابنتها، وبدلاً من أن تهدئ مخاوفها، أخذت تزداد بسبب ما تقرأه فى خطابات ابنتها المتناقضة.

كل شىء هنا يشع ضوءاً، من ذلك النوع الذى قد يصيبك أحياناً بالإرهاق. لون البحر الأزرق، الطقس الحار المشوب بالرطوبة، الزخارف، ومن ناحية أخرى صوت المؤذن وهيسستيريا المآذن. إنه عالم مصنوع من الرمال والشهوة. أشعر دائماً بالحنين لباريس، أمى العزيزة، أتساءل كيف ستكون حياتى خلاف ذلك.

ولكى تخرج أمها مثل تلك الأفكار من دماغها، كانت راشيل تتذمر عن قصد من الطقس فى باريس الذى كان يزيد من معاناتها من الروماتيزم، فتقول: أحياناً أفكر كم أنك محظوظة لأنك تعيشين فى قارة شابة مثل قارة أفريقيا. لقد أصبحت أوروبا

العجوز لا تطاق. فلم يعد هناك من يرضع من ثدييها الواهنين سوى من هم على شاكلة هتلر.

وفي أحيان أخرى كانت خطابات هايكي تعد مصدراً للسعادة، حيث تقول: استيقظت صباح اليوم ووجدت سيارة رولزرويس جديدة تنتظرني أمام المنزل. حبيبي يا كوستيس! إنه لم يجد كلمات يقولها سوى: «هكذا لن يمنعوك من الدخول في الصحراء». وكنت قد حاولت من قبل بمصاحبة بعض الأصدقاء الدخول في مملكة الصحراء من إحدى البوابات الحجرية بضواحي الإسكندرية، لكننا عدلنا عن رأينا بعد أن اطلعنا بعض حرس الحدود المختصين على مرسوم ينص على أنه مسموح بالمرور فقط للسيارات من ماركة فورد ورولزرويس لأنها الوحيدة المناسبة للقيادة عبر الصحراء.

كما كانت تكتب لأُمها في أحيان أخرى عن المشكلات التي تواجهها: لا أدري ماذا أفعل مع المربيات، يا أمي. لا أعرف كم واحد قمنا بتغييرها حتى اليوم، فكوستيس لا يشعر بالرضا أبداً عنهن. وفي الحقيقة أحياناً ما يصبح شديد المبالغة، وكلما أخبرته بذلك يجيبني قائلاً «لا أعرف». ثم عرضت "أُمه الطيبة" (دُونْتها بالفرنسية) أن نحفظ بمربية أطفالها القديمة، امرأة تدعى الآنسة جابي، التي تعمل باعتبارها سكرتيرة لديها. إنها ليست كبيرة في السن كما تتخيلي، كما بدت لي شخصية "عطوفة جداً" (دُونْتها بالفرنسية)، ولكن كوستيس ولسبب مجهول قد رفضها. بل إنه استطاع بعد مولد ذافني الصغيرة إقناع أمه بطردها هي وأخيها، هذا الشخص التافه الذي كان يعمل باعتباره سائقاً خاصاً لأمه، اتهمها بسرقة تمثال صغير، وهو أمر لم يتم إثباته حتى الآن. وإذا أردت أن تعرفي رأيي، فقد حدثت مقايضة بين زوجي وأمّه في مقابل أن يمنح الطفلة اسمها. حالياً نقع تحت رحمة امرأة تدعى ميس جين وهي امرأة إنجليزية سميئة - فحماتي بوسعها أن تتقبل أي شيء شريطة أن تكون المربية إنجليزية - وهي دائمة الضحك، لكن لديها من الجرأة ما يجعلها تعبت بأدوات التجميل الخاصة بي. فلنأمل، على الرغم من كل ذلك، أن لا ترحل هي الأخرى، وإلا فلا أعرف ما الذي سيحدث لصغيرتي ذافني التي تنمو وسط كل تلك الخدامات المصريات السمراوات.

استطاعت السيدة راشيل أن تشاهد بنفسها نتيجة تربية الطفلة ذافنى أمام عينيها فى صيف عام ١٩٣٦، حيث استقبلت ابنتها وحفيدتها فى باريس، كانت ذافنى الصغيرة قد أتمت عامها الثالث وبدت لها طفلة رقيقة بفيونكات شعرها وملابسها وردية اللون، وكأنها قطعة من الحلوى. ومنذ اللحظة الأولى ارتمت فى أحضانها وأحست الجدة فى الحال أن قدمها المصابة التى كانت تعذبها فى السنوات الماضية قد بدأت فى الشفاء بمجرد رؤية حفيدتها. لكن للأسف فقد عجل موت حما ابنتها فى ذلك الصيف بعودتها إلى الإسكندرية.

* * * * *

«هناك من يضع الزهور على قبر والدك» هكذا كانت ماريا تردد قائلة لابنها الصغير، فى بدايات عام ١٩٣٦.

نيكتياس: «وهل هذا أمر سيئ؟».

ماريا: «إنها ورود مزهرة تتناثر فى كل أرجاء المدفن، من يا ترى يمكن أن يكون مرسلها؟».

- «ليست لدى أدنى فكرة، هل يحدث هذا منذ وقت طويل؟».

- «منذ أن مات تقريباً، لكنه توقف فى العام الأخير. ثم عاد فجأة واستمر حتى الآن. من يا ترى يمكن أن يكون؟».

- «هل تفكرين فى شخص محدداً؟ لأن عقلى لا يفكر فى أى شخص».

- «سأراىض هنا فى الصباح الباكر، وسأحرص على معرفته» قررت ماريا ذلك ونفذت ما قررت.

مع تباشير فجر أحد أيام الشتاء بألوانه البرتقالية، وقبل أن تهب عاصفة مفاجئة تحملها السحب من ناحية دلتا النيل. شاهدت ماريا رجلاً ترتسم ملامحه وهو يسير

بيطاء بين المقابر. وقد منحته قبعته السوداء والبالطو الأسود الطويل الذى يرتديه هيئة غامضة، لكن ماريا لم تجد صعوبة فى التعرف إلى ذلك الرجل الغامض الذى لم يكن سوى ابن أخيها كوستيس. كان يحمل باقة من الزهور، وعندما وصل إلى قبر ثاناسيس انحنى ونثر الزهور فوق شاهد القبر فيما عدا زهرة واحدة. ثم نهض واقفاً لبضع دقائق برأس منكسة، وهو يمسك بالزهرة بين يديه المعقوفتين. وفى النهاية وضع الزهرة بطريقة حانية فوق باقى الزهور واستدار ليرحل.

لم تكن زيارات كوستيس المستمرة لمقابر الشاطبي ذات علاقة بثناسيس فقط بقدر ما كانت بسبب حالة والده الصحية التى كانت تتدهور، أو هكذا على الأقل كان يعتقد.

وفى الواقع، فقد استقرت حالة أندونيس الصحية منذ أن غادر المستشفى، ولكنها بشكل جوهري لم تكن تتحسن، وقد أدى بقاؤه لمدة طويلة جالساً على مقعده المتحرك إلى إعطاء إحساس خادع بتفاقم حالته الصحية لكل من اعتقد منذ البداية أن رجل الصناعة القوى سوف يسترد قدرًا كبيراً من نشاطه القديم. ويوماً بعد يوم كان وجوده فى الفيلا الواسعة يجعله يشعر بالضالة، ويعد شهور قليلة بدأ كل من فى المنزل بالنظر إليه على أنه كائن بلا روح، ذكرى بعيدة لمخلوق اعتاد أن يخضع كل شيء لرغباته. ويمرور الزمن لم يعد باستطاعتهم حتى الشعور تجاهه بالشفقة، وتحولوا من الإحساس بالشفقة إلى التسامح المتبادل بعد ما خسر اسمه. حتى زوجته كانت تشير إلى زوجها القعيد بطريقة مهينة، عندما كانت تسأل: «هل ما زال فى الحديقة؟» أو «هل أعطيتم ماء للرجل العجوز؟»، ولم يكن كوستيس راضياً عن ذلك، ودائماً ما كان يصيح فيها قائلاً وهو فى شدة غضبه:

«لا تتحدثى هكذا عن زوجك!».

«حسنًا، حسنًا» هكذا كانت ذافنى تجيبه (بالفرنسية)، لكن بعد لحظة واحدة تنسى وتعاود الكرة مرة ثانية.

ربما كانت هايكى هى الوحيدة التى تظهر تجاهه نوعاً من التعاطف، وكم كان مؤثراً عندما كانت الكلمة الأولى التى تعلمتها باللغة اليونانية هى "أبى" (نطقها بلهجة فرنسية)، وكانت ترددها دائماً بنفس الاحترام أمام حماها، على الرغم من صعوبة نطق حرف الراء الموجود باللغة اليونانية. أما كوستيس فقد استمر من ناحيته فى تقديم تقريره اليومى إلى والده العاجز، ولم يكن يشارك الآخرين وجهة نظرهم فى أنه كان يضيع وقته بذلك، فيما عدا إلياس خورى الذى كان يشاركه وجهة نظره. كان اللبناني الذى أطلق عليه كوستيس لقب "ضمير الإسكندرية الحى" يأتى بانتظام بأناقته المعروف بها لزيارة صديقه القديم، وكان يحضر معه الحلوى من مقهى "باستروذيس" أو من "بودرو" إلى جانب آخر الأنباء من جميع أنحاء العالم. وحتى يدعم كوستيس هذه العادة، شيد فى وقت فراغه كشكاً بالحديقة حتى يجلسوا فيه وأسماء «كشك الصداقة».

«حتى لا يقول البعض إن دراستى للهندسة ذهبت هباءً» هكذا كان كوستيس يقول مازحاً.

كان إلياس يتمتع بفضيلة الصبر بينما يتحدث معه بمفرده، محلاً جواهر الأحداث، ربما لأنه لم يجد من يعيره اهتمامه فى ذلك الوقت. كان إعلان حالة التجنيد الإجبارى من قبل هتلر، على سبيل المثال، بالنسبة له بمثابة حرب أبدية فى أوروبا. «ولكننا سنظل فى مصر، أليس كذلك يا أنطوان؟» كان يردد ذلك (بالفرنسية) باستمرار حتى يهدئ من روع نفسه أولاً. وقد أدى فشل حركة أنصار فينيزيلوس فى عام ١٩٣٥ إلى عودة الملك. «وما خفى كان أعظم» (قالها بالفرنسية)، وكان من المفترض أن يؤثر غزو الإيطاليين لإثيوبيا بشدة على الإنجليز المبجلين، الذين كانوا يستعدون لتوقيع اتفاقية لسحب قواتهم العسكرية من مصر.

«الجميع إذن يقع تحت طائلة بوتشييه!» هذا ما توصل إليه خورى، ثم أخذ ينفث دخان سيجارته الرمادى فى وجه أندونيس، وكأنه يمنحه قبلة الحياة. ومع دخان السجائر الباعث للحياة كان ينقل إليه بصوت هامس تحيات إيفيت، التى كان أندونيس

يتلقاها دون مبالاة. وعلى العكس من ذلك، فعندما تم الإعلان عن موت فينيزيلوس فى شهر مارس من عام ١٩٣٦، أحنى أندونيس رأسه فى حزن شديد، إنهمرت الدموع من عينيه وأخذت تسيل حول أنفه، وبدأت تدخل فى ثنايا التجاعيد وتسيل على وجهه. "اسمع. اسمع! (ذكرها بالفرنسية) ستخرج روحه أولاً ثم بعد ذلك تموت العادات الفينيزيلية"، هذا ما جال بفكر إلياس.

كان كوستيس يستعد للحظة الوداع منذ ثلاث سنوات خاملة، عقدت فيها الحياة مع الموت هدنة فوق جسد أندونيس المشلول، وكأنهما يعطيان لابنه الفرصة لقيادة فكرة أن "كشك الصداقة" سيصبح يتيماً. ولكن من أين يستطيع المراء الاعتياذ على فقدان من يحب، إذا لم يكن من حيث يرقد الأحبة أمواتاً؟

منذ اليوم الذى كانت العربة الضخمة التى يجرها ستة خيول، والستائر ذات اللون الموف، والتماثيل الخشبية واللجام الذهبى، تنقل جثمان أندونيس خاراميس بمنتهى الوقار إلى مثواه الأخير، أصبحت مقابر اليونانيين الأرثوذكس بمثابة منزل كوستيس الثانى. أخيراً أحس الخال ثاناسيس بالراحة بعد طول انتظاره لهم. هناك حيث كان قد تم إعداد الضريح الرخامى الذى يحمل فوقه اسم "عائلة أندونيس خاراميس"، حيث سيأتى اليوم الذى سيجتمعون فيه هناك، حتى أخاه ماخوس الذى اختار أن لا يظهر. وكلما أمعن كوستيس النظر فى الضريح، وجد أن مدخله المحاط بالأعمدة يذكره بمدخل منزلهم. وفى النهاية، ربما كان لدى إلياس خورى الحق فى إنهاء خطبته الجنائزية بعبارة: «لا تبحثوا عن أمواتكم فى المقابر. فلن يشعر بالراحة هنا سوى الواهمين بالحياة وبالموت». فى تلك اللحظة جالت عينا كوستيس بين الحاضرين الذين امتلأت بهم طرقات المدفن: أعضاء من الجالية اليونانية وعمال بسطاء، أثرياء وأشخاص بسطاء من عامة الشعب، قامت الجالية اليونانية بتكريم "كبير صناعة الدخان بمصر"، كما كانت تطلق عليه صحيفة "تاخيذروموس" يوم وفاته. تخيل كوستيس أن كل هؤلاء الأشخاص المعروفين وغير المعروفين سيذبلون مع مرور السنين: والدته، الخالة ماريا، نيكيتاس وإخوته، إيفيتس، ميسا، أندرياس سيستانيس، إلياس،

حتى تلك السيدة الغريبة التي كانت تضع نظارة سوداء على عينيها وتقف إلى جانب "البناني" وهي في شدة الحزن. إنها امرأة في الخامسة والأربعين من عمرها، جميلة، ليست يونانية أو مصرية، كانت تبدو وكأنها جاءت تبحث عن نصيبها من المعاناة وسط الآخرين.

* * * * *

في ذلك اليوم الذي انهار فيه أندونيس في مواجهة ابنه غير الشرعي، كانت إيفيت تنتظره في شقتها بشارع السلطان حسين حتى ساعة متأخر من الليل. كانت ليلة من ليالي الشتاء الباردة، هطلت الأمطار بغزارة فوق الإسكندرية كلها. أحاطت أفكارها بصمت غريب، يقطعها بين الحين والآخر صوت "جلاية الباب" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) الجالس على السلم وهي تتطير، أو حركة المصعد أو هبوط شخص بسرعة متجهاً ناحية محطة الرمل. ثم نما إلى أسماعها مرة أخرى صوت وابل غزير من الأمطار وقد أحدثت مياه المطر صوتاً غريباً وهي تسيل من المخزات القديمة الموجودة بالشرفة. دقت الساعة التاسعة وعندئذ اتخذت قرارها.

"لن يأتي الليلة، لابد أن شيئاً ما قد حدث له"، هذا ما جال بخاطرها. لفت نفسها بالروب وأسندت رأسها على الوسائد الموجودة على الأريكة. أخذت تشم رائحة منديلها المعطر وهي بين النوم واليقظة، وعندئذ سمعت جرس الباب يدق باستمرار، لم تكن طريقة أندونيس في طرق الباب، فتحت الباب فإذا بإلياس يقف أمامها وهو ينفذ مظلمته السوداء الضخمة.

إيفيت: «ألم تعلموك كيف تدق جرس الباب على الناس في منازلهم؟» قالت ذلك ثم عادت وهي شبه نائمة إلى الأريكة. مضى وقت طويل منذ أن كان لزيارات "البناني" معنى. وكان قد أدرك ذلك، وربما، لهذا السبب أسرع بدون مقدمات ليخبرها بالأنباء.

إلياس: «الرجل العجوز مريض» (قال ذلك بالفرنسية).

- «أنطوان؟ مريض؟» بدا لها الأمر وكأنه دعاية، ثم استطردت: «هل يعاني من نزلة برد أم ماذا؟» هكذا سألته (بالفرنسية)، ثم انخرطت فى الضحك.

- «أتمنى لو كانت مجرد نزلة برد. أخشى أن الأمور أكثر خطورة».

لم تكن لدى إيفيت الرغبة فى تصديق هذا الكلام، وكان من الواضح أن أنطوان يمثل لها كل ما تشعر به من أمان فى الحياة، وكأنه أبوها المخلص، العشيق الحنون، الصديق، درع الحماية.

- «ماذا يعنى هذا الكلام؟» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «هذا يعنى (قالها بالفرنسية) أنا قادم إليك مباشرة من مستشفى سان سوفرونيوس، حيث يتلقى أندونيس الآن العناية الطبية أثر إصابته بسكتة دماغية حادة. الأطباء ليسوا متفائلين

- «سكتة دماغية حادة؟ شىء مماثل لما حدث لأرابيذيس، هذا أمر مريع» (قالت ذلك بالفرنسية) «هكذا همهمت.

- «أنا أسف، يا إيفيت. أنا جد أسف، أيًا كان ما كنت أقوله أحيانًا، إلا أنني أحب "هذا العجوز" (قالها بالفرنسية)، أنت تعرفين هذا. كما أنه هو أيضًا يحبني».

- «أريد أن أراه» هكذا قالت إيفيت بكل إصرار. إلا أنه حاول إثناءها عن هذه الفكرة بقوله:

- «هذا أمر غير قابل للنقاش (قالها بالفرنسية) فزوجته تسهر بجواره طوال الوقت. وأعتقد أن فضيحة واحدة تكفى».

- «ماذا تقصد؟»

- «ماذا أقصد؟ لقد كنت على علم بأن حبيبك لديه ابن غير شرعى، ولكنك أخفيت الأمر عنا؟».

- «كلا بالطبع».
- «ماذا أقول، فأغرب الأشياء تحدث فى هذه المدينة».
- «انتظر لحظة، ما الذى تعنيه بكلمة ابن غير شرعى؟».
- «ابن غير شرعى " بمعنى " (قالها بالفرنسية) طفل يحصل عليه شخص بدون زواج. هذا ما تعنيه الكلمة على ما أظن».
- «لكن كيف. يعنى، أوه، لكنى وقتها وأنا التى كنت أظن أنه لا يوجد غيرى».
- «آه، لم تفهمينى، يا عزيزتى، إنها قصة قديمة جداً وقعت أحداثها قبل أن يتزوج حبيبك».
- «نعم، نعم (قالتها بالفرنسية)، وطوال تلك السنين؟».
- «طوال تلك السنين يبدو أنه قد وجد طريقة للتخلص منه بطريقة جيدة، حتى إنه هو نفسه قد نسى وجود هذا الطفل».
- «لماذا تقول ذلك؟».
- «لأن رجلاً مثل خاراميس لم يكن ليدع أحداً يفاجئه بهذه الطريقة».
- «والآن ماذا سنفعل؟».
- «لا يمكننا أن نفعل أى شىء على الإطلاق. سننتظر حتى نرى».
- «لكن هذا ليس من العدل، فلم أكن مستعدة لشيء مثل هذا» هكذا صرخت إيفيت.
- «كيف تفعلين هذا، أيتها المسكينة؟ وماذا سيقول أندونيس؟».
- «ليس لى أحد آخر فى هذه الدنيا، يا إلیاس، هل تفهم ذلك؟».

- عندئذ رفع اللباني كتفيه واستدار تجاه الباب، ولكنها صاحت خائفة:
- «أين تذهب؟» (قالت ذلك بالفرنسية)، ثم جذبته من ذراعه.
- «إلى منزلي، أين سأنذهب؟ لم يكن هيناً ما مررت به اليوم. - أحتاج لقسط من النوم» (قال ذلك بالفرنسية).
- «انتظر (قالتها بالفرنسية)، أريدك أن تبقى معي الليلة».
- «أعتذر، يا عزيزتي (قال ذلك بالفرنسية)، فليست معي فرشاة أسناني أو ملابس للنوم».
- «سوف نتدبر هذا، فهذه الليلة باردة بشكل غريب، والمطر يزداد هطولا». تردد إلياس اللحظة فبادرته بقولها: «أرجوك ابق معي».
- «وما الذي سيعود عليّ من كل هذا؟».
- «حلاقة ذقن في الصباح. لا يجب أن تترك ذقنك هكذا، فقد أصابها الشيب وأصبحت عجوزاً. احتفظ هنا بموس الحلاقة الذي حلقت لك به ذات مرة» قالتها له هامسة وأرخت الروب الذي ترتديه بطريقة لها مغزى.
- «طالما الأمر كذلك، إذن سأمكث الليلة».
- «رائع!» هكذا صاحت وأسرعت تخلصه من البالطو الذي يرتديه، وأردفت قائلة: «سوف أعد شيئاً خفيفاً لتتناوله» ثم توجهت مسرعة ناحية المطبخ.
- «ألديك شيء لنشربه» سألها بصوت مرتفع.
- «بالطبع» أجابته من الداخل «فما زلت أحتفظ ببعض الويسكي الرائع في البوفيه تركه زبون يهودي في منزل شارع مصطفى باشا. لا يمكن أن تكون قد تذوقت شيئاً مثل هذا، سأحضر الصودا».

فى صباح اليوم التالى استيقظت إيفيت وهى بين أحضان إلباس بعد كل تلك السنين. أحضرت له طعام الإفطار فى الفراش، ثم قامت بعد ذلك بحلاقة ذقنه. وفى الوقت الذى كانت تستعد فيه لتضع ذلك العطر برائحة الليمون على وجهه الحليق، سمعت صوت صرير الباب الخارجى وظهر لها رمزى البواب ببشرته السمراء بمجرد أن فتحت الباب.

إلباس: «ماذا هناك، أيها البواب؟» هكذا سألته إلباس باللغة العربية.

رمزى: «سمعت أن السيد أندونيس ليس على ما يرام» أجابه رمزى بخليط من الكلمات التى استخدمها ربما حتى تفهمه إيفيت.

- «وماذا فى ذلك؟»

- «السيد أندونيس مدين لى بمرتب ثلاثة شهور» قال ذلك ثم أخذت حدقتا عينيه تضيقان بشدة.

إيفيت: «أكاذيب!» هكذا صاحت إيفيت.

رمزى: «رمزى الحقيقة يقول!» قالها معترضاً وهو يشير لها بأصابعه قائلاً: «ثلاثة شهور».

كانت عيناه تفتحان وتغلغان بشكل سريع. عندئذ هم إلباس وصفعه بشدة على وجهه وقال له بهدوء:

«الآن أنتما متعادلان».

عندئذ بدأ البواب يعود أدراجه إلى الخلف، وهو يضع يده على وجهه، منحنياً تارة تجاه إيفيت وتارة تجاه إلباس. بعد ذلك استدار اللبناى "تجاه إيفيت وقال:

«لا تخافى، يا عزيزتى. الآن أنا بجانبك».

أما هى، فكانها لم تسمع هذه الجملة الأخيرة، وسألته عن موقف رمزى قائلة:

«حقيقية، إلى متى نستطيع أن نجعلهم يخافوننا؟» وكان عليها أن تسأل نفسها هذا السؤال لسنوات قادمة دون أن تجد له الإجابة.

أحد هذه الأسئلة كان يتعلق بالضابط المعتدل فريد،^٢ ذلك العاشق بسيفه المحذب أسمر اللون^٣ الذى كثيراً ما أتعبها^(*)، وقد حل محله الآن الضابط نور، ذو البشرة السمراء ورأسه العريض والملامح المنغولية، الذى يحمل أصولاً تركية-مصرية، والذى لم تكن إيفيت ترغب حتى فى رؤيته. وفى كل مرة حاول فريد أن يأتى به إلى المنزل بمصطفى باشا، كان يصطدم برفض إلياس القاطع «هذا أمر غير قابل للنقاش!» (قال ذلك بالفرنسية)، إنه عدو للإنجليز»، لكنه لم يكن وحده فى البوليس المصرى، فقد كان ينتمى إلى جماعة من الضباط المتشددى فى عصر ما قبل جمال عبد الناصر، والذين بسبب تهديدهم العدائى لبيت البغاء بشارع مصطفى باشا تمكنوا من إدخال نور من أبوابه الخلفية.

بعد مفاجأة أندونيس غير المتوقعة، شعرت إيفيت بالإرهاق من إدارة بيت البغاء، ولكن يرجع السبب الأكبر فى إرهاقها لوجود بعض الفتيات اللاتى كن يتجسسن عليها ويلعبن دوراً قيادياً فى هذا البيت، إلى جانب بعض ضباط البوليس المصريين. وبدأت تشعر بالحنين لتلك الفترة التى كان بيتروس ثيميستوكليس يمدّها بالفتيات، إلا أن ذلك القبرصى قد أصيب بالجدرى ولم تعد خدماته مطلوبة. وبالطبع فقد كانت الفترة التى عملت فيها روكسانى الجميلة وأختها زانائى هى أجمل الفترات التى قدمت فيها أفضل الخدمات لعلية القوم من الوجهاء، لكنها أيام أصبحت فى عداد الذكري. وبالنسبة لماريانثى - التى عرفت باسم "نيهير ذات القناع" - فقد ظلت حبيسه لسنوات فى تلك المصحّة بجنوب فرنسا، قبل أن تقرر فى بدايات عام ١٩٣٠، أن تضع حداً لحياتها وتنتحر.

بدأت إيفيت، التى لم تعد تنتظر أى شىء، تفكر بشكل جدى فى ترك المدينة التى باتت تضربها بعنف موجات التغيير، كما أصبح الصاخبون من المصريين والإنجليز المتكبرين والأجانب المدعين يهددونّها. ويموت أندونيس خاراميس شعرت إيفيت أن

الإسكندرية التي تعرفها قد ماتت معه. بدأ العفن ينبعث من جثة تلك المدينة العالمية ملوثاً هواها، إن عاجلاً أو آجلاً، ولم تكن لدى إيفيت الرغبة فى الوجود فى ذلك الوقت حتى لا تشهد موت هذه المدينة.

فى صيف عام ١٩٣٦، قامت إيفيت برحلة كبيرة إلى أوروبا، وعندما عادت مع بداية الخريف رأت أنه من الحكمة أن تطلع إلياس على قراراتها. لكنه فاجأها كالمعتاد بقوله، إنها لم تعد حرة فى ذلك الوقت على اتخاذ أى قرار بشأن حياتها، ولكى يقدم لها تفسيرات أكثر، قرر أن يصطحبها إلى مقر إدارة المخابرات التى تقع فى شارع يانج، فى منزل على طراز فنيسيا المعمارى، حيث تم إبلاغ إيفيت بأن السنوات الحالية قادمة لا محالة، وهو ما وضع من خلال نبرة صوت مستر "فويس" (أى الصوت)، وهو المدير المجهول لإدارة المخابرات البريطانية بالمدينة. وقد سبق ذلك نوع من الطقوس فى غرفة الاستقبال المربعة، حيث تم زرع بعض الميكروفونات خلف النقوش الموجودة بالسقف. «من الآن فصاعداً أنتِ عضو رسمى فى منظمنا. العائلة المالكة والشعب البريطانى يعبرون لك عن امتنانهم للخدمات التى قدمتها لنا» بهذه الكلمات عبر لها "الصوت" عن امتنانه، ثم ازدادت فجأة حدة ذلك "الصوت" بعد ذلك عندما بدأ فى الإعلان بصوت جهورى عن الحرب التى تقترب، منتهياً بأن القضية ليست إنقاذ الإسكندرية فقط ولكن إنقاذ العالم بأسره.

* * * * *

دخلنا إلى إحدى القرى الصغيرة من الطريق الدولى فى مدينة كورونيا قبل المعركة بوقت قصير. هذه الأرض البكر التى لم تمسها الحرب بعد. كان سكان القرية - وهم أناس فقراء يتمتعون بالهدوء - يعيشون حياتهم الطبيعية دون مبالاة بما يحدث. وقد انصب اهتمامنا على تحويل قريتهم إلى معسكر حقيقى للجيش مهما كان الثمن: جنود، أسلحة، مركبات حربية، وكل ما يحتاجه الجيش. بعد ذلك وصلت الطائرات وبدأت فى قصف القرية بالقنابل. هرب الفلاحون المذعورون فى اتجاهات مختلفة،

مخلفين وراءهم كل متعلقاتهم وكل حياتهم لنا ولأعدائنا. لم تتأخر معركتنا مع الفاشيين عن النشوب. حاربنا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ وحاولنا التماسك بكل ما أوتينا من قوة. فى أوقات الهدوء لم يكن يخرج سوى ذلك المجنون الذى بقى وحده وهو يغنى ممسكاً بزجاجة نبيذ فى يده، متحدياً الفرع من هذه الحرب. لست أدري إذا ما كنا سوف ننتصر، وإذا ما تمكنت من النجاة، فسوف أكتب عملاً أدبياً رائعاً.

صديقك

هيمنجواى البلقان

كان ذلك هو أول خطاب يتسلمه كوستيس من أرض المعركة لجيش إسبانيا، وكان يعرف أن كلاً من إيفيتس ونيكيتاس أصبحا يخدمان فى الجيش الميدانى الحادى عشر.

* * * * *

بعد عدة أيام تسلم كوستيس خطاباً آخر تصادف أنه قد أرسل منذ وقت مضى، لكن فى تلك الظروف الطارئة لم تعد هناك أهمية للنظر فى مثل تلك الأمور. وهذا هو نص الخطاب:

وصلنا إلى مارسيليا وفى اليوم التالى ركب خمسمائة متطوع منا فى الباقرة "سيوداد برشلونة" (دونها بالإسبانية). بعد يومين من إبحارها وصلنا إلى "أليكانتى" ومن هناك ركبنا القطار إلى "ألباثيتى" حيث مركز تجمع القوات الحربية. كادت الحالة أن تصبح سيئة للغاية لو لم يقم بعض الألمان الشيوعيين بتنظيف العنابر، ومن بينهم وجدت من يعرفك حق المعرفة. هل تذكر اسم كارل جويتير بشيء؟ ذلك الرجل ضخيم الجثة يرسل لك بالتحية. إنه المسئول عن تدريبنا. لقد منحونا زياً عسكرياً، الله وحده يعلم من صنعه، فمن الصعب أن تجد لنفسك المقاس الصحيح. تخيل ابن خالك وهو يتجول مرتدياً الزي العسكرى. وبالنسبة للأمور الأخرى، يعد تدريب المبتدئين غاية فى

الصعوبة، فأغلبنا يمسك السلاح بيده لأول مرة فى نفس اللحظة التى نتوجه فيها إلى جبهة القتال. يقوم بعض الجنود الإنجليز الذين شاركوا فى الحرب العالمية الأولى بتدريبنا على حشو البنادق بالبارود. الأسلحة النارية التى لا تكفى الجميع نجدها غير مرتبة فى الصناديق، وحتى الآن يحاول المتطوعون المبتدئون عبثاً فهم أى شىء عنها، مما يجعل خطر الاشتباك والإصابة عظيماً. وفى نهاية الأمر نحن نكن كل الاحترام للجنود الإسبان ونسعى لإقناعهم بأننا نمثل قوة تستطيع أن تتدخل فى اللحظة المناسبة لإنقاذ الموقف. ولحسن الحظ فإننا نتعلم الآن فى إسبانيا ماذا تعنى الحرب!

صديقك

هيمنجواى البلقان

فى تلك الأثناء، كان كوستيس قد حصل على خريطة لإسبانيا وكان يقوم فى أوقات فراغه بتحديد مواقع الخصمين ويتخيل كيفية تقدم العمليات الحربية كما كان يقرأها فى الصحف؛ إلا أنه، فى واقع الأمر، كان يتخيل حرباً أخرى تخصه، تلك الحرب التى تعتمد فى تطورها على نزعاته ورغباته. مع الاعتقاد الثابت بأن الحرب هى الحرب دائماً، سواء أكانت حرباً عسكرية أم حرباً اقتصادية، فقد نصب من نفسه قائداً للديمقراطيين وأخذ يرسم بنفسه إستراتيجيتهم. وبهذه الطريقة كان يقاوم إحساسه بالأرق، مع الفارق بأن كل ما كان يصفه من خطط فى يقظته يصطحبه معه أثناء نومه، فيصبح أثناء نومه بأوامر متناثرة تنطلق من عقله المتقدم. إلى أن وصله الخطاب التالى من إيفيتس ليعيده إلى الواقع المخيف للحرب:

أعتقد أن هذه الحرب فرصة لنا جميعاً نحن اليائسين. ولكى تفهم ما الذى أعنيه أعرفك أن فى وحدتنا العسكرية جنوداً سابقين من الجيش الأبيض الروسى أو أبناء الجيش الأبيض الذين يعانون من الحنين لبلدهم، يتمنون لو تمكنوا من تأمين عودتهم إلى الاتحاد السوفيتى. أين أنت يا فروبانوف!

هل تتصور كل واحد منا الآن لا يملك سوى حفنة من الطلقات، فى حين تعد الأسلحة النارية فى بعض المعسكرات الحربية نوعاً من الرفاهية.

كان كوستيس يتعامل مع هذه الحرب فى البداية باعتبارها لعبة، لكن مع استمرارها تأثر بشدة لحال مدينة "تيريل" التى لم تكن لها أية أهمية إستراتيجية، والتى أدت حماقة وتعنت القادة الديمقراطيين أن يجعلوا منها هدفاً غاية فى الأهمية، فأصبحت تلك المدينة مقبرة لاثنيين من أصدقائه الثلاثة المحاربين. كانت البداية من نصيب كارل فويتير، وقد وصف إيفيتس موته فى معركه احتلال "تيريل" من قبل الديمقراطيين قائلاً:

قفز كارل إلى الأمام، وكان يقودنا بكل جرأة كما لو كان قائداً لإحدى الرقصات فى أحد كباريهات برلين. لقد فقد هذا العملاق الطيب صوابه فى هذا الجحيم الذى سَمَّوه بالحرب الإسبانية، حتى طلقات الرصاص لم ترحمه. مات كارل وهو يغنى النشيد الوطنى، أبقى الله حياتك، ولتذكره.

ثم جاء الدور بعد ذلك على الصربى فى الثانى والعشرين من شهر فبراير لعام ١٩٣٨، وهو اليوم الذى تمكن فيه الوطنيون من احتلال المدينة. وقد تم إبلاغ كوستيس فيما بعد بنهايته، عندما عاد نيكيتاس - الناجى الوحيد من أصدقائه - إلى الإسكندرية. نجا ابن خال كوستيس من هذه الحرب المشوهة، وكان حاضراً لحظة مغادرة القوات الدولية من "نجرين" يوم الخامس عشر من شهر نوفمبر لعام ١٩٣٨، فى برشلونة. وبناءً عليه فقد تم تسريحهم من جبهة القتال وطلبوا منهم الرحيل عن إسبانيا.

عاد نيكيتاس إلى الإسكندرية فى نهاية نفس هذا العام. لكنه أصبح شخصاً آخر، حتى إن كوستيس اعتقد أنه قد فقد كل أصدقائه فى الحرب، وأن هذا الذى يدعى بأنه ابن خاله ليس إلا شخصاً غريباً عليه، يحمل اسمه واستحوذ على مستقبله فى هذا العالم.

* * * * *

عندما توجه دكتور ماخوس إلى أثينا فى خريف عام ١٩٣٦، تذكر مقولة والده له ولأخيه: «لابد أن تحبوا اليونان، بلدنا، ولكن من بعيد!» فكتب لأمه انطباعه الأول عن أثينا قائلاً:

أثينا، المدينة - الشبح، فمعظم زواياها معتمة وشوارعها قذرة، كما ينقصها الكثير من وسائل المواصلات. أما مدينة بيريه القديمة، فهى رمز للغلاء والجهل. علبة السجائر تكلف إثنتى عشرة دراخمة، وهى لا تضاهى سجاثرنا. اليونان تعيش فى القرن التاسع عشر. إننى أخجل باعتبارى يونانياً من النظر فى عيون أصدقائى الألمان.

فى البداية لم تعجب ماخوس فكرة الابتعاد عن "مركز العالم"، كما أطلق هو نفسه فى إحدى مقالاته على ألمانيا فى عصر هتلر، لهذا كتب لأخيه: المنفى الثانى لا يحتمل. منفى فى البداية من قبل أبى الحقيقى، وأخيراً فقد تم إبعادى عن أبى الروحى (رودولف إس) إلى عاصمة مظلمة بالقارة العجوز. تحزننى بربرية الجيش اليونانى على خلفية الآثار المرمية. كم أشعر بالحنين للإسكندرية.

كانت العبارة الأخيرة تتردد كثيراً فى أذن كوستيس وهو يعدها بمثابة التهديد. فقد تمكن لمدة ثلاث سنوات - متبهاً فى ذلك طريقة أبيه - أن يبقى ماخوس وفانيس بعيدين عن الإسكندرية، ممدداً إياهم بالمبالغ النقدية الطائلة. وكثيراً ما كانت أمه تقول له:

«إنك تذكرنى بأبيك، يا كوستيس، فكل من لم يرغب فى وجوده يبعده بالمال. وخيراً فعلت مع فانيس، لكن ماذا عن ولدنا ماخوس؟ ألا تظن أنه لا بد أن يعود إلى هنا يوماً ما؟».

إلا أن كوستيس لم تكن لديه الرغبة فى التفكير فى ذلك. فوجود أخاه المناصر للنازية فى بلدٍ مثل مصر، التى لا تزال فى جوهر الأمر ولاية إنجليزية، قد ينسف كل أعمال العائلة. وذات مرة ألح له إلياس أن خطابات أخيه يتم الاطلاع عليها من قبل المخابرات البريطانية. هكذا إذن كان كوستيس على حق عندما كان يتساعل فى نهاية الأمر عن أكبر فضائح العائلة: هل هو فانيس الابن غير الشرعى أم أنه ماخوس هتلى النزعة؟ ولحسن الحظ فكلهما قد أعطى لنفسه أولويات أخرى فى الحياة. وإذا كان

الثانى يخدم هتلر، فالأول لا يفعل شيئاً سوى الاستمتاع بحياته، ومن وجهة نظر اقتصادية فلم يكلف ذلك الأمر كوستيس الكثير من المال. لكن مطالب فانيس بدأ تزيد باستمرار مما أزعج كوستيس، بعد أن أصبح فتى عابثاً وكأنه قد حدد لنفسه هدفاً وهو تعويض كل ما فاتته فى مدة ثلاث سنوات. كانت التلغرافات التى يرسلها طوال الوقت تدل على أنه لا يظهر أى نوع من التعقل. وكان كوستيس على دراية كافية بإغراءات الحياة فى مدن أوروبا. حتى فى الإسكندرية كان البعض قد أطلق على كوستاراس لقب "خاراموفيس" - أى ذلك الذى يأكل ثروة خاراميس. إلى أن فاض الكيل بكوستيس، وقبل أن يغادر صديقه إيفيتس إلى إسبانيا بقليل ذكره بـ"غوربانوف"، قائلاً: «إذا لم تكن لديك الرغبة فى دفع المال مجبراً لفانيس فأرسل له ميسا ليربك منه. إن أوروبا اليوم تعد مكاناً خطيراً. أليس من الطبيعى أن يقع بها حادث أو جريمة قتل؟ سوف يتولى الأمر ذلك الضابط الروسى، ولن يعرف أحد بذلك».

يبدو أن ذلك الصربى كان معه حق. وفى النهاية، فقد كانت الطريقة التى يحيا بها فانيس تعجل له بالموت. وقد دفع سماع خبر مصرع فانيس فى حادث سيارة بجنوب فرنسا فى بداية شهر نوفمبر من عام ١٩٣٦، البعض فى الإسكندرية للقول: «يا له من رجل محظوظ سواء أراد أم لا، فقد تخلص للأبد من هذا "الخاراموفيس"! أما كوستيس فكان ينام نوماً هادئاً، معتبراً أن الحياة قد منحته حلاً عادلاً.

فى تلك الأثناء، كان ماخوس فى أثينا يتلقى المفاجآت المحزنة الواحدة تلو الأخرى. فبينما كان يمنى النفس بمنصب المستشار الأول فى السفارة الألمانية بأثينا. سمع من قم هذا الرجل الضخم ذى النظارات الصغيرة الذى كان ينوب عن السفير، أنه قد تولى منصباً فى وزارة الإعلام والسياحة بالحكومة اليونانية.

«كنت أظن أنكم قد أرسلتمونى لليونان لكى أخدم ألمانيا وهتلر» قال ذلك ماخوس معرباً عن حزنه.

نائب السفير: «لستم مخطئين فى هذا، فمن مكانكم الجديد يمكنكم أن تقدموا أكبر الخدمات للرايخ الثالث. إننى على ثقة من أنكم بخبرتكم بالقرب

من الهر جيبيلز ستقومون فى نفس الوقت بأداء عمل رائع لوطنكم الحقيقى الذى يحاول أن يلملم نفسه ويستعيد ماضيه العظيم تحت رعاية السيد رئيس الوزراء. وتتفقون معى أن كل شىء فى عصرنا الحالى يعتمد فى الأساس على الدعاية».

ماخوس: «بالطبع، لكن.....».

نائب السفير: «لا تدعوا المخاوف تحيركم، دكتور خاراميس. فليكم عقل متقد. لتثقوا فى الفرص التى تقدم لكم. ولتثقوا بنا نحن. وفى النهاية أنا على يقين من أن ثقتنا بكم ستكون فى محلها».

ماخوس: «إذا كانت مسأله ثقة!».

نائب السفير: «بالطبع هى مسألة ثقة».

إلا أن ماخوس لم يكن على استعداد للثقة بأحد خاصةً بمثل هذا الرجل الذى كان لديه أكثر من سبب يجعله يقوض وجوده فى اليونان. ولذلك أرسل دون تردد تلغرافاً إلى إس قائلاً: «صديقى العزيز، لابد أن تعلموا أنهم قد خدعوني. دكتور ماخوس خاراميس».

كان ماخوس ينتظر على الأقل أن يقلب إس الدنيا حتى يسترد ماخوس حقه، لكن جاعته إجابة مفاجئة أخرى: «افعلوا ما تؤمرون به دون اعتراض. رودولف إس».

ومنذ تلك اللحظة أصبح لا شىء يبهجه داخل الحكومة اليونانية. فقد بدت له عربات الترام متهالكة، المطاعم قدرة، المسارح مزدحمة، محلات الحلوى الأرستقراطية بميدان سنداغما أصبحت شعبية. حتى طريق أتيكا السريع لم يعد يطل سوى على طرق ترابية وحارات ضيقة.

أما فى عمله فى الوزارة، فالأمور كانت أكثر سوءاً، وكان يصب جام غضبه فى خطابات على نائب الوزير، فيقول: إن نيكولوديس يقلل من شأنى، يا أمى. أتعلمى أنه قد مر فى أحد الأيام على الإسكندرية، دون أن يأخذ شيئاً من طباع أهل الإسكندرية.

إنه شخص مخادع بما تحمله الكلمة من معانٍ، وهو أحمق كما تقول عنه الشائعات. دائماً ما يسألني قائلًا: «دكتور خاراميس، ماذا نفعل إزاء الصحافة، ماذا نفعل تجاه الشباب؟». عندئذ أقدم له أفكارى ثم يعرضها بعد ذلك على أنها أفكاره.

أما عن زملائي في العمل فإنهم أشخاص غير متزنين، عاجزين، متغطرسين، مروجي شائعات. إن مؤهلاتي تصيبهم بالرعب. ذات مرة سألني أحد مديري الأقسام: «أحقًا، أنكم تتحدثون خمس لغات يا دكتور؟» فأجبت «نعم» فقال: «يبدو لى أمرًا غريبًا، أتعرفون، فقد كنت أفكر فى أن الأشخاص متعددى اللغات هم أشخاص مضحكون. فهل من الممكن لذئب، على سبيل المثال، أن ينبج ويخور ويزار ويزقزق؟» ولا أدري كيف وابتنى الفكرة بأن أرد عليه قائلًا: «أفهم ما ترمون إليه جيداً. فماذا تفعلون أنتم؟»، فسألني: «ماذا تقصودون؟» فأجبت: «أقصد هل تنبحون، أم تخورون، أم تغردون، ما لغتكم الأصلية، يا صديقى؟» اللعنة لابد أن يقوم شخص بوضع هؤلاء الحمير فى مكانهم.

ولم تكن فكرته عن ميتاكساس أفضل. كيف تؤكد أنه يشبه العم يانيس؟ هكذا كتب إلى كوستيس: إنه قصير، سمين، يرتدى نظارة سميكة، يرتدى ملابس تفتقر إلى الذوق كما أنه يشعر بالغيرة منى. لقد قال إلى نيكولوديس بالحرف الواحد: «لماذا أحضرت هذا الرجل إلى هنا؟ هل ليذكرنى بأنى قصير، وقبيح ولا أعرف كلمة واحدة بالإنجليزية؟».

كان ماخوس يدخر أجمل لحظاته باليونان، ويذوئها فى مذكراته التى غالباً ما كان يحملها معه فكتب يقول: قمت بإعطاء بعض المحاضرات عن نيتشه وعن اليونان القديمة. كان الحضور كبيراً. أخيراً، هناك شىء يشعرنى بالسعادة! اقترب منى شاب أمريكى طويل القامة ونحيف يشبه النخلة. اسمه أليكس بيرس، تسمع صوته وكأنه يهمهم. اكتشفت من خلال مناقشاتنا أننا نتفق فى الرأى بخصوص الحب فى اليونان القديمة.

وفى صيف عام ١٩٣٧، كتب فى نفس المذكرات بعد مرور وقت طويل: سأذهب للاستحمام فى شواطئ فاليرو التى تشبه شواطئ ستانلى بك بالكبانن الموجودة بها. فى محلات الحلوى الأرستقراطية بشارع " الجامعة " تنتشر النساء العانسات كالجراد

”التمثيل“، هكذا يطلق عليهن الشباب ساخرين. يمسكن بالمرآح في أيديهن ويحركنها يميناً ويساراً وهن يتأففن من الحر. تقترب الذكرى السنوية للعيد الرابع من أغسطس، وقد تذكرني فيها الجميع. نيكولوديس يحاول إرضائي بقوله: ”قل لنا أية فكرة يا دكتور“ إلا أنني أظهار معه بالبلامة. كنت أتمنى أن أكون بالإسكندرية إلا أن هذا الأمر يعد مستحيلاً في الوقت الحالي. ربما في الشتاء القادم.

وهكذا، فقد أمضى ماخوس كل فصل الشتاء محتجراً في أثينا، وقد شرح أسباب ذلك لأمه في أحد خطاباتاته: ”الخطابة“، نعم، رأيناها هنا في الحكومة اليونانية. هذا الخنزير نيكولوديس يريد أن يزوجني ابنة أخته. لكنني أوقفته عند حده حين قلت له: ”لقد عشتُم في الإسكندرية وتعلمون أن أهل الإسكندرية لا يتزوجون“، فأجابني ذلك الأحمق: ”لكن كيف ذلك!، فمما علمت أن أحاكم متزوج“.

عندما قال ذلك أجابه ماخوس بأن أحاكم لم يتزوج من امرأة ولكنه تزوج من يهودية. لكنه رأى من الأفضل أن لا يذكر ذلك في خطابه. كما لم يذكر بالطبع دهشة نائب الوزير. في تلك الأثناء، فقد اضطر أليكس بيرس للعودة لأمريكا وكانت الوحدة في شتاء أثينا لا توصف.

في شهر مايو من عام ١٩٣٨، جاءت الموافقة أخيراً، ووصف دكتور خاراميس لأمه إنتصار زاببوس قائلاً: في القسم اليوناني للمكتب المركزي الدولي ”متعة وعمل“ وقد افتتح دكتور روبرت مبنى زاببوس. أه يا أمي، كان الجميع هناك، لكن ما إن رأني روبرت، حتى ترك الجميع، ومن بينهم ميتاكساس نفسه، وأسرع لتحتي. ليتك استمعت إليه وهو يقول: «دكتور خاراميس، أنت هنا!» تناقشنا لمدة عشر دقائق باعتبارنا صديقين حميمين، وكان الوزراء المجتمعون يجلسون وهم ينظرون إلينا كالبلهاء. أتخيل كيف كان العم ثاناسيس سينفجر من الغيرة.

وفي خطابها التالي سألته ذافني سؤالها المعتاد: ألا تعتقد أنه قد حان الوقت لكي تعود إلى مصر؟ لكن ماخوس، الذي كان يتمنى أن لا يتركه الألمان في حيرته لمدة طويلة، لم يكن يرغب حتى التفكير في ذلك.

ورغم كل ذلك، فقد كتب لها فى شهر نوفمبر من نفس العام قائلاً: يسعدنى أن أبلغك بقرب عودتى إلى مصر. سيكون لى عمل مؤقت فى السفارة اليونانية بالقاهرة، وإلى ذلك الحين، أتمنى عدم إبلاغ أحد حفاظاً على السرية. فليست لدى الرغبة فى الحضور إلى الإسكندرية. هذه الأمور غاية فى الأهمية من أجل مصلحة الوطن. الصبر.

كان ماخوس يكذب للمرة الثانية. فقد كان فى طريقة إلى مصر لى لعب دوراً مزدوجاً، حيث يذكر خطاب النقل بوضوح: «سيكون دكتور ماخوس خاراميس القوة الدافعة للسفارة اليونانية بالقاهرة بشكل مؤقت تقديراً للأهمية السياسية لمصر واليونان» وفى نفس الوقت كان ماخوس يعمل جاسوساً للمخابرات الألمانية. ها هم إذن أصدقائه الذين لم ينسوه. لقد بدت له كلمات الملحق العسكرى بالسفارة الألمانية مثل الإطراء:

«إذا ما استطعتم، فى إطار واجباتكم الدبلوماسية، أن تجمعوا معلومات عن وجود القوات الأجنبية فى شمال أفريقيا، فسوف تدعمون بذلك سبل زيادة حقوق الرايخ الثالث فى القارة السوداء».

وكان ذلك وصفاً مهذباً لمهمة الجاسوسية القذرة، ولكن فى حالة الدكتور خاراميس لم يكن من الضرورى استخدام مثل هذا الوصف، فقد كان الرجل السكندرى الوسيم يشعر بالفخر وهو على وشك أن يصبح مكتشف العالم الجديد فى أرض مصر، ولذلك فقد أجاب الملحق العسكرى الألمانى بقوله:

«لابد أن تعرفوا أن أهل مصر ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذى سيحررهم فيه هتار من القوات البريطانية». وعندئذ ابتسم كلاهما ابتسامة رضا.

لم تتم عودة ماخوس إلى مصر بالطريقة المعتادة، فبدلاً من ركوب الباخرة المتجهة من ميناء بيريه (باليونان) إلى الإسكندرية، فضل ماخوس أن يركب باخرة تجارية تصل به إلى بور توفيق ثم يتجه من هناك مباشرة إلى القاهرة. كان الشتاء قد حل

وفكر ماخوس فى أنه إذا ما ركب القطار فى الصباح فسوف يلحق بطعام الغداء مع العائلة، لكن كان وجود زوجة أخيه اليهودية يضايقه بشدة، مثلما كانت تضايقه نظرة محمود القذرة التى تحمل معانى خفية، تلك النظرة التى ذكرته بتجارب سابقة محزنة. وكان أكثر ما يخيفه هو: أن لا يتعرف على الإسكندرية التى كانت أمه تصفها له فى خطاباتهما، مما جعله يشعر بأنه قد أهدر أجمل سنوات عمره فى مدن غريبة بين أناس غرباء. من يدرٍ فربما أدى مرور كل تلك السنين إلى نسيان مشاركته فى فضيحة "قطار باكوس". لا لم يكن هذا هو الوقت المناسب للعودة إلى الإسكندرية.

ومن جهة أخرى، فقد استحوذت بعض الأحداث التى وقعت فى القاهرة على اهتمام الجميع، وكان أهمها زواج الملك فاروق من فريدة. فى العام الذى رحل فيه ماخوس منفياً إلى ألمانيا، كان الملك فاروق يبلغ من العمر عامين، وفجأة، يعود ماخوس ليجده متوجاً على العرش، ويستعد للزواج ممن اختارها قلبه، وهى ابنة لباشا مصرى يعمل قاضياً بالاستئناف بالمحاكم المختلطة. إن كبرياه لا يتحمل ذلك، فمن ذا الذى ترك الوقت ليمر فى غيابه؟ متى بلغ فاروق سن الرشد، متى أصبح سباحاً من الدرجة الأولى ومصارعاً لا يضاهى، ومبارزاً لا يقهر وكذلك فارساً متألّقاً؟

كانت مراسم الزواج تشبه ما يكتب فى الروايات: سوف تنتقل العروس الشابة، بعد توقيع عقد الزواج، من منزلها إلى القصر داخل عربة زجاجية رسمية، مرتدية رداء فرحها باهظ التكاليف. فى ذلك اليوم، سوف يكون هذا هو الظهور الوحيد لها أمام الناس، لكن هناك من يقول: إن الملك والملكة سوف يختلطان بالمواطنين بعد عصر ذلك اليوم، وفى تلك اللحظة سيتم إشعال الألعاب النارية. سيقوم الطهاة بطهو مائة طن من اللحوم ثم تقدم مجاناً لآلاف الأسر. آلاف المراكب التى تبحر فى النيل والمليئة بالآلات الموسيقية النوبية ستعزف الأغانى الشعبية المصرية. كميات هائلة من الزهور تصل من كل أرجاء مصر، وأيضاً هدايا من كل أنحاء العالم، حيث يتولى الخدم والعاملون بالقصر العناية بها. وفى المساء سيقام أول عشاء يجلس فيه رئيس الوزارة جنباً إلى جنب مع أعضاء مجلس الوزراء وقيادات الجيش من الضباط. وسوف يشارك دكتور

ماخوس فى الوفد اليونانى الرسمى الذى سيقوم بتسليم الهدية المقدمة من اليونان - وهى عبارة عن تمثال من الفن اليونانى. لقد أظهر المستشار هتار مرة أخرى مدى عظمتة، حيث أهدى الملك فاروق سيارة فارهة.

وكانت حفلات الزفاف الملكية فرصة طيبة للقاء والدته التى حضرت خصيصاً من الإسكندرية لمتابعة مراسم الزواج. وكانت السيدة ذافنى قد توقفت عن السفر خارج مصر بعد مرض زوجها، ولذلك فقد مضت أربعة أعوام منذ آخر مرة تقابلا فيها، وقد تناولوا معاً الطعام فى منزل الخال لوكاس فى مصر الجديدة. ذلك المنزل المتميز وسط صخب كل هذه الطرز المعمارية: فقد كان قصراً له طراز معمارى عربى يختلف واجهته عن طرز البناء الجريئة، وقد أدت صفوف الأشجار الطويلة المتراسة إلى حجب المنزل عن الشارع. كان ثراء لوكاس سينجوس بادياً فى طبقات الرخام والكريستال المستخدمة وفى البلاط المزخرف، لكن ثراءه يبدو واضحاً وبشدة فى تلك التحف الهائلة التى تنتمى إلى عصور ما قبل التاريخ والتى كانت تزين جنبات المنزل. وكان ذلك بالتحديد ما سبب لماخوس شعوراً غريباً بالراحة.

ذافنى: «إن ذلك لأمر مخز» (قالت ذلك بالفرنسية) كانت تلك الجملة الأولى لأمه بمجرد أن جلسوا على المائدة، ثم استطردت قائلة: «فأنت على بعد خطوات من منزلك ولا تحضر لزيارتنا. انظر لأخيك وزوجته وابنة أخيك. الناس تتحدث عنا».

ماخوس: «تعلمين أن ثروة أهل المدينة لا تهمنى (قال ذلك بالفرنسية). أما بالنسبة لأخى، فإنه يفعل ما كان المرحوم أبى يفعله. إنه يفرقنى بالنقود حتى يبقينى بعيداً عن الإسكندرية، ربما لأنه يخجل من زوجته اليهودية التى أتى بها. أظن ذلك».

- «أنا لا أسمح لك أن تتحدث بهذه الطريقة عن زوجة أخيك» قالت ذافنى ذلك، ولكنها تبدو فى أعماق نفسها وكأنها توافق ابنها الرأى. أما ماخوس فقد استمد قوة من موقفها هذا، وأشار للخال لوكاس، الذى كان الصلح يزداد فى رأسه بمرور السنين، ثم قال بكل فخر:

«هذا هو قريبى الوحيد الذى أملكه فى مصر. هذا الذى يقف اليوم أمام سطوة آل خاراميس. لابد أن تعلمى، يا أمى، أنتى أنتى بنسبة ثمانين بالمائة لعائلة سينجوس، وعشرين بالمائة فقط لعائلة خاراميس. أرستقراطى من الجيل الثالث ولست "مدعى نعمة" (قالها بالفرنسية) متبجحاً. لقد عانيت كثيراً، كلنا عانينا من رب أسرة مستبد، يلوح طوال تلك السنين بأمواله أمام أعيننا ويتهمنا بأننا نقلل من مكانته بسبب جنورنا، حتى ثبت أن فضيحتة هى الأكبر بين فضائح العائلة.

لوكاس: «عزيزى ماخوس، إنك تبالغ كثيراً، أعتقد أن الأهم من ذلك هو احترام موتانا» قال ذلك خاله بهدوء، وبينما كان يداعب شاربه الحاد وهو يبدو سعيداً من لهجة ابن أخته الساخرة، التى تصب فى صالحه. لكن ماخوس لم يتوقف فاستكمل قائلاً:

«دعنى، يا خالى، دعنى أرجوك، فى النهاية لابد أن يتكلم أحد فى هذه العائلة» ثم استدار نحو أمه وقال: «أعرفين لماذا لا أريد أن أطفأ بقدمى الإسكندرية؟ لأن ظله ما زال جاثماً عليها. أتريدون أن أخبركم بحقيقة أندونيس خاراميس؟ إنه شيطان فقير كبير وتحول إلى كائن آخر. لقد حط من قدرك، يا أمى. وطرد أخاك، وأرسل بابن أخيك للسجن، وحرملك من ولدك، وفى النهاية ظهر أن لديه ابناً آخر غير شرعى! ضحية أخرى من ضحاياه، من امرأة أخرى. ومن يدر كم عدد النساء اللاتى خانك معهن».

ذافنى: «لا تتحدث بهذه الطريقة، يا بنى!» قالت ذلك وهى تضع كف يدها على فمه، أنها تتقاسم مع ابنها شعوره بالغضب، لكنها لم ترغب فى أن تسمع منه المزيد. لقد أرهقتها أعمال أندونيس المشينة التى لا حصر لها، مخلفاً وراءه فضيحة أخرى لكى تصبح مثاراً لسخرية الناس. لكن الموتى مع الموتى والأحياء مع الأحياء. أما الآن فكل ما يقلقها هو حالة ماخوس، فربما كان لقاءهم هذا فى وجود لوكاس الفرصة الوحيدة لكى تقنعه بتغيير مسار حياته، وكان عليها أن تفعل كل ما فى وسعها حتى تحقق هدفها.

ذافنى: «ما حدث قد حدث، يا عزيزى ماخوس. وحان الوقت للم شمل أسرتنا. حان الوقت لتعود أنت أيضاً إلى حيث تؤول. لتساعد فى المصنع بإلغاء التسهيلات الضريبية، فقد أصبحت الأمور أكثر صعوبة، ومن الآن فصاعداً سوف يتم فرض ضرائب على أرباح المشروعات التجارية. وأنت تعرف ما الذى يعنيه ذلك».

ماخوس: «الإنجليز الأشرار هم المسئولون فى ذلك. حتى يستطيعوا تأمين وجودهم العسكرى فى مصر، وقد تركوا جميع الرعايا الأوربيين معلقين».

- «يكفى هذا (قالتها بالفرنسية) الإنجليز ليسوا مسئولين عن كل خطأ، إلى جانب أن الكل يتحدث اليوم عن الحرب، فإذا نشبت فى النهاية، أخشى أنك ستتحول حينها إلى المعسكر الآخر».

- «فلتشتعل، فلتشتعل إذن الحرب، ولتصبح ناراً حارقة تأتى على الأخضر واليابس وتسقط الملوك من عروشهم. "فالمسيح الجديد" ليس سوى قزم هزيل لم يأت ليعلم الناس الحب ولكن ليعلمهم العدالة، لم يأت ليحتضن البشر البائسين ولكن البشر العظماء. لقد بدأت عملية فرز مدهشة للأوراق. حتى لا يصبح هناك بشر معاقون جسدياً أو نفسياً يعيشون عائلة على الآخرين فالعالم الجديد، العالم الرائع أمامنا الآن!».

قال ذلك ماخوس وقد غشى وجهه ظل شيطانى، حتى إن جمال وجهه الذى كان الجميع يتحدثون عنه بانبهار شديد، لم يعد له وجود. لقد أخذت الكراهية غير المبررة فى الازدياد داخل جنبات هذا المخلوق الجميل حتى ملأت كل المكان. استدار تجاه لوكاس فوجده وقد وضع شوكة الطعام من يده وهو ينظر إليه بذهول. تبعت ذلك لحظة من الصمت التام ثم نمت إلى أسماعهم بعد ذلك أصوات الألعاب النارية الملكية صادرة من جهة النيل. إلا أن أصواتها باتت تتردد فى أذن ذافنى وكأنها إعلان مخيف للحرب.

الفصل الثالث

أخطو بثقة السائر أثناء نومه

على الدرب الذى سمته لى العناية الإلهية

(هتلر، ١٤ مارس ١٩٣٦)

«حسناً، إنها الحرب» هكذا صاحت هايكى (بالفرنسية)، ثم تملكها نوبة من الضحك والبكاء معاً. وبينما كانت تنحنى فوق المائدة، أوقعت دون قصد منها كأسها فوق مفرش المائدة الأبيض، لكن الأمر بدا كما لو أنها فعلت ذلك متعمدة، فاستداروا نحوها ورمقوها جميعاً بنظرة استهجان، فى حين كانت حماتها تهمهم غاضبة بقولها: «تمالكى نفسك، ياعزيزتى» (قالت ذلك بالإنجليزية) لكن نصيحتها ذهبت هباءً، لأن زوجة ابنها أبدت ضيقها بعض الشيء ولكنها لم تعرها اهتماماً. فى تلك الأثناء، دب النشاط فى المكان كله وأسرعت الخادومات المصريات ورئيس الخدم بزيهم التقليدى فى حركة متناسقة لتنظيف المكان إلا أنهم تسببوا فى زيادة اضطراب الجالسين.

كان كل شيء يسير سيراً حسناً حتى اللحظة التى اعتقد فيها إلياس خورى، الذى دائماً ما يتنبأ بالأخبار السيئة، أنه من الأفضل أن يتولى مهمة الإعلان مبكراً عن تطورات الأحداث، وأن يخبر الحاضرين بدخول إيطاليا المتوقع فى الحرب. على أية حال، فقد كان أمراً يتوقعه الجميع فى الإسكندرية منذ شهر مضى، حيث كانت ألمانيا قد احتلت الدول المجاورة لها، وكانت مسألة وقت حتى يقوم موسولبنى بخطوة ما ضد مصر. إلى هذا الحد، لم يكن هناك من يرغب فى تصديق ذلك وبخاصة ذافنى، التى

شعرت بأن الحديث عن إعلان الحرب قد قضى على هدوء ظهيرة أيام الأحد من شهر يونيو، وربما كان آخر الأيام التي يشعرون فيها بالأمان. فجأة وصل إلى المائدة طبق ضخم يحتوى على وجبة من سمك "البطلى" (نكرها باللغة العربية وبدونها بحروف يونانية) الشهى وهو من أسماك النيل، والذي كانت ماريا قد تولت إعداده، ولكن كان الجميع قد فقدوا شهيتهم، ولم يمسوا كل ما تم وضعه فى الأطباق أمامهم من الطعام، وكذلك أسماك البربونى التى وضعت على المائدة بكميات كبيرة حتى انتهى المطاف بالطعام فى وقت لاحق إلى بطون الخدم الذين، مثلهم فى ذلك مثل كل المصريين، كانوا يواجهون الحرب بلا مبالاة.

ما الذى كان بإمكانهم أن يفعلوه غير ذلك؟ لقد أظلمت مصر بالفعل منذ بداية شهر مايو، واضطر الجميع إلى وضع قطع من الورق الأزرق على النوافذ، وفى كل مرة تنطلق فيها صفارات الإنذار مدوية، كانوا يهرعون إلى المخابى. وفى يوم الأحد تجمعوا كالمعتاد فى الحديقة حول المائدة البيضاء، متظاهرين بعدم اهتمامهم بنذر الحرب - فيما عدا أفراد الأسرة وإلياس خورى - وكان بصحبته نيكيتاس وأمه الخالة ماريا وأندرياس سيستانيس وزوجته وأبناؤهما (بأجسادهم الضخمة، وأطوالهم الفارعة، وبالمثل كانت السيدة سيستانيس امرأة بدينة) وكان معهم أيضاً نائب مدير بنك باركليز فابيو أدريانى، الإيطالى - اليهودى، وولده الذى يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً (ولم تحضر زوجته مارتا - الصديقة المقربة من هايكى - التى فضلت البقاء فى المنزل للعناية بطفلتها التى كانت تعاني من مرض الجدرى)، وأيضاً ميسا ثوروبانوف. ذافنى: «عزيزى إلياس، فلنفترض أنكم على صواب، وأن إيطاليا ستدخل غداً فى الحرب، هل هذا يعنى أنها ستتحرك فى التوالى واللحظة» (قالتها بالفرنسية) ضد مصر؟». هكذا سألت ذافنى وقد رمقت زوجة ابنها بنظرة شرسة، حيث لم تكن قد تحسنت بعد.

إلياس: «بلا شك، يا مدام (قالها بالفرنسية)، وإلا فما المغزى من وراء كل هذا التعقيم وتلك الاحتياطات الأمنية التى فرضت منذ شهر، إذا لم يكن هناك خوف من الإيطاليين؟».

ذافنى: «إذاً بداية من الغد.....» كانت ذافنى على وشك أن تقول شيئاً، ولكنها نهضت من مكانها بسبب انزعاجها مما تفعله هايكى بشكل يثير الاستفزاز، وألقت بمنديلها على المائدة بانفعال شديد، وصاحت: «هايكى، إنك صعبة الاحتمال».

عندئذ اضطّر كوستيس للتدخل قائلاً لزوجته: «توقفى الآن، يا عزيزتى» لكن كان ذلك دون رغبة منه فى إيقافها، وكاد أن يضحك، الأمر الذى أثار غضب أمه. فى تلك اللحظة، أدار أحدهم جهاز الجراموفون، فانبعثت منه موسيقى الفالس ولم يضع كوستيس الفرصة فجذب أمه ووضع يده بطريقة حانية حول خصرها وبدأ يراقصها فى وسط الحديقة.

ذافنى: «ألن تكبح جماحها أم تريدنى أنا أن أفعل ذلك؟» همست ذافنى بذلك فى أذنه وهى فى شدة الغضب.

كوستيس: «الصبر (قالها بالفرنسية)، يا أمى. أعرف أن ما فعلته ليس "لائقاً" (قالها بالفرنسية) منها، ولكن تخيلى لو أنك فى مكانها، فى اللحظة التى نتحدث فيها الآن احتل الألمان وطنها، فى حين أن أمها، التى تعيش وحدها فى باريس، توجد على بعد خطوات من النازيين، وهو أمر ليس بالهين، "أليس كذلك؟" (قالها بالفرنسية)».

- «على أية حال (قالت بالإنجليزية)، هذا الأمر ليس مدعاة لكى تشرب فتاة فى سنها مثل هذا القدر من النبيذ».

- «أعلم أنها تفرط فى شرب الخمر (قال ذلك بالإنجليزية). سأحدث معها، لا تقلقى».

- «إنها ليست الوحيدة التى تعاني من المشاكل. ما الذى ستقوله ماريا وزوج ابنتها. أما وقد دخل الإيطاليون الآن الحرب، فسوف تواجه مشكلة أكبر، لكن ينبغى أن تواجهها بهدوء».

- «أتقولين ذلك لى! انظرى إلى نيكيتاس كيف بدا شاحباً منذ اللحظة التى أعلن فيها إلياس الأنباء السيئة. حتى فاييو بدا عليه الضيق بمجرد سماعه هذه الأنباء. "وبعد لحظات" (قالها بالفرنسية) سينهض ويغادر المكان، ولن أكون كوستيس إذا لم يفعل ذلك».

- «فاييو! لكن ما المشكلة التى ستواجه رجلاً يهودياً معادياً للفاشية بالإسكندرية؟».

- «يهودى نعم، ولكنه إيطالى صميم. على أية حال، الآن وبمجرد أن نعود إلى المائدة، سوف اصطحب ضيوفى من الرجال إلى الكشك. ومن جانبك، حاولى أن تعيدى الأمور بينك وبين زوجة ابنك إلى مجاريها، أرجوك يا أمى، افعلى ذلك من أجلى».

- «سأحاول جاهدة. "أعدك بذلك" (قالتها بالفرنسية)، لكن هيا لنذهب الآن فقد أرهقتنى. فأنت صعب المراس مثل أبيك» قالت ذلك وضحكا معاً.

وحتى يتجنب كوستيس أية مفاجآت غير سارة، عرض على ضيوفه من الرجال أن ينتقلوا إلى "كشك الصداقة". فى نفس اللحظة طلب فاييو، الذى كان يبدو عليه الاضطراب، قبعته وأشار إلى ابنه لكى يرحل. وقد حاول أن ينقذ ماء وجهه، لكن كان واضحاً أن هذا النبأ أفسد عليه متعته أكثر مما سببه له مرض الجدرى الذى أصيبت به ابنته. أما الآخرون فقد غادروا جميعاً المائدة مرحبين، وتبعوا كوستيس إلى الجانب الآخر من الحديقة. حمل كل منهم كأس الشراب فى يده. بينما أسرع خلفهم الخادم المصرى بحركة مضحكة حاملاً زجاجة النبيذ فى وعاء به ثلج.

كوستيس: «ولماذا لم يقم دوتشييه بإعلان الحرب حتى اليوم، طالما أنه قد قرر ذلك كما تقول؟» كان هذا هو السؤال الأول الذى طرحه كوستيس على صديقه "اللبنانى"، بمجرد جلوسهم فى الكشك.

إلياس: «أفى يوم من أيام الأحد؟ لابد أنك تمزح بالطبع! حتى الحرب لها أيام عمل رسمية، "يا صديقى" (قالها بالفرنسية)» أجابه إلياس بينما كانت الخواتم تتلألأ فى أصابعه مرسوماً عليها شعار النبل.

أخذ رجل صناعة السجائر اليونانى النبيذ من وعاء الثلج وصب لأصدقائه باديةً بصديق والده، قائلاً:

- «وماذا تعنى هذه الحرب بالنسبة لنا، يا إيلياس؟ ولا تنس أننا نمد البحرية الإنجليزية بالسجائر».

- «كيف يمكن أن أنسى ذلك، وأنا من أصر على إنهاء هذا الاتفاق مع الإنجليز؟» قال ذلك بينما كان يهز الكأس فى يده بشكل دائرى، ثم استكمل حديثه قائلاً: «فى حالتك فإن الحرب تعنى "نقوداً كثيرة" (قالها بالفرنسية)، كما كانت تعنى بالنسبة لأبيك منذ خمسة وعشرين عاماً مضت».

- «ولكننى فقط كنت أفضل الحصول على المال بطريقة أقل دموية».

- «الحرب والتجارة كلاهما صنوان، هكذا نقول فى بلادنا. كم هى غريبة هذه الحياة!» قالها اللبئانى موضحاً.

- «لماذا تقول ذلك؟».

- «أتذكر اليوم الذى أعلنت فى الحرب العالمية الأولى، كنت وقتها فى القاهرة مع أندونيس وسيستانيس، أتذكر ذلك اليوم، يا أندرياس؟».

- «وكيف يمكن أن أنساه؟» هكذا علق مدير المصنع.

- «فى ذلك اليوم توجهنا إلى القاهرة لتوقيع العقد مع الجيش الإنجليزى. وكنا شباباً فى ذلك الوقت، حيث كان شعرى أسود شديد السمرة، مصففاً بزيت الشعر مما جعلنى أبدو كما لو كنت أرتدى خوذة مثبتة على رأسى؛ أتذكر، يا أندرياس، كيف حاول الإنجليزى المغالاة فى شروط العقد. لكن خاراميس استطاع أن يتغلب عليه»، وعندئذ ضحك الرجلان بعفوية ثم أكمل إيلياس قائلاً: «ماذا تقول؟ فمثل هؤلاء الرجال خلقوا ليصبحوا رجال أعمال. لابد أن تكون فخوراً بأبيك، يا كوستيس».

- «أنا فخور به بالفعل، وأنت تعلم ذلك جيداً».

- «وهو أيضاً كان فخوراً بك».

وعندئذ فكر كوستيس فى شخصيتين شعر أنه يفتقدتهما: والده المتوفى وأخيه،
الذى أصبح وكأنه ميت، ولم يكن هناك من يذكره، ثم قال:
«أحقاً كان أبى فخوراً بى؟ هكذا أعتقد أنا أيضاً على الرغم من أن الأمر لم يبد
لى كذلك».

إلياس: «نعم، وسأقول لك اليوم شيئاً كان قد ذكره لى من قبل، حيث قال: "لو
أن الله قد حبانى بابن مثل نيكيتاس إلى جانب كوستيس!" إنها
الحقيقة يا نيكيتاس، أقولها بكل صدق» قال ذلك إلياس بطريقته
المسرحية التى تجعلك تتسائل إذا ما كان يسخر منك أمام الناس. ثم
استكمل قائلاً: «أما بالنسبة لسيستانيس فلست فى حاجة لأن أقول
شيئاً. فقد جعل منه خاراميس مديراً للمصنع».

وهكذا لم يرغب إلياس أن يشعر أحد بالحزن، حتى إنه أعرب لميسا أن أندونيس
لو كان قد تعرف إليه لأحبه بالتأكيد. فى تلك اللحظة تحركت أوراق شجرة الأكاسيا من
فوقهم وأصبحت كالمروحة الضخمة تمنحهم نسيمات من الهواء وهم جالسون فى
الكشك. وجال بخاطر كوستيس كيف يمتلك هذا الرجل دائماً تلك الموهبة التى تمكنه
من جعل الآخرين يشعرون بالرضا عن أنفسهم. إلا أنه تذكر أيضاً كيف أنه يصر
أحياناً على مغازلة زوجته هايكى، فأراد أن يضايقه قليلاً وقال له:

«أتريد أن تعرف الآن رأى والدى فيك؟ أسوأ مما تظن».

إلياس: «لكنه لم يكن ليفعل أى شىء بدونى».

كوستيس: «بطريقة ما، نعم، لم يكن يستطيع» قالها كوستيس مؤكداً على كلامه
ثم ضحكوا جميعاً. بعد ذلك أحضر لهم كوستيس المنتج الجديد من السجائر
التي ينتجها مصنعها، وهى ماركة "يوليوس قيصر" (ذكرها باللاتينية).

نيكيتاس: «إنها فعلاً سيجارة القياصرة».

سيستانيس: «غريب جداً، لقد أبدى نفس الرأى خبير التذوق بالمصنع» هكذا علق
سيستانيس، الذى صبغ النبيذ بشرته باللون الوردى.

كوستيس: «ها هو عمل يمكنك القيام به، يا نيكيتاس» قال ذلك مازحاً.
نيكيتاس: «نعم، وإلا سأحمل السلاح من جديد فى الحرب التى تنبأ بها إلياس.
لكن يبدو أن الأمور فى هذه المرة مختلفة تماماً. فنحن نواجه الفاشيين
من ناحية، والرأسماليين من ناحية أخرى. فمن نؤيد؟ اللعنة إذن على
هذه الحرب؟».

عندئذ نهض نيكيتاس وأخذ يتجول فى الحديقة. فبعد عودته من الحرب الإسبانية
كان وزنه يزيد من خمسة إلى عشرة كيلو جرامات فى كل عام، ولو استمر بهذا المعدل،
فلن يصبح كائنًا عاديًا.

شعر كوستيس أن فى كلمات ابن خاله تلميحات ضده، وكان لزاماً عليه أن يعتذر له،
وعندئذ قال: «إنه لم يعيش فى برلين التى أقامها هتلر، ولم يرههم وهم يتحولون شيئاً
فشيئاً إلى حيوانات، لذلك تحدث بهذه الطريقة!».

إلى هنا انتهى جو المرح الذى كانت الصحبة تستمتع به، وكذلك نسيمات هواء
الصيف. فقد حاصر الحر والذباب الكشك. وسمع الجميع مدير صوت إحدى الطائرات
فرفعوا بصرهم إلى أعلى.

«لا داعى للانزعاج، إنها مجرد طائرة استطلاع سوف تلتقط بعض الصور وترحل.
لا يوجد ما يدعو للقلق» هكذا قال إلياس. ورغم ذلك، فقد استدار كوستيس قلقاً تجاه
ابنته ذافنى الصغيرة بردائها الأبيض المصنوع من القطن - وفكر كيف كبرت بهذه
السرعة - كانت ذافنى تلعب حول التماثيل فى الحديقة وكانت مس حين، المربية
مترهلة الجسم، تبدو خلفها وكأنها تحاول الإمساك بها. كانت ضحكاتها وصرخاتها
لا تنقطع، وتشعر أنهما فى منتهى البراءة، غير مباليتين بالخطر القادم. كانت صفائر
الطفلة الصغيرة الذهبية نسخة طبق الأصل من والدتها، كما كانت الطفلة نفسها
شديدة الشبه بهايكى، وكان كوستيس سعيداً لأن ابنته قد أخذت نفس جمال أمها.

أما ابنا سيستانيس، فكانا يستندان إلى شجرة الأكاسيا الضخمة وياكلان الآيس
كريم، غير مبالين بما يدور حولهما، فى حين جلست النساء تحت "الشمسية" (ذكرها
باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) الضخمة، وقد انهمكن فى لعب الورق.

أما الخادمة المصرية الشابة التى تدعى فاطمة الخامسة - وهو لقب أطلقه عليها كوستيس - فكانت تقوم على خدمتهم بتقديم القهوة فى فناجين فضية. وكان الأمر غريباً من وجهة نظر كوستيس، فأغلب الخادومات اللاتى يعملن فى هذا المنزل على مر السنين كن يحملن اسم فاطمة أو اسم فوزية. ويبدو أنه قد أصبح على قناعة فى النهاية من أن هذا الاسم الشائع كان بمثابة الكود الثابت فى رابطة الخدم. كانت فاطمة ترتدى قرطاً ضخماً على هيئة هلال يتدلى من أذنيها، وكان يهتز وهى تمشى كبنول الساعة، وتتسم فاطمة (الخامسة) بطول القامة، بيضاء البشرة، ذات شعر أسود وأسنان ضخمة وعيون عسلىة، صدرها ضخم وجسدها ممتلئ، مما جعله يتذكر تجاربة الأولى مع النساء، حيث كانت نظراتها له تثيره بين الحين والآخر.

مع مرور الوقت تأقلمت والدته وزوجته فى حياتهما معاً، حتى صارتا تتبادلان النكات. "هاتان السيدتان ستتعلمان دائماً بالسعادة " هذا ما جال بخاطر كوستيس، مبدئاً ارتياحه لذلك التفاهم بينهما، وقد لاحظ أن هايكى بدأت تتمايل قليلاً، وهى إشارة سيئة على أن النبذ قد أثر فيها. كانت والدته على حق فيما فعلته من قبل، فلا ينبغى على زوجته أن تفرط فى الشراب. وكانت العلاقة الغريبة التى نشأت بينها وبين الخمر فى الفترة الأخيرة تقلقه.

«يقولون كذباً إن الحرب هى مصدر المعاناة، حتى السلام يمكن أن يصبح مصدراً للمعاناة» قال ذلك إلياس وكأنه يقرأ أفكار كوستيس. كان الضابط الروسى جالساً بجواره وهو يتجرع كؤوس النبذ الواحد تلو الآخر كما لو كان يشرب ماء.

استمرت طائفة الاستطلاع فى القيام بدوراتها الاستطلاعية من فوقهم، وعندئذ ألقى نيكيتاس بذلك التعليق الذكى الذى قال فيه:

«إذا ما استطاعت الطائفة أن تصور وجوهنا المرحمة، عندئذ فربما يغير من يقومون بتحليل تلك اللقطات رأيهم فى الحرب التى يستعدون لها».

* * * * *

ويبدو أن أمنية نيكيتاس لم تتحقق، ففي اليوم التالي، يوم الإثنين، العاشر من شهر يونيو لعام ١٩٤٠، دخلت إيطاليا الحرب رسمياً بوصفها حليفاً لألمانيا، ومنذ تلك اللحظة تغيرت أشياء كثيرة في المدينة. فقد أصبح مصير المواطنين الإيطاليين، الذين يسكنون في المنزل المجاور، نفس مصير الألمان: فتحولوا جميعاً إلى أعداء. مشروعات وثروات تم مصادرتها، وأصبح الآلاف رهناً لتحديد إقامتهم، تاركين أسرهم بالكامل تحت رحمة الظروف. كان دانييل (صاحب الحانة) وابنه من أوائل الناس الذين ألقى القبض عليهم، وتم التحفظ عليهم في "المدرسة الفاشية" (ذكرها بالإيطالية) - وهي المدرسة الإيطالية بالإسكندرية التي تحولت إلى ثكنة عسكرية لتجنيد الإيطاليين، وتم تشميع الحانة، كما نال نفس المصير كل من أرستو كالكانى- عامل الصيانة، وكذلك أبناء ماسيمو - صانع القبعات.

اضطر زوج ابنة ماريّا إلى مغادرة البلاد هو وجميع العاملين الإيطاليين، تاركاً وراءه زوجته أوليمبيا وأبناءها الثلاثة. وعندئذ أصبح نيكيتاس متحاملاً على البريطانيين، وهو ما يظهر في قوله:

«من غير المعقول أن يدفع أولئك الذين كانوا يعيشون بيننا حتى أمس في تآلف ووثام ثمن حماقة دوتشييه» هكذا كان يصرخ دائماً. إلا أنه كان على دراية من أنه لم يكن على صواب. ربما كانت الحالة الوحيدة المؤثرة في الإسكندرية هي: حالة فابيو أدريانى، الذى وقع ضحية المبالغة في الإجراءات التى تم اتباعها ضده، حيث تم وضع مدير بنك باكليز تحت التحفظ، ربما بسبب هذا الشبه القوى بينه وبين فالانتينو وبسبب شعره الخفيف الذى جعل الآخرين يطلقون عليه اسم "رودولف الأصلع"، وتم نقله إلى "المدرسة الفاشية" واحتجازه مع بقية الإيطاليين الفاشيين. أما زوجته مارتا أدريانى، أو "مارتا جميلة الإبراهيمية" (ذكرها بالإيطالية)، فكانت فى حيرة من أمرها، حيث تم فصلها من عملها، وعندئذ توجهت ومعها طفلها ليقيموا بعض الوقت مع عائلة خاراميس، حتى قبل أن تشفى ابنتها من آثار مرض الجدري، الأمر الذى جعل كوستيس يعبر عن غضبه لهايكي قائلاً: «لا مانع لدى، ولكننا لسنا بحاجة لأن نلتقط ذافنى الصغيرة عدوى من مرض الجدري؟»

بوركت الجدة ذافنى التى كانت تنتظر للأمر من جانبه الإيجابى، فقالت لابنها: «إنه شر لابد منه (قالت ذلك بالفرنسية)، يا بنى، فتلك الأمراض دائماً ما تصيب الأطفال، ماذا يمكننا أن نفعل؟» ومن ذلك الحين، لم يتذمر كوستيس مرة ثانية.

منذ صيف عام ١٩٤٠، كان لدى كوستيس توجهان يرى أنه لابد من القيام بهما فى كل الأحوال: أن يستمع إلى الراديو بشكل مستمر وأن يدون مذكراته بشكل دائم.

كان أول ما قام بتسجيله فى مذكراته هو أحداث يوم الخميس الثالث عشر من شهر يونيو، حيث دون ما يلى: «مقابلة فى البحرية الإنجليزية، تناقشنا حول إمدادنا لهم بالسجائر. كان إلياس حاضراً، هذا "اللبناني" دائم النفع. طلبوا منى تأكيدات إضافية، فمנحتها لهم، فى تلك الأثناء "دوُنْها بالإنجليزية"، أعلن الألمان أنهم سيدخلون باريس فى الخامس عشر من شهر يونيو، وربما يصلون إليها قبل ذلك. الأجواء فى المنزل تشبه الأجواء الجنائزية. هايكى تبكى على حال أمها طوال اليوم، فلتبك كما تشاء، يكفى أنها لا تشرب الخمر. أتجنب العودة إلى المنزل فى أوقات الظهيرة. أحتاج للهدوء فقد تستمر هذه الحالة لمدة طويلة. أشعر بالحزن تجاه فاييو المسكين، "سأفعل ما بوسعى" (دوُنْها بالإنجليزية) كى أستبدله. على أية حال، دائماً ما يصبح من يتولى منصب نائب مدير بنك باركليز شخصاً مفيداً».

بعد مرور يومين بدأ يدون الحالة الدرامية التى خلقتها الحرب: «أصبحت باريس مدمرة" (دوُنْها بالإيطالية). لحسن الحظ أن هايكى قد استعادت هدوءها بعد أن علمت أن أمها قد غادرت العاصمة الفرنسية. هل ستذهب إلى إسبانيا؟ هل ستأتى إلى هنا؟ غالباً ستفعل المتاح لها أن تفعله. الأمور ما زالت عصبية "لعارضة الأزياء" (دوُنْها بالفرنسية) فالحرب ليست بيتاً من بيوت الموضة والنازيون لا يمزحون.

أخشى أن المزاج قد انتهى. الآن أصبحت الأمور معتمة. بالأمس مر رجل من قوات الدفاع الجوى للتأكد من قيامنا بلصق الورق الأزرق على النوافذ. ووزع علينا أقنعة مضادة للغازات السامة. فى المساء، تظل الشوارع مظلمة عدا القليل من أعمدة الإنارة التى تم دهانها باللون الأزرق، تماماً مثلما حدث مع مصابيح السيارات. لا أحد

يسير بالشوارع. صفارات الإنذار التي تحذر من الهجوم بالطائرات تنطلق مدوية حتى أثناء النهار. بدأت عمليات الإنزال فى الميناء الغربية، البعض يتحدث عن القنابل التي سقطت على الإسكندرية فى منطقة كليوباترا. هل يمكن لأحد أن يتخيل أن الحكومة المصرية قد أعلنت القاهرة "مدينة مفتوحة". إن ذلك يعنى أنها ستظل مضاءة كما هى حتى نهاية الحرب، كما ستظل المطاعم الكبيرة والكباريات التي توجد بالطوابق العليا بالفنادق تتلألأ بالأنوار. كم هم محظوظون هؤلاء القاهريين!«.

فى الثانى والعشرين من شهر يونيو يبدو أن الأمور ازدادت سوءاً، فدوّن فى مذكراته قائلاً:

«يوم آخر مشؤوم. العجز المخرف بيتان اتفق مع هتلر، وإن كنت فى الحقيقة لا أفهم مضمون هذا الاتفاق. لم يكن فى وسع أحد أن يفكر فى ذلك الاتفاق إلا أن يكون مخرفاً أو مجنوناً. والآن ماذا أصبحنا، حلفاء للأوربيين أم أعدائهم؟ وما الذى سيحدث للأسطول الفرنسى بالميناء الغربى؟ فلن يتركهم الإنجليز يرحلون. حدث اليوم تسريح للجيش بالشاطبى. قبل ذلك تحدث المدير العام للمدارس. تم إعلان حكومة وحدة وطنية فى مصر بعد استقالة ماهر باشا».

فى الخامس والعشرين من شهر يونيو، لم تكن الأحداث بمثل هذه إثارة حيث دون فى مذكراته:

«كنت أقرأ دليل الإرشادات فى حالة الهجوم الجوى، وكان يحمل توقيع حسين باشا، القائد العسكرى بالإسكندرية. ومن بين ما ورد فى الدليل الإشارة إلى الاستعدادات الموجودة بالمخابى ومنها وجود "دلو خلف ساتر". طوال يوم كامل كنت أحاول أن أفهم العلاقة بين هذا وذاك. وفى النهاية، فقد حلت لى أُمى هذه المشكلة فى المساء حيث قالت: "لابد أن يكون هناك شىء يساعدنا فى قضاء حاجتنا، يا عزيزى كوستيس! فى النهاية، أنتم يا معشر الرجال ليس لديكم سوى عقولٍ صغيرة....." قالت ذلك ولم تستكمل حديثها، فقد حان وقت الطعام. ويخصوص هذا الأمر (دونها بالفرنسية)، فقد اقترحت هايكى أن نصنع مخبأً خاصاً بنا فى الحديقة، أن نحفر -

كما تقول - حفرة ضخمة ثم نغطيها بالأخشاب والطين. الكل يفعل ذلك ويعتبرونه " أفضل الحلول. لكنى لست مهتمةً بذلك " (دونها بالفرنسية). أكون لدينا العديد من المخابئ ونقوم بإفساد الحديقة؟ " يا لها من حماقة! " (دونها بالفرنسية).

فى تلك الأثناء، أضيف إلينا عبء أسرة فاييو، وبدأ الجميع فى المنزل فجأة يتحدثون الإيطالية. ربما يحدث بيننا سوء فهم؟ أتمنى على الأقل أن لا نكون مضطرين لنظهر لهم مشاعرنا المضيفة لفترة أطول. لقد قررت، وسط كل هذا، أن أخصص مساعدة شهرية لأوليمبيا. كان لابد أن يساعدنا أحد. لكنى شعرت بالحزن للطريقة التى استقبلت به الخالة ماريا هذا القرار، فقد جثت راکعة على ركبتى وأخذت تقبل يدي باكية. إنها فى حالة يأس تام، أعلم ذلك لكنى لست غريباً عنها. كنت أريدها أن تعتبرنى كابنها فهل كانت ستفعل ذلك لو أنى نيكيتاس؟».

فى نهاية الأسبوع كتب كوستيس أولى تأملاته: «نسمع الكثير، لكن هناك شيء واحداً مؤكداً وهو: أن مصر معرضة للتهديد. الشيء الوحيد الذى يصيبنى بالتعب ليس الحرب أو العمل فى المصنع، لكن تلك الهستيريا التى تصاحب المحاولات الدائمة للحفاظ على الحياة الاجتماعية بالمدينة. نحن فى حالة حرب، اللعنة على ذلك! ما الذى يجعلنا مجبرين للعب التنس فى نادى سبورتنج أو ممارسة رياضة التجديف فى الميناء الغربى بين أصوات القنابل. قالت لى صديقة قديمة لأمى أخيراً: "إنكم تمارسون الرياضة منذ زمن طويل" (قالت ذلك بالفرنسية). ما زلت أذكر ذلك. وبالطبع لم أكن أمارس الرياضة، ولكن يبدو أنها خلطت بينى وبين أخى. كانت السهرات وحفلات الكوكتيل تقام كالمعتاد. النوادى مفتوحة، هل لدينا سبب للاحتفال ولا أعرفه؟ أما بالنسبة لباقى الأمور، فمن الأفضل أن لا تكون إيطالياً أو أن تكون من المخربين. أخبرنى نيكيتاس بأن كباريهات الإسكندرية تطرد المجرىات، لأنهن قد ينتمين إلى المخربين. وقد ذكر له أخوه نيكولاس، الذى وجد عملاً فى كباريه "إكسيلسيور" أنه حتى الآن ما زال الإيطاليون يعملون فى الفرق الموسيقية بالمدينة. فى الوقت الذى لا يجد فيه الموسيقيون اليونانيون ما يقتاتون به!«.

فى الثالث من شهر يوليو، كتب كوستيس مرة أخرى بشكل خاص عن ذلك الارتباط المرفوض بين هتلر وبيتان، فقال.

«يتحدث الراديو عن ما يسمى بمشروع "مصر الكبير" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، لن يسعد البريطانيون بمثل هذا المشروع المفزع الذى كلف ألفاً ومائتين من الفرنسيين حياتهم، هؤلاء الذين كانوا منذ أسبوعين ماضيين حلفاء لهم. وفى الإسكندرية يخيم الصمت على الجميع. ربما يكون هذا هو دور الأسطول الحربى الفرنسى الذى يرسو فى الميناء الغربية؟ إذا ما رأينا هذا أيضاً... لقد جن جنون جوندفروا - قائد الأسطول - بسبب المكاسب التى حصل عليها الأسطول الإنجليزى. إلى هذا الحد وصلت الأمور، فليساعدنا الله بمدد من عنده!».

بعد يومين تواردت الأنباء كالتالى:

«بالأمس، تزوج ثونوريس كوتسيكاس من نيسبينا بيناكي فى كنيسة إيفانجيليزموس بحضور البطريرك. بالرفاء والبنين إذن. إن هذا يعنى أنه ما زال هناك أمل عند الناس. ولما لا. فشعار أمى دائماً هو: «حذاء من بلدك يا بنى (٢٠)»، وأنا على قناعة بذلك. أصبحت أمى مغرمة بمبيد رش الذباب "فليت" بالمنزل، بتشجيع من زوجتى اللطيفة، إنهم يرشونه فى كل مكان بالمنزل، وإذا قلت لها: «بهذه الطريقة سنموت نحن أولاً قبل أن يموت الذباب» تجيبنى قائلة (بالفرنسية): «لا تشغل نفسك بما لا يخصك»».

حتى منتصف شهر يوليو لم يكن قد وصلهم أية أنباء عن والدة هايكى، مما زاد من قلقها، وأيضاً من حاجتها لشرب الخمر. وعن ذلك كتب كوستيس:

«لا شئ جديد من جهة راشيل. "للأسف" (نونها بالفرنسية). ما زالت هايكى حزينة، حاولت إقناعها بالخروج من المنزل قليلاً حتى تستطيع النسيان. لكن من الغريب

(٢٠) Παπουτσι από τον Τοπο σου "حذاء من بلدك"، مثل يقوله اليونانيون للإشارة إلى أنه من الأفضل أن يتزوج المرء من إحدى فتيات بنى جلدته، أيًا كانت، بدلاً من أن يتزوج من امرأة أجنبية حتى لو كانت أفضل. (المترجم).

أنها لا تبدى أى اهتمام بحال أبيها! سواء أكان على قيد الحياة أم أصبح فى عداد الأموات. وعلى امتداد السنوات الماضية لم تشر إليه على الإطلاق. ويبدو أن وجود مارتا زوجة فاييو بجانبها يجعلها فى حال أفضل. كما أصبحت لطفلى الصغيرة صحبة طيبة من أبناء مارتا. فى كل صباح نذهب جميعاً للشاطئ للاستحمام، ومن هناك تحضر لى " ذافنولا " (الصغيرة ذافنى) قطع الصخور الصغيرة والصدف من شواطئ سيدى بشر وكيلوباترا وجليم، حتى إنهم يصلون أحياناً إلى شاطئ أبى قير! أول أمس ذكرت لى أمى أن هاكى تجرهم خلفها إلى الكازينوهات لكى تحتسى البيرة. ينبغى أن أحدث معها لأنها ستعرض للخطر. أنا على يقين من أن كبريائها باعتبارها عارضة أزياء لم ينطفى بعد وأنها لن تدع الخمر تذهب بجمالها. وفى حالة أخرى...

فى تلك الأثناء كتب عن أحوال الناس قائلاً:

«بداية من الخامس عشر من هذا الشهر سيبدأ العمل بالتوقيت الصيفى لأول مرة بمصر. يا له من إحساس غريب! وكأننا لا نريد أن يضيع منا اليوم. أعتقد أنهم يفعلون ذلك بسبب قصف القنابل، حتى يشبع الناس من ضوء النهار ويعودون سريعاً إلى منازلهم، قبل أن تبدأ الطائرات الحربية الإيطالية فى عزف موسيقاها اليومية».

فى الخامس عشر من شهر أغسطس لعام ١٩٤٠، قام الراديو بإذاعة صوت المدافع من إحدى السفن الحربية اليونانية من ميناء جزيرة تينوس، هى تضرب طلقاتها احتفالاً بالسيدة العذراء، وعن ذلك كتب كوستيس فى مذكراته:

«كل من عاش فى هذه الفترة أصبح على يقين من أن البحر المتوسط لم يكن سوى بحيرة كبيرة مملوءة بالوحوش. فمن يدر كم عدد الغواصات الإيطالية التى تختبئ فى أعماقه، وهى تتأهب لالتهام فريستها الغافلة. "إن أجلاً أو عاجلاً" (ذكرها بالإنجليزية) سيصبح على الجميع الالتفاف بشكل اضطرارى لمسافة اثنى عشر ألف ميل حول رأس الرجاء الصالح. وسيصبح السفر أمراً فى غاية الصعوبة. ستتزايد خسائر العمل. ولحسن الحظ أننى كنت قد توقعت ما سيحدث فى العامين أو الثلاثة القادمة. ولا أرى سبباً لاستمرار هذه الحالة أكثر من ذلك».

فى الحادى عشر من شهر سبتمبر، سجل كوستيس بعض العبارات التى وردت فى خطاب تشرشل بقناة الـ بى بى سى، ثم علق عليها بقوله:

«يعجبنى ذوق هتلر، ففى هذه اللحظة يبدو أن المدن الوحيدة التى يعتبر أنها تستحق أن يتعامل معها هى لندن والإسكندرية، وهو على حق فى ذلك. وبخاصة بعد أن أصبحت باريس فى قبضته، ولم يكن أهل لندن يبالون بأصوات القصف وكذلك أهل الإسكندرية. فاعتادوا العيش مع أصوات القنابل وفى المساء يخرجون إلى الشرفات لرؤية أضواء القنابل وكأنهم يتابعون عرضاً من عروض الألعاب النارية التى تضىء فوق الميناء الغربية. أعتقد أن هايكى هى الوحيدة التى تخيفها أصوات القنابل، لذلك أجدها تمسك بى ونحن فى الفراش. إننى أتساءل: ما الذى كان يمكن أن يحدث لو لم أكن موجوداً بجوارها فى مثل هذه الظروف. هل كانت ستلقى بنفسها فى أحضان أول رجل تقابله لكى تهدئ من مخاوفها؟».

بعد يومين لم يعد لديها نفس تلك الرغبة الطفولية.

«اليوم الخميس، الثالث عشر من شهر سبتمبر، نهاية الأكاذيب، فقد عبرت القوات الإيطالية الحدود الليبية وتقدموا مائة كيلو متر داخل الأراضى المصرية.» أه، حسناً، إنها الحرب، كما كانت هايكى تقول ذلك (بالفرنسية). فى وقت متأخر من المساء اتصل بى إلياس قائلاً (بالفرنسية): "لا داعى للقلق طالما أن الأمر يتعلق بالإيطاليين". أيا حاول أن يهدئ من روع نفسه؟ على الأقل كانت لديه أنباء سارة بخصوص فاييو. ويبدو أن معاناة مارتا على وشك أن تنتهى (ومعاناتنا نحن أيضاً!).».

مع نهاية هذا الشهر، لم يعد كوستيس منشغلاً بموضوع الحرب. فكتب فى مذكراته: «بالأمس عند الظهر، كانت جنازة ابنة يورغوس. ماتت "بمرض السل" (دونها بالفرنسية)، أصيبت أمها بانهييار، أما والدها فيصارع الموت فى مدينة كوتسيكيو. كيف وصلت الحال بهذه العائلة إلى هذه الدرجة؟ رغم كل ما حدث بيننا، فإنه أمر محزن. ما الذى جناه هؤلاء القدامى فى النهاية من إصرارهم على تقسيم الناس إلى فريقين مؤيدين لفينيزيلوس ومؤيدين للملك؟ لقد مات كل من أندونيس

وثاناسيس، وأصبح يورغوس طريح الفراش بالمستشفى، أما العم ستراتيس فقد أصبح نزيلًا فى مستشفى للأمراض العقلية منذ صيف العام الماضى. وقد كتبت عنه جريدة تاخيذروموس قائلة: " إن المحامى القديم ستراتيس ميخيليس..... ". سنذهب يوم الأحد القادم لمشاهدة فيلم " ريببكا " لألفريد هيتشكوك الذى تعتمد قصته على رواية تحمل نفس الاسم، كما اعتادت أُمى أن تسمى ذافنى دى موريه عندما كانت تجلس معنا على المائدة منذ أربعة أعوام مضت. فى ذلك الوقت كانت ريببكا لا تزال مجرد فكرة فى ذهنها».

كانت الملاحظات التى يدونها كوستيس مع بداية شهر أكتوبر تحمل نفس الطابع:

«منذ اللحظة التى أعلنت فيها الحرب، لا يصلنى سوى أنباء الجنازات. يبدو أن الناس لم يعد لديهم سبب يجعلهم يقاومون الموت. منذ وقت قريب رحل عنا بابافينجوس- المدير السابق للمصنع - بأزمة قلبية. كان المسكين يعانى فى السنوات الأخيرة من مشكلات فى قدميه بسبب وزنه الزائد. وفى النهاية فهو، على الأقل، لم يتعذب كثيرًا.

أول أمس رأيت جيهان بالسوق. تعرفت إليها على الفور من رداؤها الأبيض (المودرن) وقبعتها. كانت تشبه الطائر الذى يستعد للتحليق بعيداً مع كل خطوة من خطواتها. كانت تسير على الرصيف المقابل توقفت لأنظر إليها. كان من الممكن أن أعبر الطريق وأن أتحدث معها. لكنى لم أجرؤ على ذلك، فالناس هنا فضوليون، ستقول لى: "أبعد واحد وعشرين عاماً؟ نعم بعد واحد وعشرين عاماً".»

وبعد مرور يومين دون الملاحظات التالية:

«قامت القوات الجوية للعدو بحملة مساء أمس على الحى اليونانى"، هكذا كتبت جريدة تاخيذروموس. كنا هناك أيضاً. بدأت الهجمات الجوية فى نحو الساعة الثامنة واضطررنا للرحيل قبل موعدنا بساعة، وهكذا لم تستطع هايكى أن تشرب كالاعتاد " (دونها بالفرنسية). عدنا إلى المنزل على الفور، وكان الآخرون قد نزلوا إلى المخابئ.

لكن زوجتى الهولندية بطريقة رقيقة " (دونها بالفرنسية) جعلتنا نصعد إلى غرفة نومنا. كانت أصوات القنابل تدوى وكأنه الرعد يغطي سماء الإسكندرية وكنت أسمع أصوات الشظايا الصغيرة وهى تسقط بالشوارع. كانت الأرض تهتز من تحتنا، والنوافذ تتخبط من حولنا، كان المنزل بأكمله يهتز من أساسه، واستسلمت أمام الشعور الخادع بأن كل ذلك كانت نتيجة إندفاعى الهائل فى علاقتى الحميمة معها^(*). وفى أثناء استمتاعنا بادرث هايكى بإبداء رغبتها فى السفر إلى أوروبا للعثور على أمها فقلت لها (بالفرنسية): "يا لسعادتى" فأجابتنى (بالفرنسية): "أنا لا أمزح". هل جنت أم أنها تدعى الجنون؟ فأخبرتني أن تخرج هذه الفكرة تماماً من ذهنها. فقالت: "ألن تتركنى أسافر، إذن؟"، فأجبتها: "لا، لن أتركك"، فقالت: "حسناً، إذن سأنهض بعد الحرب لأعيش فى فلسطين"، وعندئذ بدا لى أسلوبها مضحكاً فانتابتنى نوبة من الضحك. لكنها أكدت لى مرة أخرى أنها لا تمزح. حقيقة، لقد قالت لى ذلك من قبل، لكن إذا ما سمعته مرة ثالثة فسوف أخذ الأمر مأخذ الجد».

فى الثامن والعشرين من شهر أكتوبر، انزلت كوستيس مرة أخرى للحديث عن الحرب، قائلاً:

«إنه أمر واضح (دونها بالفرنسية)، سوف يبدأ دوتشييه كل حروبه فى يوم الإثنين. يا لها من عقلية موظف حكومى. لا أفهم هذا التفكير الذى يشبه تفكير ربة المنزل. وبغض النظر عن أى شىء آخر، اعتقد أنه لا ينبغي أن يضيع عنصر المفاجأة "دون مزاح" (دونها بالفرنسية)، ها هى اليونان تدخل الحرب، ترى أين ماخوس الآن، وفيما يفكر؟

لدينا أخبار سعيدة بالمنزل. فقد خرج فاييو أخيراً من السجن ومنحوه هوية شخصية خاصة، ولا بد أن يقدم نفسه للسلطات كل يوم، إنها تفاصيل لا أهمية لها. فى المساء تناولنا العشاء معاً. قامت مارتا بطهو الإسباجتى الشهية كنوع من تعبيرها عن شكرنا. لكننا نشعر بالسعادة أكثر لعودة أسرة أدريانى إلى منزلهم. لقد اعتدنا عليهم، مثلما اعتدنا على لغتهم الموسيقية. بعد أن تناولنا الطعام، اصطحبت فاييو إلى

الصالون المصرى وقمنا بتدخين السجائر، بينما جلست هايكى على البيانو وقامت بعزف مقطوعات موسيقية ليست وشويان. وكنت قد نسيت تقريباً أن زوجتى عازفة بيانو بارعة، فقد عزفت عن العزف وقت أن كنا بحاجة لمهارتها. ثم جاء دورى بعد ذلك ولم أستطع الرفض. فقد طلبوا أن أغنى مقطوعتى المفضلة من أوبرا "البلياتشو" لليونكافاللو. لكن يبدو أننى لم أعد أمتلك موهبتى القديمة التى كانت تمكننى من أداء المقطوعات الصعبة ولم يستوعبوا شيئاً. وعندئذ نهضت هايكى بتأثر وطبعت قبلة حانية على وجنتى ثم قالت: "لو ظللت تغنى بهذا الشكل فلن أستمري فى حبك"، ثم رقصنا معاً رقصة الرومبا كما كنا نفعل من قبل فى باريس. عبرت من بين أقدامنا طفلتنا الصغيرة ذافنى. فهل نشبت الحرب فى مكان ما ولم يخبرنى أحد؟».

* * * * *

عندما لم تستطع إيفيت مغادرة الإسكندرية قررت على الأقل أن تترك شقتها الموجودة بشارع السلطان حسين، وانتقلت لضاحية محطة الرمل، حيث اختارت منطقة لوران التى تقع بعد سان ستيفانو لتشتري بها قطعة أرض بالقرب من البحر. وفى نهاية عام ١٩٣٧، استطاعت أن تستقر فى جنتها الصغيرة التى شيدها لها مهندس معمارى إيطالى. كانت فيلتها الجميلة صغيرة ومبهجة وتشبه بيت الدمية. تستطيع أن تنظر من شرفتها الواسعة كل صباح إلى البحر الهائج، الذى يتشابه مع حالتها فى تلك الفترة. وفى واجهة المنزل توجد نافذتان كبيرتان على الطراز القوطى المحبب إلى نفسها، يحيط بهما نقوش مختلفة بأشكال النباتات والأصداف البحرية وجذور الأشجار والكائنات البحرية. كانت الألوان المتناقضة بالطابق الأرضى تشبه التجاعيد المرسومة على بناء حجرى، وتخلق تناقضاً كبيراً مع بساطة بناء الطابق العلوى، وقد تفاوتت ألوانها بين الدرجات المختلفة للون البرتقالى. وفى حديقة الفيلا توجد نخلتان تقفان كحارسين عملاقين يحرسان المكان. ومنذ اللحظة الأولى لإقامتها بالفيلا بدأت إيفيت تفكر فى حلول فصل الربيع وامتلاء الحديقة بالزهور، وقد قام بزراعتها بستانى مصرى نوجه عبوس. لم تستطع إيفيت أن تحضر معها من شقتها القديمة بشارع السلطان

حسين سوى القليل من التحف والأثاث، فاحتفظت بمقاعد من طراز "لوى كينز" (لويس الخامس عشر)، إلى جانب بعض من قطع السجاد فاتح اللون، وقد اختفى الطراز الملكى الغربى أمام قطع الأثاث العربية التى أحضرتها معها. كان إصرار إيفيت على الاحتفاظ بذكرىات شبابها التى ولت بلا عودة، واضحاً فى كل ركن من أركان المنزل؛ أما الشيء الوحيد الذى أوحى لها بالربط بين الماضى والحاضر فهو سيارتها الحديثة ماركة بيجو إكليبس ٤٠١، ذات اللون الكرىمى، موديل ١٩٣٤، تلك السيارة التى كانت تفخر بأنها أول "سيارة رياضية مكشوفة" (ذكرها بالفرنسية) فى العالم.

كلما اقتربت الحرب كلما اتخذ البريطانيون الأمور مأخذ الجد، ولم تكن قليلة تلك المرات التى تم استدعاؤها فيها للحديث مع مستر "فويس" فى المنزل الكائن بشارع يانج، وهو أمر كان من الواضح أن إلياس قد فعله من قبل. وكان لديها انطباع أن "اللبنانى" قد وقع مكرهاً - قبل الحرب بوقت قليل - تحت ضغط المخابرات البريطانية بسبب أصوله العربية، مما تطلب قيامه بلعب دور مزدوج من أجل الحفاظ على مكانته. وكثيراً ما طلب منها إلياس أن تشير إليه بطريقة إيجابية عند حديثها معهم، وهو ما جعل إيفيت تشعر بأن الاتزان فى علاقتها مع إلياس قد عاد عليها بالنفع. ولم تنس أبداً أن شعورها بالوحدة بالإسكندرية فى عام ١٩٤٠، سيصبح لا يطاق بدون إلياس، فالآن لم يعد هناك خاراميس، كما لم يعد هناك من يستطيع أن يملأ الفراغ الذى تركته روكسانى وماريانثى، وفى نفس الوقت لم تعد لديها الثقة فى أى شخص يعمل فى بيت البغاء بشارع مصطفى باشا. كان عليها أن تقوم بتغيير الفتيات من وقت لآخر، لأن الغرض من وجود المنزل قد تغير تماماً مع بداية الحرب، مثلما تغيرت نوعية المترددين على المنزل. فقد أصبح الهدف من وجود المنزل هو الترفيه عن ضباط الجيش الكبار بالقوات المتحالفة التى كانت تمر بالمدينة، فى حين كان جمع المعلومات يأتى فى المرتبة الثانية. ومن أجل مساعدة كل من الجيش والبحرية الإنجليزية، كان على إيفيت أن تضمن توفير الهدوء والأجواء الخالية من أية عناصر نسائية تقوم بالتجسس لصالح

الأعداء. ولهذا السبب كان عليها أن تقلل من عدد الفتيات القادمات من المجر أو فنيسيا، أو من يمكن أن تكون عرضة للشبهات، كل هؤلاء الفتيات تم الاستغناء عنهن واستبدلن بأخريات من اليونان وقبرص ومالطة، لكن حتى هؤلاء كان يتم استبدالهن كل فترة لأسباب أمنية. قامت إيفيت كذلك بزيادة عدد الخادמות بالمنزل، لكن كن سريعاً ما يزدن وقاحة مع مرور الوقت، في حين أصبح جعفر عجوزاً، وفقد هيئته المهيبة. لقد أصبح وجود مدام إيفيت ضرورياً أكثر من ذي قبل، حيث كثيراً ما كانت تجد نفسها في موقف صعب، فالضباط الكبار لم يعودوا شباباً كما كانوا يظنون أنفسهم، حتى إن بعضهم قد لفظ أنفاسه الأخيرة على فراش المتعة. واقتصر دور الدكتور برايس على التأكد من وفاتهم. وكانت المشكلة تكمن في كيفية تفسير الأمر لأسرهم وزوجاتهم، لكن بمباركة من القيادة العسكرية البريطانية كان يتم تشخيص موتهم بأنه حدث في أرض المعركة.

وكان ذلك لم يكن كافياً، فقد طلبت منها القيادة البريطانية أن تتولى تنظيم نادى قوات الحلفاء فى "بالاي كارام"، ذلك البناء الضخم الذى يقع فى شارع كورينثوس، مما جعلها تتصل بإلياس تليفونياً وتطلب مقابلته فى مطعم "باستروذيس" فى إحدى أمسيات شهر نوفمبر. ولكن "اللبنانى" أبدى اعتراضه قائلاً:

إلياس: «نعم لتتقابل، لا اعتراض على ذلك، ولكن فى "باستروذيس"! حيث يتواجد صفوة المجتمع بالمدينة و...».

إيفيت: «ومن الممكن أن يتحدثوا عنك!» هكذا أكملت إيفيت ما دار بتفكيره. وعندئذ تفوه بكلمة عربية مما زاد من ضيقها، وقالت: «ليس من الضرورى فى كل مرة تقع فيها فى مأزق، أن تبدأ الحديث باللغة العربية».

ثم ساد الصمت للحظات أخذت إيفيت بعده نفساً عميقاً، وعندئذ أجابها إلياس متبرماً (باللغة الفرنسية):

«حسنًا، حسنًا، غداً فى الخامسة مساءً فى "باستروذيس" لقد دونت ذلك».

وفى اليوم التالى تأخر إلياس عن مواعده، بينما كانت إيفيت تنتظره فى الجزء المخصص لتقديم الحلو، وكانت تلقى نظرة بين الحين والآخر فى اتجاه المطعم - حيث كان يتم تقديم شأى المساء - فربما يكون إلياس قد أخطأ فى المكان. فى نفس الوقت كانت تتأمل اللوحات المعلقة والديكور الخشبي الحديث. وتذكرت إيفيت أن هذا المطعم كان قد افتتح بعد موجة هجرة اليونانيين من السواحل التركية، ومنذ ذلك الحين أصبح المكان المفضل الذى تلتقى فيه طبقة اليونانيين الأرستقراطيين.

عندما وصل إلياس كانت ساعة الحائط تشير إلى الخامسة والرابع، فعاتبته إيفيت قائلة:

«لا أريد أن أظل فى الشارع حتى حلول الظلام».

إلياس: «هل مازلت تخشين الطيارين الإيطاليين؟ لقد أدرك الجميع أنهم عاجزون!». هكذا أجابها بينما كان يخلع الباطو الطويل الأسود والصديري الحرير ليعطيه للعامل بغرفة حفظ الملابس.

إيفيت: «إنك مخطئ فى ذلك، فلأنهم عاجزون ينبغى عليك أن تخشاهم. ألم تر ما فعلوه فى اليونان؟ إنهم لا يحاربون سوى الشعوب المسالمة».

تظاهر إلياس وكأنه لم يسمع شيئاً وأشار للجرسون ليأخذ طلباته. كان المكان يعج بالناس فى ذلك الوقت. معظمهم من اليونانيين. وكأنها أجواء احتفالية. رفع إلياس قبضة يده المضمومة مرتين أو ثلاثاً وكأنه يرفعها تشجيعاً.

- «ظننت أن هذه الحرب كانت تخيفك، لكن تبدو وكأنك سعيد بكل ما حدث فى الشهور الأخيرة»

- «سيدتى العزيزة (قالها بالإنجليزية)، كل ما كان ينبغى علينا أن نفعله مع الإيطاليين يجعل هذه الحرب المخيفة تبدو وكأنها نوع من المزاح».

نظرت إيفيت إلى شاربه رمادى اللون، ثم انحنت تجاهه وهمست قائلة:

«إذا كنت تصر أن تصبغ شعرك، فلا بد أن لا تنس شاريك. وإلا سيصبح شكك "مضحكاً" (قالتها بالفرنسية)».

بدا وكأن إلیاس قد تضایق للحظة ثم قام بحركة واحدة بإخفاء شاربیه خلف كف یده وسألها:

«ما رأيك الآن؟» ثم انفجر ضاحكاً.

لكن إيفيت أكملت كلامها دون تردد:

«بالإضافة إلى ذلك (قالت ذلك بالفرنسية) فأنا أعتقد أن الخواتم التي بإصبعك ليست في حاجة إلى خاتم آخر، يا عزيزي. إنك بهذا تتمسك بطابعك الشرقي».

- «أرجوك، يا إيفيت، إنك تصرين في كل مرة أن تعكري صفوي»، ثم فتح أزرار بذلته وبدأ وكأنه يستعد للدخول معها في نزال. «مهما يكن من الأمر» (قالها بالفرنسية)، فكل منا لديه ما يثير السخرية. أنت أيضاً في كثير من الأحيان تعطيني الانطباع بأننا نعيش في «الزمن الجميل» (قالها بالفرنسية). إصرارك على ارتداء الملابس الطويلة، والقبعات الكبيرة وكل ما يشبه ذلك يجعلك تتخطين حدود البساطة».

- «ربما يكون معك حق، يا إلیاس. ربما تتنابني دائماً الرغبة في العيش وكأنتي مازلت في الخامسة والعشرين من عمري. لكن السنين مرت وأصبحت الآن على أعتاب...!».

عندئذ أسرع إلیاس باستكمال حديثها قائلاً:

«الثلاثين» قال ذلك وقد علت وجهه ابتسامة لها مغزى، ثم أمسك يديها وضحكا معاً، وأخذاً ينظران كل منهما للآخر نظرة عاشقين، وعندئذ علقت إيفيت قائلة:

«يا لك من رجل رقيق القلب» قالت ذلك (بالفرنسية) وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل. في حين دبّت في وجهه نضارة الشباب، مما دفعه لأن يعترف لها قائلاً:

- «إنك المرأة الوحيدة التي مازالت تؤجج بداخلي الرغبة بعد كل تلك السنين».

- «أوه، كف عن هذا، يا إلیاس» قالت ذك (بالفرنسية) وهى تشعر بالإطراء، وكادت أن تلقى بنفسها بین أحضانها أسرعت و غیرت من نبرة صوتها بتلك القدرة التى تمتلكها النساء للهروب من مثل تلك المواقف وقالت: «أحتاج لمساعدتك».

- «هل حدث شئ بالفیلا؟» قال ذك، ثم أخرج علبة السجائر من جيبه وقدم لها سيجارة وقداحة. لاحظت إيفيت أن تبغ السيجارة قوى، فسألته: «ما نوع تلك السيجارة؟».

- «یولیوس قیصر (نُونها باللاتينية)، الإنتاج الجديد لمصنع خارامیس. إنها سيجارة للقيصرة».

بدى على إيفيت الإعجاب الشديد بالسيجارة بقدر إعجابها بالزوجين اللذين دخلا من باب المطعم، ثم قالت:

- «وها هو مبدع هذه السيجارة!» قالت ذك بعد أن تعرفت إلى ابن المرحوم أنطوان.

- «أتعرفین كوستیس؟» تلثم إلیاس فى سؤاله وقد بدا علیه الانزعاج.

- «اهدأ، فأنا أتذكره منذ جنازة أبيه».

- «إنهم لم یرونا. سيجلسان فى القاعة الأخرى، هذا أفضل بكثير» قالها بالفرنسية).

- «هيا إذن، لا تقل ذلك. فأنا لم أعد عشيقة أبيه. من تلك الحسنة التى بصحبته؟».

- «إنها زوجته، امرأة جميلة أليس كذلك؟ إنها عارضة أزياء سابقة ببيت شانيل للموضة».

- «هل هى أطول منه أم يهیؤ إلى ذلك؟».

- «لا، إن ذلك فقط بسبب تلك الوقفة المستقيمة التي اعتادت عليها الموديلات ويخدعونك بها»

- «لقد سمعت أن الابن الأصغر لأنطوان كان الطفل المدلل للأسرة».

- «نعم، إنه العنزة الجرباء» هكذا علق إلياس (بالفرنسية) ساخراً.

- «عذراً!».

- «إنه كالشاة الشاردة بالعائلة، فهو من مؤيدى هتلر، كما أنه شاذ جنسياً».

- «لقد سمعت شيئاً من هذا القبيل، مسكين أنطوان فمثل هذه الأمور تقتلك حقاً. ولكن أين هو الآن؟».

- «معلوماتى تقول إنه فى أثينا يعمل فى خدمة نظام ميتاكساس، لكنه فى حقيقة الأمر رجل الألمان».

- «إنها أسرة ملعونة بعض الشيء، ألا تظن ذلك؟ وأين ابنه الثالث؟ هذا الذى يقولون إنه شبيه أندونيس».

- «أه، لقد مات منذ سنوات. حادث سيارة فى الريفيرا بفرنسا».

- «نعم، بالطبع، الآن تذكرت شيئاً من هذا القبيل. لقد ألمح البعض أن كوستيس كانت له علاقة بموته».

- «هذا ليس صحيحاً على الإطلاق (قال ذلك بالفرنسية). ليست لكوستيس أية علاقة بهذا الأمر» هكذا أسرع إلياس بالتأكيد على ذلك.

- «يبدو لى أنك تحب الابن أكثر من حبك لوالده».

- «إنه شخص ذو قدرات جيدة ونشيط. حاد الذكاء! عندما تولى إدارة المصنع، كان الجميع يراهنون على أنه سيفسد الأمور. لكنه سار بشكل رائع».

- «لقد اختار شريكة حياته بنفس الطريقة الرائعة. هذه الفتاة تذكرني بنفسى فى ريعان شبابى. "هذه حقيقة" (قالتها بالفرنسية)، فالابن يستحق التهنئة على اختياره. لقد حرص على الاستمتاع بشكل شرعى بما كان يستمتع به أبوه بشكل محرم. دائماً ما يكون الجيل التالى أكثر ذكاءً من الجيل الذى يسبقه، أتخيل أنك تقوم بمغازلتها بإصرار، يا إلياس، أليس كذلك؟».

- «تعلمين أننى رجل رقيق القلب، يا عزيزتى" (قالها بالفرنسية)».

- «ولأننى أعرف ذلك جيداً، فقد قلت ما قلت، لكن على أية حال" (قالتها بالإنجليزية) هناك غرض آخر من لقائنا».

- «هل أنت فى عجلة من أمرك؟» (قال ذلك بالفرنسية).

- «قلت لك إننى لا أرغب فى البقاء فى الشارع بعد حلول الظلام».

- «إذن فانا أسمعك، هل حدث شىء ما فى الفيلا؟».

- «لقد سألت نفس السؤال من قبل. ما الذى يمكن أن يحدث فى الفيلا؟ المشكلة تكمن فى مستر "فويس"، أعتقد أنها ليست فكرة جيدة أن ألتقى به بشكل مستمر».

- «لقد قلت لك ذلك من قبل. فالكثير من الأنباء المسموعة تخلق العديد من المطالب».

- «بشكل لا تتخيله».

فى تلك اللحظة كان الجو الاحتفالى فى مقهى "باستروڤيس" قد بلغ ذروته، وبدأ كل الزبائن يهللون مبتهجين، وقد رفع البعض منهم كأسه عالياً وأخذوا ينفرون بعضها بعضاً وهم يصيحون "هواء". تبع ذلك التلويح بعلم اليونان ثم التصفيق الحاد. كما اختلطت "الطرايش" بالقبعات التى ألقيت عالياً. وعندما توقف هذا العرض فجأة، أخذت إيفيت تشرح لإلياس كيف أنه بجانب كل تلك الأمور فقد كان لزاماً عليها أن تتولى الإشراف على نادى قوات التحالف، مما يعنى الإشراف على تأثيثه، وتجهيزه

بمكتبة صغيرة، وإعداد مكان لتقديم الشاي والقهوة للضباط، وأيضاً إعداد الحفلات. عندئذ أبدى إلياس اندهاشه من هذه الأنباء التى يسمعا لأول مرة، وقال:

- «هذا يعنى أن الإنجليز يعتمدون عليك بشكل كبير، يا إيفيت. "هذا ليس سيئاً، هذا ليس سيئاً" (قال ذلك بالفرنسية)، وبالطبع سوف يكون هناك مقابل لجهودك، "أليس كذلك؟" (قالها بالفرنسية) إن "بالاي كارام" ليست مجرد شقة صغيرة بل قصر كبير. كيف تفكرين إذن فى إعدادها؟».

- «لا أدرى، لهذا فكرت فيك، ومن لى غيرك، فجميع الإنجليز فى المدينة أصدقاؤك».

- «وأؤكد لك أنهم كثيرون، لكن هناك أندية كثيرة انتشرت بالإسكندرية فى الشهور الأخيرة، فبأى منها يمكن أن نبدأ؟».

- «هيا إذن، يا مستر خورى (قالت ذلك بالإنجليزية)، فلك أسلوبك، وسوف أحرص على أن يعلم أصدقاؤنا مدى تعبك من أجلهم. إنها فرصة لكى تبدو مفيداً للقيادة».

- «سوف أرى ما الذى يمكننى أن أفعله. ففى مثل تلك الحالات لا يتأثر فقط العظماء من أهل الإسكندرية، ولكن تتأثر أيضاً نساءهم. لا تندهشى إذا ما رأيت على القوم من النساء وهن يقدمن الشاي والمشروبات للجنود بل ويتعدى البعض منهن أحياناً حدود الضيافة المتعارف عليها، هكذا ستشعرين أحياناً أنك مازلتِ تعملين فى إدارة بيت البغاء».

فى تلك اللحظة كانت مشاعر اليونانيين الوطنية قد وصلت إلى أوجها، وكانت تلك هى أنسب لحظة لمغادرة المكان، فى نفس الوقت كان الظلام قد طمس ما تبقى من أشعة الشمس فى سماء الإسكندرية. عرض عليها إلياس أن يقوم بإعادتها للمنزل بسيارته. كانت الأجواء فى الشوارع المعتمة مختلفة تماماً. وكأن الظلام قد ابتلع المارة واحداً تلو الآخر، وكان المدينة المعتمة أصبحت تشبه الأذن المنتبهة التى تسمع وترى.

* * * * *

بدأ نادى قوات التحالف فى العمل مع نهاية عام ١٩٤٠، وكانت أولى سيدات المجتمع الراقى التى عرضت خدماتها هى السيدة هايكى خاراميس رويسيندال. لم يهدأ بال كوستيس بسبب التفكير فى كيفية قيام زوجته الجميلة طواعية بالخدمة فى المبنى الذى يقع فى شارع كورينثوس، أمام تلك الأعين الجائعة للجنود الذين سوف تقدم لهم المشروبات والقهوة. لكنه كان يفضل أن يشعر وحده بالألم تجاه ذلك بدلاً من أن يمنحها العذر لكى تدعوه "غيراً" (ذكرها بالفرنسية)، وأخذ يعض على شفتيه بكل غيظ. وفى الحقيقة، فقد ناقش الأمر مع والدته، لكنها حاولت بسذاجة أن تهدئ من روعه قائلة: «إن هذا أمر طبيعى. فكل سيدات "الطبقة الراقية" (قالت ذلك بالفرنسية) لابد أن يساعدن فى النوادى. فلم لا تشارك زوجتك أنت أيضاً فى ذلك. فكر فى مدى المعاناة التى يشعر بها الجنود البائسون فى جبهات القتال. إنهم بالتأكيد بحاجة إلى نظرة عطف أو إبتسامة حانية». لم يختلف كوستيس فى ذلك مع والدته، فالجنود العائدون من جبهات القتال بحاجة ملحة للرعاية. وبالتأكيد فإن نظرة أو ابتسامة من امرأه مثل زوجته كانت ستعطى معنى لبطولتهم وإنكارهم لذاتهم. لكن لماذا كان من الضرورى أن تتولى زوجته - شاء أم أبى - هذه المهمة؟ هو نفسه لم يتعرض لهذا الأمر المؤلم بالكتابة فى مذكراته. كانت هناك إشارة وحيدة وغير مباشرة قام بها فى ديسمبر من عام ١٩٤٠، بعد أيام قليلة من بداية هايكى فى الاشتغال بالنادى فى فترة المساء، حيث كتب:

«هذا ما يحدث دائماً: إنها مشاعر طبيعية تماماً تلك التى نحاول كبثها، لأننا نعلم أن الآخرين سيغيرون رأيهم فينا وربما لم يكن الأمر كذلك؟ ربما كانت فكرتنا عن أنفسنا هى التى تخيفنا؟ وفى الحقيقة أنا لا أدري ماذا أفعل، فلدى ما يكفينى من المشكلات فى السنوات الأخيرة. لكن هل كان يجب أن تضاف إليها مشكلة أخرى؟».

لقد بدا واضحاً أن كوستيس قد فقد اتزانه، وإلا لم يكن ليتصل تليفونياً بإلياس طالباً منه النصيحة. كان يشعر أنه كالمريض البائس الذى يذهب من طبيب إلى طبيب طلباً للمزيد من الآراء. على أية حال، فقد حاول "اللبنانى" تهدئته - مثمناً فعلت أمه - قائلاً:

«لا تقلق (قالها بالفرنسية)، يا عزيزى. هناك العديد من السيدات اللاتي يقمن برعاية الضباط والجنود الشجعان. لو أن الأمر كما تظن، فسوف تغلق أغلب المنازل بالإسكندرية. فالشعور الخاطي للرجال المحرومين هو الذى نقوم بدورنا بتغذيته. ولكي يهدأ بالك سأخبرك بالآتى: لى صديقة مخلصة تخدم فى نفس النادي، ولن يضيرنى أن أطلب منها أن تنتبه جيداً وأن تبلغنا بكل صغيرة أو كبيرة قد تحدث، وسأمر أنا بنفسى من وقت لآخر لمتابعة ذلك. لا داعى إذن للقلق، يا صديقى العزيز».

ورغم ذلك، فقد ازداد شعور كوستيس بالقلق، فعندما أنهيا المكالمة قال لنفسه:

«ما الذى فعلته، هل أتيت بالذئب ليرعى الغنم؟ فليسامحنى الله».

كان الشيء الوحيد الجيد فى هذا الأمر هو: ابتعاد هايكى بشكل مؤقت عن انفعالها تجاه قضية فلسطين، تلك القضية التى كانت تشغلها فى فترة ما قبل الحرب. كان كوستيس أيضاً يريد أن يصدق أن زوجته لم تكن تحتسى الشراب أثناء عملها فى النادي، لكن أمه نصحته بأن لا يكون على ثقة تامة من أنها أقلعت عن ذلك تماماً.

فى تلك الأثناء، كانت المشكلات التى سببتها الحرب تتضاعف يوماً بعد يوم، تتصدرها مشكلة نقص الورق، تلك المشكلة التى ظهرت منذ الشهور الأولى للحرب. وكانت الطلبات المتزايدة للبحرية البريطانية للسجائر سبباً فى زيادة مكاسب المصنع، لكن فى نفس الوقت بدأ مخزون الورق والدخان ينفذ شيئاً فشيئاً، ثم جاءت حادثة اشتعال النيران فى أحد مخازن الورق لتزيد من حجم المشكلة. عندئذ قرر كوستيس أن يطلب المساعدة من عملائه، وعندما علم الأدميرال كانيجام بالأمر، طرق بقبضة يده على المائدة وقال معلناً: «بدون سجائر سوف نخسر الحرب. وإذا لزم الأمر فسوف نقوم بإرسال نصف الأسطول إلى البحر المتوسط لتأمين وصول الدخان لمحاربينا الشجعان». كان هذا ما قاله الأدميرال ونفذه بالفعل. فقد قامت مجموعة من السفن الحربية بحراسة الناقلتين البحريتين اللتين كانتا تنقلان شحنات الدخان والورق من شمال اليونان ومن السواحل الروسية. وقد تمت تسمية هذه العملية التى كللت بالنجاح فيما بعد باسم "يوليوس قيصر" تكريماً لآخر ماركات السجائر التى دفع بها

خاراميس إلى الأسواق. كان أصحاب هذه العملية يتبعون توقيتاً زمنياً محدداً في التنقل "من جزيرة إلى جزيرة" (ذكرها بالإنجليزية) في محاولة منها لتجنب الخروج إلى البحر المفتوح والتعرض لخطر القصف من قبل الغواصات الإيطالية. وكانت الوجهة الأخيرة هي قناة السويس وميناء بور توفيق حيث تم تفريغ حمولة السفينتين ومن هناك تم نقل البضائع عبر السكك الحديدية إلى مخازن المصنع. ظلت عملية "يوليوس قيصر" سرية، وقد تعرض كوستيس بسببها فيما بعد لاتهامات من منافسيه الذين لم يجدوا تفسيراً لمخزونه الذي لا ينفد، واتهموه بأنه يقوم بتصنيع السجائر من التبغ الياباني والصيني. عندها إضطر كوستيس للرد على هذه الاتهامات بردود نشرت في الصحف التي كان ينشر فيها دائماً إعلانات للترويج للسجائر التي ينتجها مصنعها، مؤكداً أن سجائره لا يوجد بها خليط من أى تبغ صيني أو ياباني. كانت ماركة "خاراميس" تقف دائماً على قمة الهرم في إنتاجه، حيث تباع العلبة الواحدة منها بسعر ثمانية قروش، يليها ماركة "كليو إسبسيال" ذات الفلتر الذهبي، وفي المرتبة الثالثة تأتي ماركة "يوليوس قيصر" التي تباع بسعر يتراوح بين ستة وسبعة قروش.

في نفس الوقت، كان كوستيس يواجه مشكلات أخرى والتي كان على ثقة من أن وراءها منافسيه. فقد استغل البعض الهستيريا التي تسيطر على الإنجليز تجاه الشيوعية - تلك الهستيريا التي جعلت الإنجليز يأخذون احتياطاتهم الأمنية لمنع وصول هذا التيار إلى مصر - فاتهموا كوستيس بأنه عضو بخلية شيوعية تدبر للقيام بانقلاب ضد الملك فاروق وأعلنوا أن العقل المدبر لهذه المؤامرة الشيوعية هو الروسي ميسا فرويانوف! ولذلك فقد أصبح موقف ميسكيه - صعلوك باريس القديم - سيئاً.

في وقت الحرب، لم يكن الإنجليز في وضع يسمح بالمزاح، أما كوستيس الذي لم يكن يتردد في اللحظات الحرجة من القيام بفعل ما لا يصدق عقله، فقد أقدم على عمل مثير للدهشة حتى يتجنب الوقوع في أية مشكلة، حيث أجبر ميسا على إخراج زيه العسكري الخاص بالجيش الأبيض الذي كان يحفظه في النفتالين وارتدائه بكل ما يعلوه من أوسمة ونياشين أمام لجنة التحقيق. لكن يبدو أن هذه القضية كانت لها جذور

أعمق حتى إن إلياس، الذى تدخل لصالح كوستيس، اكتشف أن ذلك الاتهام الموجه لكوستيس بعضويته فى خلية شيوعية كان قد تم إعداده منذ عامين فى مكاتب السفارة اليونانية بالقاهرة على يد شخص كان يعرف كوستيس - رجل صناعة الدخان اليونانى- جيداً فى الفترة التى كان يعيش فيها فى أوروبا. وهكذا علم الإنجليز بأمر علاقته بالشيوعى كارل فويتير، كما علموا بالطبع بأمر ابن خاله نيكيتاس وشريكه الراحل برندراك إيفيتس، اللذين " انضما للفكر الشيوعى وحاربا دفاعاً عن ستالين فى القوات العسكرية بإسبانيا ".

ثم جاء دور نيكيتاس، فقامت الشرطة المصرية بالقبض عليه فى شقته بعمارة باب سيدرا ووضعتة قيد الحجز فى سجن كوم الدكة. طلب كوستيس للمرة الثانية مساعدة الأدميرال كانيجام. تقبل القائد البريطانى بكل سرور دعوة كوستيس لتناول الطعام فى شارع العباسيين، وقد لى الدعوة مرتدياً زيه العسكرى الأبيض. كان الأدميرال رجلاً طويل القامة، ممشوق القوام، ذا خصر نحيل؛ وكان لا يكف عن الابتسام مظهرأ أسنانه البيضاء دون أن يؤثر ذلك على هيئته ومركزه العسكرى. وبعد أن تناولوا معاً الطعام اتجه الرجلان إلى الصالون المصرى الطراز ليتناقشا أثناء احتساء البراندى وتدخين السجائر. قام كوستيس بمصارحة " الزبون " (هكذا كان كوستيس يطلق على كانيجام) بأنه لو كان هناك شىء يخل منه " فهو هذا الجو الملىء بالود بينهما " بقدر خجله من موقف أخيه ماخوس، الذى يعد من أنصار هتلر وتابعاً مخلصاً لروبولف إس؛ وكان كوستيس يتعجب كيف يصب البريطانيون الذين يعلمون حقيقة الرجل " (نكرها بالإنجليزية) كل اهتمامهم على تلك الشائعات المختلفة التى تهدف لتوريطة هو ومصنعه.

عند هذه النقطة قاطعه الأدميرال قائلاً:

«حسناً (قالها بالإنجليزية)، لم تكن لدينا الرغبة أن يحدث ما حدث فى موقف كهذا. "وفى حقيقة الأمر" (قالها بالإنجليزية)، نحن نعتمد إلى حد كبير فى تحقيق النصر على ما تمدوننا به من سجائر». وقد ثبت أن هذا لم يكن هو السبب الحقيقى

الذى جعل الضابط البريطانى يستمع بدقة لمصارحة كوستيس، لأنه عاد مرة أخرى واستكمل حديثه عن التنس، حيث قال:

«لقد نما إلى علمنا أنكم بارعون فى لعبة التنس».

كوستيس: «ليس بهذه البراعة التى تظنونها (قال ذلك بالإنجليزية)، لقد أصبحت شهرتى فى لعبة التنس بالإسكندرية ضرب من الماضى».

كانيجام: «على أية حال (قالها بالإنجليزية)، البعض يرى " أنه من الممتع" (قالها بالإنجليزية) اللعب معكم مباراة فى التنس، مثل الأدميرال الفرنسى "على سبيل المثال" (قالها بالإنجليزية)»، قال ذلك وقد بدت عينيه الضيقتين وكأنهما تشعان بالخبث.

- «نعم، المسكين السيد جوندفروا. فلم يعد أحد يرغب فى اللعب معه. وفى ذلك ظلم حقيقى، أنتم تعلمون أنه يكن مشاعر خفية تجاه البريطانيين، كما أن زوجته، إن لم أكن مخطئاً، سيدة إنجليزية، ولهذا معنى كبير».

- «نعم، إلا أن السيد الأدميرال لم يحاول أن يثبت مشاعره بطريقة عملية ويضعنا دائماً فى موقف حرج، ولعلكم تفهمون ما أعنيه».

- «بالطبع (قالها بالإنجليزية)، وهو أمر ليس بالهين بالنسبة له. فكيف يمكنه أن يتخذ قراراً مهماً وحده؟ لكن لماذا أشرتُم إليه؟ ربما كان من الواجب أن أتوقف عن التعامل معه؟».

- «بالعكس (قالها بالإنجليزية)، فقد كنت على وشك أن أقترح عليك أن تجعل علاقتكما أكثر قريباً، فربما استطعتم بهذه الطريقة أن تقدموا خدمة عظيمة لمركتنا ضد هتلر».

- «لحظة واحدة من فضلك (قالها بالإنجليزية)، هل تعنون أنه ينبغى على أن.....».

كانيجام: «لا، يا صديقى (قالها بالإنجليزية)، ليس من اللائق أن أطلب منكم أمراً كهذا» ثم ضغط برفق بأسنانه على شفته السفلى، وأضاف قائلاً: «فالعلاقات الإنسانية ببساطة تدفئ القلوب بطريقة قد تتخدع بها. ولا بد أنكم لاحظتم أننا تحدثنا فى هذا الأمر أكثر مما ينبغى. إنها لحظة ضعف عادة ما نندم بعدها. فإذا ما شهدتم يوماً مثل هذه اللحظة فى حديث الأدميرال الفرنسى، ساكون فى غاية الامتنان لو أبلغتمونى بذلك».

كان كوستيس يتخيل بوابات سجن كوم الدكة وهى تفتح من أجل نيكيتاس، ولكنه فضل أن يظل صامئاً إلى أن سمع من سير أندرو كانيجام تلك الجملة السحرية: كانيجام: «وبالطبع، سيكون هناك مقابل لذلك!».

* * * * *

منذ اليوم الأول الذى انتقل فيه كوستيس وهايكى للإقامة بالإسكندرية، انتابها انطباع دائم بأنه يتجنب الحديث معها، وقد أصابها الضيق لذلك. إلا أنها كانت فى أعماق نفسها على يقين من أن زوجها يهتم بها، كما كانت على علم، أو ربما كانت تظن، أنه كان مضطراً دائماً للدخول فى معارك كبيرة، فى محاولة منه للحفاظ على إمبراطورية أسرته الاقتصادية التى كانت تواجه شبح الانهيار منذ اللحظة التى رحل فيها أبوه عن عالم الصناعة قبل ثلاثة أعوام مضت. كانت هايكى قد استعدت نفسياً لمثل هذا الاحتمال من خلال كل ما ذكره كوستيس لها فى باريس، ربما من أجل إبهارها؛ فواقع الثروة والرقى الذى وجدته فى مصر جعلها تشعر دائماً بالحنين لحياتها الهادئة فى العاصمة الفرنسية. حتى مولد طفلتها الصغيرة ذافنى لم يكن كافياً لمحو مثل هذا الشعور. قد يقول قائل إن امرأة مثلها كانت تعمل بوصفها موديلاً فى كوكو شانيل، ربما تشعر بنوع من الإهانة. كان الحمل مفاجأة بالنسبة لها، فى وقت كان الزواج وإنجاب الأطفال هما آخر ما يمكن أن تفكر فيه، مما تسبب فيما بعد فى خلق نوع من العلاقة غير السوية مع زوجها. وكان ميلاد طفلتها بالنسبة لها حدثاً مهماً

فى مسيرة حياتها . ويقدر حبها لابنتها الصغيرة بقدر ما كانت تتسائل دائماً إذا ما كانت ذافنى الصغيرة مجرد وسيلة استطاع كوستيس من خلالها أن يقحم زوجته الهولندية - اليهودية فى أسرته. وعلى الرغم من تلك الخطابات الحماسية التى كانت كتبتها إلى أمها عن الإسكندرية وعن الحياة فيها فقد كانت تخفى دائماً حيرتها وحزنها.

كانت هايكى فى وصفها المشوق لمدينة الإسكندرية فى العقد الرابع من هذا القرن (١٩٣٠ - ١٩٤٠)، وكأنها تؤلف قصة تحاول أن تخدع بها نفسها قبل أن تخدع أى شخص آخر. ليس لأنها لم تكن تحب كوستيس، أو لأنها كانت تفكر فى رجل آخر أو لأن هناك ما ينقصها فى القصر التى تعيش فيه فى الحى اليونانى: ليس لأنها لم تعشق بحر الإسكندرية الهادئ وسماعها الصافية، أو لأنها فى مدينة يختلط طراز الحياة الأوروبى فيها بسحر المآذن والجلاليب. وعلى الرغم من أنها كانت تشعر بأنها تعيش فى مدينة مضيافة، يتعايش فيها أناس من أجناس مختلفة، وديانات ولغات بل ومهن مختلفة، فإنها لم تجد لنفسها مكاناً فيها. لم يكن يكفياها أن تكون مجرد زوجة لرجل صناعة السجائر أو أم لطفلة جميلة. كانت تتحرق شوقاً للقيام ببعض الأنشطة، ولإظهار قدراتها وشخصيتها، ولأن تصبح لها وظيفة محددة تستطيع من خلالها أن تشعر بشيء من الرضا الذى يحتاجه كل إنسان من أجل العيش فى انسجام مع الآخرين. لكنها، على العكس من ذلك، كانت تشعر بأنها قد وهبت نفسها بشكل كامل إلى عائلة خاراميس، وأن دور العروس الجميلة والزوجة والأم المخلصة لم يكن سوى نوع من الإذلال بعد انتهاء الحرب، التى لم تكن تعرف أبداً متى وممن نخسرها.

وبقدر ما كانت تعانیه من التفكير فى مصير والدتها، كانت تأتى عليها لحظات تحسدها فيها على قرارها بعدم زيارة الإسكندرية. كان يكفياها استسلامها هى دون شروط، ولم تكن هناك حاجة لأن تخضع هى وأمها لعظماء الإسكندرية.

كانت هايكى تعيش فى قلب أفريقيا، كالحقيرة الفارغة التى يقوم آخرون بإعداد محتوياتها. وفى هذا المنحنى الخطير فى حياتها كان الشيء الوحيد الذى يواسيها هو: أنها تنتمى لديانة مختلفة. وقد أدت زياراتها للمعبد اليهودى وحلمها الدائم بقيام

فلسطين اليهودية، إلى توتر علاقتها بأسرة زوجها وتحولها إلى علاقة شائكة. لكنها لم تكن على استعداد للتخلي عن صورتها بوصفها يهودية مخلصه. فى نفس الوقت، كان لانشغالها ببعض الأنشطة - مثل جمع التبرعات والأهتمام بدور الأيتام وإيجاد ملاجئ للمشردين وتنظيم حفلات خيرية - دور كبير فى إحساسها بأن لحياتها قيمة وسط هذا العالم. وكانت تحرص على التغلب على ما بقى بداخلها من فراغ بشرب جرعات صغيرة من الخمر - وبخاصة الكونياك - الذى تزايد حبها له مع مرور الوقت، مثلما ازداد شعورها بالاستقلالية. وبالطبع لم تدرك أنها قد أصبحت مدمنة للخمر. فى حين كانت توضح الأمر ببساطة بقولها: «عيبى الوحيد فى هذه الحياة يكمن فى رشقات من البراندى أأجرعها كل مساء».

وبالفعل، فى الفترة التى كانت تقدم فيه هايكى خدماتها إلى نادى قوات التحالف، لم يمر عليها يوم واحد دون أن تشرب فيه الخمر. كانت حماتها تردد بين الجدية والمزاح، أن هايكى اختارت أن تقضى أمسياتها فى المبنى الذى يقع فى شارع كورينثوس فقط من أجل أن تستمتع بشرب الخمر دون أن يعيقها أحد. وفى الحقيقة، كانت الأجواء داخل النادى تتسم دائماً بالسعادة، بالإضافة إلى الأنشطة اليومية الممتعة وعروض الرقص التى تقدم يومى الأحد والإثنين فى المكان المخصص للرقص بالفناء أو بالقاعة المبهرة داخل المنزل. كانت هايكى تستمتع بكل ذلك، لكن خطيئتها الوحيدة هى احتساؤها لكأس أو اثنتين من الخمر فى الخفاء، دون أن يؤثر ذلك عليها فى شىء، فيما عدا ذلك اليوم فى بدايات عام ١٩٤١ عندما شعرت بقليل من الدوار على غير المعتاد، عندئذ طلبت فنجاناً من القهوة قدمته لها امرأة ممشوقة القوام قالت لها (بالفرنسية) قبل أن تعرفها بنفسها:

«السيدات الجميلات لا يشربن الخمر».

شعرت هايكى بالخجل، حتى إنها أفاقت ونهضت فى الحال لتكمل خدمة الضباط دون أن تسمح لنفسها بلحظة من الراحة. وفى النهاية عرضت عليها نفس السيدة التى

كانت تدعى إيفيت شانتون أن تقوم بتوصيلها إلى المنزل بسيارتها، لكن هايكى اعتذرت لها قائلة:

«لا داعى لذلك، فالسائق فى انتظار مكالمة منى لكى يحضر ويصطحبنى للمنزل».

إيفيت: «إذن لا تطلبينه» هكذا أجابتها إيفيت، ثم جلست السيدتان معاً فى السيارة، وقد يظن من يراها أنهما أم بصحبة ابنتها.

هايكى: «لكن كيف عرفت أنني شربت الخمر؟»

- «إنه أمر يسير. فهناك من طلب منى الاعتناء بك أثناء متابعتى لسير العمل بالنادى».

- «أهذا صحيح؟» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «وأنت تعرفينه أيضاً».

- «هل أنت متأكدة؟».

- «كل أفراد الطبقة الراقية» (قالتها بالفرنسية) فى الإسكندرية يعرفونه، إنه صديق لى من لبنان».

- «هل يدعى إلياس؟».

- «نعم إنه هو» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «ولكن لماذا يفعل إلياس هذا؟».

- «فكرى قليلاً ربما كان زوجك قد طلب منه هذا؟».

- «زوجى! لا، لا يمكن أن يثق به فى شىء يخصنى».

فى تلك اللحظة أرادت إيفيت أن تشعل سيجارة، لكن هايكى منعتها قائلة:

«السيدات الجميلات لا يدخن أيضاً».

- «أنا لا أصدق ما أسمع، أنت زوجة رجل صناعة الدخان، تجعلين زوجك يخسر واحدة من زبائنه».

- «لقد لاحظت بالفعل أنك تدخين من ماركة سجاائر مصنعه، لكن هذا لا يمنعني من أن أخبرك بأن ما تفعلينه خطأ. ولاحظي أن هذا الكلام يصدر عن زوجة أكبر رجل صناعة للسجاائر تشعر بالكبت».

أطفأت إيفيت سيجارتها ضاحكة ثم تحركت بالسيارة، وقد لاحظت أن هايكي تتأمل من حين لآخر القفازات البيضاء التي ترتديها، والتي كانت تظهر بوضوح في الظلام الذي يغلف الشوارع، وعندئذ قالت هايكي:

«التعليمات واضحة: لا بد وأن ترتدي الملابس البيضاء حتى تبدو واضحين في الظلام، لكن يا له من حظ سيئ أن نعيش في مدينة تقع تحت تهديد طائرات العدو». إيفيت: «حسنًا، إنها الحرب» هكذا أجابتها إيفيت (بالفرنسية) وتذكرت أن تلك الجملة هي ما اعتادت أن تترده منذ بداية الحرب.

وعند أحد التقاطعات، استوقف السيارة ضابط شرطة مصري، عندئذ أخرجت إيفيت ورقة يبدو أنها تصريح خاص يحمل توقيع القائد البريطاني. أمسك الضابط الورقة بأطراف أصابعه وأخذ يتفحصها وكأنه يستطيع بهذه الطريقة أن يتأكد من أنها ليست مزورة، ثم قام بالدوران حول السيارة ليتفحصها وقد احتفظ بالورقة في يده وأخذ يطرق بها على يده الأخرى. عندئذ قالت له إيفيت جملة قصيرة باللغة العربية، التقط منها الضابط كلمة واحدة يبدو أنها كانت تشير لاسم رده الضابط خلفها للتأكد من صحة الاسم. ثم أعاد إليها الورقة، وألقى لها بالتحية العسكرية وأفسح الطريق لتمر السيارة.

- «إن ما يزعجني من المصريين أنهم لا يعرفون أبدًا متى يأخذون الأمور على محمل الجد. إذًا لم يكن هذا الرجل نموذجًا للإنسان المتخلف.....».

وعندئذ قاطعتها هايكي قائلة:

«هل تتحدثين العربية؟».

- «نعم قليلاً (قالتها بالفرنسية)، أقل مما يجب، إذا ما فكر أحد أننى أقيم فى مصر منذ خمسة وعشرين عاماً!».

- «خمسة وعشرون عاماً!».

- «نعم، عندما أتيت من باريس كنت وقتها فى مثل عمرك تقريباً».

- «باريس، نفس العمر. ها هى إذن بعض النقاط المشتركة التى تجمع بيننا»
قالت هايكى ذلك بحماسة.

فى تلك اللحظة قام شخص بتصرف متهور، حيث عبر الطريق المظلم دون سابق إنذار. ضغطت إيفيت فرامل سيارتها البيجو بقوة مما أحدث صوتاً مدوياً كالصرير، فما كان من الرجل إلا أن تلفظ بكلمة عربية بدت وكأنها نوع من السباب.

وبدخولها إلى شارع فؤاد كان هناك رجل من رجال المرور يقف كل مائة متر، حيث يقومون بتنظيم حركة المارة والسيارات فى أولى ساعات الليل.

لاحظت هايكى أن إيفيت تعرف الطريق لمنزلها دون أن تجهد نفسها بتوجيهها. كانت تتفحص جسدها وتتخيل أنها تخفى تحت رداؤها الأبيض جسداً جميلاً بالنسبة لسنها. وصلت السيارة أمام المنزل بشارع العباسيين، وعندما همت هايكى بالخروج من السيارة، استدارت وسألت إيفيت بصيغة الاحترام قائلة:

«وهل ذكر لكم إلياس أن كوستيس طلب منه أن تراقبوننى؟».

فأجابتها إيفيت بطريقة دبلوماسية قائلة:

«حتى لو كان الأمر كذلك، فلا بد أن تنظرى إليه بوصفه دليلاً على اهتمامه الشديد بك».

بعد ذلك ضغطت إيفيت دواسة البنزين بقوة واستدارت لتخرج تجاه حدائق الشلالات (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية).

* * * * *

كان كوستيس يعيش بعد عودته إلى الإسكندرية منعزلاً في هذا الجانب من المدينة الذي كان يسبب له الحزن عندما كان طفلاً صغيراً. وعندما ترك المدينة منذ عشرين عاماً في بداية رحلته الطويلة إلى أوروبا في فترة ما بين الحربين، لم يكن يتخيل أنه سيعود إليها ليعيش حياة رجل الأعمال الناجح الرتيبة التي يفتقد فيها متع الحياة اليومية؛ فكان يتابع لقاءاته في المقاهي الفاخرة، في النادي اليوناني، في نادي التجديف، وكان يتحين الفرصة لحضور أية مناسبة اجتماعية أو لمشاهدة الأوبرا أو متابعة العروض المسرحية لفياكيس ومينوتيس وخريستوفوروس نيزير وكيفيلي وكوتوبولي بشكل منتظم (حيث كان يحرص على طبع قبلاته على يد الممثلات اليونانيات، ثم يبحث جاهداً في اليوم التالي عما إذا كان اسمه قد ذكر في إحدى الصحف اليومية)، أو يستضيف في منزله أدباء أجنبية وبعض فناني الأوبرا وضباط الجيش الكبار ودبلوماسيين. ولم تكن تلك هي الحياة التي كان يحلم بها لنفسه، لكنه كان يتقبلها بسعادة تماماً مثلما كان يتقبل أن يقوم بتفصيل بذلاته من قماش الكشمير غالى الثمن. الشيء الوحيد الذي كان يخيفه هو؛ أنه كلما كبر كلما ازداد التشابه بينه وبين أبيه: نفس الاستبداد والمزاج الحاد أمام العمال في المصنع، نفس الشخصية الناقمة المنغلقة أمام أصدقائه وشركائه في العمل، نفس تجاهل التزاماته تجاه الجالية اليونانية، حتى موقفه تجاه بعض الناس مثل إلياس خوري كان ثابتاً لا يتغير. كان يتمنى لو أصبح لديه ولو صديق واحد مثل الأيام الخوالي. فقد انقطع ارتباطه بنيكيتاس للأبد، وكذلك بايفيتس الذي كان يذكره بالزمن الجميل، إلا أنه يرقد الآن تحت ثرى إسبانيا؛ أما ميسا فلم ينظر إليه أبداً بوصفه صديقاً، بينما كانت علاقته بسيستانيس مجرد علاقة موظف برئيسه في العمل.

كان كوستيس يفكر في كل ذلك في نفس اليوم الذي أرسل فيه السائق محمود بسيارته الرولزويس لاستقبال نيكيتاس خارج سجن كوم الدكة، لكن ابن خاله رفض أن يركب السيارة، مفضلاً أن يعود إلى باب سيدرا " بالحنطور ". وقد أرسل إليه نيكيتاس نصيحة ألا يشغل باله تجاهه، وبخاصة أن علاقته بمن لهم توجهات شيوعية

قد تؤدي به إلى ما لا يحمد عقباه. أما كوستيس الذى كان يعتبر أن إطلاق سراح نيكيتاس بالنسبة له أمر شخصى، فقد شعر بالإهانة فى أعماق نفسه. حتى لو لم تعد علاقته بنيكيتاس كما كانت، فإنه كان يشعر وكأنه مازال طفلاً صغيراً. وهو ما يفسر ذلك الخطاب الطفولى الذى أرسله إليه والذى ينم عن تساؤل برئى: «كيف يمكن لهذا الصبى الصغير المفعم بالحياة، والذى كنت أعرفه يوماً ما أن يتحول إلى هذا الرجل البدين المبالغ فى مشاعره؟». وقد أجابه نيكيتاس بنفس الطريقة الطفولية قائلاً: «لقد حدث ذلك بنفس الطريقة التى تحول بها صعلوك الحى اليونانى إلى "الفاكهة التى توضع فوق كريمة" (قالها بالفرنسية) المجتمع بالإسكندرية». ويبدو أن تلك النزعة العدائية التى نشأت بين الصديقين القديمين استمرت حتى تلك الليلة التى ذهب فيها كوستيس وهايكى إلى كباريه "أكسيلسيور" لكى يشاركا بنفسهما الطريقة التى كان اليونانيون بالإسكندرية يحتفلون بها إزاء انتصارات جيشهم الوطنى التى حققها على الحدود اليونانية الألبانية. وقد كتب كوستيس فى مذكراته لاحقاً: «كان لدخول هايكى إلى الكباريه أثر كبير، فقد استيقظت بداخلها روح عارضة الأزياء التى كانت تعمل فى كوكو شانيل. كانت ترتدى رداءً أسود (وهو الرداء المحبب إلى نفسى)، (دونها بالإنجليزية)، مرصعاً بالترتر، وزينت عنقها بصفين من الأحجار الكريمة، فأنجذبت إليها أبصار الجميع من الرجال والنساء. لا يمكنك أن تشعر بالغيرة تجاه هذه المرأة، لكنك بكل بساطة تشعر بالإعجاب».

كان الجو بالفعل مفعماً بالحماسية: فالفرقة الموسيقية تعزف من حين لآخر ألحاناً وطنية وكان الحاضرون - من المواطنين ورجال الجيش - منهمكين فى رقص لا ينقطع. وكان كوستيس، كعادته، لا يخرج أبداً للسهر دون أن يصطحب معه صديقه ميسا. وانضم إلى تلك الصحبة الحاضر دائماً إلياس خورى، ثم ظهر بعد ذلك سيستانيس وزوجته. جلسوا جميعاً فى المقدمة على مائدة واحدة، ومن هناك كان كوستيس يشجع ابن خاله نيكولاس وهو يعزف على الجيتار ويشدو بالغناء، كان صوته الحالم من أشهر الأصوات فى ذلك الوقت. فى تلك الليلة أفرط كوستيس فى الشراب، على العكس من

هايكى التى كانت تكره الويسكى، ووجدت أن الفرصة باتت مواتية لها لى تنفذ وعدها الذى أعطته لإيفيت شانتون بالإقلاع عن الشراب، وتؤكد كوستيس لاحقاً أن الظروف لم تكن ملائمة لى يتذكر ذكرياته فى برلين وباريس أيام شبابه.

منذ هذه اللحظة وما تلاها، كانت مشاعره تبحر فى بحار الخمر العميقة، ولذلك فلم يدرك إشارات نيكولاس التى أراد بها أن يحذره من أن نيكيتاس قد وصل إلى الكباريه. اعتقد نيكيتاس، الذى كان يقف بعيداً، أن كوستيس يتجاهله، وعندما شرع كوستيس وصحبته فى الرحيل، أسرع نيكيتاس خلفه ليسأله عن سبب تجاهله له. تبادل الرجلان الألفاظ الحادة وقبل أن يفهم أى شخص ما الذى يحدث بينهما، كانا قد اشتبكا بالأيدي وبدأ فى العراك، حتى توجهوا للخارج صوب "الكورنيش". أسرع سيستانيس وميسا لى يفرقاً بينهما، لكن كان من الصعب التفريق بينهما لقوة الشجار، وفى النهاية تمكنا من ذلك، حينئذ كان الرجلان المتعاركان قد تمزقت ملابسهما وأصبح وجهه وجسد كل منهما مغطى بالكدمات والخدوش.

وكأن ذلك لم يكن كافياً، فقد انطلقت صفارات الإنذار، لكن كوستيس، الذى يبدو أنه لم يكن على وعى بما يدور حوله، رفض بإصرار أن يتبع الباقين إلى المخبأ. واتخذ نيكيتاس نفس الموقف غير المسئول الذى لم يكن يقل فى عناده عن كوستيس. وعندئذ قرر كل من حولهما أن يتركماهما بمفردهما ويسرعوا بالاختباء فى نفس اللحظة التى أضاعت فيها مدافع الطائرات سماء الميناء الغربية من فوقهم. استبقى كوستيس ميسا إلى جانبه وطلب من سيستانيس أن لا يدع هايكى تغيب عن ناظره ولو للحظة واحدة. كان الفجر قد حل عندما عاد كوستيس إلى المنزل، متجاهلاً طائرات العدو الأخيرة التى كانت تطير وتختفى تجاه الغرب مع انتهاء الليل. كان لونه شاحباً من السهر والخمر، وقد دون فى مذكراته ما يلى:

«كنت فى انتظار استقبال من نوع آخر، لكننى وجدت هايكى، التى كانت ترقد منثنية على الأريكة بغرفة المعيشة، ترحب بى بقبلة حارة، قائلة (بالفرنسية): "أحبك من كل قلبى". كان ثوبها قد تجعد من النوم على الأريكة، كما تركت الوسادة علامة على

خدها الأيمن. حمدت الله على نجاتها. يا لهؤلاء النساء! كم يتسمن بالجنون. لن أستطيع فهمهن على الإطلاق».

ارتمت هايكى فى أحضانها، وأشتمت منه رائحة السجائر التى تفوح من ملابسه بقوة واختلطت برائحة الخمر وعطور النساء الرخيصة، ويقدر الأحداث التى وقعت فى تلك الليلة الغريبة، بقدر ما كان تشبثها به واحتضانها بقوة وهمسها برقة فى أذنه بكلمات الحب. وبدلاً من أن يزيح همومه وإحساسه بتأنيب الضمير والاستمتاع بتلك اللحظات، أخذ يردد لها من وقت لآخر أن باستطاعته أن يشرح لها لماذا تأخر فى العودة إلى المنزل حتى طلوع الفجر. كم هم أغبياء هؤلاء الرجال! ولكنها كانت تهز رأسها رافضة أن تسمع منه أى شىء وهى تغرقه بقبلاتها. ولحسن الحظ أنها فعلت ذلك، لأنه لم يكن يدرى ماذا سيقول لها؟ هل يحكى لها كيف دفع بنفسه فى هذا الوقت إلى جحيم المدينة، بين الأحياء الفقيرة والبيوت القديمة والطرقات الضيقة المليئة ببيوت البغاء الرخيصة والمقاهى القذرة، التى توجد فى سراديب تحت الأرض ترقص فيها راقصات تركيات بلا انقطاع ليوقظن المصريين المساطيل، بينما يقدم لهم القهوة الأعرج الخمر الرخيص فى أكواب قذرة؟ هل يحكى لها عن الأماكن التى ذهب إليها ليتعاطى الأفيون والتى لا تتعدى مجرد جدران سقفها من الصفيح وأرضها من التراب؟ فى مثل تلك الأماكن، حيث للشيشة مذاق مر، يلعب (القمار) بالنرد رجال وجوهم سمراء بلون الفحم، وعيونهم شديدة الاحمرار مستخدمين نقوداً ورقية مهترئة، وهم إما يتصايحون أو يممسك الواحد منهم بتلابيب الآخر أو ييصقون على الأرض. حتى إن بعضهم تحرش بهما بشكل يحمل نوعاً من التهديد، مما دفع ميسا إلى فتح جاكيت بذلته لكى يريهم المسدس الذى يحمله. وكانت بيوت البغاء تعج بنساء ذوات بشرة بيضاء، ناعمات كالزبد، يتحركن بطريقة مثيرة للفرايز، أجسادهن تلهب مخيلة العديد من العشاق، ولكنها تخفى أمراضاً تبحث عن فرصة لتتقض على أجساد الرجال الأصحاء. كل ذلك كان يجرى تحت القصف المستعر فى الميناء الغربية.

عبر كوستيس وسط كل هذه النيران وعاد إلى منزله لا يعترية سوى بعض التراب على بذلته التي فقد أحد أكمائها، ورابطة عنق مدلاة حول عنقه وياقة قميص ممزقة من إثر مشاجرته على "الكورنيش". استقبلت هايكى فارسها غير المهنم بأحضان مفتوحة وقد ذكرته هيئته بعد مرور سنوات عديدة بذلك الشاب البوهيمي العنيد الذى أحبته فى إحدى ليالى باريس. وربما أحسن كوستيس صنعا بإخفاء هذا الجانب من شخصيته عن الناس، ولو أنه قرر منذ البداية أن يشاركها هذا الجانب من حين لآخر، فربما أزال عنها هذا الشعور بالوحدة الذى تشعر به فى هذه المدينة.

* * * * *

كان أول أعباء كوستيس منذ توليه إدارة المصنع فى بدايات عام ١٩٣٣، هى تزويده بما يحتاجه من الورق. ولم ينس أبداً كم كلف والده من ثمن غالى نتيجة علاقته أيام المراهقة بـجيهان زوجة تاجر الورق المصرى. ولأنه كان من الخطر أن توجد هذه الكميات الكبيرة من المواد الحساسة فى مكان واحد بالمصنع، فقد قام بتوزيع الورق على مخزينين مختلفين بمينا البصل، خلف مخازن القطن. فى تلك الأثناء، قامت الحرب ولم تدعه القنابل التى قصفت الميناء الغربى يعيش فى سلام. كان يفكر فى نقل البضائع من المخازن إلى أماكن أكثر أمناً، ولهذا السبب أسرع باستئجار مخزينين آخرين بالمحمودية، كانا يبعدان مئات الأمتار عن المصنع. وفى مساء أحد الأيام أمسكت النيران بأحد مخازن الورق بمينا البصل بعد قيام الإيطاليين بقصف منطقة الميناء القديمة. كان لدى كوستيس هاجس بأن ذلك الحريق الذى تسبب فى نقص كبير فى مخزون الورق لعدة شهور، قد حدث عن عمد ولم ينشب نتيجة شظية من قنابل الطائرات الحربية مثلما أشارت تحقيقات المخابرات البريطانية. كان " الغفير " (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) الموجود بالمبنى فى تلك الليلة قد أبلغ عن بعض التحركات المشبوهة لثلاثة من الرجال، لكن جهات التحقيق لم تعتد بشهادته واعتبرت أن الحريق دليل دامغ على الوحشية الإيطالية.

وإلى أن تصل الشحنات الجديدة من الورق - التي ساعدته البحرية الملكية البريطانية في تأمين وصولها - فقد تم نقل كل ما تبقى من كميات الورق في المخزن الثاني بمينا البصل بالتدريج إلى مخزن الحمودية. وحتى يستطيع كوستيس أن يخدع المخربين، إن كان لهم وجود بالفعل، فقد قرر أن يدفع بورديات مضاعفة لحراسة مخزن مينا البصل الخاوي من الورق، وقد أكدت له الأحداث شكوكه. ففي إحدى الليالي قامت " إحدى الجهات الوحشية الإيطالية " بإشعال النيران في المخزن الثاني. عندئذ أيقن كوستيس أن هناك من يشن عليه حرباً قذرة، وتم إبلاغ كوستيس أن الخسائر هذه المرة فادحة وأخذ ينتظر خطوتهم التالية. ولكي يستطيع أن يؤمن نفسه قام بالاتصال بنفس تجار الورق المعروفين من أجل التفاوض على شراء الورق. عندئذ أخبره أحدهم أن صديق والده القديم، بطرس عبد المسيح، قد مات منذ عامين وتولت زوجته جيهان وابنها يوسف إدارة مصنع، فأصابه هذا الخبر بنوع من الاندهاش، لكنه فضل أن يتجاهله إلى أن وصله منها خطاب كتبت له فيه:

«علمت أنك تواجه مشكلة بخصوص الورق. أستطيع مساعدتك، إذا أردت أنت ذلك. حبيبك القديمة جيهان».

لم يرد كوستيس على خطابها؛ على الرغم من علمه بأن بطرس لم يعد عائقاً بينهما ليحول دون لقائهما. فاستمر حصارها له وكتبت في خطابها التالي:

«أعرف من أضرمت النيران في مخازن مينا البصل، لا بد أن تلتقى بأسرع ما يمكن». لو أن كوستيس اتخذ قراره في النهاية بلقائها، فكان لزاماً عليه أن يكون في هذه المرة شديد الحذر، فإثارة أية فضيحة جديدة ستكون لها آثار مدمرة على حياته. ولذلك فقد أجابها قائلاً: «إذا كانت لديك رغبة صادقة في مساعدتي، فمن الأفضل أن تفعل ذلك من بعيد».

عندئذ أجابته جيهان بقولها: «هل تخاف مني إلى هذه الدرجة؟» وفي الحقيقة كانت إجابتها جريئة حتى وصل بها الأمر يوماً للاتصال به تليفونياً. كان صوتها حزيناً وأحس كوستيس وكأنه يتحدث إلى شخص ميت. ودار بينهما الحوار التالي:

جيهان: «هل كان من الضروري أن تقع حرب جديدة حتى يمكننا أن نتحدث معاً مرة أخرى».

كوستيس: «يبدو أن الأمر كذلك، رغم أن التعايش في سلام هو الأفضل بالنسبة للجميع، "أليس كذلك؟" (قالها بالفرنسية)».

- «ربما (قالها بالفرنسية). وفي جميع الأحوال الحرب حربكم، إنها حرب الأوروبيين ولا تخصنا».

- «حقاً! أتصور مدى سعادتك لو قام أحدهم بطردنا نحن والقوات البريطانية خارج البلاد».

- «ليست لدى أية مشكلة مع اليونانيين أو البريطانيين، الأمر ببساطة أن هذه الأرض ملكنا ونحن نتألم لحالها».

- «ولكن القنابل التي تسقط على هذه الأرض ليست بريطانية».

- «ليست لذلك أية أهمية، فقد قام الإنجليز بقصف الإسكندرية من قبل، وسوف يفعلون ذلك مرة أخرى إذا ما استلزم الأمر».

- «لن يؤدي هذا النقاش إلى أية نتيجة. لأننا لن نتفق في النهاية».

- «لماذا تتحاشى لقاعنا؟ ألا يعد ذلك أمراً طبيعياً بالنسبة لشخصين مثلنا تقاسما معاً أشياء كثيرة منذ سنوات، أن يلتقيا مرة أخرى ولو لبعض الوقت؟».

- «لسنا وحدنا في هذا العالم، يا جيهان» هكذا أجابها كوستيس، متحلياً بكبر قدر ممكن من البرود.

- «أما أنا فأعيش وحدي، بلا زوج، لابد أنك تعرف ذلك».

- «نعم، ولكن لديك ابنك».

- «الابن في مثل هذه السن لا يهتم بأمه، أنت أيضاً ما زلت ابناً وتفهم ما أقول. تعال يوماً إلى "العزبة" لكي تراني».

- «هل جننت؟» هكذا صاح فيها.
- «بعد مرور كل تلك السنوات، كنت أنتظر منك أن تكون أكثر رقة».
- «لديك حق، سامحيني، لكنك لم تهيمي على وجهك فى أوربا مثلى من أجل امرأة متزوجة» هكذا حاول كوستيس أن يتحدث بصوت مفعم بنبرة درامية، ثم أضاف قائلاً (بالفرنسية): «إن هذا لأمر مخيف».
- «لقد كنت أنا أيضاً هائمة بداخلى، ومازلت» هكذا أجابته ثم أضافت قائلة:
- «كان بإمكانك على الأقل أن ترد على خطابى الذى أرسلته لك فى ألمانيا» ثم تنهدت بشكل عفوى.
- «فلندع كل هذا جانباً. هل لديك ما تخبريني به بخصوص مينا البصل؟».
- «بالطبع لى، ولكن لن أخبرك به فى التليفون». وهكذا لم تتغير جيهان على الإطلاق، فمازلت نفس المرأة الفاسدة التى لا تفعل سوى ما يحلو لها.
- «لا تنتظرى منى الحضور إلى العزبة» هكذا أجابها كوستيس بطريقة جافة.
- «حسناً، سأفكر فى شىء آخر وسأتصل بك مرة أخرى».
- مر خمسة عشر يوماً وظن كوستيس أنها لن تزعجه مرة أخرى، إلا أنه كان مخطئاً، فقد اتصلت به قائلة:
- «تأخرت فى الاتصال بك لأنى أردت التأكد من أمر ما قبل اتصالى».
- «حسناً، وهل تأكدت الآن؟».
- «نعم، لابد أن أقابلك فى أسرع وقت ممكن».
- «فى عزيتك؟».

- «لا ليس فى عزيتى، "كان معك حق" (قالتها بالفرنسية)، فقد كانت فكرة غير صائبة».

- «حمدًا لله أنك قد أدركت ذلك».

- «سنتلقى حيث اعتدنا أن نلتقى من قبل، فى عمارة القائد جوهر».

- «أين؟» (قالها بالفرنسية).

- «لقد سمعت ما قلته، إنك لست أصم. كانت الشقة خالية وقمت باستئجارها. يمكننا أن نلتقى هناك فى أى وقت تشاء».

- «ألم تعقلى بعد كل تلك السنين؟ ألا تفهمى أن هذا قد يؤذينا نحن الاثنين؟».

- «لا أحد يتذكرنا بعد كل تلك السنين، وبالإضافة إلى ذلك، فهناك أمور أكثر أهمية لينشغل بها الناس، فالحرب لن تجعل الناس ينشغلون بحدث وقع منذ عشرين عامًا» ثم قالت وقد بدا عليها الإصرار: «نعم، أريد أن أراك يا كوستيس، لدى الحق فى أن أراك مرة أخرى، باسم كل ما عشناه معاً فى هذا المكان. لقد دفعت أنا أيضاً ثمنًا كبيراً، لا تنس ذلك. والآن تسمعنى وأنا أتذلل لك هل يعجبك هذا؟».

- «لا، لا يعجبنى» هكذا أجابها ولكنه لم يكن صادقاً. فقد كان سعيداً بسماعها وهى فى هذه الحالة: صوتها، سحر التوسل والإذلال، كل ذلك كان يشبع كبرياءه. كان يريد أن يراها متذلة. فقد كان ذلك هو أكثر الأشياء إمتاعاً بالنسبة له.

- «إذا لم يعجبك أن تسمعنى متذلة فداونى. امنحنى فرصة واحدة. قابلنى اليوم فى الشقة بعمارة شارع القائد جوهر».

- «اليوم؟ مستحيل. ربما غداً. نعم، يمكننى غداً».

- «غداً صباحاً إذن».

- «لا، لا، غداً مساءً أفضل، فى الخامسة».

جيهان: «اتفقنا إذن» قالتها (بالفرنسية) وهى تشعر بالسعادة، فقد أحست بأنه لم يعذبها كثيراً حتى وافق. وفى صباح اليوم التالى تحرك ومعه ميسا يقود السيارة ببطء. لم تكن لدى كوستيس أدنى رغبة فى العودة إلى مرحلة عام ١٩١٩، على الرغم من كل ذلك فقد أيقن أن كل ما يتعلق بشارع القائد جوهر قد تحول لصالحه. لم يعد بحاجة لانتظارها بالساعات وهو غير متأكد من وصولها إلى تلك الشقة، مثلما كان يحدث من قبل. الآن سيصل هو بعدها دون أن يتعجل، تاركاً إياها تتعذب بنفس الشك الذى عذبه به يوماً ما.

تسببت الأمطار التى ظلت تسقط حتى منتصف النهار بالإسكندرية فى هبوب الرياح التى جففت الأوراق على قمم أشجار النخيل، فى حين حلقت أسراب الحمام فى سماء الإسكندرية متخذة أشكالاً تشبه عروض الطائرات الحربية. وبينما كانت السحب الداكنة تتجمع فى السماء، كان كوستيس وميسا يغادران المدينة بعيداً عن أسراب الحمام التى بدت وكأنها تحمى المدينة، أخذ كوستيس يتطلع إلى الأفق الشاسع باتجاه الغرب، وفكر فى أن الأجواء أصبحت مفتوحة للطائرات الحربية الإيطالية. وفى اللحظة التالية - وكان هناك من يقرأ أفكاره - انطلقت صفارات الإنذار وكأنها أجراس الساعات، انطلقت لتوقظ أهل الإسكندرية جميعاً، لتخرج سكان المدينة رغماً عنهم فى هذا اليوم الهادئ. كان رد الفعل فى الشوارع غير سريع، فقد استمر المشاة لدقائق قليلة يسيرون فى طريقهم، متمنين لو أن هذا الإزعاج لا يستمر لفترة طويلة. كان العديد من الناس يعتقدون أن حدوث هجمات جوية فى ذلك الوقت هو مجرد خدعة من جانب الإيطاليين، وكان هناك اتفاقاً خفياً بأن لا يقوم الإيطاليون بالقصف سوى مع حلول الظلام. وقد احتاج الأمر لخروج إحدى سيارات الشرطة لكى تعلن فى الميكروفون بلغة فرنسية هزيلة انتباه فليسرع الجميع عندئذ بدأ الجميع يتفرقون، وبعد بضع دقائق لم يعد فى الشارع أحد سوى ميسا وكوستيس. عند الناصية التالية، سدت إحدى سيارات الشرطة الطريق واضطر ميسا للوقوف جانباً. فى تلك الأثناء، بدأ سماع أول أصوات الانفجارات من جراء قصف المدافع المضادة للطائرات. قام أحد ضباط شرطة الدفاع المدنى بإشارتهما إلى أقرب مخبأ.

لم يستغرق كل هذا الأمر أكثر من ثلاثين دقيقة، لكن بمجرد أن تحركا تجاه شارع القائد جوهر، كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف. استولى على كوستيس شعور عارم بالقلق. كان يعرف أن المرأة القبطية لا تحب الانتظار. لكنه عاد وتذكر أنه لم يعد يعيش في عام ١٩١٩، كما أنه ليس خطأه أن يقرر الإيطاليون فجأة قصف الإسكندرية، بدأت الحركة تزداد في الشارع على الرغم من أن الناس كانوا ينظرون إلى السماء بقلق. في تلك اللحظة، كانا قد وصلا إلى الميدان الصغير الذي توجد به كنيسة سانت كاثرين، أشار كوستيس لميسا أن يأخذ الشارع المتجه لأعلى. توقفا تماماً أمام كنيسة السيدة العذراء، وقبل أن يخرج من السيارة تاکد كوستيس أنه لن يصطدم في طريقة بأحد يعرفه.

عندما هم كوستيس بالدخول إلى العمارة القديمة بدت له وكأنها لم تتغير. بمدخلها الواسع وبوابها غير الموجود. فربما أعطته جيهان نقوداً لكي يتركهما دون إزعاج، لكن ألم يكن البواب يفعل ذلك من قبل؟ صعد كوستيس على نفس السلم الواسع المظلم بدرجاته الرخامية المتآكلة والدرابزين الصديء، وتأمل نفس النقوش ذات الطابع الغربى وأخذت نفسه تحدثه قائلة: "مرت إذن عشرون عاماً لكي أحضر إلى هنا وألتقى بها مرة أخرى". ثم استدار لوهلة وكان على وشك أن يرحل، لكنه سمع فجأة بعض الصبية وهم يصيحون ويلعبون في الطريق كما كانوا يفعلون منذ عشرين عاماً. "لم يتغير شيء إذن" هكذا حدثته نفسه وأخذ يصعد السلم ضاحكاً.

وصل كوستيس أخيراً إلى باب الشقة، أو ربما تكون بالفعل هي الشقة؟ ورغم طرقه على الباب لم يفتح له أحد. مستحيل أن يكون مخطئاً، هذه هي الشقة، لكن أين جيهان؟ ربما تكون بالداخل ولكنها غاضبة من تأخره، ربما أرادت أن تداعبه مثلما كانت تفعل معه من قبل، لكنه لم يجد كل ذلك مقبولاً منها. كانت الطريقة المظلمة تخفى قبح الحوائط القديمة والصدأ الذى أصاب الدرابزين المعدنى. ظن كوستيس لبرهة أنه دخل في متاهة أحد الكوابيس. أخرج منديله ومسح به جبهته الفارقة في العرق - على غير عاداته - وسرعان ما أغرق العرق جسده بالكامل. "ما الذى أفعله هنا بعد عشرين عاماً؟".

هكذا حدثته نفسه، لكنه لم يحصل على إجابته من هذه الطريقة الواسعة، وعندئذ بدأ يهبط السلم مسرعاً ويقفز كل درجتين معاً وكأنه يريد أن يصلح ما ارتكبه من خطأ، إلى أن وصل إلى نهاية السلم وتنفس الصعداء.

لقد أغلقت حساباتي إذن مع هذا الجزء من المدينة، هكذا فكر كوستيس وقرر أن لا يعود لهذه المناطق الشعبية الفقيرة من أجل جيهان أو من أجل أية امرأة أخرى. وكان هذه الأحياء الفقيرة هي التي تسببت يوماً ما في تورطه مع المرأة القبطية العنيدة التي كادت تفسد عليه حياته مرة أخرى.

كان كوستيس يظن أن جيهان لم تظهر في الأيام التالية بسبب غضبها منه وعنادها المعروف عنها. وعندما بلغته الأنباء بأنها قد قتلت وهي في طريقها إلى موعدهما في شارع القائد جوهر، أدرك أنها كانت في طريقها إلى الشقة الكائنة بشارع القائد جوهر، ولكنها كانت متأخرة كعادتها عن الموعد. وعندئذ لم يكن يدرى هل يدين ذلك الطيار الإيطالي وجراته بقتلها أم يدينها هي ويدين عنادها، الذي جعلها تتأخر للمرة الأخيرة عن موعدهما. وقد نشر خبر موتها في الصحف وسط زحمة الأنباء الواردة من جبهات القتال عن الحرب، تلك الحرب التي كانت، كما تقول، لا تخصها.

* * * * *

«جاءت الحرب وقد أصبحت أرملة وحماة وجدة وينقصني أحد أبنائي» كانت تلك هي إجابة مدام ذافني خاراميس أمام القنصل اليوناني عندما زارها في منزلها وشكرها على مساهمتها الكريمة في كفاح الوطن. وكانت ذافني، التي تسير على نفس خطوات ابنها، قد تبرعت بمبلغ كبير من أجل دعم القوات الجوية اليونانية من أموال ثروة عائلتها، وكانت على يقين من أنها لكي ترتقى لمستوى الأحداث، فقد كان لزاماً عليها التخلي عن قطعة من أثمن القطع في مجموعتها من الآثار المصرية، التي كان منافسها الكبير صمويل عظيماني يحاصرها لسنوات طويلة للحصول عليها. كانت دوائر المجتمع الراقي وحدها تستطيع أن تشك في مصدر هذه النقود. وقد بلغ مجموع

ما تبرعت به أسرة خاراميس لقوات الدفاع الجوى اليونانى ما يعادل بل ويفوق ما قدمته بعض العائلات العريقة مثل عائلات خوريميس، بيناكيس، سالفاغوس، كازوليس. وكان المنافسون يرددون أن تلك هى الطريقة الوحيدة التى يمكن بها أن تظهر عائلة خاراميس نفسها من عار تهريب الآثار ومن الابن النازى.

لقد أصاب ذافنى السأم من سماع مثل تلك الروايات. فهى دائماً ما تتذكر أنها تضطر، أمام تلك المشاكل التى تضعها فيها الحياة، أن تواجه كلام الناس. هل يمكن أن تنسى عندما قدمتها إحدى سيدات الطبقة الأرستقراطية إلى أحد رجال المال الفرنسيين، وكانت تلك السيدة ترغب فى زواج هذا الرجل بابنة أختها، قائلة (بالفرنسية): «إنها ابنة أرستقراطى سابق». وكأن هذه السيدة تريد أن تخبره بأنها مفلسة ولا جدوى من الاهتمام بها. ثم تبعت ذلك السخرية من زواجها. فلم تكن ذافنى تنتظر أبداً أن تسمع أقرب صديقاتها وهى تقول لها: «ما الذى تظنين أنك جنيت؟ لقد اشتريت مستقبلي بماضيك». ثم صبوا بعد ذلك جام غضبهم على أخيها لوكاس. حتى أن عمها نفسه كان قد سألها كيف أصبح لوكاس بهذا القدر من الغباء، ثم أجابها فى نفس الوقت: «ربما لأنه كان يمشط عقله مثلما يمشط شعر رأسه». ثم جاء الدور على ابنها الأكبر من خلال قصة حبه للمرأة القبطية المتزوجة، التى اعتبرها البعض جريمة فى حق الجالية اليونانية. وكما كانوا أغبياء عندما كانوا يهزون رؤوسهم قائلين: «يمكن للمصريين أن يتقبلوا أى شىء، إلا أن نسلبهم نساءهم». وبعد عدة سنوات كان نفس هؤلاء الناس تقريباً يروجون إحدى النكات فى حفلاتهم الاجتماعية على سبيل المزاح فيذكرون فيها اسم "قطار باكوس". ربما كان قرار أندونيس قاسياً عندما قام بنفى ماخوس إلى ألمانيا، لكن حتى لو لم يغادر الإسكندرية، فلن يكون أفضل مما أصبح عليه الآن، فقد كان الجميع سيعتبرونه ولدأ شقيأ لا أكثر من ذلك.

توقفت ذافنى، منذ ذلك الحين، عن إعطاء أهمية لأية اتهامات توجه إليها أو لأسرتها. وقررت أن تتبع سياسة خاصة بها، مشاركة منها فى فساد دوائر عليا القوم،

فتعلمت أن تسكت أفواه الفضوليين عن طريق الحفلات والأطعمة الفاخرة التي كانت تقيمها في منزلها، والتي ترددت أصدائها في كل أرجاء الإسكندرية في فترة ما بين الحربين الأولى والثانية. ربما يكون ذلك قد كلفها الكثير، لكنها كانت على دراية كافية بأن "أفراد الطبقة الراقية" (ذكرها بالفرنسية) يقدرّون دائماً أرباب الأسر الأسخياء. ولم يكن هناك أدنى صعوبة في أن يترجم ضيوفها المتخمون بضيافتها إعجابهم بها وبأسرتها بطريقة حازت رضاها. وهكذا فقد بدأ التعامل مع مرضها بداء السرقة على أنه خاصية تتمتع بها مدام خاراميس، التي استطاعت من خلال عشقتها للأثار أن تجمع بين المتعة والترريح المادي، مما أدى إلى استقلالها مادياً عن زوجها. حتى بعد أن بدأ زوجها القعيد يلين تحت وطأة تلك الفضيحة التي جاءت من ماضيه السيئ، استمرت ذافنى بمنأى عن أى خطر، مستمتعة بحماية أعضاء الدوائر الاجتماعية الراقية. اللعنة عليهم جميعاً، فطوال تلك السنوات كانت تقيم الولائم الفاخرة لهؤلاء المبتزين.

وبمجرد أن تمكنت من التغلب على كل العقبات الشخصية والعائلية التي واجهتها، لم تقف ذافنى عاجزة أمام زوجة ابنها الهولندية - اليهودية التي شوهت سمعة المجتمع الأرستقراطي بالإسكندرية بسبب زياراتها المتكررة للمعبد اليهودي، وأيضاً لأنها كانت تفوق زوجها في الطول ببوصة أو اثنتين. حتى أولئك الذين كانوا يدعمونها، حتى ذلك الحين، قاموا بتبني هذين البيتين الرقيقين من الشعر:

في بيت آل خاراميس لديهم كل يوم عيد

يوم يحتفل فيه اليهود وآخر للمسيحيين .

أما بالنسبة لماخوس، فلم تكن في حاجة لمساعدة من أحد، حيث كانت تستطيع التعامل معه بمفردها، على الأقل من أجل عيون الناس. لكنهم كانوا يسمعون صوتها في كثير من الأحيان وهي نائمة تقول:

«مس جابى، دثرى ماخوس، وإلا سيبرد».

كانت سلواها الوحيدة فى تلك السنوات الصعبة هى مجموعتها الأثرية التى قامت بنقلها الآن من القبر خوفاً من قصف الطائرات الإيطالية. وقد دفعها حماسها تجاه انتصارات الجيش اليونانى فى ألبانيا لأن تطلق على كل قطعة من قطعها الأثرية اسماً من أسماء المواقع الحربية التى تم الانتصار فيها: فقد أطلقت على العقد الذهبى المطعم بالأحجار الكريمة اسم "كالباكى" والأوعية المزخرفة أخذت أسماء "بريميتى" و"كليسورا"، أما الصحن المصنوع من القرميد الأسود والمرسوم عليه صور للحيوانات، فقد حمل اسم "تيليلىنى"، وأعطت للتمثال الفرعونى اسم "أرغىروكاسترو"، أما صندوق حفظ المجوهرات الخشبى المطعم بالذهب، فقد أخذ اسم "كوريتسا"، فى حين حمل التابوت الذهبى الذى يحتوى على أوعية صغيرة اسم "أغى ساراندأ".

لم تفقد السيدة خاراميس روح المداعبة التى تتحلى بها دائماً، وبخاصة بعد أن جاءت حفيدتها الصغيرة ذافنى إلى الحياة. كانت تضحك من قلبها عندما يحاول المقربون منها إقناعها بأن ذافنى الصغيرة هى صورة طبق الأصل من جدتها. ولحسن الحظ فلم يعمها غرورها حتى الآن عن إدراك الحقيقة، وعندما كانت تنظر لنفسها فى المرآة كانت تقول: «يقولون إن حفيدتى تشبهنى، هذا ما كان ينقصنا!».

كان شقيقها لوكاس يسمعها باندهاش وهى تخبره فى التليفون بأن: «ذافنولا (أى ذافنى الصغيرة) تشبه أمها». كانت الجدة والحفيدة تقضيان معاً معظم أوقات النهار، وعندما بلغت سن دخول المدرسة، لم تكن ذافنى تتخيل كيف ستمضى وقتها بدون أن تعتنى بخصلات شعرها الذهبية وفساتينها الزاهية. ولهذا فكرت فى أن تحصل الطفلة الصغيرة على تعليمها فى المنزل، لكن كوستيس ضرب بفكرتها عرض الحائط، وأصبحت الصغيرة بين يوم وآخر تلميذة فى القسم الداخلى لمدرسة أفىروف للفتيات بالإسكندرية التى كانت تقع على ناصية شارعى سينزوستريس والمتولى. وأصبح الشئ الوحيد المتبقى للجدة الحزينة هو: أن تنتظرها عودتها إلى المنزل فى إجازة نهاية الأسبوع، وكانت تبحث فى الحديقة وفى الغرف وعلى درجات السلم عن صدى صوت أقدامها وهى تجرى نحوها، وعن رنات ضحكات البريئة. وفى شتاء عام ١٩٤٠، بلغت

ذافنى الصف الثانى الابتدائى، وقد تمت جديتها أن تتعطل الدراسة بسبب الحرب، لكن لسوء حظها لم يحدث شئ من هذا القبيل. تضاعفت ساعات انتظار السيدة خاراميس بطريقة لا تطاق، وانتابها الخوف - دون أى شئ - من أن تسقط إحدى قنابل العدو فوق مدرسة حفيدتها الغالية دوناً عن الإسكندرية كلها.

* * * * *

فى البداية لم تكن الحياة فى اليونان بالنسبة للدكتور ماخوس سهلة، لكنه عانى بشدة عندما أصبحت الحرب العالمية الثانية قاب قوسين أو أدنى. ومع عودته إلى القاهرة فى بدايات عام ١٩٣٩، تم تكليفه بتولى منصب سكرتير ثالث. وقد استدعاه أليكوس كانيلوبولوس بنفسه، وهو العضو البارز بالحزب الحاكم، وقال له: «دكتور ماخوس، لقد خدمتم تحت إمرة جاييلز العبقري، ولذلك فأنتم الأصلح لهذا المنصب. انتبهوا الآن، فمنصب سكرتير ثالث ليس منصباً عادياً لنقل المعلومات، ولكن لخلق الضمان». أصاب التعب ماخوس من كثرة تغيير منصبه أكثر من مرة وفى أكثر من مكان، ولهذا السبب فقد رفض العرض بأسلوب مهذب وقرر العودة إلى عمله السابق، إلا أنه أدرك أن الجو العدائى الذى خلقه زملاؤه معه فى وزارة الإعلام والسياحة قد بلغ منتهاه. فالكثيرون ممن يلتقونه فى الطرقات كانوا يديرون وجوههم للناحية الأخرى أو يهمسون فيما بينهم بانتقادات لاذعة موجهة ضده. كان يعثر فى مكتبه على أوراق مكتوب عليها تهديدات مختلفة. وفى واحدة من هذه التهديدات كانت السخرية لاذعة من عنوان رسالة الدكتوراه التى حصل عليها. فتحول عنوان الرسالة من: " نيتشه والمصادفة السعيدة لجنون العظمة " إلى " دكتور خاراميس والمصادفة التعيسة لجنون العظمة ". وعندما حاول أن يعرض الأمر على نيكولوديس نهره وكيل الوزارة بلهجة صارمة بقوله: «ماذا تقول، يا دكتور، إن هذا من وحى خيالك، ولا بد أن تركزوا على مصالح الوطن فقط». كان صدى تلك الجملة الأخيرة يتردد بداخله بطريقة جعلت ماخوس يتأكد من أنها صدى للشكوك المثارة حوله عن تعاونه مع النازيين.

حتى جريدة الحزب الشيوعي غير المعترف بها "ريزنوسباتيس" (أى الثورى)، أشارت إحدى مقالاتها إليه بالاسم حيث قالت:

«قامت الفاشية الحاكمة ببيع وطننا إلى ألمانيا الهتلرية وحولتها إلى معسكر كبير لتجميع الجنود. والنموذج الواضح للعلاقة الودية تجاه ألمانيا هو ذلك اليونانى - المصرى الدكتور كاليماخوس خاراميس، المعروف بماضيه النازى».

لم يكن ماخوس نفسه يخفى مشاعره الودية تجاه ألمانيا، ولم يكن لديه أى سبب ليخفيها، فقد كان يؤمن بشدة أن هتلر لن ينقلب مطلقاً ضد اليونان، مهد الحضارة الأوربية، لهذا لم يكن يعتبر نفسه بأية حال من الأحوال خائناً لليونان واليونانيين، مضيئاً إلى أصدقائه من النازيين صفات كان حلفاء الإنجليز والفرنسيين يعتبرونها صفات مرفوضة تماماً، متنين بهذه الطريقة أن يكشفوا تلك الكارثة حتى يدعموا بها موقفهم الوطنى. وفى مذكراته التى كان يكتبها بانتظام فى ذلك الوقت، أخذ ماخوس يشرح أسباب بقائه طوال هذه الفترة فى وطنه، على النحو التالى: «الفلاحون الفقراء هم فقط من يستطيعون العيش فى اليونان. وإذا ما بقيت أنا أيضاً فذلك لأن القادة المعتدلين لهذا البلد بمثابة المناخ الصحى الملائم للتعاون والتفاعل المستمرين مع قوات "المحور" العظيمة».

وطبقاً لمتطلبات هذا المناخ أو تلك الروح، فقد كان ماخوس يعمل على نقل معلوماته للمخابرات الألمانية، وكان يشعر بالسعادة عندما يتبين لهم صدق هذه المعلومات لاحقاً. وباشتعال الحرب كان قد أرسل تحذيراً عن طريق السفارة الألمانية مشيراً إلى مدى أهمية المحادثات التى تدور بين ميثاكساس والقائد الفرنسى فينيجان. حضر قائد القوات الفرنسية فى الشرق الأوسط مرتين إلى أثينا لأهداف سياسية، من أجل مناقشة احتمال تأسيس جبهة البلقان، مثلما حدث أثناء الحرب العالمية الأولى، وعندما سقطت ملفات وزارة الخارجية الفرنسية فى أيدي الألمان، وتأكدوا من صحة ما كان ماخوس يرسله لهم، كان خطاب الشكر الذى أرسله له هتلر بمثابة أعظم تقدير يمكن أن يتخيله. وبالنسبة لماخوس فقد ثبت توقعه بعدم رغبة الألمان فى استكمال هذا الموضوع، مما يدل على مدى عظمة هتلر ورغبته فى أن يترك البلقان وأهلها لحالهم.

لكن لم يكن ماخوس يلقي الهجوم فقط من الناس. فعندما يستيقظ من نومه كل صباح فى شقته التى تقع فى شارع سكوبا، كان يرى فى وجهه ملامح الخيانة والاندفاع. ففى السنوات الثلاث الأخيرة بدأ يكتشف بعض الندبات فوق جبهته وكانت تزيد باستمرار، تلك الندبات التى تمثل له تذكراً من مشاجراته مع أخيه وهما صغيران. ومنذ اللحظة التى اكتشف فيها بداية أصابته بالصلع، أصيب بهلع لم يشعر به من قبل، ولم تغلج معه جميع الوصفات الشعبية لعلاج، وعندئذ حاول أن يحافظ على ماء وجهه باتباع عادات جديدة بالنسبة له، فقرر أن يمنح نفسه فرصة لتلبية الدعوات لحضور الأمسيات الساهرة وحفلات الكوكتيل. وبدلاً من أن يجلس فى تلك الحفلات ليتناقش بخصوص الحالة العالمية مع "هؤلاء المتأنقين أصحاب الكروش" - كما اعتاد أن يطلق على هذه الفئة من ضباط الجيش - كان يفضل أن يشرع فى مغازلة زوجاتهم الجميلات بشكل مشين، وقد ذاق الكثيرات منهن "طعم الحياة الجميلة فى شقته بشارع سكوبا". إلا أن تردده على هذه الحفلات باستمرار كانت له نتائج السيئة، حيث قامت إحدى عشيقاته، وقد نظرت إليه وهو يدخل سيارته ويجلس القرفصاء عارياً فى الفراش، بالتلفظ بتعبير مرفوض، مزدريه من جماله الذى يشبه جمال آلهة اليونان القدامى، حيث قالت: «با.. با.. با.. ما هذا الذى أراه، هل أصاب الترهل جسدي؟». وكان هذا آخر ما قالته وقبل أن تعى ما يحدث، وجدت السيدة نفسها شبه عارية فى الطرقة خارج الشقة، وتمكنت بعد توسل من الحصول على باقى ملابسها قبل أن تخرج إلى الشارع. منذ ذلك الحين قرر الدكتور ماخوس أن لا يقيم أية علاقة مع الجنس الناعم. وكثيراً ما كان يبحث فى نظرات الآخرين القاسية عن تأكيد بأن رأسه الذى يعانى من الصلع وجسده المترهل لا يمنعانه من أن يظل مخلوقاً جميلاً، وفى ذلك كان يقول: «لا تستطيع النساء أن تمنحنى شيئاً لا أملكه». هكذا كتب مدوناً فى مذكراته ثم انغلق على نفسه.

كان لزاماً على ماخوس أن يحارب بشجاعة شبح الوحدة الذى خيم على حياته. وقد دفعته شكوكه فى أن خطابهات إلى أمه وإلى خاله لوكاس تتم مراقبتها من قبل

المخابرات البريطانية إلى قطع اتصالاته بهما، الأمر الذى جعله يشعر بالانفصال حتى عن عائلته. وبسبب وجود أمور عديدة تضايقة، فقد بدأ فى كتابة خطابات كثيرة دون أن يرسلها، وكان يحتفظ بها فى حقيبة تحت فراشه. فى البداية كان يوجه تلك الخطابات إلى أمه وإلى خاله، ثم جنح به خياله إلى توجيه الخطابات حتى إلى الموتى: مثل إيريك شولتسير وإلى أبيه وإلى نيتشه. وكان يكتب إلى رودولف إس معبراً عن غضبه، ويبعث بتهنئته إلى مارتين هايديجير لدعمه العلمى للرايخ الثالث، كما عرض وجهات نظره على الأستاذ هاوسهوفير بخصوص الخريطة السياسية الجديدة لأوروبا، وكتب لنيتشه محدثاً إياه عما آلت إليه حال أحفاد الإغريق، حتى إنه كتب لأدولف هتلر ناصحاً إياه بأن لا ينجرف خلف الدعاية البريطانية وينقل الحرب إلى البلقان، وفى بعض الأحيان كان يدخل فى حوارات مع كل هؤلاء، وكان يضبط نفسه متلبساً بالدخول فى حوارات مع جدران المنزل حول العلاقة بين أفكار نيتشه والأفكار النازية العظيمة، وعندها كان يفزع من فكرة أنه قد يجنح إلى الجنون وعندئذ يغلق الباب مؤقتاً على عالمه الخيالى.

بدون تلك المساحات الشاسعة من الخيال كان على ماخوس أن يكتفى بواقع الحياة البائس فى أثينا عام ١٩٤٠، متبعاً منهجاً تقشفياً، متجاهلاً أهمية ما يدور فى العالم من أحداث فى واقع الحياة. ولكنه فى حقيقة الأمر استمر فى الحياة مع ما يجول بخاطرهم من أشباح، ومع إحساسه بتأنيب الضمير تجاه صديقه الراحل إيريك، ومع حنينه للإسكندرية ولذكريات الطفولة المشينة فيها. كانت روحه المريضة تبحث عن شىء ذى قيمة للتشبث به، شىء إنسانى، ولم يجد أمامه سوى الحرب التى انفجرت فى جميع أرجاء القارة العجوز.

وفى الحقيقة، فقد بدأ ماخوس يتعايش مع الواقع بعد انفجار الحرب مساء يوم الأحد السابع والعشرين من شهر أكتوبر، وبعد عودته من إحدى الحفلات بالسفارة الإيطالية، كتب فى مذكراته: «أخيراً نشبت الحرب، إذا ما كنت قد فهمت بشكل صحيح ما قاله جراتسى». وكان السفير الإيطالى قد اقترب منه أثناء تلك الحفلة وقال له بثقة: «السفينة تغرق (قال ذلك بالإيطالية وكررها باليونانية) يا دكتور خاراميس».

كان ماخوس يتخيل الحرب بصورة مختلفة. كأن تكون نوعاً من العروض العسكرية للقوات الإيطالية فى الأرض اليونانية بمباركة من رئيس الوزراء ميتاكساس؛ وكانت تلك الملحمة الكوميديّة قد بدأت بالبنانيا. وكان ماخوس قد تنبأ بأن حماسه البعض سوف تتسبب إن أجلاً أو عاجلاً فى غضب هتلر، وعن كتب ذلك يقول: «ويمكنك أن ترى أن الشعارات المضحكة مثل: "فانلة" (ذكرهما باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) الجندى، أو "حزب الجوارب"، أو تلك الشعارات الجوفاء من نوعية: (موسولينى المغفل)، جميعها لن تجدى شيئاً. تعتيم تحت رحمة الطيران الإيطالى. يرعبنى صوت القنابل، يا أمى»، هكذا كتب فى خطاب لم تستلمه أمه أبداً. كما كانت العروض الجوية تخيفة، وعندما تطلع فى شهر إبريل من عام ١٩٤١، إلى ميناء بيريه بعد أن تم تدميره انخرط فى البكاء مثل طفل صغير من شدة الخوف، وليس من الألم على حال وطنه كما كان البعض يظن. وبعد ذلك بةةة أيام، قام هو ومن يشبهونه بالتهديد بتقديم استقالة جماعية حال قيام حكومة تسوڤيروس بمحاولة إجبار السفير الألمانى فون إيرباخ على الرحيل إلى كريت باعتباره أسيراً، وقد كتب فى مذكراته: «إنه عمل يخالف القانون الدولى»، متجاهلاً بذلك أن الألمان أنفسهم قد انتهكوا ذلك القانون عندما قاموا بأسر دبلوماسيين إنجليز ويونانيين. ظل ماخوس فى أثينا يبحث لنفسه عن دور أكبر فى هذا الموقف الجديد. لكن حتى الآن لم يكن أسوأ الأمور قد وقع له بعد.

* * * * *

«أتمنى أن يكون عام ١٩٤١ عاماً سعيداً عليك، يا عزيزى» (قالتها بالفرنسية) قالت ذلك إيفيت لهايكى وقبلتها من شفتيها.

فوجئت هايكى بهذا التصرف واصطبغ وجهها بحمرة الخجل ووضعت ظهر يدها على فمها، وكأنها تسمح القبله وقالت:

«ألا تظنين أنك تتعجلين الأمور قليلاً؟» هكذا قالت هايكى بشكل صارم، ولكن بطريقة تخفى وراءها دلائل كثيرة.

إيفيت: «ماذا؟ هل سنجعل من ذلك موضوعاً؟ هل هذا معقول!» قالت ذلك وهى تداعب الخصلة المتدلّية من شعر صديقتها.

هايكى: «فى أوقات الحروب لا تعرفين ما الذى يمكن أن يحدث من لحظة لأخرى» قالت ذلك هايكى وقد أعادت بيدها خصلة شعرها إلى مكانها.

- «لهذا، إذًا، لابد فى مثل هذه الحالات الطارئة أن تتركى لنفسك العنان» قالت إيفيت ذلك بطريقة ذات مغزى.

- «نعم، يكفى أن لا تندمى بعد ذلك» هكذا أجابتها هايكى وهى تفكر واستعدت لى تبدأ فى تقديم المشروبات للجنود.

- «أين ستتناولين عشاء رأس السنة الليلة؟».

- «فى المنزل (قالتها بالفرنسية). سنكون كلنا فى المنزل مجتمعين، ولكى أكون صادقة فلست متحمسة لهذه الفكرة، ولكن أياً كان ما تفعلينه، فرأس السنة احتفال مهم بالنسبة للمسيحيين».

- «أتصور أنكم ستحطمون العديد من الأطباق الزجاجية».

- «ها ها، بالطبع ستقوم حماتى بتحطيم أعداد كبيرة من أطباقها القديمة. ولكنى أتساءل: أين تجد كل هذا الكم من الأطباق الزجاجية كل عام. لابد أنها تقوم بشرائهما من بائع "الروباكيا" (ذكرتها باللغة العربية ودوّنتها بحروف يونانية)».

- «العادة تحكم!».

- «نعم، ولو أنى اقتربت من إكمال عامى الأول فى هذه المدينة، لكننى لم أفهم بعد أهمية هذه العادة. ولكن كل ما أخشاه أنه ربما بسبب كل هذا التفسير فلن يحتاج العدو لإشعال الأضواء ليعثر علينا. أتخيل كيف أن صوت الزجاج المحطم سيصل بالتأكيد إلى أذان الطيارين الإيطاليين».

- «لكن، حتى فى الساعة التى يتغير فيها العام، هل سيكون لديهم الوقت ليضربوننا بالقنابل؟».

- «ولم لا؟ هل تعرف الحرب شيئاً عن رأس السنة؟».
- «أخبريني حقاً، أنتم اليهود ماذا تفعلون فى رأس السنة الخاصه بكم؟».
- «أى شىء، عدا تكسير الزجاج».
- «ذكرينى متى تحتفلون».
- «إنه احتفال متغير(قالتها بالفرنسية) يقع فى الفترة بين الخامس عشر من شهر سبتمبر وبداية شهر أكتوبر، طبقاً للتقويم القمري».
- «معك حق (قالتها بالفرنسية). هل ذكرت لك أننى أريدك أن تأتى يوماً إلى منزلى فى لوران؟».
- «نعم، سأأتى يوماً ما، لكن ليس اليوم. حقيقة ماذا ستفعلن؟ لا تقولى إنك ستبقيين وحدك».
- «أه، يا صغيرتى، الجدة إيفيت طوال تلك السنوات فى الإسكندرية اكتسبت أصدقاء كثيرين، ولذلك فلن يتركوها وحيدة فى يوم رأس السنة».
- «توقفى (قالتها بالفرنسية) أرجوكِ عن وصف عن نفسك بأنك جدة. لا تكونى مثل حماتى. أم تريدين أن أذكرك دائماً بأنك مازلت جميلة وشابة؟».
- «وما أدراك، فربما أكون بالفعل فى حاجة لكى أسمع منك هذا الكلام».
- لم تجبها هايكى لكنها هزت رأسها موافقة وعادت إلى عملها، وهى تمسك بالصينية بسعادة.
- بعد ذلك بعدة أيام، عندما فتحت المدارس من جديد، قررت هايكى فى صباح أحد الأيام أن تستقل "الترام" لزيارة إيفيت فى منزلها بلوران، متجاهلة مهمة حماتها التى كانت تقول: «القطار» (فلا أحد يطلق عليه "ترام" فى الإسكندرية) لا يليق بامرأة فى مكانتك!«.

صعدت هايكى الخط رقم (٥) بعد أن قامت بشراء بعض الشيكولاته من "إيفيت".
ثم هبطت فى المحطة التى تلى سان ستيفانو، وهى تشعر ببعض الدوار بسبب
اهتزازات القطار طوال الطريق.

كان منزل إيفيت عبارة عن "منزل صغير يشبه الأساطير!" (ذكرها بالفرنسية)
كما وصفته هى نفسها، وكان يبعد نحو مائتى متر عن محطة "الترام"، خلف بلاج
لوران، وكان يمكنها أن ترى من الشرفة مجموعة من الجنود من نيوزيلاندا وهم
يسبحون فى مياه البحر الهادئة. كانت أجساد الجنود قوية البنيان تبدو وكأنها أجساد
رخامية تحت شمس شهر يناير، ولم تكن أية امرأة لتشبع من النظر إليهم. كانت إيفيت
قد أعطت إجازة للعاملين بالمنزل، ودعت هايكى لتناول عصير الليمون والحلوى معاً.
تذوقت إيفيت إحدى قطع "الجائوه بالشيكولاته" (ذكرها بالفرنسية) التى يصنعها محل
"إيفيت" للحلوى وعندئذ تذكرت روكسانى قائلة:

«كانت بمقدور روكسانى أن تأكل كل هذه الكمية التى أمامك!».

- «ماذا كانت تمثل لك روكسانى التى تذكرينها بهذا الشكل دائماً؟» تساءلت
هايكى بعد أن سئمت من سماعها تتحدث عنها بشكل دائماً.

- «أه، بعض القصص لا ينبغي أن تروى للفتيات المتهذبات مثلك» هكذا أجابتها
إيفيت ولست أنفها الصغير بسبابة يدها اليمين.

- «الآن على ذكر ذلك، على أية حال، هناك أشياء أخرى لم تخبرينى بها. فعلى
سبيل المثال، ما علاقتك بصديق الأسرة اللبنانى. إنك لم تتحدث عنه على
الإطلاق، ومن جهة أخرى، فإنك تسأليننى العديد من الأسئلة عن حياتى وعن -
ماذا نأكل، كيف نعيش، كيف نقضى أوقات تسليتنا. لو أنك فى مكانى، ألم
يكن ذلك يبدو لك أمراً غريباً؟».

- «هل تريدان أن أعد لك الشاي الآن؟ أم تريدان بعض الشراب؟».

- «شأى بالليمون؟ كونياك فى الصباح الباكر؟ ألم ترغبى فى أن أترك الشراب؟
حقاً، أنت غريبة بعض الشيء اليوم، يا إيفيت».

- «نعم، اليوم يمكن أن نقوم " باستثناء صغير " (قالتها بالفرنسية).

- «لماذا، ماذا هناك اليوم؟».

-: «لا شيء بالتحديد، ولكنه يوم جميل من أيام شهر يناير، الجنود يستحمون فى
البحر ونحن نستمتع بالشمس. لقد عشت يوماً مشابهاً فى ميناء خانيا باليونان
عام ١٩١٤، لكن كنا وقتها فى فصل الصيف وحينئذ بدأت حرب أخرى».

فضلت هايكى أن تستلقى على الأرجوحة حتى لا تسمح لإيفيت بالجلوس بجانبها.
فلم تكن تروق لها فكرة وجودها وحدها فى المنزل مع إيفيت، وحتى هذه اللحظة كانت
مجموعة الجنود لا تزال تجلس على الشاطئ، وعلى الرغم مما يسببونه من ضوضاء
شديدة، فإن وجودهم كان يشعرها بشيء من الأمان. كانت ملابسهم تبدو وكأنها تلال
بنية اللون متناثرة فوق الرمال. قام أحد الجنود بتعليق رداؤه فوق الصارى الذى تعلق
عليه الراية السوداء أو الحمراء فى الصيف، والتي كانت تشير إلى أن السباحة ممنوعة
أو مسموح بها. كان الجنود الشبان يسبحون بقوة فى المياه الباردة ويتبادلون الألفاظ
البذيئة فيما بينهم. أما إيفيت التى وجدت هايكى تتطلع إليهم طوال الوقت، فلم تستطع
أن تمنع نفسها من أن تقول لها:

«كيف يبدو لك الأمر لو أنك حصلت على واحد منهم فى كل ليلة؟ بأجسادهم
القوية، الصلبة. حقاً إن الأمر يسير كما لو أنك تلتهمين حبة مانجو. يا لهم من
مساكين! يصيبني الجنون عندما يجول بخاطرى أن أغلبهم سيواريه الثرى قريباً (فى
الحرب). أليست تلك خسارة كبيرة، فما زالوا شباباً! هذا ما أفكر فيه كل مساء فى
النادى وأقول لنفسى: كم هن رقيقات هؤلاء النساء اللاتى يقمن بخدمتهم. فهم
يستحقون أكثر من هذا. ثم هل توجد تضحية أجمل من أن تكونى فى أحضان رجل
مختلف كل ليلة؟».

- «هذا يتوقف، أنا شخصياً لا أتأثر بهذا النوع من الجنود الشرسين».

- «نعم، ولكنك تتطلعين بلهفة إليهم منذ وقت طويل».

- «هذا لا يعنى أننى أرغب فى أى منهم. "بالإضافة" (قالتها بالفرنسية) إلى أن هناك العديد من الفتيات غير المتزوجات فى الإسكندرية قد يقبلن ذلك الأمر المحرم علينا نحن المتزوجات».

- «ربما يكون لديك حق، فقد استفحل الأمر، أمس الأول أمسكوا بواحدة من النساء اللاتى يخدمن فى النادى الخاص بنا، وهى تمارس الجنس مع أحد الجنود بالحديقة. و..... (*) تفهمين ما أعنيه، فقد أصبحنا نشبه كلاب الشوارع، وهذا لايعجبني على الإطلاق، بالطبع قد تم تكتم الأمر».

- «بالطبع. ولكن أترين؟ هذا تصديق على ما أقوله لك. إذا ما بدأنا الآن بحكايات "قبلنى، يا مقبلنى" (قالت ذلك بالفرنسية)، إذا ما أصبحت هذه حالنا، فماذا ستفعل الفتيات فى بيوت البغاء؟».

تُرى، هل تشك فى شيء؟" تساءلت إيفيت فى نفسها، ولكن لأن الأمر بدا لها مستحيلاً فقد انخرطت فى الضحك، بينما كانت هايكى قد رفعت فستانها بطريقة غير معتادة من أجل أن تداعب أشعة الشمس الساخنة قدميها، فاستتار ذلك إيفيت وقالت:

«خبئى قدميك» هكذا صاحت إيفيت بصوت قوى حتى إنها هى نفسها فوجئت بحدة صوتها، ولذلك فقد أسرعت بالاعتذار، وحاولت أن تشرح لها سبب حديثها فقالت: «بسبب النهم العاطفى الذى يملك هؤلاء الجنود، فإنهم قادرون على قضاء اليوم بطوله فى البحر من أجل اختلاس النظر للنساء قليلاً».

لم تستجب هايكى لكلام إيفيت ربما لأنها تعتقد أن وجود الجنود يمنع إيفيت من الإقدام على أية فعل جريء، لكنها كانت مخطئة، ففى تلك اللحظة، نهضت إيفيت وجذبت فستان هايكى لأسفل، قائلة:

«هكذا أفضل بكثير» (قالت ذلك بالفرنسية)

تردد صوت إيفيت بشكل حاد مثل نصل السيف، ولكن مدام خاراميس الشابة قامت وهى غاضبة برفع فستانها مرة أخرى بشكل أكثر من ذى قبل. عندئذ اقتربت منها إيفيت، لكنها كانت لديها نيات مختلفة فى هذه المرة. فمسحت بكفها الداكن الجاف المرتعش على الشعر الأشقر فى قدمى المرأة الهولندية، اليهودية الجميلة، ثم قالت إيفيت بلهفة:

«إن الشعر بأرجلك فى منتهى النعومة والاصفرار كما لو كنت فتاة صغيرة، يا لك من محظوظة، لأننى أحتاج كل حين لأن أقوم بإزالة شعر قدمى».

تسببت طريقة إيفيت المليئة باللهفة بشكل واضح فى استثارة هايكى. فى تلك اللحظة أرادت أن توقفها لكن شيئاً ما منعها. وربما تحت وطأة اللامبالاه الملحوظة أخذت هايكى تتطلع تارة إلى نفسها وتارة أخرى إلى إيفيت. وفجأة، تبادر إلى ذهنها تفسير منطقى لكل شئ: مثل عرض إيفيت أن تعيدها إلى منزلها كل مساء، الجولات الطويلة فى الشوارع المظلمة حول منطقة الحى اليونانى، لمستها اللاشعورية، أحضانها التى لا تنقطع، إحياءاتها. يبدو أن كل ذلك كان جزءاً من الخطة من خلال ذلك الحصار المنظم الذى لا نهاية له.

لم تشأ هايكى أن تفكر فيما كان يمكن أن يحدث لو لم ينتبه أحد الجنود إلى تلك المداعبات فى شرفة الفيلا، أو تفاجأت بدوى صفارات الإنذار القادمة مباشرة من جهة البلاچ تقريبا، محذرة بوجود غارات جوية، ثم أتبع ذلك قصف الطائرات من الجهة الغربية، ذلك القصف الذى كان يشبه دوى الرعد القوى.

عندئذ أدركت هايكى أن مدام إيفيت قد بدأت تضمها برقة إلى صدرها، فانتفضت هايكى مذعورة.

إيفيت: «اللعة (قالتها بالفرنسية)، أألن تدعنا هذه الحرب نعيش فى هدوء؟» هكذا صاحت إيفيت وهى فى شدة الضيق، فقد أحست بأن صيدها الثمين سيفلت من يدها، ثم أضافت قائلة: «هؤلاء الحمقى ما الذى يظنون أنفسهم فاعلين بدوى صفارات الإنذار بشكل مستمر».

هايكى: «كنت أعتقد أنهم أولئك الجنود الشبان الذين ندين لهم بالكثير».

- «هم كذلك بالفعل، ولكن يكفى أن يكونوا فى المكان المناسب حتى يصبحوا ذا فائدة».

- «هكذا إذن! (قالتها بالفرنسية)، من الأفضل أن أرحل الآن، ألا تظنين ذلك؟».

- «لا.. لا، لا ترحلى، فقد أعددت نفسى لتناول الطعام معك».

- «لابد أنك تمزحين، تعلمين أنهم بانتظارى فى المنزل. لا أستطيع أن أتأخر كثيراً». كانت هايكى تكذب فى ذلك، حيث كانت ابنتها ستعود متأخرة من المدرسة، ولم تكن على يقين من أن كوستيس سيأتى لتناول الطعام معهم.

- «ربما فى يوم آخر إذن، ستأتين مرة أخرى لتستكمل ما بدأناه، "أليس كذلك؟" (قالتها بالفرنسية)».

- «بلا شك» أجابتها هايكى (بالفرنسية) وهى ترغب فى مغادرة المكان بأسرع وقت ممكن.

- «وإذا ما دوت صفارات الإنذار، أو بدأوا يقصفون المدينة؟» قالت ذلك إيفيت فى محاولة منها لإقناعها بعدم الرحيل.

- «لا تشغلى بالك. فهناك الكثيرون ممن يأتون ويذهبون بالترامواى» (قالتها بالإنجليزية). سأراك إذن مساء اليوم فى النادى».

قالت هايكى ذلك ثم خرجت مسرعة إلى الشارع. فى تلك اللحظة كان الجنود النيوزيلانديون قد خرجوا إلى الشاطئ وبدأوا يرتدون ملابسهم وهم يرتجفون من الهواء البارد الذى يهب عليهم من البحر.

* * * * *

كانت خاريتوميني هي الوجه الجديد في منزل آل خاراميس، تلك المرأة التي تنحدر من جزيرة سيمى باليونان والتي كانت تعيش مع ابنها الوحيد أمام باب ستة" (ذكر ذلك باللغة العربية وِدُونُها بحروف يونانية) بالميناء القديم، لكنها اضطرت بعد سنوات طويلة إلى مغادرة المنطقة التي تعيش فيها لأماكن أكثر أمناً، من أجل أن تنجو بنفسها وبأسرتها من ذلك القصف المستمر الذي كان يطاردها حتى في نومها المضطرب. كان زوجها المتوفى غواصاً ماهراً يدعى بانديليس، إلا أنه لفظ أنفاسه الأخيرة في قاع البحر بالقرب من بنغازي. ومنذ اللحظة التي كان ابنها المدلل يؤدي واجبه الوطني باعتباره ابناً حقيقياً للجزر الاثنتي عشرة ثم تطوع بعدها في الجيش اليوناني لمحاربة الإيطاليين المستعمرين، اعتبرت خاريتوميني أن الحرب قضيتها الشخصية، ولم يكن تغمض لها عين في طوال ساعات الليل، ليس فقط بسبب القنابل التي كانت تسقط فوق رأسها، ولكن أيضاً، وبشكل أساسي، بسبب قلقها على مصير ابنها فوتيس.

لقد حولت خاريتوميني قلقها إلى العمل كطاهية في منزل آل خاراميس. وكان كوستيس، الذي لم يبد موافقته على عملها في المنزل، يحاول إقناع والدته بطردها من المنزل. لكن السيدة ذافني كانت قد اتخذت قرارها بالفعل، ولأنها كانت تعتبر أنها قدمت تنازلاً كبيراً عندما تخلت عن الأنسة جابي وأخيها، فقد طلبت منه عدم التدخل فيما يخص الخدم بالمنزل.

لم يكن كوستيس يرغب بالفعل في طرد خاريتوميني، لكن ماذا يفعل معها وقد أصبحت دائمة الإزعاج، فائتاء سماعه إذاعة ال بي بي سي في الراديو، محاولاً أن يتابع ما يحدث في الحرب، تسأله قائلة: «ماذا يقولون، يا سيد كوستيس، ماذا يقولون في إذاعة ال بي بي سي؟ هل سيضع هتلر يده على اليونان؟ أه، يا صغيري فوتيس»، وكان التدخل الألماني في البلقان يبدو وكأنه لحن شاذ في تلك المعزوفة التي تلعبها الانتصارات الحربية اليونانية على الإيطاليين. انهمرت دموع المرأة العجوز بشدة وحاول كوستيس تهدئتها على الرغم من شعوره بالاشمئزاز عندما يتخيل أن دموعها قد تنساب على الطعام الذي يتناولونه. أما بالنسبة للباقيين فقد ذكر لهم منذ البداية أن هتلر لم يكن ليدع قوات الطفء بأية حال من الأحوال لتخذه.

بدأ الغزو الألماني لليونان في السادس من أبريل. بعد ذلك بعشرين يوماً بث راديو أثينا الحر إذاعته للمرة الأخيرة، وفي ظهيرة اليوم التالي أعاد إذاعة برامجه ولكن بلغة مختلفة لم يكن كوستيس يعرفها تماماً مثلما كان يعرف اليونانية: «!Achtung Achtung» (انتباه، انتباه). «في ذلك اليوم كادت السيدة خاريتوميني أن تفقد حياتها من هول الصدمة. فقد سقطت فوق أحد المقاعد الضخمة في غرفة المعيشة، ممسكة بيدها أحد التماثيل المقلدة - لحسن حظها - وقد استمرت السيدة ذافنى والمربية ميس فين في وضع الكمادات على رأسها لتهدئتها. وفي الأيام التالية عادت بعض الشيء إلى وعيها بعد إبلاغها بأن ابنها قد عاد سالماً إلى جزيرة كريت، ولكن حتى تنتهى معركة كريت ويعود إلى الإسكندرية في نهاية شهر مايو كان عليهم أن يعانون ما عانوه.

لكنه لم يعد بمفرده. «لقد أحضر لنا فوتيس معه الملك وكل أعضاء الحكومة» هكذا كانت خاريتوميني تقول بلهجة مفعمة بالنصر، وعندئذ لم تتردد ذافنى في أن تشدها من أذنها قائلة بلهجة حادة: «اسمعي جيداً، يا مدام خاريتوميني، نحن هنا جميعاً من مؤيدى فينيزيلوس، "مفهوم؟" (قالتها بالفرنسية) فلا حديث هنا عن الملوك وعن الحمقى!» ثم أرتها على الفور تلك الصورة التى التقطتها مع زعيم الأمة فينيزيلوس فى منزلها فى عام ١٩١٥ .

فلتتبع الأمور منذ البداية كما وصفها كوستيس فى مذكراته:

«الخامس والعشرين من شهر مارس لعام ١٩٤١: عروض كبيرة فى احتفالات هذا العام. كلمات الثناء فى كنيسة إيفانجيليزموس، حفلة فى القنصلية ثم عرض عسكري فى استاد الجالية يتبعه عشاء رسمى فى فندق "ويندسور". وسط تلك الاحتفالات يبدأ البعض فى الإشارة همساً إلى غزو هتلر للبلقان. بدأت الحملة العسكرية لجيوش الحلفاء منذ أيام فى الرحيل بعد أن حددت وجودها على الحدود اليونانية البلغارية. تتردد تصريحات وخطب تشرشل بين الحين والآخر فى إذاعة الـ بي بي سى بشكل مستمر، حيث يظن البعض أنه يلقيها أمام مجلس الجاليات الأجنبية، لكنه فى حقيقة الأمر موجود فى كابينة إحدى الطائرات الحربية المتجهة إلى أفريقيا.

تشبه هذه الحرب لعبة الشطرنج بين تشيرشل وهتلر. فالتحركات غامضة والخصمان كلاهما قوى. فى تلك الأثناء، وردت أنباء طيبة إلى المنزل. فقد تمكنت والدة هايكى من العبور إلى إسبانيا فى نهاية شهر سبتمبر الماضى. ولأن البحر المتوسط مغلق، تأخذ الخطابات دورة كاملة حول أفريقيا حتى تصل إلى وجهتها بعد عدة شهور. لم تخبرنى هايكى بأكثر من ذلك ولم أسع لمعرفة المزيد. كل ما أتمناه الآن أن تقلل زوجتى الجميلة من إدمانها للشراب».

وبعد عدة أيام دون كوستيس ما يلى:

«أمسكت بهايكى وهى تشرب الخمر مرة أخرى. لقد توقفت منذ وقت طويل عن الذهاب للنادى. "لو أنك ستشربين الخمر، فمن الأفضل أن تقدميه للجنود" هكذا قلت لها. لكنها لم تجب. سألتها لماذا لم تعد تلتقى مارتا أدريانى. فقلتك السيدة تأثير إيجابى عليها. ولكنها لم تجب أيضاً. حقيقة لا أعرف ماذا أفعل.

لقد بذل فابيو كل ما فى وسعه، وستتم الموافقة على القرض بين يوم وآخر. هل سأحصل عليه بالفعل؟

فى تلك الأثناء، انتابت نزعة الشيوعية نيكيتاس مرة أخرى. لقد عانينا كثيراً لكى نخرجه من سجن كوم الدكة.

بات الاحتلال الألمانى لليونان أمراً متوقعاً بين يوم وآخر. ما زالت خاريتومينى بالمنزل لكى تصيبنى بالدوار مساء كل يوم، وعندما تسألنى: "هل سيلتهم هتلر اليونان فى نهاية الأمر؟" كنت أجيبها قائلاً: "ماذا تقولين، يا عزيزتى، وهل الوطن عبارة عن قطعة بسكويت؟" عندئذ يتملكها الضحك، يا لها من حمقاء! لكنها فى الطهو لا يضاھيها أحد. وبجهد قليل من الممكن أن تصبح السيدة خاريتومينى مثل الخالة ماريّا. ما أروع الأرض بالخلطة الذى تصنعه! عندما يحل موسم البلح سوف تصنع منه الجيلي تماماً مثلاً يصنعه فى سيمى فى اليونان، فلنرى إذن.

السادس من أبريل، وقت الألمان، من ينقذ اليونان من همجية هذا الكافر؟ كانت خاريتومينى تقرأ الفجآن فى الصباح لوالدتى. وبالطبع بعد تناول الأرض بالخلطة،

الذى يعد من الأسباب المهمة التى تجعلها تحتفظ بعملها فى المنزل. لكن عندما علمت خاريتومينى بالأنباء، تبدلت الأدوار. أصبحت ذافنى هى التى تقوم بمواساتها طوال اليوم. بينما كنت أنتظر حلول موسم الأعياد لتناول من يدها أنواع الحلوى والقطاثر. لقد أيقنت الآن أننا سنقضى عيداً حزيناً بسبب هذه المرأة البدينة التى أتت بها ذافنى إلى المنزل.

أمضيت بالأمس ليلة صاخبة فى ملهى كويباكير بصحبة نيكيتاس وميسا، حيث الشيشة والرقص البلدى وفتيات من كل الجنسيات. رقص ابن خالى طوال الليل، وهو يصيح: "آه يا إسكندرية، لن يأتى عليك الدهر أبداً". تمنيت لو أن إيفيتس كان معنا، فلمن ضحى "هيمنجواى البلقان" بحياته؟».

وبعد عشرين يوماً تحققت التوقعات المشؤمة: «أصبح الأمر حقيقى. لقد دخل الألمان أثينا. صحة وعافية على أبداننا! ولحسن الحظ تمكنت من الحصول على القرض. فى تلك الأثناء، كادت خاريتومينى أن تضيع منا، اضطرت لإستدعاء ستيفانوس باتيلوس، طبيب العائلة. لم أره منذ خمسة أعوام، وقد أرعبنى منظره. فقد أثر فيه الزمن بشكل واضح. قمت بمداعبته قائلاً: " أهذه هى ألمانيا التى حدثتنا عنها ونحن أطفال؟ ". عندئذ أخفض رأسه ولم يقل شيئاً. إنه إنسان محترم. أتخيل مدى حزنه. أعطى للطاهية حقنة مهدئة. وفى المساء تعافت خاريتومينى. وتوجهت نحوى فوجدتنى جالساً فى الصالون ذى الطراز المصرى وألقت على قصيدة شعرية من تأليفها:

ناكل زيتوناً، ناكل زيتوناً

لكن البذرة لا نرميها

فمن أجل هتلى نحن نبقىها

عليه وعلى جنوده سوف نلقيها.

ترى ما الذى أعطاه الطبيب للعجوز المسكينة! كانت أمها تطلق عليها لقب (أكلة الزيتون)».

تمر الأيام والمحنة تزداد:

«حتى الآن لم يملوا من قصفنا بالقنابل. أود أن أعرف ماذا سيفعلون لو كانوا في مكاننا وأجبروا على سماع المصريين وهم يعلنون عن ضحايا القصف بشكل يومي. في تلك الأثناء، كنا نشغل أنفسنا بجبهات القتال الأخرى ونسينا الحرب التي تطرق أبوابنا. فالألمان على الحدود، عند السلوم. إتصل بي صباح اليوم إلياس وقال وهو في شدة الفرع: "إنهم يضغطون في وزارة الحرب على تشرشل من أجل إخلاء مصر. ألا يوجد من يردع هذا الشيطان روميل؟ ماذا سنفعل؟". ماذا سنفعل؟ هذا هو السؤال. فاللبناني، في كل الأحوال، قد وضع بيروت نصب عينه للسفر إليها، حيث قال: "ولكنهم مازالوا بعيدين، ولو استلزم الأمر، يكفي أن لا أقع في أيديهم". يقول إنه قد سمعهم في الراديو وهم يشيرون إليه بالاسم. أعتقد أنه يبالغ قليلاً. لكن من يدري؟ فالدعاية وأساليب نشر الخوف تتناقل كثيراً هذه الأيام. يبدو أن الحلفاء يخسرون حتى معركة كريت. وبعد كريت، على من سيحل الدور؟ في كل الأحوال، على الرغم من خسائر البريطانيين المؤكدة في البر والبحر والجو، أعتقد أنه من المبكر مناقشة فكرة الهرب من الإسكندرية. ولكن إلى أين سنذهب؟ لسنا جميعاً لبنانيون».

في العاشر من شهر مايو كان لدى كوستيس - بخلاف أي شخص آخر - سبباً للكتابة عن حدث كان له تأثير عالمي: «نجا الأب الروحي لأخي بقفزة بالمظلة قبل أن تتحطم طائرته فوق أسكتلندا. هل طار رودلف إس حتى بريطانيا العظمى للتفاوض على السلام أم لتقسيم العالم إلى قارتين؟ يؤكد المقربون منه أنه مجنون، وفي بريطانيا يوافقون على هذا الرأي. بدى تشرشل منزعجاً. كم أود لو أعرف ما الذي يدور بخاطر ماخوس الآن».

مع استمرار الحرب، تتوارد أنباء سارة وأخرى سيئة. ولم يفوت كوستيس الفرصة ليذكرها في مذكراته:

«انتهت معركة كريت. وعلى الرغم من إصابة الأسد البريطاني بجرح عميق فإنه مازال قابلاً هنا في القرن الإفريقي منتظراً الصدمة التالية من العدو. تُرى من لديه القدرة على قلب الأمور؟».

يتحدث الجميع فى الإسكندرية عن ظهور الملك وحكومة تسوزيروس فى مصر. وعن ذلك نون كوستيس فى مذكراته وجهة نظره على النحو التالى: «ما علاقتنا نحن بهذا الملك الأسطورى النحيف الذى يرتدى بذلة عسكرية وبنطالاً قصيراً، ويتجول هنا وهناك وكأنه مبعوث مجدنا الوطنى؟ يجر من خلفه العديد من الأمراء الذين أصابهم السأم من كثرة الانحناء.

حتى أنصار ميتاكساس، نزلوا فى كامل زينتهم. يقال إن شخصاً يدعى نيكولوديس مرر من الميناء خمسين صندوقاً من "الحقائب" لا أكثر ولا أقل.

وبالنسبة لحكومة تسوزيروس، نمت إلى سمعى أن الحكومات أصبحت أكثر مما نحتاجه - لو كان الأمر كذلك - فسوف أشتري لنفسى حكومة أو اثنتين، يا أخى!

على أية حال، وقعت الكارثة الكبرى فى صفوف جيشنا. فقد امتلأت الإسكندرية بضباط من الجيش اليونانى يبحثون جميعاً فيما بينهم ربما يجدون جندياً واحداً. تقوم القنصلية بجمع شبابنا داخل مدارس الجالية. إنه تجنيد عام. ويقوم ضباط الجيش باختبارهم من أجل توزيعهم على الأسلحة الثلاثة. تم استدعاء الشباب من مواليد عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٣. وكان من بينهم ثناسيس ابن عم نيكيتاس. وقد تم توزيعه على سلاح الطيران. وهو موجود فى الوقت الحالى فى أحد المعسكرات الإنجليزية فى منطقة كبريت التى تقع بين الإسماعيلية والسويس. كان الله فى عونته!»،

بعد أيام قليلة تم تحديد الأعداد الأولية للجيش اليونانى الذى يتألف من ثمانمائة جندي من اليونانيين المصريين، وكذلك من بعض اليونانيين؛ وقد بدأ كوستيس فى رصد الأحداث على النحو التالى:

«أصحاب الجنور المصرية! نعم لقد سمعنا ذلك من اليونانيين (عن أبنائنا). ملازم ثان، صعلوك، وهو أحد أقارب مانياذاكيس، صوب سلاحه إلى أولادنا وهو يطلق عليهم لقب "أصحاب الجنور المصرية". وهنا كان لزاماً على أن أقول إننا جميعاً قد انزعجنا

من ذلك، غداً سوف نقدم طلباً رسمياً لاستبعاد بعض الأشخاص من حزب ميتاكساس. أه، كم كان والدي على حق عندما كان يتحدث عن اليونان! يعرض حالياً في دور السينما فيلم كازابلانكا للبطل هامفري بوجارت».

وسط كل تلك الأمور التي تشغله وجد كوستيس الوقت ليصف لنا ابن خاريتوميني في مذكراته بقوله:

«من كان يتوقع أننا بعد أن رأينا الطاهية العجوز سوف نرى ابنها أيضاً! فبالأمس خرج من المعسكر بتصريح وحضر بزيه العسكري لزيارتنا. بعد تناول وجبة "الغداء" (دونها بالفرنسية) اصطحبته وجلسنا في "كشك الصداقة". فلابد من الدعم النفسى لكل من يشارك في الحرب. كادت أمه أن تفقد وعيها من فرط سعادتها! إنه شاب جاد، لكنه مغرور بعض الشيء بسبب زيه العسكري، ويبدو أنه قد ورث البدانة عن والدته. تحدثنا لوقت طويل عن جبهة القتال في ألبانيا وعن معركة كريت الخاسرة. حقائق كثيرة وأيضاً قصص خيالية كثيرة. بطولات حقيقية وأخرى مزيفة تختلط بين شفاهة. سوف تتقدم وخذته العسكرية في القريب العاجل إلى جبهة القتال في الصحراء. سألت خاريتوميني: "ألا تشعرين بالخوف عليه؟" فأجابت بقولها: "طالما وطأت قدماه تراب مصر مرة أخرى وأصبح بجانبى فلا خوف عليه". كم يتصف سلوك البشر أحياناً بالغرابة!».

* * * * *

مضى وقت طويل منذ أن ذهبت إيفيت إلى شارع يانچ، وعندما تلقت إخطاراً للقاء مستر "فويس"، كان ذلك في نهاية شهر يونيو من عام ١٩٤١. في تلك الأثناء، كانت هناك أشياء كثيرة قد تغيرت في حياتها. لقد أَلقت الأقدار بها يكي بين أحضانها، في حين لم تكن هايكي قد أدركت ذلك تماماً، وكانت تعرف أنها ينبغي أن تستمتع بذلك تماماً، لأنه أمر لم يكن يستمر لفترة طويلة.

عندما وصلت أمام المبنى الكائن بشارع يانج، لاحظت صعوبة أن يلفت هذا المبنى انتباه أحد، وبخاصة لأنه يبدو مغلقاً ومهجوراً خلف سياج الأشجار التي تخفيه عن الطريق؛ ولكل من يعرف، كان هذا المبنى بمثابة قلب الحكم البريطاني وليس مقر الشرطة بالطارين، أو في المعسكرات الموجودة بشارع مصطفى باشا أو في الميناء الغربية. لم تعد الإجراءات تضايقها، ومنذ اللحظة التي أعلنت فيها الحرب، أصبحت الأمور أكثر صرامة وكان لابد أن يتم وضع كلمة سر جديدة تكون مأخوذة أحياناً عن عبارة من مسرحيات شكسبير المعروفة أو شعار إعلاني، وهو ما قرأه شخص في إحدى حافلات لندن المكونة من طابقين. كانت لهجتها الإنجليزية تزعم الإنجليز المتشددين وكان مستر "فويس" دائماً ما يعلق عليها.

والحقيقة، فبمجرد سماعها لهذا الصوت الرجالي الخشن يرحب بها، كان ينتابها إحساس بأنها تجلس بالقرب من صديق حميم، وكانت تتحرر من ذلك الشعور بالضيق الذي يسيطر عليها عند عبورها الباب الخارجي الذي يحمل شعارات غير مفهومة. في البداية كانت تعتقد أن من يحدثها يراها من خلف إحدى المرايا الخفية، لكن بمرور الوقت أصبحت تعتقد أنه من المستحيل أن يراها من مكانه، وكان هذا بالطبع أكثر أماناً للجميع. على أية حال، فلم تكن وظيفتها تتضمن نقل المعلومات، ولكنها اقتصرت على تلبية بعض الرغبات، من خلال إمكاناتها التي عرفت عنها بعد كل هذه السنوات، والتي تعتمد على قدراتها الكبيرة في الإدارة.

في هذا اللقاء فاجأها مستر "فويس" بالحديث في موضوع غاية في السرية، والتي لم تسمع عنه إيفيت من قبل سوى القليل دون أن تدرك أن هذا الموضوع يخص ظاهرة معتادة ذات أبعاد مختلفة. ففي الشهرين الماضيين لم تكن تمر ليلة دون العثور على جثة إحدى مجندات الجيش أو البحرية مذبوحة في أحد المتنزهات بالإسكندرية أو على ضفاف ترعة المحمودية. لم تكن المجندات يحملن الجنسية البولندية فقط أو من الكومونويلث، ولكن كان من بينهن أيضاً مجندات إنجليزيات. ومما يثير القلق هو؛ عدم وجود أية علامات تدل على اغتصاب أى منهن، ولكنهن وقعن بمحض إرادتهن في فم

الذئاب. فى البداية ظنت البحرية أن الأمر يتعلق بأحد المختلين عقلياً، يستمتع بهن ثم يقوم بذبحهن بعد ذلك. الآن أصبح بحوزتهم بعض الأدلة التى تشير إلى وجود جماعة إرهابية من المصريين المتشددين وراء هذه الجرائم تحت قيادة بعض عملاء العدو.

فويس: «لعلكم تقدرون مدى الفضيحة التى سوف تتفجر إذا ما انكشف أمر هذه الجرائم». هكذا علق مستر "فويس" بصوت قلق بشكل غير مسبوق عبر مكبرات الصوت المتناثرة بالغرفة.

إيفيت: «نعم أرى ذلك (قالت ذلك بالإنجليزية)، لكن كيف يمكننى المساعدة؟»
- «فى البداية لابد أن تكونى حريصة أثناء الليل».

أرادت إيفيت أن تخبره بأنها لم تعد شابة صغيرة لتصبح عرضة للتهديد المباشر من قبل جنون هؤلاء المتشددين، لكنها تداركت الأمر، لأنه إذا لم يكن حقاً يراها، فلا داعى لأن يكتشف سنها. ومن ناحية أخرى، حتى لو كانت فى الخمسين من عمرها، فما أهمية ذلك؟ هل أصبحت غير مرغوب فيها من قبل الرجال أو النساء؟ عندئذ أجابته بقولها:

«ساكون حريصة، "هذا وعد منى بذلك" (قالت ذلك بالإنجليزية). لكننى أتخيل أنكم لم تقوموا باستدعائى هنا من أجل تحذيرى فقط».

عندئذ قام مستر "فويس" بطريقة مهذبة بتصحيح لغوى فى لغتها الإنجليزية، ذلك التصحيح الذى لم تفهمه إيفيت، ثم أضاف قائلاً:

- «نحن بحاجة لتعاونكم المخلص معنا مرة أخرى».

- «نعم، ولكن كيف؟ كيف يمكننى مساعدتكم؟».

- «نحن نتعاون فى تحقيقات هذه القضية الغامضة بشكلٍ اضطرارى مع الشرطة المصرية. وهناك ضابط مصرى يدعى نور هو الذى يتولى التحقيقات. هل تعرفينه؟».

- «أعرفه جيداً».

- «وما رأيكم فيه؟».

- «هل تريدون أن أقول لكم رأى فيه؟».

- «بالتأكيد، لهذا نسألكم».

تسبب لها مجرد التفكير فى الضابط نور فى حالة من الغليان. تذكرت المروحة التى تحتفظ بها فى حقيبة يدها، لكنها لم تستخدمها، كما لم تفكر فى أن تشعل سيجارة. كانت ترى أن فى عدم فعل ذلك دليلاً على الاحترام، وعندئذ أخذت نفساً عميقاً قبل أن تجيب قائلة:

- «حسناً (قالتها بالإنجليزية)، لو أننى فى مكانكم، لم أكن لأثق فيه بشكل كبير. تعلمون.....».

- «أكملى، نحن نسمعكم جيداً».

- «البعض يقول عنه وعن ضباط الشرطة المصرية إنهم ينتمون إلى الجيل الجديد من طائفة المتشددین. لا أريد أن ألمح لشيء معين، ولكن هل تجدون أنه من الصواب أن تتركوا الذنب ليرعى الغنم؟».

- «وأنتم كيف تعرفون كل ذلك؟ ما أريد أن أقول هو إن.....».

- «لقد قام الضابط فريد بترشيحه بوصفه خليفة له عندما تم سحبه من الخدمة فى الشرطة، ولكن صدق أو لا تصدق، من وقتها لم ألتق به إلا مرتين أو ثلاثاً. أنتم تعرفون موقف هؤلاء الضباط الذين "انشغلوا بأداء الواجب" وأصبح من الضرورى أن نتعامل نحن مع الواقع السيئ بخصوص مساعدة الشرطة المصرية».

- «أعلم ذلك وأؤكد لكم أنكم قمتم بواجبكم بإخلاص تجاه عائلات هؤلاء الضباط».

- «إذن؟».

- «لنفس السبب أطلب منكم أن تضغطوا على أنفسكم بخصوص علاقتكم بهذا الرجل ومن حوله حتى نستطيع أن نحل هذا اللغز. ما رأيكم؟».

كان لدى إيفيت شعور دائم بأن مستر "فويس"، على الرغم من لباقتة الإنجليزية، فإنه كان يعتقد أنها ساذجة. وفى هذه الحالة بالتحديد فقد أدركت أن

التعاون المطلوب من ناحيتها مع الضابط نور والوسط المحيط به هو السبب الحقيقي لستدعائها. وعندما قامت فيما بعد بمناقشة الأمر مع إلياس، عبرت له مرة أخرى عن اندهاشها بقولها:

«هل هم الذين لا يصرحون مطلقاً عما يريدونه منى بالضبط أم أنني أنا التي ينتابها دائماً انطباع خاطئ بذلك؟».

أما إلياس، الذي كان على دراية أكبر بلعبة القط والفأر، فقد اقترح عليها تصويراً ثالثاً بقوله:

«ألم تفكرى أن بمعلوماتهم الناقصة يأملون أن تعملى بالطريقة التي يريدونها هم، متجاهلين في النهاية إذا ما كنت ذات فائدة لهم أم لا؟».

وكان على اللبناني أن يخبرها بنبأ غير سار:

- «أتعلمين أن الضابط فريد قد مات مساء أول أمس وهو نائم؟ أزمة قلبية. في الوقت الذي كانت صفارات الإنذار تدوى، لقد تعجبوا من أنه لم يسمع دوى صفارات الإنذار وينهض، وعندما حاولوا إيقاظه تأكدوا من وفاته».

- «غير حقيقى! (قالتها بالفرنسية)، مات عزيزى فريد السمين!».

- «مهما يكن الأمر، فقد كان محظوظاً. الأمر السيئ هو محاولة البعض أن يعطى لجنارته طابعاً خاصاً بالهتافات الشعبية مثل: "تحيا مصر، يسقط الطغاة"، لقد حقق الضابط نور ورفاقه المعجزة مرة أخرى».

- «هكذا إذن! (قالتها بالفرنسية) وبعد ذلك يأتى مستر "فويس" ليطلب منى التعاون مع هذا النوع من البشر».

أيقظت أنباء جنازة فريد داخل إيفيت ذكريات أول جنازة رأتها لمصرى منذ خمسة وعشرين عاماً، والتي تصادف أن جاءت بعد عودتها من إسطنبول، الآن فكرت فى أمر ما مما جعلها تصاب بنوبة من الضحك، فقد تخيلت أن المرحوم وهو فى نعشه الخشبي

كان سيفضل أن يضع فوق النموذج الخشبي للرأس التي كانت تغطي النعش ما يدل على فحولته بدلاً من الطربوش(*).

الآن وقد مات فريد فقد أصبح موته سبباً لكى تلتقى صديقين قديمين من جديد: إلياس خورى وصمويل عظيمان. لقد قرر إلياس العربى وصمويل اليهودى أن يتجاوزا خلافاتهما بشكل مؤقت. وبعد كل هذه السنوات عادا "للعب الورق" (ذكرها بالفرنسية) معاً من جديد، ولكن حتى هذا الوقت كانت المكائد السياسية تختبئ وراء الابتسامات والدعابات وتذكر الرجلين اللذين أصابهما الهمم الأيام الخوالى: إحتساء الخمر وتدخين السيجار ومداعبة الفتيات الصغيرات فى منزل اليهودى الثرى.

أخبر إلياس إيفيت أن "سامى" (يقصد صمويل) قام بنقل جزء كبير من مجموعته الأثرية إلى جنوب أفريقيا، ومع أول إشارة لدخول مصر فى الحرب سوف يغادر الإسكندرية. وعندئذ أشارت عليه إيفيت بقولها: «ولماذا لا تفعل ذلك أنت أيضاً».

لكن "البنانى" كان له خطط أخرى، على الأقل فى الوقت الحالى، لا تتعدى ذهابه لبيروت.

«سوف أصطحبك معى إلى بيروت» قال ذلك إلياس بطريقة ترددت صداها فى أذن إيفيت وكأنها تهديد. كانت على وشك أن يقول شيئاً، لكنه غير الموضوع قائلاً: «حقاً، لم تخبرينى كيف تسير أحوال السيدة خاراميس منذ عودتها لأداء خدماتها فى النادى».

كانت إيفيت تخشى أن أية إجابة ستقولها، كانت ستفضحها أمام أعين إلياس، لذلك ردت عليه بطريقة جافة قائلة (بالفرنسية): «بشكل رائع، بشكل رائع» لكنها لم تكن واثقة إذا ما كان الاضطراب الذى سيطر عليها كان مكشوفاً أمام إلياس، ذلك الشيطان الشامى.

* * * * *

" كيف تواجه الإنسان ورغباته؟ "، هكذا كانت هايكى تتساءل فى كل مرة تفكر فى إيفيت. وكان تساؤلاً لم تستطع أن تستثنى نفسها منه، لأنه حتى لو كان الكحول قد جعلها تنسى مأساتها فإن هناك أوقاتاً كثيرة استطاعت خلالها أن تدرك مدى فداحة خطئها. نفس الشيء كان بوسعها أن تقوله عن إيفيت، فلم يكن من المقبول أن تكون نفس هذه المرأة الغامضة بهذا القدر من السوء الذى تحاول إظهاره، كان هناك شيء لا يمكن مقاومته فى الطريقة التى تنظر بها إليك، شيئاً لا تستطيع أن تراه إلا فى عيون البشر الأنقياء. إنه لأمر مدمر لمثل هذه الروح البريئة أن تعيش فى مثل هذه المدينة الخائنة، بهوائها الملوث الذى تتنفسه بما يحتويه من رغبات محرمة. فما الإسكندرية إلا امرأة لعبوب! بسماؤها وبحرها وصحرائها، كمشهد سينمائى به واجهة الكورنيش ذات الطراز الأوروبى، مثل قشرة إحدى الفواكه الإستوائية التى لها مذاق " الإسلام " (هكذا ذكرتها)، ما الذى تفعله هنا نساء مثلاً أو مثل إيفيت؟ فقد أصبحت هى نفسها أسيرة لرجل يزداد بعده عنها يوماً بعد يوم، فى حين أن مدام شانتون وحيدة وبائسة، لا تجد لها سلوى سوى مداعبة من هن أصغر منها سنّاً لعلها تجد فيهن شبابها الضائع.

لكن هايكى لا تزال شابة صغيرة وكانت تتمنى لو أنها استطاعت أن تفر يوماً ما من شواطئ الإسكندرية المغرية، ومن الجمال المصطنع للشوارع والمنازل، ومن بحر الإسكندرية الخالد ومن شمسها، الأمر الذى مكنها من أن تتسامح مع كل هذا الفساد الذى يحيط بها؛ ولذلك فقد تركت يدي إيفيت المرتعشة تعبت بها وبجسدها (*). لكنها بدأت بعد وقت قليل تتساءل وهى تشعر بالفزع: هل هذا يعنى أننى أصبحت مثلية؟ ثم انتابتها بعد ذلك مباشرة نوبة من الضحك لتلك الفكرة التى راودتها، فبالطبع لم تكن مثلية. وقد حاولت مرة أو مرتين فى فيلا لوران أن توضح لإيفيت خطأ ما تقترفه لكنها فشلت فى ذلك فقررت أن تعاملها بطريقة جافة وحادة. ولحسن الحظ فلم تكن هايكى تقف وحدها فى مواجهة أمواج البحر المتلاطمة. كان لديها أناس مقربون منها تهتم بحالهم، كانت لديها اهتمامات شخصية خاصة بها، أمور تشغلها، تطلعات ترغب فى

تحقيقها. لم تعد هايكى تذهب أيام السبت والثلاثاء إلى النادي. حيث كانت تفضل الاستمتاع بالأمسيات الموسيقية فى منزل أسرة ميناسيه فى شارع راصافا. لقد أتيحت لها الفرصة لكى تستمع إلى عزف جينا باهاوير على البيانو عزفاً ثنائياً مع جورج دى ميناسيه، وأيضاً لكى تتناقش مع البعض من صفوة اليهود بالإسكندرية عن تطورات الحرب وسياسة البريطانيين المعادية للسامية فى فلسطين. وبعد كل تلك المناقشات كانوا يقدمون الشاى والأطعمة بوفرة، تلك التى كانوا يشترونها من "بودرو" أو من "باستروذيس".

كانت هايكى دائماً ما تطلب من كوستيس أن يذهب معها، ولكنه كان يرفض قائلاً: «أوف، كم من المال سينفق جورج لكى يثبت لضيوفه مدى موهبته فى العزف على البيانو؟ ما كل هذا الغرور، يا إلهى!».

ورغم ذلك فقد قبل الدعوة مرة واحدة فقط، عندما أخذت هايكى مكان باهاوير وعزفت عزفاً ثنائياً مع رب الأسرة، ولكن فى تلك الليلة غادر كوستيس فى منتصف الحفلة، وفى المساء كانت لديه الجرأة ليبدى لها انتقاداته، قائلاً: «لابد أن تتدربى باستمرار، يا حبيبتي. أعتقد أنك قد فقدت موهبتك منذ زمن».

وكانت هايكى تعرف السبب الحقيقى وراء هذه اللهجة. فلم يكن كوستيس راضياً عن اختلاطها "بطبقة اليهود" (قالها بالفرنسية) فى الإسكندرية. حيث كان الناس يتهايمسون منذ زمن عن قيام عائلة خاراميس بتمويل فكرة تأسيس وطن غير شرعى لليهود فى فلسطين، مما كان يتسبب فى تعرضه للعديد من المشاكل مع القيادة البريطانية حتى حانت اللحظة التى قال فيها كوستيس بصراحة:

«لقد اعتدت الذهاب بانتظام إلى المعبد. ولا مانع لدى فى ذلك» (قالها بالفرنسية). لكن لابد أن تعرفى أنه من الخطورة الدخول فى مناقشات حول فلسطين. مما يجعلنى فى موقف حرج مع الإنجليز. والأمر هنا يتعلق بالعمل وليس بالأحلام».

كان الازدراء هو آخر ما كانت تتوقعه هايكى من كوستيس، ولذلك فقد بادرت به بقولها:
«لا تضايق نفسك، يا سيدى (قالت ذلك بالفرنسية). أعلم كيف أهتم بمصالح
بلدى دون أن أعرض مصالح زوجى للخطر».

عندئذ أخذ كوستيس يهمهم بشيء غير مفهوم باليونانية، ربما كان يسخر بوضوح
بُمثلها الصهيونية، ثم قال لها بشكل جاد:

«بدلاً من البحث عن أوطان ضائعة، ألا تظنين أنه من الأفضل لو أنجبنا طفلاً
آخر؟ فذاقنى الصغيرة بحاجة لأخ صغير، ولن تظلى شابة طوال حياتك».

هايكى: «فلسطين ليست وطناً ضائعاً بالنسبة لليهود، يا كوستيس».
كوستيس: «دعى الحرب تنتهى أولاً، وإذا ما ترك هتلر يهودياً واحداً على قيد
الحياة فى هذا الكوكب، فسوف نرى وقتها عن أى وطن نتحدثين».

- «حتى أنت تتمنين فى أعماق نفسك أن يمحق جنسنا» هكذا أبدت هايكى
ملاحظتها وقد انتابها حزن شديد.

- «حاشا لله، لست معادياً للسامية، يا عزيزتى» (قالها بالفرنسية). لكن هنا
فى مصر اعتاد اليهود أن يهتموا بشئونهم فقط دون الاهتمام بتعاليم صهيون،
ولا أجد سواك وخمسة أو ستة أشخاص آخرين يهتمون بهذا الأمر، لابد أن
تدركى هذا».

- «هنا سوف أختلف معك. كان يمكن لذلك أن يحدث قبل عشر سنوات، لكن اليوم
يدرك الجميع بشكل كبير أن مصر ليست "أرض الميعاد" بالنسبة لليهود السفارديم».

- «هل هذا ما تناقشونه فى منزل ميناسيه؟».

- «نعم، وإذا أردت أن تعرف، فالموضوع لا يتعلق فقط بالجالية اليهودية، ولكنه
يتعلق بكل الجاليات الموجودة فى هذا البلد. فعندما يستيقظ المصريون يوماً ما
من سباتهم فلن يفرقوا بين جالية وأخرى».

يمثل هذا المنطق كانت جيهان تتحدث باسم الأقباط، فهناك العديد من التشابهات إذن بين جيهان وبين زوجته: نفس التعصب ونفس الكراهية لإنجاب أكثر من طفل واحد قد يعرض رشاقتهما للخطر. كان أهل الإسكندرية يتهايمسون لسنوات عديدة عن السيدة خاراميس، وعن أنها لم تتوقف لحظة عن التفكير فى أنها كانت عارضة أزياء فى بيت شانيل للموضة، وعن أن زوجها يرغب فى إنجاب طفل آخر، وعما إذا ما كان ينبغي عليه أن يحصل على طفل آخر من امرأة أخرى.

لكن هايكى أيضاً كانت تعلم جيداً أن الإسكندرية مدينة للشائعات التى تعد بمثابة أوراق الاعتماد للانضمام للمجتمع الراقى بالمدينة. ولذلك فقد كان من المستحيل أن تصبح هايكى طوع بئانهم، حتى إن البعض قد حرص على تقديمها باعتبارها عشيقة لكوكو شانيل فى بداية الثلاثينيات. فى البداية واجهت هايكى تلك الشائعات الكاذبة بشدة، لكنها تعلمت بعد ذلك كيف تواجه النظرات الشائكة بابتسامة غامضة لم تكن تؤكد أو حتى تنفى تلك الشائعات التى تطاردها. إلى هذا الحد فقد كان مروجو الشائعات يتمكنون فى كل مرة من مفاجأتها بشائعات مدوية، مثل شائعة قيامها بعملية إجهاض على يد القابلة رومينا المشهورة بالإسكندرية. وكانت هايكى قد اكتفت بفكرة أنه حتى يأتى اليوم الذى ستفادر فيه الإسكندرية، كان لزاماً عليها أن تتحمل أكثر مما تحملت من أولئك الذين يحكمون على الأمور من تلقاء أنفسهم، ومن الذين كانوا يبحثون فى كل الأمور الخفية، أما الأمور الواضحة فلم تكن مثار بحثهم، ولذلك، من جهة أخرى، فلم تكن قلقة من علاقتها بمدام إيفيت.

حتى الآن، لم يكن بإمكانها أن تفعل شيئاً سوى أن تنتظر حتى تضع الحرب أوزارها، وبعدها قد تتمكن من البحث عن وجهة جديدة لها فى أوربا، حيث ما زالت مجالات الموضة والموسيقى مفتوحة أمامها؛ وقد تتوجه إلى فلسطين - ولم لا - حيث تحلم وتتطلع إلى وطن واحد لليهود من جميع أنحاء العالم. ولم تكن هايكى تعرف أن تلك الفرصة ستواتيها بأسرع مما كانت تتوقع، وأنها ستتمكن من اقتناص هذه الفرصة.

* * * * *

فى نهاية عام ١٩٤١، كان أهل الإسكندرية يتطلعون بلهفة تجاه الأفق الغربى من المدينة، محاولين سبر أغواره والتأكد من صدق ما سمعوه من هذا الرجل الذى صورهم لهم خيالهم رمزاً للتهديد المميت. كانت حرب الصحراء تخفى العديد من المفاجآت غير السارة للحلفاء. من بين هذه المفاجآت خبر استبدال القائد العسكرى أوفيل بالقائد كلود أوكينليك. فقد بات واضحاً أن الإنجليز يبحثون بكل السبل عن رفع الروح المعنوية للجيش بقدر رغبتهم فى زيادة الشعور بالأمان لدى المواطنين العزل، وهو أمر بالغ الأهمية.

لم تكن مصادفة تلك الأنباء التى وردت عن وصول مؤسس اتحاد الترفيه عن القوات العسكرية الجديد الذى كان يستعد لإطلاق مشروعه الجديد تحت اسم ستافروفيروس (حامل الصليب) من أجل الترفيه عن الجنود فى طبرق حتى يتم الانتهاء من أمر روميل ورفاقه نهائياً.

فى شهر نوفمبر من عام ١٩٤١، كتب كوستيس فى مذكراته:

«عروض أوبرا مدام باترفلاى لبوتشيني على مسرح "الامبرا" فى شهر نوفمبر ١٩٤١. إنه بكل تأكيد أكبر حدث فنى بالإسكندرية فى فترة الحرب.

قامت بدور تسو تسو سان (مدام باترفلاى) الفنانة أليس لوريميل التى سحرتنا بصورتها الفاتنة، وكأنها تعلن عن غدٍ أفضل، عندما تغنى قائلة: "سوف نرى يوماً أجمل". كان المشهد الذى تظهر فيه البارجة الحربية الأمريكية وهى ترسو فى نجازاكى يلقى بظلة على مشهد الإسكندرية فى أثناء الحرب. كانت تسو تسو سان تعبر بشكل مؤثر عن قوة العشيقة المخدوعة وكأنها تصور لنا الإسكندرية نفسها، كما كانت السوبرانو أليس لوريميل رائعة، لكن ذلك لم يكن يمثل رأى الجميع. فقد كانت هايكى تتفق مع رأى أولئك الذين يرون أن صوتها غير متزن فى المقطوعات الموسيقية العالية مما يجعلها نموذجاً فنياً سيئاً. لكنى لا أتفق معهم فى ذلك، وأعتقد أن عدم الاتزان قد يجد صداه بشكل مؤثر فقط فى أذن المستمع. ألا يعد ذلك كافياً؟ قررت أن أحضر العرض القادم».

فى اللحظة التى كان كوستيس يكتب هذه السطور لم تكن لديه أدنى فكرة عن نوعية المشاكل التى سوف تسببها له هذه المرأة التى كانت تلقب باسم "العاصفة الرملية". فقد كانت ميس لوريميل، على عكس رواية مدام باترفلاى، تحرص بشدة على أن يكون لها عشيق فى كل بلد فى العالم تذهب إليه، متجاهلة إذا ما كان عضواً بارزاً فى المجتمع ومتزوجاً ولديه طفل، مثل كوستيس.

كتب كوستيس المعجب والمدهور بأدائها بعد يومين فى مذكراته:

«إذا ما كان الحب خالداً، مقدراً له أن يعيش فى حدائق الخلود المعلقة، عندئذ سيصيب كل هؤلاء المشوشين والعنيدى النوار من شدة إبهاره ليقعوا بعد ذلك صرعى فتنة الحب، وربما يتوصلون إلى معنى يفوق ما يتصوره العقل، غير أنه لا يوجد من يؤكد لنا ذلك. وهذا ما يحدث فى الظواهر الكونية اليومية، حيث يحتفل كل من يعتمد على الواقع وعلى تعقله للأمور. ولكن مع استمرار تلك الحرب لمدة أطول، حيث تصبح بحاجة لأن تؤمن بشئ أعظم يفوق قدراتك، ترد على ذهنك العديد من الأسئلة المشابهة التى تؤرقك.

اليوم فى المساء سأتناول طعام العشاء مع السوبرانو الشهيرة. ماذا أقول لها: "إننى مسحور بصوتها" أم "أننى مسحور فقط؟"، وهل لى مقصد آخر غير ذلك؟ لو أستطيع ولو لمرة واحدة أن أستأثر باهتمامها.....».

كان جون أدجوت صديقاً لعائلة أليس، وهو رجل كان يعمل من قبل فى "فيكتوريا كوليدج"، ويعمل الآن باعتباراه محاضراً فى الجامعة التى تأسست حديثاً بالإسكندرية. اعتاد كوستيس فى الماضى أن يلعب التنس مع جون أدجوت فى نادى سبورتنج، ولذلك عندما ذهب كوستيس لهذا الإنجليزى الجنتلمان ذى الحواجب الكثيفة بهدف التوسط له للقاء ميس لوريميل تلقى إجابة واضحة (بالإنجليزية) حيث قال: "إنه أمر فى غاية السهولة، ولكن أرجو أن لا ينتهى بشكلٍ سخيّف".

وفى الأيام التالية، أصبحت الرولفويس السوداء تقف بشكلٍ دائم أمام فندق "سيسيل"، فى انتظار السوبرانو لى تقلها للمسرح، ومن هناك إلى أحد المطاعم الفاخرة أو إلى

إحدى الحفلات المتميزة التي يقيمها أحد أعضاء الجالية اليونانية. لقد بدى على كوستيس فجأة وكأن أليس قد سلبته عقله، تلك الإنجليزية ذات الأصل الراقى والتي تنحدر من تشيلسى، أو "أليس فى بلاء العجائب"، كما كان يحلو له أن يسميها. كان يتابع بوصفه مشاهداً غير مهتم ردود أفعال الآخرين وكان يسجلها فى مذكراته:

«نحن الآن فى حالة حرب، وبينما كان العديد من الشباب يتأهبون ليلقوا بأنفسهم فى ويلات الحرب ويضحون بأنفسهم، كنت أقضى وقتاً سعيداً مع "أليس فى بلاد العجائب". لقد رأنا الناس معاً فى "سانتا لوتشيا" وفى "يونيون كلوب". ماذا كنت أنتظر؟ وكيف أستطيع الاستمتاع بوقتي بعيداً عن هذه المدينة الثرثرة؟ فى صباح اليوم وقعت أول مشاجرة بينى وبين هايكى، فغرست أظافرها فى ظهر يدي وأصابتها بنوب كثيرة. أرانى مضطراً للبس قفازات لبضعة أيام. كان لابد أن أتوقع منها ذلك. أصبحنا ننام منفصلين منذ يومين. هل ستسامحنى؟ لابد أن تسامحنى. إنها لحظة جنون. لابد أن يمر هذا الموقف. وإلا فماذا سيبقى؟».

يبدو أن تلك المشاحنات لم تكن كافية لتردعه عما يفعل. بعد ثلاثة أيام كتب كوستيس:

«رحلة إلى بحيرة مريوط، هدوء واستمتاع، نختبئ خلف أعواد البوص، بينما يقوم ميسا بحراستنا. هل أصابنى الجنون؟ لم يدر بخلدى أبداً إمكانية أن يلمحنا البعض من الجهة الأخرى للبحيرة».

ورغم كل ما كان كوستيس يفعله فإنه كان يجد لنفسه تفسيراً لأفعاله:

«لقد أصبحت كالقروى فى هذه المدينة. إذن ليس هناك أدنى مشكلة! رجل قروى نو مال وفير تبهره المدينة على استعداد لأن يطبخ بكل شيء من أجل أول امرأة يقابلها. بعد غد تسافر أليس إلى جنوب أفريقيا، تنتابنى رغبة شديدة فى الذهاب معها لكن صديقى الأستاذ الإنجليزي أكد لى أنها ستتركنى فى محطتها القادمة من أجل عشيق جديد من بلد آخر. هذا الموقف يجعلنى أشبه "بنكيرتون" بينما هى تشبه "مدام باترفلاي". عد إلى رشدك، يا كوستيس. قبل فوات الأوان».

عندما رحلت " العاصفة الرملية " من الإسكندرية، لم تكن الجروح الموجودة خلف يده قد اندملت بعد، ولم يكن ذلك يزعجه. وقد أشار كوستيس لهذه الجروح في خطابه الذى كتبته لها بعد أيام قليلة قائلاً: «رأيت اسمك وهو يبرق فى لوحة الإعلانات فى شارع ميسالا فخفق له قلبى. لحسن الحظ ما زالت العلامات التى سببتها أظافر زوجتى موجودة لتذكرنى بك، الآن وأنت فى أحضان رجل آخر».

* * * * *

فى شهر مايو من عام ١٩٤١، وبينما كان روميل يواجه صعوبات فى الصحراء، كان نيكيتاس يقوم بالتريخ على الكورنيش، كما كان يقضى الساعات فى الجلوس متكاسلاً على المقاهى والكاзиноهات الموجودة على الشواطئ منتظراً حدوث أمر ما لا يعرفه أحد سواه. لم يكن قد مر على عمله فى محل المرتبهات أكثر من شهر حتى طلب إجازة لمدة عشرة أيام. كانت أمه على وشك أن تنفجر من الغيظ، لكن كانت لدى نيكيتاس أسبابه. فى اليوم السابع، ومن بين الركاب الذين كانوا يستعدون للنزول إلى الميناء الغربية من إحدى سفن الشحن الإنجليزية، ظهر رجل نحيف ذو شعر رمادى وبشرة قمحية تحمل أوراق هويته اسم ثراسيفولوس هيراكليديس، ترجع أصوله لجزيرة كريت. احتاج هذا الرجل لقضاء يومين آخرين فى الميناء حتى يستطيع المرور من "الغريال الإنجليزى" كما وصفه لنيكيتاس، فى حين قضى الليلة الثالثة فى معسكر للوافدين بالعجمى منتظراً الحصول على تصريح من إدارة شئون الهجرة المصرية. وكان هذا الرجل فى حقيقة الأمر يدعى أنجيلوس موئيزيذاكيس، ينحدر من جزيرة كريت، وكان معروفاً لدى دوائر أنصار ميتاكساس باعتباره عضواً فى الحزب الشيوعى اليونانى.

عندما تمكن أنجيلوس من إنهاء أوراقه، استقبله نيكيتاس وتوجه به إلى ضواحي المدينة، إلى أبى قبر، فى منزل صغير كان قد أقامه أحد الإيطاليين المناهضين للفاشية ومعه اثنان من اليهود اليساريين. وكان أنجيلوس قد وصل إلى الإسكندرية مبعوثاً من الحزب الشيوعى بصفته مرشداً سياسياً. فر أنجيلوس هارباً قبل إعلان الحرب بقليل

خوفاً من حزب ٤ أغسطس الحاكم، ومنذ ذلك الحين يقضى وقته مختبئاً. فى البداية كان أنجيلوس فى صف أنصار ميتاكساس ولكنه أصبح بعد ذلك مؤيداً لقوات الاحتلال. لقد جعلوا نيكيتاس يعتقد أنه أحد "الرؤوس الكبيرة" لكن مظهره المثير للشفقة بعد أيام قضاها فى معاناة فى معسكر اللاجئين جعلته يبدو غير ذلك. ولكى يعيد نيكيتاس صورة المرشد السرى لما كانت عليه، فقد تناولا معاً فى البداية الطعام فى أحد المطاعم اليونانية الشعبية فى العطارين حتى يستعيد بعضاً من قوته، ثم ركبا القطار إلى محطة فيكتوريا وتوجها إلى سيدى بشر، حيث كانت تنتظرهما سيارة عتيقة من الحرب العالمية الأولى لتقلهما إلى أبى قير. وصلا وقت الغروب وكانت الشوارع تكتظ بالبشر الذين يهرولون هنا وهناك قبل حلول الظلام.

دخل نيكيتاس مباشرة إلى عمارة صغيرة خلف كنيسة أغىى أنارغىرى، حيث كان على دراية بوجود سلماً صغيراً يودى إلى شقة مكونة من طرقة كبيرة وثلاث غرف. وكان عليه أن يذكر كلمة السر: "كان أغىوس أنارغىروس سيداً مصرياً". فى نفس الوقت كان الإيطالى جوزيبى موجوداً بالمنزل ومعه رجلاً بولندياً. حوائط عارية، غرف خاوية بدون أثاث، ومروحة سقف تصدر صريراً عنيفاً أثناء دورانها، ومصباح معلق عجيب يسقط بين الحين والآخر متدلياً أمامهم كأنه دمية معلقة، ملفوف بأوراق زرقاء مما جعله يشع ضوءاً غريباً كأنه بيت من بيوت البغاء الرخيصة.

استلقى أنجيلوس على إحدى المراتب القطنية وراح فى سبات عميق. ولحسن الحظ أن نيكيتاس كان قد تولى إيطاعه، فالمنزل كان خاوياً من أية كسرة خبز واحدة. أما رجل الحرب الإسبانية المحنك فقد استلقى على أحد الكراسى الضخمة ليقضى الليلة بطريقة أو بأخرى. وعند الفجر استيقظ نيكيتاس مغادراً المكان متوجهاً إلى عمله فى محل المرتهفات، وقد ترك ورقة لليونانى الشيوعى يبلغه فيها بأنه سوف يمر عليهم فى مساء اليوم التالى لكى يصطحبه فى جولة بالمدينة. لكنه لم يستطع أن يفى بوعده حيث أصيبت السيدة ماريا بأزمة تنفسية مفاجئة. وعندما ذهب إليه فى ظهيرة اليوم

الثالث كان "الرجل المهم" ينتظره على أحر من الجمر. فقد عاش ثلاثة أيام من الكسل التام بدون سجانر، وبالقليل من الطعام وزجاجة من شراب الزبيب^(٢١) (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية). طلب شيئاً ليقرأه فأعطوه مجموعة من روايات تشيكوف المدونة باللغة الإيطالية لكنه لم يستطع أن يفهما. ورغم ذلك فقد كان يمسك بالكتاب بين الحين والآخر لكي يتصفحه وحتى يملكه الشعور بأن الوقت يمضى.

«لم نتلق مثل هذه الرعاية حتى فى المنفى» قالها لنيكتياس ساخراً، وكان يعلمان أنه سوف يرُحل إلى القاهرة بين يوم وآخر، ومن هناك سيغادر إلى بيروت ومنها إلى أورشليم. وقد حاول نيكتياس على الأقل أن يجعل وقته يمر بشكل طيب حتى رحيله.

لقد لاحظ نيكتياس منذ البداية لهجة أنجيلوس اللاذعة وفكر فى أن يذهب به لمكان سيترك لديه إنطباعاً جيداً بالتأكيد.

وكان نيكتياس قد اكتشف فى الحى العربى بالإسكندرية مقهى ينتمى كل مرتاديه إلى جزيرة كريت، حتى الجرسونات - بزيهم الوطنى، وأحذيتهم السوداء العالية والبنطلونات الضيقة والصدىرى الذى كان المصريون يسمونه جيليه - كانوا يقدمون القهوة، فى حين يعزف اثنان من المصريين على "الربابة" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) التى تشبه القيثارة - وهى آلة موسيقية كريتية - كانا يعزفان ويغنيان فى نفس الوقت. مصريون يرتدون الجلاب وبجلسون على مقاعد متهاكة يستمعون فى نشوة إلى الألحان الغريبة. وعلى الموائد المعدنية الصغيرة تجد الشاي الساخن فى حين كانوا يضمون الشيشة بين أرجلهم كأنهم يحتضنون أطفالاً صغيرة. لاحظ نيكتياس أن العازفين كانوا يتوقفون فجأة ويقولون للجمهور "فلتحضروا فى الغد لنكمل لكم العزف". وفى إحدى المرات قرر نيكتياس أن ينصت جيداً لما يقولون، وعندئذ اكتشف مفاجأة مذهلة، وهى أن العازفين كانوا ينشدون أجزاءً من أسطورة "أرييتوسا" و"إيروتوكريتوس" اليونانية باللغة العربية. اكتشف مونيزيداكيس، الذى كان يتحدث

(٢١) أى شراب الأوزد (المعروف باليونان).

بحنين عظيم عن بلده المحتل، فى هذه الأمسية أن حضارة وطنه قد ازدهرت فى هذا الوقت فى منطقة شعبية لمدينة تجمع فى سميتها بين كريت ومدن البحر الليبى. لم تشبه القهوة التى طلبها من قريب أو بعيد تلك القهوة التى يصنعونها فى اليونان المحتلة. كانت القهوة داكنة اللون، وثقيلة وبها نكهة عين الجمل ذات المذاق الطيب.

وعندما غادرا هذا المقهى الغريب، كان أنجيلوس متحمساً، حتى إنه كاد يرقص طرباً رقصة البيندوزالى - وهى رقصة شعبية كريتية - على أرصفة الطريق فى الحى المصرى.

«مرحى أيها الرفيق نيكيتاس»، هكذا صاح أنجيلوس ثم استكمل قائلاً: «آه يا كريت، لتبقى خالدة أبد الدهر». وعندما عادا إلى ذلك المنزل الحقيق بأبى قير لم يكن لدى نيكيتاس نفس هذه الحماسة، وقد واجه الأسوأ، حيث كان لزاماً عليه أن يغير المخبأ، وأن ينتقلا إلى منزل صيفى فى منطقة السيوف، حيث اضطر أنجيلوس للنوم على "حصيرة" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) فوقها مرتبة مصنوعة من أوراق الموز، داخل القبو الموجود بحديقة المنزل. فى الجانب الآخر من المدينة، كانت صفارات الإنذار تنوى، حيث كان من المعتاد أن تبدأ زيارات الطيارين الإيطاليين إلى الميناء الغربية مع حلول الليل. وكان على "الرجل المهم" ذى الشعر الأشيب أن يكون على الأقل ممتناً لأنه سينام نوماً هادئاً آمناً، حيث كانت الإضاءة خافتة، ولم يكن هناك ما يدعو لأخذ احتياطاته بإظلام المكان. عندئذ حدثه نيكيتاس قائلاً:

«سأحضر غداً فى المساء لألقاك»، ولم يعر نيكيتاس اهتماماً بالطريقة التى ودعه بها أنجيلوس فاتحاً ذراعيه، فقد كان متعباً وكان كل ما يشغله هو طريق العودة لمنزله.

عندما ذهب نيكيتاس للقائه فى اليوم التالى، قالوا له إن أنجيلوس مونيذاكيس الذى يعرف باسم ثراسيفولوس هيراكليديس قد رحل إلى القاهرة.

* * * * *

فى إحدى أمسيات نهاية شهر يونيو من عام ١٩٤٢، بعد منتصف الليل، دق جرس الهاتف بإلحاح فى الصالون، وتردد صدى صوته بعنف فى سكون الليل، وكانت صفارات الإنذار قد توقفت منذ النصف ساعة. كان بوسع جرس الهاتف أن يدق طوال الليل، لو أن ذافنى، التى كانت فى ذلك الوقت قد أغلقت على نفسها القبو بصحبة مجموعتها الأثرية، لم تسرع الخطى على السلم شبه المظلم لترد على الهاتف الذى استمر جرسه يدق أكثر من عشرين مرة. على الجانب الآخر من الخط كانت هناك واحدة من صديقات ذافنى اليهوديات تخبرها باعتزامها مغادرة الإسكندرية فى الصباح الباكر بأول قطار، ثم قالت:

«لقد وعد روميل بأنه سوف يتجول على كورنيش الإسكندرية فى غضون الأيام القليلة القادمة. يقولون إنه لا يحب اليهود. هل المسألة تتعلق بالعرق؟» (قالتها بالفرنسية).

عندئذ أشارت عليها ذافنى أن تتروى قليلاً، إلا أن صديقتها بدت عليها شدة اليأس ولم تكن وحدها من تشعر بذلك.

كان سقوط طبرق المدوى فى يوم الحادى والعشرين من شهر يونيو، قد ترك شعوراً بعدم الأمان لدى الناس، وجعل الجميع يهرولون للبنوك مذعورين. وقد ذكرت مارتا (زوجة فابيو أدريانى مدى بنك باركليز) أن المسئولين عن البنك قد اضطروا لوضع ماكينة تحديد الأنوار، وهو ما يحدث لأول مرة فى فرع من فروع أحد البنوك فى شارع شريف باشا، الأمر الذى لم يكن مألوفاً لدى العامة. بعض موظفى البنوك الذين تحملوا عبء العمل فى مثل هذه الظروف كانوا على استعداد لطرد أى شخص يحاول أن يتخطى دوره. كما اجتاحت أيضاً حالة من الذعر أولئك الجنود الذين كانوا قد وصلوا إلى الإسكندرية فى إجازة قصيرة لا تزيد عن يوم واحد فقط، وأخذوا يروون قصصاً عن الحصار الطويل لطبرق، وعن الألغام التى تشبه الصناديق المربعة والتى تم زرعها فى الصحراء، تلك الألغام التى كان يقوم بحراستها من يدعون أنفسهم "فئران الصحراء". معارك متلاحمة، جثث ممزقة من جراء انفجار الألغام تم دفنها سريعاً

خوفاً من انتشار عدوى التيفود، ليالٍ مخيفة شديدة البرودة، حيث كان الموت الحتمى يمثل طوق النجاة الوحيد من هذه الآلام المبرحة ومن تلوث الجروح التى تؤدى إلى الإصابة بالغرغرينا، هكذا كان الجنود يروون حكاياتهم التى تفوق الخيال.

فى يوم التاسع والعشرين من شهر يونيو سقطت مرسى مطروح، وكان جيش روميل يشبه الطوفان الذى يجتاح فى طريقه كل شىء حتى يصل إلى الإسكندرية. وقد دأب الراديو وكذلك الصحف على نقل الأخبار الحزينة: «ستظل مصر تكافح للنهاية انتظاراً لوصول الدعم الحربى».

فى ذلك اليوم كتب كوستيس فى مذكراته: «ساد الذعر مدينة الإسكندرية، الأسطول، البحرية، ... إلخ. جميعها يغادر المدينة، النوادى والمنتديات الحربية مغلقة. أما عن الأمور الأخرى، فالحياة تسير بنفس الإيقاع الروتينى. كل يوم تذهب هايكى مع ابنتنا للاستحمام فى شاطئ جليم أو فى سيدى بشر، أما أمى فتنعش نفسها بشرب عصير الليمون هى وصديقاتها اللاتى تستضيفهن. اليوم سافر صديق والدى القديم، رجل البنوك السويسرى إيميل شتايجر. وكان قد أخبرنا بأنه سيحاول، مع بعض أعضاء الهيئة الدبلوماسية الفويسرية، الوصول إلى بلاده عبر سويسرا والبلقان».

فى ذات المساء ارتعد كوستيس عندما سمع صوت إلياس خورى عبر الهاتف يقول له: إلياس: «إنى راحل، يا صديقى كوستيس، إنى راحل، " قبل أن يصبح الوقت متأخراً بالنسبة لى " (قالها بالفرنسية)» هكذا تحدث إلياس وهو يلهث من فرط قلقه. كان يتصرف وكأن روميل سيدخل الإسكندرية من أجله هو وحده، عند ذلك، لم ينس إلياس أن يسأل عن هايكى: «ماذا تفكر أن تفعل مع زوجتك؟».

كوستيس: «ما المقروض أن أفعله؟».

- «أنت تعلم أكثر منى أن اليهود ليسوا من المفضلين بالنسبة للألمان».

- «معك حق، ربما كان من الأفضل أن نبتعد قليلاً عن الإسكندرية حتى تهدأ الأمور مرة أخرى. لكن لو.....».

- «بالطبع لابد أن ترحل، إننى أتساءل كيف لم تفكر فى ذلك الأمر حتى الآن. اسمعنى جيداً، بيروت هى الحل المثالى فى مثل هذا الوقت. ساكون هناك أنا أيضاً. لن يكون هناك ما تخشاه».

شعر كوستيس بالقشعريرة تجاه فكرة أن يأمن على هايكى بين يدى هذا اللبانى الفاسق الذى لم يعرف إذا ما كان صوته يرتجف بسبب الخوف أم بسبب إعجابه بزوجته. وعندئذ قال له:

- «لا أعتقد أن هذا الاقتراح مطروحاً».

- «لكن كيف ذلك!».

- «فلتذهب أنت فى سلام، يا إلیاس، وإذا ما احتجت شيئاً فسوف أبلغك، لتكن واثقاً من ذلك».

هكذا أنهى رجل صناعة الدخان اليونانى المكاملة، بينما أغلق اللبانى التليفون، وعندئذ شعر كوستيس بأن الإسكندرية لن تعود كما كانت بدون إلیاس خورى.

فى بداية شهر يوليو، سرت شائعات حول بانايوتيس كانيلوبولوس كان مفادها؛ أنه أغلق القنصلية اليونانية بالإسكندرية من خلال حوارہ التالى مع ميكيس سالفاغوس رئيس الجالية اليونانية:

كانيلوبولوس: «أنتم تتناقشون، أما أنا فأتحمل المسؤولية».

سالفاغوس: «نحن لا نتناقش. فحسب، بل نعيش هنا أيضاً» هكذا أجابه ميكيس سالفاغوس من موقعه بوصفه رئيس للجالية اليونانية.

عندئذ أكمل نائب الرئيس نيكولاس فاتيمبيلاس قائلاً:

«إنكم تتركونا مكشوفين سياسياً».

كانيلوبولوس: «أنا لا أسمح لأحد أن ينتقد الحكومة».

فاتيمبيلاس: «أنا لست أى شخص أما أنتم.....»

تلقى كوستيس مكالمة هاتفية بنفس هذه الروح المضطربة من القنصل اليونانى جاءت على النحو التالى:

القنصل: «نحن راحلون، يا سيد خاراميس، الجميع يغادرون. هل ستبقون وحدكم؟». كوستيس: «نعم، وحدى، يا سيد فالتيس».

- «لكننى لا أجد السبب حتى.....».

- «لأبد أن يكون هناك شخص ما عندما يدخل روميل. لن يكون تصرفاً مهذباً منا إذا وصل بون أن يجد منا أحداً».

- «لديكم حس ساخر، يا سيد خاراميس، لكنى لا أعتقد أن هذا هو الوقت المناسب للمزاح».

- «المزاح دائماً هورفاهى الأقوياء، يا سيد فالتيس» هكذا أجابه كوستيس وتخليل ملامح وجه القنصل اليونانى الذى صمت لبرهة وكأنه كان يريد أن يتأكد من المغزى من وراء هذه الجملة، وبعد ذلك قال له بطريقة قاطعة:

- «حظ طيب إذن، يا سيد خاراميس».

- «إلى اللقاء، سيد فالتيس».

انتشر الذعر بين الناس كالوباء، وشرع كل من لديه القدرة المالية فى مغادرة المدينة بأسرع ما يمكن، وكان من بينهم العديد من اليونانيين. أغلقت المشاريع الواحد تلو الآخر وأصبح العاملون فى تلك المشاريع محاصرين فى مدينة الإسكندرية التى لم توفر لهم أية فرصة للنجاة، وأصبح مصيرهم مجهولاً. وفى الفترة الصباحية فقط استقبلت ذافنى العديد من الأصدقاء فى منزلها وقد بلغ عددهم ما يقرب من الثلاثين فرداً على الأقل. البعض أتوا لإلقاء التحية فقط، وآخرون يطلبون قرضاً من المال حتى يتمكنوا من الرحيل. وكانت ذافنى تسألهم دائماً: «أين تظنون أنفسكم ذاهبين؟».

كثير منهم كان يفكر فى الذهاب إلى القاهرة أولاً ومن ثم الهرب إلى أى من دول الشرق الأوسط أو السفر إلى جنوب أفريقيا. وعندئذ كانت والدة كوستيس تقول لهم بإصرار: «ولكن ألن يصيبكم التعب من لعبة الاستغماية هذه مع روميل؟».

أما كوستيس الذى كان منزعاً من هذه الحالة برمتها، فقد دُعِيَ إلى اجتماع عاجل بالمصنع، حيث نقل إليه رئيس العمال المخاوف التى تراود عمال المصنع. وفى إحدى الطرقات أمسك بيده أحد الموظفين، الذى كان والد كوستيس قد قام بتعميده فكان له بعض من الدلال عليه، وقال:

«ماذا قررتم، أيها الرئيس؟» هكذا سألوه وهو يرتعد من فرط القلق.

كوستيس: «لن يرحل أحد يا نيكولاس. المدينة بحاجة لنا جميعاً. لن يفلق المصنع. ولن يدخل الألمان أبداً إلى الإسكندرية».

تأثر الموظف بشدة بكلمات كوستيس، الذى انحنى وقبّل يده فى ردة فعل عفوية، لذلك لم ينزعج كوستيس ولكنه ربت على رأسه وقال:

«ألم يكن والدك الروحى ليفعل نفس الشئ، يا نيكولاس؟».

نيكولاس: «هذا ما كان سيفعله، يا سيدى».

فى نفس اليوم قام كوستيس بسحب مبالغ مالية ضخمة من البنوك تحسباً لأى احتمال. لم يكن يفكر فى أسرته فقط، ولكنه كان يفكر أيضاً فى مصنع العائلة. لأن الألمان إذا ما دخلوا الإسكندرية، فسوف تكون أول مهمة يقومون بها هى إما إغلاق المصنع أو حظر العمل به لأنه كان يتعاون مع الإنجليز. وفى غضون يومين كان قد أعد مظاريف يحتوى كل منها على مرتب ستة أشهر لكل عامل بالمصنع. لكنه لم يقم بتوزيعها. فقد كانت لديه الرغبة فى استنفاد كل لحظة تفاؤل. كما وضع كوستيس فى اعتباره أيضاً أن القيمة المالية لمجوهرات والدته وزوجته يمكن أن تكفيهم لفترة زمنية طويلة. وإذا دعت الحاجة فسوف يضطرون للتصرف فى مجموعة الآثار المصرية. ولكن حتى هذه اللحظة لم يكن بوسعهم أن يفعلوا أى شئ سوى الانتظار.

لم يكن الجميع يفكر بنفس الطريقة. ففي يوم الثلاثاء الأول من شهر يوليو عام ١٩٤٢، كان نيكيتاس يتجول وحده في شوارع الإسكندرية الخالية، وهو على يقين من أنه لو أراد أحد أن يرى شخصاً آخر في ذلك اليوم، فما كان عليه سوى التوجه إلى محطة القطار حيث يحتشد الهاربون اليانسون. في ذلك الأسبوع كانت الطائرات الحربية الألمانية تقصف الميناء الغربية بعنف، وأصبحت بمثابة الشبح الذي يطارد سكان المدينة كل ليلة. ولم تكن القتابل فقط هي ما يسبب لهم الذعر الشديد، فقبل يومين فر الأسطول البريطاني عبر البحر المتوسط هارباً إلى موانئ أخرى. ما الذي يمكن أن يعنيه ذلك سوى أن بريطانيا قد فقدت سيطرتها على مصر؟ عندما عاد نيكيتاس إلى منزله، قام بالاتصال بابن عمته قائلاً:

نيكيتاس: «يا ابن العمّة (قالها بالفرنسية)، يخيل إليّ أنه في غضون وقت قصير سوف نصبح وحدنا في المدينة».

كوستيس: «ألا تسعد بهذا؟ ستصبح الإسكندرية كلها ملكاً لنا» هكذا أجابه وضحكاً معاً، وربما كانا يضحكان حتى يشجع كل منهما الآخر.

- «الأمور ليست على ما يرام، "فصناع المكرونة" الإيطاليون يجهزون الأعلام، ويستعدون لاستقبال روميل، وفي العديد من المحلات تجد لافتة مكتوباً عليها (بالألمانية) "مرحباً روميل"».

- «عندما ينتهي كل ذلك لابد أن يعلقوا أصحاب هذه المحلات أنفسهم مكان كل لافتة من هذه اللافتات، حتى يصبحوا عبرة للآخرين».

- «حقاً، "يا ابن العمّة" (قالها بالفرنسية)، هل ما زلت تعتقد أن الإنجليز سوف يوقفون روميل؟».

- «أستحلفك بربك، "يا ابن الخال" (قالها بالفرنسية)، بالطبع أؤمن بذلك».

- «أه، عندئذ ستكون أنت الوحيد الذي يرى ذلك، ولكن إذا ما اشتدت الأزمة أكثر من ذلك، أرى أنه لابد من شراء اثنين أو ثلاثة كيلوجرامات من "الجوافة"

(قالها باللغة العربية ويوئنها بحروف يونانية) والبلح، ولا مانع من كرتونة كاملة من السجائر، ثم أهرع إلى الصفوف الأولى لتوزيعها على جنود جيش التحالف مثمنا يفعل كل الإيطاليين في مدينتنا. فربما ينظرون إلى نظرة عطف عندما يصبحون السادة الجدد لمصر».

- «يا للعار، يا ابن الخال (قالها بالفرنسية). أتقول ذلك لك قريب في الحرب؟».

- «دع جانباً هذا المسكين ثاناسيس الذى يرغب الإنجليز الطيبون أن يجعلوه طياراً، هكذا ببساطة. ماذا نقول إذن!».

- «وسنرى أموراً أغرب من ذلك أيضاً، يا نيكيتاس».

- «بالمناسبة (قالها بالفرنسية)، هل تعلم أنه قد تم القبض على الأنسة جابى وأخيها بالقاهرة؟».

- «لا. لم يخبرنى أحد بذلك، من أين علمت ذلكم؟» قال ذلك كوستيس متلهفاً.

- «لقد قرأت ذلك فى جريدة "تاخيزروموس"، حدث هذا منذ عدة أيام، لكنى نسيت أن أخبرك بذلك».

- «لماذا إذن؟».

- «يبدو أنهم فى محاولة منهما للعثور على المال لمغادرة مصر قاما بمحاولة بيع تمثال فرعونى لرجل أرمينى. وعندما أدرك الرجل أن التمثال بلا قيمة قام بإبلاغ الشرطة. لقد وقعا فى ورطة كبيرة».

لم يسعد كوستيس بهذا الخبر الذى سمعه، فعندما أقنع أمه منذ سنوات أن تفصلهما، حرص الأخوان قبل رحيلهما على أن يأخذا معهما أحد التماثيل المصنوعة من العاج، والذى كان تقليدًا لأحد التماثيل التى تنتمى لعصر ما قبل الأسرات، كانت ذافنى قد رآته فى متحف تورينو. فقط شخص أحق مثل الأنسة جابى هو الذى يمكن أن يختار مثل هذا التمثال جيد التقليد من مجموعة ذافنى الثمينة الموجودة فى شارع

العباسيين، وقد أحست السيدة خاراميس بالارتياح بعد سماعها هذه الأنباء. وكان كوستيس يشعر بالقلق تجاه هذا الحدث غير المتوقع.

ذافنسى: «من فضلك، يا كوستيس، العالم هنا يحترق وأنت تشغل نفسك بالأنسة جابى وأخيها!».

كوستيس: «يا أمى، ألم تدركى خطورة الموقف؟ لو أنهما تحدثا عن التمثال، فلن تسير الأمور بشكل جيد بالنسبة لنا».

- «رائع، فليقولوا إنهم استولوا عليه من منزلنا، ثم ماذا بعد؟ هذا أفضل بالنسبة لنا» (قالتها بالإنجليزية).

- «لم أفهم مقصدك، يا أمى».

- «هذا هو الأفضل. لأن الجميع سوف يعلمون أن مجموعة والدتك الأثرية ذات السمعة العالية ليست سوى نماذج مقلدة».

- «أعترف بأنى لم أفكر فى الأمر بهذه الطريقة».

- «أه، يا عزيزى كوستيس! عادة ما تكون هادئاً وثابتاً، لكنك فى بعض الأحيان تغرق فى شبر مية!».

فى تلك اللحظة كان الراديو يذيع للمرة الألف الأنباء الملحمية للأيام الأخيرة:

«ستظل مصر تكافح للنهاية، انتظاراً للدعم العسكرى».

فقدت إيفيت صوابها عندما رأت هايكى فى النادى الواقع بشارع كورينثوس فى مساء يوم الأول من شهر يوليو. لقد ظهرت هايكى بشكل أجمل مما كانت عليه، وهى ترتدى تاييراً بلون الكريم وقبعة، كان وقع حذاءها ذى الكعب العالى يتردد صداه فى كل مكان وهى تسير على الأرضية الرخامية، كانت كأنها تقدم عرض أزياء فى الطرقة الضخمة للمبنى. وعندئذ صاحت إيفيت وهى تمسح على خدها بيدها:

إيفيت: «ماذا تفعلين هنا؟».

- هايكى: «ماذا أفعل؟ أتيت للمساعدة فى إغلاق النادى».
- «أحقاً ما تقولين! (قالتها بالفرنسية). كنت أعتقد أنك قد رحلت. ربما تكونين اليهودية الوحيدة التى ما زالت حتى الآن فى الإسكندرية».
- «ربما (قالتها بالفرنسية). لكن زوجى ما زال يصر على أنه لا يوجد سبب يجعلنا نغادر المدينة».
- «ماذا تقولين! فالشائعات تنتشر بسرعة، لقد خسرت بريطانيا مصر. لماذا تعتقدين إذن أننا نغلق نادى قوات التحالف؟ إنهم يقومون بحرق أطنان من الملفات السرية فى كل المصالح الحكومية. أبحر الأسطول.. ما الذى يمكن لأى شخص أن يراه غير ذلك لكى يصدق ما حدث؟».
- «إن كوستيس يؤكد لى أن.....».
- «كوستيس ليس معرضاً للخطر مثلك، يا عزيزتى، قد يقومون باحتجازه فى أحد المعسكرات بأوروبا. لابد أن ترحلى بأسرع ما يمكن من مصر، بأسرع ما يمكن، هل تفهمين ذلك؟» (قالتها بالفرنسية).
- «وأين أذهب؟».
- «إلى أى مكان».
- «لا أظن أن كوستيس سيوافق».
- «لا، يا مسكينة، كوستيس، كوستيس، اهتمى بنفسك أولاً» هكذا صاحت إيفيت غاضبة.
- «لا تنسى أن هناك طفلة تربطنى به، ماذا سيكون مصير صغيرتى ذافنى بعيداً عني؟»
- «للطفلة جدتها وأبوها. لا ينبغى أن تقلقى بشأن أحد سوى نفسك. ففى نهاية الأمر أنت يهودية وسط العائلة».

- «حقاً، لا أعتقد أن كوستيس سيوافق».
- «فليذهب كوستيس إلى الجحيم، إهربي إذن دون أن يعرف».
- «ماذا تقولين؟ أنا لا أملك مليماً واحداً. أين سأذهب وأنا مفلسة؟» قالت هايكي ذلك متذمرة.
- «خذي مجوهراتك معك. امرأة في مكانتك يمكنها أن تعيش لسنوات طويلة من عائد بيع مجوهراتها، ومن جهة أخرى، فأنا موجودة إذا احتجت شيئاً. هل تعتقدين أن إيفيت ستتخلى عنك؟».
- «ليس من السهل اتخاذ مثل هذا القرار».
- «أعلم ذلك (قالتها بالفرنسية)، لكن الأمور ستصبح أكثر تعقيداً لو دخل الألمان إلى مصر منتصرين، وعندئذ أتمنى أن أرى كيف سيتمكن كوستيس من إنقاذك أيتها المسكينة هايكي».
- عند ذلك الحد من الحوار وضعت إيفيت كفها على رقبة صديقتها، وحركت أطراف أصابعها لتلامس جسدها كله حتى نصفها السفلى، انتفضت هايكي مذعورة.
- «سامحيني، فأنا أحياناً لا أستطيع أن أتمالك نفسي».
- «نعم، أنت أحياناً ما تبالغين».
- «أتعدينني بأن تفكري في الأمر؟».
- «هذا وعد مني بذلك (قالتها بالفرنسية)، والآن إلى العمل، هيا».
- قالت ذلك مدام خاراميس ثم خلعت الجاكت بطريقة تنم عن ثقّتها بنفسها، وكأنها كانت تدرك أن ضوء الظهيرة كان يزيد من جمالها المبهّر.

* * * * *

بعد مرور يومين من هذا اللقاء، بحث كوستيس دون جدوى عن زوجته التى هجرته بعد أن تركت له خطاباً يحمل وعوداً غير واضحة بالعودة، لم يكن كوستيس يتخيل أنها تختبئ فى تلك اللحظة فى منطقة " غيط العنب، بالبر الثانى" (ذكرها بالعربية وبونها بحروف يونانية) فى الجهة المقابلة من ترعة المحمودية. كانت هذه المنطقة تتصل بالمدينة عن طريق أحد الكبارى المعلقة الذى يفتح فى أوقات محددة لعبور المراكب الشراعية من القناة. وهى منطقة شعبية يعيش فيها العديد من اليونانيين، ومن بينهم ذلك البستاني الذى كان يعمل فى فيلا إيفيت فى لوران، ويدعى مانوليس كوتسوكيس. تولى مانوليس عملية إخفاء هايكى فى مقابل مبلغ كبير من المال، على أمل أن يتمكن بمثل هذا المبلغ الضخم من مغادرة الإسكندرية مصطحباً أسرته.

لم يكن قرار هايكى قراراً مفاجئاً لإيفيت. فقد تسببت النزوة الغرامية التى وقعت بين كوستيس والسوبرانو القادمة من تشيلسى فى نوفمبر الماضى فى سقوطه من نظر زوجته، ومنذ ذلك الحين وهما ينمان منفصلين. كان الوضع بينهما قد أصبح متنازماً لدرجة لم تتخيلها أمه، التى كانت عندما ترغب فى مداعبته تقول له: لو أن أندونيس مازال على قيد الحياة لشعر بسعادة بالغة وهو يرى أن هناك غرفة أخرى قد تم استخدامها من الغرف الإحدى عشرة بالمنزل. لقد سببت علاقة كوستيس بتلك الممثلة المسرحية فى وضع الأسرة كلها فى موقف حرج، تلك الأسرة التى لم تكن قط معصومة من الخطأ، والتى كانت تحاول دوماً أن تخفى عيوبها. وكانت هذه هى حال كوستيس الذى لم يدرك أن بعض الأمور ينبغى أن تظل فى الخفاء، ولذلك فقد دفع الثمن غالياً.

الآن يجلس حزيناً أمام إحدى الصور العائلية الحديثة التى التقطت له ولزوجته ولابنتها فى أتيليه فيرونا تريخانذاكيس. كان يقف خلف زوجته وابنته، معلقاً إبهام اليد اليمنى خارج جيب الصديرى بكل ثقة. فى حين كانت هايكى تجلس جلسة عارضة أزياء وهى ترتدى فستاناً أسود وقبعة بيضاء، أما ابنتهما فكانت تقف أمامه مرتدية رداءً أبيض اللون ناعم الملمس، بينما تعلو وجهها ابتسامة رقيقة، ابتسامة تعكس مدى سعادتها. أين ذهبت إذن كل تلك السعادة العائلية؟ أم أنها كانت من صنع المصور، أو تخيلاً للحظة لا تمت لواقع حياته بصلة؟

كم كان يود أن يصدق وعدها بالعودة عندما كتبت له فى خطابها (بالفرنسية) «سوف أعود بكل تأكيد فقد أصبحت جزءاً من هذه المدينة». إلا أنه كان يشعر بداخله أنها لن تعود، ولأنه لم يكن مستعداً لمثل هذا الاحتمال، فقد أخذ يبحث عنها فى كل مكان كالمجنون، حتى إنه طلب يوماً من خايرتومينى أن تقرأ له الفئنان لعلها تخبره بمكانها.

كان الشيء الوحيد الذى يواسيه فى موضوع اختفائها هو؛ أنها اختارت أن تهجره فى الوقت الذى كان الجميع يغادرون فيه المدينة بسبب الخوف من روميل، وكان هذا كافياً لبقى أفواه الناس مغلقة، ولكن إلى متى؟ وفى إطار الخوف الذى يحتاج المدينة، كان كوستيس يتعايش مع خوفه، حتى إن الأمر وصل به إلى أن يتمنى انتصار الألمان، يكفى أن يحدث شيء، أى شيء يغطى على خيانتة باعتباره زوجاً.

ولكن فى ذلك الحين، بدت الأمور وكأنها قد اتخذت أبعاداً مختلفة. فعلى الرغم من أن معركة العلمين الأولى استمرت حتى السابع عشر من شهر يوليو، فإنه كان من الواضح أن روميل لن يستطيع الدخول إلى مصر. وبالفعل تمت إعادة فتح ندى الحلفاء مرة أخرى فى شارع كورينثوس، ومنذ الخامس من شهر يوليو حتى العشرين من نفس الشهر، نما إلى علمه عودة كل من كان قد غادر الإسكندرية إلى القاهرة منذ بداية الشهر.

فى تلك الأثناء، كانت هايكى المختبئة فى منطقة غيط العنب، تسمع أصوات المدرعات وأصوات القصف، الذى يحمله لها هواء مصر، مما جعلها تعتقد أنها مسألة أيام حتى يتحقق غزو الألمان للإسكندرية. وفى يوم الثامن من شهر يوليو، عندما التقت إيفيت للمرة الأخيرة فى المكان المتفق عليه للرحيل، أخفت عنها إيفيت أنباء عودة ندى قوات التحالف للعمل وتركبتها ترحل، وهى تظن أن الأمور أصبحت فى غاية السوء. كانت هايكى تشعر أنها قفزت فى اتجاه المصير المجهول، وكان عزاؤها الوحيد هو تلك المشغولات الذهبية والفضية التى كانت تحملها معها فى حقيبتها. لقد حانت لحظة مغادرتها لهذه المدينة الملعونة أخيراً، وبدأت تنمى من داخلها بالتدريج ملامح المنازل، حتى أصبحت خيالات وأشباحاً لماضٍ تركته خلفها بلا عودة.

لم تكن هايكى قد تركت مجرد مدينة يعيش فيها مئات الآلاف من البشر، لكنها تركت أولاً وقبل كل شيء طفلتها الصغيرة ذافنى التى كانت تبحث عنها فى الأيام الأولى، وكانت تستيقظ من نومها فزعة وتجرى فى طرقة المنزل كالمجنونة، فى حين يعدو خلفها وأمامها كلبها الصغير كثيف الشعر، فريكسوس، الذى كان كوستيس قد أهداه لها فى محاولة منه لتعويضها عما لحق بها من أحزان، ومن خلفهما تجرى المربية ميس جين وهى شبه نائمة، محاولة تهدئتها. كما تركت هايكى أيضاً زوجها على حافة اليأس. فلم تكن قليلة تلك الأوقات التى قضاهما كوستيس ساهراً بعد انتهاء القصف الجوى وهو يدخن السجائر فى حجرة الصالون المظلمة، كما لو كان ينتظر حدوث شيء ما. كانت أمه ترقبه من بعيد لكنها كانت تعود أدراجها إلى غرفتها بعد شعورها بالإرهاق، عندئذ يبقى كوستيس وحده مع خيال خاريتومينى المهندس فى الظلام، مستمعة إلى أصوات القنابل التى تسقط على منطقة العلمين وهى تفكر فى ابنها، ومن حسن الحظ أن فوتيس لم يكن يحارب روميل فى الصحراء.

* * * * *

بعد أن تلقى كوستيس صدمة الأيام الأولى؛ بدأ ينظر للأمور بشكل مختلف، فلم يكن حبه لهايكى أو حزنه على تلك المجوهرات التى استولت عليها قبل رحيلها يمثلان له شيئاً أمام كرامته الجريح؛ ولم يترك له خوفه من تشويه سمعته فى مجتمع الإسكندرية الفرصة لأية احتمالات أخرى. وكان عليه أن يفكر سريعاً فى كيفية تهدئة الأمور والنجاة من ألسنة اليونانيين بالإسكندرية، الذين بدأ معظمهم فى العودة مرة أخرى إلى المدينة بعد الذعر الشديد الذى انتابهم. ومع نهاية شهر يوليو أيقن كوستيس أن روميل لن يدخل الإسكندرية، كما أيقن أن هايكى لن تعود إليه مرة أخرى، بل ستعيش للأبد فى وطنها الجديد - فلسطين، عندئذ قرر تنفيذ ما خطط له بهدف إنقاذ كبريائه باعتباره رجلاً.

كانت البداية بخطاب أرسله كوستيس إلى إلياس خورى. كان " اللبناني " موجوداً فى وطنه، وكانت عودته إلى الإسكندرية مسألة وقت، على الرغم مما كان يديه فى

خطاباته من وجهة نظر مثالية تجاه بيروت. فوفقاً لما ذكره إلياس، لم تكن الحرب الشرسة في شمال أفريقيا سوى صدى صوت ضعيف يتردد في مدينة بيروت ذات الطابع الفرنسي، بل وتشبه باريس إلى حدٍ كبير في عصرها الذهبي في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، إنها مجرد ميناء في منطقة الحرب بالبحر المتوسط. كانت المدينة المتلاكنة تمثل تحدياً متناقضاً مع مصر التي تعيش في ظلام، كقطعة من الماس ينعكس وهجها على حياة الليل في سماء لبنان. النساء، الأضواء، الكباريات، فرنسيين ولبنانيين بثرواتهم الضخمة يمثلون إغراء ضخّم لمواطن عالمي مثل إلياس خوري. وقد كتب إلى كوستيس قائلاً: «هنا من السهل لأي شخص أن يكتشف كيف يصبح ثرياً من خلال حرب دامية كتلك التي نعيشها». وهي نفس الجملة التي كان دائماً ما يكررها في خطاباته لإيفيت. ولم يكن بوسع أحد أن يصدق أن هذا الرجل الذي كان بمثابة ضمير الإسكندرية الحي، سوف يتخلى بسهولة عن المدينة التي احتضنته.

وهكذا كتب كوستيس، الذي أبدى اهتماماً كبيراً بالثرثرة اللامتناهية، إلى إلياس قائلاً: «إلى هنا يكفي، يا إلياس، إنها النهاية! لقد كنت محقاً عندما قلت ذات مرة "اليهود مع اليهود والمسيحيون مع المسيحيين". لا داعي لأن أدفع ثمن خطأ فعلته منذ سنوات بعيدة بالسباحة ضد تيار المجتمع. كانت نفسي تحتني دوماً على التخلص منها بأي ثمن، على الرغم مما قد يسببه ذلك من تأثير نفسي على طفلي. وقد يكلفني الانتظار لفترة أطول الكثير، في هذه الحالة، وفي كل الأحوال، فلا أشعر بالرغبة في تربية طفلة يهودية طبقاً لرغبات وأمر مدام هايكي. كما لا يمكنني معاداة الأسد البريطاني من أجل تطلعاتها الصهيونية. لقد عوضتها عن "السنين الضائعة"، وأرسلتها قبل موعدها إلى وطنها الجديد، حيث كانت روحها تهفو للحياة به. وفي النهاية، حتى لو لم يعجبنا هذا، فالاختلافات الدينية لا سبيل لحلها، ولو أردت التفكير في الزواج من جديد، فتأكد من أنني سوف أختار في هذه المرة فتاة من مدينتنا: مسيحية يونانية "إن أمكن" (قالها بالإنجليزية)....».

انتشرت فى الإسكندرية الشائعات التى تقول بأن كوستيس قد استفاد من تهديد روميل لكى يتخلص للأبد من زوجته اليهودية بسرعة فائقة. هكذا وجد على الأقل تفسيراً لقصته الرومانسية الجريئة مع السوبرانو الإنجليزية فى شهر نوفمبر الماضى. أما زوجته الهولندية اليهودية، فعلى الرغم من كل شىء، فقد نالت إعجاب رجال الطبقة الراقية، وكانت تهدد مصالح زوجها بتطلعاتها الصهيونية ونالت فى النهاية ما كانت تستحقه.

ورغم كل ما قيل، فقد كان هناك شخص واحد على الأقل فى الإسكندرية على دراية تامة بحقيقة الأمر، ولم يكن هذا الشخص سوى إيفيت، التى قررت عينها بهذه النتيجة، ولكن لم يكن باستطاعتها أن تصرح علانية بحقيقة ما حدث. ولم يتبق لها سوى تلك الذكرى الخالدة التى مازالت عالقة بأذهانها لتلك الليلة الممتعة التى عاشتها فى فيلتها بلوران مع تلك المرأة الفاتنة(*) .

* * * * *

فى فجر يوم العاشر من شهر مايو لعام ١٩٤١، استيقظ دكتور ماخوس على حلم مزعج، وقد انتابه شعور غريب بأنه، لأول مرة بعد كل تلك السنين من الجبن، يفتح عينيه ليرى فجر ذلك اليوم. فهمس لنفسه بشكل غير معتاد قائلاً: «أمى، أبى، إيريك!». وكان يعتقد أن أندونيس والبارون إيريك شولتسير قد وجدا سبيلاً للعودة من عالم الأحلام، وأن أرواحهما كانت تهيم داخل الحجرة شبه المعتمة. وقبل أن ينتفض من فراشه، رأى والده بوضوح وهو يعبر للضفة الأخرى من النهر، مرتدياً ملابس النوم البيضاء، حتى بدت كالقميص الذى يرتديه المحامون، وقد أشار إليه لكى يتبعه. كانت إحدى رايات النازية تخفق، وقد حلت صورة إيريك محل الصليب المعقوف. لقد ترك به هذا الحلم انطباعاً قوياً فى ضميره الناعس، وعندما أشعل سيجارته الأولى، بدأ يحرك عود الكبريت فى يده يميناً ويساراً، باحثاً عن ظل أبيه فى جنبات الغرفة المظلمة. لكنه لم يجد بالغرفة سوى أثاث بارد يلتهمه السوس طوال الليل محدثاً صوتاً كثيباً يشق الصمت التام. أخذ ماخوس نفساً عميقاً من السيجارة، وبدأ ما كان يشعر به يتبخر

فى الهواء مع سحابة دخان سيجارته الأزرق. لكنه فى نفس الوقت انزعج من التفكير قائلاً لنفسه: «كم عاماً مضت على وأنا نائم؟».

بعد ذلك مباشرة حاولت نفسه أن يقاوم هذا الفكر. وقد سمع صوتاً بداخله يقول: "أفق، هيا، فليس من المعقول أن تنام أعواماً". وبالفعل فقد سيطر عليه إحساس بأنه قد استغرق فى النوم أعواماً طويلة.

فى ذلك الوقت، كانت مدينة أثينا غارقة فى سباتها العميق، وقد مرت أيام قليلة منذ أن تولت قوات المحور قيادة هذه الدولة المتخلفة عن خطوات العالم المتحضر، وكان من الطبيعى أن تظل صيحات المعارضين تملأ، لكنها -لحسن الحظ - كانت أصوات قليلة تتردد فى الأفق كحن شاذ وسط هذا التناغم الذى حاولت قوات الاحتلال أن تفرضه بكل صرامة. ووفقاً لما يراه دكتور ماخوس، فقد ولت الأمور السيئة، ورغم ذلك فقد أدت بعض العمليات الحربية إلى تورط العاصمة بقسوة وخاصة منطقة ميناء بيريه وضواحيها، وكان من الضرورى التعامل معها بطريقة تشبه التعامل مع العمليات الجراحية التى تتبعها بعض المضاعفات. وقد ساعده انشغاله بالفلسفة لزمانٍ طويل، بطريقة أو بأخرى، على التأمل فى مثل هذه المتغيرات والنظر إليها برؤية واضحة.

الآن وقد أصبح النصر مكتملاً، وعادت الحياة من جديد لإيقاعها الطبيعى، باتت الماكينة الألمانية المذهلة على وشك أن تضع نظاماً للمجتمع، معطية بذلك مثلاً لمحدثى النعمة من مواطنى هذا البلد. ساد قانون الأقوى، وهو أمر طبيعى، غير أن القوى فى هذه المرة قد جاء من أجل الإصلاح وليس من أجل القضاء على الضعيف. كانت اليونان بلا شك على وشك الدخول إلى عصرٍ ذهبى، عصر لم تعرفه اليونان منذ القدم. ولم تجد العظمة النازية مكاناً ملائماً أفضل من إقليم أتيكا بحضارته التى ترجع إلى ما قبل التاريخ. لقد تقبلت مهد الحضارة الأوربية فى النهاية عظمة النازية - ألمانيا الجديدة- معجزة أدولف هتلر وأعوانه؛ وكان دكتور ماخوس، الذى يعد بجسده وروحه حفيداً للإغريق القدماء، حاضراً من أجل تسليم وطنه للمنتصرين. من الآن فصاعداً سيسير الجميع فى ركب العالم الجديد، حيث سيتحقق نموذج نيتشه الخارق بطريقة

لم يتخيلها نيتشه نفسه. عندما كان ماخوس يعيش في ألمانيا، تناقش مراراً حول هذا الموضوع مع الأستاذ هايديجير، وتوصل إلى أن النظريات الفلسفية ستظل مجرد أيديولوجية مصنعة إذا لم يتوفر لها الوقت لتتحول إلى واقع بفضل تطلع بعض رجال السياسة العباقرة. ومن جانبه كان ماخوس قد كتب عن هذا الموضوع في رسالة الدكتوراه التي قدمها بعنوان «نيتشه والمصادفة السعيدة لجنون العظيمة»، حيث أثبت أن الفيلسوف الألماني نيتشه ستمت مواجهته بتهمة الجنون إذا لم يحالفه الحظ ويجد في شخصية أدولف هتلر القائد الذي سيطبق ويطور مبادئه للعالم والإنسان.

لقد أصبح الدكتور ماخوس ينام بضمير مستريح بوصفه المفكر الذي كان واثقاً من صحة أفكاره، إلى أن جاء هذا الحلم الغامض لكي يعصف بهذا الثبات الذي اكتسبه في حياته بصعوبة، ولكي يكدر عليه صفو نفسه بهذا الإحساس المخيف. وفي اللحظة التي خرج فيها إلى الشارع، كانت الشمس قد بدأت في الشروق على شارع بيدليس، وقد صبغت الأفق بلون وردي. "إلى أين تسرع هكذا مبكراً؟" هكذا حدثته نفسه، وكأن هناك من يسحبه من يده. وبينما كان يسير بلا وجهة محددة، كان يستحضر في عقله الحلم. كان يحاول أن يفهم ما الذي أفزعته إلى هذه الدرجة من هذا الحلم وأقضى مضجعه. وعلى الرغم من نفوره من فكرة رؤية والده الميت، فإن ظهوره في أحلامه لم يكن مفزعاً. لا، لم يفزع ماخوس من رؤية والده بملابسه البيضاء بقدر ما أفزعته ارتياحه لرؤية والده. نعم، لم يكن يسمح لنفسه بشيء من هذا. فقد كان أندونيس خاراميس رجلاً طاغية، مجرداً من المشاعر تجاه أبنائه، ولم يشف موته غليلهم. وكان صدام ماخوس مع هذا الطاغية بمثابة حجر الأساس في منهجية تفكيره. حتى لو استطاع حرض هذه العداوة، فقد كان لزاماً عليه أن يغير أموراً كثيرة فيما يخص عالمه وأناسه. كان لزاماً عليه أن يعترف بأنه كان مخطئاً طول تلك السنين، وأنه تسبب في ضياع نصف حياته سدى، وكم كان ذلك بالنسبة له أمراً مفزعاً.

وبينما كان ماخوس يبحث لنفسه عن تفسير مقنع، مرت بذهنه فكرة أن هذا الرجل الذي رآه في الحلم لم يكن سوى رودولف إس - وليس والده أندونيس - عندئذ

تذكر أن إس كان يمارس عليه نفس سلطات الأب، فإذا ما قام باستبدال أندونيس خاراميس بنائب هتلر، عندئذ سيصبح للحلم تفسير مختلف تماماً، إلا أنه لن يقل في درجة فزعه. ففي الجانب الآخر من هذا النهر، ترفرف راية البارون شولتسير المعادية لهتلر، ولابد أنها إشارة لأمر عدائي، أمر معلن. أما إس وإيماعته فقد حثته بشكل غير مباشر على أن يعيد التفكير في موقفه واختبار ثقته. لكن لو كان من الضروري أن يفعل ذلك، فهو بمثابة اعتراف صريح منه بأن كل محاولاته طوال تلك السنين قد ضاعت سدى، وأن اختياراته وتطلعاته قامت بتبنيه ضميمه، مما جعله الآن يعاني من محاولة الاستيقاظ المؤلمة. كان هذا هو التفسير الوحيد لفكرة أنه نام لعدة أعوام. لكن لماذا يكون رودولف، المرشد الروحي الأول له، هو من يحثه فجأة على إعادة التفكير في موقفه؟ هذا ما سوف يكتشفه على امتداد هذا اليوم الذي بدأ منذ قليل.

وفي تلك الأثناء، كان عليه أن يعيد التفكير في العديد من الأمور. فلم تكن قد مرت أيام كثيرة على دخول الجنود الألمان بالموتوسيكلات والسيارات المغطاة بالتراب بردائهم الأخضر الفاتح إلى العاصمة، حتى باهر دكتور ماخوس في البداية باستقبالهم باعتباره رجلاً محترماً، وكان حاضراً أثناء توقيع اتفاقية الاستسلام في مقهى حقير بمنطقة أميلوكيبى. ومنذ ذلك الحين انخرط في نشاط عنيف من أجل تأمين تأقلمهم مع الأوضاع الجديدة، فقد قام بتدبير أماكن الإقامة، وسائل المواصلات، إمدادات الطعام لقوات الاحتلال. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد قام بدافع المسؤولية بتقديم اقتراحاته للقيادة الألمانية بخصوص إنشاء هيكل حكومي جديد تحت قيادة تسولاكوغلوس. ولذلك قام بزيارة رئيس الأساقفة خريسانثوس وطلب منه، في حضور قائد الحزب النازي وقائد الحامية الألمانية باثينا والملحق العسكري بالسفارة الألمانية، أن تؤدي الحكومة قسم الولاء. ثم قام بعد ذلك باصطحاب المحافظ أمفروسيوس بليتاس إلى فندق "بريطانيا العظمى"، حيث استطاع الوصول إلى حل مرضٍ بمساعدة قائد الجيش الألماني وقائد الحامية الألمانية باثينا من أجل عودة المصالح الحكومية للعمل. «بدون مساعدتكم الثمينة لم يكن بمقدورنا تحقيق كل هذه الإنجازات في غضون أيام قليلة» هكذا حدثه القائد الألماني في النهاية وهو يشد على يديه. أهنك تقدير أفضل من ذلك؟

فى تلك الأثناء، كان عقله يعمل دون توقف لإيجاد حلول لكل مشكلة تطرأ على باله. فى أحد هذه الأيام التقى بالمصادفة فى شارع أكاذيمياس أحد زملاء الدراسة القدامى بالإسكندرية، وهو كيموناس فالساميس الذى يعمل موظفاً فى " شركة المياه ". إلا أنه لم يتذكره أو ربما تظاهر بذلك، فقام ماخوس بإمساكه من مرفقه وأجبره على الوقوف، وقال له:

ماخوس: «فالساميس، بحثت عنك فى السماء فوجدتك فى الأرض أخيراً، إزى الحال» (قالها باللغة العربية وبنونها بحروف يونانية)».

فالساميس: «الحمد لله» أجابه (باللغة العربية) وقد امتنع وجهه. ومن الواضح أن ماخوس لم يكن يعرف ماذا حل به ولكنها كانت مشكلته. وقبل أن يفهم ماخوس شيئاً، فقد عرف أن كيموناس هو المسئول عن الموافقة على منح تأشيرات الدخول للقيادة الألمانية. وكان لابد أن يكون ممتناً لزميله القديم، لكن ماخوس كان يدرك أن زميله سيقدم تلك الخدمة التى قدمها للألمان رضى أم أبى.

وهكذا تزايدت مكانة الدكتور ماخوس يوماً بعد يوم فى النظام الجديد، وأصبح الابن الثانى لاندونيس خاراميس يحلم بتولى المناصب القيادية تحت السيادة الإيطالية، الألمانية على اليونان. وفى الواقع، لم يكن هناك من يستطيع الوقوف فى طريق آماله العريضة، إلى أن حدثت مصادفة سيئة قللت من مكانته العالية.

فى يوم العاشر من شهر مايو لعام ١٩٤١، انتشر فى العالم خبر تحطم الطائرة التى كانت تقل نائب هتلر إلى سكوتلاندا للتفاوض حول السلام. ولم ينج من الحادث سوى روبروف إس بالقفز من الطائرة بالمظلة؛ وشعر ماخوس، الذى لم يكن يصدق ما حدث، أنه بعد هذا الحادث الذى يصعب تفسيره قد هبط إلى الحقيقة المؤلة التى كان يتجاهلها لسنوات طويلة.

كانت تلك الرؤيا التى سبقت الحادث هى: أكثر ما أصاب ماخوس بالفزع، وبدأ يسأل نفسه لأول مرة بجدية إذا ما كان قد سلك طريقاً خاطئاً. لكنه لم يجد إجابة،

أو لم يجرؤ على إعطاء إجابة. ولكنه لاحظ في الوقت الحالى تلك التغيرات المفاجئة التى مرت بحياته بما فيها محاولة رودولف اليأسنة. لقد تجمدت المصافحات الحارة والابتسامات الحميمة مع ضباط الجيش الألمان بين عشية وضحاها. وأصبح الجستابو يراقبه عن كثب فى كل حين. كان الدكتور ماخوس معروفاً باسم "رجل إس"، ولذلك فقد كان عليه أن يتحمل عواقب علاقته القوية برودولف إس منذ العشرينيات. وقد أدرك أن الشك المتزايد من جانب قوات الاحتلال فى شخصه سيؤدى حتماً إلى الاستغناء عن خدماته. كان كل ما يتمناه فى حياته أكثر من أى شىء آخر بعد خدمة القيادة الألمانية هو؛ أن لا تؤول به الحال ويصبح مجرد عميل سابق تم الاستغناء عنه، وهو من كان الألمان يعتبرونه فى الماضى رجلاً لا غبار عليه. كان الصعود أو الهبوط عند النازيين خاضعين لقوانين صارمة، وقد رأى بنفسه أناساً كانت لهم قدرات وسلطات يتم إقصاؤهم دون سبب واضح. فى ذلك الوقت تذكر ما ذكره رودولف فى وقت سابق، حيث قال: «إن حب هتلر يشبه الرمال المتحركة. لابد أن تكون حذراً وتعرف أين تضع قدمك فى كل لحظة، وأن تتبع خطواتى وتأخذ منها العبرة. نحن نعيش فى عالم يتبدل فيه دائماً الحق والباطل، الحقيقة والكذب». ربما كان سقوط رودلف إس فوق أرض بريطانية أحد تلك الحركات التى كانت تخفى بداخلها رسالة موجهة له هو نفسه؟ ربما كانت لإيماءة إس (فى الحلم) أهمية كبرى؟ فى تلك الأيام ربما كان الصواب والخطأ يقفان على الجهة الأخرى من الجانب الذى يقف عليه دكتور ماخوس. لكن حتى التغيير لم يكن ليحدث فجأة ولكن يكتمل ببطء وبلا وعى، مثله فى ذلك مثل أى تغيير صادق. وكانت البداية هى التشكيك فى نتائج الاحتلال الألمانى العظيمة.

بدأ شبح الجوع ينشر جناحيه فوق العاصمة اليونانية فى الشتاء الذى حل. كان الناس يموتون جوعاً فى الشوارع. ولم تكن قوات التحالف هى وحدها المسئولة عن تلك المجاعة بسبب حصارها لهم، فقد كان ماخوس يعلم مسبقاً أن الحكومة الملكية فى المنفى قد سلمت للمحتل مخازن الطعام، إلى جانب مخازن السلاح. إلا أن الألمان قد خيبوا ثقته بهم. ومن بين أصدقاء حلفاء الألمان من سأل سؤالاً بدأ صحيحاً: «أين ذهب الشرف الألمانى المعروف؟ لقد عشنا سنوات طويلة فى ألمانيا ولم يخذعنا فيها أحد.

وبالنظام الجديد " ازداد فجأة عدد الأفاقين". كان الدكتور ماخوس يستمع إلى قصص مرعبة عن المنازل التي نهبت، وتلك التي سرق منها الألمان كل شيء حتى مقابض الأبواب.

لم يكن " النظام الجديد " الذى ذاعت شهرته سوى جحيم من الفوضى والتسلط يزداد يوماً بعد يوم، ويسحب معه المنتصر والمهزوم إلى أعماق الجحيم. لقد تسببت أعمال السلب والنهب فى إفراغ المحلات التجارية من محتوياتها منذ الأيام الأولى. طوابير ممتدة تقف أمام المحلات التجارية القليلة التى كانت تعرض بعضاً من المواد الغذائية، وقد تحدث أحد ضباط الجيش لماخوس قائلاً: «أه، إنكم لم تروا شيئاً، يا هير ماخوس، ففي بولندا يموت مائتا شخص كل يوم»، ثم ضحك هذا الغبى! وفى غضون شهور قليلة تم إخلاء أثينا من كل وسائل المواصلات العامة، واضطر الجميع للذهاب لأعمالهم سيراً على الأقدام. حتى الحصول على السجائر كان يتطلب الوقوف فى طابور لعدة ساعات. لقد سبق أن شاهد ماخوس مثل هذه المشاهد فى ألمانيا فى أوائل العشرينيات عندما كان هتلر وأقرانه يصرحون بأن مثل هذه المشاهد لن تتكرر فى المستقبل.

وسط جحيم الاحتلال الألمانى لم يكن هناك من يحيا حياة إنسانية سوى القليل، أما الآخرون فلم يكن من حقهم الحصول حتى على جنازة تليق ببشر ماتوا بسبب المجاعة. لقد أصيب ماخوس بالضيق بسبب ما يشاهده من إهدار لكرامة بنى وطنه وشدة معاناتهم. ولم يقتصر الأمر على مرحلة التحول ولكنه تعداه إلى ما يفوق البشر، مما منحه الإحساس بأنه لم يكن سوى مصاص للدماء يعيش على حساب الآلاف من البشر. ومما يدعو للسخرية، أن الجالية الألمانية لم تكن استثناء من ذلك، ومن بين أعضائها فالتر فريندى الذى يتذكر ماخوس كيف كان فى قمة السعادة عندما دخل الألمان العاصمة اليونانية. وفى صباح أحد الأيام الباردة، فى بداية عام ١٩١٤، حضر هذا الرجل إلى منزل ماخوس وهو منكس الرأس، وكان يرجوه لإعطائه بعض قطع اللحم الطازج، ودار بينهما الحوار التالى:

ماخوس: «ولكن كيف، أنكم...» هكذا صاح ماخوس، مندهشاً.

فريندى: «نحن! يا صديقى، مازال هناك الكثير من العجائب التى سنراها فى هذه الحرب القذرة» هكذا أجابه فريندى، ثم أخذ منه شاكراً قطعتين من اللحم كان يحتفظ بهما لنفسه، ثم أضاف فريندى قائلاً: «هل أنتم متاكون أن ذلك لن يسبب لكم نقصاً فى الطعام، يا عزيزى؟» سأل ذلك وكان صوته يرتعد من القلق.

- «لا تبال، فكلنا نشعر بالجوع فى هذه المدينة. دعنا لا نصبح نحن استثناءً من ذلك. على أية حال، لقد سئمت من رؤية أناس يبيعون أغلى ما يملكون لتجار السوق السوداء، تفضلوا لكى تروا بأنفسكم». قال ماخوس ذلك فاقترب الرجل الألمانى من النافذه، ثم أضاف ماخوس: «هؤلاء هم السكان الذين يستأجرون الشقة الموجودة فى الطابق السفلى».

عندئذ شاهد فريندى رجلاً فى الخامسة والخمسين من عمره ومعه زوجته، يرتديان الملابس الثقيلة، وكانا قد خرجا فى هذا الوقت إلى شارع سكوكا وهما يحملان حقيبة مليئة بالعديد من المتاع.

- «لا تتصورون كم الأشياء القيمة التى يتخلون عنها كل يوم لكى يشتروا بعض الطعام».

- «إننى أتفهم ذلك، يا عزيزى».

- «فى البداية تم إجبارهما على استضافة قائد ألمانى سمين من فيرماخت. وقد عبر عن امتنانه لهما بالتحرش بابنتهما. ولذلك فقد رأيت أن من واجبى أن أتدخل وأبلغ القيادة الألمانية. على الأقل فقد نجحت فى تخليصهم من هذا الخنزير الضخم».

- «إنه أمر لا يصدق عقل».

- «تخلوا كيف كان يعيش هؤلاء الناس قبل الحرب. كنت أحياناً ما ألقاهم عند الباب وكانوا ينظرون إلى نظرة استعلاء، مما كان يصيبنى بالغضب».

لكن "صدق أولاً تصدق" (قال ذلك بالإنجليزية)، فالיום أشعر بالحزن حقاً تجاههم وأنا أراهم وقد سلب منهم استعلاؤهم" قال ذلك ماخوس وأخذ يعرض على شفتيه لأنه نطق ببعض الكلمات الإنجليزية وهو يتحدث. أحس فريندى بذلك فابتسم له مهدئاً إياه بقوله:

- «لا تقلقوا، لن أعتبر أن كلمتين إنجليزيتين دليلاً على المقاومة» بقوله:

- «أتعرفون، أننا اعتدنا ونحن في الإسكندرية أن نتحدث بمزيج من اللغات: الإنجليزية، الفرنسية، الإيطالية» ثم أسرع وأضاف قائلاً «والألمانية بالطبع» هكذا حاول ماخوس أن يقدم تبريراً لما ذكره.

- «أعلم، أعلم، يا عزيزى الدكتور. حقاً كيف لم تفكروا في الهرب إلى الإسكندرية حتى الآن؟».

- «وما الداعى للهروب؟ إن مكانى هنا بجانبكم».

- «لست أدري، يا هير ماخوس. أعتقد أنه لا بد أن تبدأوا في التفكير في هذا الأمر. إلا إذا سبقكم روميل إلى هناك. لقد تغيرتم كثيراً هل تدركون ذلك؟».

- «إن قناعتي لم تتغير وإخلاصى لهتلر ثابت لا يتزعزع».

- «لا أعنى قناعتكم ولا تهمنى من قريب أو بعيد. لقد تغيرت لهجتكم، هذا ما أقصد. فالإنسانية تبدو عليكم الآن أكثر من ذى قبل».

- «الإنسانية؟ من الطبيعى أن يظهر أى منا قدر من الإنسانية في مثل هذه الأيام».

- «لكنكم تظهرون ذلك على أية حال. إلى اللقاء» (قالها بالألمانية)، يا دكتور ماخوس، سأظل ممتناً لك إلى الأبد».

ظل ماخوس شهوراً طويلة يعتقد أن روميل كان يتبع تكتيكاً خاصاً يختبر به قوة تحمل مدينة الإسكندرية، وكان لديه شعور ولو بسيطاً بالأمان في هذا العالم. وفي تلك الاثناء

لم يتوقف عن القلق تجاه الوضع الحالى. لكنه قلق بعيد عن الفلاسفة والمفكرين، ومن ناحية أخرى، لم تكن المعلومات المخيفة التى ترد إليه تسمح له بأن يفلسف الأمور. لقد أفضى إليه أحد الضباط الكبار بالجيش الألمانى، أنه كان بحاجة ماسة للحصول على القمح الروسى، ليس فقط من أجل إطعام الجيش الألمانى، ولكن أيضاً من أجل أوروبا الشرقية بأسرها التى كانت تحتلها ألمانيا. وقد علق ماخوس على ذلك قائلاً:

«إن هذا يعنى أنه لن يبقى شىء للروس أنفسهم».

«بالضبط! ومن المنتظر فى غضون الشهور القادمة أن تحل المجاعة بثلاثين مليون شخص فى الاتحاد السوفيتى. لا تنسوا كذلك أن هذه الحرب لا تتعامل بنفس القسوة مع دول الغرب المتحضرة، مثلما تتعامل مع اليهود والشيوعيين» هكذا أكمل الضابط الألمانى حديثه الأجوف.

وبدلاً من إجابة أخرى، تطلع إليه ماخوس بنظرة غامضة. لكن الضابط الألمانى لم يتوقف عند هذا الحد، بل أضاف قائلاً:

«إننا نتبع ببساطة نفس الطريقة التى قام بها ستالين فى الماضى بالتعامل مع الكثافة السكانية الشديدة فى الاتحاد السوفيتى. كما أننى شخصاً أتبع نظرية "الوجود الزائد"، تلك النظرية التى نشرها علماءنا فى الاقتصاد. وكان البروفيسير ماينهولد يعنى بذلك أزمة الخمسة ملايين بولندى الذين يشكلون - لأسباب عديدة - "وجوداً زائداً" (قالها بالألمانية)».

عندئذ أمعن دكتور ماخوس النظر فى هذا الضابط الألمانى. فقد كان رجلاً ضخماً الجثة متوسط الطول يشبه الثور، وبدون رغبة منه، جال بخاطره كيف أن لحم هذا الرجل قد يكفى لإطعام قرية بأكملها.

وبدلاً من أن يقلق بشأن سكان الاتحاد السوفيتى، كان على ماخوس أن يفكر أولاً فى حالة هو. لقد وقع فى يده بالمصادفة أحد خطابات القيادة الألمانية، واعتقد أن هذا الخطاب يخصه هو شخصياً، وعلى الرغم من أنه لم يكن يشير إليه بالاسم فإنه كان

يعنيه بالتأكيد. كان الخطاب يقول حرفياً: «لابد من إعادة تقييم تعاون قوات الاحتلال مع العملاء الأجانب وبخاصة مع أبناء هذا البلد؛ حتى لو لم تكن هناك أدلة تدينهم، فإنهم يعدون عديمي الفائدة، فمن الثابت أنهم يستفيدون من السخاء الألماني دون أن يقدموا ما ينبغي عليهم تقديمه. ومن ناحية أخرى، يستغل العديد منهم صداقته لألمانيا بوصفه غطاء للدفع بخططهم التآمرية من أجل هزيمة قوات المحور. ينبغي أيضاً الحذر.....».

لم يكن ماخوس بحاجة لقراءة المزيد حتى يفهم. لكن لحسن الحظ أنه في حرب كذلك، كان هناك من لم ينس ما قدمه ماخوس من أعمال جلية لألمانيا.

من الممكن أن يكون قد مر يومان على جنازة بالاماس، وعندما عاد إليه فالتز فريندى مرة أخرى. كان يبدو في حالة أفضل، وكان لهذا التحسن انعكاس أكبر على موضوع الطعام. تحدث فريندى لماخوس قائلاً:

«هل تذكرون عندما نصحتكم بالهرب إلى الإسكندرية؟ أعتقد أنه قد آن الأوان لتفعلوا ذلك بدون تردد. لا تسألوني أكثر من ذلك، لأنكم سوف تضعوننى في موقف حرج. لكن ثقوا في إنسان يعرف كيف يظهر امتنانه لأصدقائه».

كان من الطبيعى أن يصيب هذا الحديث ماخوس بالذعر. حتى لو كان باستطاعته الهرب إلى الشرق الأوسط، وهو أمر سهل، فكيف سيتم قبوله في أوساط المجتمع السكندري؟ لقد وضعه تعاونه مع قوات الاحتلال في اليونان في صورة سيئة للغاية، حتى لو كان يتمتع بالفطنة التى جعلته يحجم عن المشاركة فى حكومة تسولاكوغولوس وأن لا تكون له مهام واضحة فى القيادة الألمانية. إلا أنه كان مصنفًا باعتباره أحد النازيين، فلم يعد له مكان آمن فى هذا العالم الملتاع من الحرب.

كانت آماله بالعودة للإسكندرية ستتحقق لو قام روميل باحتلالها، لكن هذا الأمر قد أصبح بعيد المنال، فقد هُزمَ القرن الأفريقى، وفى المعركة الثانية بالعلمين اضطرت قوات المحور للتراجع مدحورة إلى شمال غرب أفريقيا.

كم كان ماخوس متردداً، وله الحق في ذلك، في القيام بمثل بهذه المخاطرة، لكن تطورات الموقف كانت أسرع منه، فقد تورط عدد من كبار الضباط في الشائعات المغرضة التي تتعلق بمحاولة اغتيال هتلر، بما في ذلك من كانوا في اليونان. وبدأ تطبيق الخدعة القديمة مرة أخرى. فكل من لم تعد لهم فائدة للقيادة الألمانية، يتم اتهامهم دائماً بالمشاركة في التخطيط لاغتيال هتلر. وكانت الحاجة لعناصر مخلصه هو الشيء الوحيد الذي جعلهم يبقون فقط على أي شخص يعتبر ذا أهمية كبيرة لهم. كانت المكائد ضد هتلر عديدة؛ فمنتصرو الأمس أصبحوا مهزومى اليوم.

لقد حانت اللحظة إذن لكي يعبر أحد هؤلاء المستفيدين من خدماته عن امتنانه له وهو كيموناس فالساميس، وفي الوقت نفسه لم يكن لدى ماخوس سعة من الوقت لكي يستحضر الامتنان الذي يشعر به تجاه زميل دراسته القديم، فقد كان يعلم علم اليقين أن كيموناس قد تأقلم في وظيفته التي وضعه فيها، وكان يستمتع بالعطاء المادي الذي لم يكن ليحلم به مقارنة بما تعانیه الغالبية العظمى من أفراد المجتمع. طلب منه أن يلتقيا في مقهى بعيد في منطقة سيبوليا، وتطلع إليه ماخوس بانبهار وهو يشاهد أمامه رجلاً أنيقاً يرتدى بالطو من صوف الجمال وقبعة. كانت خطواته الهادئة الواثقة تجعله يبدو مختلفاً عن جموع المضطربين والمقهورين من عامة الناس. وفي اللحظة التي انحنى فيها لتحية ماخوس، همس ماخوس في أذنه مبتسماً:

«خلّى بالك (قالها بالعربية ودونها بحروف يونانية). فنصف ما أعرفه عنك، يا فالساميس، يمكن أن يتسبب في فصلك من عملك غداً» عندئذ نظر إليه الرجل الألماني المصري مشدوهاً. حتى لو كانت دعابة، فإنها لم ترقه أبداً. تجول ببصره في المكان مضطرباً، باحثاً عن احتمال وجود واشين بالمكان، فبادره ماخوس قائلاً: «لا تنزعج هكذا، فلن أفعل ذلك» ثم أضاف ماخوس باللغة العربية «يكفى فقط أن تعبر بشكل عملي عن عرفانك بالجميل الذي قدمته له».

اكتفى فالساميس بالنظر إلى ماخوس نظرة مفعمة بالتساؤل عن السبب الذي دفعه للخوض في هذا الكلام. عندئذ بادره ماخوس قائلاً:

«أريدك أن تعيدنى لبلدى بأوراق مزورة» هكذا تحدث ماخوس بهدوء شديد وكأنه يطلب منه أمراً يسيراً، ثم قدم له سيجارة، وعندما لاحظ تردده فى أخذ تلك السيجارة قال له موضحاً: «بالطبع لم يخطر ببالك أن شخصاً مثلى يدخل السجائر الرديئة. تأكد أن السيجارة التى أقدمها لك تضاهى السجائر المصرية. تفضل إذن».

فى تلك الأثناء، تم تقديم القهوة التى كانت تشبه الحمص السائل، مما دفع ماخوس إلى استدعاء القهوجى وتوجيه بعض التعليمات، ثم أخرج له بطاقته الخاصة وألصقها فى وجهه قائلاً: «خذ هذين الكيسين واصنع لنا فنجانين من القهوة». عندئذ أبدى القهوجى اعتذاره وهو يرتعد مع الوعد بإصلاح هذا الخطأ.

«حسناً إذن، أين كنا قد وصلنا؟» هكذا قال ماخوس ثم تظاهر وكأنه قد تذكر ما كانا يتحدثان فيه، فاستكمل حديثه باللغة العربية قائلاً: «لابد كما ذكرت لك أن تساعدنى فى السفر إلى مصر بأوراق مزورة. فموقفى أصبح فى شدة الحرج يا كيموناس. لقد ساعدتك، والآن حان الوقت لكى تساعدنى أنت أيضاً». لقد فكر ماخوس جيداً فيما سيقوله له، فكلما كان كلامه أقل كلما كان ذلك أفضل.

تضاعفت الدهشة على وجه فالساميس، لكنه لم ينطق بكلمة واحدة، حيث كان شديد الحذر. فى البداية فكر فى احتمال أن يكون ماخوس قد أعد له فخاً لكى يختبره به، فابتسم ابتسامة المرتاب وتحاشى الإجابة. لكن ماخوس لم يكن يمزح، فقد سرد له بالتفصيل أسماء أشخاص وأمور يقوم بها فى عمله. وسواءً قبل ذلك أم لا، فقد كان فالساميس يستغل بالفعل منصبه الذى أسند إليه لتسهيل هروب العديد من الأشخاص إلى الشرق الأوسط.

اعترف كيموناس، الذى بدا وجهه شاحباً، لماخوس بجميله عليه ووعده بأن يفعل كل ما فى وسعه لكى يساعده. إلا أنه طلب منه إمهاله بعض الوقت حتى يتمكن من الترتيب الجيد للموضوع وإعداد ما يلزم.

لم يختلف اليوم الذى غادر فيه ماخوس اليونان عن باقى أيام عام ١٩٤٢، التى كانت تنتشر فيها الكآبة فوق سماء هذا البلد. وقد حرص ماخوس على حرق الخطابات

التي كان يكتبها ولا يرسلها، تلك التي كان يكتبها وهو على حافة الجنون. ومعها قام بحرق خطابات إيريك التي كان يحتفظ بها لسنوات. فلو تصادف وحدث أى شيء فلن يكون من الحكمة أن يعثروا عليها معه. أما متعلقاته الشخصية: كتبه، ملابسه، أسطوانات الموسيقى الكلاسيكية، جهاز الجراموفون، الأثاث القليل، الطعام، أدوات الإسعافات الأولية، فقد أهداها جميعها إلى تلك العائلة التي تسكن بالطابق الأول، محتفظاً لنفسه ببعض المتعلقات المهمة: مثل بعض الملبات التي تكفيه أثناء الرحلة، طبعة نادرة من كتاب "مضى وقت" للمؤلف مارتين هايديجير، التي كانت تحمل توقيع المؤلف.

بدأت رحلة هروب ماخوس من ذلك الخليج الصغير فى ميناء رافينا عند أحواض السفن، وقد رافقه إلى رحلة هروبه إلى الميناء الغربية بالإسكندرية رجل يدعى خاراالمبوس لاذاس الذى تعهد بتهديب ماخوس لحساب فالساميس ومنحه اسمه، وكان يحدث نفسه قائلاً: «الحافة أمامنا ومن ورائنا الطوفان». لم يكن ماخوس قد قرر ماذا سيفعل عند وصوله إلى الإسكندرية، ولكنه كان يتمنى أن لا يتذكر وجهه أحد بعد مرور عشرين عاماً حتى يتمكن من التحرك بأمان بدرجة كبيرة. كان يعرف أن عودته إلى الإسكندرية بمثابة لحظة فاصلة أخطر من ذى قبل، حيث لم يكن فقط غير مرغوب فيه، ولكنهم كانوا يعتبرونه عدواً. ومن وجهة نظره فهو يرى أنه لا يختلف عن غيره من الناس، وربما منحه هذا الشعور نوعاً من الهدوء الذى كان بحاجة إليه فى هذه الرحلة.

لم يكن الفجر قد حل بعد عندما تحركت المركب الخشبية لتشق بحر أتيكا، وكان ماخوس قد دثر نفسه ببطانية عسكرية ورفض بإصرار النزول للعنبر الذى يجلس به باقى الهاربين. أخذ يتطلع إلى الأفق المظلم فى اتجاه الشرق، وقرر فقط عندما رأى خيوط الفجر الأولى تبدو فى الأفق أن ينضم للباقيين. لم تكن أحوال الرحلة جيدة، لكنه كان يشعر بسعادة عارمة، لأنه يعلم أنه لم يكن عائداً فقط إلى الإسكندرية، ولكنه كان عائداً إلى نفسه.

* * * * *

فى الثالث والعشرين من شهر أكتوبر لعام ١٩٤٢، وفى الساعة العاشرة مساءً، أضاء الأفق الغربى لميناء الإسكندرية بضوء مخيف. فقد انطلق ما يزيد على ألف طلقة مدفع فى نفس اللحظة التى كان فيها مونجمرى يتفقد خط النار، تماماً مثلما حدث فى بداية معركة العلمين الثانية. ظهر شبح لشخص يتحرك داخل الصالون ذى الطراز المصرى فى منزل آل خاراميس، فى جانب الغرفة شبه المظلمة، تبدو عليه شدة القلق. كان وهج السيجارة المشتعلة فى يده يتحرك وكأنه دوى صفارات الإنذار. تحرك الشبح الذى المضينة. دوى صوت الهاتف فى المنزل وكأنه دوى صفارات الإنذار. تحرك الشبح الذى لم يكن سوى كوستيس خاراميس وأجاب بصوت مرهق، معلقاً على ما كان يسمعه من محدثه على الناحية الأخرى بعبارات من نوع: «إنها مسألة وقت، لم يتحدد شىء بعد، إلى الغد إذن» (قالها بالفرنسية). وفى خلال دقيقة واحدة بدأت ملامح شخصيات أخرى تظهر قادمة من ناحية غرفة المعيشة وهى تحمل لمبة الإضاءة المغلفة بالورق الأزرق، وتجمعت هذه الشخصيات فى نفس الصالون ذى الواجهة الزجاجية. جرت الطفلة الصغيرة ذافنى وارتمت فى أحضان أبيها، ومن رانها كلبها الصغير فريكسوس الذى أخذ يتمسح فى قدميه.

ذافنى: «من كان على الهاتف، يا كوستيس؟».

كوستيس: «إنه سيستانيس، يا أمى، كان يسألنى إذا ما كنا سنذهب غداً إلى المصنع، كما سبق وأن اتفقنا على ذلك، فأخبرته أنه لا يوجد سبب يدعو لإلغاء الموعد».

- «هل أنت متأكد؟».

- «هل تشعرين بالقلق، يا سيده ذافنى، أم يهيا لى ذلك؟»

- «أيا كان الأمر، فقد قلت ذلك بنفسك من قبل. لم يتضح شىء بعد»

- «أنا واثق من شىء واحد فقط، وهو أن حفيدتك الصغيرة لا تخاف أبداً. هل تخافين يا صغيرتى؟».

- «بالطبع لا (قالتها بالفرنسية)، فقد أصبحت فى التاسعة من عمري، هل نسيت ذلك، يا أبى؟».

- «إذن هذه الطفلة لا تخاف أبداً» قالت ذلك جدتها وهى تداعب بحنان خصلات شعرها الذهبى التى تنسدل على وجهها. ثم استدارت إلى ابنها وقالت: «لماذا لا نهبط قليلاً إلى البدروم، ونشعل بعض الضوء ونجلس مثل البشر. لقد سئمت أن أتحرك كالعمياء داخل بيتى».

لكن كان لكوستيس رأى مختلف حيث قال:

«أذهبوا أنتم، أما أنا فسامكت لأتابع ألعاب مونتجرى النارية». ثم استدار ناحية الطامية وقال: «مدام خاريتومينى، أعدى لى فنجاناً من القهوة. فهذه الليلة ستكون طويلة».

خاريتومينى: «بن ثقیل، سكر زیادة؟» قالت ذلك بينما كانت تغادر غرفة الصالون.

كوستيس: «نعم، بن ثقیل، سكر زیادة» هكذا رد كوستيس كلماتها ولم يتركها تباعد نون أن یلقى علیها دعابته المعتادة: «أخبرینى حقاً، یا خاريتومينى، لماذا لا یحارب ابنك فى الصحراء بدلاً من جلوسه فى الصفوف الخلفية؟» وكان كوستيس على یقین من أنه سیحصل على إجابة غاضبة منها:

- «أوف، یا سیدی، كم مرة سأقولها لك؟ لقد حارب ابنى فوتيس كثيراً. فلیحارب الآن أى شخص آخر».

- «أهذا هو ما یحدث حقاً، أم أن فوتيس جالس الآن یقبل أقدام الملك؟».

- «أه، یا سیدی كوستيس، لديك رغبة فى المزاح!».

كانت مشاعر خاريتومينى الغاضبة تداعبه. ربما كانت هى الإنسان الوحید الذى كان یسمح له بأن یمازحه فى الآونة الأخيرة.

فى الفترة التى كانت تفصل بین معارك الصحراء فى شهرى یونیو ویولیو، والتى لم یكن هناك أمل فى انتهائهما، كان كوستيس قد تغیر كثيراً، لدرجة أن كل من كانوا یعرفونه لم یصدقوا أنه هو نفس الإنسان. هناك بالطبع العید من الأسباب التى أدت

إلى هذا التغيير الجذرى، ولم تكن الحرب هى أهم تلك الأسباب بقدر ذلك القرار الذى اتخذه فى تلك الساعات العصبية التى تمر بها الإسكندرية بالتخلص تماماً من كابوس زوجته الصهيونية. كانت تلك هى الرسالة التى كان يحاول جاهداً أن يجعل مجتمع الإسكندرية يستوعبها، ذلك المجتمع الذى عاد إليه جميع أفرادهِ بعد الهزيمة الواضحة لقوات المحور، عاد الجميع ما عدا هايكى. وبدلاً من أن يتمنى سراً انتصار روميل أو حتى أن يصب لعنته علانية على اليهود وعلى صهيونيتهم التى اختطفت منه أم طفلته، فقد فضل أن يؤكد للجميع أن التهديد الألمانى والتطلعات الصهيونية لزوجته الهولندية - اليهودية كانت بمثابة مفارقة ملائمة جعلته يتمكن من التخلص بكل سعادة من زوجته غير المرغوب فيها.

وفى الحقيقة، لو كانت هايكى حاضرة وتتابع ما يحدث، لما سرها هذا المشهد الحزين. فمِنذ رحيلها منذ خمسة أشهر، أصبح من الصعب ملء الفراغ الذى خلفته وراءها، فى حين كان كل فرد من أفراد الأسرة يحاول، كل بطريقته، أن يضمّد جراحه من جراء رحيلها المفاجئ.

ومن المؤكد أن حماتها كانت أقل فرد يشعر بالحزن فى العائلة. ومنذ اللحظة التى تمكن فيها كوستيس من إغلاق أفواه الناس، أصبحت كل الأمور الأخرى تحتاج لبعض الوقت، بما فى ذلك صدمة أمه وتأثير رحيل زوجته على نفس حفيدتها؛ ولذلك كانت الجدة دائماً ما توجه حديثها لحفيدتها قائلة: «اطمننى يا صغيرتى، فلن ينقصك شيء كان لديك فى يوم من الأيام». وبهذه الطريقة كانت تحاول تعويض غياب والدتها هايكى، تلك التى استسلمت لحبها للخمر ولصهيونيتها ولنزعها النرجسية.

ويبدو أن ابنتها الصغيرة ذافنى قد تحررت من تعلقها بها، وأصبحت أكثر ارتباطاً بجدها؛ كما أصبحت تلك الكوايبس التى كانت تلاحقها وتجعلها تجرى مذعورة فى طرقات المنزل ومن خلفها كلبها الصغير ومن ورائهما المربية ميس جين، أصبحت مجرد ذكرى من الماضى. ولم يكن هناك من يستيع التنبؤ بمدى التأثير النفسى الذى يمكن أن يحدثه غياب والدتها عليها فى المستقبل، لكنهم كانوا جميعاً

يعتقدون أنه لم يكن من الممكن لأم مدمنة للخمر ويهودية متشددة أن تصبح هي النموذج الأمثل الذي تحتذى به ذافنى الصغيرة. ومن جهة أخرى، أصبحت العلاقة القوية التى نشأت منذ البداية بين الجدة وحفيدتها قادرة على سد الفراغ الذى سببه هروب الأم بشكل كبير.

أما بالنسبة لكوستيس، فقد كان موقفه واضحاً منذ البداية. فعندما كتبت له هايكى لأول مرة من أورشليم فى منتصف شهر أغسطس، تاركة احتمال عودتها للإسكندرية مفتوحاً، أجابها بأنه ينبغى على الإنسان فى هذه الحياة أن يكون ثابتاً فى اتخاذ قراراته، وبما أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد، فلن يكون فى مصلحة أحد أن تعود إلى المدينة التى تركتها. كان من الصعب على هايكى أن تتخيل ردة فعل كهذه قبل عشرة أعوام عندما كان زوجها يهيم بها حباً كالمجنون. وقد أنهى كوستيس خطابه قائلاً: «الآن أرى بوضوح أن الأسباب التى فرقت بيننا كانت أكثر بكثير من الأسباب التى جمعتنا، أقول لك بإخلاص إننى لا أؤيد فكرة عودتك مرة أخرى إلى وضع كان يشعرك دائماً بالسأم ويدفعك دفعاً لتعاطى الخمر. أتخيل أنك الآن موجودة فى مكان تشعرين فيه بالانتماء، وأرى أن كل نشاط ستشاركين فيه هناك سيكون بمثابة شرف عظيم لك ولوطنك المأمول. أما هنا فستحظين دائماً بمشاعر الكراهية، ولن تكونى سوى زوجة قامت دون قصد بإفساد الأمور على زوجها».

وفى واقع الأمر، لم تكن لدى هايكى أدنى رغبة فى العودة مرة أخرى لهذه المدينة الملعونة التى تجعل أهلها وكأنهم فاقدو الوعي، وتغضى مشاعرهم المزيفة بقناع الود. لقد حاولت لوقت طويل أن تواجه بطريقة يشوبها الشك إحساس زوجها بالعظمة. لم يكن هناك أحد فى الإسكندرية كلها يشعر بالأمان، ولم يكن تهديد روميل الذى كان يلقي بظلاله على أهلها هو السبب الوحيد لذلك، فالقائد الألمانى، إن تمكن من الدخول بجيوشه إلى الإسكندرية، لسقط هو نفسه تحت تأثير قوتها الشيطانية. كان الخطر الحقيقى موجوداً فى أفق ما بعد الحرب - فالحرب ستنتهى إن عاجلاً أو آجلاً - وكانت لديها القدرة على رؤية ذلك بفضل بصيرتها التى تتمتع بها وبفضل إيمانها الراسخ بإله

إسرائيل. كان أصدقائها الصهاينة يؤكدون لها أن الصحوة العربية هي التي ستغير خريطة الشرق الأوسط، وأنها ستغير بشكل مذهل تلك الثوابت التي وضعها الأوروبيون في المنطقة، فحاولت أن تحذر كوستيس ولكن دون جدوى، فقد كان يعيش في فترة ما بين الحربين بسذاجة لدرجة جعلته يصدق أن هذه الحرب لم تكن سوى فترة استراحة، مثل إجازة صيف مرت بحياتهم. ومع البدايات الأولى لعام ١٩٣٨، بدأت هايكي في التفكير بشكل جدى في مغادرة الإسكندرية والإقامة فى أى مكان آخر تختاره، وبدأت لها اليونان حينئذ ملاذاً آمناً. لكن كوستيس كان يضحك ويقول: «هل جئنت؟ أنترك تلك الجنة التي خلقها الله على الأرض؟ ألا تدركين كم نحن محظوظون بأننا نعيش هنا، وسط النخيل والصحراء الساحرة؟».

لكن كان عقلها يحدثها بشيء آخر. فقد كان من المستحيل أن تقول تلك المدينة إلى كل تلك الأجناس والأديان. وفى يوم من الأيام سيظهر السادة الحقيقيون ويطالبون بحقوقهم. وعندئذ قلن يقبلوا أن يظلوا " عبيداً " مدى الحياة للأوروبيين والبنانيين. وهكذا ستصبح الإسكندرية كاية تنتهى بنهاية مأساوية. حتى لو كان البعض قد تمكن من التأقلم وسط العاصمة العربية، فإنه كان لزاماً عليهم أن يجدوا سبلاً جديدة لمواجهة ذلك الوحش الذى ظهر بعد الحرب، لمواجهة أمريكا. وقد شرح لها أحد أساتذة الجغرافيا السياسية من اليهود منذ شهور فى منزل ميناسيه، التغيرات الاقتصادية التى ستطرأ بعد انتهاء الحرب. وحسب رأيه، فلن يتمكن الإنجليز من هزيمة قوات المحور دون مساعدة الأمريكين، الذين سيتحركون إن أجلاً أو عاجلاً بعد الحرب من أجل ملء الفراغ الذى تركته الإمبراطورية البريطانية فى المنطقة. وسوف ينتشر عمالة الصناعة بأمريكا فى كل مكان حتى هنا. «هكذا نستطيع أن نقول إن العالم الجديد تغلب بدوره على العالم القديم»، هكذا قالها بوضوح.

كان كل من تعرفهم هايكى يعيشون فى العالم القديم، ذلك العالم الذى كان يتألم من واقع الحرب المريرة. استمرت معركة العلمين الثانية لمدة اثنى عشر يوماً، وطوال تلك الفترة كانت سماء الإسكندرية تخفى خلف عدد لا حصر له من الطائرات الحربية،

فى حين كانت مياه البحر تغلى من جراء إطلاق الغواصات للصواريخ، ثم تعود أدراجها فى الصباح بعد إتمام مهامها الليلية. فى كل ليلة ويعد تناول وجبة العشاء، كان كوستيس يصعد شرفة المنزل ويرقب الأضواء الناتجة عن القصف المدفعى فى الصحراء الذى ينعكس على السحب الليلية فى السماء. وفى شارع باب سيدرا كان ابن خاله نيكيتاس يخرج إلى الشرفة ويدخن السجائر كما كان يتبادل التحية مع جيرانه. كانت الأضواء المبهرة للقصف تبدو كأنها قطعة من القماش اللامع مخيطة فى رداء المدينة الليلية، مما جعله يتذكر ابن عمه ثناسيس الذى ربما يقوم فى هذا الوقت بقصف مكان ما بطائرته. وفى الجانب الآخر من المدينة، كانت إيفيت تعود مرهقة إلى فيلتها فى لوران بعد انتهائها من عملها فى نادى الحلفاء بشارع كورينثوس وبيت البغاء بشارع مصطفى باشا، يتأبها شعور بقليل من التفاؤل، على الرغم من تلك النيران التى تعكسها سماء الإسكندرية وتتطلع إليها من شرفتها. لقد غادر كل من كانت تحبهم ويتق بهم فى أصعب اللحظات التى مرت بها المدينة: مات كل من أنونيس وماريانثى، هجرتها روكسانى منذ أكثر من عشرين عاماً، وإذا كانت تعيش الآن فى باريس، فلا بد أنها تحت وطأة الاحتلال الألمانى، أما هايكى فقد رحلت منذ شهور قليلة، باحثة عن الأمان فى فلسطين، وبالطبع كان إلياس غائباً، ولكنه كان سيعود فى أى وقت. وكانت قد كتبت له من قبل خطاباً قالت فيه: «لن تستطيع الإسكندرية أن تحيا بدونك!». لكن حتى لو استطاعت المدينة أن تستمر بدونه، فكيف تستطيع هى أن تفعل ذلك؟ كانت عودته بالنسبة لها بمثابة المواساة فى تلك الوحدة التى أصبحت تحاصرها من كل جانب، ولكن يبدو أن إيفيت لا تقهر تماماً مثل جيش روميل. وفى البدايات الأولى من شهر نوفمبر كان الموقف قد تم حسمه. حيث بدأ قائد الجيش الألمانى والجيوش بأفريقيا فى تنفيذ عملية الانسحاب، وقد تحدث تشرشل عن " بداية النهاية " لهذه الحرب اللعينة.

فى يوم الخامس عشر من شهر نوفمبر، عندما بُوت أصوات أجراس الكنائس معلنة الانتصار فى الصحراء الغربية، شعرت إيفيت بأنها وحيدة أكثر من ذى قبل. وفى

وسط هذه الأجواء الاحتفالية شاركها كوستيس نفس الشعور. فقد انسحب بعد تناول العشاء كعادته وحيداً إلى الصالون ذى الطراز المصرى، لا تشاركه من أفكاره سوى سيارته المشتعلة. كان يشعر بسعادة بالغة لم يشعر بها أحد مثله، ثم تنهد وأخذ يردد:

" لماذا حل الظلام ولم يأت البرابرة.

فى حين جاء البعض عبر الحدود

وقالوا إن البرابرة لم يعد لهم وجود.

والآن ماذا سنفعل بدون البرابرة

ولم يكن لنا حل سواهم "

* * * * *

يبدو أن هزيمة روميل كان لها تأثير إيجابى حتى على مجريات الأمور فى عرض البحر. فعلى العكس مما كان يتوقعه الجميع، سارت رحلة ماخوس إلى الإسكندرية بشكل طيب، إلا أن عطلاً صغيراً فى المحرك كاد يهدد الرحلة. لقد ساعدت الساعات الطويلة التى قضاها ماخوس فى البحر على خلق شعور بأن كل هؤلاء المسافرين - المنهكين من السفر بعد أن تلاعبت بهم الأمواج فى البحر الليبى - قد تركوا خلفهم الحرب على سواحل اليونان، فإذا بهم يجدونها أمامهم عند الميناء الغربية بالإسكندرية. وصلت المركب فى منتصف الليل، وقد اضطرتهم نظام الأمن بالميناء للانتظار فى عرض البحر طوال ثلاث ساعات. وفى الظلام الدامس الذى يفرضه قانون الحرب، كانت المظلات الحربية تشبه الأشباح التى تحوم حول القاعدة البحرية.

ويبدو أن "الله" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) قد أراد له أن يصل مع بشائر فجر اليوم وأصوات المؤذنين التى علت كما لو كانت إيذاناً بعودة ماخوس أخيراً إلى مدينته بعد ثمانية عشر عاماً من السلم وثلاثة أعوام من الحرب؛ وبالطبع قلن يتعرف ماخوس على المدينة بسهولة. وفى النهاية تم فتح الحاجز، ولكن بدا واضحاً أن

الصعوبات على وشك أن تبدأ، مرت المركب على صف من البوارج الحربية الموهة وبدأت تبحث عن المرسى. فى هذه الغاية من المراكب الراسية، وجد ماخوس صعوبة فى تحديد اتجاهه فى هذه المياه التى كان يقضى بها فى الماضى ساعات طويلة فى ممارسة رياضة التجديف. كان يشعر بالضيق وهو يقف أمام الأسطول البريطانى، حتى إنه فكر لوعله أنه لا أمل لديه فى الدخول إلى المدينة تحت اسم " خارا الامبوس لاذاس، الجندى بالجيش اليونانى".

وبينما كانوا يقتربون من الياسة، شاهدوا راية الحجر الصحى الصفراء، وهى ترتفع. وبمجرد إنزال سلم المركب، انضم إليهم ضابط من الشرطة المصرية، فى حين صعد إليهم طبيب يتبعه رجلان آخران لإجراء الكشف الطبى عليهم.

لمح أحد الرجلين ما أصاب ماخوس من قلق، فأمسكه الرجل من مرفقه وهزه بعنف، ثم سألّه (بالإنجليزية) قائلاً: «ما الأمر؟ هل أنت مريض أم ماذا؟». عندئذ استدار تجاههم الطبيب، وهو لبنانى يتحدث اليونانية، وقال: «ما الذى يحدث هنا؟» هكذا سألهم ثم أشار لماخوس لكى يتحنى جانباً وينتظر.

بعد ذلك عثر الثلاثة على رجل ذى وجه شاحب، كان يعانى من سعال غريب وهذيان أثناء النوم طوال الرحلة، وبعد الكشف عليه، أثبت التشخيص أنه مريض بالسل، فقاموا بحجزه ومنعه من الدخول.

وعندما حان الدور على ماخوس، طلب منه الطبيب أن يقدم له وصفاً لتاريخه الصحى، بينما كان يدون بعض المعلومات على قطعة من الورق، ثم قام بعدها بفحص قرنية عينيه وحلقه، ثم قام بقياس نبضه، وفى النهاية قال له: «اضغط على يدي بقوة، أقوى!» ثم استدار تجاه الرجل الذى كانت لديه شكوك تجاه حالة ماخوس الصحية، واكتفى بالإشارة بطريقة تدل على عدم اطمئنائه، دون أن يفصح بالأمر.

وبمجرد إنزال الراية الصفراء، تم رفع الراية ذات اللونين الأبيض والأسود بدلاً منها، مما يعنى صعود بعض المسئولين لفحص أوراق سفر الركاب. فى المقدمة صعد

ضابط إنجليزى ثم تبعه ضابط من الشرطة المصرية ثم ضابط يونانى برتبة ملازم ثان. فى هذه اللحظة انزلق أحد الركاب بهدوء مستخدماً السلسلة المعدنية للمرسى، ثم غطس بجسده داخل المياه المختلطة بالزيت بهدوء شديد دون أن يلحظه أحد منهم. شاهد ماخوس ما حدث من خلال وجوده فى مقدمة المركب، ولكنه لم يقم بالإبلاغ عنه، بل وتساعل إذا ما كان لديه أمل فى النجاة لو أنه فعل نفس الأمر. كان هذا يعنى بالطبع أنه لابد أن يطلب المساعدة من طاقم المركب، وأن يقدم مبلغاً محترماً من المال إلى القبطان. إلا أنه لم يجد سبباً ليفعل ذلك طالما أن أوراقه سليمة. " أنا أوديسيوس العصر الحديث العائد إلى وطنى، إيثاكي " هذا ما جال بفكر ماخوس فغمره بعدها إحساس مريع بالعظمة. وفى الدقائق التالية سيتضح إذا ما كان قد نجح فى التخفى مثلاً فعل أوديسيوس، بطل الملحمة الهومرية، أم لا.

انتبه الضابط الإنجليزى ذو الشارب الأحمر الذى كان يفحص أوراق الركاب، لما أصاب ماخوس من قلق، وعندئذ حدثه قائلاً:

«هل أنت خارا لامبوس لاذاس؟» هكذا سمع ماخوس صوتاً صارماً يأتى من خلفه جعله يعود لأرض الواقع مرة أخرى. وعندئذ استدأر ماخوس ونظر فإذا بالملازم اليونانى ذى الرموش الكثيفة والعيون العسلية الجميلة يقول له: «لماذا تنظر إلى هكذا؟ هل أنت خارا لامبوس لاذاس أم لا؟».

- «نعم أنا» قال ماخوس ذلك وهو فى شدة الذعر.

- «حسنًا، هيا معى، أين حقائبك؟».

- «هذه الحقيقية فقط، تحت أقدامى، سيدى الملازم» أجابه بكل ما أوتى من قوة.

- «التقط حقيبتك وهيا بنا إذن».

- «ربما أكون قد نجوت بلا مشاكل» هذا ما جال بخاطر ماخوس، وعندئذ صاح فيه الضابط قائلاً:

- «تحرك إذن، فلن نقضى اليوم بطوله فى هذا المكان».

- «إلى أين ستذهبون بى الآن، سيدى الملازم؟» هكذا سألّه، بينما كان يلهث خلف خطوات الضابط الشاب السريعة.

- «كان من المفروض أن تمر أولاً على أحد معسكرات الجنود العائدين إلى حين استخراج تصريح دخولك من الإدارة المصرية لشئون الهجرة. لكن هناك من ضمنك من اليونانيين - المصريين، ولذلك فسوف يصلك التصريح إلى المنزل».

- «أى منزل؟».

- «لا أدرى، حيث ستقيم، على ما أعتقد».

- «وأين يوجد هذا اليونانى - المصرى الذى تقولون عنه».

- «إنه ينتظرنا عند بوابة الخروج».

لم يصدق ماخوس أنه يسير على رصيف الميناء الغربية. وعند بوابة الخروج وجد صعوبة فى التعرف إلى ذلك الرجل ضخّم الجثة الذى يخفى وجهه بقبعته. وفى المقابل لم يستطع ذلك الرجل التعرف إلى ماخوس على الفور. فقد مرت سنوات طويلة منذ أن غادر المدينة.

* * * * *

قد يقول البعض إنه لم يمر سوى يوم واحد منذ أن استقبلت ذافنى لأول مرة ابن عمها ثاناسيس فى منزلها. لكن كان قد مر بالفعل ثلاثون عاماً، ولم يكن ذلك الرجل الذى يجلس أمامها، على الرغم من أنه يشبه " بقال منطقة السيوف "، سوى ابنه نيكيتاس. وكان أغرب ما فى حديثهما أنها لا تزال لا تعرف أين تقع منطقة السيوف بالتحديد! فما علاقتها بهذه الضاحية الشعبية بالإسكندرية؟ وقد حاول نيكيتاس أن يشرح لها الأمر لكنها كانت ترى حتى هذه اللحظة أنه يحدثها بغموض.

ذافنى : «إذن، ماذا أقدم لك يا نيكيتاس؟» هكذا سألته، فى حين كانت الخادمة المصرية تقف منتظرة أوامر سيدتها.

- «أشكرك، يا عمتي، لكن يكفى الشاى» هكذا أجابها نيكيتاس، بينما كان يداعب الفنجان المصنوع من البورسلين الذى يمسكه به فى يده.

- «لكن ماذا يفعل فنجان من الشاى دون شىء بجانبه؟ أنك مثل والدك صعب المراس».

- «حاشا لله، لا أريد أن أضايقك. لكنى لا أستطيع تناول أى شىء الآن. ثم انظرى إلى فقد أصبحت بديناً. هل أبدو لك باعتبارى رجل حرب؟».

- «أنت فى أحسن حال. لكنك ببساطة أخذت الكثير من والدك. فقد كان ممتلئ الجسم وهو فى مثل سنك». قالت ذافنى ذلك بلهجة حزينة، ثم أشارت إلى الخادمة لكى تتركهما بمفردهما.

- «على أية حال، بالطبع لم نلتق حتى نتحدث عن بدانتى» قال ذلك وقد بدا عليه الضيق، ثم أضاف: «فهناك مشاكل أهم فى هذه اللحظة».

- «نعم، لكنك لم تعطنى تفسيراً. كنت قد بدأت الحديث عن السيوف و....».

- «صدقينى، ليس من السهل على أن يخرج من فمى ما أريد أن أقوله لك».

- «أستحلفك بربك، يا نيكيتاس. أنت لا تريد أن تاكل بسهولة، ولا تريد أن تتكلم بسهولة. أليس لك قم مثل الآخرين؟».

ضحك نيكيتاس على مداعبة عمته، وأعتبر أن مداعبتها له كانت من الأسباب التى تجعلها تحتفظ حتى الآن، وقد بلغت السبعين، بشىء من نضارتها أيام الشباب. وكان كلما دخل بيتها فى شارع العباسيين يحاول دون قصد أن يستوثق من صحة الشائعات التى كانت تدور حولها بالإسكندرية منذ زمن.

- «أترغب فى تدخين إحدى السجائر الممتازة التى ينتجها ابن عمك؟» وعندئذ قدمت له علبة السجائر الفضية التى تحمل شعار العائلة.

- «أه، سأخذ سيجارة من هذه. يقولون إن بداخل هذه العلبة أفضل أنواع التبغ بمصر. هل هذا صحيح؟».

- «اللعة! (قالتها بالفرنسية) فعلى الرغم من كونى زوجة صاحب مصنع سجانر، لكنى لم أفهم تلك الرغبة التى تنتاب المدخنين».

- «كل منا له رغباته الخاصة، يا عمتى، أليس كذلك؟» هكذا عقب نيكيتاس بينما كان يشعل سيجارته.

هزت ذافنى رأسها بطريقة معبرة، فقد شعرت بأن طريقته تحمل نوعاً من التهكم، الأمر الذى لم يعجبها، فردت عليه ببرود قائلة:

ذافنى: «ما الذى سيحدث، إذن، هل ستخبرنى بما ترغب فى قوله؟».

كان نيكيتاس حساساً - تماماً مثل والده - ولذلك فقد احمر وجهه ومد يده ليفلق أحد أزوار بذلته، تتنح قليلاً ثم بدأ فى الكلام. وفى أقل من خمسة دقائق، وبدون لف أو دوران، كان نيكيتاس قد أخبر ذافنى عن عودة ابنها الحبيب ماخوس.

كانت ذافنى تستمع إليه دون أن يبدو عليها أية تعبيرات، لكن عينيها كانتا تدمعان بين الحين والآخر، كانت تحاول أن تستوعب هذه الأحداث التى لا يصدقها عقل. قامت من مكانها مرتين أو ثلاثاً لتتأكد من أنه لا يوجد من يسمعهما خفية، وفى بعض المرات كانت تشير إليه ليخفض صوته. وفى النهاية سألته ذافنى بهدوء وكأنها تتفاوض معه بصرامة:

«والآن أين قلت إنكم تحتفظون به، فى السيوف؟».

اندهش نيكيتاس من لهجتها الباردة وقال فى نفسه: «برافو، يا لك من شجاعة، يا مدام خاراميس!»، إلا أن قلقها بوصفها أمّاً قد فضح توترها فى اللحظة التالية، حيث قالت:

- «كيف حاله، يا نيكيتاس، كيف حال صغيرى ماخوس؟ أريد أن أراه، هل ستأخذنى إليه يا ولدى؟» وفجأة ظهر على وجهها العجز والعديد والعديد من التجاعيد، التى كانت وكأنها تنتظر أول فرصة لكى تظهر على وجهها.

- أعاد نيكيتاس فتح أزرار بذلته وغاص بجسده فى المقعد الوثير الذى يجلس عليه، وقال:
- نيكتياس: «مهلاً مهلاً، يا عمتى. فأى تصرف خاطئ قد يعرض حياته للخطر».
- «آه يا ولدى. أستحلفك بروح والدك أن تحرص عليه حتى لا يصاب بمكروه».
- «لن يصيبه أى مكروه، هذا وعد» (قالها بالفرنسية). عندما أخبرنى زميله القديم فالساميس من أثينا أنه.....، لكن لندع هذه التفاصيل جانباً الآن» قال ذلك ولكنه ندم على ذكره اسم فالساميس.
- «ومتى سأتمكن من رؤيته؟».
- «فى أقرب وقت ممكن. لقد عبر لى ماخوس عن رغبته الشديدة فى رؤيتك. وستكون فرصة لى تمديه بما يحتاجه».
- «بالطبع، لا جدال فى ذلك. طعام، نقود، ملابس، وماذا أيضاً؟ لابد أن أفكر فيما يمكن أن يحتاجه غير ذلك».
- «هذه الأشياء تكفى فى الوقت الحاضر. أما الباقي فنحن نتولى أمره. هل تظنين أنه يمكن تجهيز هذه الأشياء غداً فى نفس الوقت؟».
- «بكل تأكيد» (قالت ذلك بالفرنسية).
- «حسناً، فى صباح الغد سأمر لأصطحبك معى». عندئذ أراد نيكيتاس أن ينصرف، لكنها أمسكت بيده. كان وجهها قد امتلأ بالدموع، وقالت:
- «نيكتاس، سأظل مدينة لك بهذا طوال عمري».
- «هيا، يا عمتى، ماذا تقولين؟ نحن عائلة واحدة» وعند الباب الخارجى استدار تجاهها ثم قال: «نحن متفقون أن كوستيس ان يعرف أى شىء».
- «هل جئنت؟ بالطبع لا».

* * * * *

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى تقابل فيها ذافنى ابنها ماخوس فى ظروف غريبة. لكن فى هذه المرة انتابها شعور غير مريح، وقد تضاعفت عصبيتها فى اللحظة التى رأت فيها أن ابنها الحبيب كان قد حل ضيقاً فى مخزن تجارى بأحد المنازل فى منطقة السيوف، خلف كنيسة القديسة باراسكيفى أمام محطة الترام فى شارع على هيبه. لذلك كان أول ما قالت له هو:

ذافنى: «سوف آخذك من هنا فى القريب العاجل، يا بنى».

أما ماخوس فقد شعر بالقلق بعد أن لاحظ أن أمه ترتدى ملابس بسيطة، تشبه تقريباً ملابس الفقراء، وعندئذ قال:

ماخوس: «لماذا تلك الملابس يا أمى، ما الذى يحدث؟».

- «لقد طلب منى نيكيتاس أن أرتدى ملابس كتلك لكى أبدو كامرأة فقيرة» (قالتها بالفرنسية) حتى لا أثير الشبهات أمام الناس فى تلك المنطقة. أما أنت، هنا.....».

- «لا تقلقى بشأنى يا أمى. أنا هنا بخير. كيف حال كوستيس، وكيف حال ابنة أختى، وزوجته.....».

- «زوجته.....» أجابته ذافنى وهى تحرك كفها «إنها لم تعد معنا. لقد طردها أخوك. كنت أظن أن نيكيتاس قد أخبرك بذلك».

ماخوس: «طردها؟ تصرف سليم» (قالها بالفرنسية). لا، لم يخبرنى شيئاً».

إذا كان من الضروري أن يقلق أحد بشأن مظهر شخص آخر فلن يكون ماخوس، ولكنها أمه التى كان ينبغى أن تقلق عليه وهى تتطلع إلى ملابس الرثة وذقنه الطويلة وشعره الكثيف وعينيه المرهقتين، وتساءلت أين ذهب جماله المشع خلال السنوات الخمس التى لم تره فيها. لكنها لم تقل شيئاً، لأنها تعرف مدى اهتمام ابنها بمظهره، إلا أنها سألته متائرة:

- «هل أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك، يا ولدى؟».
- «الحقيقة هناك ما يمكن أن تفعله من أجلى يا أمى، اسمعيني جيداً. أريدك أن ترتبى لى لقاء مع إلياس».
- «مع إلياس؟ لكن.....».
- «نعم مع إلياس، إنه الوحيد الذى يمكنه مساعدتى فى هذه اللحظات الحرجة».
- «إلياس؟ هل أنت متأكد؟».
- «متأكد تماماً(قالها بالفرنسية) يا أمى، فلن أعيش فى السيوف طيلة عمري ولن أنام على مرتبة من أوراق الموز حتى تنتهى الحرب».
- «ولا أنا، يا ولدى، لكن لماذا نثق فى هذا الشامى؟ (قالتها باللغة العربية وبنونها بحروف يونانية)».
- «لأن هذا الشامى سيساعدنى فى الوصول للإنجليز».
- «للإنجليز؟».
- «نعم، للإنجليز. لا أستطيع أن أقضى بقية حياتى مطارداً من الجميع، لابد أن أنال العفو فى وقت قريب، ألا تظنين ذلك أنت أيضاً؟».
- «كل هذا عظيم يا ولدى (قالت ذلك بالإنجليزية)، لكن كيف سيتم هذا؟ ما أريد أن أقوله.....».
- «لا تقلقى بشأنهم (قال ذلك بالفرنسية)، فقد فكرت كثيراً من قبل فى تلك اللحظة الحرجة. كل ما أريده منك أن تساعدنى فى الوصول للبنانى».
- «حسناً يا ولدى، سأنفذ ما طلبته».
- «ولا تخبرى نيكيتاس بشىء».

- «ولكن لماذا لا أخبر نيكيتاس بالتحديد؟».

- «هيا، اذهبي الآن وأشكرك على كل ما أحضرتيه لى» قال ماخوس ذلك ثم قام بدفعها للخروج من هذا الجحر.

عندما حضرت ذافنى لمقابلة ابنها كان ينتابها شعور بعدم الارتياح، وعندما غادرت أصبحت على يقين من أن نهاية ما يفعله ابنها لن تكون طيبة. على الأقل فلن يعرف كوستيس أى شىء.

* * * * *

فى الخامس عشر من شهر نوفمبر لعام ١٩٤٢، على الرغم من دوى الأجراس فى الإسكندرية ابتهاجاً بالنصر، فإن عودة إلياس للمدينة كانت هى الدليل الصادق على انتهاء الحرب بشكل نهائى. استعد اللبناني للاحتفال بأعياد الميلاد وبأدر بالحضور لعشاء رأس السنة فى منزل آل خاراميس. لم يحضر معه هدية واحدة أو اثنتين، ولكنه أحضر ثلاثين قطعة من الزجاج لكى تحطمها ذافنى الكبيرة والصغيرة أيضاً بأيديهن، وفقاً لما تقتضيه التقاليد. ثم تغيب مرة أخرى لعدة أيام، وظهر فى نهاية شهر فبراير.

بدا إلياس فى قمة نشاطه ودبت فى وجهه النضارة التى عكستها عليه النهاية السعيدة لحرب الصحراء. ويبدو أن إيفيت هى الوحيدة التى لم تشاركه هذا الإحساس الجميل.

«ماذا، هل وجدت طريق العودة أخيراً؟» كان هذا هو أول ما قالت إيفيت عندما فتحت له باب منزلها فى لوران. وكان ذلك فى منتصف نهار أحد الأيام فى نهاية شهر فبراير من عام ١٩٤٣، حيث كانت السماء ملبدة بالغيوم.

أما إلياس فبدلاً من أن يلقي عليها التحية، لمس ساقها بطرف شمسيتها الفضى ووضع فى أحضانها باقة كبيرة من الزهور وعلبة من الحلوى. أسرعت الخادمة المصرية الشابة تحمل عنها هذه الهدايا. وعندما أصبحا بمفردهما، انحنى اللبناني وقبلها فى شفتيها،

ثم همس فى أذنها قائلاً (بالفرنسية): «كم أشعر بالسعادة لرؤيتك مرة ثانية». كان إلياس يبدو أنيقاً حقاً، يضع عطرًا ذا رائحة جذابة وقد صفف شعره بنفس طريقة الممثل كلارك جيبيل. لكن إيفيت لم تكن لديها الرغبة فى الاستسلام لفتنته. ساعدته على خلع الباطو الذى يرتديه، وسارا عبر الطريقة وقد لف كل منهما ذراعه حول الآخر، وكانهما قد وقعا فى الحب لأول مرة فى هذه اللحظة.

إيفيت: «أيها المدعى! (قالتها بالفرنسية). لقد أصبحت أحفظك. "حتى إنك لم تهتم" (قالتها بالفرنسية) بالسؤال على معرفة إذا ما كنت على قيد الحياة أم المنية قد وافقتى». قالت إيفيت ذلك بشيء من الدلال.

إلياس: «لكن لماذا تقولين ذلك؟ تعرفين أنى لا أستطيع العيش بعيداً عنك وعن الإسكندرية. فليحيا روميل».

- «حقاً، لن أنسى أبداً وجهك فى اليوم الذى جئتنى فيه لتخبرنى بقرار رحيلك عن الإسكندرية. كنت ترتعد من الخوف "أيها الجبان" (قالتها بالفرنسية)» قالت ذلك ثم انفجرت ضاحكة.

- «أه، يا إيفيت، قولى ما تشائين. فأنت لا تعرفين كم كنت أفتقدك هناك».

- «بالطبع ذلك أمر معروف (قالت ذلك بالفرنسية)، ولابد أنك كنت تفكر فى ساعات الفجر فى حالى عند مغادرتك الكباريهات وصالات القمار، حيث كان ينتابك الشعور بتأنيب الضمير. إنك النفاق بعينه "أيها اللبئانى"! لقد كنت تستمتع بحياتك فى بلدك وتركتنى هنا أعانى وحدى. إنك حتى لم تسأل كيف استطعت وأنا ألث كالمجنونة التوفيق بين النادى العسكرى وبين منزل شارع مصطفى باشا».

- «كلا بالطبع، فانا أثق فى قدراتك. وكنت على يقين من أنك ستقومين بكل شيء على أحسن وجه».

- «اللعة! (قالتها بالفرنسية)، بل كان الشيء الوحيد الذى أردت التأكد من عدم إلحاق الضرر به هو، نفسك فقط، فى حالة دخول الألمان الإسكندرية.

وإذا ما كان روميل قد وصل حتى السويس لوجدناك الآن فى أستراليا، أنا على يقين من ذلك. أقسم أنتى لم أر من هو أكثر جبناً منك فى حياتى».

- «على أية حال، أنا الآن هنا وهذا هو المهم، أليس كذلك؟ العم خورى هنا لكى يجد حلولاً لكل مشاكلك» قال ذلك إلياس ودس نفسه فى أحد المقاعد الضخمة، وهو يبتسم ابتسامة واثقة.

- «عظيم (قالتها بالفرنسية)، فلنبداً إذن من منزل شارع مصطفى باشا» قالت ذلك إيفيت بينما كانت تعد بعض المشهيات، ثم استطردت قائلة: «منذ أن قرر الإنجليز طرد الفتيات المجريات والنمساويات باعتبارهن من المخربات، فقدت اترانى. أحضرت فتيات سوريات - لبنانيات، مصريات، يونانيات، إنجليزيات، شرقيات، فرنسيات، روسيات. اللعنة، فأنا أقوم بتغيير الفتيات كل يوم تقريباً: لولو، جيزيل، ديزى، ليلى، سامنتا، سيمون. أسماء، أسماء..... كيف يمكن لأحد أن يتذكرها. وبات من الصعب إرضاء الزبائن الذين أصبحوا دائماً مخمورين. كم كنت أتمنى أن أعرف أين ذهبت صرامتهم العسكرية. يبدو، أنهم يتركونها خارج الباب، وما الذى يستطيع جعفر أن يفعله، لقد أصبح عجوزاً. بين الحين والآخر يسقط أحدهم ميتاً، ولا تتخيل مدى الورطة التى نصبح فيها وما الذى يمكن أن نقوله لأسرته؟».

- «كل ما تقولينه أعرفه بالفعل» قال ذلك وهو يتناول منها كوب الشراب.

- «نعم، لكنك لم تفعل شيئاً منذ بداية الحرب حتى تتحسن الأمور التى تعرفها».

- «ماذا يمكننى أن أفعل؟».

- «لا أدرى، أن تبدأ مثلاً بالحديث مع قائد البحرية البريطانية، تشرح له الأوضاع، يضع حداً لما يفعلونه. لابد بأية حال أن يفعل شيئاً مع هؤلاء الأجلاف الذين لا يقيمون أى اعتبار لنا، ويمتطوننا جميعاً».

- «ماذا تقولين. هذا لن يحدث» أجابها وهو يدنو منها بقداحته لتشعل سيجارتها. امتلات غرفة الصالون بالدخان.

- «لقد طلبت منك أيضاً مرات عديدة أن تتحدث مع أصدقائك الأغنياء بخصوص النادي. فليضعوا أيديهم في جيوبهم ويخرجوا بعض النقود. ففي نهاية الأمر، كل هؤلاء الشباب يحاربون ويضحون بأرواحهم من أجل حماية ثرواتهم. ألا يستحقون بعض الترفيه؟».

- «لكنك قلت إنهم ليسوا سوى أجلاف منذ قليل. هل يمكنك أن تصفيهم بطريقة أكثر تحديداً؟».

- «عندما يتصرفون كالرجال سأقول إنهم رجال. وعندما يتصرفون كالأجلاف فهم ليسوا سوى أجلاف، ما الذي يمكنني أن أفعله غير ذلك؟».

- «والآن، لكى أكون صادقاً معك، فهناك سبب آخر لزيارتى اليوم. أنا مستعد لوضع حل لكل مشاكلك، لكن ليس اليوم. اليوم أريدك أن تساعدني في حل مشكلة تخصني».

- «أه، حسناً (قالتها بالفرنسية) أيها الأنانى. سنقضى حياتنا كلها لنحل لك مشاكلك».

- «لا تقولى ذلك. لأن هذه المشكلة تخصك أنت أيضاً».

- «ماذا، لم أكن أعرف أن هناك مشاكل تجمع بيننا».

- «مشكلة واحدة. فعليك التزام روحى تجاه أندونيس يجعلك تساعدني».

- «لا تقحم أندونيس في الموضوع؟».

- «ولكنه أمر يخصه هو أيضاً، مثلما يخص على الأقل والدأ يعمل على إنقاذ ابنه».

- «هل تتحدث عن كوستيس؟».

- «لا، بل أحدثك عن ماخوس».

- «ماخوس؟ لكنه يعيش بعيداً جداً عن هنا فى قلب الاحتلال الألمانى لليونان. ما الذى يمكننا أن نفعله لكى نساعد؟».

- «هل تحفظين سرّاً؟».
- «أبعد كل تلك السنوات التى عرفتني فيها تسألني! كان لابد أن تكون على ثقة من ذلك».
- «حسناً (قالها بالفرنسية)، كيف سيبدو الأمر لو أخبرتك بأن الدكتور ماخوس موجود الآن فى الإسكندرية، وليس بعيداً عن هنا».
- «أحقاً هذا!» (قالتها بالفرنسية).
- «بالفعل هو موجود هنا. لقد إلتقينا وتحدثنا. يريد أن يتفاوض مع الإنجليز لينجو بنفسه».
- «وأنت من الذى أخبرك بوجوده هنا؟ أخوه؟».
- «بالطبع لا، فكوستيس لا يعرف بوجوده، ولا ينبغي أن يعرف. على الأقل فى الوقت الحالى. لقد جاءت إلى والدته وأخبرتني بذلك، أرانى فى مأزق كبير، يا إيفيت. أعتقد أنه لابد أن أفعل شيئاً من أجله. باسم صداقتي لأندونيس».
- «لم أعد أعرفك يا إلياس، أنت من يقول ذلك؟».
- «ربما لا تعرفيني جيداً، يا إيفيت».
- «هذا ليس خطئى (قالت ذلك بالفرنسية)، أنت الذى لم تدعنى أعرفك جيداً»
- «على أية حال. لنعد لموضوعنا. كنت أقول إننا يجب أن ننقذه، وهو نفسه يمتلك ورقه رابحة بين يديه، أو هكذا يقول على الأقل».
- «وما تلك الورقة؟» سألته وهى تشير للخادمة المصرية الصغيرة التى ظهرت ومعها الصنف الأول من الطعام.
- «الأمر يتعلق بشبكة من الشيوعيين التى لها نشاطات وتقوم بجلب المرشدين السياسيين من اليونان إلى الشرق الأوسط. والدكتور ماخوس يؤكد أن لديه قائمة طويلة من الأسماء».

- «هل من الضروري أن تقول "دكتور" ماخوس؟».
- «نعم، فعندما ناديت به باسم ماخوس، قام بتصويبي قائلاً: "دكتور ماخوس"».
- إيفيت: «حسنًا، ولكن هل تصدق قصة الدكتور ماخوس؟».
- «لا توجد أهمية لما أصدقه أنا. المهم أن يصدقه الإنجليز بكل تأكيد، حتى لو كان ماخوس يلعب بالنار - وهذا ما أعتقد - فيبدو أنه هو نفسه قد استخدم نفس الشبكة لكي يهرب من اليونان».
- «أه، يبدو أن الدكتور قد عقد الأمور».
- «الغريق يتعلق بقشة» (قال ذلك بالفرنسية وكررها باليونانية).
- «لكن بالنسبة لى كيف يمكننى المساعدة؟».
- «لدينا واجب تجاه أندونيس و.....».
- «لقد فهمت ذلك. كيف يمكننى المساعدة، هذا ما أسأله».
- «لو أنك قمت بعرض الأمر على مستر "فويس".....».
- «ولماذا لا تقوم أنت بذلك؟».
- «سيكون للكلمات وقع مختلف لو أنها خرجت من فمك الجميل».
- «دعك من هذا، أيها "اللبانى"، ففى كل مرة تدفع الآخرين للمقدمة».
- «لكننا سننقذ بهذا العمل أحد أبناء الإسكندرية».
- «أنقذه وحدك. فقد لجأ إليك أنت، مفهوم؟» (قالتها بالفرنسية).
- نهضت إيفيت لى تشرف على إعداد طعام الغداء. أدرك إلياس أنها لم تكن مستعدة لسماع هذه القصة، وهو بدوره لم يلح عليها. كان يتابعها بنظراته بينما كانت تراجع

بعناية كل شىء موضوع على المائدة، وفكر فى أنه ربما لم يكن من الصواب أن يحرمها من أن يكون لها منزل وأطفال والاستمتاع بتلك المشاحنات العائلية المعتادة. لكن الوقت قد أصبح متأخراً ليعوضها عن ذلك. لم يدرك كيف واثته الفكرة ليقول لها:

«لقد كان قرار كوستيس بطرد هايكى قراراً صعباً. أتذكر كيف كان يهيم بها حباً من قبل».

استدارت إيفيت ونظرت إليه وكأنها تريد أن تقول شيئاً، لكنها عدلت عن رأيها فى اللحظة الأخيرة. استمر إلياس فى تدخين سيجارته فى هدوء، وهو يتطلع من نافذة الشرفة إلى تلك السحب الداكنة التى غطت البحر الهادئ على غير عادته بلونٍ رمادى.

* * * * *

كوستيس: «ما الذى تعنيه بأتك رأيها تدخل أحد المنازل فى منطقة السيوف؟». هكذا سأل كوستيس ميسا دون أن يرفع بصره عن الورق الموضوع أمامه على المكتب.

ميسا: «أعتقد أنى كنت واضحاً فى كلامى، أيها الرئيس (قالها بالإنجليزية). لقد دخلت أحد المنازل فى منطقة السيوف، إلا إذا كنت مخطئاً وأن المنطقة التى تقع قبل حى فيكتوريا لا تسمى بالسيوف ولها اسم آخر».

- «هل كانت وحدها؟ استكمل كوستيس أسئلته دون أن ينظر إليه.

- «نعم وحدها، وكانت ترتدى ملابس يمكن وصفها بأنها بسيطة».

- «بسيطة؟».

- «أعنى أنها لم تكن ترتدى مثلما اعتادت والدتك دائماً: ملابس فاخرة، مجوهرات، قبعة، قفازات، مروحة.....».

- «نعم، أعرف، ثم.....؟».

- «ثم ماذا؟».

- «هل هذا هو كل ما ترغب فى قوله؟».

- «لم أستطع أن أدخل خلفها إلى المنزل، فالفترض أن لا ترانى».

- «مفهوم» أجابه كوستيس شاردأ وهو يعبت ببعض الأوراق.

- «أيها الرئيس (قالها بالإنجليزية)، هل تسمعنى أم أننى أتحدث إلى الهواء؟»
هكذا بدا صوت ميسا منزعجاً، مما أدهش رئيسه وجعله يرفع رأسه.

- «ميسا!» صاح وهو فى شدة الضيق.

- «ماذا؟ إنه ليس خطئى. لقد تغيرت كثيراً، أيها الرئيس (قالها بالإنجليزية)، لقد تغيرت منذ رحيل هايكى».

من الممكن وصف الطريقة التى يتحدث بها ميسا إلى كوستيس منذ تعارفا فى باريس بالحميمية لأبعد حدود. كان الروسى - الضابط السابق بالجيش الأبيض - يتحدث إلى كوستيس بوصفه صديقاً، لكنه كان حرصاً على أن يسبق كلامه دائماً بـ «بلقب رئيس» (ذكرها بالإنجليزية)، ولم يدعه أبداً باسمه. وكان يتخطى حدوده فى بعض الأحيان، مثلما حدث الآن، ويعبر عن ضيقه بطريقة تزيل بينهما كل الفوارق. مما كان بالطبع يسبب الضيق لكوستيس، لكنه كان يعرف أن علاقتهما ستعود سريعاً إلى سابق عهدها.

- «ألا تظن أنك تبالغ قليلاً؟ ما الذى تعنيه بأئنى تغيرت؟».

- «أعنى أئنى لم أعد أعرفك. لقد كنا أصدقاء يوماً ما فى باريس، هل تتذكر ذلك؟ أنت، أنا، إيفيتس، هايكى. الآن لم يعد هناك سوانا نحن الاثنين».

- «هذا ليس خطئى».

- «أعلم ذلك، ولهذا لا بد أن أهتم بك».

- «لم أطلب منك أن تهتم بى أنا بل تهتم بأمى».

- «عمل آخر لا قيمة له» هكذا همهم ميسا.

- «ماذا قلت؟»

- «الأمر كذلك، أيها الرئيس (قالها بالإنجليزية)، وأنت تعلم ذلك. منذ أن جئت بى من باريس وأنا أقدر لك ذلك، إلا أنك تكلفنى دائماً بالأعمال التافهة الواحد تلو الآخر. هل تظن أن مراقبة والدتك من الأعمال التى تروق لى؟».

- «كنت أظن أن ذلك لن يضايقك. على أية حال، فأنت تفعل ذلك لصالحها».

- «لصالحها! لابد أن تخاف من الشخص الذى يعتقد أنه يعرف صالح الآخرين».

كوستيس: «سفسطة فارغة».

- «على أية حال (قالها بالفرنسية)، هذه هى المرة الأولى التى سأحدثك فى هذا الموضوع، لكنى لا أريد الاستمرار فى متابعة السيدة ذافنى كظلمها. خاصة وأننى لا أرى سبباً لذلك».

ومع اشتداد حدة الحديث بدت عينا ميسا وكأنها تطلق شرراً وانتفخت أوداجه وكأنها على وشك الانفجار، حتى أن كوستيس تذكر ذلك الوقت الذى كان ميسا بعضلاته المقتولة يمتع فيه الجماهير الباريسية، بجذب السيارات بأسنانه فوق أحد المنحدرات بمنطقة مونمارترى. كانت ذكرى سعيدة جعلت كوستيس يبتسم.

- «أتضحك؟ لقد مضى وقت منذ أن رأيتك تضحك».

- «لم أقصد ذلك».

- «ربما (قالها بالفرنسية). لكن أخبرنى إذن، ما الذى أصابك فجأة وجعلك ترغب فى مراقبة والدتك؟».

- «ما الذى أصابنى؟ أنت تعرف أنها طوال الأسبوع الماضى لم تكن تصعد لتنام فى غرفتها قبل الخامسة صباحاً، وتجلس فى القبو باكية طوال الليل. أمس الأول سمعتها تهمس قائلة: يا إلهى أنقذ ابنى».
- «لابد أنها قلقة عليك. ولو كنتُ فى مكانها لفعلتُ مثلها».
- «ليس الأمر كما تظن يا ميسا. هناك أمر ما ولا بد أن أعرفه. لابد أن نبادر نحن بالمفاجأة قبل أن يبادرنا بها الآخرون» هكذا تحدث كوستيس وقد أطلت من عينيه فجأة نظرة يملؤها الشر لا يُعرف لها تبريراً.
- «إنك تخيفنى، أيها الرئيس (قالها بالإنجليزية). ولم تكن هكذا من قبل».
- «هكذا، كيف؟».
- «لست أدرى، تبدو بوصفه شخصاً قد يقدم على قتل أى شخص حتى لو كان أخاه».
- «ما هذا الكلام الفارغ الذى تقوله. دع أخى هناك فى مكانه. وليظل على الأقل فى الوقت الحاضر بعيداً عن الإسكندرية من أجل مصلحته ومصلحتنا نحن أيضاً».
- «حقيقة، هل فكرت من قبل كيف ستكون ردة فعلك، إذا ما علمت أن أخاك موجود الآن فى الإسكندرية؟».
- «قلت لك دعك من هذه الحماقات واهتم فقط بأمر أمى. ألا يبدو لك غريباً بعض الشيء ذهابها المتكرر إلى حى السيوف مرتدية تلك الملابس البسيطة باعتبارها امرأة عادية».
- «حقاً إنه أمر غريب. سأفعل ما بوسعى لأستجلى الحقيقة، وأرجو أن تنتهى هذه القصة على خير».

* * * * *

كانت الورقة تقول: «سوف أنتظر عند خطوط السكك الحديدية، ناحية العاصفة اليوم عند منتصف الليل. سأمسك بمصباح أحمر. لدى أخبار من الإنجليز. لا تتحدث لأحد ولا حتى لنيكيتاس. إنهم يراقبونك. أنت في خطر». كان كل ما استطاع ماخوس أن يراه هو طرف جلاباب أبيض يخفق في الشارع، قبل أن يختفى خلف أحد الحوائط. لقد قام شخص ما بدفع مبلغ من المال لأحد "الفلاحين" حتى يقوم بتوصيل الورقة إليه من أسفل عقب باب المخزن الذي يختبئ فيه ماخوس، ولم يكن ذلك الشخص سوى إلياس خوري. كان يمكنه التأكد من ذلك بسهولة لو أنه قام بالاتصال بالرقم الذي تركه له إلياس في حالة حدوث أي شيء طارئ، ولكن أين يجد شخص يختبئ في أحد المخازن بحى السيوف هاتفاً، إن ذلك يعتبر من ضرب المستحيلات.

"ماذا لو كان فخاً؟"، هكذا سأل ماخوس نفسه. وعندئذ قال على الفور لنفسه: "لو كان فخاً، فالويل لي".

كان عليه أن يفكر جيداً قبل مغادرة المخبأ الذي يشعر فيه بالأمان - على الأقل حتى وقت قريب - وربما كان كاتب الرسالة على حق، فربما يكون من قاموا بإخفائه قد أدركوا نياته، وعندئذ ستصبح حياته في خطر محقق. ربما كانت رحلته قد تم التخطيط لها منذ البداية، وأن يكون فالساميس نفسه قد قاده من أثينا إلى هذا الفخ القاتل. لم تكن لديه أدنى رغبة في مواجهة قدره. منذ اللحظة التي قرر فيها العودة إلى المدينة، كان يقول لنفسه دائماً: "إذا كان مقدراً لي الموت، فلأمت إذن في الإسكندرية". إلا أنه ما زال يقاوم حتى الآن باعتباره حيواناً مفترساً وقع في الشرك، فقام بمحاولة يائسة لكي ينجو بنفسه بأيّة طريقة، لكن كانت خطواته المندفعة دائماً سبباً في أن يلقي نهاية مفاجئة.

في الفترة الأخيرة، لم يكن لدى ماخوس تلك الرفاهية التي تمكنه من التطلع للغد أو التخطيط للمستقبل. فكل يوم قد يكون هو آخر أيام حياته. وقد تفيده إعادة التفكير في أسلوب حياته حتى يهجر هذا العالم الذي لا طائل منه بضمير مستريح، وعندئذ بدأ يسترجع تلك السنوات الصعبة التي قضاها في ميونخ عندما تجسدت أفكاره ومعتقداته في "العالم الجديد". كان يسترجع مناقشاته مع شخصيات مهمة، وبدأ

يتعايش من جديد مع رودولف إس من ناحية ومع إيريك شولتسير من ناحية أخرى. اثنان لا يستطيع أن ينساها أبداً. لكن فى النهاية واحد فقط من الاثنين كان له تأثير عظيم عليه وهو إيريك، صديقه الذى لم ينسه. لقد حرص ماخوس على الاحتفاظ بذكرى صديقه القديم داخل نفسه. ثم جاء دور إس ورحلته المشنومة فوق إسكتلاندا. فمنذ أقل من عامين اتبع نفس رحلته اليانسة إلى الإسكندرية. ما الذى جناه إذن؟ أين يكمن الخطأ الحتمى؟ من الذين خدعوه؟ هل هم البشر، أم أنها أفكارهم؟ لا، ليسوا البشر أو حتى أفكارهم. فقد جرفتهم الأحداث جميعاً إلى تلك النهاية البشعة، تلك الأحداث التى سخرت من الأفكار العظيمة وشوهت سمعة العظماء من البشر. كانت تطلعاتهم نبيلة، لكنها كانت مرفوضة من قبل ذلك المصير البغيض الذى شعر بالغيرة من تلك الخبرة العظيمة لمن هم فوق مستوى البشر.

غطرسة لا يتبعها عقاب. أين تردد ذلك من قبل؟ لم يكن الموت يفرغه، لكنه كان يشعر بالحزن لأنه قد يموت وهو يحمل اسم خارا الامبوس لاذاس، ضحية روتين الاحتلال. هل كان لهذا الرجل وجود؟ وهل كان حقاً جندياً بالجيش اليونانى أم أنه مجرد اختراع تفتق به ذهن فالساميس بهدف القضاء على زميل دراسته القديم؟

مع توارد كل تلك الأفكار فى ذهنه حل الليل سريعاً، ولم يأت اليوم أحد ليراه. ومع اقتراب منتصف الليل، كان ماخوس يتصارع مع نفسه بجنون، فى الواحدة صباحاً قال: «سوف أنام الآن». تمدد على "الحصيرة" فوق المرتبة المصنوعة من أوراق الموز ثم أغلق عينيه، محاولاً أن ينسى أمر تلك المقابلة. وعندما استيقظ بعد ذلك قال: «سوف أذهب الآن». ارتدى ماخوس معطفاً وحذاء، واستعد للخروج إلا أن هناك شيئاً جعله يتردد.

فى النهاية خرج إلى الطريق، متخذاً فى جنح الظلام الاتجاه الذى كان يتذكر أنه يؤدى إلى منطقة العصافرة. وعندما وصل إلى هناك، لم يجد سوى صحراء خاوية. وفجأة فقد إحساسه بالوقت: كم كانت الساعة، كم قطع من المسافة. كانت ليلة باردة، وقد أصابته الصحراء بهوائها البارد بقشعريرة سرت فى جسده. وصل إلى السكك

الحديدية حيث أصبح لا رجعة بعدها. هذا هو الفانوس الأحمر المعلق على الناحية الأخرى الذى أخبره به صاحب الرسالة، مازالت الفرصة مواتية له لكى يعود أدراجه، ولكنه لم يفعل ذلك. وبينما كان يعبر القضبان الحديدية شعر بوهن شديد يملكه. أصبح الحلم والحقيقة بالنسبة له شيئاً واحداً. حاول أن يبقى عينيه مفتوحتين لكنه لم يستطع. شعر وكأنه يخوض فى مياه ضحلة، لكن ربما كان يحلم. امتدت إليه يد فى الظلام. هل كانت يد إس أم أنها يد أبيه؟ فى تلك اللحظة بدأ يعبر إلى الجهة الأخرى، وبدأ يهمس قائلاً: «أبى، أبى، إريك؟». وعندئذ تلقى ماخوس ضربة موجعة على مؤخرة رأسه وشعر بروحه تهيم إلى اللاوجود، حتى إنه أراد أن يقول لذلك الرجل الذى ينهال عليه بالضرب بجنون، إنه لم تعد هناك حاجة ليجهد نفسه أكثر من ذلك، فقد مات ماخوس، مات فى النهاية.

* * * * *

فى كل مرة كان إلياس يدخل فيها مكتب رئيس الشرطة فى وسط المدينة، كان يسأل نفسه نفس السؤال: فيم يستخدم هذا المكتب الضخم؟ هل ليقوم الضابط المسئول بإلقاء الأوراق المتناثرة فوقه؟ ناسياً أن كل شيء فى هذه البلد كان ضخماً. لم يتغير شيء منذ أن كان الضابط فريد يجلس فى هذه الغرفة شبه المظلمة ذات الحوائط الصفراء، كانت رائحة دخان السجائر تملؤ كل ركن من أركانها. هذا الورق الأصفر الذى مازال يذكره بعد عشرين عاماً، ثقالة الورق، أجهزة الهاتف القديمة، لم يتحرك شيء من مكانه. كان الضابط نور يغمس سن ريشة الكتابة فى المحبرة ويكتب شيئاً فى الورقة التى أمامه، ثم يمرر فوقها الورق النشاف حتى يجف حبرها. وكان يجلس على مقعد خشبى ضخم ذى ظهر عالٍ مصنوع من خشب الجوز، ويشبه مقعد رئيس الأساقفة، أما صورة الملك فاروق المعلقة على الحائط فتوحى لك بأنها صورة رجل فاسد فى مجلة البلاى بوى أكثر من كونها صورة ملك، فى حين كان طربوش الضابط المصرى ذو اللون الأحمر الداكن يبدو وكأنه معلق فى الهواء، حيث تختفى الشماعة المعلق عليها بسبب ظلام الغرفة.

تشعر وكأن هناك نظاماً يسيطر دائماً على هذا المكتب من الصعب أن لا يترك انطباعاً لدى الزائر. جلس الشاويش⁽¹⁾ قالها بالعربية ودونها بحروف يونانية) الذى قدم لهم الشاي عند الباب وهو يحدق بنظرة ثابتة تجاه الفراغ، منتظراً إشارة الضابط لكى يفسح لهما المكان. كان لدى إلياس سبب إضافي يجعله يشعر بالقلق، ففي مكان صديقه الضابط فريد يجلس الضابط التركى - المصرى، ذو البشرة السوداء، الداهية، نور. وبينما يحدثه كانت أسنانه البيضاء تلمع بشكل مخيف فى وجهه العريض، والتي تعد الشيء الوحيد المضيء فى هذه الغرفة إلى جانب أزرار بذلته اللامعة، يذكرك صوته الرفيع بصوت أحد الأبواب الصدئة وهى تفتح أو تغلق. أما اللغة التى يستخدمها فى حديثه فكانت تلك التى يطلق عليها إلياس "اللغة السوقية".

نور: «لقد أخبرونى أنك كنت متغيباً لفترة طويلة عن مدينتنا، أيها اللبناني».

إلياس: «نعم، وفى تلك الفترة لم تكن الإسكندرية آمنة لمن هم مثلى».

- «كان هذا متوقعاً طالما أنك حرصت طوال السنوات الماضية على أن يرتبط اسمك بالإنجليز».

- «أعتقد أنك لم تقم باستدعائى للحديث عن رحلتى إلى بيروت».

- «كلا، بالطبع. سيجارة؟».

- «شكراً، ولكنى أفضل أن أدخن من سجائرى».

- «لقد إستدعيتك هنا لكى نتعاون معاً فى حل لغز كبير» كان الضابط يتحدث وهو يرمقه بنظرة صارمة.

- «لو أن باستطاعتى مساعدة الشرطة فى عملها، فسأفعل ذلك بكل سرور».

- «لم أشك فى ذلك لحظة واحدة. هل يذكرك اسم خارا لامبوس لاداس بشىء؟»
كان نور يعرف القليل من اليونانية تجعله قادراً على نطق الأسماء اليونانية بسهولة، دون أن يدرك ذلك من يتحدث معه. تفاجأ إلياس بعض الشيء، لكنه لم يظهر ذلك، ثم استطرد الضابط نور قائلاً: «حسناً، هل يذكرك بشىء؟».

- «تسأل إذا ما كان الاسم يذكرني بشيء؟ ما هو الاسم مرة أخرى؟»
 - «خارالامبوس لانداس»
- «لا، لا يذكرني بأى شيء» هكذا أجابه إلياس، وتذكر لو أن من يجلس خلف هذا المكتب هو المرحوم فريد لتغيرت الأمور تماماً.
- «يا للأسف لقد عقدت آمالي كلها عليك. الآن سيكون من الصعب العثور على أى دليل يقودنى إلى قاتله» قال ذلك الضابط المصرى وهو يضغط بشدة على آخر كلمة.
- تظاهر إلياس كأنه لم يسمع هذا الخبر الحزين. إلا أنه شعر لوهلة بأن هناك من يسحب المقعد من تحته وحاول جاهداً إخفاء دهشته.
- «أرى أن هذا الحدث لا يثير دهشتك».
- «ولماذا ينبغي أن يثير دهشتى؟».
- «لأن موت أى إنسان يعتبر دائماً حدثاً جليلاً».
- «نعم، ولكن إذا لم تكن تعرفه، فما الأهمية التى قد يمتلكها لك؟ نحن فى حالة حرب ويموت الكثير من البشر كل يوم. لو أننا أظهرنا لكل واحدٍ منهم حتى ولو القليل من الاهتمام، عندئذ سيكون علينا ألا نفكر فى الحياة».
- «بالفعل، هذا إذا ما كان مجهولاً، لكنك تعرف لانداس، أليس كذلك؟».
- «كما أخبرتك من قبل فهذا الشخص مجهول تماماً بالنسبة لى».
- «حسناً، إليك سيجارة، هل تريد بعض الشاي؟».
- «لا، شكرًا. هل سيستمر هذا المزاح لوقتٍ طويل؟».
- «هل أنت فى عجلة من أمرك وتريد الرحيل؟ إنك لا تحضر كثيراً لمكتبى. بينما كنت تمر لتلقى بالتحية كل صباح عندما كان المرحوم فريد يخدم فى هذا المكتب».
- «لم يكن فريد يستدعيني للتحقيق».
- «أنا أيضاً لم أستدعك للتحقيق معك، كل ما أنشده هو مساعدة صديق».

- «بأن اعترف بمعرفتي لهذا المدعو لاذاس، أم من الأفضل أن أعترف بأنى من قتله».
- «لقد سرحت بخيالك بعيداً، أترانى أفعل شيئاً كهذا مع شريكى. فما زلنا شركاء»، أليس كذلك؟ على الرغم من أنه لم يصلنى ولا قرش (قالها باللغة العربية وبونها بحروف يونانية) واحد مما يخصنى من منزل شارع مصطفى باشا منذ شهر».
- «ليس هذا خطأنا، هل تعرف أننا ما زلنا حتى الآن نعتنى بضباط الجيش؟ هل يستطيع أحد أن يجد سبيلاً مع الجيش؟».
- «أعرف، أعرف، ولذلك أتحدى معكم بالصبر حتى الآن». قال ذلك نور بطريقة تبدو كما لو كانت تحذيراً.
- «على أية حال، سيدى الضابط، حتى ننتهى من هذه القصة. لماذا ينبغى أن أعرف هذا الشخص؟».
- «لأننا عثرنا على هذه الورقة داخل جوريه».
- «وماذا بعد؟».
- «اقرأها إذن. ماذا تجد فيها؟».
- «بعض الأسماء وأرقام تليفونات».
- «ومن بين تلك الأرقام يوجد رقمك، أم ترانى مخطئاً فى ذلك؟».
- «لا، لست مخطئاً».
- «إذن؟».
- «هذا لا يعنى أنى أعرفه».
- «سمعنى جيداً، يا عزيزى إلياس. أنت تعلم أننى لا أوجه إليك الاتهام بقتل أحد مرتادى بيت البغاء، حتى لو كنتُ على يقين من أنك من فعل ذلك. فالיום تأتى العلاقات بين الناس فى المرتبة الأولى أكثر من حياتهم نفسها. يموت الكثيرون

فى الحرب، كما ذكرتْ من قبل، ولا يعنينا هذا فى شىء. أنا أحدثك باعتبارك عربياً يتكلم مع عربى مثله. لا يهمنى إذا ما كنت تعرف هذا الرجل أم لا. بل لا يهمنى إذا ما كنت قد قتلتَه بنفسك. أريدك أن تعلم هذا جيداً».

- «لماذا؟».

- «فلنقل إنى أقدر لكم عدم إقحام أنفسكم فى قضايا أجنبية».

- «نحن؟ نحن من؟».

- «أنت ومدام إيفيت، وأشير بذلك إلى شىء محدد. إلى حادثة المجندات اللاتى تم إغتصابهن وقتلهن فى حدائق وميادين الإسكندرية».

- «آه، نعم، أتذكر ذلك. لقد أخبرتنى إيفيت وأعتقد أن ذلك قد حدث فى الصيف قبل الماضى».

- «بالضبط».

- «لقد طلبت منها حينذاك أن لا تتدخل. فلم تكن مهمتنا أن نعثر على الجناة».

- «وكان قراراً حكيماً وعاقلاً من جانبكم، يا صديقى».

- «أنا لا أزرع فى أرضٍ ليست ملكى».

- «لذلك ليس هناك ما تخشاه. أما بالنسبة للرجل المدعو لاداس، فسوف أحيل القضية إلى الشرطة العسكرية وليفعلوا ما يستطيعون. ومن جانبى فقد بذلت كل ما بوسعى. ولكن لتعلم فقط أن هذه القضية قد تم إرسالها من مركز شرطة فيكتوريا، حيث عثر على هذا الشخص مشوهاً بشكلٍ بشع على قضبان السكك الحديدية بالعصافرة. وقد حرص الجانى أو الجناة على أن يهشموا رأسه، وكنا على وشك أن نعرف هويته، لولا تلك الورقة التى كان يخفيها داخل جوبه ومعها تحقيق شخصيته. والآن كيف تبدو لك هذه القصة؟».

- «غير ذات أهمية» هكذا أجاب إلياس وهو يتتأب متمللاً.

* * * * *

لم يتم حل لغز مقتل خارا الامبوس لاذاس، أو فى حقيقة الأمر، ماخوس خاراميس، تاركة ظلالاً من الشكوك تحوم حول كل من كانت لهم علاقة به. كان إلياس يتهم نيكيتاس والشيوعيين، بينما كان نيكيتاس يتهم إلياس والإنجليز، وفى نفس الوقت أشارت أصابع الاتهام أيضاً إلى فالساميس وشبكة التهريب. أما كوستيس فهو الشخص الوحيد الذى كان فوق مستوى الشبهات، إلا أنه لم يكن كذلك من وجهة نظر الجميع. فقد كان ميسا، الذى كان يعرف ما لا يعرفه الآخرون، يتساءل إذا ما أقدم رئيسه على استئجار شخص آخر ليحل له لغز السيوف. وإذا ما اكتشف شيئاً، فبالطبع لن يعرفه أحداً.

الشخصية الوحيدة التى عانت فى كل هذه القصة هى السيدة ذافنى التى أصيبت بالتعب من كل هؤلاء الذين يؤكدون لها حسن نياتهم، وكل أولئك الذين يؤكدون براعتهم، وبدأت تسعى جاهدة لكى تعثر على جثة ابنها التى كانت إحدى الهيئات الدبلوماسية قد تولت دفنه - دون علمها - باعتباره أحد المعدمين فى مقابر الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بالشاطبي، وهى على بعد أمتار من مقبرة العائلة. وقد اكتشف نيكيتاس مقبرته بمحض المصادفة بعد عدة سنوات. وفى فترة ما بعد الحرب كان نيكيتاس قد حصل على الشهادة من مدرسة سالفافيوس التجارية، وعمل باعتباره محاسب فى إحدى شركات الطباعة الكبيرة بالإسكندرية. وقد أدى الموت المفاجئ فى ربيع عام ١٩٥١ لأحد عمال المطبعة إلى حضوره مراسم الجنازة بالمقابر اليونانية، حيث وقعت عيناه على شاهد أحد القبور المكتوب عليه خارا الامبوس لاذاس، جندي من أثينا، إلا أنه لم يخبر أحداً بذلك، فقد اعتبر أن ابن عمته - بهذه الطريقة - يرقد فى سلام بالقرب من أهله.

لم يكن موت ماخوس يعنى نهاية الحرب. وفى صيف عام ١٩٤٣، عاد أنجيلوس موئيزيذاكيس إلى الإسكندرية، بصفته المرشد السياسى للحزب الشيوعى اليونانى. وكان مكلفاً بالإشراف على إرسال شحنة من الأغذية الصحية إلى اليونان، والتى كانت رابطة الأحرار الوطنية تقوم بالترتيب لها. وعندما علم بعض المنفيين من القيادة اليونانية بنشاطه، بدأوا فى مطاردته فى كل مكان، إلى أن وجد الرجل الهارب لنفسه

مخبأً فى حى السيوف. وفى هذا المنزل الذى يقع فى شارع على هيبه يمكنك أن تسمع أول ما تسمع أجراس كنيسة القديسة باراسكيفيس. ويمتلك هذا المنزل رجل يعمل فى الميناء يدعى بيتروس كاليبزيس، ضخم الجثة، مفتول العضلات، ينحدر من كاستيلوريزوس، وكان قد بدأ نشاطه فى الحركة الشيوعية منذ الثلاثينيات بعد مصرع أخيه فى حادث مؤلم وقع له أثناء عمله، حيث سقطت فوقه حمولة ثقيلة لتقتله بعدما انقطعت الحبال فى أثناء إفراغ إحدى السفن. ومنذ ذلك الحين أعلن كاليبزيس عداؤه الأبدى ضد لأفراد الطبقات العليا، دون أن يتخلى عن عاداته القديمة فى جمع اللعب القديمة والاحتفاظ بأعطيتها. وقد جعلته تلك التصرفات الغريبة التى سيطرت على عقله نموذجاً للمقاومة المنظمة ضد جامعى الثروات، كما أدت إلى ثرائه قبل الحرب بقليل، حيث قام بشراء مساحة من الأرض وشيد فوقها منزلاً له حقيقه خاصة به. ولكى يثبت إخلاصه للحزب الشيوعى، فقد حول المخزن الموجود بالمنزل إلى مأوى لبعض أعضاء الحزب الذين جاؤا إلى الإسكندرية هاربين فى الأعوام من ١٩٤١ حتى ١٩٤٤. وقد عانى كل الذين مروا على هذا المخزن من الظروف الصعبة، كالنوم فوق المرتبة المصنوعة من ورق الموز. ولم يكن يحتوى على أى من سبل الراحة، وفى الصيف الحر شديد وفى الشتاء البارد قارس والرطوبة القادمة من البحر تنخر عظام كل الهاربين المساكين. إضافة إلى ذلك، فقد كان نبات العدس الذى يزرعه حول المخزن الصغير يجلب إليه دائماً الفئران التى كانت تهيم فى الحديقة. وكان الضيف دائماً ما ينتفض من نومه فى منتصف الليل، منزعجاً بسبب وجود فأرين أو ثلاثة يحيطون به وقد شرعوا فى قرص المرتبة المصنوعة من أوراق الموز بنهم. فى النهاية، لم يكن على أحد أن يعتمد بشكل أساسى على مساعدة صاحب هذا المنزل. وفى نفس الوقت كان كاليبزيس يحتفظ بمسافة بينه وبين هذا المخبأ، ولم يكن مسموحاً لنساء بيته بالاقتراب من المخزن. وفى الجهة الأخرى من الحديقة كان يربى الدجاج والأرانب، وكان يقوم بإحصائها فى كل مرة خوفاً من أن يكون أحد القاطنين بالمخزن قد التهم واحدة منها.

كانت زوجته ستراتيا - وهى من جزيرة ميتيلينى - تعد من أفضل الحائكات، وقد حافظت على جمالها حتى بعد بلوغها سن الخامسة والأربعين؛ أما عن ابنتها إيباكوى،

أو باكوأكي كما كانت أمها تحب أن تتأديها، فكانت فتاة جميلة تشبه أمها، وأثناء فترة الحرب كانت قد أكملت العشرين عاماً. جميلة، مرحة، صاحبة أصابع ذهبية، تملك روح دعابة نادراً ما تجدها في أحد، مما جعل أمها مضطرة لأن تستقبل كل يوم من يطلبون يدها، على الرغم من أنها قالتها بصراحه: «سوف أتزوج بمن أحب» وكانت تعنى ما تقول.

عندما اكتشف كاليزيس فجأة أن دجاجاته لم تعد تبيض مثلما كانت تفعل من قبل، لم يعرف ماذا حل بها، ولذلك فقد قام بمراقبتها، وعندئذ تأكد أن أغلب هذا البيض كانت تنتهى به الحال كطبق أومليت يتناوله المرشد السياسى، فقد هامت إيباكوى حباً بموئيزيذاكيس وكانت تعد له الطعام بنفسها، مما جعل أباهما يستشيط غضباً.

كاليزيس: «بالله عليك، هل تظنين أن لدينا فائضاً من البيض لكى يتناوله هذا الشخص؟».

إيباكوى: «أبى، أنا أحبه».

- «هذا أمر لا يعنينى، كما أنه أكبر منك، أنا لا أوافق».

- «إنه رمادى الشعر، يا أبى العزيز. لكنه ليس كبير السن».

- «إنه رفيق. أى أسرة تلك التى سوف تؤسسينها معه؟ أيتها الغبية، أنا غير موافق، هذا هو رأيى».

- «قل لى إذن، ماذا كنت ستفعل لو كان فاشياً؟».

فى الواقع، كان الوقت قد تأخر بشدة لكى يرفض كاليزيس، فقد وافقت الفتاة على إتمام الخطبة. أما زوج ابنته فى المستقبل فقد كانت السلطات قد وضعت تحت المراقبة. وكان يؤكد أنه ما زال لديه الكثير ليقدمه فى هذا الكفاح؛ أما الأب الداهية فكان لديه أمل خفى فى رحيل المرشد السياسى بلا رجعة، مثلما رحل العديد من أمثاله من قبل. وبالنسبة لموضوع إرسال شحنة الأغذية، فقد تمكنت رابطة الأحرار الوطنية من مواجهة احتجاجات تسونيروس وحكومة المنفى، وبعد عدة شهور بدأ التمرد فى صفوف الجيش اليونانى بمصر لأول مرة، مما يعنى اقتراب نهاية قصة كاليزيس مع ابنته.

* * * * *

«أى شخص يقول إن الأمور أصبحت على ما يرام سيكون كاذباً. ألم تكن الحرب كافية. لقد هبط علينا كل هؤلاء المتطقلين اليونانيين، ومنذ ثلاث سنوات ونحن نعيش فى فوضى! خبر تشكيل حكومة فى اليونان من رجال العصابات عشية الاحتفال بالعيد القومى. لقد ازداد جنون أنصار الملكية، فليساعدنا الرب!». هكذا كتب كوستيس فى مذكراته بتاريخ ٢٣ مارس ١٩٤٤ متنبئاً بالنتائج.

ولم يكن كوستيس هو الوحيد الذى يشعر بالقلق، ففى صباح اليوم التالى هاتفة إلياس قائلاً:

«من المتوقع حدوث اضطرابات ضد الحكومة عشية الاحتفال بالعيد القومى، لقد اتصل بى الضابط نور وهو فى شدة الغضب، فقد تم إبلاغه باحتمال حدوث إخلال فى النظام. الشرطة المصرية بأسرها تقف على قدم وساق. ولا يطلق عليكم الضابط نور لقباً سوى الروم القذرين، ما الذى يحدث أيها الرومى؟».

كوستيس: «وأنى لى معرفة ذلك؟ فأنا مجرد صاحب مصنع للدخان محب للسلام ويعانى من ويلات الحرب».

إلياس: «وكأننى أستمع إلى أريك منذ ثلاثين عاماً مضت» هكذا أجابه «اللبنانى» فجاءه صوت كوستيس على الجانب الآخر من سماعة الهاتف وهو يكاد ينفجر من الضحك.

- «على أية حال، أياً كان ما يظنه نور أو أى شخص مثل نور بشأننا فعنده حق. وكان لزاماً علينا التخلص من كل هؤلاء المهاجرين الوقحين الذين أتوا إلى هنا ويظنون أنهم سوف يفعلون ما يحلو لهم نون أن يزعجهم أحد وهو ما كما كانوا يفعلون فى وطنهم. بهذه الطريقة فقط سنجد راحتنا من جديد» قال ذلك كوستيس وقد بدا غاضباً.

- «أنا على يقين من أننا سنعود مرة أخرى إلى العصر الذهبى».

- «العصر الذهبى؟ هذا سخيف» (قالها بالفرنسية)، ليست لديك أدنى فكره عما نتحدث.

بعد يومين اتصل به "اللبناني" مرة أخرى وبدأت في حديثه نشوة الانتصار، بعد أن استشعر بأن توقعاته قد تحققت.

- أخبرتك بأنه لن يحدث شيء. "أليس كذلك؟" (قالها بالفرنسية)، فقد مرت احتفالات الخامس والعشرين من مارس بدون مشاكل. إلا أن كوستيس أجابه:

- «على رسلك، فأنت لم تر شيئاً بعد»، وربما تكون أسئلة نيكيثاس الغربية قد أثرت فيه، حيث قال:

- «لو أوقع بى الإنجليز مرة أخرى، فما زالت لدينا وسائلنا للفكاك منهم، يا ابن العمة؟» (قالها بالانجليزية).

- «الزم الحذر، يا ابن الخال» (قالها بالإنجليزية)، ودع التهور جانباً، فالإنجليز لا يمزحون. احترم على الأقل ابن أخيك الطيار» قال ذلك كوستيس موجهاً له النصيح.

وعلى أية حال، فلم يكن الأمر يتوقف فقط على نيكيثاس. فقد قامت حركة تمرد في صفوف الجيش اليوناني يوم الخميس السادس من شهر أبريل، بدءاً من قيادة الجيش الأول اليوناني، واحتجاج المتمردون مدة يومين للوصول إلى طاقم ثلاث من السفن البحرية اليونانية الراسية خارج ميناء الإسكندرية.

فى التاسع من شهر أبريل لعام ١٩٤٩، كتب كوستيس فى مذكراته: «فى الميناء الغربى ترسو ثلاث "خراف سوداء": "أبوستوليس" و"إيراكس" و"ساخثوريس" - وهى سفن العصيان الثلاث. وعلى متنها يهدد المتمردون قائلين: "سوف نقصف الإسكندرية إذا ما حاولت السفن اعتراض طريقنا". هذا ما كان ينقصنا! مطلوب حل من روسوس، روسوس الذى ينتمى لنا، بدلاً من تسوذيروس. "فليقوموا إذن بتعيين حكومة يتولى تشكيلها السيد روسوس، وسوف يظهر تأثيره عندما يتولى زمام الأمور ولو لفترة قصيرة. فى خطوة جديدة محزنة"، هذا ما ورد فى اتصال تسوذيروس بيورغوس الثانى. لكن القائد الأعلى لم يعره أى اهتمام. فما الذى نتظره من جندى يرتدى

بنطالاً قصيراً؟ إختفى نيكيتاس. وحتى الأمس كان يؤكد لى أن هذه الحركة كانت ستحدث بعيداً عن هنا، بعد أن تكون قيادة الجيش قد وصلت إلى إيطاليا. إفتار مع قادة الجيش فى "كشك الصداقة". وكان كوستيس قد استجاب أخيراً لضغوط والدته وقام باستضافة الضباط المصابين وكذلك الذين تم تسريحهم. وكان فى الماضى يصاب بالذعر من فكرة تنقل هايكى بين رجال شبان وفاتنين. أما الآن وبعد هروبها فقد زال خطر مثل هذه الفكرة المضحكة، وضرب كوستيس أمثلة فى الوطنية والشهامة، وحصل بذلك على تقدير كبير من قبل الإنجليز. وعن هذا الموضوع دون كوستيس فى مذكراته بعد ذلك بيومين:

«أنا إنسان مقتدر مطيع للقانون ولكن لسوء الحظ فأنا محاط بأقارب يسببون لى المشاكل فالأخ نازى، وابن الخال شيوخى، وزوجتى السابقة صيهونية، وأمى مهربة آثار. والأسوأ من كل ذلك هو أن الجميع يعتبروننى أحرق ويحاولون - أو كانوا يحاولون - أن يخفوا عنى الحقيقة. وكانت آخر فاجعة هى قصة أختى. لو كانوا قد أبلغونى فى وقتها فربما تمكنت من عمل أى شىء لإنقاذه. أما الآن فقد مات، هذا ما قالوه لنا، وتسعى أمى جاهدة للعثور على جثته؛ فى حين يتبادل كل من نيكيتاس وإلياس الاتهامات تاركين تلميحات واضحة من الواحد ضد الآخر. وكلما حاولت الاعتراض على كل تلك الأمور غير السوية، يجيبوننى بأننى أنكرهم بأبى. وكان ذلك خطأ يفوق أخطأهم. نحن نعيش فى عالم مجنون، لا يوجد تفسير آخر».

لهذا، ربما لم يستطع أحد فهم ذلك التحول الذى حدث فى الموقف تجاه الجيش اليونانى. وكان الإنجليز قد حاصروا معسكر الفرقة العسكرية اليونانية الثائرة فى برج العرب، مستخدمين الخطة الإنجليزية القديمة فى الحصار: وهى فرض الجوع، ذلك الخصم الذى لا يقهر.

كان كوستيس يتلقى فى "كشك الصداقة" تأكيدات من ضيوفه من الضباط الإنجليز بعدم إطلاق طلقة رصاص واحدة ضد قيادة الجيش اليونانى، تلك القيادة التى نالت الثناء خلال حرب الصحراء، تلك التأكيدات لم يقم كوستيس بالإفصاح عنها سوى

لعدد قليل من الناس ممن يثق بهم مثل "اللبناني"، الذي كان يقول له دوماً: «إنك تعرف الإنجليز لسنوات طويلة. ولذلك فلم يكن من الواجب أن تثق بهم».

ويبدو أن كوستيس لم يكن ساذجاً، وإلا لم يكن ليكتب في مذكراته: «ستعود حكومة المنفى مع الملك حتى لو اضطرت لقتل كل شباب العالم. خيانة! في نفس الوقت أصبح منصب رئيس الوزراء كقطعة الحلوى التي يشتهيها الجميع. وفي الوقت الراهن يريد سوفوكليس فينيزيلوس أن يتذوقها. أخيراً، وبعد كل ما حدث، حتى أنا بإمكانى أن أصبح رئيساً للوزراء. بهذه الطريقة كان الناس يتحدثون». إلا أن كوستيس كان يحتفظ بهذه الآراء لنفسه، خاصة في لقاءاته الصباحية مع ضباط الجيش في "كشك الصداقة"، الذين كان من بينهم الملازم ثاني اليوناني، إلبينوفوروس تريانديس، "طويل القامة كالنخلة"، كما كانت تطلق عليه خاريتوميني وبعض الوطنيين. وكان يعالج من إصابة في كتفه الأيسر. كان الضابط الشاب يبدو كالأسد في قفصه، فلم يهدأ طوال اليوم فأخذ يجوب الحديقة ذهاباً وإياباً وهو يهمهم قائلاً: «لقد ارتكب قادة الأسطول جرائم في حق وطنهم». كان كوستيس معجباً بمنطق هذا الشاب، وباعتباره رب أسرة فاضلاً لم يشأ أن يجعله يشعر بالإهانة. وكان يتفق مع آرائه، لكن لم يكن يعلن ذلك، وكان يفعل كل ما بوسعه حتى لا يقع بينهما أى خلاف، وكان يدور ما يدور أولاً بأول:

«اليوم قمت بدعوة الأدميرال أندرو كانيجام على الغداء، فلم أحظ برؤيته منذ أن انتقل من عمله. قام السير أندرو - الذي يعشق "الفاقل" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) - بتوجيه مدافعه تجاه المتمردين وهو واضح في حديثه (بالإنجليزية): "أريد أن أكون واضحاً مستر خاراميس، إما الطاعة أو الخرق". تلك هي الرسالة. لا يمكن أن يكون أكثر وضوحاً من ذلك. والآن أتخيل رجالنا في قاع البحر. فليساعدهم الله».

في العشرين من شهر أبريل اختفى إلبينوفوروس تريانديس، الذي كان دائم التجول في الحديقة، وكان اختفاؤه عجيبيّاً. «هذا ليس بمؤشر طيب!»، هكذا دون كوستيس في مذكراته في مساء نفس اليوم.

عاد الضابط إليذوفوروس تريانديس مرة أخرى للظهور فجأة فى صباح يوم الأحد فى "كشك الصداقة". كان مظهره رثًا، يرتدى زيًا مثل ذلك الذى يرتديه العمال، وجهه مغطى بالشحم، يبدو على وجهه قلة النوم والإرهاق، وقد أمسك بكتفه. لم يثر وجوده دهشة أحد حيث كان إلياس خورى قد حصل على تفاصيل ما حدث له مساء أمس من رفاقه.

ويمجرد أن رآه "اللبناني" وهو يقترب من الصحبة، قال له متحذلقًا:

إلياس: «علمت أنكم والروم قد تشاجرتم فيما بينكم بالأمس. كيف استطعتم أن تفعلوها ثانية؟».

تريانديس: «أذهب إلى الجحيم»^(٩) هكذا أجابه تريانديس (بالإنجليزية) بشكل غاضب أمام أربعة من الضباط الإنجليز، وأمام كوستيس وسيستائيس، اللذين نظرا إليه واجمين. ثم انسحب إلى الداخل دون أن يعتذر.

لقد بدا الضيق واضحًا على كوستيس من هذه اللهجة، فى حين قام إلياس بالتعليق مداعبًا:

«ها هو ذا (قالها بالفرنسية)، ماذا قلت لكم؟» ثم أخذ يشرح ما حدث له من البداية: ففى مساء يوم السبت وصلت الباخرة البريطانية "أياس" ورست بين سفن المتمردين بالميناء الغربية فى نحو الساعة الثانية من بعد منتصف ليل يوم الأحد. فتحت مدافع السفينة البريطانية النار عليها وعندئذ قفز مائتا رجل إلى سفينة المتمردين وهم يرتدون زيًا كزى عمال المصانع ويغطى الشحم وجوههم وقاموا بالاشتباك معهم. وفى الثامنة صباحًا كانوا قد سيطروا على الموقف. فى نفس الوقت كان عشرة أفراد قد لقوا مصرعهم وأصيب نحو أربعين. هاجت الإسكندرية كلها حيث انتشرت شائعة تقول بأن اليونانيين يقتلون بعضهم بعضًا على السفن اليونانية.

فى نفس تلك الليلة، كتب كوستيس فى مذكراته: «المائتى رجل الذين قاموا بالسيطرة على السفن "أبوستوليس" و"إيراكا" و"ساخثوريس" - فى صباح يوم

الاحتفال بعيد سان يورغوس - كانوا جميعاً ضباطاً يونانيين، جنود الأدميرال فولغاريس. وقد تم تأكيد هذه المعلومة من وكالة رويتر للأخبار. حتى ذلك الحين، كنت أتساءل: ما فائدة هذا الشحم على الوجوه؟ لو كانوا يعتقدون أنهم يؤذون واجباً وطنياً، فما السبب الذى جعلهم يخفون ملامحهم؟ إن طريقة إلبينوفوروس التى تحدث بها فى الصباح تعبر عن نفسها.

فى مساء نفس اليوم أصبح من المؤكد استسلام اللواء الأول بالجيش اليونانى. كل من شارك فى التمرد سيتم تجريده من أسلحته وسيتم التحفظ عليهم مؤقتاً فى زنايات السجون بالقرب من المدينة. ما زال نيكيتاس مختفياً، وما زالت عمليات القبض على اليونانيين - المصريين مستمرة.

فى صباح اليوم التالى، وقبل أن يتحرك متوجهاً إلى المصنع، نادى كوستيس على إلبينوفوروس تريانديس وطلب منه مغادرة المنزل قبل الظهر. «إن طريقة كلامكم بالأمس، أيها الملازم، وضعتنى فى موقف حرج» قال كوستيس ذلك وقد شعر بأن قامته قد قاربت قامة الضابط اليونانى فى الطول. أما تريانديس، وبعد أن شعر بالإهانة، فقد ألقى عليه التحية العسكرية، واستدار متوجهاً إلى خارج المنزل دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

فى مساء يوم الثلاثاء أصبح معلوماً للجميع أن سوفوكليس فينيزيلوس قد تقدم باستقالته، وتولى الوزارة بدلاً منه يورغيوس بابانديوس. فى المساء إتصلت به الخالة ماريا باكية، وقالت: «لقد تم القبض على نيكيتاس»، ثم أضافت: «ما الذى ستفعله؟» كانت كلماتها تخرج بشكل متقطع وبطريقة غير مفهومة. حتى إنه ظن أن التى تحدثه هى امرأة عجوز وقد أصابه الذعر لذلك. لم يكن يرغب فى التفكير فى أن هذه المرأة الجميلة المرحلة التى يذكرها منذ كان طفلاً قد أصبحت كبيرة فى السن.

«توقفى، توقفى يا خالتى العزيزة عن البكاء، لا أستطيع أن أسمعك تفعلين ذلك» قال ذلك كوستيس وتعجب من نفسه. لقد بدا له أنه أصبح يتكلم مثلها، كانت له نفس الطريقة فى الكلام التى لم يسمح أن تتكلم بها امرأة فى مثل سنها. تفهمت أمه حزنها

على ابنها الضائع، فربما يكون من أكثر ما يعذب الإنسان هو سنوات عمره التي ينوء بها كاهله.

ماريا : «ما الذى سنفعله؟» قالتها ماريا، محاولة أن تنتزع منه وعداً بأن يفعل أى شئ.

كوستيس: «حسناً، حسناً، سأفعل ما بوسعى، لن أترك نيكيتاس وحده، لكن لا تبك».

فى تلك الأثناء، استمر كوستيس فى الإشارة فى مذكراته إلى اجتياح الإسكندرية الذى أدهشه بشكل كبير:

«ذكر لى شخص أن أغلب هؤلاء الشباب الذين شاركوا فى هذا الاجتياح كانوا من طلاب مدرسة البحرية، وقد جمعهم فولغارس وتحدث معهم بنفسه. هؤلاء الناس، الذين لم يكن لديهم أى وازع دينى! فقد دفعوا ضباط المستقبل لقتل اليونانيين. لقد سمعت بأذنى أحد هؤلاء الشباب وهو يعبر بشكل مخيف عن مشاعره، وهو يسمع صوت الجنود اليونانيين فى ظلمات الليل وهم يصرخون: "آه لقد خنتنى". ولحسن الحظ فليس كلهم قساة القلب مثل إلبيدوفوروس».

كانت الأمور العائلية تشغل أيضاً بال كوستيس، وعنها دون فى مذكراته: «مرة أخرى دخل نيكيتاس سجن كوم الدكة، حيث وجهت له تهمة إيواء مرشد سياسى بالحزب الشيوعى اليونانى. ذلك المرشد الذى لم يكن له أثر. فهو إما يختفى فى مكان ما بالإسكندرية، أو أنه قفز فى إحدى السفن هارباً إلى إحدى موانئ شرق أفريقيا. "موعد" (دونها بالإنجليزية) فى البحرية. مفاوضات من أجل شحنات السجائر الجديدة. طالبت بالإفراج الفورى عن نيكيتاس. لا تكفينى تأكيدات الإنجليز بضمان سلامته. فى انتظار لقاء باباندريوس وممثلى المتمردين فى لبنان. شئ ما سيحدث أخيراً».

وبعد أسبوعين يكتب مدوناً إحساسه بالإحباط تجاه التطورات:

«لم يكن الاتفاق الوطنى الذى ذاعت شهرته بين باباندريوس وبين اليسار فى النهاية سوى مجرد إخفاق. فبدلاً من الوحدة الوطنية، تحول إلى محاكمات لأعداء

السلطة. جو يملأه الخوف بشكل لا يصدق. اتهامات لا حصر لها توجهها الصحافة والحمقى من الضباط الذين يلوحون بعصاهم أمام كل من تسول له نفسه بالاعتراض. يتم الإعداد سريعاً للإفراج عن نيكيتاس. كان لدى خالتي الحق عندما انخرطت في البكاء. فقد كانت غاضبة من نيكيتاس لما سببه من مشاكل لأولاد أخيه. فالابن الأصغر لنيكولاس، الذى يدعى سيموس، لم يكد ينضم للجيش اليونانى إلا وتم حبسه فى طابا. أما طيار العائلة، ثانسيس، فقد أوقفوه عن العمل. أخطاء الكبار يدفع ثمنها الكبار. كم تنتشر سريعاً هذه الأخبار. الجميع فى المصنع يتكلم عنى. اليوم صباحاً فعلت شيئاً سيوقفهم عند حدهم، حيث التقيت فى الفناء الأمامى موظفاً من سيمى، يدعى خاراامبوس كاسترونييس، والذى يثأئى فى كلامه، وهو الابن الروحى لكبير المحاسبين بالمصنع، يورغاس: " تفضلوا بدخول الحسابات، ياسيد كاسترونييس، لتحصلوا على باقى مستحقاآك. أنت مفصول ". " لكن لماذا؟ " هكذا سألنى، " لا يعجبنى شكك " وهكذا أجبته. وعلى الرغم من تلعثمه فى الكلام فإن هذا التعس عرف كيف يبيث سمه ضدى أنا، (لدى معلومات أنه يفعل ذلك). إنه حتى لم يراع لقمة العيش التى كان يأكلها من عمله معنا».

ارتبط الإفراج عن نيكيتاس بحادث سيئ جعله يأخذه بعين الاعتبار.

«هناك شىء غريب يحدث بخصوص هذه الحرب: فمع انتهائها انتهت صلاحية بعض الناس المقربين منا، والذين اعتادوا أن يعيشوا بيننا لسنوات طويلة، مثل محمود، الذى أسندت إليه مهمة نقل نيكيتاس من السجن إلى بيته (وفى هذه المرة قبل نيكيتاس أن يركب سيارتنا الرولزووبيس المتواضعة)، وبينما كان محمود يستدير بالسيارة يساراً من تومبوسكو ليدخل إلى باب سيدرا، اصطدم بالترام رقم (٥) القادم من كارموز. وأتخيل سائق الترام وقد انتصب واقفاً وهو يدير مذعوراً ذراع المكابح، وقد تصبب منه العرق وهو يضغط بقدمه ليطلق النفير بلا توقف. كان مشهداً مروعاً. نزل المحصل وبعض الركاب وقاموا بدفع السيارة بعيداً عن القضبان. تجمع المارة من كل مكان. ونقل الاثنان إلى المستشفى. أصيب محمود برضوض فى صدره، وأصيب

نيكيتاس بكدمة فى يده اليسرى. وعندئذ اكتشفنا أن محمود يعانى من المياه الزرقاء بعينه بشكل متقدم. مما أدى إلى فقدده الإبصار بشكل تام بإحدى عينيه. وكانت عينه الأخرى قد تأثرت بالفعل. كان لابد أن أتوقع أن يحدث له ذلك. فقد كان إحدى الأدوات التى اعتاد أبى أن يستخدمها، ولم يعد من الممكن استخدامها للأبد. كان من الممكن أن يقتلنا هذا الإنسان عديم القيمة بعماء. ربما ينبغي أن أعيد فحص كل من يعملون من أيام أبى الراحل أندونيس، فسيستائيس، على سبيل المثال، لم يعد صبيًا صغيراً، وكذلك جوليا -السكرتيرة العانس - لابد أنها تصغر أُمى بقليل. يا إلهى! وما زالت تعمل ليل نهار كالحَيوان....." شىء واحد مؤكد فى هذه الحياة " (دون ذلك بالفرنسية)، وهو أن عدم الإنجاب نعمة. فربما تضعف الأسرة والأطفال من قوتنا. ماذا أقول؟».

قبل حلول الخامس عشر من شهر أغسطس، وبينما كان الكثير من الناس يقضون الصيف فى بلدهم، تم نقل لواء الجيش اليونانى إلى إيطاليا، وكان يضم فى صفوفه العديد من اليونانيين - المصريين، مما جعل أقرباءهم يشعرون بالقلق الشديد عليهم. أما الجنود أنفسهم فقد كانوا فى منتهى السعادة، طبقاً لجريدة " فوس " (أى الضوء) القاهرية التى كانت تصدر منذ عهد الملك وحكومة المنفى: " كان من الواضح على الرجال الذين تم نقلهم إلى إيطاليا مدى سعادتهم وهم يغنون " هيا إلى يونان جديدة " كما كانوا يغنون أغانى أخرى.....".

وعند ذلك دون كوستيس ببساطة قوله: «خراف تستعد للذبح».

فى شهر سبتمبر من عام ١٩٤٤، تم إعلان " الوحدة الوطنية "، على الأقل على الورق، وسافرت الحكومة إلى إيطاليا. وقد وصف كوستيس، للمرة الثانية، فى سطورٍ قليلة شعوره الكبير بالارتياح وأيضاً بالمرارة التى تتاب اليونانيين بمصر.

«بئس المصير (دُونُها بالإنجليزية)، أيها الأشقياء، أيها اليونانيون! لقد وهبناكم مدخراتنا من أجل وطن جعلتموه قبيحاً مثلكم تماماً، ومن أجل الشعب الذى تمتصون دماءه. جنتم إلى هنا، إلى أرض غريبة، ودفعتمونا لارتكاب أخطاء لا حل لها بسبب مشاكلكم القذرة. سمحنا لكم بدخول منازلنا فاخطفتم منا بناتنا، وتركتم نصفهن

حبالى. يا لكم من فاسقين متعددى الزوجات! قمتم بتحفيظنا، ثم سجنتمونا، وقبل أن ترحلوا عدتم مرة أخرى تتسولون باسم الوطن. فينيزيلوس، مؤيدو تسونديروس والملكية، بابانديروس و..... ما الذى ستطلبونه منا بعد ذلك. أخرجوا من هنا».

فى نفس الوقت دون فى مذكراته:

«إذا كانت الحرب تنتهى بالنسبة للبعض، فإنها تبدأ بالنسبة للبعض الآخر. لم يكن ما عشناه مع الحركة فى الجيش اليونانى سوى الجولة الأولى. ها هم المتصارعون يعودون لليونان من أجل الجولة الثانية وربما الأخيرة. فى فلسطين، يستعد اليهود لتأسيس وطن وهنا فى مصر سوف يحاول الوطنيون - كما هو واضح - للمرة الثانية التخلص من الإنجليز المستعمرين. هل هناك منتصر فى هذه الحرب؟ لست أدرى».

* * * * *

لم تكن أجراس السلام المبهجة فى عام ١٩٤٥، سوى صدى للنصر الذى احتفلت به الإسكندرية منذ ثلاثة أعوام، عندما أكدت نفس تلك الأجراس على ذلك الانتصار فى موقعة العلمين. ومنذ ذلك الحين ابتعدت سحب الحرب بعيداً وتبعها الانسحاب المشين للقرن الأفريقى، وما تبقى من كل هذا لم يكن سوى ظل فى الحدود الغربية للمدينة. لقد كسبت الإسكندرية معركتها الخاصة واستراحت مزينة بأكاليل النصر، "مبحرة بعيداً عن العالم المتحارب". عاد الهدوء القديم مرة أخرى على أمل أن تعود هذه المدينة الأسطورية من جديد وتتبوأ مكانة تليق بها فى عصر ما بعد الحرب بمنطقة البحر المتوسط. حتى هذه اللحظة لم يكن بوسع سكانها سوى التذمر على استمرار إظلام المدينة الذى أصرت عليه السلطات العسكرية، طالما ما زالت كريت وباقي المدن اليونانية ترزح تحت نير الأعداء. ومن هنا، على الجانب الآخر، كان لابد أن تتحرر أوروبا. فى شهر يونيو لعام ١٩٤٣، كانت المدينة مفعمة بانتصار التحالف، ترعى فى كفها - فى خليج الليناء الغربية - سلاح البحرية العظيم تحت قيادة الأدميرال كانيجام الذى كان يدعم عملية الإنزال فى صقلية. فى تلك الأثناء، كان كل مواطن من أهل الإسكندرية،

بعد أن سيطر عليهم الإحساس باليأس من تلك الحرب، يستمتع قدر استطاعته بالبحر، بالحب، بألوان الطعام، حتى تملكهم فى نهاية هذه المغامرة العظيمة مشاعر عديدة غريبة، متضاربة.

كتب كوستيس آخر ملاحظة له فى مذكراته فى شهر أغسطس لعام ١٩٤٥، وقد أشار تحديداً إلى ما يلى: «كم تخيفنى نهاية الحرب، حتى لو كان ذلك يبدو غريباً، فقد إعتدنا عليها. نشعر أننا جميعاً أبناء هذه الحرب بطريقة أو بأخرى، مخلوقات تستمد طاقتها من مشاعر هذه الحرب. الآن، ونحن فى بداية هذا السلام غير المفهوم نشعر بأننا خاوون، ضائعون، نعانى من مصائب وخسائر شخصية من المستحيل تعويضها، على الرغم من أننا لا نريد أن نعترف بذلك، لكن هذا الصراع العالمى يفزع شبابنا، هذا الشباب الذى يعد أمل المستقبل. أصابتنا الشيوخة فجأة فى أحضان هذا السلام الإرهابى، وفى خضم هذا السلام الإرهابى - وليس فى الحرب - وقعت آخر عمليات الإبادة النووية. "عصر جديد" هكذا يصيح الجميع بحماسة. لم يبق سوى النظر إلى إمكانية العبور تجاه مستقبل محاط بحزام من الألغام وهو على وشك الانفجار. إلى هنا ينتهى تاريخ واحدة من الحروب التى أنهكت مابقى لدى الإنسانية من رومانسية».

بمشاعر مماثلة استقبل العديد من أبطال هذه الرواية هذا السلام العالمى: إلياس الملقب "بروح المدينة"، كان ينتقل بلا هدف فى المقاهى والصالونات بالمدينة، معطياً الأولوية لنزعته فى البحث عن الثروة، تلك النزعة التى أصبحت كالملبس الذى لم يعد يليق به. استمر فى الحديث عن الأعمال، فى الشرب، فى التدخين بشراهة، فى سبر أغوار عالم المرأة اللامع هذا "العالم الذى خلفته الحرب من ورائها"، استمر فى التجول بسيارته الجديدة السريعة، فى لعب الورق، فى التأمل فى الصحوة العربية، كما لم ينس أبداً أن يغازل إيفيت بوضع زهرة فى مخدعها، ولم ينس أيضاً أن يقدم لها فى كل مرة وعوداً كانت تجعلها تغرق فى الضحك. أنزلت له إيفيت - مديرة منزل مصطفى باشا - قبعته حتى جبهته وهمست قائلة: «كم أنت رقيق»، أيها الرجل العجوز (قالتها بالفرنسية). كانت إيفيت تشعر بامتنان عظيم تجاه إلياس، لأنه استطاع بعد كل تلك

المغامرات أن يكون دائماً على مقربة منها، كما كان حريصاً على التخفيف من وطأة وحدتها بجرعات من السعادة والحنان. ومما كان يواسيها شعورها بأنهما دائماً معاً في هذه السن، وعندما كانت تكتشف تجاعيداً جديدة في وجهه، تصيح بكل حماسة (بالفرنسية): «أخبرني، أأرى تجعيدة جديدة، يا رجلى العجوز!». أما إلياس الذى لم يقتنع أبداً بأنه قد كبر في السن، فكان يستقبل تعليقاتها بابتسامة رقيقة، مقتنعاً بأنه يرضى بذلك غرورها بوصفها امرأة. وبشكل أو بآخر، كان إلياس يشعر بأنه حريص على الإلتزام بوعوده التى قطعها على نفسه تجاهها يوماً ما في باريس، ولهذا كان يقول لها بطريقته المأكرة: «أرأيت (قالها بالفرنسية) أننى لم أخدعك. لقد سبق أن قلت لك بأننا سنظل معاً وأنى سأحبك للأبد».

«لا تسريب عليك في ذلك» هكذا كانت تجيبه إيفيت ثم تنخرط في البكاء دون أن تدري لماذا تبكى. وبينما كان وهج الشباب ينطفئ بداخلها، استطاعت أن تحيا حياة هادئة، متطلعة إلى البحر الواسع، ولم يعد لديها سوى أن تتذمر من الضابط نور وطلباته المبالغ فيها. كان الضابط نور - خليفة الضابط فريد - ذو العنق الضخم والعينين الداكنتين اللتين كانتا تدورا في محجريها، هو أسوأ ما في الشرطة المصرية. فكان يأتى إليها في كل مرة بطلبات مختلفة، ولو تجرأت إيفيت بالاعتراض على طلباته الغريبة، كأن تحرك مروحة يدها بسرعة، كان يعقد يده وكأنه يصلى وهو يسب بصوته الرفيع الإنجليز و"القيادة الإنجليزية" - وهو الاسم الذى كان يطلقه على بيت البغاء في شارع مصطفى باشا - وعندما تفشل في إيجاد حل، كانت تحيل الأمر إلى "اللبناني"، وعندئذ يقوم الضابط الماكر بتهدة الأمور. كان يهذب شعره الكثيف ثم يرمقها بنظرة مفعمة بالرغبة، ثم يهمس قائلاً "معلش" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، لكنه يعود مرة أخرى في لقائهما التالى إلى حديثه. كان الضابط نور يداعب مسبحته بشكل مستمر، تاركاً حباتها الصفراء بلون "الذرة" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) تجرى الواحدة تلو الأخرى، وهو يحصى برضا أرباحه من الاتفاق الجديد. ثم تراه يتحدث بطريقة يشوبها التهديد معلناً أنه سوف يغلق بيت

البغاء حتى لا يغضب "الله"، فى حين كان يغطى كأس الشراب الخمر " بطربوشه "، وكانت شرارة الانتقام تطل من عينيه.

مرت شهور عديدة منذ أن ودع مستر " فويس " إيفيت وهو فى شدة التأثر، شاكرًا إياها على مشاركتها فى صراع الأمة البريطانية العظيمة، وكانت كلما تصادف ومرت ناحية شارع يانج، ونظرت إلى حديقة المبنى الخضراء، حيث يقع مقر القيادة البريطانية، كانت تشعر بالعجز تجاه الوطنية المصرية المتأججة التى انتشرت فى كل أرجاء المدينة يومًا بعد يوم. بدأت تشعر بالحنين إلى تلك الأيام التى كانت قوات الجيش تقوم فيها بحماية الشوارع، إلى النوادى والمحلات وإلى الشراب والمتع الزائلة. الآن أغلقت نوادى قوات الحلفاء أبوابها، بل وقامت بنفسها بإغلاق أكبر هذه النوادى فى شارع كورينثوس، وفى الميناء الغربية حلت سفن السلام محل السفن الحربية الضخمة. كانت إيفيت تشعر بالحزن بالفعل تجاه انهيار قوات الإمبراطورية البحرية التى كانت تمثل أساساً للعالمية. وكان إلياس محقًا عندما كان يقول: «قد لا يحب أحد الإنجليز، ولكن بدونهم لم يكن لأشخاص مثلنا أن يحالفهم التوفيق فى البحر المتوسط». وتحت وطأة شعورهم بتهديد ثرواتهم بسبب الأحداث الجديدة، بدأ آخر صفوة المجتمع العالمى بالإسكندرية يستجمعون قواهم أكثر من ذى قبل، ناشدين جوأً من التواصل فى الحفلات المسائية، وبخاصة فى "حفلات الشاي" (ذكرها بالإنجليزية) حيث كانوا يتبادلون نظرات القلق والصبر، متحدين ضد عدو مجهول يدمر عالم الماضى العظيم بكل دقة.

وفى واحدة من هذه التجمعات، حيث أقيم حفل وداع صمويل عظيمان استعداداً لرحيله إلى الأبد عن المدينة التى منحته كل ما لديه من ثروة، تردد لحن الشجاعة الوحيد فى أذن إيفيت عندما قدم لها صاحب الحفل مستر أتجود، الأستاذ المساعد بجامعة فاروق بالإسكندرية. تعرفت إيفيت فى صوت هذا الرجل الجنتلمان على صوت مستر "فويس" الرهيب الذى كانت تلتقيه فى شارع يانج، وقد منحته مصافحته الحارة لها شجاعة كبيرة. وجهه الحاد غير المعبر، شعره الرمادى المصفف، حاجباه الكثيفان،

أهدابه الداكنة، لم يكن هذا ما تخيلته عنه طوال السنوات الماضية. ولم يكن لزاماً على الأستاذ الجامعى أن يتفق مع ما تخيلته هى. فى نهاية الأمسية أقلت عليه التحية بكلمة من كلمات السر التى استخدموها فى آخر لقاء عمل واكتفى الإنجليزى البارد بالابتسام دون مبالاة. كانت الثقة التى منحها وجوده فى المدينة سبباً فى هدوء مخاوفها لفترة كافية بأنها لم تفقد شيئاً، وأن كل شىء سيعود رويداً رويداً إلى إيقاعه الطبيعى.

لكن كان صمويل عظيمان العظيم لم يشاركها تفاؤلها لسوء الحظ. وكان سامى شديد الثراء، المتأثر بمعتقداته الصهيونية، قد عقد اتفاقاً مع أشخاص مثل إلياس خورى، حيث استطاع فى وقت الحرب أن يقوم تدريجياً بتهريب مجموعته الأثرية الأسطورية من مصر، والآن ها هو يغادر البلد مكتفياً برد أربع قطع أثرية فقط أهداها للمتحف المصرى بالقاهرة. وكان هذا التصرف الحكيم بمثابة رسالة يبعثها لمنافسيه ليحذوا حذوه. وكان أهمهم على الإطلاق لوكاس سينجوس، الذى يعتقد أنه لا يوجد ما يخشاه فى مصر فى فترة ما بعد الحرب. وعندما سقط سيف عبد الناصر فيما بعد ليقطع رقاب الأبرياء والظالمين معاً، ظلت رأس لوكاس سينجوس فى مكانها بشكلٍ مثير للريبة، مستمراً فى تكذيب أولئك الذين تسرعوا فى التخلي عنه. كان هذا الرجل نو الطابع الغريب - الذى ظل يفرق شعر رأسه من المنتصف - يتحدث بخليط من اليونانية الفصحى والإنجليزية والفرنسية، وقد ظل ككل اليونانيين - المصريين القلائل منتعشاً مالياً حتى النهاية. وعندما مات فى أحد الأيام، ترك مجموعته الأثرية للحكومة المصرية، واعترافاً بما قدمه فى الحفاظ على تاريخ مصر العظيم، فقد منح اسمه وساماً لتكريمه بعد وفاته.

على العكس من ذلك، فقد احتاجت أخته ذافنى لتكافح فى مواجهة شكوك مصلحة الآثار المصرية. وقد تم إجهاض محاولة اقتحام الشرطة المصرية لمنزلها فى اللحظة الأخيرة بواسطة إلياس خورى، إلى أن أجبرها كوستيس لقبول حل الإهداء للمتحف المصرى. فقامت مدام ذافنى، برغبتها أو دون رغبة منها، بإهداء المتحف المصرى جزءاً

كبيراً من مجموعتها الأثرية. غير أنها لم تفق أبداً من هذه الصدمة، مثلما لم تتمكن أبداً - على الرغم من محاولاتها المضنية - من تقبل نهاية ابنها الصغير المفجعة، حتى وصل بها الأمر إلى اعتبار أن محاكمة نوريمبرج تعد مسأله شخصية، حيث تمت محاكمة رودولف إس وإدانتة على الدور الشيطاني الذي لعبه في مسيرة حياة الدكتور ماخوس. وحتى تواسى نفسها فقد احتفظت لنفسها بأحد التماثيل الفرعونية وتابوت فرعونى. وكان الشيء الوحيد الذى طلبته هو أن تدفن هذه الأشياء معها بعد موتها. كان من الصعب عليها بعد موت ابنها أن تتقبل، دون شروط، خسارة أخرى فادحة فى غضون سنوات قليلة، والتي لم تكن تلوم عليها أحداً سوى نفسها، لكنها لم تكن الوحيدة.

وبينما كانت أوليمبيا شقيقة نيكيتاس تحاول الاعتياد على فكرة أن زواجها من الدبلوماسى الإيطالى قد تحطم تماماً، فقدت أمها - التى ماتت بسبب حدوث ارتشاح على الرئة فى ليلة رأس السنة لعام ١٩٤٦ (وهى تشعر بالحزن بسبب عدم قدرتها على العثور على زوجة لنيكيتاس) - وبعد أيام قليلة فقدت ابنها الصغير، الذى كان هو الآخر يدعى ثاناسيس. ولم تتوقف عن إلقاء اللوم على نفسها، لأنها لم تتمكن من إنقاذه من تلك الحمى الملعونة التى أصيب بها. كان موت السيدة ماريّا يخفى مفاجأة سارة لكوستيس، فعندما شعرت خالته الحبيبة بدنو أجلها، فكرت أن تترك له خطاباً يحتوى على بعض الكلمات المؤثرة، وقد جاء فيه:

«كنت لى نعم الابن، مميزاً ومحبوباً! أشكرك يا ولدى كوستيس على الحب الذى كنت تكنه للعائلة كلها بلا استثناء. وإذا كان هناك ما أرغب فى اصطحابه معى فى رحلتى إلى عالم الخلود، فهى ذكراك الجميلة. أرجو أن تذكرنى أنت أيضاً بين الحين والآخر. خالك، عفريته الحى».

لا يتذكر كوستيس أنه قد بكى فى حياته قط مثلما بكى فى جنازة الخالة ماريّا، لدرجة أن والدته استدارت إليه قائلة: «سوف نرى (قالتها بالفرنسية)، أريد أن أعرف إذا ما كنت ستبكينى عند موتى بنفس الطريقة». فى ذلك اليوم حضر كل أبناء الطبقة

الشعبية بالإسكندرية إلى المقابر لحضور مراسم الجنازة، وتحدثوا جميعاً عن المستوى الرفيع لجنازة ماريّا التي تكفل كوستيس بكل نفقاتها.

فى مشهد ما بعد الحرب، لم يكن نيكيتاس يتذكر سوى أنه كان جندياً قديماً بالجيش الإسباني، وكان كثيراً ما يتناول فى حديثه بعض القصص المخيفة عن شبه جزيرة أيبيريا، والتي لم تترك انطباعاً كبيراً لدى من تشبع بحكايات عن الحرب من مستمعيه، ناهيك أن البعض منهم كان قد حفظ هذه القصص عن ظهر قلب، ولذلك كانوا يوبخونه قائلين: «مرة أخرى ستشجينا بهذه القصص، أيها الجندي السابق» إلا أنه لم يكن يتوقف أبداً لأنه يعرف أن قصص الحرب دائماً مخيفة، وأن العقل البشرى يعجز عن وصف بشاعتها. سباني أ

أما بالنسبة للأمور الأخرى، فقد كان يتجنب الخوض فى صراع البروليتاريا العالمية، لكن بقدر ما كانت الحرب الأهلية مستمرة باليونان، بقدر ما كان الجندي الذى بداخله يستيقظ بين الحين والآخر، وعندئذ كان ينظر قلقاً تجاه الشمال، حيث كان مصير الوطن الأم فى مهب الريح، وكان على استعداد لأن يستقل أول سفينة والعودة إلى اليونان، إلا أن سنوات عمره الخمسين كانت تعيده إلى رشده، وعندئذ كان يحدث نفسه قائلاً: «الزم مكانك، يانيكيتاس!».

كان نيكيتاس يلزم بالفعل مكانه، وبخاصة بعد أن تسلم عمله فى الحسابات فى شركة الطباعة، كما استطاع أن يجد وظيفة أيضاً لابن أخته ثاناسيس، باعتباره مطبعياً، بذات الشركة. وعندما تم تجنيده فجأة بعد حركة ١٩٤٤، من قبل القوات المسلحة اليونانية، أصبح ثاناسيس قصاصاً مثل خاله، فكان يحكى باستمتاع عن المعارك الجوية التى خاضها فوق الصحراء، إلى جانب رحلات الاستطلاع الجوى التى قام بها فوق بحر إيجه، وهو يمشط البحر بحثاً عن غواصات العدو التى كانت تظهر فى مياه البحر الزرقاء كسمكة كلب البحر الضخمة السمراء، وبخاصة حول سواحل جزيرة «ميلو». ولكن لأن ثاناسيس كان خجولاً بطبعه، فقد كان يحتاج دائماً إلى أن يقدمه نيكيتاس للمستمعين، وكان نيكيتاس يفعل ذلك بكل سرور، قائلاً: «أندرون أن

ابن أختى قام بالخدمة فى سرب المطاردة الجوية ٢٣٦ بالشرق الأوسط. إنه الأول فى المطاردة وإطلاق النار. أخبرهم، يا ثاناسيس، وإلا سأخبرهم أنا» وعندئذ تنفك عقدة لسان ثاناسيس ويشعر فى حكاياته، بادئاً فى كل مرة من بالتعبئة العامة فى معسكر توسيتسا، ثم التدريب فى جنوب أفريقيا، لكن الخال نيكيتاس كان يحثه قائلاً: «هذا فقط؟ حدثهم عن العلمين» ومن ثم يبدأ ثاناسيس فى وصف المعارك الحربية التى خاضها فوق الصحراء: كيف أن المقاتلات هاليفاكس ولانكستر كانت تقصف وتحرق العلمين طوال الليل، وبمجرد أن تلوح تباشير الفجر فى الأفق، تبدأ طائرات بى ٥٢ فى عملها، إلا أنه كان يحتفظ بأفضل البطولات للفقرة الختامية، وذلك عندما يشير عليه الخال نيكيتاس بقوله: «هيا إذن، حدثنا عن رفيقك من جزيرة بيليوس الذى ألقى بخطاب الحب فى كنيسة قريته». عندئذ يسترسل ثاناسيس قائلاً: «كنا فى مهمة فى اليونان المحتلة، وأثناء طيراننا باتجاه ثيسالونيكى شاهدنا طائرات العدو تمر من فوق موقع كيسوس فى جزيرة بيليوس، وعندئذ قام أحد زملائه بخفض المدفع الرشاش وتصوبه تجاه حامل الجرس بالكنيسة. ثم رأيته يفرد شريطاً طويلاً يبلغ طوله المترين وفى طرفه، كما علمت فيما بعد، مقذوف فارغ من مدفع الطائرة. وقد أخفى بداخله خطاباً لخطيبته إفيجينيا ديانيللوس. وكان يخبرها فيه بأن تتحلى بالصبر ويعددها بأنهما سوف يتزوجان فى نهاية الحرب. ولا نعرف أبداً إذا ما كانت إفيجينيا قد تسلمت هذا الخطاب أم لا».

بعد انتهاء ثاناسيس من سرد بطولاته كان نيكيتاس يوضح للجميع المغزى الأخلاقى من هذه القصص قائلاً: «لعلكم قد فهمتم الآن الدرس، ففى البداية، ألقوا بأبنائنا فى النار، ثم أداروا لنا ظهورهم». وبالطبع كان يعنى بذلك الإنجليز، لكنه لم يكن ليجرؤ أن يقول ذلك بوضوح. كان كوستيس يتعامل معهم من خلال بعض مطبوعات المصنع، ولم يكن هناك داعٍ لأن يسبب له المشاكل، خاصة وأنه قد عين أنجيلوس موثيزياكيس - الأب الروحى له - فى مصنعه، وأيضاً غيراسيموس ابن اخته الصغير.

«أنجيلوس الثائر» وهكذا أطلق عليه نيكيتاس، متجاهلاً صاحب الاسم المستعار هيراكليس ثراسيفلوس وتوقعاته بتوتر الصراع فى أرض الوطن، بعد أن كان قد تم نفيه بالفعل من قبل حزب ميتاكساس. إضافة إلى ذلك فلم يقتل الألمان كل أفراد عائلة أنجيلوس من الذكور فى موقعة أميرا، فى قرية فيانوس بجزيرة كريت عام ١٩٤٢، وإذا كان قد مر بذهنه ولو للحظة واحدة أن يحارب مع القليل من رجال الجزيرة من أجل انتصار الحركة اليسارية، فقد مر بذهن الكابتن باندوفاس أن يسحق المتمردين من رجاله قبل أن يبدأ فصلاً جديداً من الحرب فى اليونان التى نالت استقلالها حديثاً.

هكذا إذن صارت الأمور، فقد كانت الحياة الهادئة بالإسكندرية بعد الحرب، إلى جانب إيباكوى الجميلة، بمثابة إغراء لم يستطع أنجيلوس أن يقاومه. فمئذ اللحظة التى وجد فيها عملاً جيداً باعتباره مساعداً على إحدى ماكينات تصنيع السجائر بمصنع خاراميس، أصبح كل شىء يسير بشكل طيب، على الرغم من تدمير حماء كاليبسيس الذى كان يرتعد من فكرة أنه قد يعانى مثلما يعانى أولئك الذين قاموا بتزويج بناتهم لرجال متزوجين بالفعل فى اليونان، تلك الزوجات اللاتى كن يأتين إلى الإسكندرية مطالبين باسترداد أزواجهن المخادعين. لقد احتاج كاليبسيس لمرور عدة سنوات حتى يتأكد من أن أنجيلوس - زوج ابنته - لا غبار عليه، وكان يقول بعدها باستمرار: «أيها التعس، لو أنك صادفت هذا الثائر الذى ترك رفاقه يموتون فى الجزر المعزولة، ولم تكن قد رأيته، لو أنك صادفت هذا الثائر».

«يا إلهى، ألا يعجبك شىء على الإطلاق!» هكذا كانت زوجته ستراتيا تقول له، ثم تضيف: «ألا يرضيك أن تكون ابنتك سعيدة». لكن كاليبسيس كان يرى أنه من المستحيل أن تصبح ابنته سعيدة بالقرب من رجل لم يختره هو بنفسه. ولكى يجرح مشاعره فقد حرص فى كل تجمع عائلى أن يتحدث عن الهجوم على الإسكندرية، موضحاً أن الخسائر حدثت بسبب بعض الدخان الذى انتشر قبل الهجوم، فى حين استطاع البعض أن يعطل أجهزة الإرسال حتى لا يتمكن طاقم السفن الثلاث من الاتصال بالسفينة "هيفايستوس"، تلك السفينة التى كانت وكأنها "مصنع حقيقى" حسب ما يعتقد كاليبسيس، والتى كانت تستطيع أن تدمر الإنجليز بصواريخها.

«أولئك الذين ماتوا هم الرجال الحقيقيون، أما الآخرون فموجودون بيننا اليوم ويدعون أنهم رجالاً» هكذا كان كاليبس يختتم حديثه. ولم يكن أحد يلقي بالاً لما يقوله كاليبس فقد كان مخموراً، وإذا ما تصادف وجود شخص أجنبي ليس محلاً للثقة، كانت ستراتيا تهمس في أذنه قائلة: «الزم الصمت، يا سيد بيتروس، وإلا فسوف تواجه المتاعب». لكنه لم يكن يهدأ حتى رزق بأول حفيد له.

كانت السيدة خاريتوميني تتمنى أيضاً لنفسها حفيداً من ابنها فوتيس، لكنه أخبرها بأنه لن يحقق لها طلبها إلا بعد تحرير الجزر اليونانية الاثنتي عشرة أولاً. وفي صيف عام ١٩٤٨، استقرت الأم وابنها في جزيرة رويوس، وكان ذلك مدعاة لكي تزور دير تاكسيارخي في جزيرة سيمي بشكل منتظم. إلا أنها في أول خطاب كتبته لذاقني، عبرت عن مدى إحباطها، قائلة: «لقد أصابونا بالعار، اللعنة على النازيين. لقد أصبحت سيمي كتلة من الانقراض. من يمكن أن يصدق ذلك. أفكر أن أشتري بمدخراتي قطعة أرض في "بيدي". إنهم يبيعونها بأرخص الأسعار. بل بلا قيمة تقريباً، فوتيس يشد شعر رأسه مما يحدث، ويقول إن هذا يعد ضرباً من الجنون. قد يكون كلامه صحيحاً، إنني أتأمل لحال هذه الأرض».

شعرت ذاقني لوهلة بالغيرة من خاريتوميني الطاهية لحبها لوطنها. فقد ولدت ذاقني في أرض أجنبية، وتعلق قلبها بمدينة لا تنتمي لها، وعلى الرغم من أن أهلها ينحدرون من ميثيليني، فإن إحساسهم بالحنين لجزيرتهم لم يكن كافياً لجعلها تحب وطناً لا تعرفه. فالحياة بعيداً عن الإسكندرية بالنسبة لها تعد ضرباً من المستحيل، شيئاً يشبه المنفى. وكانت تعتبر الجالية اليونانية بالمدينة هي كل وطنها، فعلى سواحلها كبرت واكتسبت تدريجياً شعورها بيوغانيته. وإذا كان هناك شيء تدين به لأندونيس فهو تعليمه لها كيف تكون يونانية. لقد تعلمت في مدارس الجالية، وكان تأثير الدراسة بالإنجليزية والفرنسية يجعلها تخجل دائماً من أصولها اليونانية، إلا أن ضمير زوجها الوطني اليقظ - إلى جانب معرفتها الجيدة بالتاريخ اليوناني - كانا يؤكدان لها العكس. كان معظم أطفال الحى اليوناني يذهبون إلى مدارس فرنسية أو إنجليزية،

وكانت ذافنى تعتبر هذا الأمر مرفوضاً تماماً. ربما لأنها لم تكن تستطيع تغطية نفقات دراستهم فى بعض المدارس الخاصة باهظة التكاليف: مثل "سان مارك كوليدج" أو "فيكتوريا كوليدج" أو "ليسيه فرنسية" (ذكرها جميعاً بالفرنسية). وفى الحقيقة فإنها لم تكن ترى أن المدارس الأخرى تقدم تعليماً يفوق ما تقدمه مدارس الجالية البراقة مثل: "أفيروفيوس"، "توسيتسايا"، "فاميلياذيبوس"، "سالفاغوس"، وغيرها من المدارس الأخرى. وقد تبعت نفس المنهجية مع حفيدتها "ذافنولا" فى مدرسة "أفيروفيوس للفتيات" فى سيدى متولى، ثم فى مدرسة "أفيروفيوس الإعدادية للفتيات" بالشاطبي، وسارت ذافنى الصغيرة على نفس منهج العائلة. كانت الجدة تتحين الفرصة دائماً للافتخار بحفيدتها - فى حفلات العيد القومى^(٢٢)، فى حفل رفع علم اليونان، فى العروض الرياضية، فى حفل التخرج عند نهاية كل عام دراسى. ومع نهاية حقبة الأربعينيات أصبحت ابنة كوستيس صورة طبق الأصل من والدتها الهاربة هايكى. وقبل أن تنتهى من دراستها الإعدادية، أصبحت أطول من أبيها، وكانت تقوم بتصفيف خصلات شعره الرمادية بيدها عندما يخرجان معاً. لقد أعاده هذا الشبه الكبير والمدهش لسنوات الثلاثينيات الجميلة، وكأن كل شيء يبدأ من جديد، وكأن الفرصة مازالت قائمة لعائلة خاراميس لكى تصلح من أخطائها وتعوض ما فاتها. كان كوستيس يشعر بأنه محظوظ بما منحته له الدنيا.

أما البعض الآخر فلم يكن يحظى بمثل هذا الحظ. وكان على إيفيت شانتون أن تعيش على ذكرياتها من "متحف الموتى"، كما كانت هى نفسها تقول وهى تسخر من نفسها. فإلى جانب موت كل من تحبهم أضافت إيفيت إلى ذكرياتها فقدان روكسانى. هذا الإحساس المؤلم الذى كان يوخز روحها. فلم تنس أبداً أنها هى التى منعتها فى منتصف العشرينيات من أن تنتقل للعيش مرة أخرى فى الإسكندرية بعد موت زوجها الأرمينى، ومنذ ذلك الحين كانت روكسانى تتجنب الرد على خطاباتها، وفضلت هذه

(٢٢) فى احتفال اليونان بعيد الاستقلال، تقدم المدارس عروضاً طلابية، ويتقدم العرض الطالب الأول فى كل مدرسة حاملاً علم اليونان (المترجم).

الارملة الثرية البقاء فى باريس. لم تفعل ذلك لمصلحتها، ولكن حتى لا تزداد علاقتهما قوة. وبعد خمسة عشر عاماً، عندما حطمت قوات هتلر فكرة أن مدينة النور مدينة آمنة، كان الوقت قد أصبح متأخراً بالنسبة لروكسانى للهرب إلى الإسكندرية. كان عمل روكسانى السابق فى المخابرات السرية البريطانية فى سنوات إقامتها فى إسطنبول، عندما كانت تواجه المد الألمانى، من الأمور التى يصعب أن تنساها. وفى الوقت الذى اكتشف فيه غزاة باريس تعاونها مع المقاومة الفرنسية، لم تجد بجانبها شخصاً مثل إيفيت لى يساعدها على الهرب من المدينة. وهكذا نالت روكسانى نهاية مروعة لحياتها الشقية خريجة مدرسة زابيو التى تعلمت فى مقاهى شانتان بإسطنبول ومنها إلى بيت البغاء بالإسكندرية حتى تزوجت من الثرى الأرمينى، ثم إقامتها فى باريس فى فترة ما بين الحربين. لقد أصاب إيفيت الذهول عندما علمت الطريقة التى انتهت بها حياة روكسانى بعد أن عذبها النازيون ثم قتلوها فى نهاية الأمر. وفى العديد من المرات، وبينما كانت إيفيت تجلس فى صالون منزل مصطفى باشا تتخيل أنها تراها وهى تهبط السلم كعادتها مسرعة وهى شبه عارية، تسمع ضحكاتها تجلجل فى أرجاء المكان، ولم تكن تتخيل أن تلقى مثل هذه النهاية المأساوية.

وعندما تحدثت مع إلياس عن ذلك أجابها قائلاً، بينما ينظر إلى الحجر الكريم اللامع المثبت فى خاتمه:

«ليست لديك أدنى فكرة عن معنى نهاية مأساوية، يا عزيزتى. سأخبرك بشئ قد يبدو لك غير معقول. فقد لقى صديقى فاييو أدريانى وزوجته ماريا وأبناؤهم الثلاثة مصرعهم جميعاً فى حادث تحطم طائرة خارج مرسى مطروح. أثناء عودتهم من روما».

إيفيت: «ولماذا قد يبدو لى ذلك غير معقول؟».

إلياس: «حسناً، إليك بالسبب (قالها بالفرنسية)، فقد كان بإمكانهم أن يستقلوا باخرة، مثلما فعل الآخرون، أو كان من الأفضل أن لا يذهبوا إلى روما التى تعج بالكثير من الإيطاليين واليهود».

* * * * *

مرت سنوات عديدة منذ أن تطلع كوستيس إلى "عالم الباب الخلفى" محاولاً متابعة مظاهر الحياة اليومية المصرية. كل ما تبقى من هذا العالم الساحر منذ سنوات طفولته كان عبارة عن خليط من الذكريات والسحر، بعد أن خرج منه الموتى وغير المرغوب فيهم والمتخلفون من البشر بعد مرور كل تلك السنين. لهذا أصبح "عالم الباب الخلفى" بمثابة متنفسون لروحه، طريقة يغض بها الطرف عن الواقع الذى كان يتصارع فيه لكى يسيطر عليه بكل مشاعره.

لكن عندما انتشر وباء الكوليرا فى مصر فى عام ١٩٤٧. أدرك كوستيس لأول مرة أن ما كان يتابعه فى وقت ما فى شوارع هذه المدينة بسذاجة المشاهد العابر، ربما لم يكن مجرد كرنفال من الألوان، ولكن عالماً يتكون من مزيج من الفقر ومن الانحطاط البشع الذى كان يعذب أناساً كثيرين. كان السؤال وقتها هو؛ لماذا لم يستطع كوستيس فى ذلك الحين أن يتبين حجم هذا الفقر الذى يئن به الآخرون: هل بسبب طفولته البريئة وهو صغير، أم أن الفقر عيب لا ينبغى إظهاره، سر يختبئ جيداً وراء آلاف الأبواب المغلقة؟

حتى لو كان الأمر كذلك، فقد كانت هناك أعباء ثقال كان يسمع عنها من والدته حيث كانت تقول:

«الناس جوعى، يا كوستيس، فالفقر الذى يعذب الناس يفوق الاحتمال» قالت ذلك فى اللحظة التى كان يلتهم فيها البسكويت مع الشاى.

- «ولماذا تقولين لى ذلك الآن يا أمى، هل أخرج إلى الشارع وأقوم بتوزيع البسكويت والشاى على الفقراء؟».

- «أه، يا كوستيس، أنت لا تفهم. لقد عشنا سنوات طويلة فى عالم ملئ بالبذخ والترف والمظاهر، متجاهلين معاناة الآلاف من الناس حولنا».

- «لم نتجاهل هذه المعاناة، بل على العكس» (قالها بالفرنسية)، فنحن نفتح بيوتاً كثيرة، لا تنسى ذلك».

- «نفتح بيوتاً كثيرة! لماذا إذن أشعر بأننى اشتريت سعادتى بتعاسة المنات من البشر؟».

- «هذا رأيك!».

- «تقول ذلك. ولكنك لم تر مثمما رأيتُ أنا فى زيارتى لمنازل الجالية مع لجنة مكافحة الكوليرا. ربما يصبح التطعيم ضد الكوليرا نوعاً من أنواع الرفاهية، مقارنة بأولئك المهدين بالموت جوعاً».

- «ألهذا الحد؟» (قالها بالفرنسية).

- «تجمع كل هؤلاء الفقراء فى أرض أجنبية بسبب غياب الأمان. وعندما تكون الأحوال جيدة نستخدمهم باعتبارهم أيدى عاملة رخيصة، وفى السنوات العجاف نتركهم يواجهون مصيرهم ويلقون حتفهم "دون أن نهتم بحالهم" (قالت ذلك بالإنجليزية)».

- «أمى، أصبحت لا أعرفك! ما الذى حدث لك اليوم؟ وكأننى أسمع نيكيتاس. أتساءل عن الخير الذى يمكن أن ينتظره رجل صناعة مثلى عندما تلوح أمه بالمطرقة والسندان فى وجهه».

- «هل تمزح يا كوستيس؟ لكننى أشعر بأننا قد أجرمنا فى حق العديد من الناس، والأسوأ من ذلك هو: أننا لن ندفع أبداً ثمناً لذلك. بالكاد سوف نجمع قوائم بأسماء هؤلاء الذين ينالون المساعدة من الجمعيات الخيرية. "يا إلهى!" (قالتها بالفرنسية) ما هذا النفاق».

- «هذه هى الحياة. فالغنى غنى والفقير فقير. كل واحد منا يسير فى الطريق الذى رسمه له القدر».

- «يا له من قدر سعيد».

- «آه، أرجوك يا أمى، لا أدري ما الذى أصابك اليوم. اهتمى بشئونك فقط» (قال ذلك بالفرنسية). توقفى عن الاهتمام بهذا الصراع ضد مرض الكوليرا.

الشيء الوحيد الذى ستمكنين منه فى النهاية هو، أن تنقلى مرض الكوليرا إلى منزلنا. ألا تفكرين فى حفيدتك؟».

- «لا تقلق، يا ولدى (قالت ذلك بالإنجليزية) فالكوليرا بالنسبة لنا مازالت مجرد شائعة، على العكس من الفقر، اللعنة على الهمجية».

- «لا تقولى ذلك، فالكوليرا منتشرة فى كل مكان. هل تعلمين أننى قد أعطيت تعليمات صارمة فى المصنع بأن لا يعبر أى شخص من بوابة المصنع قبل أن يغمر يديه فى مطهر "البرمنجانات" (قالها باللغة العربية وبدونها بحروف يونانية). ويقوم ميسا بالإشراف على التطبيق الصارم لتلك القواعد الصحية دون كلل».

- «نفس الأمر يطبق فى مدرسة ذافنى، ولكن لابد أن لا نخدع أنفسنا. فالكوليرا مثل الشجرة التى تحتاج إلى أرض خصبة لكى تنمو بها. أرى أن هذا الصيف سيكون عصيباً علينا، ولذلك فكرت فى اصطحاب حفيدتى والقيام برحلة».

- «فلتذهبا إذن، سوف يفيدك ذلك. فى الماضى كنت تسافرين كثيراً» قال ذلك، فى الوقت الذى أخذت فاطمة الخادمة تساعد فى ارتداء الجاكت القطنى فاتح اللون كما أحضرت له القبعة. وعندئذ استطرد قائلاً: «لتسافرا إلى سويسرا، على سبيل المثال، فهى الأفضل فى هذا الوقت من العام».

- «لا تتعجل. أنا لم أقصد رحلة إلى أوروبا» قالت ذلك وهى تعتدل.

- «لكن؟» أجابها كوستيس وهو يمد يده حتى تنفرد أكمام الجاكت.

- «كنت أتساءل، فربما قد حان الوقت للذهاب إلى جبل محمد».

- «جبل محمد! ماذا يعنى هذا الكلام؟» (قالها بالفرنسية).

- «هذا يعنى؟ (قالتها بالفرنسية) أن نذهب إلى فلسطين».

- «أرجو أن تخرجى هذه الفكرة من رأسك» هكذا أجابها كوستيس ببرود.

- «كوستيس.....».

- «لابد أن تتسى هذا الأمر تماماً».

- «يا بنى، لا يمكنك أن تحرم أمّاً من طفلتها للأبد. هذا ظلم».

- «لم أحرمها من طفلتها وأنت تعرفين ذلك. هى التى حرمت نفسها منها. تعرفين أننى لا أحب الحديث فى هذا الموضوع».

- «عدم الكلام لا يحل المشكلة، عندما يفرضه شخص ما».

- «أنت لا تتحدثين بطريقة منطقية اليوم، يا سيدة ذافنى. "لقد نبهتك لذلك" (قال ذلك بالفرنسية) وهو يشير لها بإصبعه محذراً.

- «أنا أخبرك بما ينبغى أن تسمعه، ولا تهددنى» أجابته بنفس الطريقة ثم أضافت: «إلا إذا كنت تفكر أن تبعد والدتك عنك».

- «اللعة! (قالها بالفرنسية) هل تفضلين امرأة يهودية على ابنتك؟ الحقيقة أننى لم أكن أتوقع أن يأتى اليوم الذى أسمع منك فيه هذا الكلام» أجابها منفعلاً.

- «وأنا من كنت أعتقد أن لدينا نازياً واحداً وقد مات» هكذا أجابته وقد أصاب الغضب وجنتيها بالاحمرار، وكانت عادت شابة من جديد.

لم يتوقف كوستيس عند هذا، فقد غادر المنزل غاضباً، ودفع الباب من خلفه، مثلما كان يفعل فى كل مرة يكشف فيها خطأه. وبعد خروجه قامت فاطمه بجمع ما تبقى من طعام الإفطار على الصينية النحاسية الضخمة.

* * * * *

عندما خصصت مجلة "لايف" عدد شهر مارس عام ١٩٤٧، لهايكى فويسندال، وقدمت تقريراً مفصلاً عن حياتها المثيرة، وأيضاً عن نشاطها فى المقاومة فى العام الأخير ضد الاحتلال الألمانى، كانت إيفيت هى الوحيدة من بين أهل الإسكندرية التى لم تندesh لما تقرأه. وكان قد مر عام على هروب هايكى عندما تسلمت خطابها من

فلسطين فى نهاية صيف عام ١٩٤٢. لكن حتى ذلك الحين كان من الواضح أنها تكتب لإيفيت بسبب عدم وجود أى شخص آخر يبادلها كتابة الخطابات. أما خطابها الأخير لكوستيس فكتبته فى شهر أغسطس عام ١٩٤٢، والذي كانت قد ألمحت فيه بوضوح إلى احتمال عودتها، لكن موقفه الراض كان كافياً لأن يجعلها لا تلتفت مرة أخرى تجاه أفريقيا. منذ ذلك الحين كان كل تغير ملفت للنظر يعقبه تغير آخر فى حياتها، وكانت تشعر أحياناً بالحاجة للتحدث مع شخص ما عن كل ما تسبب فى تغييرها بهذا الشكل الذى يستحق الإعجاب، بداية من إقامتها فى فندق "الملك داود".

عزيزتى إيفيت:

بعد عام من الصمت الاختياري الذى حاولت من خلاله التأقلم على الحياة فى أرض الوطن دون سندی السكندري، جاءت اللحظة التى أبوح لك فيها بالسر عما يجعلنى أكثر سعادة عن ذى قبل، متحلية بالإيمان وبالثقة فى مستقبل يصعب التنبؤ به، مستقبل غير آمن.

وإذا كان لى أن أروى عن أيامى الأولى فى فلسطين، فأنا مضطرة لأن أبدأ من غرفتى فى فندق "الملك داود" التى أقيمت فيها فى نفس الوقت تقريباً مع ملك اليونان يورغيوس وحكومته فى المنفى. يبدو أن اليونانيين يطاردوننى فى كل مكان! وبالنسبة لسيدة أفسدتها الحياة الرعدة فى منزل آل خراميس فلم يكن مسموحاً لها بشئ أقل من الفندق الفاخر الذى يقيم فيه الكثير من الأثرياء والمشهورين. كان الشعور بالأمان الذى توفره الفنادق الفاخرة فى جميع مدن العالم شيئاً مفقوداً لامرأة منفية مثلى، ولا أخفى عليك كيف أننى فى الأوقات الأولى كنت أفكر فى استبدال جزء كبير من مجوهراتى بما يعادلها من سنوات الإقامة هنا. وفى الحقيقة (دونتها بالفرنسية)، كان لى أو ظننت أن لى حرية الاختيار فى العودة، لكن لم تكن الأمور قد إتضحت تماماً ولم يكن الكثيرون قد عادوا إلى الإسكندرية بعد. وعندما صرح لى كوستيس بأنه "لا سبيل لعودتى مرة أخرى" (دونتها باللغة بالفرنسية)، وهو ما ذكره لى حينئذ حرفياً، اعتبرت أنه يمنحنى القدرة على فعل ما كنت أريد فعله حقاً، ولذلك بادرت باقتناص الفرصة.

وبعيداً عن أفق البشر العاديين فى الجليل وفى سارون وفى الوديان، يوجد فتيان وفتيات أوربيات، صغار وكبار، يتطلعون اليوم لتحقيق حلم حياتهم، ينحنون على الأرض ويلمسونها بأيديهم، يتعلمون فن السلام والحرب أيضاً، يقرأون الشعر والفلسفة، يعزفون الموسيقى، يعشقون ويحلمون، ينقشون بأيديهم نشأة مجتمع المستوطنات.

الواقع أننى لا أكتب لك اليوم من فندق " الملك داود"، ولكن من واحدة من المستوطنات، (كفار جالاندى، التى تقع فى الشمال، إذا كنت قد سمعت عنها)، وأنا مدينة بذلك لاثنتين من الجنود الذين تعرفت إليهما بالمصادفة أثناء جولاتى فى المدينة مثل المعابد اليهودية، حائط المبكى، وكل ما هو طبيعى بالنسبة ليهودى، وبالنسبة (دونتها بالفرنسية) لا بد أن تعرفى أن الغالية هنا ليسوا متدينين، فهم لا يذهبون للمعبد سوى فى "يوم كيبور" (عيد الغفران)، كما يذهبون أحياناً فى "سيمحاتورا" (يوم عاشوراء)، وهناك من اليهود من يضىء شمعة مساء كل سبت. أما هذان الجنديان فهما من الرواد، حيث كانا من أوائل الناس الذين أينوا الحياة الرهبانية على أرض فلسطين. وكانت مناقشتها معى سبباً فى أن تتفتح عيني على أمور كثيرة. هنا نقوم بإنشاء وطن من بدايته، حيث يوضع نظام للناس، ويتم تخطيط مجتمع جديد، تعرف فيه جمال المكان، وشعباً من المحاربين العباقرة المستعدين للرد على نيران العرب الهمج.

أنا على يقين من أنك لن تتعرفى إلى ذلك المخلوق الجديد الذى تحولت إليه مدام خاراميس، تلك المرأة الرقيقة القادمة من الإسكندرية. فساعات طويلة تحت الشمس تحول الألباستر إلى نحاس. والأيدى الناعمة الرقيقة تصيبها الخشونة من العمل فى المزارع. حتى مجرد جمع الفاكهة يعد من الأعمال المرهقة بالنسبة لعارضة أزياء سابقة بشانيل. يأتى عليك المساء وقد أصابك الإعياء الشديد، لكن هذا التعب اللذيذ يمدنى بالطاقة وبالعود لليوم التالى. هكذا يتم الشفاء بفضل الأعمال اليومية المعتادة التى تعطى لروحك الهناء وتقتل السأم.

أعيش حياة حقيقية دون قيود. تعلمت أن أتحمل الوحدة والعمل الشاق، والحياة في المزارع وفي العراء، لكن حتى ذلك لا يكفيني. ففي مكان بعيد في أوروبا، يوجد عالم حقيقي مصنوع من طين التشدد والخداع الاجتماعي. وحوش بشرية ترتدى أزياء خضراء داكنة وتضع الصليب المعقوف يهددون جنسنا. أما نحن فماذا نفعل؟ نتدرب. نتحول إلى آلهة وربات حرب حاليين، وسوف نرد عليهم، سنطير فوق السحب السوداء للقارة المحتلة لنضئ شعلة المقاومة في جميع أرجائها. فالغد ملك لكل من يحلم به. يحيا الغد!

وبالعودة إلى هذا الخطاب بعد أربعة أعوام، استطاعت إيفيت أن تكتشف كل هذه المعلومات التي جعلت من هايكي، حسب كاتب المقال في مجلة "لايف"، "بطلة حقيقية" (بونها بالإنجليزية) لحرب حقيقية. بدأ المقال برحلة صعود أمها، راشيل فويسندال، البطولية في موجة الهجرة في سبتمبر ١٩٤٠. كانت راشيل تنتمي إلى تلك المجموعة الصغيرة من المهاجرين التي بدأت في فجر يوم السادس والعشرين من شهر سبتمبر رحلة صعودها البطولية إلى المعسكر الحدودي عند "بورت بو"، حتى تم إبلاغها بعد مسيرة اثنتي عشرة ساعة أن الحدود الفرنسية الإسبانية قد تم إغلاقها. وقد أدى انتحار واحد من رفاقها، يدعى فالتر بنيامين، إلى إنقاذ حياتها في ذلك الحين عندما قررت السلطات الحدودية تحت وطأة اندهاشها من هذا الحدث أن تفتح لهم الحدود لعبور إسبانيا. وبعد أربعة أعوام، في ربيع عام ١٩٤٤، اتبعت الابنة نفس طريق الهروب، في محاولة منها للنجاة من النازيين الذين كانوا يبحثون عنها في فرنسا. تدريب في "الكيبوتس" (ذكرها بالعبرية ودونها بحروف يونانية) (المعسكرات) في فلسطين على حرب العصابات وعمليات التخريب، وكانت قد قفزت بالمظلة فوق فرنسا المحتلة من أجل إعداد بعض الفرق اليهودية للمقاومة قبل أن يبحروا جميعاً بالباخرة نورماندى. وكان عبورها الحدود الإسبانية حافزاً جعلها تحترق شوقاً للقاء أمها. لكنها لم تتمكن من ذلك، لأنها عندما وصلت إلى نقطة الالتقاء المحددة، علمت أن أمها قد ماتت منذ أسبوع مضى بسبب إصابتها بالتهاب رئوي. عادت هايكي مرة أخرى إلى

فلسطين وتفرغت للموسيقى ولفكرة الوطن اليهودى. ولكى تقوم بالدعاية للتطلعات الصهيونية، كانت تقيم العديد من حفلات العزف على البيانو فى كل بلدان العالم. لم تكن أصابعها السحرية قد فقدت مرونتها، واستطاعت أن تمتع عشاق موسيقى باخ وليشت وشوبان ورحمانينوف، تلك الأصابع التى كانت تستطيع فى نفس الوقت وبكل مهارة أن تستخدم الأسلحة النارية والقنابل اليدوية ضد النازيين. لقد تعلم هذا الجسد الذى لا يزال يحتفظ برقته كيف يسبح فى الهواء، ثم يهبط إلى أرض معادية مستخدماً الباراشوت. هاتان العينان اللتان سحرتا الرجال والنساء، واللذان كانتا فى بعض الأحيان هائميتين من تأثير الخمر، أصبحتا الآن صافيتين كالأحجار الكريمة، تشعان بالنور والقوة، وتملآن بإشعاعها غلاف المجلة.

لقد أحست ذافنى أيضاً بتلك الحيوية التى تشع من هاتين العينين. واستطاعت بخبرتها، وقد بلغت السبعين من عمرها، أن تقرأ فيهما خطوة بخطوة تلك الرحلة المثيرة لزوجبة ابنها المطاردة، وشعرت بداخلها بإعجاب لم تستطع البوح به، ذلك الإعجاب الذى نشأ فى فترة إقامتهم معاً - جدة وأم وحفيدة - فى جناح فندق "الملك داوود". كانت هايكى تشبه الحيوان المفترس داخل قفصه. وقد أصرت - كنموذج لفلسفتها الجديدة - على رد المجوهرات التى كانت قد أخذتها معها أثناء هروبها إلى كوستيس. لكن حماتها لم تقبل بذلك، قائلة: «احتفظى بها، فأنا على يقين من أنها ستستخدم فى شىء مفيد. فربما بهذا العمل تنال روح ماخوس المغفرة». كانت أيام السلام جميلة، قبل أن تبدأ فى عام ١٩٤٨، حرب جديدة، تلك التى شارك فيها الجيش المصرى مع القوات العربية ضد دولة إسرائيل حديثة التأسيس.

للمرة الثانية يتم وضع هايكى فى مصاف الأبطال، وكانت صورتها وهى تركب إحدى المدرعات قد تداولتها صحف العالم من جديد فى رأس السنه لعام ١٩٥٠. أما فى مصر فقد أصبحت من الأعداء، ووصفتها الصحف العربية بأسوأ الصفات، ولأن الطباع السيئة ليس لها حدود، كتب أحد الصحفيين المصريين بعد عدة أيام قائلاً: "لا تتزوجوا من اليهوديات أبداً، فسوف تضطرون لطردهن فى يوم ما، وربما تدركون

عندئذ أنكم قد أدخلتم فى بيوتكم عدواً قاتلاً للبلد الذى يستضيفكم، عندها أين ستخفون وجوهكم من الخجل؟».

عندما قرأ كوستيس ذلك شعر بغصة فى حلقه، وعلى الرغم من أنه حل رابطة عنقه بقدر المستطاع، إلا أن شعوره بالإختناق لازمه طوال اليوم. عاد إلى البيت فى وقت متأخر من المساء وهو يتأبط الصحيفة، مدركاً أن أمه وابنته ستكونان فى انتظاره كالمتعاد ليتناولوا معاً طعام العشاء. كان يشعر بعصبية غير مألوفة. لم تكن ابنته عند الباب فى استقباله، وبدت له الإضاءة بالمنزل شديدة. كان كل شىء يزججه، حتى عطر والدته التى بادرت به قولها:

ذافنى: «ماذا حل بك، هل انزعجت من رائحة عطر والدتك بعد كل تلك السنوات؟».

كوستيس: «أين ابنتى؟» سألها ببرود.

ذافنى: «صعدت لبعض الوقت إلى الطابق العلوى. سأرسل الفتيات ليستدعونها. لكن ماذا حل بك؟ فوجهك يبدو مصفراً كاليمونة. "ما الذى حدث لك!" (قالت ذلك بالفرنسية)».

أطل كوستيس برأسه من الباب ليتأكد من عدم اقتراب ابنته وبدلاً من أن يجيبها، ألقى بالصحيفة فوق مائدة الطعام وصاح بحدة: «لا أريد أن يتحدث أحد هنا عن هذه اليهودية الفاجرة». نظرت إليه والدته بدهشة، لكنها لم تقل شيئاً. فى تلك الأثناء، أدخل كوستيس أصابعه فى شعره وكأنه على وشك أن يقتلعها من جذورها، ثم ألقى بنفسه فوق أحد المقاعد. بدأت والدته تحرك الهواء أمامه بالجريدة التى كان قد ألقاها على المائدة. وأخذت تنادى قائلة: «كوستيس!»، «ذافنى»، «كوستيس!»، «فاطمة!»، «أيتها الفتيات!». فى النهاية لم تكن تدرى ماذا تقول. لقد فقدت صوابها تماماً. أسرعت بالاتصال بالطبيب، ستيفانوس. كان صوت الجدة يسمع من غرفة الطعام وكانت الطفلة ذافنى تصيح: «أبى! أبى!». أسرعت واحدة من الفتيات تجرى وفى يدها كوب من الماء. لقد ذكر هذا المشهد ذافنى بحالة الإغماء التى كانت تنتاب خاريتومينى منذ تسع

سنوات عندما سمعت بغزو الألمان لليونان، وحينئذ قاموا باستدعاء الطبيب ستيفانوس،
ويسبب خبرته بهذه الحالة كان هادئاً وأعطاهما حقنة مهدئة. لكنه الآن في حالة
كوستيس، لم يكن بنفس الهدوء.

- «إن ابنك في سن خطيرة، مدام ذافنى، ولا بد أن يكون حريضاً». قال ذلك وهو
يغادر المنزل.

- «أتقول لى ذلك؟».

- «لقد شرحت له مدى خطورة الموقف، لكن لا ضرر من أن تعرفى أنت أيضاً لابد
أن يبتعد عن التوتر والقلق، وأن يستريح. المطلوب هو الهدوء والراحة التامة».

- «الكلام سهل (قالتها بالفرنسية)، لكنك تعرف كوستيس».

- «بالطبع أعرفه، ولهذا أقول لك ذلك. لو استمرت الضغوط. سوف نضطر لنقله
إلى مستشفى كوتسيكيو بلا تردد. فلم نعد شباباً، يا مدام ذافنى».

كان بإمكانها أن تتقبل ذلك من أى شخص آخر عدا ستيفانوس، حتى لو كان
قد مر زمن طويل منذ أن ظهر فى الإسكندرية لأول مرة، وهو شاب وطبيب لامع بعد أن
درس فى ألمانيا. قد ننسى أشخاصاً بعينهم، فى السنوات الماضية، على الرغم من أنهم
لا يفارقونا ويكبرون معنا.

- «كم عاماً يعرف كل منا الآخر، يا ستيفانوس؟» هكذا فكرت أن تسأله فجأة.

- «لم أعد أذكر، مدام ذافنى. لكن لابد أنها قد تخطت الثلاثين عاماً» هكذا
أجابها وهو يثبت نظارته فوق أنفه.

- «اعلم إذن أنك ملاكنا الحارس، تتابع أمراضنا، صغراً وكباراً. أشكرك على
كل ما قمت به من أجلنا طوال تلك السنين». قالت ذافنى ذلك ويدون قصد
دمعت عيناها.

- «ماذا هناك، مدام ذافنى، ما الذى أصابك الليلة؟ كفى أحزاناً. هيا لتستريحى ودعيني أرحل، فالبرد قارس. سأتصل بك فى الصباح. وكما اتفقنا، أخبرى كوستيس أن يحرص على نفسه. فلم نعد شباباً».

كانت ذافنى تتابعه وهو يتجه ناحية البوابة المعدنية، وقد أدركت ما الذى يعنيه.

لقد حان الوقت إذن لكى تسمع ذلك. فلم يعد ابنها شاباً بعد أن بلغ الخمسين من عمره، وبسبب سوء صحته لم يعد له الحق فى أن يفعل تجاه أى شىء. أخذت ذافنى الجريدة بين يديها لكى ترى بعينها سبب ما حدث، لكنها لم تتمكن من قراءة المقال المشنوم، فقد كانت الكلمات المكتوبة باللغة العربية تصيبها بالإعياء. ما الفائدة إذن؟ نادت على فاطمة لكى ترفع الطعام، فلم تعد هناك شهية لأحد فى ذلك المساء. تساءلت عن عدد الفتيات اللاتى يحملن اسم فاطمة وقمن بالعمل فى هذا المنزل، تلك الوجوه المخزية التى كانت تسرقك تحت بصرك، وبمرور السنوات كانت ذافنى تتظاهر بأنها لا تعرف. فقد كانوا، على أية حال يسرقون أشياء عديمة القيمة. لم تمتد أيديهن أبداً لسرقة شىء ثمين. وربما كان ذلك نوعاً من الإصلاح تجاه تصرفاتهن الوضيعة. كانت وجوههن تلمع من فرط إحساسهن بالرضا فى كل مرة يخدعنها فيها أو يظنون أنهن قد تمكن من ذلك، الأمر الذى كان يثير إعجابها. فقد كانت ذافنى، على أية حال، تعلم ما الذى يعنيه أن يقع شخص ما أسيراً لمرض السرقة.

ربما كانت المربيات أفضل حالاً منهن؟ عندما رحلت ميس جابى فى المرة الأخيرة مع أخيها، استولت خلسة على تمثال صغير - وكان مزيفاً لحسن حظ ذافنى - لكنها اعتقدت أنه يساوى ثروة. أما ميس جين، تلك الشابة الإنجليزية البدينة التى كانت تضحك وتصيح مع ذافنى الصغيرة، فقد اختفت فجأة بعد وفاة ماخوس بقليل، وقد ألح خورى إلى احتمال أنها كانت عميلة للإنجليز، "العميل المزروع" (قالها بالإنجليزية)، كما تم وصف العائلة بأنهم من مؤيدي النازية. وربما كانت ميس جين هى أول من أباط اللثام عن جريمة قتل ابنها.

أمام نموذج كهذا، فقد كانت الخادמות المصريات السارققات جديرات بثقة أكبر، وبخاصة فاطمة، التي كان كوستيس يطلق عليها اسم، فاطمة الخامسة، إنها كنز حقيقي. فعندما حضرت فاطمة لأول مرة من دمنهور عام ١٩٢٩، كانت طفلة صغيرة، أما الآن وبعد مرور أحد عشر عاماً فقد أصبحت شابة، لم تكن من الخادמות الثرثرات الماكرات، ولذلك كانت ذافنى تفضلها عن باقى الخادمات.

"ربما تكون فاطمة هى آخر خادمات العائلة"، هذا ما جال بخاطر ذافنى وأحست بالعرب. ويبدو أن الطبيب كان محقاً، فقد أصابها مرض ابنها المفاجئ بحالة من الذعر. أين ذهبت ثقتها بنفسها؟ هل تخلت عنها مثلما تخلت عنها مجموعتها الأثرية؟ لم يكن من الضروري أن تستجيب للكلام كوستيس، فقد كان إهداؤها الإجبارى لمجموعتها من الآثار الفرعونية للحكومة المصرية بمثابة إشهار بإفلاسها. لقد حرمت فجأة من ثروتها الفنية التي كان بإمكانها أن تحولها لنقود سائلة قد تحتاجها فى أوقات الشدة، تماماً مثلما فعلت لتدعيم وطنها أثناء الحرب. كان الاستقرار فى الإسكندرية أمراً غير مؤكد. فقد شاهدت أسراً كثيرة فى الإسكندرية تغرق بين ليلة وضحاها فى مستنقع الدمار الاقتصادى. يكفى أن يموت أحد أو أن يصاب بالعجز أو بعدم القدرة على إيجاد حلول بديلة، وعندئذ تذهب مشقة ثمانية عشر عاماً هباء. وإذا ما أصيب ابنها، لا قدر الله، بمكروه فمن ستكون لديه القدرة على إدارة المصنع؟ قد تصبح ذافنى الصغيرة - بلا شك - امتداداً للعائلة، فقد أعادت دورة الحياة لمنزلهم فى شارع العباسيين، ولكن هذا هو كل ما فى الأمر. كان المصنع الذى يقع بالمحمودية بمخازنه وفروعه فى مصر كلها يشبه الماكينة المعقدة ذات التروس المتشابكة، وكانت ذافنى تكن إعجاباً خفياً لزوجها ولابنها من بعده لأنهما تمكنا، كل بطريقته، من إدارته ببراعة. فمثل هؤلاء البشر لا يقف أمامهم عائق فى سبيل تحقيق أهدافهم.

"لماذا كانت هايكى يهودية؟" هكذا حدثتها نفسها. لكنها أسرعرت تصحيح نفسها بقولها: "ما هذه التفاهات". وعندئذ استحضرتها فى ذهنها، وهى مرهقة بعد نهاية يوم عمل فى الكيبوتس (المعسكر)، فخورة، مبتسمة، واثقة فى نفسها. لكن ذافنى لم تكن

تشك في أن الرجل الذي أحبته هايكى يوماً، ورأته يكبر بجوارها قد أصبح على حافة الانهيار، ولذلك فقد كانت تلغنها لهذا السبب. سمعت ذافنى حفيدتها وهي تقول لها:

«هايا يا جدتى، لقد نام أبى. هيا لكى تستريحى أنت أيضاً» وعندئذ تأبطت ذافنى ذراعها وصعدا السلم. حاولت أن ترفض فى البداية مساعدتها، وعلى غير المعتاد. حيث كانت ترى أنها لم تكن بحاجة لمساندة أحد، لكنها فكرت فى أنه ليس من الصواب أن تجرح مشاعر حفيدتها الحبيبة ذافنى. ولذلك فقد استسلمت لها، وهى تهمس: «هايا بنا إذن يا بنيّتى». وفى تلك اللحظة أحسّت بالإرهاق وحاولت مقاومته فى ذلك الوقت بضراوة، إلا أنه كان يسيطر على كل جزء فى جسدها. ولم يكن ذلك هو الإرهاق اليومى المعتاد، ولكنه تعب السنين، فقد حل عليها التعب الجميل الذى لا يقاوم.

لقد صرتُ عجوزاً إذن! هكذا كانت تفكر وهى تعبر الرواق وتقترب من السلم الرخامى. شاهدت الكلب الصغير فريكسوس وهو نائم على الكنبه الصغيرة فى غرفة المعيشة. ولم تكن لديه القدرة حتى على تحريك ذيله، ربما بسبب مطاردته للقطط طوال اليوم.

«كل شىء يكبر هنا» قالت ذلك وهى تهمس بيأس، فقد رأت فجأة رؤية وكأن الفيلاء خاوية والحديقة مهملة والتماثيل محطمة. هل كان ذلك مجرد خيال أحقق أم كان توقعاً لمستقبل مخيف أت؟

* * * * *

«فى حرب ١٩٤٨، كان جمال عبد الناصر يخدم فى إحدى كتائب الجيش المصرى الثلاث التى كان يحاصرها الإسرائيليون منذ أسابيع عند الفالوجا» هكذا كان إلياس خورى يقول عندما يسأله عن رأيه فى الزعيم المصرى فى بداية الخمسينيات. أما عن باقى الأمور فقد كان يترك الإجابة عنها لنظراته الحزينة وهو يتطلع إلى منزل صامويل عظيمان المطلق الذى كان يقع فى حى رشدى. ويبدو أنه قد نسى أنهما منذ منتصف العشرينيات وهما ينهشان بعضهما بعضاً حول القضية الفلسطينية، والآن

أحس فجأة بالألم تجاه حديقة المنزل المهمة والنافذتين شبه المفتوحتين فى الطابق الأرضى التى لم يهتم أحد من الخدم - كما كان ينبغى - أن يغلقها بعد أن وضع قفلاً ضخماً على الباب الحديدى بالخارج.

فى كثير من الأحيان، كان بعض اللبنانيين من أهل الإسكندرية القديمه يتحدثون عن الملك المخلوع، إلا أن إلياس كان يفاجئهم بقوله:

إلياس: «أتذكر (قال ذلك بالفرنسية)، أنه فى يوم حار من أيام الصيف تم نفى فاروق الفاسد العاجز لقد جمع ما استطاع جمعه، واستقل مركب "المحروسة" (قالها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) واختفى».

إيفيت: «لم تكن فى جانب فاروق، ولست فى جانب عبد الناصر، فى جانب من أنت؟» هكذا سألت إيفيت ذات مرة.

- «أنا فى جانب الإسكندرية».

- «لقد كبرت، يا عزيزى اللبناني، ولا تدرى ما تقول».

- «أنا لم أكبر، لكن المدينة هى التى كبرت».

هكذا قال إلياس بإصرار رغم أن ملامحه قد بدت عكس ذلك. فبشرة وجهه البيضاء الملساء التى تشبه الخبز اللبنانى تحولت إلى اللون الداكن، وكان الزمن قد غير من لونها. وملأت التجاعيد وجهه ورقبته وجبهته وحول عينيه. لقد ترك الشاب المتأنق من العشرينيات والثلاثينيات مكانه لرجل غامض يرفض أن يصير عجوزاً، وكان يستخدم عكازه المصنوع من خشب الأبنوس ذى المقيض الفضى وكأنه رمز للعظمة والحكمة.

أما إيفيت فكانت تصب عليه أحياناً اللعنات قائلة:

«أيها العجوز الوغد! (قالت ذلك بالفرنسية) أخبرنى بالله عليك، ما الذى فعلته لك حتى تهدر حياتى فى هذه المدينة اللعينة؟» هكذا كانت تصيح وهى تضم قبضة يدها وكأنها ستلكمه فى كتفيه.

عندئذ كان يمسك بيدها، ويفتح كفيها ثم يقبلهما وهو يربت عليهما بيديه قائلاً:

«اهدئي، يا عزيزتي (قال ذلك بالفرنسية)، فأنت تعرفين أننا قد خلقنا لهذه المدينة وأن هذه المدينة قد خلقت من أجلنا. أخبريني إذن، فى أى مكان فى العالم يستطيع اثنان من المدعين أمثالنا أن يجدوا لأنفسهم مأوى؟».

جاهدت إيفيت لكى تهرب من رقتة، وألقت بنفسها على أول مقعد وجدته أمامها ومسحت دموعها بكفيها ثم قالت (بالفرنسية) بصوت مرتفع به مسحة من الشباب: «وعود كثيرة، وعود كثيرة».

لكنها فى حقيقة الأمر كانت تعرف أنه ليس لها الحق أن تتذمر، فقد كان هذا الشيطان الصغير الذى أغرقها بالوعود أكثر من ملتزم فى حساباته. فذهب بها إلى حيث تستطيع أن تشبع رغباتها وتجنّى نقوداً وتنهل من السعادة فى مجتمع البحر المتوسط العالمى، كان كثيراً ما يصل إلى قناعة بأن هذه المدينة العالمية لم تكن سوى وعاء يحتضنه، ولم تكن لديه الرغبة فى أن يتركه بين يدي عبد الناصر أو من يشبهه حتى لا يدمره.

وكان يقول لها: «أترين أننى لم أتركك، وظللت إلى جانبك حتى النهاية». وفى الواقع، ليست إيفيت التى لم يتركها. ولكنه لم يترك الإسكندرية. وفى النهاية، أثبت إلياس العجوز أنه أكثر شجاعة من أى الشباب، ففي هذه المرة لم يكن العدو يقف على الأبواب مثل روميل ولكنه دخل إلى المدينة وأخذ يعيث بتاريخها العالمى. حاول "اللبناني" أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، ولكن بلا جدوى. فكان يخسر المعركة تلو الأخرى - حيث قامت السلطة الجديدة بإغلاق بيت البغاء فى شارع مصطفى باشا، وبدأت تطرد بطريقتها نبلاء الإسكندرية الواحد تلو الآخر - لكن كان يعتقد أنه سوف يخرج فى النهاية منتصراً فى الحرب. عجوز، منهك من حياته المشتتة، يقف فى مواجهة سلطة قوية يقودها رجل صلب، ساحر وعبقري، يصغره بأربعين عاماً. ربما تكون هذه هى الشجاعة.

كان إلياس يعرف أن لديه سلاحاً مهماً في يديه، يجعله قادراً على مقاومة القوة الناصرية التي لا تقهر: وهو حلم كل العرب وعداؤه الشديد للصهيونية. وأمام نقاط القوة تلك، التي لم يكن يتردد في إعلانها أمام الجميع، كان إعجاب الضابط نور به يزداد، ويقول له مؤكداً:

«لا تنس أنك منا، ولا يوجد ما تخشاه».

عندئذ كان إلياس يبتسم ابتسامة غامضة، لكنه بداخل نفسه كان يصب اللعنات على عبد الناصر الذي طالب عام ١٩٥٢، بشنق الملك ثم شارك في عام ١٩٥٤، في الانقلاب على الضابط المعتدل محمد نجيب.

أصرت إيفيت على تكرار سؤالها:

- «في جانب من أنت؟».

- «في هذه السن، لحسن الحظ، لم أعد مضطراً لأن أكون في جانب أحد. ربما لو عدت إلى الثلاثين من عمري مرة أخرى، لأصبحت في الجانب الأمريكي، إنهم إنجليز العصر الحديث».

في البداية كان إلياس يتطلع بقلق تجاه عبد الناصر الذي كان يسير وفقاً لما خطط له. كانت علاقته بالأمريكان ممتازة، على الأقل، طبقاً لما تنشره الصحف بالقاهرة.

«إننا نعيش في عصر الحرب الباردة، ولكن أيضاً في عصر ازدهار هوليوود. رجل مصر الأول، الشاب القوي، يتابع باهتمام السينما الأمريكية. يعجبه بشكل خاص فيلم "حياة عظيمة" للممثل جيمس ستياورت. وبناء على ذلك فقد حرص أصدقاؤه الأمريكيون أن يرسلوا له نسخة خاصة من الفيلم بترجمة عربية».

«لن يستمر هذا الوفاق لمدة طويلة» هكذا تنبأ إلياس. وبالفعل، في السابع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٥٥، وصلت أولى شحنات الأسلحة الروسية التي تسلمها عبد الناصر من خروتشوف.

«إذن، الآن سيواجه المشاكل ابن ساعى البريد الذى يعيش فى باكوس» هكذا علق إلياس وهو يفرك يديه من السعادة.

لقد تعجل نيكيتاس فى إظهار فرحه، معتقداً أن رفاقه من الشيوعيين سوف يخرجون من السجن، لكن "اللبناني" قدم وجهة نظر مناقضة تماماً لكوستيس، حيث قال: «قل لابن خالك أن لا يفرح. فعبد الناصر ليس شيوعياً، الأمر الوحيد الذى قد يحدث هو بعض المحاولات لقتله، والتي، إن كان محظوظاً، سيخرج منها سليماً».

وفى الشهور التالية تعرض عبد الناصر لمحاولات مختلفة لقتله، تارة بالمسدس، وتارة بالسم فى القهوة أو بغاز الأعصاب فى نظام التكييف فى مكتبه. وفى النهاية شاهد "البكباشى ذو العينين النارييتين" حلمه فى بناء السد العالى بأسوان يتهاوى. وفى التاسع عشر من شهر يونيو عام ١٩٥٦، أعلنت أمريكا عن عزمها إلغاء تمويل المشروع.

«حتى يتعلم (قالها بالفرنسية)، هذا ما كان يسعى إليه» قال ذلك اللبنانى متشفياً، فممنذ البداية كان معارضاً لهذا العمل الضخم، وقال: «ده مخ صعيدى (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية). إنه ليس سوى رجل طوله ١,٩٠ سم ووزنه ٩٠ كيلو جراماً، ويفكر فى الاستحواذ على مياه النيل حتى يذكره التاريخ فقط».

إلا أن خصمه لم يقل حتى الآن كلمته الأخيرة. فقبل حلول يوم السادس والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٥٦، بأيام قليلة، أى فى العام الرابع للاحتفال بخلع فاروق عن سدة الحكم، اتصل به الضابط نور، وقال:

نور «سيأتى الكبير لكى يلقى خطاباً فى المنشية. سوف يسعده وجودك، إنه يقدرك بشكل خاص، أنت تعرف ذلك».

إلياس: «أبلغه تحياتى. ولكننى رجل مسن (قالها بالفرنسية) لا أحتمل مثل هذه الأمور. وسوف تأتى الأمة العربية كلها لكى تسمعه. هل تخيلنى بينهم كذبابة وقعت فى قدر من اللبن؟ دعك منى، سوف أستمع لخطابه فى الراديو».

نور: «كما تحب» هكذا أجابه الضابط نور (بالفرنسية) بطريقته المضحكة فى الكلام ثم وضع السماعة.

فى هذا الطقس الخائق الذى خلفته رياح الخماسين الحارة، كان ناصر يرتدى بذلته الرمادية، ويقف فى سيارته المكشوفة، محاطاً بحرسه الخاص. كان الموكب يتحرك ببطء فى شوارع الإسكندرية، مستمتعاً برائحة هوائها الزكية المعبأة بروائح الفل والياسمين. كان وسيماً وكأنه نجم سينمائى، ومن خلفه تظهر المساجد والعمارات بالمدينة، يبدو دائماً واثقاً من نفسه وهو يعبر الشوارع المؤدية إلى ميدان محمد على. أما الجماهير فكانت منتشرة فى كل مكان: فى الميادين، فى الشوارع، فى الشرفات، فى المقاهى، الكل يهتف له بحماسة. ومنذ الساعات الأولى من الصباح لم يكن هناك موضع لقدم فى الميدان الكبير: فقد كان البطل العربى له سحره الذى يؤثر فى الجلابية والطربوش والطاقيّة (ذكرها باللغة العربية وبونها بحروف يونانية).

كان نيكيتاس وثاناسيس من بين الأوربيين القلائل الذين نزلوا إلى الشوارع وأصابتها الدهشة من هذه الحشود الغفيرة. وعندئذ صاح ثاناسيس قائلاً:

ثاناسيس: «فى هذه اللحظة، لابد أن عدد المصريين يفوق المليون فى المنشية».

نيكيتاس: «ليس إلى هذا الحد، يا ثاناسيس».

- «إذن كم تعتقد، يا خالى؟».

- «ما يقرب من المائتى ألف على الأكثر».

- «ولماذا مائتى ألف فقط؟».

- «هيا الآن، هل سنهتم بهذا الأمر التافه؟».

يا لهذا العدد من المصريين. لو استيقظ هذا الجمع من الناس، فسوف يقضون علينا، هكذا حدثته نفسه، ثم عاد نيكيتاس بذاكرته إلى الاضطرابات التى حدثت عام ١٩٢١، ثم عاد إلى الوراثة أكثر حتى وصل إلى أحداث هوجة عرابى، تلك

التي كان قد سمع عنها من بعض كبار السن. وعلى غير العادة فقد خلع قبعته وأخذ يلوح بها في الهواء.

في ذلك الوقت كان إلياس قد أغلق على نفسه حجرة مكتبه، في شقته بحي رشدي، ومعه مروحة التي تصدر صريراً منتظماً، وقد أنصت للراديو وهو في حالة من القلق، مرتدياً روباً حريرياً وأخذ ينتظر خطبة عبد الناصر. في ذلك اليوم لم تكن لديه الرغبة في إضاءة الكثير من الأضواء، وكان قد طلب في الصباح من أحمد، الخادم، أن يغلق النوافذ التي تدخل منها الشمس، إلا أن ما تبقى من أشعة الشمس كان يترك انعكاساً برتقالياً على الأثاث الخشبي وعلى جهاز الراديو. كان إلياس يفحص بجسده في المقعد الجلدي ذي المسند الضخم، حتى لم يظهر منه سوى شعره الأبيض. وكان هناك عمود من الدخان يصعد إلى أعلى حتى يصل إلى مروحة السقف، فينتشر في كل مكان. لم تكد السيجارة تنطفئ حتى أشعل غيرها، وكان السعال يلهب حنجرتة. ولم يكن إلياس قد انتهى بعد من شرب الشاي، بينما كان يلتقي العديد من المكالمات الهاتفية من عدد كبير من الأوربيين والبنانيين من أصدقائه، ساعين إلى معرفة رأيه مرة أخرى في هذه اللحظة الحرجة. وفي النهاية أصابه الإرهاق من الإجابة عليهم وقرر أن يرفع سماعة الهاتف.

في تلك الأثناء كان عبد الناصر قد بدأ في إلقاء خطابه من شرفة البورصة أمام هذه الجموع المحتشدة. كانت طبقة صوته تحمل ذلك الرنين العربي الغاضب - هذا الصوت المألوف لمواطني هذا البلد - وكان إلياس يتخيل ذلك المشهد الذي يراه القائد المصري، فقد وقف إلياس في نفس الشرفة مرات عديدة. حيث رسمت أشعة الشمس في ساعات النهار الأخيرة خلفية درامية في الأفق، وانعكست ألوان أشعة الشمس الذهبية على السحب المتناثرة، في حين كان المشهد في الميدان بكل هذه الجلاليل البيضاء والطرايبش الحمراء لا يقل تأثيراً.

كانت سيطرة المتحدث على غضبه واضحة منذ اللحظة الأولى، لكن ذلك لم يكن واضحاً لمن يخاطبهم. كان كل الذين احتشدوا ليستمعوا له ينتظرون شيئاً أكبر من

مجرد حصر الإهانات التي عانى منها الشعب المصرى بسبب الأوربيين فى القرون الأخيرة، وأيضاً من غضب عبد الناصر بخصوص مشروع السد العالى فى أسوان الذى بات مهدداً بأن يظل مجرد حلم. ومن حين لآخر كانت أصوات هتافات الناس الذين تخطوا حدود الميدان الكبير واحتشدوا فى الشوارع المحيطة به، تصله عبر الأثير من خلال الراديو، مرددين فى حماسة: «جمال، جمال». كان هتافاً يهز أرجاء الإسكندرية. ولم يكن جمال عبدالناصر يتوجه بخطابه إلى جمهوره فقط. فقد كان مضطرباً وغامضاً. وكانت هناك أمور أخرى تدور فى عقل الخطيب المتحدث. ربما كان لعاناة السنوات الأخيرة أثر على ثقته فى نفسه، وربما كان رفض البنك الدولى القيام بتمويل بناء السد العالى بمثابة صدمة على كبريائه. وبعد نحو ساعتين من الثثرة التى أصابت الجميع بالسأم. وبينما كان إلياس، الذى كان سعيداً من حضور عبد الناصر الباهت، يستعد لأن يغلق الراديو، رنت فى أذنه جملة محددة قالها جمال: «لقد تخيلت أننى رأيت فيرديناند ديليسبس». عبارة ملقاة بشكل عفوى بين كلماته، ليس لها معنى وغريبة فى نفس الوقت. كان اسم الرجل الذى قام بتصميم قناة السويس يتردد كأنه كلمة سر فى أذن إلياس. وسيطر عليه قلق بالغ. فى النصف ساعة التالية رد عبد الناصر هذا الاسم أربع عشرة مرة. ولم يعد هناك شك! ففى مكان ما بمصر هناك من تلقى كلمة السر من القائد لكى يبدؤوا فى تنفيذ الخطة. لكن من هم هؤلاء، وأين يوجدون؟

بعد دقائق قليلة، كان عبد الناصر قد أجاب عن أسئلة إلياس، مفاجئاً الجميع، عندما صاح فى الجماهير قائلاً: «بعض إخوانكم من المواطنين تولوا الآن السيطرة على قناة السويس» بعد حالة الهياج التى حدثت، احتاج "اللبناني" بضع ثوانٍ حتى يستوعب هذا التصريح الموجز، ثم أخفى وجهه بين راحتي يده وصاح مذعوراً (بالإنجليزية): «يا إلهى».

* * * * *

«لتمت واقفًا وأنت تعمل» هكذا اعتادت أن تقول المرحومة الخالة ماريا، وكان كوستيس يكرر كلماتها في كل مرة كانت أمه أو الطبيب ينصحونه بأن يستريح قليلاً. لكن السيدة ذافنى كانت تؤكد له قائلة (بالفرنسية): «إنها ليست مزحة، وطالما تعمل فلن تدرك أبداً كيف مرت حياتك». وفى الحقيقة فقد مرت حقبة الخمسينيات سريعاً، ولكن لم يكن ولع كوستيس بالعمل فى المصنع هو السبب الوحيد. لقد بلغ هذا العمر بعد أن عاش حياة مديدة بشكل يجعله لا يتعجب من أى شىء، وكان كل الناس يبدون معروفين بالنسبة له، ليس بالضرورى لأنه قد التقى بهم من قبل، ولكن لأن ملامح الناس تبدو له وكأنها تتكرر، ولكن فى وجوه جديدة. هكذا كانت الأيام تمر دون أن يكثر بما يحدث من حوله، إلى أن وصل به الأمر إلى احتساب الوقت بالأسابيع ثم بالشهور ثم بالسنين، حتى بلغ الستين من عمره.

على أية حال فلم يضع النشاط المحموم فى تلك الحقبة هباءً. كانت حركة مميزة تلك التى قام بها الضابط محمد نجيب، قائد الضباط الذين قاموا بالانقلاب العسكرى ضد الملك فاروق، عندما قام فى خريف عام ١٩٥٣، بتحية الملك فى عشاء رسمى بالإسكندرية، قائلاً: «أيها السادة، هذا هو الملك الجديد!». لقد تحولت هذه المزحة إلى حقيقة واقعة اضطر خصومه للاعتراف بها فى نهاية الأربعينيات.

تعد الفترة التى نشبت فيها الحرب هى الفترة التى ازدهرت فيها أعمال كوستيس خاراميس بحصوله على نصيب الأسد لد الجيوش المتحالفة مع القيادة البحرية فى الإسكندرية بالسجائر، وقد توقع كوستيس حينئذ زيادة الطلب على السجائر الإنجليزية والأمريكية فى مصر فى فترة ما بعد الحرب. إنه يتذكر جيداً ما قاله الأدميرال كانيجام فى لقائهما الأخير أيام حركة التمرد فى البحرية الملكية اليونانية: «لا تفكر فى تغيير نكهة السجائر بعد الحرب. حتى لو لم نعد نحن الإنجليز موجودين هنا، وهو بالطبع أمر مستحيل، حيث سنكون قد تركنا إرثاً فى مصر، وهى "التوليفة الإنجليزية للسجائر" (قالها بالإنجليزية)». فى عام ١٩٤٤. وبينما كان كل شىء يشير إلى نهاية الحرب، استغل كوستيس الظروف وقام باستيراد كميات هائلة من التبغ الأمريكى من

نوع "فرجينيا"، فى ذلك الحين قال الجميع إن ابن أندونيس قد أصيب بالجنون، وأنه خلال شهور قليلة، عقب رحيل سفن الحلفاء من الشرق الأوسط، سيقوم وحده بتخزين هذه السجائر ذات النكهة الإنجليزية (ذكرها بالإنجليزية). إلا أن نبوءة السير أندرو كانيجام كانت صادقة، وكان رجل صناعة السجائر اليونانى يشعر بالامتنان له على ذلك.

واستمر الحظ محالفاً لكوستيس، ففي ربيع عام ١٩٥٢، حدثت بينه وبين الدوائر الملكية خلافات، وفضل أن يخسر لقب المورد الرسمى للقصر الملكى بمصر على أن يخسر مبلغاً كبيراً من المال يستحوذ عليه بعض الأشخاص من حاشية الملك فاروق بدلاً من أن يدخل جيبيه. وبعد عدة شهور تم تقدير موقفه هذا من قبل الثوار (الأحرار) واعتبروه رمزاً فى إعادة تشكيل الدولة المصرية. كان ذلك الود الذى أظهره له محمد نجيب قد انعكس على تعاملاته مع خليفته، الضابط عبد الناصر. فى نفس الفترة كانت الماركات الجديدة من السجائر "بيرفكت، مودرن تايمز، ماى بليسير" (ذكرها بالإنجليزية) قد اكتسحت السوق وأخذت تحصد الجوائز الواحدة تلو الأخرى فى جميع المعارض التجارية العالمية.

وفى مصنع المحمودية، قام كوستيس بإنشاء ملحفاً جديداً حتى تتعاون أقسام فصل الألوان مع التعبئة. لقد حول هذا الملحق فى شكل بنائه من حرف T إلى حرف H، وقام محافظ الإسكندرية بافتتاحه فى عام ١٩٥٥، لكن كوستيس، الذى أصبح أكبر رجل صناعة بشكل غير مسبوق فى مصر، كان يشعر بأن مستقبله قد أصبح مجهولاً فى ظل وجود هذه السلطة. ولهذا السبب لم يكن يستمع إلى اعتراضات أصدقائه وشركائه الذين كانوا لا يشاركونه حماسيه فى التطورات الأخيرة، وكان أول هؤلاء هو أندرياس سيستانيس الذى كان يضغط عليه لفترة طويلة لينقل جزءاً كبيراً من نشاط مصنعه إلى خارج مصر، فقدم له عروضاً ورسومات لإنشاء مصنع فى جنوب أفريقيا أو فى دولة إسرائيل حديثة التأسيس، لكن كوستيس رفضها جميعاً دون نقاش.

فى العام التالى تم إجلاء آخر جندى بريطانى عن مصر، لكنهم عادوا بعدها بشهور قليلة رغبة منهم فى الحرب. كانت شائعات قصف الإسكندرية وعملية إنزال

الجنود على شواطئها تتردد بعد إعلان تأميم قناة السويس. وكان الناس يتسألون - ومعهم الحق في ذلك - لماذا غادر الإنجليز مصر طالما أنهم قادرون على العودة مرة أخرى. وفي المصنع ارتبطت مغادرة سيستانيس بمشهد مؤثر. فقد كان الرجل العجوز الذي ينحدر من جزيرة إيبيروس باليونان يصعد السلم الرخاضى - الذى يؤدي للمكاتب- بصعوبة بالغة، حيث باتت سنه ووزنه الزائد يؤثران في قدرته على التنفس، وكانت الحشجة التى يصدرها في كل مرة يصعد فيها السلم تصيب الموظفين بالحنن. ولذلك قام كوستيس بإعفاء مديره من واجباته، عندئذ انتابه شعور بالسعادة، لأنه شعر بالتحرك من آخر ظل لسلطة أبيه. تكفى الشائعات التى أراد سيستانيس لسنوات طويلة أن يحمى بها كوستيس بنفس الطريقة التى كان يتبعها مع أندونيس خاراميس مع أى نوع من المشكلات التجارية. اختار كوستيس مديراً جديداً للمصنع، ووفقاً للمستجدات، كان رجلاً أمريكياً ذا أصول عريقة، وبشرة وردية وشعر أشقر كثيف يرفعه دائماً فوق جبهته، يرتدى الملابس الوقورة، ويملا المصنع بدعاباته وضحكاته. فقد تعاقد في وقت سابق مع المدير العام لشركة إيسستيرن كومبانى (الشركة الشرقية للدخان)، وهى الشركة المنافسة لكوستيس في فترة ما بعد الحرب. وقام كوستيس، كاستعراض للقوة، باقتناصه من بين أيديهم. وكان على دراية كافية بالتكنولوجيا الحديثة، ولذلك فقد كان خير تجسيد للاتجاهات الحديثة لمصانع خاراميس التى استطاع بها مواجهة الأمريكان الأقوياء الذين استقروا في مصر في السنوات الأخيرة.

في تلك الأثناء، تغيرت خطة الغزو الإنجليزي الفرنسي لمصر في آخر لحظة. وعرفت الإسكندرية نوعاً جديداً من الحرب عبر الهواء. عادت المخابى والإعلام وصفارات الإنذار ضد الغارات الجوية من جديد، وقام الغزاة بقصف المطارات ومحطات الوقود حول المدينة. بدأ الهجوم الفعلى من بورسعيد، إلا أن التفاف الشعب المصرى حول عبد الناصر كان جديراً بالإعجاب، كما التحمت الجالية اليونانية أيضاً معهم. ظهر غيراسيموس، ابن شقيق نيكيتاس، في صباح أحد الأيام في مكتب كوستيس وأظهر له، وهو يشعر بالفخر، بطاقته باعتباره عضواً في لجنة "المقاومة الشعبية"

(ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، وقال له: «لن يفلقوا منا يا خالى». تأثر كوستيس بذلك، حتى إنه أعطاه مبلغاً كبيراً من المال "بقشيشاً" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية). كان الأمر حقيقياً، فقد اندست إسرائيل مع الغزاة الأوربيين فى نفس الوقت، مما استدعى فى مخيلته ملامح هايكى، وكان ذلك كافياً بالنسبة له لكى يدين الغزو.

وعلى العكس من ذلك، طار إلياس فرحاً عندما سمع بقيام قوات التحالف بغزو بورسعيد، وقال: «فى أربع وعشرين ساعة سيحتلون السويس، كل شىء سيعود إلى سابق عهده» (قالها بالفرنسية)، هكذا تنبأ إلياس، إلا أن "إيدين" أمر بوقف إطلاق النيران فى منتصف ليلة السادس من شهر نوفمبر، فأخذ "اللبنانى" يشد شعر رأسه قائلاً: «مخلوق غبى» (قال ذلك بالفرنسية)، لو كان تشرشل العجوز فى مكانه، لما فعل هذه الحماقات. الآن انتهى كل شىء».

كان انتصار عبد الناصر السياسى فى أزمة قناة السويس، الذى هلك له كوستيس فرحاً كأنه انتصار شخصى له، يزيد من ثقته بشدة فى دقة قراراته ووجهات نظره. وفى تلك الأثناء، كانت الجالية اليونانية بمصر تمر بأوقات عصيبة، فقد أدى التجاهل الذى تعرض له اليونانيون بشأن ما قدموه للقضية المصرية إلى شعورهم بالإحباط الشديد. ألم يكن المرشدون اليونانيون السبعة هم من بيضوا وجه قائد مصر فى قناة السويس مع زملائهم من المصريين؟ ألم يسارع اليونانيون واليونانيات للتطوع والذهاب إلى مراكز التبرع بالدم للتبرع بدمائهم؟

وكان عدم شعور كوستيس بالألم تجاه هذه المواقف قد أثار تعليقات المواطنين اليونانيين. حتى إن البعض منهم قد عزا ذلك إلى كونه طبعاً متأصلاً فى عائلة خاراميس، وهو ما يظهر فى قولهم: «فالمرحوم أندونيس اعتاد أن ينقذ نفسه دائماً وليذهب العالم للجحيم. إنهم ليسوا منا!». هكذا شكأ أحد المواطنين اليونانيين، ويدعى ماركيزيس، من أصدقاء والده فى اجتماع طارئ للجالية بالإسكندرية. فى الحادى والعشرين من شهر مايو لعام ١٩٥٧، أى فى صباح يوم الاحتفال بعيد ميلاده، تلقى

كوستيس مكالمه هاتفيه من ذيموليتساس، المستشار القانونى للجالية اليونانية، وبعد أن
هناه بعيد ميلاده، طلب منه أن يلتقيه فى اليوم التالى فى المصنع.

كوستيس: «هذا أمر صعب للغاية! (قالها بالفرنسية)، فى الغد سأقوم بوداع
الآنسة جوليا، سكرتيرتى التى عملت بالمصنع لسنوات طويلة، ولك
أن تتخيل أننى قد ورثتها عن أبى. وهى خريجة المدرسة الألمانية،
تتحدث ست لغات... إلخ. لم تتزوج بعد، كما أنها متفانية فى عملها.
وبالطبع تدركون مدى أهمية هذا الموضوع، يا سيد ذيموليتساس».

ذيموليتساس: «نعم، يا سيد خاراميس، نعم، لكن الموضوع الذى نريد أن نراكم
بخصوصه يتسم بأهميته الوطنية».

- «هل سيكون معكم أشخاص كثيرون؟».

- «أنا فقط ومعى رئيس الغرفة التجارية».

- «حسنًا، يوم الثلاثاء صباحًا».

- «كما تشاؤون، يوم الثلاثاء صباحًا، يوم الثلاثاء صباحًا».

وفى اللقاء الذى تم يوم الثلاثاء صباحًا، كان لكل طرف وجهة نظر مختلفة. حيث
كان ذيموليتساس ومعه خريسوفيرجيس يصران على أنهما التقيا بجمال عبد الناصر
آخر غير الذى عرفاه من قبل، يتحصن خلف مكتبه الفخم، لكن كوستيس كان يردد
على مسامعهم دائماً قوله: «أنا رجل أعمال "أيها السادة" (قالها بالإنجليزية)، ولست
رجل سياسة». وكان كوستيس قد أفصح لبعض المقربين منه أنه يعتبر كل ذلك نفاقًا،
وأن الجالية اليونانية كانت تصارع من أجل مصالح الكبار الاقتصادية. ولذلك رفض أن
ينضم إلى الوفد اليونانى الذى قام بزيارة عبد الناصر يوم السادس والعشرين من
شهر مايو، قائلاً:

«أنا لست أسوأ من هؤلاء الذين تعبوا لأنهم يكسبون نقوداً، وفى نفس الوقت
يجمعون العملة الصعبة التى يجدونها لتهريبها عندما يضطرون للرحيل عن هنا،

فلا يتهموننى إذن بأننى محب لنفسى فقط» قال ذلك كوستيس فى حفل العشاء الذى أقيم لوداع " اللبناني " فى " بودرو " فى بداية شهر يونيو.

إلياس: «قل لى إذن (قالها بالفرنسية) أتريد أن تقنعنى بأنك لا تضع نقودك فى حسابات بالخارج؟».

كوستيس: «ولا مليم» (قالها بالعربية ودونها بحروف يونانية)، أؤكد لك ذلك (قالها بالفرنسية)».

عندئذ نظر إليه " اللبناني " وكأنه لا يصدق ما سمعه، ثم علق على ذلك بقوله: «أمر سبى».

تظاهر كوستيس بأنه لم يسمع شيئاً. وفى تلك الأثناء وصلت أطباق الطعام الرئيسة - "سمك فيليه أخضر، وشريحة من لحم هنرى الخامس" (ذكر ذلك باللغة الفرنسية) - بعد ذلك أسرع خورى لتقديم كوستيس للسيدة التى كانت تجلس على الطرف الآخر من المائدة، والتى كانت تعبت طوال الوقت بمشيك حزامها، كانت ترتدى رداءً أسود، ضيقاً، مصنوعاً من الحرير، لا يليق بسنها، مطرّزاً بشريط فضى وبه الكثير من الترتير على الجانب الأيسر، تضع على رأسها قبعة تعلوها ريشة لطائر اللقلق.

- «كوستيس خاراميس، إيفيت شانتون، سأرحل أنا وإيفيت غداً إلى بيروت».

نهض كوستيس من مكانه ليحيى تلك السيدة وقال لها:

«أعتقد أننا نعرف بعضنا بطريقة ما. فانا أتذكرك منذ جنازة أبى».

- «ولكن كيف تتذكر هذا (قالت ذلك بالفرنسية)، لقد مر عشرون عاماً منذ ذلك الحين»، هكذا تسألت إيفيت وبدا صوتها مبجوحاً.

- «واحد وعشرون عاماً بالتحديد، لكن ما الذى يعنيه هذا؟ بعض الناس يظنون فى ذاكرتنا لأسباب مجهولة» قال ذلك كوستيس معقّباً ثم أخرج منديله ومسح به جبهته، ثم استطرّد قائلاً (بالفرنسية) وقد بدت عليه شدة التأثر: «الجو اليوم حار، أليس كذلك؟ فالحر أصبح يضايقنى فى الفترة الأخيرة».

- «إن هذا لأمر غريب.....».

- «ماذا؟».

- «كنت أعرف جيداً والدكم وزوجتكم.....».

- «كانت إيفيت تدير نادى قوات التحالف فى الحرب» هكذا أسرع إلياس بالتوضيح لكى ينحى أندونيس بعيداً عن تلك المناقشة.

- «لقد علمت أن ابنتكم تشبه والدتها، لابد أنها رائعة الجمال بلا شك».

- «نعم هى كذلك» هكذا عقب كوستيس بكلمات مقتضبه. وإذا لم تكن الطريقة التى تحولت بها المناقشة قد أزعجته، لعبّر لها عن رأيه، فلا بد وأنها هى أيضاً كانت جميلة فى صباها: نظرتها الحاملة، جسدها النحيل، خطواتها الرشيقة لابد أنها تخص امرأة لم تنس أبداً كيف كانت رائعة الجمال فى صغرها.

شعر إلياس أنه ليس من الصواب أن تتحول المناقشة لتدور حول هايكى، ووجد الفرصة سانحة ليذكر شيئاً من الأيام الخوالى:

- «غير معقول! (قالها بالفرنسية)، لقد مر أكثر من أربعين عاماً منذ وقع والدك اتفاقه مع الإنجليز لتوريد أول شحنة من السجائر، وقد تم ذلك بالقرب من حانة "دانييل" التى كانت تقدم أفضل أنواع البيرة فى الإسكندرية، التى كانت يستوردها مباشرة من ميونخ. وفى أحد الأيام كنت ماراً من أمامها وشعرت بالرغبة فى النظر بداخل الحانة، فربما استطعت أن أرى ذلك الشاب "البنانى" المندفَع الذى تركته بها منذ سنوات».

- «وماذا حدث؟».

- «ماذا تظن. "أولاً" (قالها بالفرنسية) لم تعد حانة دانييل موجودة، وفى محل الملابس الذى حل مكانها لم يعد هناك مكان لهذا البطل الشاب».

عندئذ انخرط ثلاثتهم فى الضحك، وكانت تلك هى المرة الوحيدة التى يضحك فيها أحد فى تلك الأمسية، ثم ردد إلياس قائلاً بنبرة حزينة، بينما كان يثبت نظارته على أنفه: «أمسيه كهذه تجعل المرء يظن أن شيئاً لم يتغير».

أبدى كوستيس ملاحظة عن ملابس إلياس الأنيقة " فهو دائماً متأنق فى ملبسه" (دونها بالفرنسية). كان هذا الأمر هو أول ما يتحدث عنه الجميع فى المدينة بشأن إلياس، والليلة لن تكون استثناء: بذلة رسمية، نظارة، ساعة جيب بسلسلة فضية وخاتمين فى يده اليمنى، أحدهما كبير بشكل يثير الإعجاب وكأنه عنكبوت ضخّم بحجر كريم لونه أحمر. وفى اللحظات التى يشعر فيها إلياس بالاضطراب كان يطرق بخاتمه برقة على المائدة. فكر كوستيس فى كل ما قدمه الشامى للعائلة وأعتبر أن أقل شيء يمكن أن يفعله هو أن يقول له مجاملاً:

- «كيف تستطيع أن تكون دائماً بهذا الشباب، يا إلياس؟».

- «صدقنى، إنه أمر متعب للغاية. وبخاصة الآن، وقد أصبح لى هذا الجسد العجوز. ثم، ماذا تعتقد، كلما كبر أحد فى العمر فلا بد أن يبتكر أدوات جديدة لمواجهة الشيخوخة. خذ النظارة على سبيل المثال، هل سبق ورأيتنى أرتدى نظارة؟ شيء محزن، لأنها تجعلنى أبو أبلهاً" (قال ذلك بالفرنسية)».

- «بالعكس، أعتقد أنها تضيف عليك بهاءً».

- «يا لك من جنتلمان» (قالها بالفرنسية).

- «لكن لماذا ترحلان وتتركاننا؟» قال ذلك كوستيس معاتباً.

- «نحن لا نرحل، ولكنهم يطردوننا. وربما نكون آخر الرعايا الفرنسيين الذين لا يزالون بالإسكندرية، ثم، لك أن تتخيل أننى فى الأصل لبنانى المنشأ».

- «ألم يرد بخاطرك ماذا سيحدث للإسكندرية بدونك؟».

- «لا تشغل بالك. فعندما رحلت من قبل فى عام ١٩٤٢، تعاملت المدينة بشكل جيد مع روميل. ربما يحدث شىء مماثل الآن»، هكذا أجابه اللبناى متأثراً بهذا الإطراء.

- «أتريدنى أن أصدق أننا بدونك سنصبح بحال أفضل؟».

- «لو أننى فى مكانك لما صدقت ذلك. نصيحتى لك هو أن تقوم ببيع كل ما تملك، وأن ترحل إلى أى بلد بعيداً عن مصر» هكذا نصحه إلياس وهو يثبت نظارته مرة أخرى على أنفه.

- «هذا الحديث مبالغ فيه، يا إلياس، "أليس كذلك؟" (قالها بالفرنسية)».

- «إستمع إلى إلياس العجوز، يا كوستيس، فقد كان والدك يستمع إلى دائماً ولم يخسر أبداً».

- «كان كذلك بالفعل، كان كذلك. ولكنى أحاول طوال الوقت أن أتذكر أى ممثل تشبهون. هل قال أحد لكم من قبل إنكم تشبهون الممثل لورنس أوليفيه؟».

- «هذه أول مرة يذكر لى أحد هذا الأمر، أؤكد لكم ذلك».

- «لكنكم بالفعل تشبهونه. الآن وأنا أفكر فى ذلك، فإن والدكم أيضاً كان يشبه أحد الممثلين، لكنه، بخلافكم، ظل يحتفظ بشاربه حتى النهاية».

أخذ كوستيس يتخيل إلياس وإيفيت ومعهما أباه منذ أربعين عاماً مضت. وبدون أن يقصد تخيل وجود رابطة عاطفية تجمع بين ثلاثتهم. هل كانت عشيقة لأندونيس فى يوم من الأيام؟

- «حقيقة، طوال كل تلك السنين، يا إلياس، لم نتعرف إلى أحد من أقربائك» أبدى كوستيس ملاحظته وكأن ذلك سوف يجيب عن تساؤله السابق.

- «تعالى إلى بيروت وسوف أعرقك على جيش من عائلة خورى. لقد فقدت والدى منذ الصغر، لكن بالنسبة للأعمام والأخوال وأبنائهم وأبناء الإخوة، فهم كثيرون».

- «ستعود مرة أخرى إلى الإسكندرية، أليس كذلك؟»
- «الآن أصبح من المستحيل أن تعود حياتنا لسابق عهدها. على الأقل فقد سارعنا ببيع ممتلكاتنا. وهناك آخرون غادروا وتركوا ثروتهم من خلفهم. حقاً، لم أذكر لك من قبل أن منزل إيفيت يقع فى منطقة لوران. فيلا رائعة، لابد أنها كانت ستعجبك».
- «وكيف واثت فكرة أننى أرغب فى شراء منزل فى ضواحي الإسكندرية؟»
- «هذا أفضل من أن تستأجر شقة صغيرة فى شوتس.....».
- «شقة صغيرة لى أنا؟» هكذا سأل كوستيس متعجباً.
- «فى شوتس، "نعم بالتأكيد" (قالها بالفرنسية)».
- «لابد أنك مخطئ (قالها بالفرنسية) لابد أنك تخلط بينى وبين شخص آخر».
- إلياس: «مخطئ؟ ماذا تقول؟ لقد رأيتك بعينى رأسى وأنت تدخل هناك».
- «أنا؟ هل أنت متأكد؟» (قالها بالفرنسية)».
- «بالتأكيد (قالها بالفرنسية). حتى لو أننى خلطت بينك وبين شخص آخر، هل تظن أن هناك العديد من سيارات الرولنرويس مثل سيارتك بالإسكندرية؟».
- فى تلك اللحظة شعر كوستيس بغصة فى حلقه وبشكل عفوى وضع يده على البابيون الذى يرتديه.
- إيفيت: «كفى، يا إلياس، طالما أن الرجل يؤكد لك أنه لم يستأجر شقة هناك»
- هكذا تدخلت إيفيت فى الحوار، ثم سألته وهى تشعر بالقلق عليه: «لكن ما الذى حل بك؟ (قالت ذلك بالفرنسية)، لماذا اصفر وجهكم فجأة، مسيو كوستيس؟»
- كوستيس: «حقيقة، لست أدري. فأنا أعانى من هذا فى السنوات الأخيرة. ربما يكون الحر هو السبب».

- «هذا احتمال وارد (قالت ذلك بالفرنسية). لكن إذا كنتم تشعرون بذلك كثيراً، ربما كان من الضروري أن تفحصوا قلوبكم».

- «هذا ما يقوله لى الطبيب» أجابها كوستيس ثم جلس مرة أخرى فى مكانه.

بعد عام ١٩٥٧، أصبحت الأصوات التى تنصح كوستيس بالاهتمام بصحته قد تناقصت عما كانت عليه من ذى قبل، وكانت البداية مع السيدة ذافنى. فعندما قرر كوستيس الذهاب مرة أخرى إلى باريس بعد أربعة وعشرين عاماً، لم يكن مقدراً له أن يظل بها أكثر من أربع وعشرين ساعة بعد أن وصله تلغراف عن تردى حالة والدته الصحية ويطلبه بالعودة فوراً إلى الإسكندرية، فى ظروف تشبه كثيراً تلك التى حدثت عام ١٩٣٣، عندما مرض والده. أسرع كوستيس بالعودة على أول طائرة متوجهة إلى الإسكندرية، ليتأكد بمجرد وصوله أن أمه قد فارقت الحياة بالفعل. لقد ماتت أثناء نومها فى واحدة من ليالى شهر أغسطس الحارة المشبعة بالرطوبة، والتى كانت كثيراً ما تشكو منها منذ طفولتها.

أخذت ذافنى خاراميس مكانها فى ضريح العائلة بمقابر الشاطبي وأدرك الجميع أنه قد مر وقت طويل منذ أن رأوا تلك العربة التى تجرها ستة خيول والمقاعد الداكنة والتماثيل الخشبية وغمامات الخيول الذهبية، وكل ما يمكن أن يدل على أن هذه الجنازة لشخص من أفراد الطبقة الراقية. حتى موت الناس لم يعد ينال تقديراً كما كان من قبل. لقد تذكر كوستيس غيرة والدته أثناء جنازة الخالة ماريا، وحاول أن يفعل أقصى ما يستطيع فى النحيب عليها، لكن لم يستطع، فقد بادره الطبيب ستيفانوس بالكثير من الحبوب المهدئة، ثم خطف منه الأضواء بعد ذلك خاله لوكاس الذى بلغ الثمانين من عمره، ولكنه كان يبدو فى صحة جيدة بأهدابه الكثيفة وذلك الفارق المشهور به فى منتصف ما تبقى من شعر أبيض فى رأسه. وصل لوكاس إلى المقابر بسيارته السوداء اللامعة، وكأنه أحد رجال السياسة فى فترة ما بين الحربين الأولى والثانية، مرتدياً بذلته السوداء وقبعته، ممسكاً فى يده بعكاز، وقام بإلقاء الخطبة الجنائزية نيابة عن العائلة، لكنه لم يتحدث عن أخته المتوفاه بل استرسل فى حديث متواصل عن عائلة سينجوس

التي لم يعد أحد يذكرها، وتذكر العداوة بين أنصار فينيزيلوس وأنصار الملك، ودق ناقوس الخطر محذراً من المد الشيوعي، ثم أشار إلى السلطة الحاكمة الجديدة. الأمر الذي دفع الناس للسخرية والضحك مما دفع كوستيس ليطالب من نيكيتاس أن يوقفه. وفي النهاية شد العجوز المخبول على يد ابن أخته وبدلاً من أن يقول له كلمات يواسيه بها، قال له: «تصرف سليم، يا ابن الأخت (قال ذلك بالفرنسية)، أنا ملم بأخبارك. فنحن الاثنان نحافظ على الشعلة اليونانية مضيئة في مصر». بعد ذلك، وكأنه كان يتابع جنازة شخص غريب، غادر المكان على عجل مستنداً على سائقه المصري.

«يا له من مغفل وسيبقى كذلك حتى آخر عمره» قال ذلك نيكيتاس معلقاً ووافقه كل الحضور من أقربائه على ذلك.

وجد كوستيس نفسه في موقف حرج بسبب تصرف خاله، لكن، على العكس من ابنته التي كانت تشعر بغضب شديد، كان يعذره بعض الشيء لأنه ربما ظن أن الجنازات باتت الفرصة الوحيدة التي يجتمع فيها كل أفراد الأسرة بل والجالية اليونانية، وليس من الضروري أن تتحول إلى ساحة من النواح والصراخ.

«إلى اللقاء إذن في جنازة أخرى، أيها الأقارب والأصدقاء»، هكذا حدثت كوستيس نفسه، ثم استكمل قائلاً: «ولكن فقط أتمنى أن لا تكون جنازتي» ثم ضحك بدخله.

كان كوستيس يتذكر الموت كلما التقى إحدى الفتيات اللاتي كان يحضرهن له رجل يدعى عباس من أحد الأحياء المصرية بالمدينة. «إنها أحياء لا يعرف خباياها سوى القليل من الناس، أما الآخرون فيسيرون فقط في الشوارع الرئيسية المضيئة» هكذا كان نيكيتاس يحدثه عن تلك الأحياء عندما كانا صغيرين «إننا نسمى هذه الأحياء بأسماء، يمكنني - لو أردت - أن أذكرها لك اسماً اسماً. إنها أسماء تخص أشخاصاً، ولكن الشيء المهم هو حياتهم الخفية التي تسير ببطء داخل الأسواق القديمة بمحلاتها القليلة والإضاءة التي تنبعث من لمبات الجاز، وهي تنشر ضوءها على الوجوه الشاحبة العابسة. فأولئك الذين يدخلون الشيشة يكادون لا يرونك».

كانت تلك الأحياء - كما يذكر كوستيس - تقع فى مكان ما بالقرب من الأنفوشى وكرموز، وهى مناطق توجد على أطراف الأحياء الأوربية، ولم يكن أى أوربى يجزأ أن يظاً بقدمه هناك. ويعتقد كوستيس أن عباس كان ينتقى له تلك الفتيات من هذه الأحياء ويرسلهن إليه.

ربما لم يندمل جرحه من رحيل هايكى بعد، لكنه طوال تلك السنين كان يجد بعض الراحة فى مداعبة أجساد تلك الفتيات، وفى ارتشاف رحيقهن وإشباع رغبته، الأمر الذى جعله يعود بذاكرته إلى سنوات المراهقة وإلى عمارة كامب شيزار وإلى الفوص فى أحضان عزيزة بخسة الثمن، التى تعلم على يديها ممارسة الحب. أما الآن فكل ما فعله هو استبدال البدروم فى تلك العمارة بشقة جيدة فى شوتس كانت توفر له قدرأ من الراحة والخصوصية. وفى حين غاب نيكيتاس وثق فى عباس، هذا الرجل المصرى الطويل النحيف الساذج، الذى كان عمله فى المصنع مثار سخرية الجميع، ولكن كانت له طريقته فى الدخول إلى الأحياء الشعبية واختيار أجمل الفتيات. لقد جعل كوستيس عباس يقسم بأنه سوف يحفظ سره. «لو نطقت بكلمة واحدة، أيها المسكين، فسوف يقتلك الغفير بسلاحه» هكذا حذره كوستيس وأغلق بذاك فمه للأبد. ولأنه لم يكن هناك من يعرف أى شىء عن هذا الموضوع لسنوات طويلة، ولا حتى ميسا، فقد اعتبر كوستيس نفسه محظوظأ لأنه حين انكشف أمره أمام إلياس - أكبر ثرثار فى الإسكندرية - استطاع أن يقنعه بأنه منزل صيفى يهرب إليه من قيظ الحر.

كان ولع كوستيس بالفتيات الصغيرات قد بدأ منذ الأربعينيات، ولم يكن أمراً يفخر به رجل صناعة الدخان اليونانى، وفى بعض الأحيان كان يحتاج إلى جرعات كبيرة من الخمر أو من الشيشة التى كان عباس يعدها له بشكل جيد، حتى لا يطارده الشعور بالذنب، ثم يعود بعدها إلى حياته اليومية، تلك الحياة المتقشفة تقريبأ، مما جعله يتعجب من نفسه. فى بعض الحالات كان يشعر بقلبه يخفق بطريقة غير طبيعية عند رؤيته لجسده الرياضى تحت شمس الإسكندرية فى المسابقات والعروض الرياضية فى الاستاد الوطنى، فى حين كان يتجاهل نفس هذا الجسد الرياضى وهو يتمدد فوق شواطئ

المدينة الرملية، أو عندما يتصبب عرقاً من ممارسة رياضة التجديف فى الميناء الغربية فى يوم الأحد أثناء فصل الربيع. كان يدرك بداخله أن عشقه الجديد هو بمثابة السم اللذيذ، والذي كان لابد أن يتناوله فى جرعات صغيرة حتى لا يقضى عليه قبل أوانه.

كان نشاطه المصوم فى فترة الخمسينيات نوعاً من محاولة التأقلم مع الموت. وكان كل ما يفعله فى أى مكان يحل به هو تخصيص بعض الوقت للاستماع إلى قلبه، وهو الأمر الذى سيؤدى به حتماً إلى الموت. هكذا تعلم بالتدريج أن يتعرف على صوت قلبه، وأن يحل شفرة لغة نبضاته، حتى وصل إلى إدراك كل تفكير، كل شعور أو تجربة، رابطاً بينها وبين نبض قلبه، الذى مهما بدا متألماً، فإنه يستمر فى إطاعته فى أداء ما عليه من واجبات. تعلم كوستيس كذلك كيف يفرق بين العديد من التغيرات فى التى تطرأ على مشاعره معتمداً على دقات قلبه. فكان يشعر بسعادة غامرة أثناء الاحتفال بكرنفالات الزهور أو احتفالات أول مايو، وبسعادة مختلفة عندما يكون موجوداً فى إحدى حفلات التخرج فى مدرسة أفيروفوس الإعدادية، وسعادة أخرى عندما يعد حقائبه للقيام برحله إلى أوروبا، أو هكذا كان إيقاع دقات قلبه يؤكد له. وكم كان شعوره بالحزن على وفاة أمه مختلفاً عن حزنه عندما يشاهد العرض المسرحى لمسرحية " أجاممنون " للشاعر أيسخيلوس التى قدمتها فرقة ماريكا كوتوبوليس المسرحية فى شهر يوليو من عام ١٩٥١، فى حدائق أنطونياذيس، أو عندما يشاهد أحد أفلام هوليوود الدرامية فى الخمسينيات التى كان يتابعها بانتظام فى دور السينما بالإسكندرية. حتى قلبه كان يستطيع أن يعبر بدقات غير منتظمة عن مشاعره المتضاربة، التى لم تكن تتدرج تحت نوع معين، مشاعر متضاربة كتلك التى يسببها أناس مختلفون، مثل إلياس أو ذكرى أخيه الراحل أو موقفه هو تجاههم: ففى الحالة الأولى كان لزاماً عليه أن يقنع نفسه دائماً بأنه لم يكن ليثق فى إنسان يكن له حباً، وفى الحالة الثانية كان يتذكر شخصاً ما أحبه ولكنه لم يثق فيه يوماً ما.

وإذا ما أراد حقاً أن يشعر بقلبه ينبض بكل قوته، كان عليه أن يتطلع إلى لقاءاته الحميمة عندما كان يلقي بنفسه فى أحضان فتيات عباس الغضة. تلك الفتيات

الجماليات صغيرات السن، نوات الأجساد المشوقة. كان يشعر بأنه قد وقع فى شلال من الأجساد بنية اللون الملفوفة، ذلك اللون الذى يعطى تناقضاً مع الملاءات البيضاء المفرودة. نورا، فريدة، فايضة، نبيلة، صافيناز - كلهن شاركن فى منحه المتعة والنشوة معا. وفى كل مرة يلتقى بهن تختلط دقات قلوبهن بدقات قلبة فتخفق قلوبهم معاً فى تناغم وإبداع، ولكن فى نهاية الأمر لا تتبقي سوى دقة قلب واحد - اللعنة! إنه ليس قلبه(*) وعندئذ كان يسترق السمع وهو يشعر بالغيرة إلى دقات ذلك القلب فى الجسد الآخر كان يفكر متأملاً: هل أموت الآن؟ ليكن إذن، فمثل هذه الميتة الجميلة لم أكن أتخيلها. ولكن فى اللحظة التالية، يبدأ قلبه الضعيف فى الخفقان وفى منحه الحياة من جديد. ولكن إلى متى؟

كان قلب كوستيس يعتصر وهو يرى المدينة تتضاقل من حوله. لقد تحولت الإسكندرية فجأة إلى مدينة مليئة بالأشباح. كان كل شيء يكاد ينفك. «وصل روميل - رجل السلام - ولم يجد معركه مثل العلمين لى توقفه» هكذا كان نيكيتاس يردد محاولاً الحفاظ على هدوئه وسط هذا الذعر الذى يصيب الجميع: فلم يكن أمام مواطنى الجاليات الأجنبية سوى جمع أحلام عمرهم فى صناديق، وأثناء ركوبهم البواخر التى سوف تقلهم إلى منقاهم، بدأوا يلعبون لعبة القط والفأر مع رجال الجمارك المصريين. أصحاب المحلات التجارية ينظرون بلا أمل إلى البضائع وهى تنفد من محلاتهم، موظفون أصبحوا بلا عمل بعد أن تسبب التأميم فى منع توظيف الأجانب، أما عن مأساة العاملين باليومية الذين لم يكن لديهم ما يمكنهم من تغطية نفقات مغادرتهم للبلاد، فحدث ولا حرج. كان البعض يعتمد على ارتباطه بمصير المدينة المجهول، والبعض الآخر يستعد للرحيل من جديد إلى بلد آخر غريب - أستراليا، أمريكا، أى مكان آخر. كانت مصر، أو إن شئت فقل جمهورية عبد الناصر العربية المتحدة، تبدو بالنسبة لليونانيين - المصريين قضية خاسرة. فى تلك اللحظة كانت القنوات الدبلوماسية تحاول جاهدة التحكم فى موجة الهجرة حتى لا تخرج عن السيطرة. تبادل عبد الناصر وكارامانليس وجهات النظر، ولكن يبدو أن كل ذلك كان على سبيل التسلية، حتى رسالة التفاؤل التى أرسلها البطريك الأعلى باثينا أثناء زيارته لمصر كانت محل ريبة.

وقد شارك كوستيس البطريك الأعلى بأثينا فى التفاؤل بشكل مطلق، وصرح قائلاً: «سوف نظل فى حصوننا! تماماً مثلما حدث فى صيف عام ١٩٤٢». عندما أدرك نيكيتاس أن كوستيس لم يقم بتأمين نفسه، حاول مراراً إقناعه بأن الوقت مازال قائماً لكى يفعل ذلك ولكن دون جدوى، وكان يجيبه بقوله:

كوستيس: «لن يرحلنا أحد عن هذا البلد، يا ابن الخالة».

نيكيتاس: «نعم، لا أختلف معك فى ذلك، فهكذا تبدو الأمور حتى الآن. ولكن إبداع بعض النقود فى الخارج لن يضر أحداً، كما أنه ليس من السليم أن تضع كل نقودك فى بنوك عبد الناصر المؤممة، فكر فى ذلك جيداً».

كوستيس: «ولماذا أفعل ذلك، وأنا أقول لك إنه لن يرحلنا أحد عن هذا البلد، سنرحل فقط إذا رحل المصريون عنها». هكذا كان كوستيس يتحدث بثقة زائدة أثارت دهشة نيكيتاس، وكأنه يحلم بمدينة فاضلة تخصه وحده، ولذلك كان يقول: «فى النهاية سيبقى منا الصالحون».

مما جعل نيكيتاس يتساءل: «أمن الممكن أن نكون محظوظين إلى هذه الدرجة؟».

فى تلك الأثناء، ازدادت الشائعات عن اتساع رقعة التأميم فى صيف عام ١٩٦١، وكان البعض يرون أن شهية ناصر للتأميم سوف تهدأ إذا ما حقق أكبر مأربه. بعد منتصف ليلة العشرين من يوليو، كان كوستيس عائداً إلى منزله، وهو يقود سيارته فى شوارع تفوح منها رائحة الياسمين. كانت أشجار النخيل تتمايل فى زهو وهى تحمل ثمارها، وكان بعض النسيم يزيد من تمايلها فتصدر حفيفاً يبدو حزيناً لمن ينصت إليه جيداً. فى تلك الليلة كان اليونانى، صاحب مصانع الدخان، يستمع فقط إلى قلبه الذى كان يدق بهدوء وبانتظام، مانحاً إياه نوعاً من الثقة فى الغد.

كانت السيارة الرولز رويس القديمة التى تشبه سيدة متأنقة من عصر مضى، تتابع السير فى نفس الطريق القديم الذى كان كوستيس يعرفه باسم شارع رشيد، والذى كانت تزعجه تسميته باسم شارع فؤاد، ثم أصبح لزاماً عليه أن يعرف اسمه

الجديد هو "شارع الحرية". هنا، فى داخل أعماق المدينة حيث تصل بالكاد نسمات البحر. كانت طبيعة الكورنيش الرطبة تطف من حرارة الصيف المصرى. وفى كل مرة يقطع فيها كوستيس الطرق التى اعتاد السير فيها ليلاً للتوجه إلى وسط الإسكندرية، كان يلحظ أنها قد فقدت بعضاً من مجدها القديم، وكأن أضواء العالمية قد بدأت تنطفئ الواحدة تلو الأخرى. كانت "الإسكندرية" (ذكرها باللغة العربية وبوئها بحروف يونانية) تتوسع من حوله بسكانها من المصريين. وبالرغم من أن ذلك كان يحزنه، إلا أنه كان على يقين من أن استرجاع الذكريات لن يؤدي به إلى شئ. وأصبح لزاماً عليه أن يحدد لنفسه وجهة نظر محددة فى الأفق الناصرى، وأن يتوقف عن رؤية أشباح الأوربيين والبنانيين الذين يحملون جنسيات أوربية تحوم حوله.

وعندما يبلغ هذا الحد من الأفكار يجد نفسه وقد وصل إلى بوابة المنزل المعدنية الضخمة فى شارع العباسيين، والتى ما زالت تفتح بنفس الطريقة حتى يتمكن صاحب المنزل من الدخول، فخلال الخمسين عاماً الماضية يقف نفس الشخص خلف هذه البوابة، وكأن كل من ماتوا أو غادروا لم يذهبوا بعيداً، لكنهم أصبحوا جزءاً من حياة كاملة، وأصبح كل واحد منهم تمثلاً من تماثيل الحديقة، تلك الحديقة التى خرجت منها الآن ابنته مذعورة وهى تصرخ قائلة:

ذافنى: «أبى! أين كنت؟ لم يتوقف الهاتف عن الرنين طوال الليل، هل تعرف ذلك؟».

كوستيس: «ماذا حدث؟ (قال ذلك بالفرنسية) من الذى يبحث عني؟».

- «بل قل من الذى لا يبحث عنك» هكذا أجابته ذافنى وقد إصطبغ وجهها بحمرة جعلتها تبدو أكثر جمالاً.

- «هل المائدة معدة؟».

- «منذ وقت طويل. فقد أخبرتنى بأنك ستعود فى العاشرة مساءً، وعندما تأخرت أصابنى القلق».

- «العمل، يا فتاتى، إنه العمل الذى لا يسمح لك بالانضباط فى مواعيدك حتى مع ابنتك».

- «لا تشغل بالك (قالتها بالإنجليزية) يا أبى. فابنتك تعرف جيداً طبيعة الأعمال التى تبعدك عنها».

أدرك كوستيس لوهلة المعنى الخفى الذى تعنيه ابنته، لكن ابتسامتها الجميلة جعلته يشعر بالراحة. كان دائماً ما يشعر بتأنيب الضمير لأنه قد احتفظ بهذا المخلوق الجميل فى مدينة تصبح يوماً بعد يوم أكثر تعقيداً. لو أنه لم يستمع إلى كلام المرحومة والدته، لكان قد أرسلها إلى أوربا لدراسة أحد العلوم الحديثة بدلاً من دراسة الآثار فى جامعة فاروق بالإسكندرية لإرضاء شغف جدتها بالآثار، وإصرارها على أن تكون بالقرب منها حتى تموت.

- «هيا إذن لنأكل شيئاً ونحن نتحدث. أنا لست راضياً عن بقائك محبوسة بالمنزل، صدقيني».

- «يا أبى، فى الصيف يقضى الجميع أجمل الأوقات بالإسكندرية، وكذلك فى الشتاء».

هكذا كانت ذافنى تمازحه ثم ضحكت بتلقائية جعلته يتذكر هايكى فى أول سنوات لقائهما. لكنها كانت تذكره بأمرها بشكل أكبر من خلال ذلك الرداء الأبيض القصير المصنوع من القطن الذى كانت ترتديه، بياقته الصغيرة والمنقوش بالعديد من أشكال الزهور، كان ثوباً يتسم بالبساطة والأناقة تماماً مثل نوق أمها.

- «هيا بنا نذهب» (قال ذلك بالفرنسية).

- «وماذا عن المكالمات الهاتفية؟».

- «فلندع ما هو مهم للغد. اطلبى من الفتيات أن يحضرن الطعام».

- «وماذا لو كان الأمر مهماً وعاجلاً؟».

- «وماذا عساه أن يكون هذا الأمر المهم الذى يحدث فى مثل هذا الطقس الحار؟».

- «أتقول لى ذلك؟».

- «على أية حال. هذه الليلة ستكون لك أنت فقط» قال ذلك كوستيس وكان يعنى ما يقول. ففى كل مرة يعود فيها من تلك الشقة المستأجرة فى شوتس تكون لديه شهية مفتوحة لتناول الطعام، لكن ذافنى لم تكن تسمح له بالتهام ما يحلو له.

- «لا يا أبى، ليس كل هذا الطعام، هذا ليس مفيداً لقلبك!».

- «ليس بقلبى شىء. هل أبدوك شرهاً؟ إذن فأنا.... أنا عبد الناصر، انظرى كيف سأقوم بتأميم شركة أخرى فى معدتى» قالها كوستيس ضاحكاً ثم التقط بالشوكة قطعة من الكبد فى الطبق الذى أمامه.

- «لقد أتعبتنى، يا أبى؟ (قالت ذلك بالفرنسية). الناس هنا تخسر أموالها وأنت تستمر فى مزاحك».

- «هكذا كانت الإسكندرية دائماً، يا بنيتى، مدينة المقامرة» (قالها بالإنجليزية)، نقامر بالكثير من المال، نكسب الكثير أو نخسر كل شىء. إنها كالبورصة.....».

- «وبالمناسبة، ما الذى سيحدث للبورصة؟».

- «من السابق لأوانه أن نضع التوقعات. فالإعلان الرسمى يتحدث عن إرجاء العمل فيها لمدة شهرين. هذا ما لدينا».

- «يقولون إن عمل البورصة من الممكن أن يوقف زحف التأمين. أشعر بالقلق يا أبى».

- «تحدثين كأنك رجل أعمال، يا صغيرتى ذافنى، لم تكن دراسة الآثار تناسبك إذن، لكن لا تقلقى. لقد اهتم والدك بكل شىء. حقاً، أريد رأيك فى أمر ما.

منذ وقت وأنا أفكر فى الحصول على الجنسية المصرية. سيكون هذا بمثابة تأمين مهم بالنسبة لنا، كما تفهمين فنحن، فى كل الأحوال، نعيش الآن وسوف نعيش دوماً فى هذا البلد. إنه وطننا الحقيقى. وتسمح لنا القوانين اليونانية بحمل الجنسية المزدوجة. ما رأيك فى ذلك؟».

- «لا أعرف يا أبى، القرار لك. لقد التقيت منذ وقت قريب فى الطريق بمورفو زميلتى من مدرسة أفيروفىوس. وذكرت لى أنهم قد حصلوا على الجنسية المصرية منذ الشتاء الماضى. فأبوها لا يريد أن يخسر فجأة محله الضخم فى شارع شريف».

- «هل تزوجت؟».

- «كيف ذلك! وقد فكرنا فى أن نسجل أنفسنا فى رابطة "ر. ع. أ. ت".

- «وماذا تعنى "ر. ع. أ. ت"؟».

- «رابطة عوانس أفيروفىوس».

- «هذا أمر لا يقبل المزاح (قال ذلك بالفرنسية)، يا ذافنى. لابد أن تتزوجى يوماً ما. أريد أن أطمئن عليك قبل أن أموت».

- «كل شىء فى أوانه. لكننى فى الحقيقة أجد فى مورفو دليلاً صارخاً على العنوسة. لقد بدأنا نشعر بالحنين للمدرسة وهذه ليست علامات طيبة. تذكرنا كيف كنا نسخر من روسيذيس، مدرس الموسيقى. كنت أجلس أمام البيانو وأهمس لها بالنوطة الموسيقية. المسكينة! كانت تتمتع بصوت جميل، لكنها لم تكن ملّمة بأصول النوطة الموسيقية».

- «أنت أيضاً تتمتعين بصوت جميل. لقد ورثته عن أبيك».

- «نعم، ولكن بى أيضاً عرق موسيقى ورثته عن أمى» هكذا أجابته ذافنى ثم صمتت قليلاً وكأنها قالت شيئاً لم يكن ينبغى أن تقوله.

وفجأة، قطع كلامها صوت رنين الهاتف المتواصل بطريقة مستفزة.

- «من ذلك الشقى الذى يتصل فى هذا الوقت من الليل؟» قال ذلك كوستيس لنفسه، وبدلاً من أن ينتظر ليحضروا له الهاتف، فضل الذهاب بنفسه للغرفة المجاورة.

- «أين أنت، يا ابن العمة. فأنا أبحث عنك فى كل مكان منذ المساء».

- «بيزنيس، ماذا بك يا نيكيتاس؟ لماذا أسمعك تتحدث بهذه الطريقة؟» هكذا سألته بصوت يغلبه النعاس.

- «لماذا تسمعننى أتحديث بهذه الطريقة؟ ألم تصلك أنباء ما حدث؟ لقد ذاع الخبر فى المدينة كلها».

- «ماذا تعنى؟».

- «لقد عقد على صبرى الليلة مؤتمراً صحفياً. أين أنت؟ لقد قاموا بتأميم كل شىء حتى الأحجار فى الشوارع».

- «أنك تبالغ (قالها بالفرنسية)، بالطبع كانت هناك بعض عمليات التأميم المتوقعة بعد إغلاق البورصة؟ ولا داعى للذعر» (قال ذلك بالفرنسية).

- «ماذا تعنى "بلا داعى للذعر" (قال ذلك بالفرنسية)، لقد قاموا بتأميم مصنع عشيقتك الأولى».

- «جيهان؟».

- «من أولى الشركات التى تم تأميمها مصنع ورق يوسف عبد المسيح، أليس هذا هو؟».

- «نعم».

- «المسكينة».

إذن فقد تم تأميم مصنع ابن جيهان ، هذا ما دار بذهن كوستيس، ثم تذكر رغبتها العارمة فى أن ترى الأوربيين وقد رحلوا يوماً ما عن مصر. لو أنها ترى الآن ما يحدث من مرقدھا، كيف سيكون رأيھا فى كل ما يحدث؟

- «هل سمعت أسماء أخرى؟».

- «هناك الكثيرون. يقولون بأنهم قد قاموا بتأميم الإسكندرية بأسرها. قد تدخل الحكومة فى بعض الشركات بوصفھا شريكاً. لكنك تعرف أنهم يفعلون ذلك من أجل خاطر الناس، وهذا لن يغير من الأمر شيئاً».

- «لهذا كان جرس الهاتف يرن طوال المساء».

- «لقد اتصلت بك ما يقرب من عشر مرات. فى المنزل وفى المصنع. لكن أين كنت، يا ابن العمة؟».

- «بيزنيس، يا نيكيتاس، بيزنيس. دعك الآن من هذا، انتظر حتى يطلع النهار وسوف نعاود الحديث».

أغلق التليفون، لكن قلبه بدأ يدق بقوة وبسرعة، كأنه أراد فجأة أن يقفز من بين ضلوعه. لقد تمكن نيكيتاس من أن ينقل له إحساسه بالقلق، وكان لزاماً على كوستيس أن يستعيد هدوءه من جديد. عاد إلى المائدة وهو يجرد قدميه، ثم جلس وهو يصيح:

«أريد شراباً، أريد شراباً بالصودا».

ذاقنى: «ما الذى حدث، يا أبى، من الذى كان يحدثك فى الهاتف؟» هكذا سألته وهى فى شدة القلق.

- «شخص ما أراد أن يفسد على متعتى. لا تعيريه اهتماماً وأحضرى لى كأساً، ثم قومى بعزف مقطوعة جميلة على البيانو من أجل أبيك».

- «أبى، إنك تخيفنى».

- «الشراب، يا ذافنى الشراب فى كأسى الملكية، ثم اعزفى لى شيئاً من موسيقى ليشت».

- «ليشت؟».

- «نعم، الأنشودة المجرية الثانية، إنها المفضلة لدى كما تعرفين».

- «بمفتاح دو ذى النغمة الحادة؟».

- «نعم، بمفتاح دو ذى النغمة الحادة».

جلست ذافنى أمام البيانو القديم الألمانى الصنع من ماركة ماكس بيكير، الذى سطرت ألعانه تاريخاً موسيقياً لهذه العائلة، وقد تلونت أصابعه من كثرة الأيادى التى لامسته. بدأت ذافنى تتحسس بأصابعها لوحة المفاتيح فى البداية وكأنها تريد أن توقيظ أصابع البيانو من سباتها، بعد ذلك، بدأت فى العزف وكأن أصابع يدها تتحرك منفصلة عن باقى جسدها. لم تنظر أبداً إلى النوتة الموسيقية وكان لأصابعها ذاكرتها الخاصة بها. منذ بداية "الحن" (ذكرها بالإيطالية) الهادئة حتى "نهايته الصاخبة" (ذكرها بالإيطالية)، كانت الألحان تنساب بمزيج من السعادة والحزن معاً، استطاعت من خلالها أن تدغغ مشاعره. وفى الدقائق الإحدى عشرة التى استغرقتها فى عزف اللحن من أوله حتى آخره، استطاع كوستيس أن يسترجع شريط حياته كلها، وكان يتعاش فى كل جزء من أجزاء هذه المقطوعة الموسيقية مع ما مر به فى مراحل حياته المختلفة. من الإسكندرية، إلى برلين، من السلام إلى الحرب ثم إلى السلام مرة أخرى. هكذا ببساطة، وكان بإمكان هذه التغيرات التى طرأت على فترات حياته أن تساعد على فهم البناء البسيط لهذه الوحدات الموسيقية التى تعزفها ابنته على البيانو. كل لحن موسيقى، كل إنسان، كل رمز، كل تجربة، كل مغامرة عاطفية، والديه، أخيه، جيهان، عزيزه، كارل، إيفيتس، الخالة ماريا، وآخرين كثيرين، فإلى جانب ابنته، هناك ميس جابى وهايكى - جميعها - تعد نماذج عقلانية. كانت أصابعهم الخفية تتشابك مع أصابعها وتعطى صدى غريباً لعزفها. عاد قلبه مرة أخرى لإيقاعه الطبيعى. وبينما كان

مستلقياً على الأريكة بالصالون، كان وكأنه قد أطفأ مرة واحدة تلك الثريا المضيئة بمجرد أن أغلق عينه. ألقى عليه النوم بشباكه، لكنه كان يسمع دقات قلبه الضعيفة. إستمرت ابنته فى العزف على البيانو لوقت طويل. ثم سمعها وهى تبتعد فى هدوء، وتركته لينام فى الظلام، فى أكثر الأماكن برودة فى المنزل.

استيقظ كوستيس فى الصباح وبداخله ثقة الإنسان الذى فاز بليلة حاملة وسط كل هذا الصراع النفسى، على الرغم من نومه على الأريكة. وكان على يقين من أنه حتى لو كانت الليلة الماضية قد انتهت بطريقة غير مرضية، فلهذه القدرة دائماً على إصلاح ذلك فى اليوم التالى، تلك القدرة التى استمدها من نومه الهادئ جددت ما بداخله من قوة. كانت العصافير المغردة تملأ الدنيا بتغريدها، وهى تتجمع على أغصان شجرة الأكاسيا بالحديقة. فى صباح ذلك اليوم الصحو نما إلى سمعه صوت الفأس وهى تقرب الأرض، حتى ظن كوستيس أنه استيقظ فى أحد أيام العشرينيات، وأن الذى يحرق الأرض هو محمد البستاني وليس ابن أخيه نبيل.

وفى الحقيقة، فلم يكن ذلك اليوم الذى ينذر بصعوبته يعنى بالضرورة أن يكون فى عجلة من أمره. كان السير لوى، كما كانوا يطلقون على الحلاق القبرصى لويروس الذى خلف الحلاق السابق كيكيнос فى تلبية رغبات عليه القوم بالحي اليونانى، ثثاراً ومقامراً. جلس السير لوى فى " كشك الصداقة " وبدأ فى سن أمواس الحلاقة. وعلى الجانب الآخر من المنزل شرعت إيمان وسميرة الخادمتان المصريتان المتزوجتان من رجل واحد يعمل بواباً فى إحدى عمارات الأزارطة، فى الشجار، فإن فاطمة قد تدخلت لتفريق بينهما. كانت الأساور الكثيرة التى يرتدينها تصدر رنيناً عالياً أثناء الشجار، والتى كانت كل واحدة منهما تحاول أن تثير بها الأخرى. كانت أصواتهن، التى تتشابه مع صوت هديل الحمام، تسبب إزعاجاً شديداً، فما كان من ذافنى إلا أن فتحت نافذتها وقامت بنهرهن. ثم سارت الأمور على طبيعتها دون أدنى تغيير: الحلاقة، الشاي، السجائر، ثرثرة سير لوى، كل شىء كان يحظى باهتمامه حتى حان الوقت الذى ارتدى فيه بذلته فاتحة اللون ووضع قبعته على رأسه، ثم أخذ حافظة الأوراق فى

يده وترك من ورائه روائح الحديقة العطرة ومتاعب الحياة اليومية التي لا تنتهى، ثم هم بركوب سيارته الرولنزويس متوجّهاً إلى محرم بك.

استقبله ميسا بالتحية قائلاً (بالفرنسية): «صباح الخير، أيها الرئيس». لقد أصبح ميسا عجوزاً، ضخّم الجثة - وكأنه يشبه سيارته الرولنزويس القديمة. وقد تحول بمرور السنوات إلى عجوز الإسكندرية الشعبية القوي: مرتدياً بذلته، وخاتماً فى إصبعه الصغير، تاركاً أحد أظافره طويلاً. وكان دائم التردد فى المساء على محلات البقالة بالطايرين حيث يعدون بعض الأطعمة الخفيفة والمشهيات ويستقبلون بعض عشاق لعب الطاولة وشرب البيرة.

فتح ميسا الباب للرئيس ثم جلس على المقعد المجاور للسائق. لم يكن السائق الجديد من أبناء البلد، حيث قام كوستيس بتغيير ثلاثة سائقين مصريين أخيراً متشككاً فى أن يكونوا تابعين لبوليس عبدالناصر السرى. ولذلك طلب كوستيس من نيكيتاس أن يرشح له سائقاً يونانياً، على أن لا يكون شبيوعياً، لكى يتقاسم القيادة مع ميسا الذى لم تعد لديه القدرة على القيادة الجيدة مثلما كان فى الماضى. أرسل إليه نيكيتاس شاباً مفتول العضلات ينحدر من جزيرة خيوس باليونان، يدعى بانديليس أرميناكيس، وقد تعلم هذا الشاب العزف على البوق كما تعلم إصلاح الأحذية فى دار كانيسكيريوس للأيتام. كان وجود الضابط السابق بالجيش الأبيض أمراً ضرورياً حتى يبدأ اليوم بداية طيبة، فقد اعتاد ميسا قبل خروجه أن يحظى بتناول الإفطار مع رئيسه فى "كشك الصداقة" حيث كانا يستعيدان، فى تلك الأثناء، ذكريات الأيام الخوالى أيام الحرب الجميلة عندما كانت صحبة الرجال تجتمع معاً لتناول "طعام الإفطار" (ذكرها باللغة الإنجليزية وبونها بحروف يونانية).

فضل كوستيس أن لا يذكر شيئاً عن التأميم، وعندما هم السائق أرميناكيس بالسؤال قاطعه متنحناً، وأجابه بخشونة «هذا لا يعنينا». ثم تحدث ميسا بعد ذلك كالمعتاد عن أيام باريس، ذلك الحديث الذى كان يضعه على قدم المساواة مع رجل صناعة الدخان اليونانى. ولم يتردد أن تتطرق رواياته الحديث عن هايكى، حيث اعتاد

منه كوستيس ذلك دون أن يبدي تدمره أو ضيقه من ذلك، فقد تولد لديه انطباع دائم بأنهم كانوا يتحدثون عن امرأة أثقلته بالأحزان وحطمت كبرياءه بطريقة لم يقدّم بها أحد سواها.

فى تلك الأثناء، كانت السيارة تقطع طريقها المعتاد باتجاه ترعة المحمودية، من خلال المرور، كالمعتاد، عبر شارع راصافا الذى يقع فيه قصر البارون ميناسيه المهجور. وأمام منظر القصر المهجور شعر كوستيس بقلبه وكأنه جنين صغير يركل بقدمه داخل بطن أمه. عندئذ توارى إلى ذهنه عدد هائل من العائلات السكندرية التى ضاعت بمرور السنين، أشباح مخيفة لعدد من النبلاء تهيم فى حدائق المنازل المهجورة، وقد سيطرت كل هذه الأشباح على تفكيره فجأة. وفى لحظات معدودة انهارت كل معانى رباطة الجأش بداخله، فحاول جاهداً أن يقيم جدراً فاصلاً بينه وبين هذا الذعر الغريب.

«لم يكن من الضروري أن تقودنى عبر تلك الشوارع المليئة بالأشباح» هكذا صاح كوستيس بشدة فى سائقه. لم يكن صوته عادياً، ولكن كان له صدى مخيف مما جعل الرجلين اللذين يجلسان فى الأمام يستديران فى دهشة. لن ينسى ميسا أبداً هذا المنظر الذى رآه فى المقعد الخلفى للسيارة، صاح ميسا قائلاً: «أيها الرئيس»، وكأنه كان يبحث عن صديقه القديم فى مكان آخر غير هذا المخلوق الذى يجلس أمامه.

«يا إلهى، انظر أنت أمامك واستمر فى القيادة» هكذا صاح ميسا فى باندليس واستمر فى النظر لهذا الوجه الحزين الذى تجمد وأصبح بلا ملامح، وكأنه تمثال أصم يرتدى رداءً أبيض اللون. «أيها الرئيس» نادى ميسا مرة أخرى. لكن كوستيس لم يعد موجوداً.

لم تكن يده المرفوعة لتحى هذا الجمع من الناس خارج المصنع هى نفس اليد. لم يكن صوته الذى تردد صداه بشكل مخيف، قائلاً: «الأشباح! الأشباح» هو نفس الصوت. كان وكأن ضميره المعذب هو الذى يتذكر تلك الأشباح التى ترتدى الجلابيب البيضاء من المواطنين المصريين من عمال المصنع، وهم يتدافعون فى حديقة المصنع.

وعند البوابة الرئيسية للمصنع كان هناك جنديان مسلحان من الجيش. لهما مظهر مهيب بزيهما العسكري، يحمل البيريه الذى يرتديانه فوق رأسهما ذلك النسر الذى يرمز لعبد الناصر. كانا يسدان المدخل بجسديهما الضخم.

«تأميم!» هكذا صاح أرميناكيس ولم يكن بحاجة لانتظار الضابط المصرى الذى خرج فى تلك اللحظة من البوابة الحديدية الضخمة واتجه نحوه وإلى جواره مدير المصنع الأمريكى الجنسية. كان الضابط رجلاً أسود البشرة، يرتدى قبعة عسكرية، ضخمة الجثة، ذا شارب ضخم، له كفان عريضان كان يستخدمهما وكأنهما مجاديف ليفرق بهما العمال الذين أحاطوا بالسيارة معبرين عن سخطهم. أمسك الضابط فى يده بإعلان التأميم وأسرع لكى يسلمه إلى من يهمه الأمر. أحنى رأسه تجاه نافذة السيارة المفتوحة، وألقى التحية العسكرية، وترك الورقة بلا مبالاة على المقعد الخلفى للسيارة، بون أن يعطى أهمية ليد كوستيس، الباردة الثابتة، ولم يلحظ أنه قد مات منذ لحظات.

المؤلف فى سطور:

ذيميتريس ستيفاناكيس

ولد عام ١٩٦١ بالعاصمة اليونانية أثينا، ودرس الاقتصاد فى جامعة أثينا.
ترجم بعضاً من مؤلفات سول بيلو، وجون أبىداكيس، ومارجريت أندجوت، وج.م.
فورستر، وبروسبير بيريميه.
وتعد رواية "أيام الإسكندرية"، والتي نشرت عام ٢٠٠٧، هى إنتاجه الأدبى الرابع.
من أعماله :

- "ΦΡΟΥΤΑ ΕΠΟΧΗΣ"، فاكهة الموسم". دار نشر أوكيانيدا، أثينا ٢٠٠٠ .
- "ΛΕΓΕ ΜΕ ΚΑΪΡΑ"، لتدعونى كائرا". دار نشر أوكيانيدا، أثينا ٢٠٠٢ .
- "ΤΟ ΜΑΤΙ ΤΗΣ ΕΠΑΝΑΣΤΑΣΗΣ ΕΧΕΙ ΑΧΡΩΜΑΤΟΥΣΙΑ"، عين الثورة تعانى
من عمى الألوان". دار نشر أوكيانيدا، أثينا ٢٠٠٥ .

المترجم فى سطور:

د. محمد خليل رشدى

من مواليد القاهرة عام ١٩٧٢

- حصل على ليسانس الآداب، جامعة القاهرة. قسم الدراسات اليونانية واللاتينية عام ١٩٩٥.
- حصل على درجة الدكتوراه فى الأدب المقارن من كلية الآداب، جامعة أثينا باليونان عام ٢٠٠٢ .
- يعمل منذ عام ٢٠٠٥، مدرسا للدراسات الكلاسيكية بكلية الآداب، جامعة أسيوط.
- شارك فى أعمال الترجمة الفورية، من اليونانية للعربية وبالعكس، فى العديد من المؤتمرات الدولية.
- شارك فى ترجمة كتاب الإسلام عن اللغة اليونانية.

المراجع فى سطور:

أ.د. عادل سعيد النحاس

- أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية المساعد بكلية الآداب - جامعة القاهرة.
- حصل على الدكتوراه فى الأدب اليونانى من كلية الآداب - جامعة القاهرة ، عام ١٩٩٥.
- له عدد من الأبحاث فى مجال الأدب اليونانى منها: الرقص: فن التعبير الحركى وأهميته فى الدراما اليونانية، بين الصداقة والملق، الوضع القانونى للمرأة الأثينية فى ضوء كوميديات مناندرس، الاتجاهات الحديثة فى الدراسات حول الكوميديا الإغريقية الوسطى والحديثة (خلال العقدين الأخيرين)، مظاهر الحب والكراهية بين تكريم باتروكلوس والتنكيل بهيكتور، جمهور مناندرس بين الاستقبال والتوقع .
- شارك فى ترجمة ملحمة "الإلياذة" للشاعر اليونانى هوميروس فى المشروع القومى للترجمة، عام ٢٠٠٤؛ كما شارك فى ترجمة الجزء الثانى من "موسوعة كمبريدج فى النقد الأدبى"، النقد الأدبى فى العصور الوسطى، تحرير أالستير مينيس ويان جونسون، (بالاشتراك مع آخرين)، (المشروع القومى للترجمة)، (تحت الطبع) .
- قام بمراجعة وتحقيق موسوعة ويكيبيديا البريطانية (أوربا القديمة)، مكتبة الشروق، عام ٢٠١٠ .

التصحيح اللغوى : وجيهه فاروق

الإشراف الفنى : حسن كامل

